Wasit University Repository

Wasit University Repository

repository.uowasit.edu.iq

سياسة فرنسا في عهد أسرة ال كابيه 1137 – 1223

The Policy of France During the Reign of the House of Capet (1137 – 1223)

الرفيعي, مشعان حوشان موجد

إشراف: أ.د طالب محيبس حسن الوائلي

جامعة واسط — 2026

https://repository.uowasit.edu.iq/handle/123456789/204

https://doi.org/10.31185/uowasit-48

حُمِّل هذا الملف من مستودع جامعة واسط

Downloaded from the Wasit University Repository — repository.uowasit.edu.iq

وزارة التعليم العالـي والبحث العلمـي
جامعة واسط / كلية التربية للعلوم الانسانـية
التاريخ الحديث / دكتوراه

سياسة فرنسا في عهد أسرة ال كابيه

١١٣٧ – ١٢٢٣

اطروحة تقدم بها الطالب

مشعان حوشان موجد الرفيعي

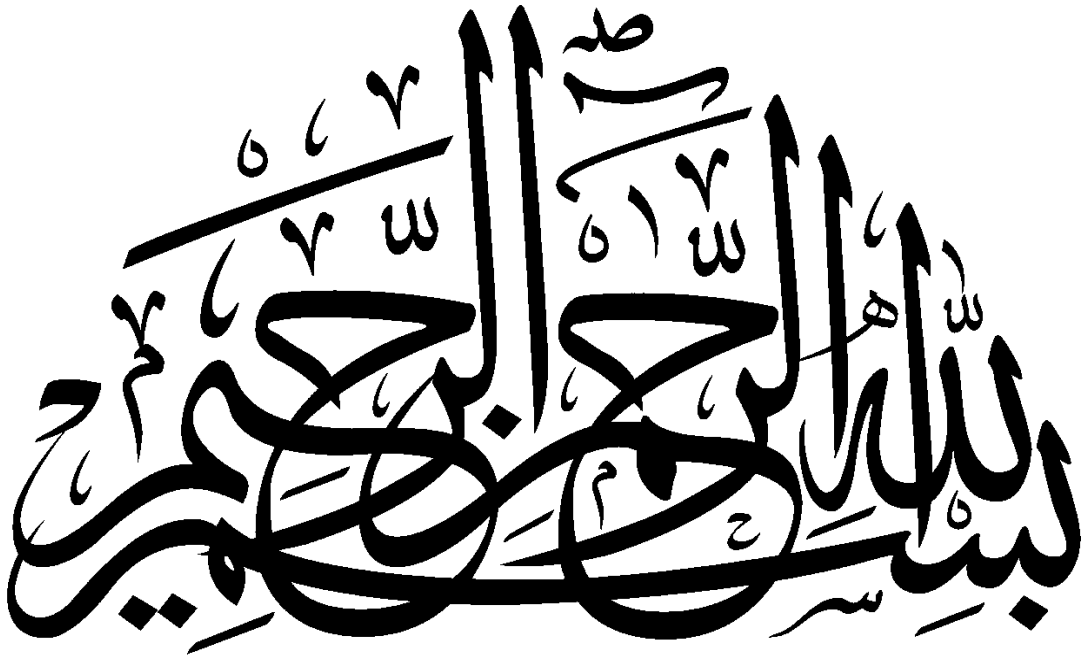
إلى مجلس كلية التربية للعلوم الإنسانية ـ جامعة واسط وهي جزء من متطلبات نيل درجة الدكتوراه فلسفة في التاريخ الحديث

باشراف

الأستاذ الدكتور

طالب محيبس حسن الوائلي

١٤٤٧ هـ **٢٠٢٦ م**



﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

[التوبة: ١٠٥]

إقرار المشرف

أشهد أن إعداد هذه الاطروحة الموسومة : (**سياسة فرنسا في عهد اسرة ال كابية ١١٣٧-١٢٢٣**) للطالب (**مشعان حوشان موجد الرفيعي**) تم تحت اشرافي في كلية التربية للعلوم الانسانية / جامعة واسط، وهي جزء من متطلبات نيل درجة الدكتوراه في التاريخ الحديث .

التوقيع:

الاسم : أ. د. طالب محيبس حسن الوائلي

التاريخ : / / ٢٠٢٦

توصية رئيس القسم

بناء على توصية المشرف أرشح هذه الاطروحة للمناقشة

التوقيع:

الاسم: أ. د. محد حسين علي السويطي

التاريخ: / / ٢٠٢٦

إقرار المقوم اللغوي

أشهد أن هذه الاطروحة الموسومة : **سياسة فرنسا في عهد اسرة ال كابية ١١٣٧– ١٢٢٣)** للطالب (**مشعان حوشان موجد الرفيعي**)، قد جرت مراجعتها من الناحية اللغوية بإشرافي، وأصبحت سليمة من الناحية اللغوية ولأجله وقعت .

التوقيع:

الاسم:

التاريخ: / / ٢٠٢٦

إقرار المقوم العلمي

اطلعت على الاطروحة الموسومة (**سياسة فرنسا في عهد اسرة ال كابية ١١٣٧– ١٢٢٣**) للطالب (**مشعان حوشان موجد الرفيعي**)، وقومتها علمياً فوجدتها صالحة للمناقشة.

التوقيع:

الاسم:

التاريخ: / / ٢٠٢٦

قرار لجنة المناقشة

نشهد أننا اعضاء لجنة المناقشة قد اطلعنا على أطروحة الدكتوراه الموسومة بـ (**سياسة فرنسا في عهد اسرة ال كابية ١١٣٧ – ١٢٢٣**) التي تقدم بها الطالب (**مشعان حوشان موجد الرفيعي**) لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث بتقدير( ) .

التوقيع	**التوقيع**
الاسم : أ. د.	**الاسم: أ. د.**
/ /٢٠٢٦	**/ /٢٠٢٦**
رئيس اللجنة	**عضواً**

التوقيع	**التوقيع**
الاسم: أ. د.	**الاسم: أ. د.**
/ /٢٠٢٦	**/ /٢٠٢٦**
عضواً	**عضواً ومشرفاً**

التوقيع	**التوقيع**
الاسم : أ. د.	**الاسم: أ. د.**
/ /٢٠٢٥	**/ /٢٠٢٥**
عضواً	**عضواً**

صدقها مجلس كلية التربية للعلوم الإنسانية – جامعة واسط

التوقيع

أ. د. محمود حمود عراك القريشي

عميد كلية التربية للعلوم الانسانية- جامعة واسط

/ /٢٠٢٦

الإهـداء

إلى الذين عطروا بدمائهم تربة الوطن شهدائنا الأبرار

إلى روح والدي العزيز

إلى من فتحت بدعائها لي أبواب السماء أمي

إلى شركاء النجاح ورفقاء الحياة... زوجتي وأولادي.

إلى من هم أقرب إلى روحي إخوتي وأخواتي

إلى السائرين في طريق العلم أساتذتي



الباحث

شكر وتقدير

الحمد لله رب العالمين تمام نعمائه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد (ﷺ) وآله الطيبين الطاهرين وصحبه المنتجبين.

لا يسعني وأنا أكاد انتهي من كتابة السطور الأخيرة من هذه الاطروحة، ألا أن أتقدم بوافر الشكر والامتنان وبما يقتضي الاعتزاز والإقرار بالفضل والعرفان لأستاذي الفاضل الاستاذ الدكتور طالب محيبس حسن الوائلي، المشرف على الاطروحة، وقراءاته المتعددة وتوجيهاته القيمة.

وأتقدم بالشكر الجزيل وبالغ الامتنان إلى أساتذتي الأفاضل جميعاً في الهيئة التدريسية لقسم التاريخ في كلية التربية للعلوم الانسانية/ جامعة واسط الذين دأبوا على تقديم النصح والإرشاد لطلبتهم، وأخصّ بالذكر منهم الأستاذ الدكتور رحيم كاظم محمد الهاشمي والأستاذ الدكتور علي خيري الكناني والأستاذ الدكتور حسنين عبد الكاظم عجه والأستاذ الدكتور عباس فرحان ظاهر الموسوي والأستاذ الدكتور عگاب يوسف الركابي، والأستاذ الدكتور فهد البعيجي، والأستاذ الدكتور جواد رضا رزوقي الذين أسهمت أفكارهم وتوجيهاتهم في وضع أُولى خطواتي على طريق البحث العلمي بوصفهم مثالاً للعلم والأمانة والدقة والحرص في بناء شخصيتنا العلمية، ومن واجب العرفان أن أتوجه بمزيدٍ من الشكر والامتنان إلى رئيس قسم التأريخ الأستاذ الدكتور محد حسين علي السويطي ومقرر الدراسات العليا في قسم التاريخ، الدكتور كريم أحمد حامي السعدون وموظفي سكرتارية ومكتبة قسم التاريخ الموقر، عرفاناً بعملهم الدؤوب ولكل الاساتذة والأخوة في قسم التاريخ الذين أسهموا في تسهيل مهمة إنجاز هذه الاطروحة.

الباحث

المحتويات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	١- ٨
التمهيد **التطورات السياسية في فرنسا خلال عهد أسرة ال كابيه ٩٨٧- ١١٣٧**	٩- ٨٢
أولاً . سياسة فرنسا في عهد آل كابية الأوائل ٩٨٧ – ١١٠٨	٩ -٥٢
١. هيو الاول كابيه (٩٨٧-٩٩٦).	٩- ٢٤
٢. روبرت الثاني (التقي) (٩٩٦-١٠٣١).	٢٥- ٣٠
٣. هنرى الأول (١٠٣١- ١٠٦٠)	٣٠ - ٣٦
٤. فيليب الأول (١٠٦٠ - ١١٠٨)	٣٦- ٥٢
ثانياً. النشأة والسنوات المبكرة للويس السابع قبل ارتقاء العرش الفرنسي١١٢٠-١١٣٧ :	٥٣-٨٢
١. لويس السادس (١١٠٨- ١١٣٧).	٥٣- ٦٤
٢. ولادة لويس السابع ومراحل إعداده للحكم.	٦٥- ٧٠
٣. زواجه من دوقة أكيتاين ١١٣٧ وتداعياته السياسية على عرش فرنسا.	٧٠ - ٨٢
الفصل الأول **سياسة فرنسا الداخلية في عهد الملك لويس السابع ١١٣٧- ١١٨٠**	٨٣- ١٣٧
أولاً. لويس السابع ملكاً على فرنسا ودوره في الأحداث (١١٣٧- ١١٤٥):	٨٣- ١٠٢
١. تتويج لويس السابع ملكاً لفرنسا في عام ١١٣٧	٨٣- ٨٧
٢. المشاكل التي تعرض لها الملك لويس السابع في المدة (١١٣٧-١١٤٥)	٨٧- ١٠٢
ثانياً. سياسة لويس السابع بعد عودته من الحملة الصليبية الثانية ١١٤٩-١١٨٠:	١٠٣- ١٢١
١. أوضاع فرنسا الداخلية بعد عودة الملك لويس إليها	١٠٣- ١١١
٢. طلاق الملك اليانور وعودتها إلى مقاطعاتها في الجنوب	١١٢- ١١٤

٣. سياسة لويس السابع تجاه اليهود	١١٤- ١١٥
٤. وفاة الملك لويس السابع وتنصيب فيليب اغسطس ملكاً على فرنسا	١١٦- ١٢١
ثالثاً : المنجـزات الحضـارية والسياسية في عهد الملك لويس السابع.	-١٢٢
أ- الحياة الثقافة	١٢٢- ١٢٤
ب- العمارة	١٢٥- ١٢٨
ت- النحت والرسم	١٢٨- ١٢٩
ث- المدارس والادب	١٣٠- ١٣١
ج-الفكر اللاهوتي	١٣١- ١٣٢
ح- الإدارة الحكومية	١٣٢- ١٣٧
١- البلاط الملكي :	١٣٣- ١٣٤
٢- باريس مركز السلطة :	١٣٤- ١٣٤
٣- إصلاحات لويس السابع ضد وراثة المناصب الإدارية:	١٣٤- ١٣٥
٤- اصلاحات لويس السابع الخاصة بالأقنان:	١٣٥- ١٣٦
٥- سياسة الملك لويس السابع في تأسيس المدن الجديدة:	١٣٦- ١٣٧
الفصل الثاني **سياسة فرنسا الخارجيـة في عهد الملك لويس السابـــع ١١٤٥- ١١٧٨**	١٣٨- ٢١٨
أولاً. نشـاط الملك لويـس السابـع فـي الحملـة الصـليبية الثانيـة حـتى عودتـه إلى فرنسا ١١٤٥ – ١١٤٩:	١٣٨- ١٨٠
١. وصول خبر سقوط الرها للغرب الاوروبي واستجابة الملك لويس السابع	١٣٨- ١٤٨
٢. نشاط الملك لويس السابع وزوجته اليانور في الإعداد للحملة الصليبية الثانية	١٤٨- ١٥٥
٣. دور الملك لويس السابع في الحملة الصليبية الثانية ونتائج ذلك ١١٤٧ – ١١٤٩	١٥٥- ١٧٧
٤.عودة لويس السابع إلى فرنسا والمخاطر التي واجهها	١٧٨- ١٨٠

ثانياً. بداية الصراع بين الملكين لويس السابع و هنري الثاني ١١٥٢ – ١١٦٢:	١٨١ –١٩٦
١. زواج الملكة اليانور من الملك هنري الثاني وتداعياته	١٨١ –١٩١
٢. الصراع حول دوقية تولوز ونتائجها ١١٥٩ – ١١٦٢	١٩١ –١٩٦
ثالثاً . الصراع بين الملكين لويس السابع و هنري الثاني ١١٦٢ – ١١٧٩:	١٩٧–
١. توتر العلاقة بين هنري الثاني ورئيس أساقفة كانتربري توماس بيكيت حتى مقتله ، ودور الملك لويس السابع في تلك الأحداث بين عامي ١١٦٢ – ١١٧٣	١٩٧ –٢٠٤
٢. الصراع الداخلي في انكلترا ودور الملك لويس السابع فيه ١١٧٣ – ١١٧٨	٢٠٤ –٢١٨
الفصل الثالث **سياسة فرنسا الداخلية في عهد الملك فليب الثاني أغسطس ١١٨٠- ١٢٢٣**	٢١٩ –٢٩٧
أولاً .سياسة الملك فيليب اغسطس الداخلية ودوره في الأحداث من عام ١١٨٠- ١٢١٩:	٢١٩ –٢٦٠
١.أحوال اليهود في فرنسا خلال حكم الملك فيليب أغسطس ١١٨٠ – ١٢١٩	٢١٩ –٢٢٧
٢.صراع الملك فيليب أغسطس مع الكونتات وحكام المقاطعات المجاورة ١١٨٠– ١١٨٩	٢٢٨ –٢٦٠
أ– حروب الملك فيليب أغسطس ضد أمراء شامباني وكونت الفلاندرز ودوق بورغوندي	٢٢٨ –٢٤٣
ب– التدخل الفرنسي في الأزمات الداخلية الإنكليزية وانعكاساتها السياسية	٢٤٣ –٢٦٠
ثانياً. سياسة الملك فيليب أغسطس تجاه الهرطقة الألبيجنسية (الكاثار) ١٢٠٩- ١٢١٨:	٢٦١ –٢٨٢
١. الوضع السياسي والديني في جنوب فرنسا مقاطقة (لانغدوك)	٢٦١ –٢٦٥
٢. اندلاع الحرب الألبيجنسية ودور الملك فيليب أغسطس في توسيع النفوذ الملكي	٢٦٦ –٢٧٩
٣. وفاة الملك فيليب أغسطس ١٢٢٣	٢٨٠ –٢٨٢
ثالثاً. المنجزات السياسة و الحضارية في عهد الملك فيليب أغسطس:	٢٨٣ –٢٩٧
١. توسيع النطاق الملكي	٢٨٣ –٢٨٤

٢. سياسة الملك فيلب اغسطس تجاه الكنيسة ورجال الدين	٢٨٤- ٢٨٧
٣. سياسة الملك فيلب اغسطس تجاه الفلاحين والاقنان	٢٨٧- ٢٨٨
٤. سياسة الملك فيلب اغسطس تجاه الطبقة البرجوازية	٢٨٩-٢٩٠
٥. سياسة الملك فيلب اغسطس الإدارية والقضائية	٢٩٠- ٢٩١
٦. سياسة الملك فيلب اغسطس المالية	٢٩١- ٢٩٢
٧. سياسة الملك فيلب اغسطس العسكرية	٢٩٢- ٢٩٣
٨. سياسة الملك فيلب الاجتماعية والثقافية	٢٩٣- ٢٩٧
أ. المستشفيات:	٢٩٣-٢٩٤
ب. التعليم والأدب والمدارس:	٢٩٤- ٢٩٥
ت. جامعة باريس:	٢٩٦-٢٩٧
الفصل الرابع **سياسة فرنسا الخارجية في عهد الملك فيليب أغسطس ١١٨٩ - ١٢١٧**	-٢٩٨
أولاً. بداية الصراع بين الملك فيليب أغسطس والملك ريتشارد ملك انكلترا خلال الحملة الصليبية الثالثة ١١٨٩- ١١٩١:	٢٩٨- ٣٢٢
١. أوضاع الشرق الإسلامي قبيل الحملة الصليبية الثالثة	٢٩٨-٣٠١
٢. أشتراك الملك فيليب أغسطس في الحملة الصليبية الثالثة ١١٨٩ -١١٩١	٣٠١- ٣١٨
٣.عودة الملك فيليب أغسطس إلى فرنسا وأثرة على مصير الحملة الصليبية الثالثة	٣١٩- ٣٢٢
ثانياً. الصراع بين الملكين فيليب أغسطس والملك ريتشارد ١١٩٢- ١١٩٩:	٣٢٣- ٣٤٥
١. أسر الملك ريتشارد وخسارة بعض أراضيه لصالح الملك فيليب أغسطس بين ١١٩٢- ١١٩٤	٣٢٣- ٣٣٥
٢.عودة ريتشارد وصراعه مع فيليب لأسترداد أملاكة ١١٩٤- ١١٩٩	٣٣٥- ٣٤٥
ثالثاً. الصراع السياسي والعسكري بين فرنسا وانكلترا من تولى جون العرش حتى معاهدة لامبيث ١١٩٩- ١٢١٧:	-٣٤٦

١.سياسة الملك فيليب أغسطس تجاه الملك جون من عام ١٩٩٩ – ١٢٠٥	٣٤٦- ٣٦٩
٢.محاولة الملك جون استرداد بعض أملاكه في فرنسا ١٢٠٦- ١٢١٤	٣٦٩-٣٧٨
٣.الصراع الفرنسي الإنكليزي من معركة بوفين ١٢١٤ حتى معاهدة لامبيث ١٢١٧	٣٧٩-
أ-انتصار الأمير لويس بن فيليب أغسطس على الملك جون في لاروش أو موان ١٢١٤	٣٧٩- ٣٨٤
ب-انتصار الملك فيليب أغسطس على الامبراطور الأماني أوتوا وحلفائه في معركة بوفين ١٢١٤	٣٨٤-٣٩٠
ت-محاولات الملك فيليب أغسطس الاستيلاء على التاج الإنكليزي فيما بين ١٢١٥- ١٢١٧	٣٩٠-٣٩٤
الخاتمة	٣٩٥- ٤٠١
ثبت الملاحق	٤٠٢- ٤٠٦
ثبت المصادر	٤٠٧- ٤٤٣
الملخص باللغة الإنكليزية	A – C

قائمة المختصرات

الرمز	المدلول
.R. H. G. F	مجموعة مؤرخي بلاد الغال وفرنسا
H.G.L	تاريخ عام منطقة لانغدوك
مج	مجلد
د. ت	دون تاريخ الطبع
P.	الصفحة (باللغة الإنكليزية)
Op. Cit.	المصدر السابق (باللغة الإنكليزية)
Ibid	المصدر نفسه (باللغة الإنكليزية)
Vol.	الجزء (باللغة الإنكليزية)
D.N	دون تاريخ الطبع (باللغة الإنكليزية)

المقدمة

المقدمة : نطاق البحث وتحليل المصادر

تُشكل الحقبة التاريخية الممتدة من اعتلاء لويس السابع العرش عام ١١٣٧ وحتى وفاة ابنه فيليب الثاني أغسطس عام ١٢٢٣ منعطفاً مفصلياً في تاريخ أوروبا الإقطاعية عامة، وتاريخ المملكة الفرنسية بصفة خاصة، ولفهم عمق التحولات في تلك المرحلة لا بد من العودة إلى الجذور التي أرستها معاهدة فردان عام ٨٤٣ التي قسمت إرث شارلمان وأدت لظهور نواتي فرنسا وألمانيا، وما تبع ذلك من ضعف السلطة الكارولنجية تحت وطأة الفوضى وهجمات الفايكنج في القرنين التاسع والعاشر، في خضم تلك الاضطرابات، برز الدوقات والكونتات كحماة فعليين للأرض، مما مهد لصعود هيو كابيه عام ٩٨٧ وتأسيس الأسرة الكابيه، التي ورثت عرشاً مثقلاً بالتحديات، إذ لم تكن فرنسا سوى مجموعة من الدويلات الإقطاعية المتنافرة، وكان الملك فيها لا يملك سلطة فعلية تتجاوز نطاقه الملكي المحدود(العاصمة باريس وضواحيها)، محاصراً بقوى إقليمية كبرى مثل نورماندي، وأكيتاين، وفلاندرز، التي كان حكامها يدينون له بولاء إقطاعي نظري فقط.

تكتسب هذه الدراسة أهميتها المحورية من تسليط الضوء على الكيفية التي استطاعت بها الملكية الفرنسية، عبر عهدي لويس السابع وفيليب أغسطس، الخروج من المأزق الجيوسياسي؛ فمع بداية عهد لويس السابع (١١٣٧-١١٨٠)، الذي وصل إلى الحكم بمحض الصدفة بعد وفاة شقيقه الأكبر، وجد الملك الشاب ذي التنشئة الدينية والنزعة الرهبانية نفسه في مواجهة معترك سياسي مضطرب، وعلى الرغم من زواجه الاستراتيجي من اليانور دي أكيتاين الذي ضاعف مساحة مملكته نظرياً، إلا أن فشل الحملة الصليبية الثانية (١١٤٧ – ١١٤٩) وما رافقها من توترات، أدى إلى الطلاق عام ١١٥٢، هذا الانفصال لم يكن مجرد حدث عائلي، بل تحولاً جيوسياسياً نقل ولاء دوقية أكيتاين الشاسعة إلى هنري الثاني بلانتاجنت، ملك إنكلترا ، مما أدى لظهور "الإمبراطورية الأنجوية" التي طوقت الملكية الفرنسية من الغرب والشمال، وجعلت من أملاك ملك إنكلترا داخل فرنسا تفوق أملاك الملك الفرنسي نفسه.

أمام ذلك الاختلال الهائل في موازين القوى، اعتمد لويس السابع الثبات المُتَبَصِّر والقوة الناعمة؛ فاستثمر في الشرعية الدينية والتحالف مع الكنيسة والبابوية لتعويض ضعفه العسكري، واتبع دبلوماسية الصبر من خلال دعم المتمردين ضد هنري الثاني، وتوثيق عرى التحالف مع آل شامبانيا، والتدخل الهادئ في الجنوب الفرنسي، لقد نجح لويس السابع، على الرغم من وصفه بالضعف أحياناً، في الحفاظ على بقاء المملكة في ظل التحديات الجسام، مُرسياً دعائم الحكم الملكية التي مهدت الطريق لخليفته.

وجاء عهد فيليب الثاني أغسطس (١١٨٠-١٢٢٣) ليحصد ثمار صبر والده ويُحدث الانقلاب الأكبر في تاريخ الملكية، اذ تميز فيليب بالدهاء السياسي والحزم العسكري، مستغلاً الخلافات داخل البيت الأنجوي بين هنري الثاني وأبنائه (ريتشارد وجون). وتُوجت جهوده بانتصارات عسكرية حاسمة، أبرزها معركة بوفين الخالدة عام ١٢١٤ ، التي كسرت شوكة

التحالفات المعادية ومكّنته من استعادة نورماندي وأنجو وماين، مضاعفاً مساحة النطاق الملكي أربع مرات؛ ولم يكتفِ فيليب بالانتصارات العسكرية، بل كان مهندس الدولة الأول، حيث نقل الملكية من مفهوم السيادة الإقطاعية القائم على الولاءات الشخصية إلى مفهوم السيادة المطلقة، حيث أحدث ثورة إدارية شاملة؛ فأنشأ الجهاز القضائي والمالي المركزي، وعيّن الموظفين الملكيين لإدارة الأقاليم، وأسس الأرشيف الوطني لتدوين حقوق التاج، كما حصن باريس جاعلاً منها عاصمة حقيقية، وبذلك فإن تاريخ فرنسا في تلك الحقبة ليس مجرد سرد لسير الملوك، بل هو قصة ولادة الدولة المركزية من رحم الفوضى الإقطاعية، حيث تحول الملك من مجرد سيد أول بين أنداد إلى صاحب السلطة العليا التي لا تُنازع، منهياً بذلك قروناً من الضعف ومؤسساً لفرنسا القوية التي هيمنت على المشهد الأوروبي في القرون اللاحقة.

ومن هنا جاء اختياري لدراسة سياسة فرنسا موضوعاً لدراستي التي جاء عنوانها **"سياسة فرنسا في عهد اسرة آل كابيه ١١٣٧-١٢٢٣"** ، ولا شك أن تناول هذا الموضوع بفرضية مسبقة ذات محاور لإثباتها أو دحضها كليًا أو جزئيًا سيقود الدراسة إلى منهج علمي يُفضي إلى إجابات علمية مدعومة بالأدلة حول الموضوع وجوانبه.

أما بالنسبة لحدود الموضوع الزمنية فهي تشغل المدة الممتدة من عام ١١٣٧ حتى عام ١٢٢٣ أي ستة وثمانون عاماً، وهي المدة التي حكم فيها كل من لويس السابع وفيليب أغسطس بصورة فعلية.

بدأت دراستي بفرضية موضوع الدراسة التي تمحورت حول الحقبة الممتدة من ١١٣٧ إلى ١٢٢٣، والتي أحدثت انقلاباً جذرياً في فلسفة الحكم وبنية المؤسسة الملكية في فرنسا. تفترض الدراسة أن التحدي الوجودي الذي شكله صعود الإمبراطورية الأنجوية وحصارها للملكية الكابيه، لم يكن عاملاً للهدم، بل كان المحفز الرئيس الذي دفع ملوك فرنسا لتبني استراتيجيات متدرجة؛ بدأت بـ "المناورة والصمود" والتحالف مع الكنيسة لتعويض الضعف المادي في عهد لويس السابع، وتطورت إلى الهجوم والمركزية في عهد فيليب الثاني أغسطس. وتجادل الفرضية بأن حالة التدافع هذهِ هي التي فككت تدريجياً البنية الإقطاعية التقليدية القائمة على الولاء الشخصي، واستبدلتها بمفهوم السيادة المطلقة للدولة، مما حول الملك من مجرد سيد إقطاعي إلى رأس دولة مركزية تديرها مؤسسات بيروقراطية وقضائية ثابتة، وفي إطار تحليل تلك الفرضية والتثبت من محاورها، حرصت على وضع تساؤلات مهمه والإجابة عنها بشكل يوضح محاور فرضية دراستي نقضاً أو إثباتاً، ومنها:

- ما التبعات الجيوسياسية للطلاق الكارثي بين لويس السابع واليانور أكيتاين عام ١١٥٢؟ وكيف أدى انتقال ولاء دوقية أكيتاين إلى هنري الثاني بلانتاجنت إلى قلب موازين القوى في أوروبا الغربية وخلق الإمبراطورية الأنجوية؟
- كيف وظّف لويس السابع الشرعية الدينية والتحالف مع الكنيسة والبابوية أداة سياسية لتعويض العجز العسكري أمام القوة الإنكليزية المتصاعدة؟ وهل كان لجوؤه للكنيسة خياراً عقائدياً محضاً أم تكتيكاً براغماتياً للبقاء؟

- إلى أي مدى نجحت سياسة الصمود الاستراتيجي، ودعم المتمردين داخل البيت الأنجوي، التي انتهجها لويس السابع في حماية النطاق الملكي من الاندثار؟ وهل يصح وصف مدة حكمه بالضعف السياسي أم أنها كانت مرحلة تأسيس صامت للقوة؟
- إلى أي مدى أسهمت الدبلوماسية البابوية في ضبط ميزان القوى بين الملكية الفرنسية وخصومها الإقليميين خلال المدة (١١٣٧-١٢٢٣)، وكيف أثرت تدخلات الكرسي الرسولي في منع هيمنة طرف سياسي على الآخر في أوروبا الغربية؟
- ما الدور الذي ادته دبلوماسية الصبر والتحالفات الإقليمية (مثل التحالف مع آل شامبانيا) في تهيئة الأرضية السياسية التي انطلق منها فيليب أغسطس؟
- كيف استثمر فيليب أغسطس الخلافات الأسرية بين هنري الثاني وأبنائه (ريتشارد وجون) لتقويض الإمبراطورية الأنجوية من الداخل؟ وما هي الأدوات الدبلوماسية والعسكرية التي استخدمها في هذا الصراع؟
- ما الأهمية الاستراتيجية لمعركة بوفين عام ١٢١٤؟ وكيف شكلت تلك المعركة نقطة اللاعودة في انهيار التحالفات المعادية لفرنسا وتكريس الهيمنة الفرنسية على المشهد الأوروبي؟
- كيف أثر استرداد نورماندي وأنجو وماين على الاقتصاد الملكي وهيبة التاج الفرنسي؟ وما هي الآليات التي اتبعها فيليب لدمج هذه الأقاليم المتمردة سابقاً تحت سلطة التاج المباشرة؟
- ما طبيعة الثورة الإدارية التي قادها فيليب أغسطس؟ وكيف أسهم استحداث مناصب (القضاة الملكيين والضباط الملكيين) في سحب البساط من تحت أقدام الإقطاعيين المحليين وربط الأقاليم بالعاصمة؟
- كيف تحولت باريس في هذه الحقبة من مجرد مقر إقامة للملك إلى عاصمة سياسية وإدارية محصنة؟ وما دلالات تدوين حقوق التاج في ترسيخ مفهوم الدولة بدلاً من الإقطاعية؟
- إلى أي مدى نجح فيليب أغسطس في تغيير المفهوم الأيديولوجي للملكية الفرنسية، من ملك يحكم بحكم التبعية الإقطاعية إلى ملك يمارس السيادة المطلقة ؟ وما انعكاسات ذلك على مستقبل فرنسا بوصفها قوةً عظمى؟

ولا شك أن الفرضية المذكورة ومحاورها دعتني إلى الابتعاد عن النمط السردي التقليدي لسير الملوك، والعمل على التحليل والمقارنة، من خلال تتبع تطور مؤسسة الحكم، وكيفية إدارتها للأزمات الخارجية والداخلية، وتأثير ذلك على ولادة الدولة المركزية، وفهم كيف استطاع العقل السياسي الفرنسي تحويل التهديد الخارجي المتمثل في الإمبراطورية الأنجوية إلى فرصة تاريخية لتوحيد فرنسا تحت راية واحدة.

استناداً إلى مقتضيات البحث وطبيعة المادة العلمية المتاحة، انتظمت هيكلية هذه الدراسة في تمهيد وأربعة فصول مترابطة؛ حيث اختص الفصل الأول بدراسة **" سياسة فرنسا الداخلية في عهد الملك لويس السابع ١١٣٧ ـ ١١٨٠"**، وقد استُهلَ الفصل بتقديم قراءة

تحليلية لنهج أسرة آل كابيه الأوائل والأوضاع السياسية السائدة قبيل اعتلاء لويس السابع العرش، مروراً بحدث زواجه المفصلي من دوقة أكيتان عام ١١٣٧ وما أفرزه من تداعيات، وصولاً إلى توليه مقاليد الحكم والتحديات الجسيمة التي واجهته خلال المدة الأولى من حكمه (١١٣٧-١١٤٤)،كما تتبع الفصل مسار سياسته الداخلية والتحولات التي طرأت على أوضاع فرنسا عقب عودته من الحملة الصليبية الثانية، مسلطاً الضوء على آثار طلاقه من اليانور وسياسته تجاه اليهود، ليُختتم باستعراض خواتيم عصره وتنصيب ابنه فيليب أغسطس، مع رصد شامل لأهم المنجزات الحضارية والسياسية التي ميزت تلك الحقبة.

سلط الفصل الثاني الضوء على" **سياسة فرنسا الخارجية فـي عهد الملك لويس السابع ١١٤٥- ١١٧٨**" مستعرضاً تحولات استراتيجية عميقة ومراحل تاريخية حاسمة، تستهل هذه الحقبة مسارها بتركيز ذي طابع ديني وعسكري، تجلى في الانخراط المباشر في الحملة الصليبية الثانية، حيث أدى الملك لويس السابع وزوجته الملكة اليانور دوراً محورياً في حشد وتجهيز هذه الحملة بين عامي ١١٤٧ و١١٤٩، وعلى الرغم من الجهود الحثيثة، أسفرت الحملة عن نتائج متواضعة أجبرت الملك الفرنسي على العودة أدراجه في رحلة شاقة ومحفوفة بالمخاطر هددت سلامته ومكانته السياسية، ومع عودته إلى فرنسا، ولجت السياسة الفرنسية منعطفاً حاداً اتسم باندلاع صراع مرير مع الملك الإنكليزي هنري الثاني، وهو نزاع بلغ أشده وعصَف بموازين القوى الإقليمية عقب انفصال الملكة اليانور عن لويس وزواجها من هنري،وقد برزت معالم هذا التوتر جلياً في النزاع المسلح للسيطرة على دوقية تولوز وما تمخض عنه من نتائج ميدانية بين عامي ١١٥٩ و١١٦٢،وفي المرحلة اللاحقة، واصل الصراع الأنكلو- فرنسي تصاعده، إذ عمد لويس السابع بذكاء ودهاء سياسي إلى استثمار الأزمات الداخلية لغريمه الإنكليزي؛ فتدخل بفاعلية في النزاع المستفحل بين هنري الثاني ورئيس أساقفة كانتربري توماس بيكيت، لاعباً دوراً مؤثراً في مجريات الأحداث التي انتهت باغتيال الأخير، ولم تقتصر التحركات الفرنسية على هذا الجانب، بل امتدت لتشمل دعم وتأجيج التمرد الداخلي الذي قاده أبناء هنري الثاني ضد أبيهم، حيث وظّف الملك الفرنسي تلك الاضطرابات ببراعة لتوجيه دفة الصراع بما يخدم الأهداف العليا للسياسة الخارجية الفرنسية حتى عام ١١٧٨.

تناول الفصل الثالث " **سياسة فرنسا الداخلية في عهد الملك فليب الثاني أغسطس ١١٨٠- ١٢٢٣**" حيث تستهل ببيان تتويجه ملكاً على فرنسا، ومسلطةً الضوء على دوره المحوري في الأحداث التي جرت بين عامي ١١٨٠ و١٢١٩، وستعرضنا سياساته الداخلية التي انتهجها الملك، بما في ذلك أوضاع اليهود في فرنسا خلال تلك المدة، وسلسلة الصراعات التي خاضها في بداية حكمه (١١٨٠-١١٨٩) ضد الكونتات وحكام الدول المجاورة، وتحديداً حروبه ضد تحالفات أمراء شامباني وكونت الفلاندرز ودوق برجنديا، بالإضافة إلى انخراطه في الصراعات الداخلية في إنكلترا ودوره المؤثر في ذلك الصراع، كما تطرقنا إلى البعد الديني والسياسي في جنوب فرنسا، موضحين سياسته تجاه الهرطقة الألبيجنسية (الكاثار) بين عامي ١٢٠٩ و١٢١٨، وطبيعة الوضع في مقاطعة لانغدوك، وكيف وظّف الملك اندلاع

الحرب الألبيجنسية كأداة لتوسيع النفوذ الملكي وبسط سيطرته جنوباً، وصولاً إلى وفاته عام ١٢٢٣، وختمناه على أهم المنجزات السياسية والحضارية التي ميزت عهده، بدءاً من نجاحه في توسيع النطاق الملكي، ومروراً بتنظيم علاقاته مع مختلف فئات المجتمع؛ حيث بينا سياسته تجاه الكنيسة ورجال الدين، وتعامله مع الفلاحين والأقنان، وانفتاحه على الطبقة البرجوازية الصاعدة، كما تطرقنا إلى أهم إصلاحاته الهيكلية المتمثلة في السياسات الإدارية والقضائية، وتطوير المنظومة المالية والعسكرية للدولة، جنباً إلى جنب مع سياسته الاجتماعية والثقافية التي تجلت في الاهتمام بالمستشفيات، وازدهار التعليم والأدب والمدارس، وبروز جامعة باريس كمنارة علمية في عهده .

تطرق الفصل الرابع**"سياسة فرنسا الخارجية في عهد الملك فيليب أغسطس ١١٨٩ – ١٢١٧"** على بداية الصراع الذي نشب بينه وبين ملك إنكلترا ريتشارد إبان الحملة الصليبية الثالثة (١١٨٩- ١١٩١)، واستهل الفصل بتوضيح أوضاع المشرق الإسلامي قبيل الحملة، ومشاركة الملك فيليب أغسطس فيها، ثم عودته إلى فرنسا وما خلفه ذلك من أثر على مصير الحملة الصليبية الثالثة، كما تم تبيان تطورات الصراع بين الملكين فيليب وريتشارد في المدة ما بين ١١٩٢ و١١٩٩، إذ تطرق النص إلى حادثة أسر الملك ريتشارد عقب عودته من الحملة، وخسارته لبعض أراضيه لصالح الملك فيليب أغسطس بين عامي ١١٩٢ و١١٩٤، وصولاً إلى عودة ريتشارد ومحاولاته المستميتة لاسترداد أملاكه حتى عام ١١٩٩، وانتقلنا بعد ذلك لمناقشة الصراع السياسي والعسكري بين فرنسا وإنكلترا منذ تولي الملك جون العرش وحتى إبرام معاهدة لامبيث (١١٩٩- ١٢١٧)، وفي هذا السياق، تم استعراض سياسة فيليب أغسطس تجاه الملك جون في المدة (١١٩٩ – ١٢٠٥)، ومحاولات الأخير استعادة بعض أملاكه في فرنسا ما بين ١٢٠٦ و١٢١٤، وختمنا الفصل بتفاصيل الصراع الفرنسي الإنكليزي بدءاً من معركة بوفين عام ١٢١٤ وصولاً إلى معاهدة لامبيث عام ١٢١٧، مسلطاً الضوء على انتصار الأمير لويس بن فيليب أغسطس على الملك جون في موقعة "لاروش أو موان"، والانتصار الحاسم للملك فيليب أغسطس على الإمبراطور الألماني أوتو وحلفائه في معركة بوفين، وأخيراً محاولات فيليب السيطرة على التاج الإنكليزي في المدة الواقعة بين ١٢١٥ و١٢١٧.

خلصت الدراسة في نهايتها إلى استقراء شامل لكافة أبعاد الموضوع، متوجةً ذلك بتقييم تحليلي لطبيعة السياسة الفرنسية إبان حقبتي الملك لويس السابع والملك فيليب أغسطس، مع تسليط الضوء على مخرجات تلك السياسة وانعكاساتها المباشرة على المستويين الداخلي والخارجي.

ولأن موضوع الدراسة خاص بفرنسا، فقد سعيتُ إلى جمع أكبر قدر ممكن من المصادر، الفرنسية والإنكليزية واللاتينية وغيرها، وركّزتُ على نقد النصوص وتحليلها، ومقارنة آراء الأطراف المختلفة، والحرص على اختيار الأكثر اعتدالاً والأقرب إلى الحقيقة، تجنّباً للتأثر بوجهة نظر طرف واحد، وأمدّتني بعض المصادر الأكاديمية بمعلومات، اتسم بعضها بالموضوعية، مما مكّنني، بعد استقرائها، من اعتمادها معياراً بين مختلف المصادر، إلا أن

تقييمي للمصادر التي اعتمدتُ عليها، ومن الصعوبة أن يكتب أحدٌ عن علاقة شائكة، من دون أن يميل، عمداً أو سهواً، إلى ذلك الطرف أو ذاك، أو الشخصية أو تلك.

وفرت المصادر الفرنسية مادة علمية غزيرة غطت جوانب السياسة الفرنسية بشقيها الداخلي والخارجي، وقد اتسمت هذهِ المصادر بتباين في الطرح كشف عن الحيوية الفكرية التي يتمتع بها المؤرخون الفرنسيون، وابتعادهم عن التكرار والمحاكاة في سرد الأحداث؛ مما جعلهم الأقدر على بلورة وجهة النظر الفرنسية بدقة، وهذا التنوع كان دافعاً رئيساً لاتباع منهجية تقوم على التحليل والمقارنة والاستنباط، ويبرز من بين تلك المصادر المهمه كتاب المؤرخة (Elizabeth M. Hallam) الموسوم بـ (Capetian France 987-1328) كأحد الركائز الأساسية التي استند إليها ؛ إذ قدّم إسهاماً معرفياً بالغ الأهمية عبر تتبع جذور الأسرة الكابيه ونشأتها، موفراً تغطية تفصيلية دقيقة لحقب الملوك الأوائل وما تخللها من أحداث مفصلية شكّلت ملامح تلك المرحلة التاريخية.

وكتاب المؤرخ(Achille Locher) الذي حمل عنوان (Philippe Auguste et son temps) والذي زودني بمعلومات هامة عن بداية تأسيس الدولة المركزية في فرنسا وأهم التحولات الإدارية التي أحدثها فيليب أغسطس لتقليص نفوذ الإقطاعيين، ومحاولته إصلاح النظام المالي بالقوة .

وزودني المؤرخ (Jean Fleury) في كتابة الموسوم (Philippe Auguste) الذي تناول الصراع الفرنسي- الإنكليزي ودور التحالفات العسكرية، والتطرق لطموح فيليب في استعادة الممتلكات الإنكليزية في فرنسا وما نتج عنها من أحداث، واختياره لاستراتيجية الحصار بدلاً من المواجهة المباشرة في بعض المعارك، ونتائج ذلك على تماسك الجبهة الداخلية .

وافدنا من كتاب (Philippe Auguste) للمؤرخ (Jean Fleury) بمعلومات انفرد بها كتفاصيل مشاركة فيليب في الحملة الصليبية الثالثة ومغادرته المبكرة، بخلاف المصادر الأخرى التي أجمعت على الرواية الشائعة، الأمر الذي أذكى الجدل التاريخي حول دوافعه الحقيقية.

وفي كتاب ذي العنوان(Louis VII 1137-1180) للمؤرخ (JoubryIvan) إذ يعد من المصادر الأساسية التي اعتمدت عليها الدراسة للعودة إلى جذور الصراع، فقد اطلعت على تفاصيل غاية في الأهمية تتعلق بجوانب حياة لويس السابع وعلاقته المعقدة مع اليانور اكيتيان، والحوار الذي دار بينه وبين الكنيسة، وكيف مهدت سياساته الطريق لابنه فيليب أغسطس، كما ينفرد بعرض الشروط التي كانت تحكم العلاقة بين التاج الفرنسي والبابوية في تلك الحقبة.

وفيما يخص المصادر المكتوبة باللغة الإنكليزية، فقد شكلت رافداً مهماً أضاء جوانب عميقة من التداخل السياسي والأسري المعقد بين العرشين الفرنسي والإنكليزي، ويبرز في طليعتها كتاب الباحثة (Alison Weir) الموسوم بـ (Eleanor of Aquitaine: By the Wrath of God, Queen of England)، والذي زودني بمادة تحليلية بالغة الأهمية حول شخصية اليانور أكيتاين ودورها المحوري والمؤثر في توجيه دفة الصراع بين الكابيين

والبلانتاجنت، وقد أسهم هذا المصدر في تفكيك تعقيدات علاقاتها السياسية والزوجية، وانعكاسات ذلك التأثير المباشر على رسم الخرائط التحالفية والسياسية في أوروبا خلال تلك الحقبة.

أما على صعيد المصادر اللاتينية، والتي اتسمت بطابعها الوثائقي الأصيل الذي لا غنى عنه في تأصيل الرواية التاريخية وضبط توازنها، فيبرز بشكل جلي كتاب الحوليات (Collection des Historiens de Gaule et de France - R.H.G.F) المجلد الثامن عشر، إذ يُعد هذا السفر الوثائقي من الركائز الأساسية التي أمدتني بتسلسل زمني دقيق وحقائق مجردة حول مجريات الأحداث؛ مما أسهم في مقاطعة الروايات الفرنسية والإنكليزية ومقارنتها، والوقوف على التفاصيل الدقيقة التي دونت بنظرة معاصرة للأحداث بعيداً عن التأويلات اللاحقة.

وكان للمصادر الأكاديمية أثرٌ في استجلاء كثير من خفايا سياسة فرنسا في حقبة الدراسة، منها رسالة للباحثة (سعاد علاوي حميس) المعنونة (اليانور دوقة أكيتاين حياتها ونشاطها السياسي والعسكري ١١٢٤ – ١٢٠٤) معطيات هامة بشأن علاقة الدوقة بالملك لويس السابع، مستعرضةً مراحل تلك العلاقة من الزواج وتبعاته السياسية والنفسية، وصولاً إلى الطلاق وانعكاساته المباشرة على الملك لويس السابع، وعلى صعيد متصل، تناولت رسالة الباحث (منير نصيف جاسم) المعنونة (ريتشارد الأول ملك إنگلترا ونشاطه السياسي والعسكري حتى ١١٩٩) صراع الملك لويس السابع مع الملك هنري الثاني، وتتبعت بدايات النزاع بين الملك فيليب أغسطس والملك ريتشارد، منذ الحملة الصليبية الثالثة وحتى عودة الأخير من الأسر وانطلاق الجولة الثانية من الصراع التي مالت كفتها لصالح ريتشارد، وفي الإطار ذاته، ناقشت رسالة الباحث (محمد حليم سالم) المعنونة (الصراع الإنگليزي - الفرنسي في عهد المَلِك جون الأول (١١٩٩-١٢١٦) قضايا جوهرية، أبرزها ثورة الأشبال الأولى ودور لويس السابع فيها، ودور فيليب أغسطس في مرحلتها الثانية، فضلاً عن تآمر جون مع فيليب ضد ريتشارد ملك إنكلترا، وخسارة جون لأراضيه لا سيما نورمندي لصالح فيليب أغسطس، وهزيمته أمام الأمير لويس بن فيليب قبيل معركة بوفين، وأخيراً، سلطت رسالة الباحثة (موج سلام قلم)، المعنونة (المؤامرات والتمردات المضادة لعرش إنكلترا ١٠٦٧- ١٢٦٧) الضوء على دعم لويس السابع للملك ستيفن ضد ماتيلدا ومن بعدها ولدها هنري الثاني، ودوره في ثورة الأشبال الأولى، بالإضافة إلى التطرق لصراع فيليب أغسطس مع ريتشارد ملك إنكلترا وتحريض شقيقه الأمير جون على التمرد عليه.

ألقت المصادر والدراسات العربية والمعربة الضوء على بعض جوانب دراستنا وأخص بالذكر رحلة لويس السابع إلى الشرق للكاتب أودو أوف دويل ترجمة الأستاذ الدكتور سهيل زكار وهو مؤرخ الحملة الصليبية الثانية، ومرافق الملك لويس السابع الحملة، وقد أفرد مؤلفه في الحديث عن الحملة الصليبية الثانية ؛ كذلك من المصادر المهمة التي ساعدت في إلقاء أضواء جديدة فيما يخص الدراسة كتاب (تواريخ أسرة بلانتغنت) لمؤلفة سهيل زكار وهو كتاب يعدَ من أشمل الكتب التي تمد دارسي العصر الوسيط بمعلومات قل وجودها في أي

كتاب آخر، ومن المصادر المعربة كتاب موسوعة تاريخ العالم للكاتب وليام لانجر والذي ترجمة مصطفى زيادة، تحدث في كتابة عن حركة التيارات الحضارية في العصر الوسيط ، كما أشار إلى الحروب الصليبية وتاريخ العصر الوسيط وملوكها.

ومن الدراسات المهمة بحثي الأستاذ الدكتور حسنين عبد الكاظم عجه ذي العنوان **"معركة بوفين أسبابها وقائعها ونتائجها"** الذي تضمن طرحاً وافياً عن عن تفاصيل المعركة ودور الملك فيليب وأهم نتائجها على الجانبي الفرنسي والانكليزي ، و**"سنوات الفوضى في إنكلترا بين صراع الغرباء ومصائب الإنكليز الحرب الأهلية الإنكليزية"** الذي استعرض جوانب مهمة في مرحلة الصراع ودورالملك لويس السابع في ذلك الصراع.

لقد حرصتُ جاهداً على الالتزام بأسلوب كتابة محدد، على أن لا أخوض في السرد إلى حدّ الوقوع في أسر النص، أو الخروج عنه وإثقاله بمعانٍ ليست فيه، بتوجيه من أستاذي المشرف، الذي حث على تمحيص النصوص وتفكيكها بما لا يُفقِدها معناها، وربط ذلك برؤيتي من خلال تحليل النصوص، ومساءلتها، أو استخلاص النتائج منها، واستعمال بعضها بوصفها عناصر دلالية لإثبات وجهة نظري، وتوظيفها في خدمة المفهوم العلمي الذي تبلور لديّ أثناء تحليلي للمعلومة التاريخية، ومقارنتها، ومقاربتها، ودمجها مع بعضها البعض.

ولعلّ ما أشعر بهِ هو إنني، على الرغم من كل شيء، بذلتُ قصارى جهدي، وأحببتُ موضوعي، وسعيتُ للاستمرار في التناغم معه حتى أخرجني ذهنياً من زماني ومكاني إلى فضاء ما كتبتُ عنه، واضعًا ما أُؤتمن عليه من أمانة البحث العلمي ومنهجيته نصب عيني، وقد كانت المعادلة صعبة، والقدرة على التناغم بين هذه الإحداثيات مسألةٌ بالغة التعقيد اما الصعوبات التي واجهناها فهي تتمحور في هل حققت دراستي أهدافها ؟ ووصلت إلى ما رميت إليه ؟ مع إن الحقيقة التاريخية لا تكون مطلقة انسجاماً مع البحث العلمي الذي يضع الشك في متون الحقائق لإثباتها أو نقضها، ومن الطبيعي أن تتخلل دراستي هفوات، فالكمال من صفات الخالق، والباحث يصيب مرة ويخطئ، ولا غرو أن أخطئ وأنا الغض في طريق العلم المليء بالقامات الرفيعة.

وختاماً، واجهت هذه الدراسة جملة من التحديات المنهجية التي تمثلت أساساً في التعامل مع الزخم الهائل والكميات الكبيرة من المصادر والدراسات التاريخية التي تناولت عهد الملكين لويس السابع وفيليب أغسطس، فقد تطلب هذا التراكم المعرفي الواسع لا سيما في المؤلفات التي ركزت بشكل مكثف على حقبة الحروب الصليبية وتاريخ صلاح الدين الأيوبي، جهداً بحثياً مضنياً للفرز والتمحيص، وتمثلت الصعوبة الحقيقية في استخلاص الإشارات التاريخية الدقيقة من بين ثنايا هذا الكم الكبير من المراجع، وتفكيك التداخل بين الأحداث التاريخية العامة والسياسات الخاصة بهذين الملكين؛ بغية رسم صورة واضحة المعالم لسياساتهما الداخلية والخارجية ومظاهر الحضارة في عهدهما، ومن هذا المنطلق، سعت هذه الدراسة إلى تقديم قراءة متأنية ومكثفة تستوعب هذا الزخم المعرفي وتوظفه لخدمة موضوع البحث بأسلوب علمي ومستقل، والله ولي التوفيق.

التمهيد

التطورات السياسية في فرنسا خلال عهد أسرة ال كابيه ٩٨٧- ١١٣٧

أولاً . سياسة فرنسا في عهد ال كابية الأوائل ٩٨٧ – ١١٠٨

١. هيو الاول كابيه (٩٨٧-٩٩٦).

٢. روبرت الثاني (التقي) (٩٩٦-١٠٣١).

٣. هنري الأول (١٠٣١- ١٠٦٠).

٤. فيليب الأول (١٠٦٠ - ١١٠٨).

ثانياً . النشأة والسنوات المبكرة للويس السابع قبل ارتقاء العرش الفرنسي١١٢٠- ١١٣٧ :

١. لويس السادس (١١٠٨- ١١٣٧).

١. ولادة لويس السابع ومراحل إعداده للحكم.

٢. زواجه من دوقة أكيتاين ١١٣٧ وتداعياته السياسية على عرش فرنسا.

أولاً. سياسة فرنسا في عهد ال كابيه الأوائل ٩٨٧ – ١١٠٨:

تُمثل حقبة حكم ال كابيه الأوائل، التي انطلقت عام ٩٨٧، نقطة تحول تاريخية أنقذت المؤسسة الملكية الفرنسية من الانهيار بعد تداعي السلطة الكارولنجية وتغول النظام الإقطاعي وسيطرة الأمراء المحليين، وفي مواجهة ذلك المشهد المعقد وضعفهم العسكري مقارنة بكبار أتباعهم، تبنى ملوك فرنسا سياسة واقعية حذرة ركزت على إحكام سيطرتهم على نطاق أراضيهم الخاصة ، ولتعويض تراجع نفوذهم المادي، لجأ ال كابيه إلى انتهاج دبلوماسية مرنة، وإرساء مبدأ التوريث عبر تتويج أبنائهم خلال حياتهم لضمان بقاء السلالة، إلى جانب عقد تحالف استراتيجي متين مع الكنيسة لاكتساب الشرعية والهيبة الروحية التي حصنت موقعهم كأسياد إقطاعيين فاعلين ومكنتهم من تثبيت دعائم ملكهم.

١. هيو الاول كابيه ٩٨٧ – ٩٩٦.

من الواضح أن الغزوات التي تعرضت لها أوربا خلال القرنين التاسع والعاشر وما ترتب على ذلك من انهيار السلطات الملكية، وما جرى من خلافات بين الأمراء والحكام ، أدت في النهاية إلى حالة من الفوضى الشديدة التي اجتاحت دول أوروبا الغربية، فدفعت ذلك الفوضى صغار الملاك إلى البحث عن قوة تحميهم وتذود عنهم، فلم يجدوا أثرا لقوة الملك أو نفوذ السلطة المركزية، مما أجبرهم على الارتباط بالكونت Count [١] أو الأمير المحلي لحمايتهم، وهكذا بدأ عامة الناس وصغار الملاك بالارتباط بمن هم أقوى منهم من الأمراء وكبار الملاك في ظل نظام من الحقوق والواجبات المتبادلة بوصفها السبيل الوحيد لحماية أرواحهم من الأخطار والاضطرابات التي هددت المجتمع الغربي؛وبعبارة أخرى فإن هؤلاء الضعفاء أو المستضعفين قبلوا أن يعيشوا في حال من الهوان والمغارم مقابل حماية كبار الأمراء الإقطاعيين والدفاع عنهم، في حين لم تتعد سلطة الملوك الفعلية دائرة أملاكهم وضياعهم الخاصة، مثل أي أمراء إقطاعيين آخرين[٢].

---

[١] الكونت: كلمة لاتينية تعني في الاصل نديم الملك ومرافقه الشخصي،ومع التطور الجذري للنظم الإقطاعية، وتحديداً خلال حقبة حكم سلالة "ال كابيه" في فرنسا، شهد ذلك المفهوم تحولاً تاريخياً ومؤسسياً مهماً؛ إذ لم يعد مجرد صفة شرفية للمقربين من البلاط الملكي، بل تبلور ليصبح لقباً سيادياً واجتماعياً مرموقاً يُطلق على وجهاء القوم وكبار النبلاء الذين أحكموا سيطرتهم على المقاطعات وتوارثوا السلطة فيها، وقد انعكس ذلك التطور الطبقي على اللغات الأوروبية المختلفة التي استوعبت اللقب مع الحفاظ على جوهره الدال على الرجل الشريف والنبيل؛ فظهر بصيغة (Conde) في الإسبانية(Count) في الإنكليزية (Comte) في الفرنسية، والجدير بالذكر أن ذلك اللقب ارتبط تاريخياً وبشكل وثيق بالأرستقراطية الفرنسية بالدرجة الأولى، وقد عرفته المدونات التاريخية العربية قديماً - نتيجة الاحتكاك المبكر- بصيغة "قُومِس"، قبل أن يستقر الاستخدام الحديث على التعريب الشائع "كونت".
يراجع :
Alain Rey, Dictionnaire historique de la langue française, Dictionnaires Le Robert, Paris, 1998, pp. 824-825; Olivier Guillot et al., Pouvoirs et institutions dans la France médiévale, vol. 1, Armand Colin, Paris, 2003, pp. 230-236؛
ابوعبيدة البكرى، جغرافيا الأندلس وأوربا من كتاب المسالك والممالك، تحقيق: عبد الرحمن على الحجي، دار الارشاد للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت، ١٩٦٨، ص ٩٩ .

[٢] هـ . أ . ل . فشر، تاريخ أوربا العصور الوسطى، ترجمة: محمد مصطفى زيادة ، السيد الباز العريني، ط٦، دار المعارف، القاهرة ، د.ت، ص ١٥٩- ١٦٠ .

يكفى أن نشير إلى أنَ ذلك الوضع من التنظيم السياسي والاجتماعي كان سائداً في فرنسا[١]، ويعد القرن الحادي عشر ذروة نفوذ الأمراء؛ لأن السلطة الملكية كانت واهنة، وقد استطاع الدوقات[٢] والكونتات في أكثر الولايات الفرنسية تولي سلطة التمتع بالنفوذ المطلق الذى لم يكن يزعج حكامهم الاسميين من الكارولنجيين Les Carolingien [٣]،إلا أن أهم ما ميز تاريخ فرنسا في تلك الحقبة هو سقوط البيت الكارولنجي، وقيام أسرة ال كابيه Les Capétien[٤] بتولى مقاليد الحكم، وتعود علامات نهاية عصر الكارولنجيين منذ أن احتفل الإمبراطور شارلمان Charlemane[٥]سنة ٨١٣ بتتويج ابنه لويس التقي Louis Le Pieux[٦] الذي خلـفه في حكم الإمبراطورية[١]، والذي وضع بدوره مشروعاً سنة ٨١٧

---

[١]كانت فرنسا تسمى قديماً غالة وكان أهلها شجعان حاربوا جيرانهم ولم يخضعوا لدولة الرومان إلا بعد مشاق، ثم استقلت وخضعت لعدة رؤساء متحدين، ثم خضع الجميع للملك سنة ٤٢٠ وأول عائلة من ملوكها أطلق عليهم الميروفنجيون.يراجع: محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، ج٢، دار صادر، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص ١٠٠ .

[٢]الدوق- الماركيز- الفايكونت-البارون – الفرسان : القاب تمثل درجات النباله التي اكتسبها الفرسان والامراء في العصر الوسيط، وأكبر تلك الألقاب هو الدوق ويعني القائد باللاتينيه، ثم درجة الماركيز ويعني حاكم منطقه حدوديه، ثم درجة الايرل وتعني قائد فرقه عسكريه كبيره، واخر درجات النباله هي درجة البارون وتعني أحد رجال الملك . يراجع : طالب محيبس حسن الوائلي، العاهل والبارون ملامح الحياة البرلمانية في بريطانيا ١٠٦٦ – ١٩٤٩، رند للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠١١، ص ٢٢ – ٢٣ .

Clare, John D. Knights and Armor in the Middle Ages, The Bodley Head, London, 1992, p.63.

[٣] الأسرة الكارولنجية:عائلة أخذ نجمها بالبروغ منذ فجر القرن السابع الميلادي، بعد أن تفرعت من اتحاد سلالتين كبيرتين هما سلالة بيين الثالث (القصير) وهو جد الكارولنجيين، وسلالة القديس أرنول اسقف ميتز وأصولها جرمانية تتكلم اللغة الألمانية، أشهر ملوكها شارلمان. يراجع: بيار باكو مارسيل، بيارميوت جاك راينال رنيه، موسوعة تاريخ أوروبا العام، ج١، ترجمة : أنطوان الهاشم، منشورات عويدات، بيروت، ١٩٩٥، ص ٢٨٢ – ٢٨٣ .

[٤] آل كابية : لقب اتخذه هيو مؤسس الأسرة كناية على الأرجح عن لبس الكاب أو (غطاء الرأس) وقيل إنما لقب بذلك لغلظة رأسه، وقال آخرون لذكاء عقله وجودة قريحته، وقيل العباءة التي كان يرتديها وهو رئيس دير القديس دينس. يراجع : دينس مونيقورس، تاريخ ملوك فرنسا من مبدأ ملكهم إلى الملك لويز فيليب ، ترجمة : حسن قاسم، مدرسة الألسن، د.ت ، ص ٢٥٧ ؛ وليم لانجر، موسوعة تاريخ العالم، ج٢ ، ترجمة : محمد مصطفى زيادة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، د .ت ، ص ٦٢١.

[٥] شارلمان (٧٤٠ - ٨١٤): إمبراطور الدولة الكارولنجية بارزاً تفرّد بالسلطة ليقود أوروبا نحو حقبة ذهبية دمجت بين التراث الروماني والحضارة الجرمانية، وقد تميز عهده بنهضة ثقافية، وتعليمية، واقتصادية شاملة، إلى جانب إنجازات وتوسعات عسكرية ضخمة شملت السيطرة على روما عام ٧٧٤ والانتصار على شعوب وقوى عديدة، وقبل وفاته، حرص على توزيع ثروته وأملاكه على أبنائه لتأمين مستقبلهم، تاركاً خلفه إرثاً إمبراطورياً وحضارياً عظيماً شكّل ملامح أوروبا في العصور الوسطى. يراجع: محمود عبد الواحد محمود حبيب القيسي العلاقات الخارجية للدولة الكاورلنجية في عهد شارلمان (٧٦٨ - ٨١٤)، أطروحة دكتوراه ، جامعة بغداد، كلية الآداب، ٢٠٠٣ ؛

Eginhard, Vie de Charlemagne, Trad par/ L. Halphen, paris, 1923; Gallois La Champagne et Les derniers Carolingiens: Lutte des derniers Carolingiens et des premiers Capétiens, paris, 1853; Roger Collins, Charlemagne, Macmillan, London, 1998; Louis Halphen, Charlemagne et L'empire Carolingien, paris, 1968, pp. 57-181.

[٦] لويس التقي (٧٧٨ - ٨٤٠): الابن الاكبر لشارلمان، ورث امبراطورية والده بعد وفاة الاخير في سنة ٨١٤، ولم تدخل البلاد في حرب اهلية عند توليه الحكم لوفاة اخوته الاخرين، الا ان البلاد دخلت في عهده في حرب اهلية بين ابنائه (لوثر، لويس، بيبن وشارل) الذين تنافسوا للحصول على الحصة الاكبر من ممتلكات ابيهم ، قسم

لتقسيم إمبراطورتيه الواسعة بين أبنائه الثلاثة لوثر Lothaire (٧٩٥– ٨٥٥) حصل على اللقب الامبراطوري فضلاً عن الجزء الاكبر من الامبراطورية ، بينما يحصل أخواه وهما بيبين Pepin(٧٩٧- ٨٣٨)، ولودفيج Ludwig (٨٠٦ -٨٧٦) لقب ملك، ولهما أجزاء اصغر من الأراضي، فقد عين بيبين ملكاً على أكيتاين[٢] وبعض الأقاليم في شمالي وغربي فرنسا، أما لودفيج فقد عين ملكاً على بافاريا والاراضي الواقعة شرق نهر الراين[١]، وقد جاء ذلك التقسيم لتأكيد وحدة الإمبراطورية، وللرفع من قدر الحاكم الفرنجي بعد أن حُددَتْ طبيعة الوظيفة الإمبراطورية ومنحت حامل اللقب الامبراطوري حق السيادة على الملكين الآخرين اللذين كان عليهما بموجب ذلك التقسيم أن يحكما الأقاليم المخصصة لهما تحت إشرافه، كما كان ينبغي عليهما أيضاً زيارته في كل عام وإعطاء تقرير عن ممالكهما، ومن غير المسموح لهما عقدا أي اتفاقية، أوحتى أن يتزوجا بدون العودة إلى أخيهما الإمبراطور لوثر، وعلى ما يبدو أن لويس التقي وضع فيه كل آماله وأحلامه لإبقاء الإمبراطورية

المملكة بين ابنائه مرتين في سنتي ٨١٧ و٨٣٢، توفي في سنة ٨٤٠ والحرب الاهلية بين ابنائه ما زالت مستعرة . يراجع:

Goetz, Philip, The New Encyclopædia Britannica, 15th ed., vol. 6, Chicago, USA, 2010 ,P. 340.

[١] أدرك الإمبراطور شارلمان أن إمبراطورتيه من بعده ستدخل في حالة من الحروب الصراعات بين أبنائه، ذلك قام في عام ٨٠٦ بتقسيمها بين أبنائه الثلاثة (بيبين ، لويس، شارل)، وذلك لتلافي حدوث أي خلاف بين ورثته في المستقبل،لكن يمكن القول بأن الحظ في هذه المرحلة كان إلى جانب الإمبراطورية الكارولنجية مما حماها من التقسيم، فبعد مضي أربع سنوات على مشروع التقسيم ذلك توفي بيبين ٨١٠ وأيضاً في العام التالي توفي شارل ٨١١، ولم يبق من بين أبناء شارلمان على قيد الحياة إلا ابنه لويس الذي عرف بـ (لويس التقي) ، وقد قدم المؤرخ أينهارد Einhard1 وصفاً لحالة الإمبراطور شارلمان في آخر حياته، وكيف نصب ابنه لويس على العرش فقال **"واعتلت صحة شارلمان في أواخر حياته بسبب المرض والشيخوخة، فاستدعى ابنه الوحيد الذي ظل على قيد الحياة، والذي كان قد رزق به من زوجته (هلد جارد) وهو لويس التقي .... وكانت دعوته هذه ليعينه وريثا للقب الإمبراطوري حيث طلب منه وهو يضع التاج على رأسه في اجتماع كبير لكافة زعماء الإمبراطورية أن يعلن نفسه إمبراطوراً"**، وكان ذلك التتويج في عاصمة الإمبراطورية الكارولنجية (إكس لاشبيل Aix-la Chapelle، أو آخن Aachen) عام٨١٣ ، وقال شارلمان بعد أن وضع التاج على رأس لويس **"الحمد لله يا إلهي إذ أنعمت علي بأن أرى بعيني ولدي يجلس على عرشي "**، ومهما يكن من أمر، فقد حظيت تلك الخطوة التي قام بها شارلمان بترحيب واستحسان الحضور، فبدت على حد تعبير المؤرخ أينهارد كأن الله قام بإلهام شارلمان للقيام بها لخير المملكة، وملأت قلوب الأمم الأجنبية المعادية لها بالرعب والخوف،غير أن كتب التاريخ وصفت الإمبراطور لويس الذي كان في السادسة والثلاثين من عمره عندما استلم العرش سنة ٨١٤، أنه لم يمتلك الشخصية القوية أو المقومات التي تمكنه من حكم هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف التي خلفها له والده، ولم يتحل بصفات القيادة الحربية أو الزعامة السياسية التي تضمن له سيطرة كافيه على الجيش والإدارة والكنيسة، ذلك في الوقت الذي تزايد فيه الخطر الخارجي بعد وفاة والده سواء من ناحية السلاف والآفار على الحدود الشرقية للإمبراطورية أو في الشمال الغربي من الفايكنغ، او من ناحية العرب المسلمين على الحدود الجنوبية. يراجع: اينهارد، سيرة شالرلمان، ترجمة: عادل زيتون ، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٨٩، ص ١٤٨ – ١٤٩ ؛ ويل وايرل ديورانت، قصة الحضارة (عصر الايمان)، ج١٤، ترجمة : محمد بدران ، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٨، ص ٢٤٧ .

[٢] اكيتاين: تمتد من جبال البرانس إلى الجنوب من نهر لوار، وكانت تضم إقطاعيات كثيرة أهمها بواتو Poitou ، وبايون Bayonne، بوتريس Botrys، ليموج Limoges، بوردو Bordeaux، وجاسكولي Gascony، اوفرن Auvergne. يراجع :

Painter, S., The Rise of the Foudal Monarchies, New York, 1954, pp.19-22.

موحدة، وفي ظل رجل واحد[٢].

تزوج لويس التقي بعد وفاة زوجته الإمبراطورة إرمينغارد من هيسباي Ermengarde of Hesbaye ٨١٨ من الأميرة جوديث البافارية Judith of Bavaria [٣] وأنجب ابناً جديداً اسمه شارل Charles، الذي أُطلق عليه اسم شارل الأصلع Charles Le Chauve (٨٢٣ – ٨٧٧)، وقد انتشرت اسطورة حول ذلك الطفل تقول أن روح جده شارلمان قد بعثت في جسده ذلك اطلق علية اسم شارل، ومن ثم أراد إعادة توزيع المملكة توزيعًا جديدًا؛ فتمكنت الزوجة الجديدة جوديث من التأثير على لويس لإعادة تقسيم أملاكه، وأن يخصص حصة لابنه شارل، وقد تم ذلك الامر بشكل رسمي اثناء انعقاد مجلس ورمز Worms عام ٨٢٩ الذي اقر خلاله لويس التقي إعطاء ابنه شارل اراض جديدة تشمل (المانيا والالزاس[٤] وقسم من بورغوندي)[٥]، ويبدو أن ذلك التصرف لم يرض الأخوة الثلاثة الأوائل فقامت حرب أهلية عنيفة بين الأخوة من جهة، وبينهم وبين أبيهم من جهة أخرى، وفي خضم تلك الاضطرابات، تُوفي بيبن عام ٨٣٨، ليلحق بهِ والده الإمبراطور عام ٨٤٠، حيث شكل رحيل لويس التقي شرارة أشعلت فتيل الصراع المسلح في كافة أرجاء الإمبراطورية الكارولنجية، لتدور رحى الحرب مجدداً بين الأبناء المتبقين، مستندين في ذلك إلى مناطق نفوذهم؛ إذ أحكم الابن الأكبر لوثر قبضته على إيطاليا وأوستراسيا، وسيطر لودفيج على الأراضي الممتدة شرق نهر الراين، بينما انفرد شارل الأصلع بحكم نيوستريا والمناطق الواقعة غربه[٦].

لم يكد لوثر يعلم بوفاة والده حتى بدأ الاستعداد للوصول إلى السلطة، عن طريق إرسال مندوبيه لتأكيد حقه المشروع في خلافة والده على العرش، وتهديد من يعارضه بالموت، ووعد بإلغاء جميع القرارات التي اتخذت بعد العام ٨١٧، لكن رغبة لوثر اصطدمت بطموحات اخوية لودفيج، وشارل الأصلع، الذين لم يعترفوا بسلطتهِ عليهم، هنا اعتقد لوثر

---

(1) Schutz, h., the carolingians in central europe, their history, arts and architecture: (cultural history of central europe, 750-900).brill leiden, boston, 2004, p93.

[٢] ريتشارد سليفان، ورثة الامبراطورية الرومانية (الغرب الجرماني – العالم الإسلامي – الدولة البيزنطية) ترجمة: جوزيف نسيم يوسف، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع، الاسكندرية، ١٩٨٥، ص ١٢١ – ١٢٢ .

[٣] جوديث (٧٩٧- ٨٤٣): هي ابنه احد النبلاء في مقاطعة سوابيا ، كانت ضمن مجموعة الفتيات النبيلات اللواتي أحضرهن وزير لويس التقي إلى البلاط ، ليختار الإمبراطور إحداهن كي تصبح زوجة له . يراجع :

Oman, c, the dark ages,harvard college library, london, 1901, p.391.

[٤] يان دوبراتشينسكي، اوروبا والمسيحية (الألفية الاولى)، ترجمة: كبرو لحدو، دار الحصاد ، دمشق ، ٢٠٠٧ ، ص ٢٥٩ ؛

GABRIELE, M., An Empire of Memory (The Legend of Charlemagne, the Franks, and Jerusale before the First Crusade). Oxford University press, New york, 2011, p18.

[٥] بورغوندي : دوقية فرنسية، تميزت بشهرة عظيمة منذ أن فتحها يوليوس قيصر Julius Censar. وفي القرن الخامس الميلادي دخلتها الشعوب الألمانية الذين كونوا مملكة بورغوندي، وهي تشمل مدن مهمة من أهمها أن Ain وسوان Soone وكوت Cote ودور Dor .

Moore, W.G., The Penguin Encyclopedia of places, New York, 1978, p134.

[٦] فشر ،المصدر السابق ، ص ١٠٠ .

أنه يجب ضرب لودفيج بوصفة الأخطر هو الأقرب اليه، فجمع الجيوش وعبر نهر الراين ووصل فرنسا وتسبب في اضطرابات في بافاريا[١].

بعد ذلك، حافظ على هدوئِه مدة سته أشهر من خلال عقد معاهد سلام مع لودفيج ليتفرغ لسحق اخيه شارل الأصلع، وبالفعل توجه لوثر إلى نيوستريا، لكنه سرعان ما تراجع إلى قلعته في العاصمة آخن، حيث أمضى شتاء ٨٤١، غرقاً في المرح والفجور، بينما كان لودفيج وشارل الاصلع يجمعون الفرسان ويوقعون المعاهدات اللازمة بينهما لمواجهة عدوهم المشترك لوثر؛ وفي ربيع العام نفسه ، تمكن شارل من تأمين الوضع في بريتاني وسبتيمانيا لصالحه، وعبر نهر السين حيث جاء وفد لودفيج وأخبره أنه قادم لإنقاذه، وبالفعل اتحدت جيوش شارل الاصلع ولودفيج، والتقوا في مدينة شالون Chalon على شواطئ نهر ساون Saone مع عدد كبير من الفرسان، الأمر الذي أرعب لوثر، واضطر أمام ذلك الوضع إلى طلب يد العون من ابن أخيه بيبن الثاني المطالب بعرش أكيتاين، ووعده بأن ينصبه ملكاً على أكيتاين إن هو ساعده بحربه، ذلك جاء بيبن بكامل قواته لمساندة عمه لوثر[٢].

وبقدوم بيبن أصبحت أغلب جيوش أوروبا وجها لوجه في زمان ومكان واحد، وما إن بدأت تلك القوات بالزحف حتى اصطدمت بجيش لوثر عند قرية فونتينوي Fontenoy، لتندلع هناك واحدة من أشرس المعارك في تاريخ الفرنجة، حيث أسفرت تلك المواجهة الدامية عن سقوط ما يزيد على أربعين ألفاً من خيرة الفرسان، كما أدت إلى استنزاف القوة العسكرية لكلا الطرفين وتحطيمها، الأمر الذي دفع لوثر في نهاية المطاف إلى التراجع والانسحاب صوب العاصمة آخن[٣].

وقف لودفيج وشارل الأصلع في مأزق أمام طموحات شقيقهما الأكبر لوثر واصراره على إخضاعهما وأخذ ما بأيديهما، خاصة أنه يُعدَ نفسه فوق الجميع، وأنه كان الإمبراطور الوحيد في المملكة وله الحق في حكمها، على وفق تقسيم عام ٨١٧ ، التي احتفظ بها لأنها تعترف بهِ إمبراطوراً على الجميع، ذلك اجتمعت جيوشهم مرة أخرى في ربيع عام ٨٤٢ في مدينة ستراسبورغ Strasbourg واتفقوا على محاربة لوثر، وتعهدوا بالوحدة ومساعدة بعضهم البعض، وأقسموا أمام جيوشهم على عدم التراجع حتى النصر، وأقسمت الجيوش بدورها على التخلي عن ملكهم إذا تراجع أو خان العهد، وأصبحت تلك الحادثة معروفة عبر التاريخ باسم قسم ستراسبورغ ، ومن الملاحظ أن ذلك القسم أظهر بصورة واضحة الانقسام الكبير والخفي الذي كان يعيش في جسد الامبراطورية الكارولنجية،لان شارل الاصلع اضطر إلى قراءة نص القسم أمام جيوش لودفيج باللغة الألمانية، كذلك اضطر لودفيج إلى قراءة نص القسم أمام جيوش شارل الأصلع باللغة الفرنسية القديمة، كي تتمكن تلك الجيوش

---

[١] نور الدين حاطوم ، تاريخ العصر الوسيط في اوروبا من أواخر العصر الروماني إلى القرن الثاني عشر ، ج١ ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٨٢ ، ص ٢٠٦ – ٢٠٧ .

[2] oman ,op. Cit .,p407.

[3] schutz, h., op. cit., p.110.

من فهم نص القسم[١]، وذلك يعني أن جيش كل منهم ينتمي إلى عرق وثقافة مختلفة عن الأخرى، وذلك بالطبع سيكون له تأثيره المستقبلي على تقسيم الإمبراطورية الكارولنجية، وظهور الجنسيات في أوروبا، كل منها اكتسب خصائصه المميزة،على أي حال، سارت تلك الجيوش المشتركة نحو العاصمة آخن وتمكنت من احتلالها بعد قتال عنيف، لكن لوثر أخذ كل الأموال والكنوز من المدينة، وهرب مع عائلته والمقربين منه إلى بورغوندي[٢] ، على ما يبدو، إن المخاطر الخارجية التي كان يمثلها الفايكنج Vikings [٣] والهنغار The Hangar[٤]، فضلاً عن الأخطار الداخلية التي يمثلها تمرد بعض المقاطعات والقبائل التي كانت تهدد مملكتي لودفيج وشارل الأصلع أجبرتهم على التراجع عن قسميهما وقبول المفاوضات التي أسفرت عن إبرام هدنة على أساسها تم تقسيم الإمبراطورية مؤقتا، ثم التقى الإخوة الثلاثة وقرروا أن التقسيم النهائي سيكون في شهر آب ٨٤٣ [٥]، شريطة أن يكون الاجتماع في مدينة فردان، وبالفعل تحققت رغبة الإخوة الثلاثة، ووقعت معاهدة فردان في موعدها[٦]، ونصت المعاهدة على تفتيت الإمبراطورية الكارولنجية بين الإخوة الثلاثة هم كما يأتي: لودفيج : يلقب بلقب ملك، وسيحكم الجزء الشرقي من الإمبراطورية، أي القسم الواقع شرق نهر الراين، والتي تشمل أوستراسيا وبافاريا وسوابيا وساكسونيا، ويهيمن على ذلك القسم اللغة الألمانية[٧]، شارل الأصلع : أيضا يلقب بالملك، ويحكم الجزء الغربي من فرنسا مع شمالي إسبانيا، أي كانت مملكته تشمل مملكته نيوستريا، أكيتاين، وفي تلك المناطق تسود اللغة الرومانية المحرفة عن اللاتينية، أي اللغة الفرنسية، ويفصلها في الشرق عن

---

[١] يراجع حول نص القسم باللغتين اللاتينية والألمانية :

Lamonte, j., the world of the middle ages.appleton century crofts, new york، 1949، p.163.

[2] oman, op. cit., p.408-409.

[٣] قبائل الفايكنج : يقصد بهم العناصر الشمالية التي سكنت شبه جزيرة الدانمارك، والتي شكلت خطرا كبيراً على أوروبا في القرن التاسع الميلادي بسبب غاراتها المتواصلة عليها، والفايكنج بمعنى سكان الخلجان وهي الظاهرة الطبيعية التي تمتاز بها شواطئ الجهات الشمالية الغربية من أوروبا، يرجعون من الناحية الجنسية الى الاصل التيتوني أو الجرماني، الا انهم ظلوا برابرة خالصين محافظين على اوضاعهم التيتونية البدائية ، يراجع: عمر عبد المنعم ابراهيم، الفايكنج والامبراطورية الكارولنجية، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ٢٠٠٩؛ انور محمود زناتي، قاموس المصطلحات التاريخية (اسلامي – وسيط – حديث ومعاصر) ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ٢٠٠٧ ، ص ٣٠١ – ٣٠٢ ؛ يوسف عبد الحميد بن ناجي، القرصنة وأثرها في التواصل الحضاري، الفايكنج النورمان انموذجاً ٧٨٩ – ١١٩٤، مجلة المؤرخ العربي ، العدد ٢٩ ، مج ٢، ٢٠٢١ .

[٤] الهنغار: اقوام آسيوية مغولية جاؤوا من المنحدرات الشمالية لجبال الأورال، وأخذوا يتحركون غرباً من مطلع القرن التاسع. عاشوا على الحرب والصيد، وكانوا مهرة في ركوب الخيل ورمي النبال. يراجع : هنري كارلس ديفز، اوروبا في العصور الوسطى ، ترجمة : عبد الحميد محمود ، منشأة المعارف، الاسكندرية، ١٩٥٨، ص ٧٠ .

[٥] يوسف نكادي، مباحث في تاريخ غرب المتوسط في العصر الوسيط ، دار الكتب المحدودة، لندن ، ٢٠١٨، ص ١٥٩.

[٦] عادل زيتون، تاريخ العصور الوسطى الأوروبية، ط٤، مطبعة الروض ، دمشق، ١٩٨٢، ص ١٤٧ – ١٤٨ .

[٧]مفيد الزيدي،موسوعة تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ٤٧٦ – ١٥٠٠،ج١،ط٣، دار أسامة للنشروالتوزيع، الاردن، ٢٠٠٩،ص ٢٠٢؛ نعيم فرح، تاريخ اوروبا السياسي في العصور الوسطى،ط٣، منشورات جامعة دمشق، دمشق، ٢٠٠١، ص ٧٦ .

مملكة لوثر بنهري رون وساون[١] أما لوثر: يحكم شمال إيطاليا ، فضلاً عن إلى سلسلة أو شريط طويل من الأرض يمتد على بعد حوالي ألف ميل من البحر المتوسط إلى بحر الشمال، ذلك الشريط يتوسط مملكتي أخويه ويدعى فريز لاند ومعناه الأراضي المتجمدة أو المنخفضة[٢]، وهكذا ضمت مملكته جزءا من أستراسيا غرب نهر الراين، ولوثارينجيا Lutheringia، وبورغوندي ، وبروفانس في شمال إيطاليا، وتضم هذه المملكة أعراق مختلفة، وليس لها أوصاف مميزة إلا أنها وسيطة بين مملكتي أخويه، فضلاً عن أنها تضم مدينة آخن، عاصمة إمبراطورية الفرنجة، التي أصبح لوثر إمبراطورا لها، وكذلك روما مقر البابوية في إيطاليا [٣]، الا أن الأخير توفى سنة ٨٥٥ [٤]، وبذلك قسمت مملكته إلى ثلاثة أقسام صغيرة بين أبنائه، وهكذا أخذت تتكاثر الأجزاء التي انقسمت إليها الإمبراطورية الكارولنجية[٥] ، كما كثرت الحروب بين أبناء البيت الكارولنجي، بحيث إنه لم يوجد من الأبناء الشرعيين ذلك البيت سنة ٨٨٤ سوى شارل السمين Charles le Gros (٨٣٩ - ٨٨٨) ابن لودفيج في ألمانيا، وشارل الثالث Charles III (٨٧٩-٩٢٩) الملقب البسيط The Simple ابن شارل الاصلع في فرنسا[٦]، وفي خضم تلك الأحوال هيأت الأحداث لظهور ال كابيه على المسرح الفرنسي؛ وذلك عندما تعرضت مدينة باريس Le Paris أواخرعام ٨٨٥ لهجوم عنيف قام بهِ الفايكنج، وقد استطاعت باريس الصمود ومقاومة الهجوم والحصار، بفضل مهارة كونت أود Comete d'Eudes[٧] حاكمها الذي اختير ملكا على فرنسا سنة ٨٨٨[٨]، وسرعان ما أحرز انتصارًا على الفايكنج؛ ولا سيما عند مهاجمتهم

---

[١] سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، دار الفكر ، دمشق، ١٩٩٥، ص ١٠٥٩ .

[٢] ام الساعد عاشور،الصراع الأندلسي النورماندي في عصر الإمارة والخلافة ٧٥٦ – ١٠٣١، رسالة ماجستير، جامعة محمد خيضر بسكرة، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، ٢٠١٩ ، ص ١٥ .

[3] Epistola Lotharii Imperatoris de Leonem IV papam, R.H.G.F., Tome, VII, paris, 1870, p.566; Jean (Abbé) « Extraits des Vies des Saints, sur Luther, roi de Lutheringia, Collection des Historiens de Gaule et de France, éditée par Martin Bouquet, Volume 7, Paris, 1749, p. 332.

[4] Louis Halphen, op. cit., p.270.

[٥] بيار باكو مارسيل، المصدر السابق ، ص ٢٨٢ – ٢٨٣ ؛

William (F) , the Carolingians: A Family Who Forged Europe, London, 1972, p.42.

[٦] سعيد عبد الفتاح عاشور، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٦، ص ٢٠٩.

[٧] كونت أود(٨٥٧- ٨٩٨): ولد حوالى عام ٨٥٧ ، وكان ابن روبرت القوى Robert Le Fort مركيز بريتاني Marquis de Bretagne الذى اشتهر بكفاحه ضد النورمانديين، توفى عام ٨٦٦ ، وأود حفيد روبرت كونت ورمز Comte de Worms الذي توفى عام ٨٢٢ ، وقد اشتهر أود نفسه منذ حداثة سنه بشجاعته وميله للحرب ومقاومته الشديدة التي دامت أثناء حصار باريس الشهير (٨٨٥-٨٨١)، مما أعطاه الفرصة ليتوج على فرنسا عام ٨٨٨ ، ولكنه توفى من دون أن يترك وريثا من صلبه في عام ٨٩٨ ، تاركا الساحة لأخيه روبرت . يراجع :

Vitalis Orderick, Histoire ecclésiastique, Collection des historiens de Gaule et de France (R.H.G.F), Volume 9, Victor Balmey, Paris, 1874, p. 16.

[8]Anthony Guggenberger. A General History of the Christian Era: The papacy and the empire. B. Herder, 1909. P. 162.

وسط فرنسا، وأنزل بهم هزيمة ساحقة، وأسر زعيمهم وأعدمه سنة ٨٩٢[١]، وعلى الرغم من ذلك، وما أبداه أود من شجاعة في التصدي لخطر الفايكنج، فيبدو أن ذكرى شارلمان وعظمته ظلت تدفع الفرنسيين إلى الإخلاص للبيت الكارولنجي والتمسك بذلك البيت، الأمر الذي أثار نزاعا طويلاً بين البيت الكارولنجي والكونت أود حول الاستئثار بحكم فرنسا[٢]، تجسد في حرب أهلية استمرت ست سنوات بين أود وشارل البسيط - وريث البيت الكارولنجي - ولم تنته إلا بوفاة الأول عام ٨٩٨[٣] تاركاً الساحة للثاني ليحكم منذ عام ٨٩٨، الأمر الذي أزعج روبرت Robert[٤] أخ أودو ووريثه، فسبب لشارل البسيط الكثير من المتاعب في السنوات الأخيرة من حكمه، مما دفع الأخير للتحالف مع الفايكنج ليقفوا في وجه الأول[٥]، وقد توج روبرت ملكًا سنة ٩٢٢ تحت اسم روبرت الأول(٩٢٢-٩٢٣)، لكنه

---

(1)Chisholm, Hugh"Odo, king of the Franks". Encyclopædia Britannica. Vol. 20 (11th ed.). Cambridge University Press. pp. 4–5.

(2) Jim Bradbury. The Capetians: Kings of France 987-1328. Bloomsbury Publishing, 2007. pp. 31-32.

(٣) نقل العرش إلى شارل البسيط بعد وفاة أخيه غير الشقيق كارلومان في عام ٨٨٤ ، ولقد توج ملكا من فولك رئيس أساقفة ريمس كمنافس للملك (أود) لكنه دخل في حروب مع اودو، وعلى الرغم من أنه تخلى عن حقوقه الملكية اثناء الحرب الأهلية عام ٨٩٧، إلا أن وفاة الملك اونو في العام التالي مكنته من الانفراد بالحكم، ولكن كما لبث أن وجد نفسه في مواجهة روبرت شقيق اودو المتوفي، وهو ما مهد الطريق لمعاهدة سان كلير، والتي بموجبها تنازل شارل عن الأراضي في المنطقة التي عرفت لاحقا باسم نورماندي، إلى زعيم الفايكنج رولو ورجاله، مقابل تحالف رولو معه ضد أعدائه.يراجع :

Abrams (L): Early Normandy, Paris, 1981, vol 2, p.16; Chisholm, Op.Cit., p.6.

(٤) روبرت الأول (٨٦٦ – ٩٢٣) : أخو الملك أود ووريثه في حكم فرنسا، وعلى الرغم من قصر مدة توليه فرنسا كملك والتي لم تتعد أكثر من عام، إلا أن ما قام بهِ من محاولات للاستئثار بحكم فرنسا أثناء صراعه مع شارل البسيط، دفع بعض المؤرخين لتسمية تلك الحقبة باسم آل روبرت Les Robertiens كأسلاف لآل كابيه وذلك على اعتبار أنه ابن روبرت القوى مركيز بريتانى ابن روبرت كونت ورمز، ابن "روبرت دوق في هيسباى Robert duc en Hesbaye ابن روبرت، ويقال عن آل روبرت أنهم أمراء شديدوا البأس تمكنوا من إبعاد الكارولنجيين عن العرش، واستمروا في إدارة إماراتهم الخاصة التي ألحقوا بها بعض أراضي الكارولنجيين . يراجع:

Bercowver, Robert F., Power and Accountability in Medieval France, University of Pennsylvania Press, Washington, 2004, p.29; Potter, Robert Henry, et al., Royal Politics in the Eleventh and Old Ages: A Critical Study of Documentation, Institute for Slave Studies, London, 1958, pp.539-564.

(٥) ذلك أن الفايكنج اتخذوا "روان" Rouen عند مصب نهر السين مركزا لهم، ومنها أخذوا ينتشرون على امتداد شاطئ الجزء الغربي من فرنسا وعندئذ عقد شارل البسيط" مع "رولو Rollo - زعيمهم في ذلك الوقت اتفاقية سانت كلير سنة ٩١١، وفقا لمعاهدة عقدت بينهما بالقرب من نهر ابت ذلك عرفت باسم سانت كلير شور ابت St. Clair Sur-Epte والتي نصت على شروط منها : أن يصبح رولف مسيحياً.أن يعلن تبعيته الإقطاعية إلى الملك شارل البسيط. فضلاً عن ان يتزوج جيسلا Gisla ابنة الملك، لان زواجه السابق من بوبا غير معترف به من قبل الكنيسة لأنه تم وفقاً للتقاليد الوثنية الاسكندنافية. وفي مقابل ذلك تم منح رولف وجماعته الأراضي الممتدة من نهر ابت Epte إلى حدود كونتية بريتاني. . يراجع :

Bouquet, Martin, « Supplément à la Chronique de Saint-Denis », Collection des Historiens de Gaule et de France (R.H.G.F.). Volume X, Victor Balmy, Paris, 1874, p.312; Elizabeth M. Hallam,Capetian France 987-1328, London and New York, 1980, p.34; Francis Palgrave,The History Of Normandy And England, Vol, I, London, 1864, pp.679-682.

سرعان ما قتل في معركة سواسون ٩٢٣[١]، تاركاً رودولفRadulf المعروف باسم راؤول البورغوندي Raoul de Bourgogne[٢] ليحل محله في حكم فرنسا (٩٢٣-٩٣٦) حتى وفاته، وعندئذ عاد لقب الملك إلى أصغر كارولنجي لويس الرابع Louis IV(٩٣٦-٩٥٤)[٣]على الرغم من وجود هيو العظيمHugues Le Grand[٤] كونت باريس، الذى يُمثل أقوى نبيل في المملكة، مما دفع لويس الرابع إلى الدبلوماسية للوقوف في وجهه؛ فتزوج من جير بيرج دى سكس Gerberge de Saxe أخت أوتو الأول Otto [٥] الملقب بأوتو العظيم Otton Le Grand (٩٣٦-٩٧٣) ليضمن مساعدة ألمانيا[٦]، ولكن سرعان ما أدرك لويس الرابع مدى ضعفه في الوقوف أمام هيو العظيم، فاضطر إلى مسالمته مكتفيا بالإقامة في مدينة ليون Laon[٧]عـام٩٤٥[١].

---

[1]Gerald Irving Anthony Dare Draper. Reflections on Law and Armed Conflicts: The Selected Works on the Laws of War. Martinus Nijhoff Publishers, 1998. p 26; François Neveux & Claire Ruelle. A brief history of the Normans: the conquests that changed the face of Europe. Robinson, 2008. P. 75.

[٢] راؤول البورغوندي (٨٩٠- ٩٣٦): هو زوج "إيما" Emma ابنة "روبرت الأول"، وقد نجح راؤول في الاستئثار بالعرش منذ وفاة شارل البسيط في عام ٩٢٩ حتى وفاته هو نفسه في عام ٩٣٦. يراجع :

Philippe Laure, Robert Ier et Raoul, duc de Bourgogne, rois de France (923-936), Bibliothèque Honoré Champion, Paris, 1910; Christian Settepani, Préhistoire des Capétiens, éd. Patrick Van Kerbrooke, 1993, p. 386.

[٣] الويس الرابع(٩٢٠- ٩٥٤): هو ابن شارل البسيط من زوجته أوجيف دى ويسيكس Ogive de Wessex، وقد ورث الصراع ضد البيت الباريسي الذي تمثل حينئذ في شخص "هيو العظيم". يراجع:

Anselm de Gibor, Histoire relative et chronologique de la famille royale française, Volume 1 (3e édition), Compagnie des Bibliothèques, Paris, 1726, p. 36.

[٤] هيو العظيم (٨٩٨ - ٩٥٦):هو ابن الملك روبرت الأول من زوجته بياتريس دي فرمندوا Beatrice de Vermandois وهو ابنه الوحيد إذ أنجب معه ابنتين هما "إيما" زوجة راؤول البورغوندي سالف الذكر - و أولا Aele زوجة هيربرت الثاني دى فرمندوا Herbert II de Vermandois، وبذلك يكون هيو العظيم هو وريث حكم نستوريا Neustrie ، وأيضا يحكم بر جنديا Bourgogne منذ عام ٩٤٣. يراجع :

Lucien Bély, The History of France (J.P. Gisserot, Paris, 2001), p. 21; Pierre Riché, The Carolingians; A Family who Forged Europe, Trans. Michael Idomir Allen (University of Pennsylvania Press, Philadelphia, 1993), pp.250-251.

[٥] أوتو الأول العظيم(٩١٢ - ٩٧٣): ابن هنري الأول امبراطور المانيا (٩٣٦-٩٧٣) من المنزل الساكسوني ، تزوج عام ٩٣٠ ، إديث ابنة الملك إدوارد الأول ملك إنكلترا ، وبعد وفاتها عام ٩٤٦ تزوج من الأميرة البورغوندية أديلايد أرملة الملك لوثر لومباردي ، وأخذ لنفسه لقب ملك لومباردي. بعد وفاة والده ، الذي أوصاه بالتاج ، تم تنصيب أوتو في مدينة آخن (٧ اب ٩٣٦) كملك جرماني، خاض عددا من الحروب الداخلية والخارجية لتوطيد حكمه وإقامة مملكة قوية مترامية الأطراف، وأجبر العديد من الأمراء على الخضوع له والإشادة ، توج أوتو إمبراطورا في الثاني من شباط ٩٦٢ من قبل البابا ، وأعلن إنشاء "الإمبراطورية الرومانية المقدسة". يراجع : محمد حمزة حسن،لبنى رياض عبد المجيد، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار غيداء للنشر والتوزيع، الاردن ، ٢٠١٥، ص ١٦٣ - ١٦٧ ؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، المصدر السابق، ص ٢٨٨ - ٢٩٥ .

[٦] أن القصود بالمانيا (الامبراطورية الرومانية المقدسة) .

Theodore Andrea Cook,The Story of Rouen, J.M. Dent & Co., London,1899,p,54.

[٧] ليون : مدينة ذات موقع مثير يعتلى سهلاً مرتفعا يطل على مسطح هائل من سهول شمال فرنسا، وأصبحت تلك المدينة بمثابة الحصن الأساسي في الاقليم، وكانت واحدة من أفضل مراكز إقامة الملوك الكارولنجيين، يراجع: حسام الدين ابراهيم عثمان ، موسوعة مدن العالم ، دار العلوم للنشر والتوزيع ، الاردن ، ٢٠١٤ ، ص ١٨١؛

William W. Clark: Leon, Medieval France an Encyclopedia, par/ william w. kibler, london ، 1995 , pp.521-22.

وعلى الرغم من أن أراضي الكارولنجيين أصبحت في الحد الأدنى لها وبدا ذلك ظاهراً للعيان من جراء ازدياد ممتلكات دوق الفرنجة[٢]، وذلك عندما توفى لويس الرابع في عام ٩٥٤[٣]، وحل محله في ابنه الملك لوثر Lothair [٤] على حين خلف هيو العظيم ابنه هيو كابيه Hugues Capet (٩٨٧ – ٩٩٦) الذي نجح في السيطرة على معظم أنحاء فرنسا في سنة ٩٨٦[٥]، وهي السنة التي توفى فيها لوثر، الذي خلفه لويس الخامس Louis v (٩٨٦ – ٩٨٧)[٦]، ولم تلبث أن جاءت وفاة لويس الخامس دون أن يترك ابناً يخلفه وبوفاته جاءت نهاية الأسرة الكارولنجية؛إذ تم تتويج هيو كابيه ملكا على فرنسا[٧]، وبذلك بدأ تاريخ أسرة ال كابيه في حكم فرنسا[٨].

استطاع ال كابيه أن يجعلوا من أنفسهم ملوكاً على الفرنجة على مدى قرنين من الزمان وربما أكثر ذلك من الناحية النظرية، أما من الناحية الفعلية فقد خرج من أيديهم ما كان للكارولنجيين من أراضٍ خاصة، ولم يبق للملك سوى الهيبة التي منحتها له الكنيسة بموجب

---

(1) Jim Bradbury, op. cit., p. 40.

(2) Ordericus Vitalis, op. cit., p.17.

(3) Yves Sassier, Hugues Capet: Naissance d'une dynastie, Fayard, coll. "Biographies historiques", 14 January 1987 , pp. 188-189.

(٤) لوثر(٩٤١- ٩٨٦): ولد في مدينة لاون (Laon) أواخر عام ٩٤١ ، وخلف والده الملك لويس الرابع في ١٠ أيلول ٩٥٤ وهو في سن الثالثة عشرة تحت وصاية دوق الفرنجة هيو العظيم، والجدير بالذكر أن لويس الرابع أنجب من زوجته جيربيرجا الساكسونية (Gerberga of Saxony) عدداً من الأبناء الذين بقوا على قيد الحياة، أبرزهم الملك لوثر، والأميرة ماتيلدا التي تزوجت لاحقاً من كونراد الأول ملك بورغوندي، والأمير شارل الذي تولى لاحقاً دوقية اللورين السفل، جرى تتويج لوثر في دير القديس ريمي بمدينة ريمس في ١٢ تشرين الثاني ٩٥٤م على يد رئيس الأساقفة أرتالد (Artaud) ، وكان والده قد أشركه فعلياً في إدارة بعض شؤون العرش منذ مرضه عام ٩٥١ ، وهو إجراء كارولنجي استهدف ضمان سلاسة انتقال السلطة وتجنب النزاعات على الإرث الملكي. يراجع :

Chisholm, Hugh, éd., Luther King de France, Encyclopædia Britannica, (11e éd.), Cambridge University Press, 1911.p. 18; Andrew W. Lewis, Royal Succession in Capetian France: Studies on Familial Order and the State (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1981), p.15.

(5)Alison Weir, Eleanor of Aquitaine: Queen of England by Divine Decree, Jonathan Cape, London, 1999, pp.5-6.

(٦) لويس الخامس(٩٦٦- ٩٨٧): هو ابن الملك لوثر من زوجته إيما توفى من دون أن يترك وريثا يمكنه الاستمرار في النضال ضد هيو كابيه، فجاءت وفاته عام ٩٨٧، حدا فاصلاً ينتهى عنده حكم الكارولنجيين، ويبدأ حكم آل كابيه، يراجع:

Privitt Orton C.W., Concise History of the Middle Ages, Cambridge University Press, 1929, p. 568; Pierre Riché, op. cit.,p.265.

(٧) عبد العزيز عبد الرحمن المسلم، مدائن الريح رحلات في العالم، دار السويدي للنشر والتوزيع، ابو ظبي، ٢٠١١ ، ص ١٠٧ .

(8)Dom Martin Bouquet, Chronicon Regum Francorum, R.H.G.F., Tomus X, Lutetiae Parisiorum, 1760.p.301; Gulielmus Godel, Historia sive Annales Galliae et Franciae 992-1060,R.H.G.F., Tomus X, Victor Balmey, Lutetiae, 1874,p.259; Monachii ignoti (Autissiodorensis) "Annales Autissiodorensis", Collectio Historicorum Galliae et Galliae R.H.G.F., edited by Martin Bouquet, Tomus X, Paris, 1760, p.275; Vitalis Orderick, op. cit., p.18 .

محافظته على النظام والقانون، وعلى الرغم من ذلك لم يحقق ملوك ال كابيه الأوائل أعمالاً شهرتهم عبر التاريخ[١]؛ حيث اكتفى الملك من تلك الأسرة بالحكم داخل أراضيه وإقطاعاته، التي كانت تمتد على وجه التقريب لا التحديد من باريس إلى أورليان Orlean[٢]، ولم يتعد أراضيه وإقطاعاته إلا إذا طلب منه ذلك، فمارست أغلب الإقطاعات الاستقلال بالوفاق[٣]؛ وكانت من أقوى الدوقيات الفرنسية فلاندرز Flanders[٤] بورغوندي Bourgogne أكيتاينAquitaine،بريتانيBrittany[٥]،نورماندياNormandy[٦]،ذلك فضلاً عن جاسكوني Gascony[٧]، وتولوز Toulouse[٨]، وشامباني Champagne[٩] وغيرها، وكل تلك

---

[١] ها دريل، ج.م والاس، أوروبا في صدر العصور الوسطى، ترجمة:حياة ناصر الحجي، ج١، مؤسسة الصباح، الكويت ، ١٩٧٩، ص ٢٠١ .

[٢] مدينة تقع في شمال وسط فرنسا، على بعد حوالي ١٢٠ كيلومترًا جنوب غرب باريس ، كانت مسرحًا لأول انتصار لجان دارك على الإنكليز خلال حرب المائة عام. يراجع :

aurent Mazuy (sous la direction de), Orléans 1000 fois plus belle, le patrimoine au cœur de la ville, Éditions du Jeu de l'Oie, 2019, p.160; René Biémont, Orléans, H. Herluison, 1880 (réimpr. 1991), p.507.

[٣] محمد محمد مرسى الشيخ ، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، الدار العربية للنشر والتوزيع ، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٤٢٤

[٤] فلاندرز : كونتية فرنسية تتميز أراضيها بالانخفاض، لذا كان هناك اختلفات كبيرة في مساحتها عبر مراحل التاريخ، وكانت تنقسم إلى قسمين فلاندرز الفرنسية، والجزء الآخر يتبع مقاطعة بولونيا . يراجع :

Moare, W.G., The Penguin Encyclopedia of Places, (New York, 1978), p.134.

[٥] بريتاني: دوقية فرنسية، فهي Bretagne قديما، شبه جزيرة تقع فيما بين القنال الإنكليزى و خليج بسكاى وقعت تحت سيطرة الرومان في عام ٥٦ ق.م. واستمرت سيطرتهم عليها على القرن الخامس الميلادي، وأصبحت دوقية في القرن العاشر الميلادي . يراجع :

Philip (B), Life and Work in Medieval Europe, London, 1942, p. 52; Moore, W. G., op. cit., p. 127.

[٦] نورماندي : تقع غرب القارة الأوروبية، يفصلها عن مملكة إنكلترا القنال الإنكليزي ويحدها من الشمال دوقية فلاندرز، ومن الشرق السلطة الملكية الفرنسية The Royal domain ، ومن الجنوب الشرقي أورليان Orleans وشامباني ومن الجنوب مين Maine والجنوب الغربي انجو Anjou ومن الغرب بريتانى Brittany . يراجع :

Haskins, C.H, The Norrmans in European History, Cambridge, 1915,p.61.

[٧] مقاطعة فرنسية تاريخية، تقع جنوب غرب فرنسا .يراجع : حسين مؤنس، اطلس تاريخ الاسلام ، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة ، ١٩٨٧، ص ١٣٧ ؛

Beaumont Charles Gascony, Encyclopædia Britannica, Volume 11 (11th Edition), 1911, pp. 494-495.

[٨] تولوز: كونتيه فرنسية، وهي تولوسا Tolose قديما، تقع ضمن نطاق إقليم لا تجدوك Langdouc على نهر الجارون Garonne وقناة دي ميد du Midi . يراجع : سعد خليل الشعيبات ، مصادر تمويل الحملات الصليبية ١٠٩٥-١٢٥٠ ، شركة الآن ناشرون وموزعون ، الاردن ، ٢٠٢١ ، ص ١٢٦ ؛ Moore, W.G., Op.Cit., p.790

[٩] شامباني: دوقية فرنسية تقع في الشمال الشرقي، وتشمل عدة مدن هامة في أردنيس Ardennes ومارين Marme ، وليبو Aubo ، وهيوت مارين Haute Mane ، وتضم الدوقية أجزاء أخرى كثيرة منها أسن Seine والسين Aisne . يراجع : محمد جمعه محمد ، اسواق كونتية شامباني الموسمية في المملكة الفرنسية خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين ، مجلة سوبك للدراسات التاريخية والحضارية ، كلية الآداب ، جامعة الفيوم ، العدد ٣ ، ٢٠٢٢ ، ص ٨٧ ؛

Boissonnade, P., Life and Work in Medieval Europe, London, 1973, p.171; Aryeh, G., The Illustrated Encyclopedia of Medieval Civilization, London, 1980, p.185.

الإقطاعات كانت تحمل آمالاً عظيمة في الوقوف على قدم المساواة مع الملك الفرنسي إن لم تكن آمالها منافسة ذلك الملك في القوة والسلطان،وقد اختلف شمالي فرنسا عن جنوبيها، فالجنوب غلب عليه طابع التراث الروماني، أما الشمال فتأثر بالتراث الجرماني[١].

ومن الواضح أن قيام أسرة ال كابيه في حكم فرنسا سنه ٩٨٧ لا يعني أكثر من قيام أسرة حاكمة محل أسرة أخرى، إذ لم يلبث ال كابيه أن استحوذوا على مكانة الكارولنجيين وامتيازاتهم من جهة، كما أصبحوا السادة الأعلين لجميع الإقطاعيين في المملكة من جهة أخرى، وحتى ندرك مركز هيو كابيه يجب أن ننظر إليه من ثلاث زوايا مختلفة أولهما أنه توج ملكاً على دولة الفرنجة الغربية (فرنسا) لينتزع السلطة من الكارولنجيين ويحل محلهم، وثانيهما أنه جاء ممثلاً لكبار الإقطاعيين، وأخيراً أنه هو نفسه لا يعدو أن يكون أميراً إقطاعياً في إقطاعة أوفي دوقيته[٢]، ومما يشير إلى بعض أسباب سقوط الملكية الكارولنجية أنها لم تستطع أن تمثل التطور الإقطاعي وتسايره في وقت صار لا يوجد محل لسلطة لا تعتمد على دعائم وأسس إقطاعية[٣]؛ يمكن القول بأن أسرة ال كابيه لعبت دوراً جوهرياً في إنقاذ مؤسسة الملكية في فرنسا وانتشالها من براثن الانهيار، وذلك من خلال تبنيها لنهج إقطاعي مرن مكنها من التكيف ببراعة مع معطيات العصر وظروفه، ومقارنة بالحقبة المتأخرة للكارولنجيين التي اتسمت بالضعف والانحطاط، فقد مثل عهد أوائل الكابيتيين فجراً جديداً من الصحوة والبناء، وتكمن العبقرية السياسية لال كابيه في كونهم "أمراء إقطاعيين توجوا بتاج الملك"، حيث تخلوا بواقعية تامة عن الأوهام التوسعية والمركزية للإمبراطورية الكارولنجية، واندمجوا بسلاسة في نسيج النظام الإقطاعي الناشئ، وبفضل ما تحلوا بهِ من حنكة سياسية وصبر استراتيجي، تمكنوا من توظيف آليات ذلك النظام وقوانينه لصالحهم، لينجحوا في نهاية المطاف في تحويل عرش فرنسا من مجرد واجهة شرفية واهنة، إلى مؤسسة سيادية صلبة قادت البلاد نحو آفاق رحبة من النهضة والتقدم[١].

ومن ذلك المنطلق يمكن تحليل الأحداث التي وقعت خلال مدة حكم ال كابيه الأوائل، التي كان هيو كابيه أول ملوكها، فقد أكسب تلك الأسرة الحاكمة لقبها الذي عُرفت بهِ في التاريخ،

---

[١] الجرمان : قبائل من شمالي أوروبا هاجمت الامبراطورية الرومانية عام ١١٠ ق.م، عرفت قبائلهم التي عبرت الراين بالتونجريين، وكانوا من سلالة الكمفريين ،المارسيين، والوندال ، عرفوا أيضا بالعناصر التيوتونيه أو النيوتون، أو قبائل الكمبري من اقصي شمال جوتلاند، ولقد هاجر العديد منهم إلى وادي الدانوب عام ١١٣ ق.م، إذ واجهوا الإمبراطورية الرومانية المتوسعة، ثم هاجموا ايضاً في عام ١٠٨ق.م في وادي الرون، إذ كانت غاراتهم مجزأة ، وخلال أواخر القرن الثاني قبل الميلاد تم تسجيل الجرمان على أنهم يسيرون غربا عبر بلاد الغال ويهاجمون إيطاليا الرومانية. للمزيد حول القبائل الجرمانية يراجع : تاكيتوس ، الشعوب الجرمانية، ترجمة : ابراهيم طرخان ، دار الضياء ، القاهرة ، ١٩٥٩؛ محمد مرسي الشيخ ، الممالك الجرمانية في اوروبا العصور الوسطى ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٧٥ ؛ محمد جمال مبارك ، دور الشعوب الجرمانية في حضارة الغرب بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية ، مجلة كلية الآداب ، جامعة بور سعيد ، العدد ٢٧ ، ٢٠٢١ .

[٢] سعيد عبد الفتاح عاشور ، المصدر السابق ، ص ٢٤٣ .

[3] Saidney Painter, Ahistory of the Middle Ages, 284-1500, New York, 1954, p. 155; Elizabeth M. Hallam, op. cit., p.64.

وعلى ما يبدو أن مدة حكمه كان بها قدر ضئيل من التغيير في السلطات والسياسات الخاصة بالملوك الفرنسيين السابقين[٢] على الرغم من وصفه رجلاً نشيطا في الجسد والعقل[٣]، ويظهر ذلك جلياً في تطور علاقته مع رجال الدين، حيث إن مساندة كبار رجال الكنيسة كان أمرًا حيويًا في عملية انتخابه[٤] ؛وقد استمر الاعتماد عليهم ضد تحدى شارل دوق اللورين السفلى[٥] Charles de Lorraine - لوثارينجيا الشمالية- ، الذي دعم من كونت فيرماندوا،أحد أتباع السلالة الكارولينجية،ومن كونت فلاندرز،الموالي للقضية الكارولينجية، واستولى شارل على لاون، مقر العائلة المالكة الكارولينجية؛ حاصر هيو كابيه وابنه روبرت المدينة مرتين، لكنهما اضطرا إلى الانسحاب في كل مرة، وعلى أثر ذلك اراد هيو التحالف مع ثيوفانو Theophanu (وصية ابنها أوتو الثالث Otto III ٩٨٠ – ١٠٠٢ الامبراطور الروماني المقدس)، لكنها لم تستجب أبدًا[٦].

كان شارل دوق اللورين مدعوماً من قبل أرنولف Arnulf (٩٦٧- ١٠٢١) الابن غير الشرعي للملك لوثير ملك فرنسا وابن شقيق شارل من لورين؛ لكن هيو كابيه حاول النيل من أرنولف حينما جعله رئيس أساقفة ريمس خلفاً لأدالبيرون Adalberon (٩٢٥- ٩٨٩)، بدا اختيار أرنولف ليحل محل أدالبيرون مقامرة كبيرة، لكن هيو قرر ذلك على أي حال، واختاره رئيسًا للأساقفة بدلاً من جيربرت Gerbert- الساعد الأيمن للأسقف الراحل والبابا سيلفستر الثاني Sylvester II مستقبلاً- كان هدف هيو من وراء ذلك القرار استمالة المتعاطفين مع الكارولينجيين وتهدئة السكان المحليين، وعلى الرغم من أن أرنولف بادر بأداء يمين الولاء، إلا أن الوقائع أثبتت لاحقاً أن تقدير هيو كابيه للموقف قد جانبه الصواب، ولم تكن تلك الخطوة تتسم بالحكمة السياسية [٧]، فسرعان ما تغلبت روابط الدم على العهود،

---

(1) Archivo S. Martini Turonensis, Hugonis Regis promissio in Die coronationis Suae, R.H.G.F., Tome, XI, p.658; T.F. Tout: The Empire and the papacy, London, 1924, p. 73; Elizabeth M. Hallam,op. cit., pp.64-65.

[٢] يراجع : ملحق رقم ١ ؛

Elizabeth M. Hallam, op. cit., p.67.

(3) Pierre champion: Histoire De France, Moyen Age er Renaissance, Flammarion, 1934, p.29.

(4) Ferdinand Lhote, Les derniers Carolingiens, Hugues Cabet et Charles de Lorraine, Paris, 1891, p. 209 ; extrait de Une brève histoire de France, R.H.G.F., Vol. X, p. 278.

[٥] شارل دوق اللورين(٩٥٣- ٩٩٢): هو ابن الملك لويس الرابع، وأخو الملك لوثر، وعم الملك لويس الخامس الذي نظرا لوفاته دون أن يترك ابنا؛ أعطى شارل ذلك الحق لنفسه في المطالبة بعرش الكارولنجيين على اعتبار أنه آخر سلالتهم الذكور، وذلك دخل في صراع ضد هيو كابيه انتهى بفشله في محاولة استرداد عرش أجداده ووفاته عام ٩٩٣.

Hugo Floriacensis, "Pars Historiae Fratris Hugonis," in Collectione Historicorum Galliae et Franciae, R.H.G.F., Vol. 10, edidit Martinus Bouquet et Victor Balme, Lutetiae Parisiorum, 1760, p.68.

(6)Guillelmus de Nanges, Collectio Historicorum Galliae et Franciae RH.G.F, edidit: Dom Martinus Bouquet, Tomus X, Typographia Regia, Lutetiae, 1760, p.301.

(7)Hugo de Flavini, "Annales Verdunenses," in Collectione Historicorum Galliae et Franciae (R.H.G.F.), ediderunt Dom Martinus Bouquet, Vol. 10, Lutetiae, 1760, p.205;

ودبّر أرنولف مكيدة محكمة لتسليم ريمس Reems لعمه شارل؛ إذ جمع نبلاء المدينة في قلعته، وأوعز لأحد رجاله سراً بفتح أبوابها أمام قوات عمه، ولإحكام خطته، تظاهر أرنولف بالذعر الشديد واحتمى مع النبلاء ببرج المدينة، مما وضع ريمس أمام خيار الاستسلام الحتمي، ولترسيخ ذلك الانتصار، أعلن أرنولف ولاءه التام لشارل، وهو الموقف الذي تزامن مع تعزيز شارل لنفوذه بحصوله على دعم ومساندة رودولف الثالث ملك بورغوندي Rudolph III of Burgundy[١] زوج أخته ومساندة أود الأول[٢] كونت بلوا I .Eudes de Blois وبناءً على ذلك قام هيو في عام ٩٩٠ بتجهيز الجيش لمواجهة أعدائه، وحينما أعلن شارل دوق اللورين الحرب سرعان ما انسحب الأول وعاد إلى الدبلوماسية مرة أخرى[٣]، وكان في ذلك الوقت أكثر من محظوظ[٤]؛ لأنه نجح في استمالة أود الأول بمنحه مدينة درو Dreux[٥] عام ٩٩١ في مقابل أن يحصل على وعد منه بمساعدته في مواجهة شارل، وعلى الرغم من ذلك لم يقدم أود أية مساعدة للملك[٦]، وكان هيو كابيه في مأزقٍ عظيمٍ، زعزع ثقته في إمكانية حسم المنافسة لصالحه عبر القوة العسكرية وحدها؛ وفي تلك الأثناء، برز دور أدالبيرون، أسقف لاون،Adalberon bishop of Laon (٩٤٧-١٠٣٠) الذي لجأ إلى هيوكابيه طلباً للحماية بعد أن طرده شارل إثر استيلائه على المدينة، لجا الأسقف إلى المناورة السياسية، حيث بادر بطرح وساطة لإحلال السلام بين شارل وأرنولف من جهة، وهيو كابيه من جهة أخرى، وعلى الرغم من أن شارل أبدى قبولاً لعودة

Iberius Johannes, "Historia Sancti Bertieni," Collectio Historicorum Galliae et Franciae (R.H.G.F.), edidit Michael Bréal, Volumen XVIII, Typographia Regia, Lutetiae 1822, p.298.

[١]رودولف الثالث(٩٧٠- ١٠٣٢): ابن رودولف الثاني Rodolphe II ملك بورغوندي، وزوج ماتيلدا Mathilde ابنة لويس الرابع ملك فرنسا وقد تحالف مع شارل دوق اللورين على اعتبار أنه صهره. يراجع:
Hepidannus, Ex Hepidanni Monachi S. Galli brevibus Annalibus, in: Collection des Historiens de Gaule et de France (R.H.G.F.), ed. Martin Bouquet, vol. X, Parisiis, 1760, p.193.

[٢]أود الأول(٩٥٠- ٩٩٦): ابن تيبو لى تريشير Thibaud Le Tricheur " كونت بلوا وشارتر وشاتيدون Comte de. وهو زوج ، Liégard de Vermandois من زوجته لبيجارد دى فرمندوا Blois Chartres et Chateaudun بيرتا دى بر جنديا Berthe de Bourgogne ابنة الملك كونراد الثالث سالف الذكر، وقد تحالف مع شارل دوق اللورين على اعتبار أنه خال زوجته. يراجع :
Martin Bouquet (et alii), Recueil des Historiens des Gaules et de la France, tomus X, Victor Balmy, Paris, 1874, pp.556-559.

[3]Johannis Iperii, op. cit., p.298; Anonymus, "Excerptum ex Brevi Historia Franciae," in: Collectione Historicorum Galliae et Franciae (R.H.G.F.), edidit Dom Martinus Bouquet, Vol. 10, Lutetiae, 1760, p.278; Elizabeth M. Hallam, op. cit., p.68.

[4]Elizabeth M. Hallam, op. cit., p.68.

[٥] درو: أنشأت في القرن العاشر الميلادي، في موضع استراتيجي بين الممتلكات الملكية، فيما بين دوقية نورمنديا وكونتية شارتز. يراجع :
R.thomas McDonald/ William W.Clark: Dreux, Medieval France an Encyclopedia, par william w. kibler, New York and London, 1995, p.305.

[6] Diplomata Hugonis Capeti Regis Francorum, op. cit., pp.559-60; Elizabeth M. Hallam, op. cit., p.68; Yves sassierop. cit., p.230.

أدالبيرون، إلا أنه ألزمه بأداء قسمٍ مُغلّظ يستجلب اللعنة في حال الحنث بهِ [١]، فما كان من الأسقف إلا أن أقسم قائلاً: **"سألتزم بقسمي، وإذا لم أفعل، فليكن موت يهوذا مصيري"**[٢] غير أن ذلك القسم لم يكن سوى غطاءً لمكيدة دُبّرت بليل، إذ استغل الأسقف نوم خصومه لينقضّ على شارل وأرنولف ويقبض عليهما، ثم سلمهما إلى هيو كابيه، ليُسدل الستار على مصير شارل سجيناً في أورليان حتى وافته المنية[٣].

أما بالنسبة لأرنولف، فقد ظل يمثل مشكلة للملك حتى حكم عليه بالخيانة في مجمع سانت بازل[٤] Synode a Saint Basle عام ٩٩١ ، مما دفع بالملك هيو كابيه نقل القضية إلى البابوية ، إذْ طالب هيو البابا يوحنا الخامس عشر Jan XV (٩٨٥ – ٩٩٦)[٥]، بعزله، لكن البابا كان متورطًا في صراع مع الأرستقراطية الرومانية، وكذلك لا يحق للملك هيو كابيه عزل أسقف من منصبة دون موافقة البابا، الإ أنَ أرنول Amoul (- ١٠٠٣) أسقف أورليان Orleans، كان له رأي آخر حيث يعد البابوات رجالاً ضعفاء ومفسدين، واعتقد أن ذلك الأمر كان متعلقا بالكنيسة الفرنسية وليس البابوية؛ اذ اتهم أرنول البابا يوحنا الخامس عشر قائلاً: **"من يجرؤ على الادعاء بأن رجال الدين في شتى بقاع الأرض ملزمون باتباع شرائع تصدر عن أناسٍ غارقين في الرذيلة، وموسومين بالعار، ويفتقرون إلى أدنى درجات المعرفة بالشؤون الإلهية والبشرية؟ إنه لمن المنطق السليم، أيها الآباء الأجلاء، أننا إذا كنا نخضع المرشحين لأصغر الرتب الكهنوتية لمعايير دقيقة وموازين حساسة نزن بها أخلاقهم وإنجازاتهم، فمن الأجدر والأوجب أن نتشدد أضعافاً مضاعفة عند النظر في كفاءة من يطمح لسيادة الكهنة جميعاً. وتتجلى المأساة الكبرى حين يرتقي إلى قمة الهرم الكنسي رجلٌ هو الأفقر فضيلةً والأقل استحقاقاً حتى لأدنى الدرجات؛ فمشهد مثل ذلك الشخص وهو يتربع على العرش متوشحاً بالأرجوان والذهب لا يمكن تفسيره إلا بأنه**

---

(1) Ferdinand Lot, op. cit.,p.281; Johannis Iperii, op cit., p.298; Diplomata Hugonis Capeti Regis Francorum, op. cit., p.561; Elizabeth M. Hallam, op. cit., p.68.

(٢) موت يهوذا: إحالة دينية ورمزية إلى"يهوذا الإسخريوطي"، التلميذ الذي خان السيد المسيح في السردية الإنجيلية، يُضرب بهِ المثل في الخيانة وسوء العاقبة، حيث انتهت حياته بالانتحار شنقاً بطريقة مأساوية ، ويُقصد بها أيضاً المبالغة في تأكيد الالتزام بالقسم، والدعاء على النفس بأشنع أنواع الموت والعار والخزي الأبدي في حال الحنث بهِ، مساواةً بمصير الخائن يهوذا. يراجع: أحمد بن عبد الله الزغيبي، العنصرية اليهودية وآثارها في المجتمع الإسلامي والموقف منها،ج٢، مكتبة العبيكان، الرياض ، ١٩٩٨، ص ٢٤٩ .

(3) Heinrich Fichtenau, Patrick J. Geary, Living in the Tenth Century: Mentalities and Social Orders ,1991, p. 187; Jason Glenn, Politics and History in the Tenth Century: The Work and World of Richer of Reims ,2004, p. 147.

(4)Dom Martin Bouquet et al., « Le complexe de l'abbaye de Saint-Bazoul », Collection des historiens de Gaule et de France (R.H.G.F.), Volume X, Édition Victor Balmey, Paris, 1874, pp. 513-514.

(٥)البابا يوحنا الخامس عشر(- ٩٩٦): تم ترسيمه في ٩٨٥ ، وتوفى في نيسان عام ٩٩٦ ، كان له دور بارز في التصدى الأساقفة الكنائس الفرنسية، ولم يسمح لهم بالتدخل في الأمور التي تتعلق بالسلطة البابوية، مما أثار مشكلة بين البابا يوحنا الخامس عشر، والملك الفرنسي هيو كابيه، انتهت بخضوع الكنيسة الفرنسية للبابوية . يراجع :
J.P.Kirsch,John XV, The Catholic Encyclopedia, Tome, VIII, London, 1910, pp.427.

تجسيد لـ "المسيح الدجال" الذي يحتل هيكل الرب مدعياً الألوهية زورا"؟[١].

حاول الملك والأساقفة إدانة وطرد أرنولف دي ريمس، واختيار جيربرت بدلاً من أرنولف، رفضت روما إجراءات سانت بازل،على الرغم من أن مجمعاً ثانيًا صدق على المراسيم الصادرة في ريمس، حيث استدعى يوحنا الخامس عشر الأساقفة الفرنسيين لعقد مجمع مستقل خارج مملكة الملك الفرنسي في آخن لإعادة النظر في القضية[٢]، وعندما رفضوا، دعاهم إلى روما، غير أنهم تذرعوا باستحالة تلبية تلك الدعوة نظراً للاضطرابات الأمنية والمخاطر التي كانت تكتنف الطريق والوضع العام في روما، ثم إزاء ذلك، أوفد البابا مندوباً يحمل توجيهات لعقد مجمع كنسي يضم الأساقفة الفرنسيين والألمان في موسون Mosson،وقد اقتصر الحضور في ذلك المجمع على الأساقفة الألمان، إذ حال الملك هيو كابيه وابنه روبرت Robert II دون وصول نظرائهم الفرنسيين؛ وعلى الرغم من ذلك، تكللت مساعي المندوب البابوي من إصدار إعلان يقضي بعدم قانونية عزل أرنولف[٣]، وبمجرد وفاة هيو كابيه في الثالث والعشرين من تشرين الأول عام ٩٩٦، أُفرج عن أرنولف من محبسه وأعيد إليه اعتباره ومكانته كاملة، في حين غادر جيربرت متوجهاً إلى البلاط الإمبراطوري في ماغديبورغ، اذ تولى مهمة تهذيب وتعليم الإمبراطور أوتو الثالث Otto III (٩٨٣ – ١٠٠٢) [٤].

أن أهم أحداث عصر الملك هيو كابيه هو تتويج ابنه روبرت الثاني ملكاً خلال حياته في ٣٠ كانون الأول عام ٩٨٧[٥]، والصراع مع المتصدين للملك الشاب[٦]، وهكذا فإن أحداث عهد الملك هيو كابيه تظهر مدى اعتماده على الدبلوماسية أكثر من الشجاعة العسكرية كلما كان متاحًا؛ ربما كان ذلك بسبب إحساسه بالضعف تجاه خصومه من بقايا البيت الكارولنجي، مما أعطاه المبرر للحفاظ على منصبه الملكي، لاسيما أنه ظهر كأول ملك لال كابيه بصورة غير مفروضة، وعلى الرغم من ما فعله هيو كابيه من تتويج ابنه في حياته؛ قد وضع أسساً متينة اتبعها خلفاؤه في القرنين التاليين، مما جعل العرش ينتقل في سهولة إلى ابنه روبرت الثاني.

---

(1)Kirsch, Ioannes Petrus. "Papa Ioannes XV," Encyclopaedia Catholica, Vol. 8. Novi Eboraci: Robert Appleton Company, 2017, p.18.

(2)Philip Schaff; David Schaff, History of the Christian Church, Charles Scribner & Sons, New York, 1885, p.32.

(3) J.P.Kirsch,John XV, op. cit., p.427.

(4)Elizabeth M. Hallam, op. cit., p.68-69; Yves sassier,op. cit., p.228-29 .

(5)Anonymus, , op. cit., p.278; Johannis Iperii, op. cit., p.298; Jean-Mathieu Rozay, Ils ont régné sur la France, Maison d'édition Marabou, Belgique, 1987, p.106.

(6) Diplomata Hugonis Capeti Regis Francorum, op. cit., pp.548-52; Elizabeth M. Hallam, op. cit.,p.68-69.

٢. روبرت الثاني (التقي) ٩٩٦ – ١٠٣١ .

تباينت آراء المؤرخين حول مكان وتاريخ ولادة الملك روبرت الثاني، إلا أن الرأي الراجح يميل إلى أنه وُلد في مدينة أورليان الفرنسية عام ٩٧٢ [١]، اذا انه الابن الوحيد للملك هيو كابيه والملكة أديلايد من أكيتاين Adelaide of Aquitaine(٩٤٥- ١٠٠٤)[٢] بعد وفاة اختيه هيدويج كونتيسة مونسHedwig, Countess of Mons(٩٧٠- ١٠١٣)[٣] وجيزيل كونتيسة بونتيوGiselle, Countess of Ponthieu (٩٦٨-١٠٠٢)[٤].

تلقى روبرت تعليمه في أروقة المدرسة الأسقفية بمدينة ريمس تحت إشراف وتوجيه جربرت، في وقتٍ كانت فيه تلك المدرسة تتربع على عرش المؤسسات التعليمية وتتمتع بشهرة واسعة بوصفها المنارة العلمية الأبرز في العالم المسيحي الغربي، وقد انكبَّ روبرت على دراسة اللغة اللاتينية والتبحر في علوم الفلك والهندسة والحساب، وذلك في حقبة تاريخية كانت فيها المعرفة والثقافة حكراً شبه مطلق على المؤسسة الكنسية؛ إذ كان الطابع العسكري والاقطاعي الغالب على طبقة النبلاء في بداية عصر ال كابيه ، ما لم ينهلوا من معين التعليم الكنسي الذي كان السبيل الوحيد للتحصيل المعرفي الرصين آنذاك، بعد مدة وجيزة من تتويجه في تموز ٩٨٧؛ رتب هيو بحكمة انتخاب روبرت، حيث كانت حجة الأخير انه يخطط لرحلة استكشافية ضد الجيوش المغربية المسلمة التي كانت تضايق الكونت بوريل الثاني كونت برشلونة Borrell II, Count of Barcelona (٩٤٥- ٩٩٣) ، - التابع للتاج الفرنسي- وهو الغزو الذي لم يحدث أبدًا، وأن استقرار البلاد يتطلب وجود ملك صغير، في حالة وفاته أثناء الرحلة الاستكشافية، الإ أن ذلك المطلب قوبل برفض رئيس اساقفة ريمس أدالبيرو Adalbero **"ليس لدينا الحق في إنشاء ملكين في نفس العام"** وبسبب ضغط جيربرت على رئيس اساقفة ريمس حيث اكد له أن التتويج ضرورة بسبب الحملة ضد المسلمين وتأمين انتقال مستقر للسلطة، وافق رئيس الأساقفة أدالبيرو على مقترح جيربرت، وعلى عكس تتويج هيو كابيه، كان تتويج ابنه روبرت - كملك مشارك - من قبل أسقف سانت ريمي ريشيروس Saint-Remy-richeros (٩٧٢- ١٠٣١)،حيث ارتدا روبرت زياً منسوجاً بخيوط ذهبية، وكان له من العمر ١٥ عاماً ، ثم كرس من قبل رئيس أساقفة ريمس في الخامس والعشرون من كانون الأول ٩٨٧، مما سهل الخلافة النهائية لابنه

---

[١] ذكر كاتب السيرة الذاتية لطفولة الملك روبرت دي فلوري أن روبرت الثاني ولد في أورليان حوالي عام ٩٧٢ . يراجع:

De Fleury, Helgood, dans du Roy Robert Le Beau, traduit par : Franck Ermaux-Guizot, Brulé, Paris, 1993, p.382.

[2]Jim Bradbury, op. cit., p.69.

[3] Bouchard Constance, The Origins of Noble Families in Medieval France, University of Pennsylvania Press, New York, 2001, p.112.

[4]Heather J. Tanner, Brielden, Families, Friends and Allies, Boulogne and Politics in Northern France and England 879-1160, Brielden, Boston, 2004.p.43.

في تشرين الأول ٩٩٦ كحاكم وحيد[١].

اشتهر باسم روبرت القوي Robert the Strong (٨٣٠ – ٨٦٦) على اسم سلفه البطل روبرت القوي، الذي قتل في معركة بريزارت Battle of Brissarthe ضد البريتون والفايكنج عام ٨٦٦[٢] ، ولقب بالورع Robert the pious، ولعل سبب دعوته بذلك اللقب هو ما وصفه بأنه رجل متواضع يشفق على الفقراء والضعفاء، ومنفق على أعمال الخير، كما أنه قام بتأسيس العديد من الكنائس،ذلك فضلاً عن موقف القساوسة ورؤساء الأديرة والرهبان الذين كانوا يرون فيه مثالاً للفضيلة وليس فقط جديراً بالتقليد لكن بالإعجاب أيضا، فقد كان رجلاً ذا فضيلة واضحة ورحمة واسعة[٣]، وإلى جانب خصاله النبيلة، تمتع روبرت بمواهب فنية فريدة، إذ كان شاعراً وملحناً حوّل قصره إلى ملاذٍ للعزلة الدينية والتأمل الروحي. غير أن موهبته الموسيقية لم تكن ترفيهية بالمعنى الدنيوي الحديث، بل تجلت في كونه موسيقياً كنسياً يُسخر فنه لخدمة العقيدة. فقد أبدع في نظم الشعر الديني باللغة اللاتينية، وتولى بنفسه تلحين هذه الأشعار لتُردد كترانيم ومستجابات وأناشيد مقدسة تزيّن طقوس القداديس والصلوات[٤].

كانت حياته الخاصة مختلفة بعض الشيء، ففي بداية حياته كان هناك توتراً كبيراً بينه وبين معظم الكنائس الفرنسية، حيث بدأت المشاكل منذ عام ٩٨٨ عندما شرع والده بتزويجه من روزالا Rozala ابنة بيرينجار الثاني Berengar II ملك إيطاليا Le roi d'Italie أرملة أرنول" الثاني" Armoul II كونت فلاندرز Cote de landre (٩٦٥-٩٨٧)، كان هدف هيو كابيه من ذلك الزواج على ما يبدو مكافأة الفلمنكيين على مساعدتهم عندما استولى على السلطة في عام ٩٨٧[٥].

اقيم حفل الزواج في نيسان ٩٨٨، لكن بعد حوالي ثلاث سنوات من الزواج سرعان ما أنفصل عنها في عام ٩٩١[٦]، وسبب ذلك عدم قدرتها على إنجاب وريث للملك، إذ كانت روزالا أكبر منه بحوالي ٢٢ عامًا؛ وحينما أصبح ملكا في عام ٩٩٦[٧]، صمم روبرت على وجود وريث ذكر، حيث وجد نفسه منجذباً نحو بيرثا دي بورغوندي Bertha de

---

(1) Andrew W. Lewis , the expected heir bond in early Capetian France , American historical revisionvolume 83, No. 4 (October 1978), p.907.

(2)Einar Göransson, Dangeld in France, Augustana Publishing House, USA, 1923, pp. 59-61.

(3)Helgaud de Fleury, Epitoma Vitae Roberti Regis, in: Recueil des Historiens des Gaules et de la France (R.H.G.F.), Tome X, ed. Dom Martin Bouquet et al., Paris, 1760, pp.99-100; Johannis Iperii: op. cit., p.299; Elizabeth M. Hallam, op. cit., p.70.

(4)Dermott McCulloch, A History of Christianity, Penguin Books, London, 2010, p. 396.

(5)David Nicholas, Flanders in the Middle Ages, Longman, New York, 1992, p. 45.

(6)Recueil des historiens de la Gaule et de la France. Édité par Dom Martin Bouquet et al., Volume X, (Section : Diplomatie du roi Robert et de la France), Victor Balmet, Paris, 1874.p.573; Elizabeth M. Hallam, op. cit., p71.

(7) Hellgaldi Floriac, op. cit, p. 104.

Bourgogne (٩٦٤-١٠١٠) كونتيسة بلوا Blois هي ابنة كونراد الثالث ملك بورغوندي، وأرملة أود الأول Aude I (٩٥٠- ٩٩٦) كونت بلوا، فهي من سلالة ملكية لا جدال فيها، سرعان ما اعجب الطرفان ببعضهما على الرغم من جميع الصعوبات حيث كانت دوقية بلو على عداء كبير مع والده هيو كابيه، لكن بعد وفاته هيو كابية وأودو الاول كونت بلوا أصبح الطريق ممهداً للزواج، لم تنحصر أهداف روبرت من وراء ذلك الزواج في تأمين وريثٍ شرعي للعرش فحسب، بل انطوت طموحاته أيضاً على أبعادٍ توسعية تمثلت في رغبته بضم ممتلكات أود الأول، والتي كانت تشمل مناطق بلوا وشارتر Chartres ومليون وميو، إلى نفوذه المباشر[١]، وفى عام ٩٩٧ تم الاحتفال بتلك الزيجة، ولكن ذلك الاحتفال كان خرقًا للقانون الكنسي؛ فلم يكن روبرت بيرثا أقارب من الدرجة الثالثة فقط لكن كان روبرت يُعدَ عراباً وأباً روحياً لأحد أبناء بيرثا - ثيوبالد الثاني Theobald II (٩٨٣ - ١٠٠٤)-، وكان أيضا يمدهم بنوع من الألفة الروحية، والسبب الثاني وحده كاف لمنع إتمام هذه الزيجة[٢]، استطاع الملك روبرت حينذاك اتمام الزواج المحرم من خلال رئيس أساقفة تورز Tours أرشامبود دي سولي Archambaud de Sully، في تشرين الثاني ٩٩٧[٣]، أثار ذلك الزواج غضب البابا غريغوري الخامس Gregory V(٩٩٦– ٩٩٩) وفي العام التالي تم عقد مجمع عام للكنيسة في بافيا ٩٩٨ وكذلك عقد مجمع آخر في روما ٩٩٨، وقد أعلنا المجمعين الحرمان الكنسي ضد روبرت وتوبيخ الأساقفة الفرنسيين الذين دعموا الملك، وبالتوبة لمدة سبع سنوات، وبناءً على ذلك في عام ١٠٠٣ قام روبرت بإبعاد بيرثا ربما بسبب بعض الشكوك الدينية أو ربما لأنها لم تنجب له أبناء فقط أبناً واحداً توفي وهو صغير عام ٩٩٩[٤].

بعد ذلك تزوج من كونستانس آرل Constance Arle(٩٨٦- ١٠٣٢) ابنة وليم الأول Guillaume I (٩٥٠-٩٩٣) كونت أرل Comte d'Arles، وهي الزوجة الثالثة والاخيرة للملك روبرت، والبالغة من العمر ١٧ عاماً، انتج زواجهما ستة أبناء، وقد اتسمت الملكة

---

(1) Michel Rouche, Gerbert face au mariage incestueux: le cas de Robert le Pieux, (in French) in acts of the study days of Aurillac, Gerbert, Moine, Évêque et Pape, Aurillac, ed. Association cantalienne pour la commémoration du pape Gerbert, 2000, p. 155.

(٢)عندما تم تعميد ثيوبالد (ابن بيرثا من زوجها الأول المتوفى أود)، وقف روبرت كـ "عراب" له في الكنيسة، في الفقه المسيحي آنذاك، العراب لا يُعدَ مجرد صديق للعائلة، بل يصبح أباً روحياً للطفل، بمجرد أن أصبح روبرت أباً روحياً لثيوبالد، نشأت بينه وبين والدة الطفل (بيرثا) علاقة تُسمى "القرابة الروحية" ووفقاً للكنيسة، الزواج من والدة الطفل الذي أنت عرابه يُعدَ شكلاً من أشكال "زنا المحارم الروحي" (Spiritual Incest). أي أن روبرت وبيرثا كانا يُعاملان دينياً كما لو كانا أخاً وأختاً، مما يجعل زواجهما باطلاً ومحرماً تماماً مثل تحريم زواج الأقارب بالدم.

Elizabeth M. Hallam, op. cit., p.71.

(3)Pierre Riché, Gerbert d'Aurillac, Le pape de l'an mil (in French). Fayard, Paris 1987, p.168.

(4) Diplomata Roberti Regis Francorum, op. cit., pp.574-584 ;Johannis Iperii op. cit., p. 299, Elizabeth M. Hallam, op. cit., p71; Jean Mathieu Rosay, They Who Ruled France, Marabou Publishing House, Belgium, 1997, p.109.

الجديدة بشخصية مستبدة وميلٍ شديد لحياكة المؤامرات داخل البلاط الملكي بهدف ترسيخ نفوذها والمحافظة على مكانتها؛ إذ تجلى ذلك بوضوح في تحالفها السري مع فولك الثالث كونت أنجو، الملقب بـ الأسود Fulk III, count of Anjou (٩٧٠- ١٠٤٠) للتخلص من هيو كونت البلاتين، ابن عم كونت بلوا، وكان أحد مؤيدي بيرثا الزوجة السابقة للملك، وهو ما يفسر عداء كونستانس تجاهه، عندما كان الملك وهيو البلاتين يتمتعان في وقتهما في غابات أورليان ويمارسان الصيد، هجم عليهم أثناء عشر رجلاً تابعين لكونت أنجو، وقاموا بقتل هيو البلاتين أمام الملك روبرت، ممّا إدى إلى أثارت غضب الملك على كونستانس، وأراد التخلص منها[١]، وبناء على ذلك وتحديداً في عام ١٠١٠ وبعد سبع سنوات من الزواج سعى الملك روبرت جاداً لإنهاء ارتباطه بالملكة كونستانس، متوجهاً بنفسه إلى روما بهدف استصدار موافقة من البابا سرجيوس الرابع Sergius IV[٢] لفسخ ذلك الزواج، وكان دافع الملك العودة إلى حبه القديم بيرثا، مستنداً في مسعاه إلى اتهام زوجته بالتواطؤ في حادثة اغتيال كونت البلاتين، وفي تلك الأثناء، وبينما كان الملك روبرت يقيم في روما، أنزوت الملكة كونستانس في أحد قلاعها في ثيل Theil مع ابنها الصغير هيوHugues (١٠٠٧-١٠٢٥)، حيث كانت غارقة في حزن عميق، وفي إحدى الليالي، بينما كانت تنازعها الهواجس والأفكار المظلمة، تجلى لها وسط نور ساطع رجل ذو شعر أبيض يرتدي رداء الكهنة ويحمل بيده سوطاً، **"صرخت: من أنت؟ - أنا اسمي القديس سافينيان، وسوف تعودين إلى زوجك،** في صباح اليوم التالي، سارعت الملكة بسؤال رجال الدين المحيطين بها عما إذا كان ذلك الاسم ذكرٌ في البلاد، فأحالوها إلى الراهب البندكتيني "أودورانوس من سانس" (٩٨٥-١٠٤٦) في دير "سان بيير لو فيف"، الذي كان يُنتظر أن يصبح أسقفاً لأورليانز عند عودة الملك، وحين استفسرت منه، أجابها موضحاً: **"إنه أول رئيس أساقفة لمدينة سانس، الذي نال الشهادة مع رفاقه في هذه الأرض. اذهبي وتوسلي إليه واطلبي شفاعته، وسوف تتحقق رغبتك"**[٣].

ذهبت كونستانس إلى الحرم وفجأة، في منتصف الليل، اذا بمبعوث الملك نفسه، معلنًا أن روبرت يريد الحفاظ على الزواج الملكي؛ وبعد ثلاثة أيام، عاد روبرت، وتخلى نهائيًا عن

---

(1)Bouquet, Martin et Associés, Collection des Historiens de Gaule et de France (Recueil des Historiens des Gaules et de la France), Tome X, Presses Delattre, Paris, 1760, p.293; Diplomata Roberti Regis Francorum, op. cit., pp.585-594.

(٢) سرجيوس الرابع (- ١٠١٢): تاريخ ميلاده غير معروف، تم ترسيمه في حوالي ١٣ تموز عام ١٠٠٩ ، وقبل سيامته كبابا، كان يعمل أسقفا منذ عام ١٠٠٤ ، ولا يعرف سوى القليل عن أحداث حياته، ولكن يُعرف أنه على بعض الأديرة من حق النظر في الدعاوى والفصل فيما يتعلق بالكنيسة، ونظرا لتملكه سلطة زمنية ضئيلة ترك العديد من النبلاء أراضيهم تحت حمايته، وقد ظهر دائما كصديق وفى لأى فقير ، وقد استطاع إقناع الملك روبرت بعدم طلاق كونستانس. يراجع :

Horace K. Mann: Sergius IV, pope, The Catholic Encyclopedia, Tome, XIII, London, 1913, p.729.

(3)Penelope Ann Adair, "Constance of Arles: A Study in Duty and Frustration". In Nolan, Kathleen D. (ed.). Capetian Women. Palgrave Macmillan,2003,p.13.

بيرثا، منذ تلك اللحظة، أحب الملك كونستانس[١]، وظل الزوجان يعيشان في حب طوال مدة حياة روبرت، وقد تم تتويج ولدها الأكبر هيو ماجنوس Hugh Magnus (١٠٠٧- ١٠٢٥) على العرش، لكن كونستانس كانت تفضل ولدها الثالث روبرت (١٠١١- ١٠٧٦) وأثارت العديد من الثورات، وبعد وفاة زوجها أعلنت انقلابا عسكريا لصالحه[٢].

وبالنسبة للحملات العسكرية لروبرت، فإنها لم تحقق نجاحات كبيرة، لكن واحدة من تلك الحملات جلبت انتصارات كبيرة، ففي عام ١٠٠٢ توفى هنري دوق بورغوندي Henry I, Duke of Burgundy (٩٤٦- ١٠٠٢) شقيق هيو كابيه - دون أن يترك وريثاً شرعياً-، وقرر الملك روبرت أن يطالب بالدوقية لصالحه بوصفه ابن شقيقه، لكن عارضه في ذلك الأمر أوتو وليم OttoGuillaume (٩٥٨- ١٠٢٦) كونت ماكون Comte de Macon، ابن جيربيرجا Gerberge زوجة هنري دوق بورغوندي؛ وحظي بدعم النبلاء البورغونديين، على الرغم من أن اهتماماته الفعلية كانت تنصب نحو أراضيه في إيطاليا ومنطقة السون[٣].

ولم تكن بورغوندي مجرد مقاطعة عادية، بل مثلت غنيمة استراتيجية واقتصادية كبرى لضمها مدناً مزدهرة مثل ديجون، أوكسير، لانجر، وسينس، فضلاً عن كونها إرثاً تاريخياً لعائلة الروبرتيين منذ استحواذ هيو العظيم عليها عام ٩٤٣[٤]؛ وبعد مقاومة شرسة من أوتو وليم وتصاعد وتيرة التمرد في الدوقية، تمكن الملك روبرت من حسم الصراع عسكرياً وإخماد الثورة، مجبراً النبلاء على الاعتراف بسيادته، وقد شجعه ذلك الانتصار الحاسم على توسيع نفوذه السياسي والدبلوماسي، والذي تُوج بعقد معاهدات هامة في عام ١٠٢٠ مع كل من أود الثاني EudesII كونت بلوا (٩٩٦-١٠٣٧)، ووليم الخامس دوق أكيتاين William V, Duke of Aquitaine (٩٦٩- ١٠٣٠)[٥].

أما على صعيد ترتيب البيت الداخلي وضمان الاستقرار، فقد منح روبرت لقب دوق بورغوندي لنجله الثاني هنري Henry I (١٠٠٨-١٠٦٠) ولكن إثر وفاة ابنه الأكبر هيو عام ١٠٢٥، تغيرت خطوط الوراثة؛ إذ جرى تنصيب هنري ولياً لعهد المملكة الفرنسية، في

---

(1)Penelope Ann Adair, op. cit., pp.13 -14.

(2)Hellgaldi Floriac, op. cit., p. 106; Diplomata Roberti Regis Francorum, op. cit., pp.594 -601; Jean Mathieu Rosay ,op cit., pp. 110-111; Elizabeth M. Hallam, op. cit., pp.71.

(3) Constance Brittany Bouchard, la couronne et la paix. Nobles et ogelez-Burgoyne, 980-1198 .Forme. Ithaque-Londres: Presses universitaires Cornell, 1987,p267.

(4)Hervé Banseff, Robert le pieux roi de l'an 1000, Perrin, Paris, 2006, pp. 119-122; Robert Lafont, François Mignano, Histoire et Dictionnaire 987-1328, Éditions Adnis, Paris, 1999, p.40.

(5)Abou de Fleury, « Recueil de lois dédiées à Hugues et Robert » (Recueil des Historiens des Gaules et de la France), tome 10, Paris, 1760, pp. 626-660; Diplomata Roberti Regis Francorum, op. cit., pp. 603-609 ; Elizabeth M. Hallam, op. cit., p. 72.

حين آلت دوقية بورغوندي إلى الابن الثالث روبرت، الذي استمر حكم سلالته لها حتى منتصف القرن الرابع عشر [١].

ومما سبق يبدو أن عصر الملك روبرت الثاني التقى أظهر قضية ضرورة تحديد أي ابن يجب أن يخلف والده على العرش في حالة تعدد الأبناء، منعًا لوقوع الصراع بينهم بعد وفاة أبيهم.

١.هنري الأول (١٠٣١- ١٠٦٠).

لم يكن هنري قريباً من العرش وذلك لوجود أخية هيو ماجنوس ملكاً مشاركاً لأبيه لكن بوفاة هيو عام ١٠٢٥ أثر سقوطه من جواده أثناء إعداده لتمرد ضد والده روبرت، ذلك الفراغ المستجد دفع الملك الأب لفرض إرادته وتكريس هنري كملك مشارك في كاتدرائية[٢] ريمس في الرابع عشر من حزيران عام ١٠٢٧ واجه ذلك القرار معارضة شرسة من الملكة الأم كونستانس التي فضّلت تنصيب ابنها الثالث روبرت، مدعية أن هنري يفتقر للسمات القيادية والذكورية، ومستعينة بدعم العديد من الأساقفة والأمراء [٣].

أخذت الملكة كونستانس تتصرف نيابة عن ابنها روبرت في مدن سينس (Sens) وبويزيه (Poésie) وبواسي (Poissy) وغيرها من القلاع، ولم تكتفِ بذلك؛ بل حاكت المؤامرات ضد الملك وحرضت أبناءه على التمرد عام ١٠٣٠، وفي ذلك الوقت، كان الملك روبرت قد بلغ الخامسة والخمسين من عمره، وهو سنّ كان يُعد شيخوخة متقدمة في ذلك العصر. ورغم أن الملوك كانوا يحكمون مدى الحياة، إلا أن التقاليد الملكية كانت تقضي بتتويج الأبناء كملوك مشاركين في حياة آبائهم. ومع بلوغ الملك ذلك العمر وضعف قدرته، استغلت الملكة والأبناء ذلك التقليد للضغط عليه، معتبرين أنه قد وصل إلى المرحلة التي توجب عليه التنحي العملي وتسليم مقاليد الحكم الفعلية لأبنائه الشبان، إذ استطاع الأبناء الانتصار على والدهم، وهو ما اضطره للجوء إلى رينو الأول كونت نيفير Renauld I, Count of Nevers (١٠٠٠- ١٠٤٠) زوج ابنته الكبرى هادويج Hadwig (١٠٠٣- ١٠٦٣)، عاد السلام بين الملك وأبنائه، من خلال التفاوض والوساطة؛ فعندما لجأ الملك روبرت إلى صهره رينو الأول، استخدم ذلك التحالف كقوة ضغط للتفاوض وليس لشن حرب شاملة، وتدخل كبار النبلاء ورجال الدين في المملكة كوسطاء بين الملك وأبنائه (هنري وروبرت) لمنع تمزق البلاد [٤].

---

(1)Jean Mathieu Rosay, op. cit., p.111.

(٢)الكاتدرائية : المكان التي يوجد بها كرسي الأسقف (الكرسي الأسقفي)، أوالبطريركي (البابوي)، ذلك لا تُطلَق كلمة "كاتدرائية" على كل كنيسة كما اعتاد البعض خطأً، وهي تُطلَق فقط على مقر الرئاسة الكنسيَّة . يراجع : البابا شنوده الثالث، قاموس المصطلحات الكنسية، موقع الأنبا تكلا هيمانوت، تراث الكنيسة القبطية الارثوذكسية ، https://st-takla.org/Coptic-Faith-Creed-Dogma

(3) William W، Clark Medieval Cathedrals. Greenwood Publishing, 2006 ,p.87.

(4)Penelope Ann Adair, "Constance of Arles: A Study in Duty and Frustration," in Capetian Women, ed. Kathleen Nolan ,New York: Palgrave Macmillan, 2003, pp.13-19.

وأمام ذلك الوضع، أدرك الملك روبرت أنه لم يعد يملك القوة ولا الدعم الكافي لسحق التمرد المدعوم من زوجته الملكة كونستانس، فقام بتقديم التنازلات والرضوخ للأمر الواقع، واشترى السلام من خلال الرضوخ لمطالب أبنائه؛ حيث تنازل لهم عن صلاحيات واسعة ومسؤوليات فعلية في إدارة المملكة، مما أرضى طموحهم، ولم يكن ذلك السلام عودة لسيطرة الأب المطلقة، بل كان أقرب إلى تسوية سياسية وهدنة حفظت ماء الوجه للجميع، حيث احتفظ الملك روبرت بلقبه وتاجه شكلياً، بينما أصبحت مقاليد الأمور الفعلية في أيدي أبنائه، إلا أن ذلك السلام لم يُختبر طويلاً بسبب الوفاة المفاجئة للملك؛ فبعد أشهر قليلة من تلك المصالحة، وتحديداً بعد وفاة الملك روبرت الورع عام ١٠٣١ إثر صراع مع مرض الحمى في مدينة ميلون Mellon جنوب شرقي باريس، انهار السلام العائلي واندلعت حرب طاحنة جديدة، ولكن هذه المرة بين الأبناء أنفسهم، فبمجرد وفاته، بدأت الملكة كونستانس بحياكة المؤامرات لتثبيت ابنها روبرت وخلع أخيه هنري من العرش، مدعومة من أود الثاني كونت بلوا Aude II, count of Blois(٩٨٥- ١٠٣٧)، الذي وعدته الملكة بأن يتسلم نصف سينس، وحققت الملكة وابنها روبرت دوق بورغوندي انتصارات كبيرة على الملك هنري[١]،مما اضطره إلى الانسحاب واللجوء إلى حليفه روبرت الشيطان Robert the Devil (١٠٠٠- ١٠٣٥) دوق نورمندي Duke of Normandy وقد استقبله الأخير بشرف كبير مع الجيش النورماندي، وبمساعدته تمكن الملك هنري من العودة إلى باريس، وهناك، اتفق مع شقيقه الأصغر روبرت على المصالحة، حيث تخلى روبرت عن مطالباته بالتاج، وفي المقابل حصل على دوقية بورغوندي[٢]، التي كانت في حوزة الملك في ذلك الوقت، وسرعان ما توفيت الملكة كونستانس في المنفى في ميلون ١٠٣٢[٣].

وكيفما كان الأمر، فبعد انتهائه من ذاك الصراع تحسن موقف هنري في الحرب فقد تفرغ لاسترداد سينس من أود الثاني كونت بلوا الذى كان يحاول أن يُحقق مطلبه في مملكة

---

(1)Elizabeth M. Hallam, op. cit., p.73.

(٢)هناك فرق بين"دوقية بورغوندي" و"مملكة بورغوندي" خلال العصر الوسيط، سواء من حيث التبعية السياسية أو النطاق الجغرافي. فدوقية بورغوندي، التي تمركزت في وسط شرق الأراضي الفرنسية الحالية واتخذت من مدينة "ديجون" عاصمةً لها، كانت إقطاعية تابعة بشكل مباشر لمملكة فرنسا، حيث كان الدوق يُدين بالولاء التام للتاج الفرنسي. وقد برزت أهمية ذلك الكيان حين مُنحت الدوقية لـ "روبرت" عام ١٠٣٢م، ليؤسس بذلك سلالة فرعية عُرفت بـ "عائلة بورغوندي الكابيتية"، والتي استمرت في حكم المنطقة لعدة قرون تحت مظلة الملكية الفرنسية، على النقيض من ذلك، اتخذت "مملكة بورغوندي" - والتي عُرفت تاريخياً باسم "مملكة آرل" أو بورغوندي الثانية-مساراً مختلفاً تماماً، فقد برزت ككيان سيادي مستقل يمتد نطاقه الجغرافي إلى الشرق والجنوب من الدوقية، ليشمل مساحات شاسعة تضم أجزاءً من جنوب شرق فرنسا الحالية (مثل بروفانس وسافوي)، والأجزاء الغربية من سويسرا، وشمال غرب إيطاليا. والمفارقة التاريخية أنه في ذات العام ١٠٣٢ الذي تأسست فيه السلالة الكابيتية في الدوقية، شهدت المملكة نقطة تحول حاسمة بوفاة آخر ملوكها رودولف الثالث دون وريث. وعلى إثر ذلك، انتقلت تبعية المملكة بالكامل لتندمج ضمن الإمبراطورية الرومانية المقدسة تحت حكم الإمبراطور "كونراد الثاني"، مما يؤكد أنها لم تخضع يوماً للسيادة الفرنسية في تلك الحقبة الزمنية. يراجع:

Laurentius Leodiensis, "Historia Episcoporum Verdunensis," Collectio Historicorum Galliae et Franciae (R.H.G.F.), a Martino Bouquet et aliis composita, Tomus X, Typographia Regia, 1760,pp.249; Martin Bouquet, Recueil d'historiens de Gaule et de France, Vol. 11, L.F. Delattre Press, Paris, 1767, pp.566-570, Jean Mathieu Rosay,op. cit., p.112.

(3)Elizabeth M. Hallam, op. cit., p.73.

بورغوندي، مستنداً إلى تحالفٍ عقده مع عدد من النبلاء المناهضين لهنري، وقد تصاعدت وتيرة الأحداث لتشعل فتيل الحرب بين الطرفين إثر وفاة ملك بورغوندي، رودولف الثالث المُلقب بالكسول Rudolf III The Lazy (٩٩٣- ١٠٣٢) ، دون أن يترك وريثاً لعرشه، وفي خضم ذلك، ادعى أود الثاني أحقيته في وراثة المملكة بصفته ابن أخ الملك الراحل، إلا أن طموحاته اصطدمت بواقع سياسي حاسم؛ إذ كان رودولف قد حسم مسألة الخلافة قبل وفاته بسنوات قليلة، حين وقّع اتفاقية بازل التي نقل بموجبها حق وراثة العرش إلى الإمبراطور كونراد الثاني Conrad II (٩٩٠ – ١٠٣٩)، ملك المانيا[١].

أصبح كونراد وهنري الأول في هذه الحالة حلفاء طبيعيين ففي آيار ١٠٣٣، التقيا في لورين ديفيل Lauren Deville واتفقا على اتخاذ إجراء مشترك ضد أود الثاني أجبر غزو الإمبراطور للشمبانيا عام ١٠٣٤ الكونت أود على التخلي عن مطالباته لكل من سينس وبورغوندي؛ وفى عام ١٠٣٤ بعد معركة ضارية استسلم أود الثاني[٢]، وتوفى في عام ١٠٣٧، ثم اندلعت الحرب مرة أخرى؛ فبعد وفاته تم تقسيم أملاكه بين ولديه ليوبولد Theobold وستيفن Stephen ، واستمروا في الحرب ضد الملك هنري الذي سرعان ما انتصر عليهم، وفرض سيطرته على سينس[٣].

وفي المدة الأخيرة من حكمه، كان هنري يحارب في بادئ الأمر جيوفري لي مارتل دوق أنجو Geoffrey Le Martel Gue d'Anjou (١٠٠٦ - ١٠٦٠)، كان جيوفري في بداية الأمر لا يمثل اي خطر للملك هنري لا أن جيوفري كان طموحاً في ضمن الاراضي، ففي عام ١٠٤٠ سمحت وفاة والده فولك الثالث الأسود Volk III The Black (٩٧٠- ١٠٤٠) بأن يصبح سيدًا مطلقًا لمنطقة ضخمة محصنة بالعديد من الحصون، والتي شملت

---

[١] لم يتمكن الملك رودولف الثالث ملك بورغوندي من تهدئة النبلاء الذين تمردوا عليه ولم يكن لديه أطفال شرعيين ،استغل الإمبراطور هنري الثاني هذه الظروف، في عام ١٠١٦غزا أراضيه وأجبره على الاعتراف بنفسه وريثًا للعرش البورغوندي، أعلن كونراد الثاني، بصفته خليفة هنري الثاني، مطالباته ببورغوندي، بالإضافة إلى ذلك، طالب أبناء أخ رودولف الثالث، إرنست الثاني من شوابيا (ابن عم كونراد الثاني وابن زوجته) وكونراد الأصغر، بحقوقهم في بورغوندي كانت أمهاتهم (أخواتهم) بنات أخ ملك بورغوندي؛ تمرد إرنست الثاني، وانضم إليه كونراد الأصغر، ومع ذلك سرعان ما قمع كونراد الثاني هذه الحركة، أكدت معاهدة بازل أخيرًا الحق في بورغوندي، عند وفاة رودولف الثالث، لكونراد وابنه، الذي تم اختياره رسميًا في عام ١٠٢٨ ، في آخن ، وريثًا لكونراد. يراجع :

Privitt Orton, C.W., Les origines de la Maison de Savoie, Cambridge University Press, London,, 1912, p. 27.

[٢]يبدو أن هنري اعترف بدخول كونراد إلى بورغوندي، ودخل كلا الحاكمين في تحالف ضد أود الثاني، وكان من المقرر خطوبة الملك الفرنسي على ابنة الإمبراطور، لكنها لم تتم بسبب وفاتها في العام التالي. حملة كونراد في لورين في منتصف صيف ١٠٣٣ أجبرت أود الثاني على الاستسلام. نظرًا لأن أود الثاني الشمبانيا لم يفي بوعده بمغادرة بورغوندي وقام مرة أخرى بغارة على تول، وصل كونراد بجيش قوي إلى نهر الرون في عام ١٠٣٤ ، حيث التقى به الكونت همبرت وفرقة إيطالية بقيادة أريبرت ميلان والكونت بونيفاس من توسكيا ، وهرب أودون متفاديا الاصطدام، بعد أن قبل قسم الولاء من أمراء جنوب بورغوندي، في ١ أغسطس ١٠٣٤، توج كونراد في جنيف بالتاج البرغندي. يراجع :

Privitt Orton, op. cit., p.32.

[3]Frédéric Suennet, Catalogue des contrats/documents d'Henri Ier, roi de France 1031-1060, Bibliothèque Honoré Champion, Paris, 1907, pp.570-573.

أنجو، Anjou وتورين الشرقية Eastern Turin، وفاندوم Fandom ، وسانتونج Saintonge ولودون Loudon وجزء من بيري Perry، لكن جيوفري لم يتمتع بالحنكة الدبلوماسية التي تمكنه من إخفاء أطماعه، بل كان اسماً على مسمى، حيث جسّد لقبه المطرقة بسحقه بعنف لكل عائق يعترض طريق أهدافه، والجدير بالذكر أن التحالف الأولي الذي جمع بين هنري وجيوفري لم يكن محض صدفة أو وليد اللحظة، بل جاء امتداداً للسياسة الاستراتيجية التي أرساها والد هنري ضد جيرانه من كونتات بلوا؛ والتي هدفت بالأساس إلى تحجيم نفوذهم، ودرء خطرهم، وإقصائهم تماماً عن منطقة تورين[١].

شكل عام ١٠٤٤ نقطة فارقة في العلاقة بين هنري وجيوفري فقد كان انتصار الاخير في معركة نويس Noyes على آل بلوا والقاء القبض على كونت بلوا اود الثالث Aude III, count of Blois (١٠١٢- ١٠٨٩) الذي تنازل عن جميع حقوقه في تورين إلى جيوفري[٢]، أثارت تلك التطورات الملك هنري الأول بوصفه السيد الأعلى للبلاد، كما أن جيوفري احتل مين Maine دون موافقته، مستغلا الظروف التي كانت الكونتية تمر بها بعد وفاة حاكمها هيربرت Herbert عام ١٠٣٥، ودخولها في حالة من عدم الاستقرار[٣]، وهكذا في عام ١٠٥٠، هاجم جيوفري مدينة لي مانس Le Mants مركز ماين،وأسر أسقف المدينة جيرفيه Gervais وأمر بإلقائه في السجن، حيث احتفظ جيوفري بالأسقف كرهينة لديه لمدة ٧ سنوات متواصلة، ولم يوافق على إطلاق سراحه إلا بعد أن أُجبر الأسقف جيرفيه على التنازل عن كامل حقوقه الإقطاعية وملكيته لقلعة ومنطقة شاتو دو لوار Chateau du Loire ونقلها لصالح جيوفري، ليكون ذلك التنازل هو الفدية والمقابل الوحيد لحصول الأسقف على حريته، أثارذلك العمل الملك الفرنسي هنري الأول، بسبب احتجاج البابا ليو التاسع Leo IX (١٠٤٨ - ١٠٥٤)[٤]، الذي أصدر أمرا بتحريم كونت انجو كنسياً،

---

(1)Elizabeth M. Hallam, op. cit., p.73.

(2)W. Scott Jesse, Robert of Burgundy and Counts of Anjou, c. 1025-1098, Catholic University of America Press, Washington, 2000, p. 200.

(٣) أبرم هيو الرابع Hugh IV ، حاكم مقاطعة مين، تحالفاً مصاهراً بزواجه من بيرثا ابنة الكونت إدو الثاني حاكم بلوا، وهو الأمر الذي أثار حفيظة جيوفري الذي كان يسعى جاهداً للحيلولة دون وقوع مقاطعة "مين" تحت نفوذ آل بلوا، نظراً لما تتمتع به المقاطعة من أهمية استراتيجية كمنطقة عبور حيوية وعقدة لطرق النقل، وعلى الصعيد الداخلي، اتسمت تلك الحقبة بضعف السلطة المركزية لكونتات مين، مما اضطر هيو الرابع لخوض حروب مستمرة ضد أتباعه من النبلاء الذين تحصنوا بقلاعهم المنيعة، ومن أبرزهم عائلات ماين، وشاتو-جونتييه، وكراون، ولافال، وفيتر. وفي خضم ذلك التشتت، برزت عائلة بيليم كواحدة من أقوى العائلات نفوذاً، بفضل سيطرتها على مناطق استراتيجية حساسة تقع على التخوم الحدودية بين مين ونورماندي. يراجع :
Peter Rex,William The Conqueror The Bastard Of Normandy, Amberley Publishing plc,UK,2011,p. 69.

(٤) ليو التاسع(١٠٠٢- ١٠٥٤): ولد في إجشم Egisheim على تخوم الألزاس في حوالي ٢١ تموز عام ١٠٠٢م، وتوفى في ١٩ نيسان ١٠٥٤م، ينتسب لأسرة نبيلة، اسمه "برينو Bruno، كان والده "هيو" ابن أخي الإمبراطور كونراد الثاني، عندما توفى البابا داماسوس الثاني عام ١٠٤٨ ، وهو ألماني الجنسية أرسل الرومان يسألون الإمبراطور هنرى الثالث (١٠٣٩-١٠٥٦) وريث كونراد الثاني أن يرشح لهم بابا جديدا، فاختار في الحال برينو" الذي تمت سيامته تحت اسم البابا كيو التاسع في ١٢ شباط ١٠٤٩.
Horace K. Mann: Leo IX, Saint pope (1049-54), The Catholic Encyclopedia, Tome. IX, London, 1910, pp. 160-162.

وجاءت الظروف لصالح حاكم انجو ففي عام ١٠٥١ توفي حاكم مين هيو الرابعHugh IV (١٠٢٠- ١٠٥١) وناشد سكانها جوفري ان يصبح حاكماً عليها، فاستجاب على الفور ودخل لي مانس معلنًا سيطرته عليها[١]، وفي تلك الظروف توجهه انظار الملك هنري الي حلفائه التقليديين في نورمنديا وتحديداً إلى وليم الغير شرعي Guillaume Le Batard[٢] الذى بدأت علاقته مع الملك هنري حليفاً له ضد النبلاء الذين اتحدوا ضده في عام ١٠٤٧[٣]، ثم بداية من عام ١٠٤٨ حتى عام ١٠٥٢ أعلن كل من هنري ووليم الحرب معاً ضد جيوفري لى مارتل ثم سرعان ما نجح هنري في إخضاعه، وعقب ذلك مباشرة بدأ وليم في تهديد الملك هنري ثم جيوفري، مما ترتب عليه حدوث تحالف بين الثاني والثالث ضد الأول؛ ففي عام ١٠٥٢ قام جيوفري كونت انجو بزيارة للملك الفرنسي في اورليانز، انهت العداوة بين الاثنين واصبح كل منهما حليفًا للأخر، ومن المحتمل ان السبب وراء تغير موقف الملك من حليفه السابق وليم، كان دافعه الغيرة من تنامي قوة الدوق الشاب، فضلاً عن ذلك قدم جيوفري اثناء زيارته للملك بعض المغريات والتنازلات في ماين، مقابل انهاء حالة العداء؛ كان ذلك التحالف بين الاثنين يحتاج إلى شرارة بسيطة لتنفيذ خططهما ضد وليم ؛وجاءت الفرصة حين استغل وليم كونت ارك عم وليم الظروف التي كانت تمر بها نورمندي حيث كانت قواتها تحاصر دومفرونت Domfront عام ١٠٥٢، فانسحب من الحصار وتوجه إلى مناطق نفوذه في شمال شرقي نورمندي يحدوه الامل في التوصل إلى حكم الدوقية كونه الاحق بذلك حسب اعتقاده[٤].

كان وليم في شبه جزيرة كونتيتن Continent الواقعة شمالي نورمندي عندما سمع بنبأ تمرد عمه، لذلك جمع ما يحتاج اليه من المقاتلين، واتجه صوب قلعة ارك، التي قاومت الحصار المفروض عليها، في تلك الاثناء اقتحم الملك هنري الاول نورمندي في خريف ١٠٥٣، بذريعة مساعدة كونت ارك، ومن ناحيته قرر وليم التمركز في المواقع الحيوية لقطع الطريق على الجيش الفرنسي والحيلولة دون وصوله إلى قلعة اركوزArkoz، وتمكن النورمنديون في ٢٥ تشرين الاول ١٠٥٣ من الحاق خسائر كبيرة بالجيش الفرنسي، وكان من ضمن القتلى في صفوفه انجراند حاكم بونثيوPonthieu ، بعد ذلك استسلمت قلعة اركوز، وتم نفي عم الدوق خارج نورمندي[٥].

---

(1)David C. Douglas,The Norman Impact upon England, University of California Press,USA,1964,pp.59-60.

(٢) وليم غير شرعي(١٠٢٨- ١٠٨٧): ابن غير شرعي لروبرت دوق نورمنديا، حصل عليها في عام ١٠٣٥ في الوقت الذي كان ما يزال فيه قاصرا، كان في موقف غير ثابت داخل الدوقية. يراجع : كامل جاسم دهش، وليم الفاتح حياته ودورة السياسي في إنكلترا ١٠٦٦-١٠٨٧ ،اطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة بغداد، ٢٠١٤؛
Frédéric Suennet, op. cit., p.580 ; Elizabeth M. Hallam, op. cit., p. 74; Jean Mathieu Rosay,op. cit., p. 113.

(3)Ibid, pp.580-82.

(4) Peter Rex,op. cit., p.50.

(٥) محمد مرسي الشيخ، الفتح النورماني لإنكلترا ملحمة فريدة في تاريخ إنكلترا ونورماندیا في العصور الوسطى، ندوة التاريخ الاسلامي والوسيط، مج٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣، ص ٢٣٥ .

إنَ فشل الملك الفرنسي في مساعدة كونت اركوز، والهزيمة التي مُني بها جيشه لم تمنعه من تكرار المحاولة مرة أُخرى، ففي شباط ١٠٥٤ تم التحضير لغزو كبير لدوقية نورمندي،وضم التحالف الملك هنري الاول وحكام بلوا وتورين Turin وسينس Sense ، فضلا عن جيوفري حاكم انجو، وغاي حاكم بونثي Guy, the ruler of Bonthy الجديد الذي أراد الانتقام لمقتل أخيه في السنه الماضية، تم تقسيم القوات المشتركة إلى جيشين، جيش يقوده الملك هنري اتجه إلى نورمندي من جهة غرب نهر السين وجيش يقوده الأخ غير الشقيق للملك اود الثالث كونت بلوا من جهة شرق نهر السين، استعد وليم للغزو الكبير بان استدعى المقاتلين من كافة ارجاء الدوقية،وقد قسم قواته إلى قسمين قسم يقوده بنفسه والقسم الآخر كان بقيادة روبرت كونت يو Robert Count U (١٠٠٥- ١٠٨٩)، وكانت مهمته مراقبة الجيش الذي يقوده اود الثالث، استندت خطة وليم على عدم الدخول في مواجهة مع القوات الغازية بل مراقبتها حتى تحين الفرصة ومن ثم الانقضاض عليها[١].

لم يكن اود الثالث يمتلك الخبرة العسكرية اللازمة، لذلك فانه لم يهتم لوجود معارضة لقواته في أرض أعدائه حين اتخذ من بلدة مورتمر Mortmer قاعدة للجيش، وكانت تلك القوات تقضي وقتها في الاعتداء على السكان في المناطق المجاورة فضلاً عن ان اود الثالث لم يفرض حالة الانضباط في جيشه، فألف ذلك كله فرصة انتهزها وليم، فاصدر تعليماته إلى قائده روبرت بالتوجه إلى مورتمر بسرية تامة[٢]، وفي احدى ليالي شباط ١٠٥٤، هاجم النورمنديون جيشاود الثالث من جميع الجهات، مستغلين عنصر المباغتة والسرعة، مما أربك قادة الجيش الفرنسي فهرب اود من أرض معركة مورتمر، وأسر غاي حاكم بونثي، وعند سماع الملك الفرنسي هنري بانباء الهزيمة قررالانسحاب من نورمندي بعد أنْ فقد نصف قواته في معركة مورتمر، لم ينس الملك هنري الهزيمة التي منيت بها قواته في مورتمر، ذلك فإنه كان متلهفاً للانتقام من وليم، ووجد ضالته في جيوفري مارتل حاكم انجو العدو اللدود للنورمنديين للقيام بحملة مشتركة ضد نورمندي، ففي آب ١٠٥٧ دخلت قوات الملك وحليفه نورمندي متوجهين إلى مدينتي بايو Bio وكاين Cain، انتهج وليم في التصدي للخطر الخارجي الأسلوب نفسه الذي اتبعه في مورتمر، وهو جعل العدو يتوغل داخل الاراضي ومن ثم الإنقضاض عليه[٣].

بدأ وليم بتجميع قواته من معقله في فاليس، وكان على علم مسبق بتحركات اعدائه، بفضل الجواسيس الذين كانوا يمدونه بتحركاتهم؛ وعلم أن جيش الملك وصل إلى نهر الديف The Dev عند مكان يدعى فارفيل Varaville عام ١٠٥٨[١]،وان قسماً من ذلك الجيش لم يتمكن من العبور بسبب ارتفاع مستوى المياه في النهر، وهنا جاءت الفرصة التي يبحث عنها وليم، اذ انقض على الجيش الفرنسي موقعاً خسائر كبيرة في صفوفه، فانسحب الملك ايضا اثر

(1) Wace ,His Chronicle of the Norman Conquest from Roman De Rou ,translated by: Edgar Taylor, London,1837,pp, 47-48; Douglas, op. cit., p.67.
(2)Ibid,p ,pp.47-48; Douglas, Ibid,p.67.
(3)Ibid,p ,pp.47-48; Douglas, Ibid,p.67.

ذلك[٢]، كان لمعركة فارفايل نتائج مهمة لنورمندي، إذْ اعاد الملك هنري لوليم القلعة القديمة تيلير Tellieres وخرجت نورمندي اقوى من السابق، لاسيما بعد وفاة الملك هنري الأول في ٢٤ تموزعام ١٠٦٠، ومجيئ ابنه القاصر فيليب الأول Philippe I (١٠٦٠- ١١٠٨) تحت وصاية بلدوين الخامس كونت فلاندرزBaldwin V, Count of Flanders (١٠١٢ - ١٠٦٧) ، وفي السنة نفسها توفي جيوفري مارتل ودخلت انجو في فوضى ،مما هيأ الوضع لوليم ليكون الرجل الأقوى في فرنسا في تلك المرحلة، وبذلك يمكن القول أن عهد الملك هنري الأول ظهر كمرحلة كانت فيها السلطة الملكية تستجمع قوتها بعض الشيء بعد أن كانت ضعيفة في البداية، مما أعادها مرة أخرى على الساحة وقد تم ذلك في عهد الملك فيليب الأول[٣].

٢. فيليب الأول (١٠٦٠ - ١١٠٨).

كان فيليب الابن الاكبر للملك هنري الأول من زيجته الثانية الأميرة آن Anne (١٠٣٠ - ١٠٧٥) ابنة دوق كييف الأكبر ياروسلاف الحكيم Yaroslav the wise (٩٧٨ - ١٠٥٤)، حصل الأمير على الاسم اليوناني فيليب، وهو أمر غير معهود على الإطلاق سواء بالنسبة للسلالة أو المنطقة بأكملها، إذ كانت التقاليد الملكية في فرنسا وأوروبا الغربية تعتمد آنذاك حصراً على الأسماء الفرنجية والجرمانية القديمة، إلا أن والدته الأميرة آن، وبحكم نشأتها في كييف ذات الروابط الدينية والثقافية العميقة بالإمبراطورية البيزنطية، هي من اختارت إطلاق ذلك الاسم اليوناني الغريب عن البلاط الفرنسي تيمناً بالثقافة الشرقية، والذي أصبح منذ تلك اللحظة أحد الأسماء العديدة الأكثر شيوعًا بين أسرة ال كابيه، وصف كرجل حكيم ذكى شديد النشاط، كان ينتهز الفرص المتاحة أمامه أكثر منه رجلاً محاربًا، وعلى الرغم ما اتسم بهِ في شبابه من دهاء، إلا أن مواقفه اللاحقة أظهرت افتقاره للخبرة في استغلال الأزمات [٤]، وربما كان سبب ذلك أنه عند وفاة والده لم يكن مؤهلاً للسلطة بسبب صغر سنه؛ ونظراً لأنه كان طفلا – إذ أنه ولد عندما كان والده يبلغ من العمر ١٠٥٢ عاما-، فقد قام هنري بالفعل في عام ١٠٥٩ بتنظيم تتويج الأمير البالغ من العمر سبع سنوات، أقيم الحفل في ٢٣ آيار في ريمس من لدن رئيس الأساقفة جيرفاسيوس Gervasius (١٠٠٧- ١٠٦٧) بحضور اثنين من المندوبين البابويين، وجميع التابعين الرئيسين للتاج - باستثناء وليم نورماندي - وهكذا، كان هنري، وفقًا للتقاليد ال كابيه، يأمل في ضمان نقل السلطة

---

(1)Frédéric Suennet, cit., p.113.

(2)Franz Funke Brentano, The Middle Ages, translated by Elizabeth O'Neill, William Heinemann Press, London, 1922, p.77.

(3)Dom Martin Bouquet (and others), Collection of Historians of Gaul and France (R.H.G.F.), Volume XI, Text of "Chronicle of Reims", Press de la Tour, Paris, 1767, p.291; Richard K. Emerson, Key Figures in Medieval Europe, New York Encyclopedia, Routledge, 2006, p. 670.

(4)Auteur anonyme, « La vie de Simon le Bienheureux, comte de Crêpe », Collection des historiens de Gaule et de France, éditée par Michel Jean-Joseph Bréal, vol. 14, Paris : Imperial Press, 1806, p. 37.

تلقائيًا، دون انتخابات، إلى ابنه بعد وفاته[١].

عند وفاة الملك هنري الاول، تم الاعتراف بفيليب ملكاً دون أية صعوبة، فقد تولى شؤون فرنسا منذ عام ١٠٦٠ حتى عام ١٠٦٧ بلدوين الخامس كونت فلاندرز زوج أدلا أخت الملك هنري الأول[٢] الذي كان إدارياً حكيماً سيطر على طبقة النبلاء واستطاع أن يحافظ على السلام في فرنسا، لكن بوفاة الاخير عام ١٠٦٧ كان فيليب يبلغ من العمر ١٥ عامًا ، ومن تلك اللحظة فصاعداً، يمكن للملك نظرياً أن يحكم بنفسه، وعلى الرغم من ذلك فإنه بمجرد أن بلغ فيليب السن المناسب للحكم حاول أن يهدم ذلك السلام؛ ناصباً العداء لنورمنديا التي اتسعت سيادتها بموافقة بلدوين الخامس - الذي تزوجت ابنته ما تلدا فلاندرز Matilda de Flandre (١٠٣١-١٠٨٣) من وليم حاكم نورمنديا[٣].

نظر الملك فيليب إلى التوسع النورماندي بوصفه تقويضاً للنفوذ الملكي؛ لذا سعى جاهداً خلال الحقبة الأولى من حكمه إلى تحجيم ذلك المد بشتى الوسائل، لا سيما مع تعاظم قوة وليم دوق نورماندي،غير أن طموحات وليم كانت تتجاوز الحدود الفرنسية متجهةً صوب التاج الإنكليزي، حيث نجح ببراعة دبلوماسية في استمالة البابوية إلى جانبه، وهي مهمة لم تكن يسيرة؛ إذ تطلب الأمر إقناع البابا ألكسندر الثاني Alexander II [٤]، بأن دوافع الغزو ليست أطماعاً دنيوية فحسب، بل ضرورة دينية لإصلاح الكنيسة الإنكليزية، وقد استند وليم في دعواه إلى حالة التردي التي كانت تعيشها تلك الكنيسة جراء عزلتها عن روما واستشراء الفساد فيها، مثل بيع المناصب الدينية، وهو ما تجلى بوضوح في تعيين ستيجاند Steigand[٥] رئيساً لأساقفة كانتربري Canterbury[١] على الرغم من أن سلفه روبرت

---

(1)Fleisch Augustine, Le règne de Philippe Ier, roi de France (1060-1108), Association française de l'imprimerie et de la librairie, Paris, 1912.

(2) Elizabeth M. Hallam, op. cit., p.76; Franz Funke Brentano, The Middle Ages, translated by Elizabeth O'Neill, William Heinemann Press, London, 1922,pp. 83-84; Candidos, Hugo. « Un roman sur la restauration de l'évêché de Lecteur » Recueil des Historiens des Gaules et de la France, Vol. 14, édité par Michel Bréal, Presses Impériales, Paris, 1806, p.28.

(3) Elizabeth M. Hallam, op. cit., p.76.

(٤)الكسندر الثاني : ايطالي من اسرة نبيلة ولد في باجيو Baggio بالقرب من مدينة ميلان،اسمه الحقيقي انسلم وهو احد تلامذة الأسقف لانفرانك في دير بيك في نورمندي، بعدها أصبح أسقفاً في دير لوكا Lucca في عام ١٠٥٧ بأمر من الامبراطور هنري الثالث. بعد وفاة البابا نيكولاس الثاني عام ١٠٦١ تم انتخابه على راس الكنيسة في روما ليحمل اسم البابا الكسندر الثاني، اما الامبراطورة اجنيس Agnes الوصية على ابنها الصغير هنري الرابع البالغ من العمر سنوات فقد رفضت انتخاب الكرادلة للبابا الكسندر الثاني ورشحت اسقف بارما بيتر كادالوس Peter Cadalus لمنصب البابا الجديد تحت اسم هونوريوس الثاني Honorius II. ولكن في عام ١٠٦٢ رفض الامراء الالمان البابا المضاد هونوريوس الثاني وتم ابعاد الامبراطورة من وصاية العرش ودعوة البابا الكسندر الثاني لمواصلة مهام عمله . يراجع :

Charles G. Herbermann,The Catholic Encyclopedia, Vol.1, New Avent , 2005, pp.601-602.

(٥) ستيجاند(- ١٠٧٢): يعد شخصية دينية وسياسية محورية ومثيرة للجدل في تاريخ إنكلترا خلال القرن الحادي عشر، حيث شغل منصب رئيس أساقفة كانتربري في المدة الحرجة التي سبقت وتلت الغزو النورماندي مباشرة (١٠٥٢-١٠٧٠). تميزت مسيرته بجمعه بين النفوذ الديني والسلطة الدنيوية الهائلة، إذ احتفظ بأسقفية وينشستر الثرية بالتزامن مع توليه رئاسة أساقفة كانتربري، وهو أمر مخالف للقوانين الكنسية آنذاك، مما جعله في صدام مستمر مع البابوية التي شككت في شرعية منصبه لسنوات طويلة.لعب ستيجاند دوراً استشارياً بارزاً في البلاط الملكي للملوك الأنجلوساكسونيين، خاصة إدوارد المعترف وهارولد جودوينسون، وكان يمتلك ثروة طائلة ونفوذاً واسعاً. ورغم أن ويليام الفاتح أبقى عليه في منصبه لمدة وجيزة بعد معركة هاستينغز عام ١٠٦٦ لضمان استقرار الحكم، إلا أنه استغل عدم شرعية ستيجاند الكنسية لاحقاً لعزله نهائياً في مجمع وينشستر عام ١٠٧٠، ليتم استبداله

Robert[٢] كان لا يزال على قيد الحياة، فضلاً عن جمعه بين منصبين في آن واحد هما رئاسة الأساقفة وأسقفية وينشستر، يضاف إلى ذلك امتناع إنكلترا عن تأدية الالتزامات المالية تجاه الكرسي الرسولي، وتحديداً ضريبة بنس بطرس[٣] التي كانت ترسل بانتظام منذ عهد الملك كنيوت Cnut (٩٩٠- ١٠٣٥)[٤]، فارسل ذلك الغرض رئيس الشماسين جيلبرت Gilbert أسقف ليزيو Lizio (١٠٦٨-١١٠١)[١]، ووصل ذلك روما وقابل البابا، ملتمساً منه تحقيق العدالة وإنصاف للدوق وليم في قضيتة ضد هارولد جودوينسون Harold

---

بلانفرانك وسجنه حتى وفاته، حيث مثّل عزله نهاية فعلية لسيطرة النخبة الأنجلوساكسونية على الكنيسة الإنكليزية وبداية حقبة الإصلاحات النورماندية.للمزيد عن حياة ستيجاند يراجع:

Cowdry, H. E. J., Lanfrank, Scientist, Monk and Archbishop, Oxford, Oxford University Press, United Kingdom, 2003.

[١] كانتربري : هي من أقدم وأشهر الكنائس المسيحية في انكلترا بنيت للمرة الأولى عام ٥٩٧ ميلادية، وتم إعادة بناءها خلال العقد الأول بعد الغزو النورماندي على انكلترا ما بين عامي ١٠٧٠ - ١٠٧٧ ميلادية تقع في مدينة كانتربري في مقاطعة كينت في جنوب انكلترا، أسقف الكاتدرائية هو رئيس كنيسة انكلترا وكذلك الرئيس الرمزي لجميع أتباع المذهب الأنجلكاني المسيحي. يراجع :

J.S. Smith, A Chronological History of Canterbury Cathedral (H.S. Clares, 1883), p. 143; Barry Dobson, "Canterbury in the Late Middle Ages, 1220–1540," in A History of Canterbury Cathedral, Oxford University Press, 1995, p. 153.

[٢]روبرت(- ١٠٥٢): شخصية محورية في المشهد الديني والسياسي لإنكلترا قبيل الغزو النورماندي؛ فقد بدأ مسيرته كراهب نورماندي ثم رئيساً لدير جومييج عام ١٠٣٧، حيث وطد علاقته بالملك إدوارد المعترف أثناء منفاه. وبمجرد اعتلاء إدوارد العرش الإنكليزي عام ١٠٤٣، تعاظم نفوذ روبرت ليتقلد أسقفية لندن ثم رئاسة أساقفة كانتربري عام ١٠٥١، متزعماً الحزب النورماندي ضد المنافس الساكسوني "غودوين". وعلى الرغم من نجاحه في إقصاء غودوين مؤقتاً، إلا أن عودة الأخير عام ١٠٥٢ أجبرت روبرت على الفرار لروما، ليُجرده مجلس "الويتاناغيموت" من شرعيته، وهو الحدث الذي اتخذه وليم الفاتح لاحقاً ذريعة لغزوه. قضى روبرت أيامه الأخيرة في جومييج حتى وفاته ١٠٥٢، تاركاً إرثاً تاريخياً أبرزه المخطوطة الثمينة المعروفة بـ "كتاب قداس روبرت الجوميجي".

Condi B. Palin, The Catholic Encyclopedia, Volume 13, Robert Appleton Company, 1912, p. 97.

[٣] بنس بطرس: أول من دفع بنسات بطرس هم الأنجلو ساكسون وهو تبرع يتم إعطاؤه سنويا، بحيث يدفع كل رب بيت له أرض بنساً واحداً سنويا كتبرع لكنيسة بطرس الرسول - في روما - في أول شهر آب من كل عام، وقد جري ذلك في إنكلترا وشعوب شمال أوروبا، وما لبث أن سارت باقي شعوب أوروبا على نهج الأنجلوساكسون وقد تفاوتت الآراء حول بداية ظهور بنسات بطرس فيرى البعض أنها بدأت عام ٧٢٠ في عهد الملك الأنجلوسكسوني إنا (٦٨٩- ٧٢٦)، وهناك من يذهب إلى أنها فرضت عام ٨٥٥ في عهد الملك إثيلولف (٨٣٩- ٨٥٨) واستمرت إنكلترا تدفع تلك الضريبة حتى عهد الملك هنري الثامن (١٥٠٩- ١٥٤٧) ولم تتعثر إنكلترا في جمعها إلا في أوقات الأوبئة والطاعون، وعلى الرغم من أن بنس بطرس بدأ كصدقة تدفع اختيارياً إلا أنه تحول إلى ضريبة تدفع إجبارياً، ويشرف على جمعها ملوك إنكلترا ويشرفون على إرسالها إلى البابوية بشكل مباشر، وفي عام ١١٥٩ اكتملت منظومة إدارة بنسات بطرس وتجميعها من إنكلترا حيث قام البابا الكسندر الثالث بتنظيم طريقة جمع الضريبة على يد مبعوثين بابويين ترسلهم البابوية ذلك العرض. يراجع : إيمان عبد التواب جسنين، تبعية إنكلترا الإقطاعية لبابوية روما (١٠٦٦- ١٢١٦)،مجلة الدراسات الإنسانية، جامعة كفر الشيخ، كلية الآداب، العدد ٢٨، ٢٠٢٣، ص ٨٨٤ ؛

Hubert Burke: Historical Portraits of the Tudor Dynasty and the Reformation Period. vol. 3. London, 1883. pp. 156- 157.

[٤] يراجع: احمد جمعة ظاهر، علاقة مؤسسة العرش الإنكليزي برؤساء أساقفة كانتربري ١٠٦٦ – ١١٠٠ ، رسالة ماجستير ، جامعة واسط ، كلية التربية للعلوم الانسانية ، ٢٠٢٢ ، ص ٣٠- ٣٢ .

Godwinson (١٠٢٢- ١٠٦٦)، وقد استند في دعواه إلى حنث هارولد بيمينه المغلظة التي كان قد أقسمها سابقاً بحضور أقطاب الكنيسة النورماندية وأمام الرفات المقدسة؛ وهو الأمر الذي صوّره بمظهر المستخفِ بالمعتقدات والرموز الدينية[٢]، فضلا عن مسؤوليته عن مقتل الفريد Alfred (١٠١٢- ١٠٣٦) شقيق الملك إدوارد المعترف Edward the Confesso (١٠٠٥- ١٠٦٦)، ودوره في ابعاد رئيس اساقفة كانتربيري السابق عن منصبه[٣].

أفاد جيلبرت في روما من جهود الكاردينال هيلدبراند Hildebrand (البابا كريكوري السابع GregoryVII [٤] لاحقاً) لا سيما انه كان أحد تلامذة الاسقف لانفرانك Lanfranc (١٠١٠– ١٠٨٩) في نورمندي أيضاً[٥]، الطامح إلى أنْ يخضع الملوك في أوربا لسطة الباباوات لتحقيق نظرية السيفين[٦] التي تحمس لها هيلدبراند كثيراً ، بتعبير آخر كان يهدف أنْ يختار البابا الملوك، أو في اقل تقدير وراثة العرش يجب أن تنال موافقة البابا[٧]، وفي

---

(1)Washington & Mark Wilks, The Three Archbishops Lanfranc – Anselm– A'Becket, London, 1859, p.71.

(2) Thomas Pownall Boultbee, A history of the Church of England Pre-Reformation Period, London, 1879, p.146.

(3) Slocombe, George, William the Conqueror, G. P. Putnam's Sons, New York,1961,p.114.

(٤) جريجورى السابع(١٠١٥- ١٠٨٥): مات البابا إسكندر الثاني في ٢١ نيسان عام ١٠٧٣ ، وغداة تشيع جثمانه اختار المجلس الكنسى الكاردينال "هيلدبراند" Hildebrand خلفا في كنيسة القديس بطرس تحت اسم البابا "جريجوري السابع وذلك ما وافق عليه الشعب أيضا. وكل ما يُعرف عن حياته المبكرة، وأصل منشئه ضئيل، ويقال أنه أحد أبناء "بونيزو " Bonizo، وولد في مدينة "سوفانا Sovana في "توسكانيا" Tuscany ، وتاريخ ميلاده غير مؤكد، ولكن من المحتمل أنه عند سيامته كبابا كان عمره يقرب من الأربعين. وأنه لما تلقى تعليمه الأول في روما انعكس على شخصيته، وعندما كان جريجورى مندوبا بابويا في فرنسا لتأكيد الإصلاح الكنسي في فرنسا زمن الملك فيليب الأول، كان لديه صلاحيات لتدعيم الموقف الكنسى، وكان فيليب محدود السلطة الملكية، ولكنه مارس نفوذا متشددًا على الكنيسة؛ حيث تدخل في شغل الوظائف الدينية، ذلك أن حقوق تعيين الوظائف الدينية في الأسقفيات كان يمثل دخلاً مهما للكنيسة، الذي لم يكن يرضى عنه الملك الفرنسي، فأخذ موقفا عدائيا من حركة الإصلاح، مما أثار سخط واستفزاز الوسط البابوي، وذلك في مجمع لونتين" Lenten Synod في عام ١٠٧٥م هدد البابا الملك فيليب بالحرمان إذا استمر في عدم مرضاة الرسول البابوى، فلم يكن بإمكان فيليب تحدى البابا، وأن يغامر بتعريض نفسه لقرار حرمان.

Z. N. Brooke, M. A,Gregory VII and the first contest between Empire and Papacy, The Cambridge Medieval History, V.5, Cambridge, 1926, pp.51-81; Thomas Oestreich: Gregory VII, Saint pope, The Catholic Encyclopedia, Tome, VI, London, 1919, pp. 791- 795.

(5) The Arnold Harris Mathew life and times of Hildebrand, Pope Gregory VII, London, 1910.

(٦) نظرية السيفين: ظهرت أواخر القرن الخامس الميلادي وأقرها البابا جيلاسيوس الأول فيما يتعلق بفصل السلطتين الدينية والدنيوية التي سماها السيفين، فشؤون الروح والخلاص الابدي هما من اختصاص الكنيسة، أما مجريات الأمور الدنيوية هي من اختصاص السلطة الزمنية، فالسيفان الروحي والمادي كلاهما ينتهيان إلى الكنيسة، ولتأكيد ذلك ذكر البابا أن الملك تسلم السيف من البابا. يراجع:جون لوريمر، تاريخ الكنيسة، ترجمة: عزرا مرجان، ج٤، دار الثقافة القاهرة، ١٩٨٨، ص ٣٠-١٣١ ؛ ناظم عبد الواحد الجاسور، موسوعة علم السياسة، دار مجدلاوي، عمان، ٢٠٠٩، ص ٣٧٠-٣٧١.

(7) Thomas Pownall Boultbee, Op. Cit., p.146.

النهاية توصل البابا الكسندر الثاني إلى أنّ هدف وليم إصلاح الكنيسة الانكليزية، ومن الأفضل أنْ يحكم انكلترا بدلاً من هارولد، الذي وجد مذنباً وتم حرمانه كنسياً، فبارك الكسندر الثاني مشروع غزو انكلترا، وعدَها حرباً مقدسة بين أنصار الكنيسة واعدائها ، وبلغ تأييده أن اهداه خاتماً من الذهب فيه شعرات زعم أنها تعود للقديس بطرس Saint Peter [١]، هكذا تمكن الدوق وليم ببراعة من إضفاء صبغة الحرب الصليبية على مشروعه العسكري، وهي خطوة استراتيجية كفلت له إسكات أصوات المعارضين؛ إذ لم تكن مباركة البابا ألكسندر الثاني لمشروع غزو إنكلترا مجرد تأييد سياسي، بل منحت الحملة غطاءً دينياً وشرعيةً مقدسة، وقد أدى ذلك التحول الجوهري، بالتزامن مع الدعوات التي نُشرت وعممت في مختلف الأرجاء، إلى تشجيع أعداد غفيرة من المقاتلين والمرتزقة الأجانب من شتى الممالك الأوروبية على التوافد للانضمام تحت راية الدوق وليم[٢]، وبدأ الرجال والخيول والمؤن والأسلحة بالتدفق على الدوقية من كل مكان، واستقبل وليم هؤلاء المتطوعين اوالمرتزقة بحفاوة بالغة من الاجزاء الأُخرى من فرنسا كبريتاني وبواتييه والفلاندرز ومن الاندلس وصقلية، واعدا إياهم بمنحهم المكافآت التي جاؤوا من اجلها في انكلترا في حالة نجاحه [٣].

لقد أراد البعض المال وآخرون ارادوا الأراضي، والبعض الأخر المناصب، فكل شخص كان له ثمنه، حتى رجال الدين اشتركوا في المشروع، فاحدهم عرض على الدوق تقديم عشرون سفينة مقابل ان يتم تعيينه في احدى الكنائس الانكليزية عندما يصبح الدوق ملكاً على انكلترا[٤]،ولم يكتف الدوق وليم بذلك؛ بل ارسل بطلب المساعدة من الإمبراطور هنري الرابعHenry IV[٥]، ووعد الأخير بالدفاع عن نورمندي ضد أي اعتداء خارجي عند غيابه، كما طلب وليم المساعدة من سوين الثاني Sweyn II (١٠٢٠-١٠٧٤) ملك الدنمارك، الا إنَ الاخير رفض الاستجابة لأنه نفسه كان يرغب بالعرش الانكليزي[٦]؛ وبعد

---

[١] بطرس(- ٦٤): هو سمعان بن يونا معني اسمه صخرة وحجر، ولد في قرية بيت صيدا الواقعة على بحر طبرية قبل ميلاد السيد إنكلترابعده سنوات، قد تصل إلى العشرة وتزيد قليلًا، وكان يشتغل بصيد الأسماك شأنه في ذلك شأن الكثير من سكان قريته، من حواري السيد المسيح الاثني عشر، بل أنه على وفق الأناجيل زعيمهم بأمر السيد المسيح (ع)، الذي بيَن أن الرب سلمه مقاليد الكنيسة بعده، كان له ابرز الأثر في نشر دعوة السيد المسيح، وتذكر المصادر المسيحية أنه ذهب إلى روما حتى صلبه الإمبراطور نيرون عام ٦٤، وهو بحسب الكنيسة الكاثوليكية أول بابوات روما . يراجع:

Oscar Cullmann, Peter Disciple Apostle, Martyr, Westminster, 1962.

[2]Jacob Abbott, Makers of History William the conqueror, London, 1902، p.116.

[٣] محمد مرسي الشيخ، المصدر السابق، ص٢٥٩.

[4]Jacob Abbott,Op.Cit.,p.47 ;Henry Hallam,History of Europe during the Middle Ages,Vol.I,The Colonial Press,New York,1900, p.224.

[٥]هنري الرابع(١٠٥٠-١١٠٦): دوق بافاريا (١٠٥٥-١٠٦١) ، اصبح امبراطورا في الامبراطورية الرومانية المقدسة للمدة من (١٠٨٤-١١٠٦) . كان على خلاف مع البابا جريجوري السابع ونتيجة ذلك اصدر البابا امرا بحرمانه . للمزيد من التفاصيل يراجع:

Hill, Boyd H. Monarchy in the Middle Ages: The German Empire from Henry I to Henry IV, Volume 21, Routledge Library Series, London, 2020, p. 93.

[6]Foord,EdwardAndHome,Gordon,TheInvasionsofEngland,London,1915,p.179;Slocombe,Op.Cit.,p.11.

ان تكللت جهود الدبلوماسية النورمندية بالنجاح في خارج فرنسا، وبقيت لتلك الدبلوماسية خطوة مهمة جداً في داخل فرنسا وهي اقناع الملك فيليب الاول بالاشتراك في غزو انكلترا ، وذلك الغرض زار وليم الملك في باريس مناشداً إياه تقديم المساعدة لمشروع الغزو، مبيناً له في حالة تقديم المساعدة والنجاح في المهمة، فأن كل من نورمندي وانكلترا ستكونان تابعتين لفرنسا[١].

كما جلب الدوق معه ابنه الاكبر من اجل تقديمه للملك الفرنسي بوصفه الوريث للدوقية، ولأن الملك فيليب صغير كان السن وتحت وصاية بلدوين الخامس كونت فلاندرز، ذلك لم ينظر للمشروع نظرة ايجابية، سائلاً وليم عن الشخص الذي سيهتم بشؤون الدوقية في حالة غيابه، فأجابه الدوق **" في الظروف الحالية أنه محظوظ لان لديه زوجة متعقلة ورعايا محبين، وانه سيترك شؤون الدوقية بسلام بين أيديهم حتى عودته"**[٢]، ولم يتخذ الملك أي قرار قبل ان يتشاور مع مستشاريه البارونات، وكان موقف هَؤُلاَءِ سلبياً فأشاروا عليه ان النورمان في الماضي كانوا من الصعب التعامل معهم، وفي حالة سيطرتهم على انكلترا سيصبحون متغطرسين جدًا، وإذا ساعدهم الملك وصادفهم النجاح في ذلك، فإن الفرنسيين سيلزمهم توفير الاموال والفرسان مِمَّا يُحَمّلهُم أعباءً كبيرةً جداً، واذا فشل الغزو النورمندي فإن الانكليز سيعادون الفرنسيين إلى الأبد، ذلك فأن اقصى ما حصل عليه الدوق من مقابلة الملك فيليب تعهد الأخير بالوقوف على الحياد [٣].

احبط وليم من جواب الملك، وبين له قبيل مغادرته عائداً إلى روين قائلاً : **"كنت سأحمل مملكة انكلترا بالكامل لأجعلها جزءاً من ممتلكاتك،معترفاً بك ملكاً لو وافقت على مساعدتي، لكني سوف لن افعل ذلك ما دمت ترفض ذلك، أني أومن فقط بأولئك الذين يساعدوني"**[٤].

بعد نجاح وليم النورمندي بالاستيلاء على انكلترا في ٢٨ ايلول ١٠٦٦ سمي منذ ذلك الحين باسم وليم الفاتح Guillaume Le Conquerant (١٠٦٦-١٠٨٧)[٥]، وبذلك الوضع بدأت العلاقات الفرنسية الإنكليزية تتضح معالمها حيث تذكر المصادر الإنكليزية أن الملك الفرنسي فيليب الأول قد أرسل إلى الملك وليم الفاتح خطاباً في عام ١٠٧٤، يطلب منه

---

(1)Jacob Abbott,Op.Cit.,p.48.

(2)David Bates and Anne Curry, England and Normandy in the Middle Ages,The Hambledon Press, London,1994,p.28.

(3)Thierry,Augustin,History of the Conquest of England by the Normans its Causes and its Consequences, in England, Scotland, Ireland, & on the Continent, Vol. I, London,1847,pp.162-163 .

(4) Quoted in: Elisabeth Van Houts ,The Normans in Europe, Manchester University Press ,New York,2000,p.48.

(5)J. F. A. Mason, The Conqueror's Companions, The English Historical Journal, Vol. 71, United Kingdom, London, 1956, pp. 61-69; Adams, George Burton, A History of England from the Norman Conquest to the Death of John (1066-1216), Vol. 2, Longmans, Green & Co., London, 1905, p.43; George Townsend Warner, M.A: Landmarks In English Industrial History, London, 1930, pp.23,38,43; Franz Funke Brentano ,op. cit., p.89.

الحضور للمثول أمامه، معلناً له رغبته في إعطائه قلعة مونتريال Montreuil ، وأعلن مهدداً بأنه يستطيع إلحاق الأذى بهِ كل يوم، إلا أن الملك وليم أصبح من القوة بما لا يخشى الملك الفرنسي؛ لاسيما بعد السلام الذي عقد بينه وبين الملك مالكلوم الثالث Malcolm III (١٠٣١- ١٠٩٣) ملك اسكتلندا[١].

بدأ الملكان فيليب الأول ملك فرنسا، ووليم الفاتح ملك إنكلتر ودوق نورماندي - الذي يعده دائما فصله الإقطاعي- مع بداية عام ١٠٧٦، ينظر كل منهما للآخر بعين الريبة ومحاولة الخلاص منه والقضاء عليه، ذلك نجد أن الملك الفرنسي أخذ في إغراء كل العناصر المعادية للدوق وليم داخل مملكة انكلترا، فرد الملك وليم على ذلك بأن قام بإغراء مستشاريي الملك فيليب، فعرض عليهم أملاك حكومية عظيمة داخل مملكته[٢] وفي النصف الثاني من عام ١٠٧٦ كان وليم قد اطمأن للأحوال الداخلية في البلاد؛ فقام بإعداد جيش كبير، وقاده لمحاصرة أحد المواقع التابعة لدوقية بريتاني والمسمى دول Dole[٣] والتي سبق أن أعلنت التمرد ضده، إلا أن سياسة الملك وليم هذهِ تجاه بريتاني، جعلت من التبعية الإقطاعية الاسمية القائمة بين الملك فيليب ملك فرنسا، ودوق أكيتاين، ودوق أنجو فضلاً، عن لكل الناقمين على سياسة وليم وتطلعاته الإقطاعية جعلت منه تحالفاً فعليًا، وقاموا معاً بالتصدي للدوق وليم، مما اضطره إلى الانسحاب وأجبر أمام ذلك التحالف على عقد الصلح، وكان من نتائجه أن عاد بالنفع على الملك فيليب، الذي استطاع ضم إقليم فيكسن، ولم يثر وليم الفاتح أي احتجاج[٤] .

وهكذا يتضح أن وليم الفاتح، عندما رأى ذلك التحالف القوى ضده وجد نفسه خاسراً ذلك الصراع لا محالة؛ فمال إلى سياسة المهادئة وقبول شروط الصلح حتى ولو كانت مجحفة، وذلك يدل على ما يتمتع بهِ من كونه سياسيًا بارعا؛ فقبل شروط الصلح، انتظاراً لجولة قادمة يحقق فيها مآربه على ذلك التحالف، وتتيح له الفرصة للتعبير على سياسته الخاصة المميزة له عن باقي إقطاعيي فرنسا؛ وبهذه النتيجة باتت العلاقات الفرنسية الإنكليزية تأخذ شكلاً عدائيا بطريقة غير مباشرة، واتضح ذلك مع حلول العام التالي مباشرة لأحداث قلعة دولDole ؛ حيث حدث ما هو أخطر على الملك وليم الفاتح، حين ثار ضده ابنه الأكبر روبرت Robert(١٠٥٤- ١١٣٤)[٥] الذي كان دائما يطلب من أبيه أن يتخلى له عن نورماندي ومين ليحكمهما منفرداً، وقد استثمر الملك الفرنسي ذلك الموقف، ووعد الابن الشاب

---

(1) F .M . Stenton ,Anglo- Saxon England, The Oxford History of England, Great Britain, 1950,pp.562-563.

(2)Ordericus Vitalis, op. cit., p. 678 .

(٣) دول: مدينة فرنسية، تقع على نهر ديبوس Doubs ، غرب وجنوب غرب بيسانكون Besancon ، موقعها جعلها من أهم المدن التجارية. يراجع : Moore, W.G., Op.Cit., p.790.

(4)Roger of Hoveden, Annals of the History of England and Other Countries in Europe from 732 to 1901, Vol. 1, H. G. Bohn, York Street, Covent Garden, London, 1181, p. 159; David Douglas, English Historical Documents, Volume II, Eyre and Spottiswood, London, 1953. pp.164- 165; Petrus Betheau, "Fragmenta Historiae Francicae", Collectio Historicorum Galliae et Franciae, Tomus XII, Lutetiae, 1877.p.2.

(5)David, C.W., Robert Curthose of Normandy, Cambridge, 1920,pp.2-11.

بالمساعدة للحصول على الدوقيتين من أبيه،واستقبله في قصره استقبالا رائعاً، وأعطاه مقراً في قلعة تسمى جربوتريت Gerboh Tret[١] تقع ضمن مقاطعة بوفيزيس Beauvaisis[٢] لتكون قاعدة عسكرية متقدمة لمواجهة الملك وليم، وما لبث أن تعرض الأخير في أواخر عام ١٠٧٨، لهجوم الملك الإسكتلندي مالكلوم الثالث بيد أنه تصدى ذلك الهجوم بأن أسرع بجيشه وحاصر قلعة جربوتريت وفرض حصاراً شديداً عليها، مما دفع الابن روبرت على الفور إلى أن يأتي لمقابلة أبيه الملك وليم مترجلاً من على فرسه، وأعلن لوالده مطالبه، إلا أن الملك وليم رفض تلك المطالب، وبدأ في شن الهجوم على القلعة، ولم يستطع الاستيلاء عليها مما دفعه إلى الانسحاب من أمامها متحسراً على ما يحدث، فتح ذلك الإخفاق العسكري الباب أمام الملك فيليب ليمارس سلطته كسيد إقطاعي أعلى، متدخلاً كوسيط لإنهاء النزاع؛ حيث تكللت جهوده بعقد الصلح في كانون الثاني ١٠٧٩، وبموجب ذلك الصلح، انتزع فيليب وروبرت تعهداً من وليم بأن يترك دوقية نورماندي لابنه، مما مهد الطريق فعلياً لبداية تجزئة الأراضي الإنكليزية التي تأسست عقب موقعة هاستنج ١٠٦٦[٣].

ومما سبق يتبين أن علاقة الملك فيليب بالملك وليم الفاتح منذ أن أخذت شكل الصدام الفعلي مع بداية عام ١٠٧٦ حتى عام ١٠٧٩، وغلب عليها النجاح لصالح الملك فيليب، وذلك عندما قام بضم إقليم فيكسن إلى أملاكه ونجح نجاحا باهراً في زرع الوقيعة بين الملك وليم الفاتح، وابنه الأكبر روبرت، التي كان من نتائجها تجزئة مملكة وليم بفصل دوقية نورماندي عنها، وربما كان مرجع ذلك ما خلقه الملك وليم لنفسه من عداوات مع جيرانه من كبار الإقطاعيين، وانشغاله بتنظيم الأمور الداخلية، داخل مملكته، ومن ثم يكون الملك فيليب الأول قد أحرز انتصاراً سياسياً كبيراً ربما لم تتح له الفرصة تحقيقه بالمواجهة العسكرية ؛ ويبدو أن الملك وليم بعد تلك المحاولة، ظل مشغولاً بالأحداث الداخلية في انكلترا حتى شهر آب من عام ١٠٨٧، عندما قامت مجموعة من الجنود الفرنسيين بغارة على أملاك الملك الإنكليزي المجاورة لإقليم فكسن[٤] Vexin ؛ فقام على الفور بمطالبة الملك الفرنسي بتلك الأراضي، وعندما قوبل طلبه بالرفض، قدم على رأس جيش كبير إلى مملكة فرنسا، وقام في طريقة

---

(1)Roger of Hoveden, Op.Cit., p.159 .

(2)Gulielmus de Guimeugue, "Historia Normannorum," Collectio Historicorum Galliae et Franciae (R.H.G.F.), Volumen XI, Typographia Regia, Lutetiae, 1767, p.54.

(3)R. Tanner et al., The Cambridge History of the Middle Ages, Vol. 3, Cambridge University Press, London, 1922, pp.110-112.

(٤) ان النزاع بشأن تابعية مقاطعة فكسن Vexin بين الملك وليم والملك الفرنسي بسبب منح الملك الفرنسي هنري الاول (والد الملك فيليب الاول) منطقة فكسن إلى الدوق روبرت (والد وليم الفاتح) تثميناً لجهوده في مساعدة هنري لحكم فرنسا، فاصبح دروجوDrogo حاكم فكسن تابعاً إلى دوق نورمندي. وقد رافق دروجو الدوق روبرت في زيارة الاراضي المقدسة عام ١٠٣٥ وتوفي في اثناء الرحلة ايضاً، استاء ورثة دروجو كثيراً من تبعيتهم إلى دوقية نورمندي واستغلوا مدة الوصاية على وليم ليعلنوا تابعيتهم إلى الملك الفرنسي من جديد، وفي عام ١٠٧٧ اختفت سلالة دروجو من الوجود فاعلن الملك الفرنسي فيليب الاول ضم فكسن بشكل رسمي . يراجع :

McGowen, Tom, William the Conqueror Last Invader of England, Enslow Publishers, United State of America ,2008.pp.136-138.

بإحراق مانت Mantes الواقعة على نهر اللوار Loire ،وكل الكنائس فيها، ومن هناك عاد إلى دوقية نورماندي، غير أن هناك من يرجع سبب تلك الحرب إلى أنها كانت بسبب قيام الملك فيليب الأول بالاستهزاء بالملك وليم الفاتح، في آخر لقاء بينهم بقوله: **"متى يلد ذلك الولد السمين"**- لأن من المعروف أن الملك وليم الفاتح في أواخر أيامه أصبح ذا جسم بدين، وكان كثيرا ما يعوقه عن السير على أقدامه؛ فكان يلزم الفراش مثل النساء التي تقرب من وضع حملها - **"فأجابه وليم سأئد وأذهب إلى كنيسة سانتياجو Santiago في مدينة باريس كي أتطهر من النعاس مصطحباً معي ألفا من الشموع الرمحية، لأن النفساء إذا انقطع دمها ذهبت إلى الكنيسة بموكب ليقدسها هناك القسيس"**، فكانت تلك الحرب، وهو في طريق عودته سقط من على صهوة جواده الذي داس على جمرة محترقة، فأصيب في منطقة الظهر، وكانت الاصابة بالغة جداً أدى إلى مرضه الذى توفى فيه، وذلك في ٩ ايلول ١٠٨٧، فى مدنية روان Rouen ، ودفن في دير في كنيسة ستيفن التي أسسها في كاين Caen، بعدما حكم مملكة انكلترا أكثر من عشرين عامًا[١].

وقد قام الملك وليم وهو على فراش الموت بجمع حاشيته ورؤساء الأساقفة من أجل إعلان وصاياه، وتقسيم مملكته بين أبنائه؛ ناقض قراراته السابقة تماماً، فالدوافع والحيثيات لاتنسجم وربما تتقاطع تماماً مع مصالح العرش ونقاط قوته، ولاسيما في مسألة فصل نورماندي عن انكلترا بعد أن كافح كثيراً لتوحيدها[٢]، بما يمكننا من القول أنه مع كل إجراءاته لجعل نورماندي وانكلترا بلداً واحداً، وارسائه بنيه تحتية متطورة لهما بقياسات عصره تجاهل أهمية استمرار الوحدة، ولم يطور قاعدة ثابتة لتوريث عرش انكلترا، أودوقية نورماندي، تاركاً الأمر لتقييماته الشخصية، وميوله الخاص فاستبعد الابن الأكبر روبرت من إرث أبيه في العرش، مكتفياً بإعطائه دوقيتي نورماندي وماين، فكانت عقاباً له على انضمامه للملك فيليب، فضلاً عن عجزة وتردده وسهولة استدراج الآخرين له، معتقداً أن ابنه الأوسط وليم الثاني روفس(الأحمر) William II Rufus [٣] أجدر بالعرش لحزمه وقوة شخصيته، ودرايته العسكرية وطاعته الشديدة له في الحرب والسلم، أما الابن الثالث هنري الأول

---

(1) Quoted in: H.W.C,Davis , England Under The Norman And Angevins 1066 - 1272, Mathuen & Co, Ltd, London, 1949, pp.63-64 ; Douglas,Op.Cit.,p.358.

(2)Arabella B. Buckley & W. J. Robertson, history of England, Toronto,1891, p.38.

[٣] وليم الأحمر(١٠٥٧- ١١٠٠): تولى وليم الثاني، الملقب بـ "الأحمر"، عرش إنكلترا خلفاً لأبيه وليم الفاتح، متميزاً بشخصية عسكرية صارمة مكنته من الحفاظ على استقرار المملكة وتأمين حدودها ضد الاسكتلنديين والويلزيين، بالتزامن مع خوضه صراعات مستمرة مع شقيقه الأكبر روبرت في محاولة لتوحيد إنكلترا ونورماندي. وقد اتسم عهده بتوتر شديد مع الكنيسة ورجال الدين، ولا سيما رئيس أساقفة كانتربري، بسبب سياساته المالية التي استهدفت استغلال ثروات المؤسسة الدينية، قبل أن تنتهي حياته بشكل مفاجئ وغامض عام ١١٠٠ إثر إصابته بسهم أثناء رحلة صيد، مما مهد الطريق لشقيقه الأصغر هنري الأول ليعتلي العرش. يراجع : منير نصيف جاسم، سياستا انكلترا الداخلية والخارجية في عهد وليام الأحمر ١٠٨٧-١١٠٠ ، اطروحه دكتوراه، جامعة واسط، كلية التربية للعلوم الإنسانية، ٢٠٢٤؛ موسى محمد آل طويرش،التطورات الديمقراطية في بريطانيا ١٠٦٦- ١٩٠١ ، دار المعتز للنشر والتوزيع ، عمان ، ٢٠١٦ ، ص ٥٣- ٥٤.

Henry I [١] كان خارج حسبات ابيه تمامًا، فقد تنبأ له وليم بأشياء كثيرة تنتظره في المستقبل ومنحه مبلغ خمسة آلاف باون من إرث والدته ماتيلدا، زاعماً أن فرصته ستأتي يوماً ما، وتوج وليم ملكا على انكلترا[٢].

ومن الواضح أن تقسيم الملك وليم لمملكته، قد خلق نوعاً من الصراع الداخلي على عرش المملكة استمر حتى تولي هنري الثاني Henry II (١١٣٣- ١١٨٩) ملكًا لإنكلترا ١١٥٤، أما بالنسبة لرد فعل التقسيمات السابقة على فرنسا، فقد ثبت أنها كانت إيجابية على المملكة الفرنسية في صراعها مع ملوك انكلترا ،إذ إنه في الوقت الذي انشغلت فيه القوى المختلفة في انكلترا ونورماندي بالشؤون الداخلية كانت فرنسا في طريقها إلى الصدام مع البابوية، بداية من عام ١٠٩٠ وإذا ما كانت الأوضاع في انكلترا على استقرارها في هذه المرحلة فسيكون بمثابة الكارثة بالنسبة لفرنسا في موقفها الجديد وربما كانت ستخسر المزيد من أراضيها في تلك الظروف[٣].

تأثرت فرنسا بما طرأ من تغيير في سدة الحكم الإنكليزي، إذ اعتلى وليم عرش مملكة انكلترا[٤] فكان على العكس من والده وليم الفاتح، الذي أستسلم لغرائزه الاستبدادية؛ فأثار ضده معارضة النبلاء، ولم يكتف بذلك، بل خلق لنفسه خلافًا كبيرًا مع رئيس أساقفة كانتربري انسلم Anslem(١٠٣٣– ١١٠٩)، فترتب على ذلك أن زادت المعارضة ضد مشاريعه التوسعية خارج مملكته، غير أن أول مشاريع وليم التوسعية كانت على حساب أخيه روبرت المنافس له، والمطالب أيضا بعرش المملكة، ودوق نورماندي، خاصة بعدما

---

[١] هنري الأول(١١٠٠-١١٣٥): أصغر ابناء الملك وليم الفاتح، حافظ هنري على الأمن والسلم والنظام في إنكلترا، ودافع عنها عندما غزاها اخوه روبرت دوق نورماندي عام ١١٠١ بعد عودته من الأراضي المقدسة ومشاركته في الحملة الصليبية الأولى ونجح هنري في رد الغزاة، ولم يكتف بذلك، بل تحين الفرصة وغزا نورماندیا، وانتصر في معركة تنشيريه Tinchebrai عام ١١٠٦ ، وضم نورماندیا للتاج الإنكليزي. وبدا هنري في هذه المرحلة الرجل القوي الذي بدد أطماع فرنسا في نورماندیا، ولكي يقوى من مركزه أراد أن يظهر بمظهر الانجلوسكسوني والنورماندي في آن واحد. فتزوج في عام ١١١٤ من ماتيلدا Matilde سليلة الملوك الإسكتلنديين والانكليز قبل الحكم النورماني فطعم الأسرة الحاكمة بالدم الإنكليزي القديم، وراعى هنري العدالة في حكمه وتجنب الإسراف، ويؤخذ عليه انه فرض الضرائب الفادحة على الأهالي.وأنجب هنري الأول وليم الذي غرق مع السفينة البيضاء عام ١١٢٠ ،وابنة حملت اسم أمها ماتيلدا. وأنجبت الأبنة ابناً واحداً من زوجها جيوفري اف انجوي Geoffrey of Anjou، وذلك الابن هو هنري الثاني فيما بعد، وأرغم هنري الأول رجال الدين والنبلاء على ان يقسموا يمين الولاء لابنته ماتيلدا وابنها هنري من بعده، وعندما مات هنري الأول عام ١١٣٥ اغتصب سيتفن كونت بلوا العرش، وستيفن ذلك هو حفيد وليم الفاتح عن طريق ابنته أدل Adele . يراجع : خليل احمد خليل، ملحق موسوعة السياسة، دار الفارس للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠٠٤، ص ١٠٥ ؛

Henry of Huntingdon, The Chronicle of Henry of Huntingdon comprising the History of England from the invasion of Julius Caesar to the accession of Henry II,Trans by Thomas Forester, London, 1853. pp.239-240; Gautier Map, Contes pour les gens de cour, Brepols, 1993, p.315.

[٢] حسنين عبد الكاظم عجه ، ملك انكلترا وليام الثاني الأحمر ١٠٨٧ – ١١٠٠ انموذجاً للاستبداد في تأريخ اوربا الوسيط ، مجلة واسط للعلوم الانسانية ، مج ١٥ ، العدد ٤٣ ، ٢٠١٩ ، ص ١١٢ .

[3] Francis Palgrave, Op. Cit., Vol. IV, pp.11-12.

[4] Edith Thopson, History of England, New York,1873 , p. 39.

استطاع الأخير ضم كثير من الأمراء الخارجين على الملك وليم، والناقمين على سياسته[١]، ذلك توجس وليم روفس من أخية روبرت دوق نورمندي منذ البدء، لأسباب في مقدمتها شعبيته الكبيرة بين النبلاء النورمان[٢]، وتورطه في حبك خيوط مؤامرة باشرها أولئك النبلاء ضد وليم روفس عام ١٠٨٨[٣]، ففي عام ١٠٩٠ أراد إكمال سلطته الملكية بالاستيلاء على دوقية نورماندي وضمها إلى حوزة التاج الإنكليزى، مستغلاً الفوضى التي شهدتها نورماندي والحروب التي حدثت بين بعض مدنها[٤]؛فقام على رأس جيش كبير بالهجوم عليها، وأسفر ذلك عن الاستيلاء على قلعة سانت فيلاري التي تسمى بقلعة والتر Walter، وأيضا تم له الاستيلاء على قلعة البميرال Albemarle التابعتين لدوقية نورماندي وعديد من القلاع الأخرى التي عاث فيها خراباً وهو في طريقه إلى نورماندي لحصارها[٥].

وكان رد الفعل للدوق روبرت سريعاً؛ فقام بإرسال سفارة إلى الملك فيليب الأول ملك فرنسا، بوصفه سيده الإقطاعي، يطلب منه العون في مواجهة أخيه الملك وليم روفوس ولرغبة محببة لدى الملوك الفرنسيين في الحفاظ على سيادتهم الإقطاعية على دوقية نورماندي، ما لبث الملك فيليب أن وصل إلى نورماندي واجتمع بالدوق، وقادا جيشاً لحصار القلاع التي تم الاستيلاء عليها من قبل الملك وليم روفوس وتفادياً للصدام نجح الملك وليم روفوس في التوسل إلى الملك فيليب الأول، حتى يكف عن التضييق عليه، في مقابل ذلك قام وليم بدفع مبلغ من المال للملك الفرنسي سراً لثنية عن مساعده تابعه الإقطاعي دوق روبرت الذي استنجد بهِ، وهو ما حدث فعلاً حين تراجع ملك فرنسا بجيشه الذي كان مقرراً أن يساعد دوق نورماندي ضد الغزو الإنكليزي الوشيك [٦].

ويمكن أن نخلص من ذلك الموقف، أن الملك فيليب لم يمتلك من الخبرة السياسية إلا الشيء القليل، فقد سنحت له الفرصة في التدخل في شؤون مملكة انكلترا بعد أن فقدت عاهلها الكبير وليم الفاتح والخروج من ذلك الموقف بأكبر المكاسب المادية، بضم أراضي جديدة لمملكته، إلا أنه عندما رأى بريق المال، لم يتردد في الانسحاب والعودة إلى فرنسا، على العكس من ذلك، إذا ما تمكن من استغلال تلك الفرصة المتاحة له لاسيما خلال المدة الصراع الداخلي لاستطاع تثبيت سيادته الاقطاعية في دوقية نورماندي والأملاك الإنكليزية الموجودة

---

(١) عبد القادر احمد اليوسف ، العصور الوسطى الاوروبية ٤٧٦ – ١٥٠٠ ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٩٦٧ ، ص ١٧٤ ؛

William Grimshaw, History of England from the first invasion by Julius Cesar to the Year Eighteen Hundred and Fifty prizing every political event worthy of Remembrance a progressive view, Philadelphia,1851 , p.41 .

(2)Francis Palgrave, Op. Cit, pp. 29-31 .

(3) Percy Van D. S., English and French in England1066 - 1100 , Philadelphia,1921 , p p.46-47.

(4)Turner, Sharon, A History of England from the Earliest Times to the Death of Elizabeth, Volume 4, Longman, London, 1839, p.145 .

(5) Elliot. M. M, The Middle Ages in Britan, Cambridge,1930 , p.30.

(6)Sarah Orne Jewett, The story of the Normans told chiefly in relation to their conquest of England, New York,1895 , p349 .

في حوزة التاج الفرنسي[١]، وعلى الجانب الآخر استطاع الملك وليم روفوس أن يحقق نجاحاً باهراً، عندما استطاع أن يشتري حياد الملك فيليب الأول ملك فرنسا لمدة طويلة[٢].

انفجر الموقف بين فرنسا وانكلترا عسكرياً مرة أخرى في مطلع عام ١٠٩١، عندما عبر الملك وليم القنال الإنكليزي، متجها إلى دوقية نورماندي لفرض الحصار عليها، وحينما وصل هناك، نجح في فرض الحصار المحكم عليها، وبينما الحصار قائم تطالعنا المصادر بحديث عن سلام عقد بين الطرفين؛ أدى الملك الفرنسي فيه دور الوسيط بعد أن استوفى الرشوة السابقة، ليوافق بين مصالحه الذاتيه وبين استمرار السجال بين أبناء وليم الفاتح، وانتهى توسط الملك الفرنسي وكبار النبلاء إلى اقناع الأخوين بإجراء مفاوضات في روان[٣]، أسفر عن عقد معاهدة تعهد فيها الدوق روبرت برد بعض المقاطعات للملك وليم، أمثال أوى Owe، وفيسشامب Feschamp، والقلعة الموجودة على جبل سانت ميشل Saint Michael الواقعة إلى الجنوب من افرنش وإلى الشمال من دول-وشير بورج Cherbourg التي أعلنت التمرد من قبل - على الملك وليم روفوس، وفى مقابل ذلك قام الملك برد كل ما أخضعه من أملاك للدوق مثل المقاطعات الصغيرة الموجودة في بروفانس Province فضلاً عن لمقاطعة ماين وبعض القلاع في نورماندي، تضمنت المعاهدة بنداً حاسماً للوراثة المتبادلة، ينص على أنه في حال وفاة أي من العاهلين دون ترك وريث شرعي، تؤول كافة أملاكه وسلطاته مباشرة إلى الطرف الآخر، ولضمان التنفيذ والالتزام التام بتلك الشروط، جرى التصديق على المعاهدة وتوقيعها من قبل أربعة وعشرين بارونا، قُسموا مناصفةً بواقع اثني عشر بارونا ممثلين للملك وليم، واثني عشر بارونا من طرف الدوق روبرت[٤] .

ويلاحظ على تلك الاتفاقية أنها أهملت حق الأخ الثالث هنري، الذي ما لبث أن جمع جيشاً بمساعدة بعض النساك المقيمين وتحصن في قلعة سانت مايكل[٥]، حينها شرع وليم الأحمر استناداً إلى استقراءاته السابقة في توظيف الحيثيات الجديدة للتخلص من الأمير هنري بوصفة العقبة الكؤود أمام مطامعه[٦]،لاسيما أن الاخير رفض تسوية غين، فاقنع وليم لأحمر أخيه وروبرت بخطورة هنري، وضرورة اجتثاثه من نورماندي، والاستيلاء على أمواله التي تركها له أبيهما، وشرع الأخوان بقيادة جيش كبير لمحاصرة قلعة سانت مايكل[٧]، وهناك معطيات كثيرة أثناء الحصار دلت على مدى تباين شخصيتي الأخوين، أبرزها أن

(1) C. Warren Hollister & Amanda Clark Frost, Charles Warren, 1930, pp. 76-77 .
(2) Sarah Orne Jewett, Op. Cit., p.349.
(3) J. Seymour Lucas, Cassell's History of England from the Roman invasion to the wars of the Roses, Vol. I, London,1909, p.127 .
(4) Augustin Thierry, history of the Conquest of England by the Norman, Vol. I, London,1847, p.333 .
(5) Sharon Turner , Op. Cit., p.147 .
(6) Arabella B. Buckley & W. J. Robertson, Op. Cit., p.39 .
(7) Frederic g. Bagshawe, The history of the Royal Family of England, Glasgow,1912 , pp.39- 40 .

روبرت أرسل مياه ونبيذ إلى أخيه المحاصر بعد أن سمع بنفاذها لديه، حين وبخه وليم الأحمر قال روبرت في تلقائية شديدة **" إذا مات أخينا فمن أين نأتي بأخر"**، واضطر هنري في النهاية للانسحاب من القلعة مع من تبقى من أتباعة، تاركاً مقتنياته وأمواله[١]، إلا أن انشغال ملك انكلترا بالحملة على اسكتلندا[٢]،والفوضى الضاربة أطنابها في نورمندي[٣]، مكنت هنري من الحصول على موطئ قدم في موضع يقع جنوبها يدعي دومفرونت، بالتوافق مع مواطنيها الذين طلبوا من هنري أن يكون لوردهم شريطة أن لايتنازل عن ملكية مدينتهم لشخص سواه[٤]، لتفشل مخططات وليم الاحمر في وئد نشاط اخية الاصغر[٥] .

وبالنظر إلى موقف الملك الفرنسي فيليب الأول من تلك الأحداث التي تقع على الجانب الآخر من القنال الإنكليزي يلاحظ أنه لم يحاول استغلال تلك المواقف، وذلك يختلف مع سياسته التي بدأ بها حياته، وعلى ما يبدو أن ذلك الجمود في سياسته كان نتيجة للفوضى في حياته الخاصة، حيث إنه أقدم في عام ١٠٩٢ على أثار معارضة ضده فقد سئم من زوجته بيرثا الهولندية Bertha of Holland (١٠٥٨- ١٠٩٣)، ابنة فلوران الأول Florentl كونت هولندا وهجرها في الوقت نفسه مال قلبه إلى برتراد دي مونتفورت Bertrade de Montfort ابنة سيمون كونت دي مونتفورت Comte de Montfort و Simon وأرملة فولك روشين Fulk Rechin كونت أنجو، وفاز بقلبها ونجح الملك في كسب موافقة كل الأساقفة الفرنسيين تقريباً في عرضه للزواج منها [٦]، لكن القديس الكبير إيفو Ivo[٧] كان ضمن مجموعة رجال الدين الذين وقفوا ضده [١].

وعلى ذلك يمكن أن نستنتج أن الملك فيليب الأول ملك فرنسا لم يكتف بعدم استغلال

---

(1)Frederic g. Bagshawe, Op. Cit, p.41 .

(2) Agnes Strickland, Lives of The Bachelor Kings of England, London,1861 , p.29 ; J. Seymour Lucas, Op. Cit, p.127 .

(3)James Taylor, The Pictorial History of Scotland, Vol. II, London,1859 , p.27 .

(4)Franck Bright.M.A, A history of England , period I ,meddeval monarohy from the departure of the Romans to Richard III 4491485,waterloo place ,London, 1875, p.59 .

(5)Rev. Cooper, A History of England from Ancient Times to the Present, E. Newberry, London, 1788, p. 5.

(6)Clarius Monachus, "Annales Monasterii Sancti Petri Viventis Senonum," Collectio Historicorum Galliae et Franciae (R.H.G.F.), compilata et edita a: Dom Martino Bouquet, Volumen 12, Sayant & Nyon, Lutetiae, 1781, p. 280; Ordericus Vitalis, op. cit., pp.649-650; Elizabeth M. Hallam, op. cit., p.77.

(٧) ايفو (١٠٤٠-١١١٦): كان أسقف لمدة طويلة عرف فيها كمصلح دينى شديد العلم بالقانون الكنسي، واللاهوت، تلقى ايفو تعليمه في باريس، وأصبح رئيس دير سانت كوينتين Saint-Quentin وكان أيضا ينضم كراهب ضمن مجموعة الكهنة النظامين في بوفيه منذ عام ١٠٧٨م، ولكن منذ عام ١٠٩٠ أصبح أسقف شارتر وظل بها حتى وافته المنية.

Zinn, Grover A. "Evo of Chartres" in Medieval France, Medieval France: An Encyclopedia, eds. William W. Kepler and Grover A. Zinn, Garland Publishers, New York, 1995,p.479.

الفرص التي سنحت له في التوسع على حساب أملاك مملكة انكلترا بل على العكس خلق لنفسه كثيراً من المشاكل خاصة مع البابوية، فقد كان يعارض الإصلاحات الدينية التي كانت تحرمه من السيطرة على بعض الممتلكات الدينية، كما إنها ستمنعه من السيطرة على بعض الوظائف[٢]، ويظهر ذلك جلياً في صراعة مع البابا جريجورى السابع، عندما أراد منع التقليد العلماني وحرمان الملك من اختيار الأساقفة وتقليدهم، بذلك العمل الذي ارتكبه، وأثار ضده الكثير من الأمراء الموالين له، في الوقت الذي كان يجب عليه التنبه لما يحدث في مملكة انكلترا، ومحاولة استغلاله والاستفادة منه، لاسيما في الوقت الذى قامت فيه الدعوة للحركة الصليبية والتي جذبت إليها أنظار كبار الإقطاعيين[٣].

وبالنظر إلى أحوال المجتمع الأوروبي الذى تلقى تلك الدعوة وعلى الأخص مملكتي فرنسا وانكلترا؛ يتراءى في الأفق أن العلاقة قد تطورت إلى السوء بين الملك فيليب الأول والبابوية، وبلغت ذروتها عندما اتهمته البابوية بالزنا، ووقعت عليه عقوبة الحرمان الكنسي من البابا أوربان الثاني Urban II[٤] وذلك في كليرمونت ١٠٩٥[٥] بفرنسا غير أن الملك الفرنسي لم يعبأ بموقف البابوية منه، نظراً للمساندة التي حظى بها من كثير من الأساقفة الفرنسيين الذين كانوا يساندونه ؛ فمن الملاحظ أن الدعوة للحرب الصليبية المقدسة التي دعت إليها البابوية في المدة من ١٨ إلى ٢٨ تشرين الثاني ١٠٩٥، والصراع القائم بين الملك الفرنسي والبابوية جعل من السلام ضرورة بين مملكتى فرنسا وانكلترا وذلك عندما انشغل

---

(1)Yves (Episcopus Carnotensis), "Epistula ad Reginaldum, Archiepiscopum Remensem," Collectio Historicorum Galliae et Franciae (R.H.G.F.), edidit Michel Jean-Joseph Bréal, Tomus 15, Typographia Imperialis, Lutetiae, 1808, pp. 73-74.

(2) Elizabeth M. Hallam, op. cit., p.77; Saidney Painter, op. cit., p.161.

(3)Bertholdus Constance, "Opera Gregorii VII Papae", Historici Galliae et Franciae, ediderunt Michel Jean Joseph Bréal, Tomus 14, Typographia Imperialis, Lutetiae, 1806, pp. 548-564.

(٤)البابا اوربان الثاني(١٠٣٥–١٠٩٩): فرنسي انتخب لمنصب البابوية في روما عام ١٠٨٨، كان أوربان إصلاحيًا متشددًا مثل من سبقوه من الباباوات، حيث عقد سلسلة من المجالس لحفز الإصلاح الأخلاقي والتنظيمي للكنيسة،عقد أوربان عام١٠٩٥، مجلسا حافلاً في مدينة كلرمونت بفرنسا. وبالرغم مما أصدره ذلك المجلس من قرارات إصلاحية مهمة، فإن أكثر ما يشتهر به ذلك المجلس هو إطلاق الدعوة لما أصبح يُعرف بعد ذلك بالحملة الصليبية الأولى،كان أوربان رجلاً ذكيًا سياسيًا لبقًا، وكان خطيبًا مفوَّهًا، وكان أيضًا جريئًا حاسمًا، وكان مطلعًا على أحوال العالم المعاصر له، وفوق كل ذلك كان يُكِنُّ حقدًا كبيرًا على المسلمين، سواء في بلاد المشرق حيث يحكمون أرض المسيح، واجه أوربان معارضة عاصفة ومستمرة من الإمبراطور هنري الرابع الألماني. وتعين على أوربان طوال عهد البابوية أن ينازع خصوم البابا الذين كانوا ينكرون عليه الهيمنة الكاملة على روما. ومع ذلك كان أوربان دبلوماسيًا بارعًا. وقد منعت سياسته تجاه شمال إيطاليا كلا من الإمبراطور الألماني وخصوم البابا الآخرين من تركيز اهتمامهم ضده. يراجع :

Fulcher of Chartres, A History of The Expedition to Jerusalem , Trans . Frances Rita Ryan (Sisters of St. Joseph), Tennessee 1969, PP. 62- 65 ؛ Robert The Monk , in E. Peters The First Crusade, The Chronicle of Fulcher of Chartres and other Source materials , Philadelphia 1971, PP. 1-4.

(5)Yves Chartres, "Epistula ad Urbanum II, Papam", citata in Collectione Historicorum Galliae et Franciae (R.H.G.F), edidit Dom Bréal, Volumen 15, Domum Editoriam Victoris Balmy, Lutetiae, 1878, p. 84.

الملك فيليب بصراعه مع البابوية فضلاً عن انشغال الطرف الثاني وليم روفوس بإصلاح الأحوال الداخلية لمملكته ودوقية نورماندي إلى جانب ذهاب الكثير من جيوش المملكتين في الحملة الصليبية الأولى[١]، ولم يتخلل تلك المدة إلا صراعات بسيطة دون اشتباك عسكري، وكما أوضحنا سلفاً أن الملك الفرنسي خلق لنفسه عداء مع البابوية وخسرها كحليف قوى حتى أنها لم تعتمد عليه في دعوتها للحملة الصليبية، وعلى الرغم من كل ذلك نجد أن الملك فيليب أمعن في مناهضتها حتى تعرض للحرمان للمرة الثانية في عام ١٠٩٦، بسبب اصراره بعدم التخلي برتراد، ولم يكن ذلك هو نهاية الصراع ، فما لبثت البابوية أن أصدرت ضده قراراً آخر بالحرمان في عام ١٠٩٩ مما دفع الوساطة إلى التدخل مع حلول عام ١١٠٠ من أجل عقد مصالحة ونجحت في ذلك في عام ١١٠٤ بعدما قام الملك بهجر زوجته برتراد، وخضع لأوامر البابوية، ومنذ تلك اللحظة أصبحت مملكة فرنسا في صداقة دائمة مع البابوية[٢].

أما بالنسبة لمملكة انكلترا، فنجد أن العلاقة قد ساءت بين الأخوين الملك وليم والدوق روبرت، وذلك عندما قام الدوق بإرسال سفير من قبله، إلى أخيه الملك، يخبره بأنه قد نقض المعاهدة المبرمة بينهما، ويتهمه بأنه مخادع، وأنه قد أقسم كذباً، وأنه أي الدوق روبرت يرفض اللقاء بهِ في اللقاء المزمع عقده في الأول من شباط عام ١٠٩٤مما أدى إلى إساءة العلاقات بين الطرفين، وعلى أثرها قام الدوق وللمرة الثانية بالاستعانة بالملك فيليب الأول ملك فرنسا ضد أخيه الملك وليم الثاني روفوس الذي قام بحملة من عشرين الف مقاتل انتشرت في سواحل الدوقية، وفرضت حصار على قلعة أرجنتان Argenton - الواقعة على الساحل الجنوبي للقنال الإنكليزي- وكانت إجابة الملك سريعة، حينما قام بإمداد حليفه بسبعمائة فارس في اليوم نفسه[٣].

عندما علم الملك الإنكليزي بذلك رفع الحصار عن قلعة أرجنتان، وارتد بجيشه صوب مقاطعة أيورو Eure، وتحصن بها وما أن علم جيش التحالف الفرنسي النورماندي بذلك سعى إلى فرض حصار على الملك وليم ونتيجة لطول مدة الحصار التي جاءت لشدة

---

[١]الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٦-١٠٩٩): هي أولى الحملات العسكرية التي شنتها قوات أوروبا الغربية للسيطرة على مدينة القدس والأراضي المقدسة، والتي أطلق شرارتها البابا أوربان الثاني في أواخر عام ١٠٩٥ تلبيةً لنداء من الإمبراطور البيزنطي أليكسيوس الأول كومنينوس، انطلقت جيوش الحملة فعلياً في عام ١٠٩٦، وحققت نجاحًا عسكريًا تمثل في سيطرة تلك القوات على مدينة القدس في ١٥ تموز ١٠٩٩، شارك في تلك الحملة عشرات الآلاف، حيث تشير التقديرات التاريخية إلى انطلاق قرابة ٦٠,٠٠٠ مقاتل، رافقهم وانضم إليهم حوالي ٣٠,٠٠٠ من العناصر غير المقاتلة كالعائلات والرهبان ورجال الدين والتجار، شنت تلك القوات عمليات عسكرية في عدة مناطق من آسيا الصغرى والشرق الأوسط، حيث تمكنت من السيطرة على مدن كبرى في شرق المتوسط مثل نيقية وأنطاكية، وصولاً إلى هدفها الأسمى المتمثل بمدينة القدس. وقد تبعت هذه الحملة عدة حملات صليبية أخرى، تفرعت أهدافها مع مرور الوقت واتسعت رقعة عملياتها الحربية لتصل لاحقاً إلى حد مهاجمة مدينة القسطنطينية (البيزنطية) نفسها والسيطرة عليها. يراجع : قاسم عبد قاسم، الحملة الصليبية الأولى نصوص ووثائق، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، القاهرة ، ٢٠٠١.

[2]Yves, Op. Cit.,pp. 87-88; Elizabeth M Hallam, Capetian France 987-1328, London and New York, 1980, p.77.

[3] Edward A. Freeman, The Reign of William Rufus and the Accession of Henry the first, Vol. II, Clarendon Press, London, 1882, pp.465-466 .

تحصينات الملك الإنكليزي حاول وليم، رشوة ملك فرنسا مقابل انسحابه وقواته من نورمندي، وهو ما حصل فعلاً بالشكل الذي جعل دوق نورمندي في قبضة أخية وليم الثاني، وللمرة الثانية لم يُحسن الملك فيليب الأول استغلال الفرص المتاحة أمامه للتدخل في الصراع الدائم حول العرش الإنكليزي ومحاولة الاستفادة منه في تحقيق السيادة الإقطاعية[١]. وكما أصبح واضحاً أن الدعوة للحرب الصليبية جعلت من السلام ضرورة بين مملكة فرنسا ومملكة انكلترا، دون عقد هدنة بين المملكتين، فأيضاً قامت بإحلال السلام بين الأخوين وليم الثاني روفوس ملك انكلترا والدوق روبرت دوق نورماندي، حيث تم عقد هدنة بين الطرفين في عام ١٠٩٦ بمقتضاها تم رهن دوقية نورماندي للملك وليم الثاني مقابل عشرة آلاف جنية فضة [٢] .

بعد جولة قصيرة من المفاوضات، أُبرمت الصفقة أخيراً مقابل ستة آلاف وستمائة وستة وستين جنيهاً؛ وهو المبلغ الذي وظّفه الدوق روبرت لتمويل مشاركته في الحملة الصليبية، بينما تولى الملك وليم جمعه من رعاياه بشتى الوسائل الممكنة، وبموجب ذلك الاتفاق، آلت السيطرة على إقليم نورماندي إلى ملك إنكلترا في خطوة غير متوقعة، ولم يتوقف طموح الأخير عند ذلك الحد، بل كاد أن يحرز تقدماً استراتيجياً آخر في فرنسا إثر تقاربه مع دوق بواتييه وغويان، وليم التاسع William X(١٠٧١ -١١٢٧)، حيث أوشك وليم الأحمر على إمضاء صفقة مماثلة تضمن له الاستحواذ على أملاك الدوق[٣] ، وقد أثار ذلك التمدد السريع قلق ملك فرنسا وحاشيته من تعاظم نفوذ التاج الإنكليزي داخل الأراضي الفرنسية، حتى ذهب البعض إلى القول إن العاهل الفرنسي بات يخشى على عرشه من السقوط، غير أن الأقدار تدخلت لتغيير مجرى الأحداث؛ ففي الثاني من آب عام ١١٠٠، لقي الملك وليم مصرعه بشكل مفاجئ إثر إصابته بسهم طائش أطلقه بالخطأ رفيقه الفرنسي والتر تيريل Walter Tyrel،أثناء تواجدهما في الغابة الجديدة بالقرب من مدينة ساوثهامبتون Southampton جنوبي إنكلترا[٤]، وقد أسفرت تلك الحادثة عن وأد المشروع التوسعي الإنكليزي في مهده، لتنتهي معها كافة مخاوف التاج الفرنسي [٥].

ومجمل القول أن السلطة الملكية في عهد فيليب الأول بدأت في الظهور الواضح مع القدرة على التصدي للسلطة البابوية بقدر ما، وعلى ما يبدو أن الظروف كانت لا يمكن لها أن تساعد أحد هؤلاء الملوك الذين تولوا حكم فرنسا في القرن الحادي عشر على فرض سيطرته الفعلية على أنحاء مملكته الاسمية الواسعة؛ ذلك وجه هؤلاء الملوك الأوائل كل جهودهم نحو إنقاذ ما تبقى لهم من نفوذ موروث في إماراتهم الإقطاعية حول باريس، وهي

---

(1) J. Seymour Lucas, Op. Cit., p.127 .
(2) Edith Thopson, Op. Cit., p.41 .
(3)S. G. Goodrich, A pictorial history of England, Philadelphia,1854, p.65 .
(4) A. E. Bland, The Normans in England 1066- 1154 , London. ,1914, p.56 .
(5)Arthur Hassall, Op. Cit., p.24 .

المنطقة المعروفة باسم جزيرة فرنسا Ile de France [١]، حيث وجد بعض صغارالأمراء الإقطاعيين الذين لم يعترفوا بالسلطة الملكية، وأخذوا يشيدون القلاع والحصون، وبخاصة في عهد فيليب الأول تحديا له.

[١] سُميت تلك المنطقة تاريخياً بـ "جزيرة فرنسا" لأنها تبدو وكأنها محاطة بالمياه من عدة جهات بواسطة مجموعة من الأنهار الكبرى، وهي نهر السين (Seine)، ونهر المارن (Marne)، ونهر الأواز (Oise)، ونهر الإين (Aisne)، هذه الأنهار شكلت حدوداً طبيعية للمنطقة ،كانت سلطة الملك الفعلية والمباشرة تقتصر تقريباً على هذه المنطقة الجغرافية الصغيرة فقط .

Jim Bradbury, op. cit.,pp.111-112.

ثانياً. النشأة والسنوات المبكرة للويس السابع قبل ارتقاء العرش الفرنسي١١٢٠- ١١٣٧:

تمثل الحقبة الممتدة بين عامي ١١٢٠ و١١٣٧ مرحلة مفصلية وحاسمة في تاريخ الملكية الفرنسية، إذ ترسم تلك الحقبة مسار تشكيل وعي وشخصية الملك لويس السابع وتدرجه غير المتوقع نحو سدة الحكم، لم يكن ذلك الأمير الشاب مقدراً له في الأصل أن يعتلي العرش، بل أُعد منذ نعومة أظافره لحياة كنسية هادئة، حيث تشرّب مبادئ الزهد والورع داخل أروقة دير سانت دينس Abbey of Saint-Denis ،غير أن الأقدار تدخلت بقوة لتغيّر مجرى حياته إثر الوفاة المفاجئة والمأساوية لشقيقه الأكبر ولي العهد فيليب Philippe (١١١٦- ١١٣١)، لتنتشله تلك الحادثة من عزلة الرهبنة وتلقي بهِ في قلب المعترك السياسي المعقد لأوروبا إبان العصر الوسيط، يسلط ذلك القسم الضوء على التحولات العميقة في حياة لويس الأصغر، بادئاً باستعراض البيئة السياسية المضطربة والأوضاع الداخلية لفرنسا وعلاقاتها الشائكة مع القوى المجاورة في أواخر عهد والده الملك لويس السادس(السمين) (١١٠٨– ١١٣٧)، مروراً بنشأة الأمير الاستثنائية التي طبعت شخصيته طيلة حياته، وصولاً إلى الحدث الأبرز الذي غيّر خارطة النفوذ الفرنسي والمتمثل في زواجه الاستراتيجي من إليانور Eleanor (١١٢٢- ١٢٠٤) دوقة أكيتاين؛ وهو الحدث الذي مهّد الطريق لجلوس أمير ذي ميول رهبانية على عرش مملكة تقف على أعتاب مرحلة جديدة من التوسع والصراع.

١. لويس السادس (١١٠٨– ١١٣٧).

توفي الملك فيليب في ٢٩ تموز ١١٠٨ ودفن في دير سان بينوا San Benoit ليتوج ابنه لويس السادس في الثالث من آب من العام ذاته ملكاً على عرش فرنسا في كاتدرائية أورليانز، كان لويس الابن الأكبر والوحيد الذي امتد به العمر حتى سن البلوغ من بين أربعة أبناء رُزق بهم الملك من زوجته الأولى بيرثا الهولندية، والوحيد الذي بقي على قيد الحياة حتى سن البلوغ، أُرسل لويس في طفولته إلى دير سانت دينس حيث تلقى تربيته وتعليمه على يد رهبان الكنيسة، وهناك التقاء مع سوجرSuger[1]، الذي كان يقاربه في العمر، وقد تعدت علاقة سوجر بلويس علاقة الحاكم بمستشارة، فقد أصبح سوجر بمثابة صديق له، و لم تقتصر علاقة سوجر بلويس لاحقاً على الروابط الرسمية بين الحاكم ومستشاره، بل امتدت لتكون صداقة متينة ضربت بجذورها في مرحلة الطفولة؛ ففي عام ١٠٩١، أُرسل سوجر وهو في سن العاشرة إلى ذات الدير لتلقي العلم، ليتزامل مع الأمير لويس وتتوطد بينهما علاقة وثيقة، وقد تطورت تلك الصداقة تدريجياً حتى بات سوجر يقضي أيام عطلته في

[1] سوجر (١٠٨١- ١١٥١): رجل دين ومؤرخ ولد في عام ١٠٨١ بالقرب من دير القديس دينس ، عمل مشرفاً مابين عامي ١١٠٤ حتى ١١٠٦م في مدرسة للرهبان في دير القديس (بنوه) الواقعة على نهر اللوار قريباً من اورليان،بعدها اصبح سكرتير للاب آدم(Adam) في دير القديس دينيس عام ١١٠٦ ،درس في مدرسة بواتو العلوم الانسانية ثم عاد الى سان دوني لإكمال تعليمه في دراسة الفلسفة واللاهوت وفي عام ١١٢٢ اختير رئيساً لدير القديس دينس عهد اليه الملك لويس لسادس الإشراف على تربية ابنه لويس السابع، وقد عمل ايضاً مستشاراً ملكياً منذ العام ١١٣٠ وبعدها عين وزيراً خاصاً لادارة شؤون المملكة، لكنه ابعد عن السلطة عامي ١١٣٧ و١١٤٧وذلك لسوء العلاقة بينه وبين الملكة إليانور زوجة الملك لويس السابع يراجع : فاطمة عبد الطيف الشناوي ،انتهاك حقوق سكان فيتري تحكم حكم الملك لويس السابع ملك فرنسا، مجلة كلية الآداب، جامعة طنطا، كلية الآداب ،ج١،العدد٢١ ،٢٠٠٨، ص١٣٦؛

القصر الملكي ليشارك الأمير أوقات فراغه وتسلية، ولما أظهره سوجر من شغف بالعلم وتميز في الذكاء وسرعة البديهة، قرر رئيس الدير إرساله إلى مدرسة نوتردام Notre Dame[١]اللاهوتية في باريس ليصقل معارفه، وهو ما أهله لاحقاً لكسب ثقة الجميع ومحبتهم، وعلى رأسهم صديق صباه الملك لويس[٢].

قلده والده الحكم عام ١٠٩٢ في منطقة بونتواز Pontoise ونانت Nantes والفيكسان Alfiksan،حصل لويس على لقب فارس عام ١٠٩٧ من جاي الأول، كونت بونتيو Guy I, Count of Ponthieu (١٠٣٠ – ١١٠٠) عندما كان في السادسة عشرة من عمره،وسرعان ما أعلن وليم الثاني الأحمر، الذي ركز السيطرة على انكلترا ونورماندي بين يديه بفضل مشاركة أخيه الأكبر روبرت في الحملة الصليبية، مطالباته ببونتواز ومانت وشومون، رفض فيليب الأول التخلي عنهم، وبدأت الحرب التي استمرت حوالي سنة ونصف (تشرين الثاني ١٠٩٧– نيسان ١٠٩٩)؛ فأبدى رجال الملك مقاومة شديدة ضد وليم ودافعوا عن الأراضي المتنازع عليها، وأوردت المصادر تقييمات مختلفة لدور الأمير لويس السادس في تلك الأحداث،فيدعي سوجر أنه قاد الدفاع وأظهر شجاعة كبيرة[٣]. تميز لويس السادس في شبابه بمواهب رجل الحرب، فكان بطلاً لا مثيل له ومصارع عظيمً،ووصف بأطيب الطباع والعادات اذ كان دائم الدفاع عن الكنائس، ويحمى المحتاجين والفقراء، ويعمل بدأت من أجل إحلال السلام[٤] .

تعرض الملك لويس لمشاكل اخرى عندما طلق الملك فيليب والدته من أجل الزواج من بيرتراد دي مونتفورت، Bertrade of Montfort (١٠٧٠– ١١١٧) التي اختطفها من زوجها كونت أنجو (بموافقتها على ما يبدو)[٥]، حيث سحرت بجمالها، ولم تر في ابن زوجها

Alfred Nietmint, La Vie de Suger, Bibliothèque du Piccolo, Paris, 1842, p. 9.

[١] نوتردام : أهم المعالم الاثرية في العالم كما انها تعد أضخم كاتدرائية في فرنسا وواحدة من أهم الملتقيات الثقافية والدينية تعني بالعربية كنيسة (مريم العذراء) ،وقد بنيت على ضفاف نهر السين في العصر الوسيط على أنقاض أول كنيسة مسيحية في باريس والتي كانت تسمى وقتها بازيليك (كنيسة) القديس استيفان ، التي كانت بدورها مبنية على أنقاض معبد جوبيتر الروماني. استمر العمل في بناءها مايزيد عن ٢٠٠ عام (١١٦٣ – ١٣٦٨)، والكنيسة مَبنية على الطراز القوطي الذي يتميز بالتفاصيل والدقة والإبداع ،حيث النحت البارز وتماثيل الملائكة والشياطين والزخارف المعمارية دقيقة الصنع وتماثيل السيدة مريم العذراء والسيد المسيح ، تبلغ مساحتها ٦٣,٠٠٠ قدم مربع وكانت التواريخ المتصلة ببنائها توحي بضخامة العمل الذي استلزمه . يراجع : هبه محمد عكاشة ، تأثير العمارة الإسلامية على العمارة القوطية الفرنسية ، مجلة العمارة والفنون والعلوم الانسانية ، كلية الفنون التطبيقية ، جامعة بنها ، مج ٩ ، العدد ١١ ، ٢٠٢٤ ، ص ٨٧٥ – ٨٧٦ ؛ زيدان جرجى زيدان، رحلة جرجي زيدان إلى أوروبا ١٩١٢، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، ٢٠١٠، ص ٣٧ – ٣٨

[2]Joubry, Ivan, Louis VII 1137-1180, Pygmalion, Paris, 2002, pp. 23-24.

[3]Suger, The Fat Louis, translated by Richard Cusimano and John Moorhead, Catholic University of America Press, Washington, D.C., 1992, pp. 12.

[4]Suger, Ibid, p.12.

[٥] كانت الابنة الثالثة للمالك مونتفورت سيمون الأول من زوجته الثالثة أغنيس ديفرو، ابنة الكونت ريتشارد ديفرو وجودهيلد دي كونش، لم يعترف بها الكرسي الرسولي، في عام ١٠٩١ أدان البابا أوربان الثاني ذلك الاتحاد بسبب حقيقة أن زوجتي فولك السابقتين (الثانية، إيرميرغاندا دي بوربون، والرابعة مانتي دي برين) كانتا على قيد الحياة، وسرعان ما تم اختطاف بيرترادا دي مونتفورت من الملك فيليب الأول، الذي تزوجها في ١٥ أيار ١٠٩٢، تصالح فولك مع اختياره لزوجته واعترف بطلاقه منها. يراجع :

سوى عائق أمام صعود أبنائها، مع ذلك أعلن فيليب الأول لويس حاكمًا مشاركًا له في عام ١١٠٠، ذلك حاولت بيرترادا التخلص من ابن زوجها، حيث أرسلت ثلاثة من رجال الدين إليه كقتلة مأجورين، وعندما لم ينجحوا، حاولت تسميم الأمير،وظل في حالة حرجة لمدة ثلاثة أيام، ولم يُنقذ من الموت المحقق إلا بفضل العناية الفائقة والمهارة الطبية لطبيب يهودي في عام ١١٠١، وعقب تلك الحادثة، تضرع الملك فيليب لابنه كي يصفح عن زوجة أبيه، واستجاب لويس لرجاء والده وسامحها، غير أن التوتر والجفاء ظلا السمة البارزة التي تخيم على علاقتهما منذ ذلك الحين [١] .

رأى الملك لويس السادس أنه يتعين عليه إخضاع أتباعه وأفصاله من الأمراء الإقطاعيين داخل جزيرة فرنسا ذاتها قبل أن يحاول تأكيد سلطان الملكية، ونشر ذلك السلطان في بقية أنحاء فرنسا[٢]؛ ولعل السبب الرئيس ذلك هو هيمنة أسر مديري القلاع على جزيرة فرنسا، ومن خلال سلطتهم في المنطقة استطاعوا السيطرة بصورة واقعية وتصرف البعض بصورة مليئة بالقسوة[٣]، ومن ذلك ما ذكر عن توماس دي مارلي Thomas de Marle الذى كانت قسوته نادرة لم يسمع عنها من قبل في ذلك الوقت، حيث اتسم بوحشية غير مسبوقة جعلت منه تهديداً مباشراً لاستقرار إقليم لاون، وقد برزت حدة تمرده في عام ١١١٢ عندما وفّر الحماية لزعيم المتمردين عقب اغتيال أهالي المدينة لأسقفهم، وتزامن ذلك مع استيلائه بالقوة على أراضٍ تابعة لدير القديس يوحنا في لاون Saint- Jean de - Laon؛ وذلك بعد عامين تم حرمان توماس كنسياً حيث تم تجريد من كافة ألقابه ورتبه وأوسمته، قام الملك لويس السادس بمساعدة الكنيسة في شن الحرب ضده، حتى سقطت قلاعه واحدة تلو الأخرى، وتم إجبار توماس على تقديم التعويض لكل من الملك لويس والكنيسة لكن الملك لويس الذى كانت فروسيته تفوق عقله قام بالعفو عنه، وكان ذلك خطأ فاحشاً، إذ سرعان ما عاد إلى أساليبه الشريرة، وذلك في عام ١١٣٠ قام الملك بحملة تأديبية ضد توماس حتى تمكن من أسره، وبعد ذلك بمدة قصيرة توفي في الأسر[٤].

وقد حدث تهديد آخر مشابه للقانون والنظام في منطقة بيسى و شراتر Chratres من لدن هيو دى بويزيه Hugues de Puiset (١٠٩٦- ١١٢٧) الذى ستولى على أراضي الكنيسة ويستهزىء بالحرمان الكنسى، مما دفع الملك لويس السادس لمصادرة أراضيه

Mews, Constant J., "Negotiating Gender Boundaries in Religious Life: Robert Darbressel and Hersend, Abelard and Eloise," Viator, Vol. 37, University of California Medieval and Renaissance Studies Center, 2006, p. 132.

(1)Suger, Vie de Louis VI, Collection des Historiens de Gaule et de France (R.H.G.F), Vol. 12, Sayant et Nyon, Paris, 1781, pp.10-11, Vetri Membrana De Eodem Ludovico VI. Franciae Rege, R.H.GF, Tome, XII, p.63; Pithaeo op cit. pp.6-8.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور، المصدر السابق ، ص ٢١١- ٢١٢ .

(3) Elizabeth M. Hallam, op. cit., p. 115.

(4)Yves, Op. Cit.,pp.160-161; Suger, Vie de Louis VI ,op cit., pp.57-58; Louis Halphen, France Louis VI and Louis VII (1108-1180), The Cambridge Medievel History, V.5, Cambridge, 1926, p.595, Elizabeth M. Hallam, op. cit.. pp.115-16; Jean Mathieu Rosay, op. cit., p. 119.

وأسره ولكن سرعان ما أُطلق سراحه عام ١١١٢، وقد بدأ هيو مرة أخرى بإرهاب جيرانه مما دفع الملك الفرنسى لهزيمته مرة أخرى وقتله في سنة ١١١٨[١]،ذلك بالنسبة لثوار شمال باريس، فبعد أن أصبحت أراضيها مؤمنة بصورة حقيقية، توجه الملك لجنوب باريس، وتصدى لـ هيو دى كريسي Hugues de Crecy (١٠٦٨- ١١٤٧)، ودمر قلاعه بعد أن صادر أملاكه[٢].

بالتزامن مع مساعي الملك الفرنسي لويس السادس لتعزيز نفوذه الداخلي وبسط سيطرته على أراضيه، برز أمامه تحدٍ عسكري وسياسي خطير تمثل في الملك الإنكليزي هنري الأول، الذي كان يُفترض أن يدين بالولاء الإقطاعي للتاج الفرنسي، وقد تجسدت خطورة ذلك التهديد في التحالف المعارض الذي دعمه هنري الأول، وشمل ابن أخته ثيوبولد الخامس العظيم كونت شامباني وبلوا Theobald V, Count of Blois (١١٣٠- ١١٩١)، فكانت خطورتهم ترجع لموقع تلك الدوقيات بالنسبة لمملكة فرنسا؛ نظراً لأن دوقية نورماندیا تحد مملكة فرنسا من جهة الشمال الشرقي، بينما تقع بلوا في الجهة الغربية وتجاورها شامباني Champagne من جهة الشرق مَما شكل طوقاً جغرافياً ضاغطاً على الأملاك الملكية الفرنسية[٣].

ولم يقتصر التهديد على التحالفات السياسية، بل امتد ليشمل تحركات عسكرية مباشرة زادت من تضييق الخناق على باريس، حيث قام جاي الثاني Guy II of Montlhery (١٠٥٥- ١١٠٨) ، دوق مونتليري Mantihery الواقعة شمالي العاصمة، بتنفيذ سلسلة من الحصارات عام منذ نهاية عام ١١٠٧، شملت قلعة جورناي Gournay الواقعة شرقي باريس ، بالإضافة إلى قلاع تشيفرو Chevreuse وكونتيتي كوربيل Corbeil، ولامونت Lamonte في الجنوب، وكانت تلك التحركات العسكرية مدفوعة برغبة واضحة من هنري الأول في تحجيم قوة لويس السادس وإسقاط سيادته الإقطاعية، لا سيما بعد نجاح التاج الإنكليزي في استعادة دوقية نورماندیا بعد ٢٧ عاماً من الهيمنة الفرنسية عليها، وأمام ذلك الموقف الذي مالت فيه الكفة العسكرية لصالح هنري الأول – الذي نجح في تثبيت أركان حكمه مبكراً – لجأ لويس السادس إلى الدهاء السياسي لسد الفجوة في موازين القوى؛ فعمل على توثيق تحالفاته مع البابوية للاحتماء بنفوذها الديني، وسعى جاهداً لاستمالة كبار الأمراء والإقطاعيين المجاورين لضمان ولائهم أو مسالمتهم؛ وعلى الرغم من محاولات التهدئة الدبلوماسية المتمثلة في اللقاء الأول بين الملكين، والذي أسفر عن اتفاقية عام ١١٠٨ القاضية

---

(1)Suger, Vie de Louis VI ,op. cit., pp.21-45;Jean Mathieu Rosay, op. cit., p. 119.

(2)Hildebert de Lavarden, « Lettre au pape Honorius II », Collection des historiens de Gaule et de France (RHGF), Volume XV, édité par Michel Jean Joseph Bréal, Victor Balmy, Paris, 1878, p.324; Elizabeth M. Hallam, op. cit., p. 116; Jean Mathieu Rosay, op. cit., p. 119.

(3)Louis Halphen, op cit., p. 602.

بوضع قلعة جيزورGizur[١] التابعة إداريا لإقليم فيكسن Vexin شمال غربي فرنسا، تحت إدارة محايدة، إلا أن هنري الأول سرعان ما نقض العهد واستولى على القلعة بالقوة، مما أدى إلى اشعال فتيل الصراع مجدداً، ليرد لويس السادس بضربة سياسية مضادة وعملية؛ حيث تمكن من اختراق الجبهة الإنكليزية واستمالة ثيوبولد العظيم نفسه، مؤسساً بذلك حلفاً قوياً ضم عدداً من البارونات الناقمين على سياسة الملك الإنكليزي، وقد وُجه ذلك الحلف الجديد لضرب النفوذ الإنكليزي ومناهضة سيادة هنري الأول وتوسعاته في دوقيتي ماين Maine ، وبريتاني Brittany الواقعتين جنوبي نورماندیا[٢].

استمر الصراع السياسي الفرنسي الإنكليزي حتى قام الملك لويس السادس عام ١١١٣ بعقد معاهدة سلام مع الملك هنري الأول بالقرب من جيزور وتم الاتفاق على إعطاء هنري الأول الحصون المتنازع عليها، واعتراف الملك لويس السادس بهيمنة الملك هنري الأول على ماين وبريتاني، وفي عام ١١١٤ قام الملك هنري الأول بالحصول على يمين الولاء والتبعية لابنه وليم أدولين William Adelin (١١٠٣- ١١٢٠) من جميع النبلاء، وظل السلام لمدة ثلاثة اعوام حتى عام ١١١٦ [٣].

بدأت العلاقات بين الملك هنري الأول والبابوية تسوء منذ عام ١١١٥ بسبب قيام هنري بمنع قدوم مفوضي الحبر الأعظم إلى الأسقفيات الإنكليزية، مما أثار ضده البابا بسكال الثاني Pope Paschal II (١٠٥٠ – ١١١٨) احتجاجاً على ذلك التصرف، ومن الواضح أن ذلك العمل ترتب عليه نتائج سيئة بالنسبة للملك هنري الأول، حيث خسر بذلك حليفاً قوياً ممثلاً في قوة البابوية، وفي المقابل استفاد الملك لويس السادس من أخطاء سلفه تجاه البابوية، فسعى جيداً لكسب ودهَا ومساندتها له في صراعه مع الملك الإنكليزي[٤] .

وشغلت المدة الممتدة بين عامي (١١١٦- ١١٢٠) مرحلة جديدة من العداء بين مملكتي فرنسا وانكلترا، تخللتها صراعات عديدة كان أهمها ما ذكرته المصادر الإنكليزية بأن الملك هنري الأول مكث طيلة العام ١١١٧ في دوقية نورماندیا في صراعات مع الملك الفرنسي لويس السادس وجيرانه، حيث جاء في صيف العام نفسه الملك الفرنسي لويس السادس وحليفه كونت فلاندرز بلدوين السابع Baldwin Vil of Flanders (١٠٩٣- ١١١٩) بجيش كبير إلى نورماندیا غير أن ذلك التحرك انتهى بانسحابهم في صبيحة اليوم التالي من دون خوض أي اشتباك عسكري، وعلى الرغم من غياب المعارك المباشرة حينها، عانت نورماندي من أزمات طاحنة نتيجة الإرهاق الاقتصادي الناجم عن فرض الضرائب الباهظة، والضغوط العسكرية جراء التحشيد المستمر على أراضيها، ولم تنجل تلك المحنة عنها حتى

---

[١] تقع قلعة جيزور في شمالي فرنسا بين الممتلكات الملكية الفرنسية والممتلكات الإنكليزية بفرنسا، وكانت تابعة للتاج الإنكليزي، وقد انتزعها الملك الفرنسي فيليب الأول من روبرت كورتوز أثناء تقديم الأول مساعدات للثاني في صراعه ضد أخوته.

Elizabeth M. Hallam, op cit., p.76.

[2] Louis Halphen, op cit., p. 602.

[3] Roger of Hoveden, Op.Cit, pp.203-204 .

[4] Ibid,p.204.

العام ١١١٨ عندما قام الملك هنري الأول وجيشه بمواجهة التحالف الفرنسي مع كونت فلاندرز بلدوين السابع، وكونت أنجو فولك الخامسCount of Anjou-Fulk V (١٠٩٢- ١١٤٣)، ودارت هناك منازلات عديدة حتى أن كونت فلاندرز جرح في تلك المواجهة، وفي مسعى استراتيجي لتأمين موقفه وكسر طوق العزلة، نجح الملك الإنكليزي في حزيران من عام ١١١٩ في بناء تحالف إنكليزي - أنجوي متين؛ وذلك عبر ترتيب زواج سياسي ربط ابنه ووريثه العرش وليم أدولين بماتيلدا أوف أنجو Matilda of Anjou (١١١١-١١٥٤) ابنة كونت أنجو، وبموجب ذلك الزواج، وعقب مغادرة الكونت فولك الخامس إلى الأراضي المقدسة، آلت الوصاية على أملاك أنجو بالكامل إلى الملك الإنكليزي[١].

وقد جاءت تلك الخطوة الاستباقية من هنري الأول مدفوعة بمخاوفه العميقة من احتمالية تشكل تحالف فرنسي - أنجوي؛ إذ كان يخشى أن يقدم لويس السادس دعمه لكونت أنجو في صراعه المستمر ضد كونت بلوا وشامباني ثيوبولد الخامس للسيطرة على مقاطعتي شارتر ودونوا Dunois، ونظراً للموقع الاستراتيجي لهاتين المقاطعتين المحاذيتين لأنجو والأراضي الملكية الفرنسية من جهة الشرق، فإن أي تقارب فرنسي مع أنجو كان سيضع دوقية نورماندي تحت تهديد مباشر وخطير، وفي خضم ذلك التوتر المتصاعد وإعادة تشكيل التحالفات، بلغت الأحداث ذروتها العسكرية في العشرين من آب عام ١١١٩، حينها تقدم الملك الفرنسي بقواته قاصداً الإطاحة بالتحالف الإنكليزي-الأنجوي الجديد، مدعوماً بالثائرين على التاج الإنكليزي، وعلى رأسهم وليم كليتو William Clito (١١٠٢– ١١٢٨) ابن الدوق روبرت دوق نورماندیا، الذي انضم بجيشه من أجل تحقيق غرضه وهو استعادة دوقية نورماندیا إرثه من أبيه، والتقى الجيشان في بريميول Bremule الاستراتيجية على الحدود النورماندية[٢] في ٢٠ آب ١١١٩ ودارت رحى معركة كبيرة تبادل فيها الطرفان الغلبة، حتى استطاع الملك هنري الأول في النهاية تحقيق النصر على الملك الفرنسي لويس السادس الذي فر ناجياً بحياته بعد أن كاد يقتل أو يؤسر في تلك المعركة، وكنتيجة ذلك الإخفاق سعى الملك الفرنسي لويس السادس لمقابلة البابا كاليستس الثاني Callixtus II(١٠٦٥– ١١٢٤) ، ونجح في ذلك عندما عقد لقاء بينهما في شمال شرقي باريس في مدينة ريمس للتشاور من أجلالوصول لسلام مع الملك هنري الأول[٣].

وبسبب تكبد الجانبان الفرنسي والإنكليزي خسائر فادحة جراء معركة بريميول، وذلك السبب التقى الملكان في عام ١١٢٠ بحضور البابا كاليستس الثاني، وكونت فلاندرز تشارلز

---

[١] الأراضي المحدودة التي كانت متبقية تحت السيطرة الفعلية والمباشرة لملك فرنسا، والتي كانت تتركز جغرافياً حول باريس ووأورليان وهو ما يطلق عليه تاريخياً الدومين الملكي. يراجع:
Jim Bradbury, op. cit., pp.97-98.

[2] Baldwin, John., The Government of Philip Augustus: Foundations of French Royal Power in the Middle Ages. Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 1986, p. 214.

[3] Orderic Vitalis, Op, Cit., pp.585-588.

الأول Charles I، ووليم الثالث كونت بونثيو William III, Count of Ponthieu في جيزور لتسوية الأمور التي كانت محل خلاف بينهما وإحلال السلام بين الجانبين، أسفر ذلك اللقاء عن قيام الملكين بتسليم القلاع والأسرى بين الجانبين، كما كان من شروط السلام أيضا تقديم وليم أدولين وريث الملك هنري الأول الولاء والطاعة للملك لويس السادس من أجل دوقية نورماندیا التي كان له السيادة عليها، ومن ثم رحل الملكان في سلام[١] .

ومن خلال المعاهدة التي وقعت بين الملكين الفرنسي والإنكليزي يتضح مدى الدهاء السياسي الذي تمتع بهِ الملك الفرنسي لويس السادس، فعلى الرغم من خسارته في موقعة بريميول ١١١٩، إلا أن ذلك السلام أوضح أنه الأقوى، تلك القوة التي برزت خلال انحيازه للبابوية التي تعطي لمن ينحني أمامها الكثير، وذلك ما كان يفتقده الملك الإنكليزي هنري الأول الأمر الذي دفعه إلى الاستحواذ على ود الملك الفرنسي فعلى الرغم من انتصاره في معركة بريميول وتقديم فروض الولاء والطاعة عن طريق ابنه وليم من أجل دوقية نورماندیا، كان ذلك لضمان حياد الملك الفرنسي في صراع ربما ينشب بين الملك هنري الأول وابن أخيه روبرت وليم كليتو في المستقبل[٢]، وبعد حلول السلام عبَر الملك هنري الأول إلى نورماندیا لتثبيت دعائم حكم ابنه وليم أدولين فيها، حيث قام هناك بعقد اجتماع كبير دعا فيه كبار البارونات والأمراء للمناقشة وتثبيت دعائم الحكم، ورحل بعدها إلى انكلترا، وبقى الأمير وليم في نورماندیا لإدارة الأمور هناك[٣].

ومع حلول ٢٥ تشرين الثاني ١١٢٠ لقي الأمير وليم أدولين حتفه غرقاً ومعه الكثير من العائلة المالكة في السفينة البيضاء White Ship التي اصطدمت بمجموعة من الصخور، وأحيت وفاة ذلك الأمير آمال وليم كليتو ابن الدوق روبرت في المطالبة بحقه في عرش دوقية نورماندیا، كما أحيت وفاة الأمير الشاب آمال الملك الفرنسي وحليفه وليم كليتو في القضاء على قوة الملك الإنكليزي بالاستيلاء على أملاكه جنوب القنال الإنكليزي وعلى رأسها دوقية نورماندیا، ومع بداية عام ١١٢٢ قام تحالف قوي ضد الملك هنري الأول ضم كل من أموري الثالث مونتفورت Amaury Ill de Montfort كونت إيفرو، وجاليران الرابع كونت ميلون Galeran IV de Melan، وانضم إليهما فولك الخامس كونت أنجو لاسيما بعد وفاة وليم أدولين، وساند الملك الفرنسي لويس السادس ذلك التحالف دون الاشتراك عسكرياً أذ وجد فيه فرصة لاتباع أسلوب أسلافه في تفريق المملكة الأنجلو نورمانية[١].

أدرك هنري الأول مدى خطر لويس السادس عليه، ففكر في التخلص منه عن طريق تحريض صهره الإمبراطور الألماني هنري الخامس Henry V(١٠٨١- ١١٢٥) على مهاجمة الملكية الفرنسية فاستجاب هنري الخامس للنداء، وقرر الدخول إلى فرنسا، ثم

---

(1)Roger of Wendover, The Flowers of History, Volume 1, translated from the Latin by J. A. Giles and Henry G. Boone, London, 1849, pp.471-472.

(2)Roger of Wendover, Op.Cit.p. 213.

(٣) محمود سعيد عمران، معالم تاريخ أوربا في العصور الوسطى ، القاهرة، ١٩٨٦، ص ٢٤٨.

الزحف نحو ريمس وانتزاعها [٢]، فسارع لويس السادس بدعوة أمراء الإقطاعيات التابعة له وشرح لهم خطورة الأمر فسارعوا لنجدته وأقبل الفرسان والجنود من كل صوب وحدب والتقوا في ريمس حيث جاءت قوة كبيرة جداً من الفرسان وجنود المشاة حتى أنها غطت سطح الأرض كالجراد، ولم تجتاح فقط ضفاف النهر ولكن أيضاً الجبال والسهول، وقد أرسلت الكنيسة كتائبها والتف الكل حول الملك الفرنسي، ولأول مرة ظهر التضامن القومي من الجميع[٣].

ما إن تناهت إلى مسامع الإمبراطور الألماني هنري الخامس أنباء التحشيد الفرنسي الضخم والاستعدادات العسكرية المتأهبة لملاقاته، حتى آثر تغيير مساره وتجنب الصدام، مفضلاً تحمل مرارة الانسحاب، ووصمة الانكسار على المجازفة بمواجهة الغضبة الفرنسية؛ والمفارقة أن ذلك التراجع قد منح الملك لويس السادس نصراً معنوياً وذيوع صيت فاق بمراحل ما كان سيجنيه لو نازل خصمه وهزمه فعلياً في أرض الميدان[٤].

وبناءً على المعطيات السابقة يتبين أن فشل الهجوم من الإمبراطور الألماني هنري الخامس، إنما يؤكد بزوغ قوة الملك لويس السادس ملك فرنسا على الساحة الأوروبية الذي أعاد هيبة أسرة هيو كابيه وسط ملوك أوروبا التي كانت تفتقدها خلال حكم ملوكها الأواخر قبل عهد لويس السادس، كما خلق ذلك الهجوم تعاوناً ملموساً بين الملكية الفرنسية والبابوية، وأظهر أيضاً قوة الملك لويس السادس أمام كبار الإقطاعيين داخل حدود هذه المملكة، فأصبح للملك لويس السادس منذ ذلك التاريخ وزن كبير في غربي القارة الأوروبية.

ومع بداية عام ١١٢٦ توفي الإمبراطور الألماني هنري الخامس، فكانت خسارة الملك هنري الأول بوفاته كبيرة؛ لأنه خسر حليفاً قوياً يستطيع الضغط بهِ على الملك الفرنسي لويس السادس، وعلى أثر ذلك وفي العام نفسه أرسل الملك هنري الأول يطلب من ابنته ماتيلدا Matilda (١١٠٢- ١١٦٧) أن تعود إلى انكلترا،وعند عودتها جمع الأمراء والنبلاء والأساقفة والإيرلات وكل الأشخاص المهمين داخل المملكة وفي مقدمتهم ابن اخته اديلا ستيفن بلوا stephen Count Bolis (١٠٤٥- ١١٠٢) المقرب منه في المملكة في مدينة لندن وأجبرهم على القسم لها كوريثة له في حكم المملكة في كانون الثاني ١١٢٧[٥]، وبعد ذلك أرسلت إلى دوقية نورماندیا، وهناك تم زواج ماتيلدا أرملة الإمبراطور هنري الخامس من جيفري بلانتاجنت Geoffrey Plantagenet (١١١٣ - ١١٥١) ابن فولك الخامس كونت أنجو في عام ١١٢٨ ، ويتضح من ذلك أن الملك الإنكليزي هنري الأول عندما حصل على القسم لابنته ما تيلدا من الأمراء والنبلاء في المملكة أرسلها إلى دوقية نورماندیا لتأكيد

---

[١] محمود سعيد عمران ، المصدر السابق ، ص ٢٤٨ .

[٢] وليم لانجر،المصدر السابق ، ص ٥٧١.

[٣] نور الدين حاطوم ، المصدر السابق ، ص ٧٩٦ – ٧٩٧ .

[4]Suger, op.cit.,p. 132.

(٥) حسنين عبد الكاظم عجه ، سنوات الفوضى في إنكلترا بين صراع الغرباء ومصائب الإنكليز الحرب الأهلية الإنكليزية ١١٣٩– ١١٥٤،مجلة لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية، مج ١١، ج١، العدد ٣، ٢٠١٩ ، ص١٠٠ ؛

حقيقة أن دوق نورماندیا يجب أن يكون هو وريث عرش المملكة، وذلك يفسر سبب مقاومة الملك الإنكليزي بشراسة حصول ابن أخيه روبرت على دوقية نورماندیا، وفي الوقت نفسه أراد أن يربط تلك الدوقية بدوقية أنجو عن طريق زواج ابنته من وريثها، وبعد الاحتفال لم يبرح الملك الإنكليزي هنري الأول دوقية نورماندیا، وبقى هناك للاحتفال بعيد القيامة Easter[١]، وعيد العنصرة Pentecost[٢]، واستطاع في ذلك الوقت أن يجرى مراسلات مع الملك لويس السادس من أجل عقد مصالحة، وفي عام ١١٢٨ نجح في أن يعقد معاهدة سلام قبل عيد القديس ميشيلSaint Michael[٣]، والتي تعتبر نصراً للملك هنري الأول، ولم تكن تلك المعاهدة لتحسم الخلاف بين الملكين لأنه سيتضح أن كلا الملكين كان يتحين الفرصة لضرب الطرف الآخر وتحقيق مكاسب من خلاله وتوسيع رقعة الأراضي الملكية لصالح نفسه[٤].

أنتهز الملك لويس السادس فرصة مقتل دوق فلاندرز تشارلز الأول Charles I (١٠٨٤- ١١٢٧)،وقام بوضع وليم كليتو على عرش دوقية فلاندرز، وهو الذى كانت تربطه علاقة عداء مع الملك الإنكليزي هنري الأول والمطالب بحقه في دوقية نورماندیا؛ وذلك بدأ

Norman F, Cantor, Civilization of the Middle eags, Harper, 1993, p.350.

(١) عيد القيامة: هو أحد أهم الأعياد في المسيحية، ويُحتفل بهِ في ذكرى قيامة يسوع المسيح من الموت ويعد عيد القيامة ذكرى لقصة قيامة يسوع المسيح من الموت، كما هو موصوف في العهد الجديد، يُحتفل بعيد القيامة في يوم الأحد بعد اكتمال القمر الربيعي، ويختلف تاريخه من سنة إلى أخرى وتختلف الطقوس والعادات المرتبطة بعيد القيامة من بلد إلى آخر، ولكنها غالبًا ما تشمل الصلاة، والقداس، والاحتفالات العائلية. يراجع: أخنوخ المقاري، طقس عيد القيامة المجيد، دار مجلة مرقس، القاهرة، ٢٠١٢؛ جرجس فيلوثاوس ، مجلة الهلال ، مج٢ ، ج١ ، ١٨٩٤ ، ص ٤٣٣ – ٤٣٥.

(٢) عنصرة Pentecost: لفظة عبرانية معناها اجتماع أو محفل، واستخدمت الكلمة "عنصرة" لتشير إلى عيد الخمسين اليهودي الذي كان يجتمع فيه كل ذكر من اليهود من كل بقاع الأرض إلى أورشليم للاحتفال بالعيد ،كما أطلقت الكلمة أيضًا على عيد الخمسين المسيحي الذي فيه حل الروح القدس على المجتمعين في عليَّة صهيون، فصار يُدْعَى في العهد الجديد "عيد العنصرة" أو"عيد البنديكوستي" في اليونانية، وقد أدخله المسيحيون ضِمن الأعياد المسيحية لإحياء ذكرى نزول الروح القدس على تلاميذ يسوع الإثني عشر حسب المعتقدات المسيحية، يشير عيد الخمسين في الكنائس الشرقية إلى الخمسين يومًا بين عيد القيامة وحتى عيد العنصرة، لذا فيُطلق على الكتاب الذي يحتوي على النصوص الطقسية الخاصة بهذه المدة كتاب الخمسين. كما يطلق على ذلك العيد عيد الخمسين أو أحد العنصرة أو أسبوع العنصرة لا سيما في إنكلترا، حيث يكون يوم الاثنين التالي إجازة. ويُسمى عيد الخمسين بذلك الاسم لأنه يتم الاحتفال به بعد أحد عيد القيامة بسبعة أسابيع (أي خمسين يومًا)، ويقع عيد الخمسين في اليوم العاشر من عيد الصعود.يراجع : نور الدين خليل، قاموس الأديان الكبرى الثلاثة: اليهودية والمسيحية والإسلامية، مراجعة: محمود آدم، مؤسسة حورس الدولية للطباعة والنشر، الإسكندرية، ٢٠٠٨، ص ٥٨٧ .

(٣) القديس ميشيل (ميخائيل): رئيس الملائكة هوشخصية بارزة في المسيحية، يُبجل بوصفه محاربًا روحيًا وزعيمًا للجيش السماوي اشتهر بدوره في مكافحة الشر، ويُعد نصيرا للعدالة وحاميًا للكنيسة، في التقاليد المسيحية، غالبًا ما يُصوَّر بسيف أو راية أو حراشف، وكثيرًا ما يُصوَّر وهو يهزم الشيطان في صورة تنين ، يحتفل بعيد القديس ميخائيل حسب التقويم الروماني العام ٢٩ أيلول ، وفي الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية يوم ٨ تشرين الثاني وفي تقويم أبرشية ترو التابعة لكنيسة كانتربري يوم ٨ آيار . يراجع :

Richard Freeman Johnson, St. Michael the Archangel in Medieval English Mythology, Boydell Press, 2005; Simpson, Jacqueline; Rod Stephen, A Dictionary of English Folklore, Oxford, New York: Oxford University Press, 2001, p. 237.

(4) Roger of Hoveden, Op. Cit, pp.219-218.

الملك لويس السادس خلق نوعاً من التكتلات من كبار الإقطاعيين المعاديين للملك الإنكليزي؛ لتحقيق خط الدفاع الأول في مواجهة أي خطر يأتي من قبله ، ورداً على تلك التحركات، قاد الملك الإنكليزي في عام ١١٢٨ هجوماً عسكرياً مباغتاً انطلاقاً من دوقية نورماندیا استهدف بهِ الأراضي الفرنسية الشمالية، غير أن لغة السلاح سرعان ما تراجعت لصالح الدبلوماسية، حيث أثمرت المراسلات السلمية بين الطرفين عن اتفاق حاسم التزم بموجبه الملك الفرنسي بوقف كافة أشكال الدعم العسكري والسياسي لوليم كليتو في صراعه ضد عمه هنري الأول، وفي المقابل، أقر الملك الإنكليزي بسحب قواته بالكامل من الأراضي الفرنسية [١].

وعلى ما يبدو أن الملك هنري الأول بدأ يدرك مدى قوته بعدما عقد سلاماً مع الملك لويس السادس ملك فرنسا في عام ١١٢٩، وخاف من اتحاد قد يحدث بين كل أتباعه من الأفصال الإقطاعيين في جنوبي القنال أو أحدهم مع غريمه الملك الفرنسي والذي من شأنه أن يهدد أمن وسلام مملكة إنكلترا، ذلك سعى إلى عقد سلام مع كل منهم على حِدَة ؛ لضمان حيادهم التام في أي صراع من الممكن أن ينشأ مع مملكة فرنسا التي بدأت منذ ذلك التاريخ تتفوق وظهر ملكها بوصفه سيداً إقطاعياً في غرب أوروبا، وحول ذلك السلام يعلق أحد المؤرخين قائلاً:**"بفضل ذلك السلام تمكن الملك لويس السادس من إخضاع بعض الإقطاعيات في الدومين الملكي، وفي أواخر القرن الحادي عشر تبدلت أوضاع الدومين الملكي، فكان مَلِيئاً بالحصون وفيه توصل أصحاب القصور إلى الاستقلال التام تقريباً، وأخذوا يناهضون السلطة الملكية ويشلون حركة التجارة، أما الآن فأصبح سلالة هيو كابيه قاعدة قوية قادرة على دعم سياستها المتنامية، واستطاع ملك فرنسا لويس السادس حين قضى على هؤلاء الإقطاعيين أن يمنح للتاج الملكي قوة كانت تنقصه، وذلك النجاح الذي حققه ذلك الملك أسدى للملكية خدمة أخرى، ونجح في كسب حلفين ثمينين هما حلف البابوية وحلف الطبقات الشعبية"**[٢].

ودفعت أشهر السلام التي سادت العلاقات الفرنسية الإنكليزية منذ عقد هدنه ١١٢٩ إلى سعي الملكين لتأمين الجبهة الداخلية، حيث بدأت ملامح التغيير تظهر على الدومين الملكي الفرنسي والإنكليزي، فعلى سبيل المثال اتضح أن مملكة فرنسا في عهد الملك لويس السادس بدأت تتغير ملامحها الإقطاعية، بعدما كانت تتألف من إمارات إقطاعية لم يكن للملك الفرنسي عليها إلا السيادة الاسمية، أوجد الملك روابط بينه وبين باروناته، وبقوته العسكرية وسياسته الدبلوماسية عمل على توسيع سلطته الملكية، وبدأ يظهر بمظهر الملك القاضي والحاكم الأعلى، وجعل من السلطة الملكية قوة داخل الدومين الملكي لها من القوة المادية والعسكرية ما يجعلها في موضع جيد لاستئناف الحرب مع انكلترا ، وعلى الجانب الآخر انصرف الملك الإنكليزي هنري الأول منذ عقد الهدنة عام ١١٢٩ حتى عام ١١٣٥ إلى إصلاح الأحوال الداخلية داخل مملكته، وفرض سيادته الملكية على أملاكه حول القنال

---

[1] William M. Aird, Robert Curthose, Duke of Normandy: C. 1050-1134, (The Boydell Press, 2008), p.272.

(٢) نور الدين حاطوم، المصدر السابق، ص ٧٩٨ .

الإنكليزي، وإصلاح علاقات مملكته مع البابوية[١].

بدأت مرحلة جديدة في تاريخ العلاقات الفرنسية الإنكليزية، بوفاة الملك هنري الأول ١١٣٥[٢] حيث دخلت مملكة انكلترا مرحلة من مراحل الصراع الداخلي على وراثة العرش بين ماتيلدا الوريثة الشرعية للمملكة وستيفن كونت بلوا، وكانت ماتيلدا متزوجة شاباً من أسرة بلانتاجنت هو جيفري بلانتاجنت غير أن ذلك الزواج قوبل برفض بعض الأمراء بحجة أن مملكة انكلترا لا يجب أن يحكمها شاب من أسرة بلانتاجنت تحت اسم زوجته ماتيلدا، التي استغل الأمراء رحيلها مع أخيها غير الشرعي روبرت إيرل جلوسستر Robert of Gloucester (١٠٩٠– ١١٤٧)؛ لتوديع جثمان أبيهما الملك هنري الأول بدوقية نورماندیا[٣]، وقاموا بمناداة ستيفن كونت بلوا من – أديلا ابنة وليم الفاتح- ملكاً على انكلترا في لندن، وتم تتويجه في كنيسة ويستمنستر في ٢٣ كانون الأول ١١٣٥، واستلم مفاتيح الخزانة الملكية من روجر سالزبوري Roger Archbishop of Salisbury رئيس أساقفة سالزبوري (١١٠٢ - ١١٣٩)، وبدأ يقرب إليه الأمراء بمنحهم الألقاب والعطايا، إلا أن ماتيلدا لم تستسلم ذلك الأمر؛ فثارت عليه بمساعدة زوجها جيفري بلانتاجنت، وبذلك بدأ ستيفن سياسته في مملكة إنكلترا، محاولاً كسب ود المعارضين له في أنحاء المملكة؛ من أجل التفرغ لنزاعه المقبل مع الإمبراطورة ماتيلدا ابنة الملك هنري الأول[٤].

وفي كانون الثاني ١١٣٦ تحرك الملك ستيفن إلى مدينة أكسفورد Oxford ، حيث تلقى أخباراً عن حضور الملك ديفيد الأول David I (١٠٨٤- ١١٥٣) ملك اسكتلندا وخال الإمبراطورة ماتيلدا الذي جاء لزيارته في قلعته الجديدة في كارلسلي Carlisle، وعقد معه اجتماعاً انتهى بعقد معاهدة درهام الأولى Durham، وخلال تلك المباحثات، سعى الملك ستيفن جاهداً لإقناع نظيره الاسكتلندي بشرعية أحقيته في اعتلاء العرش الإنكليزي، وعلى الرغم من عودة الملك ديفيد إلى مملكته متمسكاً بموقفه الرافض للاعتراف بحكم ستيفن، وفاءً بعهدٍ سابق قطعه للملكة ماتيلدا، إلا أن الملك ستيفن اشترى رضاءه ووده بأن أعطى لابن الملك ديفيد هنري Henry (١١١٤- ١١٥٢) بعض المدن والقلاع التابعة للتاج الإنكليزي وفي مقابل ذلك قام الابن باداء يمين الولاء والطاعة للملك ستيفن[٥].

شهدت العلاقات الإنكليزية الفرنسية إبّان حكم الملك ستيفن تطورات ملحوظة فرضتها سياسته الاستراتيجية الرامية إلى احتواء المعارضة الخارجية المتنامية، ففي عام ١١٣٧ ،

---

(1) Norman F, Cantor, Civilization of the Middle eags, Harper, 1993, p.350.

(2) Edith Samuel R. Gardiner, A Students History of England From the Earliest Times to the Death of King Edward VII, Vol. I., London, 1916, p.90.

(3) Frank Barlow, The Feudal Kingdom of England 1042-1216, Harlow, UK, 1999, p.163.

(٤) عبد القادر احمد اليوسف، المصدر السابق، ص ص١٧٧- ١٧٨.

(5)White Kennett and Oters, A Complete history of England with the lives Kings and Queeens from the earliest account of time to the death of His late Majesty King William III, Vol. I, London, 1706, p.126.

بادر الملك ستيفن بالتوجه نحو دوقية نورماندیا والأراضي الفرنسية، ترافقه حاشية رفيعة المستوى ضمت ألكسندر Alexander Archbishop of Lincoln رئيس أساقفة لنكولن (١١٢٤ - ١١٤٨) وعدداً من البارونات والنبلاء، بهدف تحييد أبرز خصومه؛ وهما الملك الفرنسي لويس السادس، وجيفري بلانتاجنت كونت أنجو وزوج الملكة ماتيلدا، أثمرت تلك التحركات عن عقد تسوية تاريخية مع التاج الفرنسي، مُنحت بموجبها دوقية نورماندیا لابنه يوستاس Eustace (١١٣٠- ١١٥٣) مقابل الإقرار بالسيادة الإقطاعية للملك لويس السادس، وفي أعقاب ذلك التقارب، بادر الدوق جيفري بلانتاجنت بشن هجوم عسكري لاقتحام نورماندیا، غير أن تصدي الملك ستيفن وقواته ذلك الزحف أفضى في النهاية إلى إبرام هدنة عسكرية بين الطرفين مدتها عامان؛ التزم بموجبها الملك ستيفن بدفع مبلغ وقدره مائتا ألف مارك فضي سنوياً للدوق جيفري كضريبة لشراء السلام وتأمين الحدود [١] .

ومن الواضح أن موقف الملك ستيفن كان سيئاً في الداخل، مما دفعه إلى شراء حياد الملك لويس السادس ملك فرنسا بالاعتراف بهِ سيداً إقطاعيا على دوقية نورماندیا، واستطاع مهادنة الدوق جيفري بلانتاجنت كونت أنجو، وكذلك كثير من المعارضين لحكمه والمؤيدين للملكة ماتيلدا، وبذلك نجح في جعلها وحدها في الميدان تصارع بنفسها ولم تجد مساندة من أحد إلا من الملك الاسكتلندي ديفيد، ومن الملفت للنظر أن الملك لويس السادس لم يستغل تلك الاضطرابات الداخلية في مملكة انكلترا لينقض عليها، وربما مرجع ذلك اهتمامه بإصلاح الأحوال الداخلية لمملكته في تلك المرحلة، وربما كان سبب ذلك أيضاً اعتلال صحته[٢] .

ومجمل القول أن السلطة الملكية في عهد لويس السادس قد تجاوزت مرحلة الدفاع عن الوجود لتنتقل إلى مرحلة فرض الهيبة والسيادة الفعلية؛ فبعد أن نجح في ترويض الأمراء الإقطاعيين المتمردين داخل جزيرة فرنسا وبسط الأمن فيها، وجه جهوده السياسية والعسكرية لمجابهة الخطر الإنكليزي- النورماندي، وبفضل دهائه الدبلوماسي وتحالفه الاستراتيجي المتين مع البابوية، تمكن من حفظ التوازن الإقليمي والتصدي بنجاح لأطماع الإمبراطورية الألمانية، ليترك فرنسا في نهاية عهده دولة مرهوبة الجانب، مُرسياً بذلك الدعائم الحقيقية والصلبة لقوة التاج الفرنسي وسلالة الكابيتيين في غرب أوروبا.

---

(1) Charles M. Andrews, A History of England Revised and Enlarged, Boston, 1903, p.88 ; Franck Bright, Op. Cit., p.79.

(2) Allen C. Thomas, A.M., A History of England, Boston, 1913, pp.64-65.

٢. ولادة لويس السابع ومراحل إعداده للحكم.

تزوج لويس السادس أول مرة من لوسيان دي روشفورت Lucien de Rochefort (١٠٨٨-١١٣٧) عام ١١٠٤، ودام الزواج ثلاث سنوات من دون أطفال، ووفقًا للمؤرخ الفرنسي سوجر، فإن العلاقة بين الزوجين لم تنجح، إذ إلغى الزواج من قبل البابا باسكال الثاني Paschal II (١٠٥٣- ١١١٨) في مجلس تروا Trua على أساس قرابة الدم في ٢٣ آيار ١١٠٧، وذلك قبل عام من وراثة لويس العرش، فتزوج عام ١١١٥ وهو في سن الثالثة والثلاثين من أديلايد Adelaide (١٠٩٢-١١٥٤) [١] من مقاطعة سافوي Savoie في ٣ آب ١١١٥، وأنجب منها عددا من الأبناء بلغ عددهم تسعة أكبرهم فيليب Philippe (١١١٦- ١١٣١) الذي أُعلن وريثاً شرعياً للعرش في ٢٩ آب ١١١٦ [٢]، تلاه ابنه الثاني الذي عُرف لاحقاً بلويس السابع Louis VII[٣].

وُلد لويس السابع، الذي عُرف في المدونات التاريخية بلقب لويس الأصغرأوالشاب[٤] في بلدة فونتينبلو[٥] Fontainebleau في عام ١١٢٠، وقد تمتع بمواصفات جسدية لافتة؛ كما وصفة المؤرخ أليسون وير **"إذ كان فارع الطول، قوي البنية مفتول العضلات، ذا شعر أشقر طويل وعينين زرقاوين وأنف طويل، تعلو محياه ابتسامة فطرية؛ أما على الصعيد النفسي والسلوكي، فقد جمع لويس بين الذكاء ويقظة الضمير، متنزهاً عن أساليب المكر والخداع، وساعياً دوماً نحو نبل الغايات والشرف، وقد اتسمت تصرفاته بعفوية وتلقائية شديدة قد تلامس حدود السذاجة، يضاف إلى ذلك ما عُرف عنه من ورع ودماثة في الطبع، وامتثال تام لطاعة والديه، فضلاً عن تواضعه الجم ولين جانبه في تعامله مع عامة الناس"**[٦].

---

[١] تميزت الملكة أديلايد بكثرة صلات القربى مع العائلات الملكية في مقاطعات فرنسا وخارجها، فأخوها الأكبر أماديوس الثالث كونتً لسافوي Amadeus III, Count of Savoy (١٠٩٥- ١١٤٨) خلفا لوالده منذ ١١٠٣، أما جدتها الكبرى لأبيها أديلايد فهي حاكمة سوسا، ومقاطعة تورينو، وابنة عمها الثاني ديل فاستو Adelaide del Vasto (١٠٧٥- ١١١٨) ملكة القدس، كما كانت أديلايد مرتبطة أيضًا بالإمبراطور هنري الخامس، من جانب والدتها، ومن أقارب أديلايد عمها البابا كاليستوس الثاني Callixtus II(١٠٦٥- ١١٢٤) الذي زار أديلايد في البلاط في فرنسا، وابن عمها الملك ألفونسو السابع Alfonso VII (١١٠٥- ١١٥٧) ملك ليون وقشتالة، فكانت الملكة أديلايد واحدة من أكثر الناشطات سياسيا في فرنسا في القرون الوسطى ومثلت أوج صلاحيات ال كابيه، وظهر اسمها على ٤٥ وثيقة ملكية خلال مدة ولايتها ملكة إلى جانب زوجها لويس السادس. يراجع:

Mary Erler, Maryanne Kowaleski, Women and Power in the Middle Ages, Athens, (GA: University of Georgia Press, 1988), P 103.

[2]Ivan Gobry, Louis VII (1137-1180), Éditions Pygmalion, Paris, 2010, pp.11-12.

[3]Gideo John Brough,Medieval diplomatic history france and The welsh(1163-1417) Thesis is being submitted in partial fulfilment of The requirements for The degree of doctor of philosophy in history,cardiff University,2012,p41.

[٤] سمي لويس بالشاب أو الأصغر ليفرق بينه وبين أبيه، الذي سمي بلويس الأقدم أو الأسن. يراجع : دينس مونيقورس، المصدر السابق، ص ١٨.

[٥] فونتينبلو : من " فونتين" وتعني في اللهجة الفرنسية القديمة حسناء الماء وفي اللهجة الحديثة "جميلة الربيع." وتمتاز بالمناظر الجميلة والغابات الخصبة، وفيها العديد من الآثار وهي بلدة تقع في منطقة العاصمة وتبعد عن وسط باريس ٦٥ كيللومتراً. يراجع : حسام الدين إبراهيم عثمان ، المصدر السابق ، ص ١٤٣ .

[6] Weir, op.cit,p. 5-6.

نشا لويس الأصغر نشأة دينية حيث قضى معظم طفولته في دير سانت دينس قرب باريس وغلب عليه وصف الطفل الراهب وأشرف رئيس الدير ومستشار والده سوجر على تعليمه وتربيته، فتربى تربية هي الأقرب للرهبانية، فكان لا يناسبه إلا حياة الدير ولذا كان شديد الخوف من الوقوع بالخطيئة ، متمثلاً بما ورد في التوراة أن **"النَّفْسُ الَّتِي تُخْطِئُ تَمُوتُ"**[١].

التحق لويس بمدرسة كاتدرائية نوتردام ، في باريس حيث قام بالإشراف علية مستشار ابيه سوجر في اللاهوت والمناهج الكلاسيكية، وكان كل ذلك جزءًا من استراتيجية الملك لتعزيز أسرة ال كابيه حيث سيتولى فيليب العرش بينما يخدم لويس عند المذبح، على أمل الصعود إلى منصب رئيس أساقفة ريمس وأن يصبح مستشاراً لأخيه الأكبر، فتعلم لويس ما كان يعرف بالفنون الحرة وهي دورة كاملة من المعارف تشتمل الحساب الهندسة والعلوم، وقواعد اللغة التي تشتمل بدورها على البلاغة والمنطق وقد تلقى تلك العلوم بكثافة[٢] .

قضى لويس جل سنوات طفولته بين جدران الدير منخرطاً في أداء الصلوات اليومية وفق نظام صارم تضبط إيقاعه دقات أجراس الكنيسة، وقد اتسمت تربيته بالزهد الشديد والسعي المستمر للتطهر من ذنوب لم يرتكبها أصلاً، ولم يمتلك حتى الفرصة أو الخيال لاقترافها، وانعكس ذلك الانضباط الروحي القاسي على نظرته للمرأة، التي شابتها نزعة من النفور والاشمئزاز من الخطيئة الجسدية، مدفوعاً بقناعة راسخة لديه باستحالة وجود أي مقاربة أو تشابه بين نساء الأرض وصورة السيدة العذراء المقدسة في ذهنه[٣].

زرعت الحياة الدينية التي عاشها لويس مع الرهبان، في قلبه منذ طفولته، وكبرت معه وأصبحت تطغى على ملامح شخصيته، حتى يروى عنه ان ملابسه كانت عبارة عن ثوب رمادي خشن وصندلاً بسيطاً ،اي أنه يعيش عيشة الفقراء، أما عن مظهره فقد كانت بنيته الجسدية صحية ليس كوالده الذي كان لديه زيادة في الوزن، لكن اسوأ اخطائه كان مزاجه العنيف فقد كان غضبه فظيعاً ، لكنه دائماً ما كان يشعر بالذنب والخطيئة[٤] .

توج الملك لويس السادس ابنه البكر فيليب ليكون ملك مشاركً عام ١١٢٩، وانخرط فيليب في السياسة، ووقف مع والده الملك لويس السادس جنباً إلى جنب وهو لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره[٥]، فكان فيليب سريع التعلم، فبحكم نشأته في البلاط الملكي كان جريئًا ذو شخصية قوية، وقد أجاد مهارات الدبلوماسية وحمل الأسلحة، لكن طغت عليه الغطرسة والغرورالمفرط، وغلب على سلوكه الطيش ولعل ذلك كان بسبب توليه العهد وهو

---

[١] التوراة: الإصحاح الثامن عشر من سفر حزقيال: ٢٠.

[2] Pernoud, Regine, Eleanor Of Aquitaine, translated by wiles, (NewYork:Coward-McCann, 1987), p 28.

[3] Fripp, Robert, Power of a Woman Memoirs of a turbulent life Eleanor of Aquitaine. (Canada: shillingstone press 78 sullivan street, toronto, 2010), p. 19.

[4]Desmond Seward, Eleanor of Aquitaine The MotherQueen of The MiddLe Ages,Pegasus books ,London,1978,p.5.

[5] meade, marion, Eleanor of Aquitaine, A biography (U.S.A, 1991), p 34; Gobry, Louis VII, p. 46.

صغيراً[١].

في الثاني عشر من تشرين الأول عام ١١٣١ وقع ما لم يكن بالحسبان، فقد خرج فيليب ولي عهد فرنسا ذا الخمسة عشر ربيعاً هو ومجموعة من رفاقه لركوب الخيل والسير على طول نهر السين Seine، وكان بما له من خبرة بالفروسية يتحرك في منتهى البراعة والخفة في شوارع باريس الضيقة والمزدحمة، وفجأة هرب خنزيرًا أسودًا من حظيرته، ودخل إلى السوق المعروف باسم غريف Gharif ، فاعترضه أحد التجار ففَر منه ورمى نفسه بين ساقي حصان ولي العهد، فتعثر الحصان وسقط فيليب بشكل مخيف على رأسه، فكسرت جمجمته وكانت إصابته شديدة، فلم يستطع أصدقاءه إنقاذه، فذهب في إغمائه وتوفي في اليوم التالي، وقيل أنه توفي بعد مرور بضع ساعات من سقوطه، وبعد ثلاثة أيام من الحادثة دفن فيليب في مدافن سانت دينس، وقد تلقى جميع أفراد العائلة المالكة تلك المأساة بالحزن الشديد، كما ارتاع البابا من منظر الجثة الشنيع[٢].

بعد تلك الحادثة غير المتوقعة، أرسل الملك لويس السادس إلى مستشاره سوجر يطلب منه الإسراع بإحضار لويس الأصغر، والذي كان في العاشرة أو الحادي عشرة من عمره، وفي ذلك الوقت يمكننا القول بأن حياة لويس الأصغر الكنسية المنعزلة الهادئة في دير سانت دينس قد شارفت على الانتهاء، فقد أحضر سوجر لويس الشاب إلى ريمس لتأدية مراسم قسم الولاء وفقًا لعرف آل كبيه ولضمان خلافة بلا منازع[٣].

غادر الملك لويس السادس قصره بصحبة أمرائه ووزيره ومستشاره سوجر متجهاً إلى مدينة ريمس التاريخية، معقل تتويج ملوك الفرنجة، لترؤس المجلس المخصص لتنصيب ابنه ولياً للعهد، وقد شهدت المدينة في الثامن عشر من تشرين الأول عام ١١٣١ حشداً مهيباً ترأسه البابا انوسنت الثاني Innocent II[٤] ، حضره القديس برنارد Bernard[٥] من كليرفو وثلاثة عشر من المطارنة[٦] واكثر من مائتين وثلاثة وستين من الأساقفة ورؤساء

---

(1) Fripp, op.cif, p 19; Pernoud, Op.Cit., p.21; Gobry, Louis VII, p.46.

(2) Gobry Louis VII, p 46; Pernoud, Op.Cit., p.34.

(3) Seward, Op.Cit., p.21.

[٤] انوسنت الثاني (- ١١٤٣): من اهم رجال الدين المقربين من البابا كلمنت الثالث وكان مندوباً للبابا غلاسيوس الثاني في العديد من البعثات ويعد من البابوات الشديدي المراس، كذلك حظي بقبول الكثير من ملوك اوربا ، أرسل إلى بلاد المشرق للنظر في أحوال الكنائس والأديرة في بيت المقدس وغيرهما غير أنه ما أن وصل إلى القدس وباشر البحث والتفتيش حتى أدركته المنية وقيل أنه قتل بالسم. يراجع : السوري ميخائيل، روايات ميخائيل السوري الكبير، الموسوعة الشامية، ج٥،ترجمة: سهيل زكار، دمشق، ١١٩٥، ص ١٦٥ ؛ ريا رياض حمود السعدون، اليهود والاضطراب السياسي في روما ١١٣٠-١١٣٨، مجلة كلية التربية ، جامعة واسط ، مج ١ ، العدد١٥، ٢٠١٤، ص٢٣٧.

[٥] برنارد (١٠٩٠- ١١٥٣): هو القديس الذي يعرف بأنه "آخر آباء الكنيسة" لأنه جدد وقدم الجديد من لاهوت الآباء في القرن الثاني عشر الميلادي، وأعتبر القرن الثاني عشر عصر" القديس "برنارد ولد في عام ١٠٩٠ في فونتين في فرنسا من عائلة كبيرة وغنية برع بدراسة الفنون الحرة منذ نعومة أظفاره، وبشكل خاص القواعد البلاغة، والجدلية في مدرسة قانونيي كنيسة سان فورل، وشاتيون سور سيين، وأنضج رويدا رويدا قرار اعتناق الحياة الدينية، وأشتهر برنارد بالبراعة بإلقاء المواعظ الدينية للنصارى، مما ساعده في التأثير على الباباوات والملوك، وفي عام ١١١٥ أسس ديرا في مدينة كليرفو، وصار رئيسًا له، وناشد كل النصارى أن يراعوا الزهد ونكران الذات في حياتهم تمثلاً بحياة المسيح. كان مندوب البابا لدعوة للحملة الصليبية الثانية ١١٤٥، توفي سنة ١١٥٣. يراجع : غريمال بيار وآخرون، موسوعة تاريخ أوروبا العام ، ترجمة : أنطوان الهاشم ، ط١، منشورات عويدات ، بيروت ، د . ت ، ص ٤٠٨ – ٤٠٩.

[٦] المطران: هو رئيس الكهنة عند المسيحيين، وهو دون البطريرك : يراجع : مسعود جبيران، المعجم الرائد، ط٧ ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٩٢، ص ٧٤٨ .

الأديرة والعديد من رجال الدين من جميع انحاء العالم المسيحي[١]،ولضمان مشاركة شعبية واسعة وإعلام الجماهير بانتقال السلطة، تم استغلال يوم الأحد الخامس والعشرين من تشرين الأول[٢]،هو بطبيعته يوم راحة ديني مقدس تُحظر فيه الأعمال الشاقة، ليتحول بتوجيه مزدوج من السلطتين الزمنية والروحية (التاج والكنيسة) إلى يوم احتفال ديني وشعبي إلزامي في أرجاء البلاد تزامناً مع مراسم التتويجو إذ لم تكن تلك "عطلة رسمية" بالمفهوم الإداري الحديث، بل كانت دعوة إلزامية للرعايا للتجمع في الكنائس والساحات، وتقديم الدعاء للملك الجديد لتثبيت شرعيته في وعيهم، واستهل الحفل بمراسم القسم؛ حيث تعهد لويس الأصغر:**"أقسم على الحفاظ على السلام للكنيسة ولجميع أفراد الشعب المسيحي في ظل حكومة بلادي، وأن أقمع الظلم كيف ما يكون والمشاركة في كل ما ينشر العدل والرحمة"**[٣]، ورأى البابا انوسنت الثاني أن ذلك التجمع فيه مصلحة له لأنه يُعدَ علامة واضحة على شرعيته لاسيما بعد ان طرد من روما بسبب انشقاق أناكليتوس الثانيAnacletus II [٤]، وتلا ذلك مراسم التكريس من البابا نفسه، فسكب بلسم الليتورجية[٥]، على رأس لويس السابع، ووضع في راحة يده الصولجان ريمس السلطة، وعندها تقدم مندوباً عن الملك هنري الأول، حاملاً رسالة من سيده ملك انكلترا ودوق نورماندیا ، يقر فيها ويعلن تقديمه الولاء والطاعة لولي العهد الجديد[٦] .

وبعد انتهاء مراسم التتويج عاد ولي العهد إلى الدير، وعبق بخور الكنيسة وعطورها لازالت عالقة بثيابه ذات الطابع الزهيد، وقد جاءت تلك العودة إثر موافقة والده على استكمال مسيرته العلمية، بيد أن ذلك السماح كان مقترناً بشرط جوهري يقتضي إتقانه لفنون الحكم وإلمامه بمهارات الفروسية، تجسيداً للآمال العظيمة التي طالما عقدها والده عليه[٧].

ومن المناسب القول إن لويس السابع اصبح يشارك اباه الحكم خلال الست سنوات اللاحقه من حياة والده، لكن تلك المشاركة كانت زائفة، إذ كان لويس الشاب فقط يحمل اللقب الملكي، ولويس السادس هو الحاكم المباشر والذي كان يتمتع بالسلطة السياسية وإدارة كافة شؤون

---

(1)Ivan Gobry, Louis, VI 1108-1137, Père de Louis VII, Pygmalion, Paris, 2007, p.47.

(2)Elodie Leschot,The Abbey of saint-Denis and The coronation of The King of france ,Arts Magazine, Switzerland,111,9,2020,p.2.

(3) Ibid, p. 47.

(٤)أناكليتوس الثاني (- ١١٣٨): شغل بيترو بيرليوني، المعروف باسم أناكلتوس الثاني، منصب البابا المزيف في مدة اتسمت بالاضطراب الديني، منازعاً البابا الشرعي إنوسنت الثاني على الكرسي الرسولي منذ عام ١١٣٠ وحتى وفاته. اندلعت شرارة الأزمة عقب وفاة البابا هونوريوس الثاني، حيث شهد مجمع الكرادلة انقساماً حاداً؛ ففي سابقة غير مألوفة، أوكلت مهمة الانتخاب إلى لجنة مصغرة من ثمانية كرادلة اختاروا غريغوريو باباريسكي (إنوسنت الثاني)، في حين قامت أغلبية الهيئة الكردينالية بانتخاب بيرليوني، مما أفضى إلى انشقاق عظيم في جسد الكنيسة الكاثوليكية الرومانية.

Williams, George L. Papal Genealogy: The Families and Descendants of the Popes. McFarland & Co., 1998, p. 24.

(٥)الليتورجية: كلمة يونانية يقصد بها العبادات والصلوات الاجتماعية بكل أنواعها، ولكن استقر الرأي على إطلاق ذلك الاصطلاح على القداس الإلهي تحديدًا من طقوس الكنيسة القبطية الأرثوذكسية. يراجع : الموقع الرسمي لكنيسة القديسة تكلا هيمانوت القبطية الأرثوذكسية . يراجع : وليم شوملي ، مقدمة في الليتورجيا ، منشورات المعهد الامريكي ، واشنطن ، ٢٠٠٩ .

(6) Elizabeth m.sewell,Popular History of france from The ear Liest period to The death of Louis XIV,London,1876,p.81.

(7) Seward, Op.Cit., p. 21.

الدولة[١].

استمر لويس السادس في مباشرة حكم مملكته، لكنه عندما بلغ الستين من عمره زادت الدهون في جسمه، وأضعف وزنه الزائد من قوته حتى وصل إلى مرحلة لا يستطيع معها مغادرة السرير[٢]، إذ كان يعاني من المرض وارتفاع الحرارة ما دفعة إلى ترك باريس الحارة والتوجه إلى قرية بيري Bethy بشمالها، التي كان يتخذها مقراً له في رحلات الصيد، ذلك تواجد حوله عدد كبير من البارونات والأساقفة وعلى رأسهم الأب سوجر مستشار الملك ووزيرة الخاص، وذلك لأن حالته الصحية بدأت في التدهور[٣] .

وعلى رغم من خبرته الكبيرة وعزمه، إلا أن وزنه الزائد كان عائقاً له في الوقوف أمام أعدائه وكان يشتكي للمقربين حالته قائلا: **"للأسف نادراً ما يمكن للمرء أن يكون لديه الخبرة والقوة في الوقت نفسه لو كنت امتلكت الخبرة في شبابي أوكنت أملك القوة في كبر سني لسيطرت على العديد من الممالك بكل سهولة"** أما وزيره ومستشاره سوجر فقد وصف حالته بقوله **"كل من رأى أو سمع عن أعمال لويس السادس البارزة أنشد لروحه النبيلة وذرف الدموع من رؤية جسده الضعيف**[٤]، وعلى الرغم من مرض لويس السادس، فإن عقلة وإدراكه ظلا نشيطان، لكنه كان قلقاً بعد تمكنه من السيطرة على شؤون المملكة، وعلى الرغم من الحالة الصحية الحرجة للويس إلا أنه لم يتهاون في نضاله مع ملك انكلترا وكونت بلوا ثيوبالد الثاني[٥] عندما اشعلوا النار في بوني bonneval التي كانت تحت حمايته، كما أرسل جنوده لتدمير شاتو رينارد chateau-renard وهي جزء من إقطاعية الكونت ثيو بالد، كذلك فعندما أقدم أمير قلعة بريسون Bresson على نهب أموال التجار تصدى له لويس وقاد حملته الأخيرة مصطحباً مجموعة من النبلاء، وتوجهوا للقلعة وتم إحراقها وعندئذ استسلم الأمير وكل من في القلعة[٦]، وبعد عودة لويس من حملته وأثناء وجوده في قلعة مونتير montraer بدأت معاناته من نوبة ألم موجعة بسبب مرضه بالدوسنتاريا dysentery[٧].

وعلى الرغم من معاناة لويس السادس مع المرض، فقد نجح بصلابة في ترسيخ دعائم حكمه

---

(1)Yves, yasassier,LouisVII,librairie Ar theme Fayard,Framce,1991,p.39.

(2)Hourly History, ELEANOR OF AQUITAINE A Life From Beginning to End,London,2018,p.6.

(3) Suger. Vie de Louis Vi Le Gros,pp.280 – 282.

(4)Suger, The Fat Louis,op. cit., p.152.

(٥) ثيوبالد الثاني (١٠٨٩-١١٠٢): سليل أسرة نبيلة ذات ثقل سياسي كبير؛ فهو ابن الكونت ستيفن الثاني (Stephen, Count of Blois) من عقيلته الأميرة "أديلا" (Adela)، ابنة وليم الفاتح ، وهو بذلك الشقيق الأكبر للملك ستيفن ملك إنكلترا. عُرف تاريخياً بلقب "ثيوبالد الرابع" بصفته حاكماً لمقاطعة بلوا، ثم وسع نفوذه ليصبح حاكماً لشامباني. وقد اتسمت سياسته بازدواجية لافتة؛ ففي حين أظهر احتراماً وواضحاً للمؤسسة الدينية ورموزها، وعلى رأسهم القديس برنارد، فإنه اتخذ في المقابل موقفاً صدامياً تجاه السلطة الملكية، مظهراً عداءً صريحاً وكراهية لنهج الحكم الملكي في تلك الحقبة. يراجع :

Davis, R.H.C. , King Stephen, 1135-1154. University of California Press, 1967, p. 172.

(6)Suger, Op.Cit., p.152.

(٧) الدوسنتاريا أو الزحار : مرض يصيب الجهاز الهضمي، ومن أهم أعراضه الإسهال ويكون مختلط بالمخاط والدم وجفاف الجسم. يراجع : زيغريد هونكه ، شمس العرب تسطع على الغرب، أثر الحضارة العربية في اوروبة ، ترجمة: فاروق بيضون ، كمال دسوقي، ط٨ ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٩٣ ، ص ٣٣٧؛

Amy Kelly, Eleanor of Aquitaine and her courts of Love, speculum, Vol. 12, No. 1 (Jan, 1937), PP. 21-22.

داخل نطاق أراضيه الملكية المباشرة، إلا أن نفوذه ظل قاصراً أمام سطوة كبار الإقطاعيين في بقية الأقاليم الفرنسية،ولم يلبث أن تغيرت موازين القوى عندما تدخلت العناية الإلهية لتمده بفرصة سانحة لفرض سيادته، تمثلت في إمكانية ضم دوقية أكيتاين الغنية؛ وهي الفرصة التي سارع لاغتنامها من دون تردد لتعزيز مكانة الأسرة الحاكمة وتوسيع دائرة نفوذها بشكل غير مسبوق[١].

٣. زواجه من دوقة أكيتاين ١١٣٧ وتداعياته السياسية على عرش فرنسا.

دخل لويس السابع الحياة السياسية بصورة مفاجئة وسريعة، وفرضت الظروف زواجه من إليانور دوقة أكيتاين التي ورثت تلك الدوقية عن والدها وليم العاشر William X (١١٢٦–١١٣٧)[٢]، قدمت مقاطعة أكيتاين على طبق من ذهب لتهدى للملك لويس السادس عن طريق الزواج الملكي السياسي الذي سوف يتم بين ابنه لويس ولي عهد فرنسا، وإليانوردوقة أكيتاين، ويعود تاريخ إنشاء أكيتاين إلى النصف الثاني من القرن الأول قبل الميلاد عندما شرع الرومان بحملات عسكرية توسعية في عهد الامبراطور يوليوس قيصر Julius Gaesar (١٠٠-٤٤ ق.م) وقاد الاخير الحملات التي فتحت بلاد الغال[٣]، وما أن أتم يوليوس فتحها حتى قسمها وفقاً للنظام الإداري الروماني الى مقاطعات، من ضمنها أكيتاين[٤]،توغلت الثقافة والحضارة الرومانية في أكيتاين، وتفاعلت فيها تلك التأثيرات خلال القرون الخمسة الأولى بعد الميلاد حتى أصبحت رومانية بالكامل، وعلى الرغم من أن التأثيرات التي تعرضت لها أكيتاين تغيرت بعد سقوط الجزء الغربي من الإمبراطورية عام ٤٧٦ ، وتوغلت فيها قبائل القوط الغربيين، ثم الفرنجة بعد عام ٥٠٧ ، إلا أن أكيتاين احتفظت بالعديد من سمات وخصائص الحضارة الرومانية، وظلت طابعها الروماني واضحاً طوال العصرالوسيط، حتى قرون أعقبت انهيار الكيان السياسي للرومان[٥].

---

[١] سعيد عبد الفتاح عاشور، المصدر السابق ، ص ٢١١ – ٢١٢ .

[2] Kelly.op.cit, p .4; Pernoud, Op.Cit., p. 13; Owen, D.D.R, Eleanor of Aquitaine, Queen and Legend. (Oxford, uk: Blackwell, 1993), p.14.

[٣] بلاد الغال: مقاطعة رومانية كانت تؤلف من فرنسا الحالية وأجزاء من المانيا وسويسرا والشمال الايطالي ، وقد غزتها شعوبا كثيرة كالجرمان والرومان والكلت، وارتبط اسم تلك المنطقة بالفرنجة لانهم استقروا فيها على نحو دائم، ثم حرف الإسم الى فرنسا، يراجع: حسن فهد حماد ، موسوعة الآثار التاريخية ، دار أسامة للنشر، عمان ، ٢٠٠٣، ص ٤٥٦.

[٤] اشتُق اسمها من كلمة اكوا (Aqua)اللاتينية التي تعني الماء، لكثرة المسطحات المائية والانهار التي تخللتها، ومنها أنهار غارونا (Garonne)، شارينت (Charente)، كروز (Creuse)، فيين (Vienne)، دوردوني (Dordogne) وفيزير(Vezere)، وسرعان ما ازدهرت هذه المقاطعة وظهرت فيها أهم مدن جنوب بلاد الغال ومنها سانتونغ (saintong)، انغوليم (Angouleme)، بيريغورد (Perigord)، ليموزين (Limousin)، اوفيرني (Auvergne)، ولا مارش(La Marche). يراجع : جيمس رستون الابن ، مقاتلون في سبيل الله ،صلاح الدين الايوبي وريتشارد قلب الاسد والحملة الصليبية الثانية، ترجمة: رضوان السيد، مكتبة العبيكان، الرياض، ٢٠٠٢،ص٥٧؛

Fontenelle de Vaudore,Histoire Rois ET Des Dugs D,Aquitaine Et Des countes de poitou,france,1842,p43; Frank mclynn,Lion heart,Lack Land:king Richard king John and The wars of conquest,London,2007,p.15.

[5]CL.Perroud,Des origines Du premier Duche D,Aquitaine,France,1881,p.31-32; Ambera Tolbert,Merovingian and Carolingian Empires: An Analysis of Their

وفي منتصف القرن السابع الميلادي أصبحت دوقية مستقلة تحت حكم الميروفونجيين (٤٨١-٧٥١)[١]، ثم تم تحويلها إلى شبه مملكة على يد الكارلونجيين عام ٧٨١ ، وبعد سقوط الأسرة الكارولنجية وقيام أسرة آل كابية في الحكم، حدثت انقسامات داخل المملكة ، وظلت دوقية أكيتاين منقسمة في حكمها بين كونتات بواتييه وتولوز، الذين رغب كل منهم بحكمها بصورة منفصلة عن ممتلكاته بوصفها دوقية ضعيفة أو ضمها الى ممتلكاته لتفقد أكيتاين أخر ما تبقى من استقلالها[٢]، في نهاية المطاف حكم أكيتاين لأكثر من ثلاثمائة عام رجال تسموا بوليم[٣].

تميزت أكيتاين بأنها كانت من أغنى الإقطاعات الفرنسية وأهمها، فهي غنية بالمراعي والمزارع والغابات والأنهار ذلك سميت بأرض المياه، وتعود تلك التسمية إلى عصر ما قبل الميلاد، وكانت أكيتاين من أكثر المدن اتساعًا فبلغت مساحتها حوالي ربع مساحة المملكة الفرنسية، ومساحتها مترامية الأطراف، حيث امتدت من جبال البرانس Pyrenees إلى نهر اللوار Loire ومن مرتفعات أوفيرني Auvergne إلى المحيط الأطلسي[٤]، وكانت من أكثر أكثر الإقطاعات الفرنسية ثراء ورفاهية، وذلك بفضل تجارتها المربحة في تصدير النبيذ والملح[٥]، حتى أن الفلاحين قد تلطخت شفاههم باللون القريمسي من كثرة شربهم للنبيذ[٦] ، فاضت أرض أكيتاين بالفاكهة من كل نوع، فمناخها المعتدل ساهم في وفرة المحاصيل الزراعية بها، ومن أشهر محاصيلها الكرز والخوخ والتوت والفراولة البرية، إلا أن العنب كان المحصول الأهم الذي انتشر على مساحات شاسعة من اراضي أكيتاين[٧].

في فصل الخريف كانت تكسوها غابات البلوط بلونها الخمري، ومن أهم الموانئ فيها بوردو التي كانت تنطلق من خلاله قوارب التجار للتصدير منذ العصور القديمة، وخلال

Strengths and Weaknesses,Student Theses, Papers and Projects (History), Western Oregon University,2005,p15; Douglas Boyd,April Queen Eleanor of Aquitaine,France,2012 ,p.36-37.

(1) Guilhem Pépin, Les couronnements et les investitures des ducs d'Aquitaine (XIe–XIIe sie`cle), France,2009,.p6.

(2)Weir,op.cit.,p.6.

(٣) يراجع حول اصول الملكة إليانور: سعاد علاوي خميس، إليانور دوقة اكيتاين حياتها ونشاطها السياسي والعسكري ١١٢٤ – ١٢٠٤ ، رسالة ماجستير ، كلية التربية للعلوم الانسانية، جامعة واسط ، ٢٠٢٣، ص١٢-١٧ .

(٤) عبد القادر احمد اليوسف ، المصدر السابق ، ص ١٩٤ ؛ السيد الباز العريني ، تاريخ اوربا في العصور الوسطي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع ،القاهرة ، ١٩٨٩ ، ص ٥٢٤ ؛ غريمال بيار وآخرون، المصدر السابق، ص ٥٦٨.

Meade, Op.Cit., p. 4; weir, Op.Cit., p.6.

(٥) اشتهرت اكيتاين بإنتاج الملح الذي امتد على طول سواحلها المطلة على المحيط الاطلسي، لا سيما المنطقة الواقعة بين جزيرتي اوليرون (Oleron) و ري(Re). يراجع :

DAN Jones,The plantagenets:The kings who made England, London,2013,p.27.

(6)Fiona Swabey, Eleanor of Aquitaine: Platonic Love and the Troubadour, London, 2004, p.29.

(7) Marion, Op.Cit., p.16.

السنوات الأخيرة انضم في تلك التجارة ميناء لاروشيل La Rochelle الذي لم يكن موجوداً كميناء حتى العصر الوسيط، إلا أن الفلاحين على الرغم مَما كان بها من سلام لم يهنئوا في حياتهم وعاشوا في قلق مستمر، فأغلب المساحات الأرضية كانت بأيدي سادة إقطاعيين أقوياء، حتى أن دوق أكيتاين لم يستطع ضبطهم، فاقتصرت سلطته على بعض المناطق ذات المساحات الصغيرة التي لم تتجاوز مقر حكمه[١].

كان وليم العاشر دوق أكيتاين والد الملكة إليانوريتميز بشخصية قوية ، ورث أكيتاين في ١٠ شباط ١١٢٦ بعد وفاة أبيه وليم التاسع WilliamX [٢]،وكان عمره تقريبًا سبع وعشرون عاماً، بدأ حكمه بمعارك داخل وخارجها دوقيته ، حيث استطاع القضاء على التمرد داخل أكيتاين، لكنه استمر في اختلاق معارك عديمة الفائدة لإشباع رغبته في القتال، مما دفع معاصريه إلى اتهامه بعدم القدرة على العيش بدون قتال، وهو ما نقترحه استناداً إلى حقيقة أنه عندما استقر الوضع وشهدت ممتلكاته سلاماً كاملاً، استمر في الخروج مع أتباعه وأجبرهم على خوض مبارزات فردية دموية، وثبت أن وليم العاشر كان فارساً شجاعاً فرض هيبته على رعاياه[٣].

عانى وليم العاشر من اضطرابات واسعة في أراضيه، تزامنت مع توتر حاد في علاقاته مع المؤسسة الكنسية، حيث لم تقتصر خلافاته مع الأساقفة على الجوانب السياسية والإدارية فحسب، بل أججتها سلوكياته الشخصية وعلاقاته غير الشرعية، مما جعله عرضة لقرارات الحرمان الكنسي أكثر من مرة[٤].

في ١٣ شباط ١١٣٠ توفي البابا هنريوس الثاني Honorius II (١٠٦٠- ١١٣٠) وعلى أثر وفاته اندلعت انشقاقات في الكنيسة[٥]، حيث دعا الملك الفرنسي لويس السادس إلى عقد

---

[١] السيد الباز العريني، المصدر السابق، ص ٥٢٤.

Seward, Op.Cit., p. 14.

[٢]وليم التاسع(١٠٧١- ١١٢٦): رغم إنجازاته السياسية والعسكرية التي كانت لها أهمية تاريخية إلا أنه اشتهر أكثر بأنه شاعر غنائي من أشهر شعراء التربادور في عصره، وكانت له سمعة سيئة بأنه زير نساء، شارك في الحملات الصليبية التي جاءت بعد الحملة الصليبية الأولى فقاد الحملة الصليبية الأكيتانية ١١٠١، ولم تكن علاقته جيدة مع الكنيسة فقد حرم مرتين المرة الأولى كانت في ١١١٤ من أسقف بواتو وكانت بسبب بعض الجرائم غير المعروفة، والمرة الثانية بسبب علاقة غير شرعية مع زوجة كونت شاتيلرويت دانجروس وقد توفي عام ١١٢٧ . يراجع : ستيفن رنسيمان ، تاريخ الحملات الصليبية، ترجمة: السيد الباز العريني ، ج٢ ، ط٢ ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٩٧، ص ٤٩ – ٥٠ .

[3] Philippe Delorme, Aliénor d'Aquitaine Epouse de Louis VII,Merede Richard Coeur de lion,pygmalion,paris,2013, p15; Gordons.Wakefield,The Scm Dictionary of Christian Spirituality ,Vol.1,London,1988,p.78-79; weir,op.cit,p.14.

[4]Gordons.Wakefield,The Scm Dictionary of Christian Spirituality ,Vol.1,London,1988,p.78-79; weir,op.cit,p.14.

[٥] في مساء يوم ١٣ شباط ١١٣٠، توفي هونوريوس الثاني، وأبقى أنصار عائلة فرانجيباني وفاة البابا سرًا. وفي وقت مبكر من صباح يوم ١٤ شباط، تم دفن جثمان البابا سرًا على عجل في دير سانت أندريا، وبعد ذلك انتخب ١٦ كاردينالًا بالإجماع غريغوريو باباريسكي البابا الجديد، الذي اتخذ اسم إنوسنت الثاني. وصل البابا الجديد إلى مجمع لاتران، وهنا تم إعلان وفاة هونوريوس الثاني وانتخاب إنوسنت الثاني للرومان. رفض أنصار عائلة بيرليوني قبول نتائج الانتخابات السرية. وبعد ظهر يوم ١٤ شباط ١١٣٠، اجتمع ٢٤ كاردينالًا في سان ماركو وانتخبوا بيترو بيرليوني، الذي اتخذ اسم أناكليتوس الثاني ، في ١٥ شباط ١١٣٠، احتل أنصار أناكليتوس الثاني

مجمع وطني للأساقفة في إيتامبس (Etampes) عام ١١٣٠، تم خلاله اختيار القديس برنارد من كليرفو حكماً للفصل في النزاع القائم بين البابا إنوسنت الثاني ومنافسه أناكلتوس الثاني، وقد أفضت وساطة القديس برنارد إلى تزكية البابا إنوسنت الثاني، وهو القرار الذي صادق عليه الملك لويس السادس، إلا أن ذلك التوجه اصطدم بمعارضة وليم العاشر، دوق أكيتاين، الذي أعلن ولاءه للبابا المنافس أناكلتوس الثاني[١]،وإزاء ذلك الموقف، قاد القديس برنارد تحركاً بابويًا رفيع المستوى لثني الدوق عن قراره، فتوجه إلى أكيتاين محاولاً إقناعه بالعدول عن مخالفة الإجماع الكنسي، ومستخدماً لغة الوعيد بالانتقام الإلهي والوعظ العام، غير أن وليم رفض في بادئ الأمر استقباله أو الرضوخ لضغوطه، عادّاً ذلك تدخلاً غير مقبول في شؤون منطقته، وترتب على ذلك التعنت رد فعل صارم من المؤسسة الكنسية، التي أصدرت قراراً بالحرمان ضد وليم العاشر ووضعت أكيتاين تحت الحجر، ومع ذلك لم تتوقف المساعي الدبلوماسية؛ إذ توجه القديس برنارد لاحقاً إلى بواتييه وأجرى محادثات مكثفة مع وليم استمرت أسبوعاً كاملاً، تكللت في النهاية باقتناع الدوق بالحجج والذرائع المقدمة، ليعلن تراجعه النهائي عن موقفه السابق ودعمه التام وشرعية البابا إنوسنت الثاني[٢].

شكل شهر آذار من عام ١١٣٠ نقطة تحول مأساوية في تاريخ دوقية أكيتاين، حينما ضربت الحمى مقاطعة بواتو ملقية بظلالها على الأسرة الحاكمة؛ إذ توفيت والدتها الدوقة إينور دي شاتيليرو Aénor de Châtellerault (١١٠٣- ١١٣٠) ولحق بها بعد مدة

كاتدرائية لاتران، وفي ١٦ شباط كاتدرائية القديس بطرس ، وفي ٢٣ شباط ١١٣٠، تم تنصيب أناكليتوس الثاني على العرش في الكاتدرائية الأخيرة. وجد أنصار إنوسنت الثاني أنفسهم في أقلية واضحة؛ وتم تنصيب إنوسنت الثاني على العرش في كنيسة سانتا ماريا نوفا الصغيرة ، نظرًا لأن كل البازيليكا الكبيرة كانت تحت سيطرة أناكليتوس الثاني . اتهم أنصار إينونيتيوس الثاني أناكليتوس الثاني بارتكاب رشوة واسعة النطاق للكرادلة والنبلاء، وقيل إن مصدر هذه الأموال لم يكن فقط ثروة عائلة بيرليوني ، بل أيضًا سرقة الكنائس الرومانية. كان الأصل اليهودي لأناكليتوس الثاني أيضًا بمثابة ورقة رابحة قوية في يد إنوسنت الثاني منذ البداية، حيث كان وصف "البابا اليهودي" وهكذا، ادى انتخاب كلا الباباوين إلى انقسام دام ثماني سنوات شارك فيه الملوك الأوروبيون وعلماء اللاهوت الكاثوليك. يراجع :

George Schweiger, Honorius II, Papal Encyclopedia, Volume 2, Agents of Gaius. Routledge. 2002, pp. 732-733.

[1]weir, op.cit, p15; Plaidy, Jean, The courts of Love: The story of Eleanor of Aquitaine, (New York: Three Rivers Press, 2006), p 23; Owen, Op.Cit., p.10; Gobry, LOUIS VI, P 213; Seward, Op.Cit., p. 18.

[٢] دخل وليم العاشر مجدداً في صراع مع الكنيسة حين ناهزت ابنته إليانور الثالثة عشر من عمرها، فتدخل القديس برنارد من كليرفو مجدداً وهدد وليم العاشر بالانتقام الالهي اذا استمر في مناوئة الكنيسة وعصيانها، وهناك رواية غلب عليها طابع التهويل الكنسي مفادها أن وليم العاشر اقتحم الكنيسة مدججاً بالسلاح عازماً على طرد برنارد منها، لكن القديس استقبله حاملا القربان عالياً مما تمخض عن تأثير روحي مباشر على وليم العاشر الذي اصيب بنوبة من صرع او سكتة دماغية خفيفة، تلجلج معها فمه وانهار جامداً دون حراك، وحين تعافى وليم اخبره القديس برنارد أن ما حدث له هو كرامة للكنيسة واشارة تحذير لـ وليم كي لا يتحداها مجدداً، لذا رضخ وليم للقديس برنارد وأعلن خضوعه للكنيسة، وبغض النظر عن ما ورد من مبالغات في هذه الرواية لكنها شكلت مؤشراً على وجود تجاذبات خطيرة بين وليم العاشر والكنيسة طوال عهده . يراجع: نور الدين حاطوم ، المصدر السابق ، ص ٧٩٩ ؛

Bruno Scott James, The Letters of Saint Bernard of Clairaux , Chicago, 1953,pp.45-46. Weir, Op.Cit., p.14.

وجيزة شقيقها ووريث العرش وليم إيغريت William Aigret(١١٢٦- ١١٣٠) أثناء إقامتهما في كوخ للصيد بمنطقة تالمو، لتجد إليانور نفسها - وهي لم تتجاوز الثامنة من عمرها - الوريثة الوحيدة لوالدها، وعلى الرغم من ذلك، لم يستسلم الدوق وليم العاشر مبكراً لفكرة توريث الحكم لابنته، فسعى جاهداً للحصول على وريث ذكر يحفظ سلالته، حيث حاول في عام ١١٣٦ الاقتران بإيما من ليموج Emma of Limoges ، إلا أن مساعيه باءت بالفشل إثر تعرض خطيبته للاختطاف والإجبار على الزواج من قِبَل وليم السادس كونت أنغوليم William VI, Count of Angoulême ، في مخطط سياسي دُبر لحماية الممتلكات في الليموزين، مستغلين انشغال وليم العاشر آنذاك في حملته العسكرية المشتركة على نورماندي [١] وأمام تلك التحديات، وتنامي الخشية على مستقبل ابنتيه إليانور (الوريثة المرتقبة) وبيترونيلا Petronilla (١١٢٥ - ١١٥١) أدرك وليم العاشر حتمية الأمر الواقع، وبدأ بضبط شؤون النظام الداخلي لأكيتاين لضمان انتقال سلس للسلطة إلى إليانور، التي باتت بصدد وراثة ربع مساحة فرنسا مما يجعلها الوريثة الأكثر ثراءً في أوروبا الغربية،ولتحقيق ذلك، استغل الدوق مناسبة عيد ميلادها الرابع عشر لاستدعاء حاشيته وإلزامهم بقسم الولاء لها كوريثة شرعية لبواتييه وأكيتاين وجاسكوني؛ غير أن وليم كان يعي تماماً أن مجرد القسم لن يكون درعاً كافياً لحماية ابنته من أطماع اللوردات في تلك الحقبة التي مزقتها الاضطرابات، مما قاده إلى قناعة راسخة بضرورة البحث عن زوج قوي يحكم باسمها ويتولى حماية إرثها وممتلكاتها الواسعة[٢].

وفي أوائل عام ١١٣٧ قرر وليم العاشر الرحيل إلى سانتياغو دي كومبوستيلا[٣] للحج، لاسيما وأن البلاد كانت تمر واضطرابات وفوضى سياسية، لذا رأى أن الحكمة تقتضي اتخاذ إجراءات وقائية خوفاً من تعرض بناته للاختطاف، ذلك رأى أن يترك ابنتيه تحت رعاية رئيس أساقفة بوردو جيفري دي لوروكس Jeffrey de Lauro الذي كان تابعاً ومواليا له، عندما علم أتباع الدوق وليم العاشر بقيامة برحلة الحج عللوا رحلته أنه يريد الحصول على مساعدة القديس حنا في الأخذ بالثأر من إعدائه، وأنه لن يعود فحرص على أن تبقى ابنته إليانور تحت حماية أسقف بواتييه ورعايته [٤] وحينما استشعر دوق أكيتاين، وليم العاشر، دنو أجله، بادر بإرسال مبعوثيه حاملين وصية سرية إلى الملك لويس السادس، يُفصح فيها

---

(1)Sara Cockerill, Eleanor of Aquitaine Queen of France and England,Mother of Empires,London,2019,p.23.

(2)weir, Op.Cit., p.20.

(٣) كومبوستيلا Compostela: مركز لكاتدرائية شهيرة هي كاتدرائية سانتياجو Santiago التي زادت شهرتها باكتشاف قبر القديس شانت ياقب (يعقوب) أحد حواري المسيح بها، وأصبحت أهم مزارات الحجاج في أوروبا بعد روما وأصبح لها في أسبانيا أهمية خاصة وتقع في الركن الشمالي الغربي لشبه جزيرة أيبيريا. وقد اعتاد كثير من حجاج المسيحية زيارة ذلك المكان للتبرك بضريح القديس يعقوب، يراجع: أميريكو كاسترو ، حضارة الإسلام في إسبانيا، ترجمة : سليمان العطار، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٣، ص ٦٢-٦٤؛ ماثيو كار، الدين والدم إبادة شعب الأندلس، ترجمة : مصطفى قاسم، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة ، أبو ظبي ، ٢٠١٣ ، ص ١٠٠.

(4)weir, Op.Cit., p.20.

عن رغبته في عقد قران ابنته إليانور على وريث العرش الفرنسي، مشدداً على ضرورة كتمان نبأ وفاته حتى وصول الرسالة إلى البلاط الملكي[١]. وفي خضم تلك الترتيبات، لعب رئيس أساقفة بوردو، جيفري دو لورو Geoffrey de Lauroux -الذي كانت تربطه معرفة بالراهب سوجر- دوراً محورياً في إتمام ذلك الزواج، مدعوماً بتأييد قوي من رجال الدين في بوردو؛ إذ كانوا يدركون جيداً مكانة ملوك ال كابيه كمدافعين عن الكنيسة، ويخشون في الوقت ذاته أن يؤدي زواج الدوقة الشابة من أحد الأقران المحليين إلى صراعات تضر بالمصالح الكنسية ، وعلى الجانب الآخر، لم يبدِ كبار رجال الدين والنبلاء في أكيتاين اعتراضاً على ذلك التحالف، بل إنهم فضلوا الخضوع لدوقٍ يقيم بعيداً في باريس على أن يحكمهم أحد منافسيهم المحليين[٢].

وقد استند قبولهم ذلك إلى حسابات سياسية دقيقة، افترضوا فيها أن الملك الدوق سيكون حاكماً غائباً في الغالب، وسيكتفي بتعيين وكيلٍ من صغار النبلاء لإدارة الدوقية، وهو ما سيسهل عليهم ترهيبه أو السيطرة عليه، مما يمنحهم هامشاً واسعاً من الحرية والاستقلال في مناطق نفوذهم [٣].

كان وليم العاشر يعلم أن لويس السادس هو سيده الأعلى وهو من يستطيع حماية ابنته ذات الخمسة عشر ربيعًا، والتي ستجبرها ظروف وفاته على الدخول مبكراً إلى المجال السياسي، بعد أن تصبح دوقة لأكيتاين ولم يكن يدري أن الأقدار ستجعلها أيضا ملكة فرنسا ومن ثم انكلترا في وقت لاحق[٤].

تطلع الدوق وليم العاشر إلى عقد قران ابنته على لويس، ولي عهد فرنسا، غير ممانعٍ في أن تؤول ثروتها الهائلة إليه؛ فعلى الرغم من أن القوانين في دوقية أكيتاين كانت تشكل استثناءً فريداً في أوروبا الإقطاعية وتوفر للمرأة مظلة حماية وحقوقاً واسعة، إلا أن قلق الدوق الأبوي وهواجسه حول مصير الثروة بعد وفاته دفعته لتفضيل وجود ظهير قوي يرعاها، وتتجلى الخصوصية التاريخية لإقليم أكيتاين ومناطق الجنوب الفرنسي في طبيعة نظامها القانوني الذي استمد مرجعيته الأساسية من القوانين الرومانية المكتوبة والتشريعات القوطية، وهي منظومة متطورة كفلت للمرأة مساحة واسعة من الحقوق والامتيازات، وقد شكّل ذلك الواقع تناقضاً جذرياً مع المشهد الذي كان مألوفاً في شمال فرنسا آنذاك؛ حيث هيمنت الأعراف الإقطاعية الجرمانية المستندة إلى التقاليد الشفهية غير المكتوبة، والتي كرّست بدورها تبعية المرأة ووضعتها بشكل كامل تحت وصاية الرجل [١].

دهش لويس السادس بعد سماعه ذلك الخبر وشعر بالسرور، وقبل طلب وليم العاشر على الفور، فقد كان يدرك مدى أهمية أكيتاين التي سوف تنضم إليه إذا تم الزواج الملكي السياسي من ابنة وليم العاشر، فخلال ٢٩ عاماً من حكم لويس السادس المركزي في فرنسا حاول أن

---

(1)weir, Op.Cit., p.20.
(2)Gobry, Louis VII, P. 54.
(3)Ibid, p.54.
(4) pernoud, Op.Cit., p. 27.

يقدم مصالح شعبه أولاً، وأن يجعل من بلاطه حصناً للمسيحية، وقد أخبرنا الاب سوجر:" **أن الملك لويس السادس كان يصيح أثناء اجتماعه بهِ من شدة الفرح وقد تلعثم في كلامه لأنه قضى حوالي تسع وعشرون عاماً في محاولة مد حدود مقاطعته المحدودة التي كانت حدودها تنحصر في مساحة طويلة من الأرض تتمثل بالدرجة الأولى في أورليان وجزء من بيري**"[٢] ؛ إلا أن هناك أمور عكرت صفوه واضعفت من قوته وهي أطماع أتباعه الإقطاعيين الذين كان من الصعب كبح جماحهم، كما أن جارتيه القويتين أنجو ونورماندیا كانتا في نمو متزايد، ذلك إلى جانب أعدائه من الألمان والإمبراطورية البيزنطية في الشرق، لذا أحس لويس أنه في أمس الحاجه لانضمام أكيتاين السلمي إليه مما يزيد من سطوته وقوته، فالسيطرة على أكيتاين تمكنه من الوصول إلى البحر والمزيد من الأراضي للحفاظ على سلامته وضمان قدر أكبر من الدعم له[٣].

كان إرث إليانور بمثابة الكنز الذي لا يقدر بثمن بالنسبة للويس السادس، ولا يمكن التفريط بهِ، ولا بد من استغلاله في أسرع وقت ممكن قبل أن يستغله شخصا غيره، فهي كانت بمثابة الفريسة السهلة للطامعين بدوقيتها، ذلك أسرع لويس السادس بجمع مستشاريه لاستشارتهم حول ذلك الأمر، ومبينًا المصالح التي قد تعود عليهم إذا تم ذلك الموضوع، ولأهمية ذلك فرأيه وحده لا يكفي، فالقضية كانت وطنية أكثر من كونها فردية ولا بد من مشاركة أعضاء مجلسه في الرأي، فالتف حول أريكته كلا من مستشاريه، وولي عهده ووريثه لويس الذين أجمعوا على الموافقة دون قيد أو شرط[٤].

بدأ لويس السادس بتجهيز موكب العروس، إلا أنه لم يستطع قيادة الموكب لظروف مرضه وتدهور صحته، فألقى بالمهمة تلك إلى اثنين من أهم أتباعه ثيوبالد Thibaud كونت شمبانيا Champane ، وراؤول Raoul كونت فرماندو Vermandois [٥]، وفي ١٥ حزيران سنة ١١٣٧ كان وفد المملكة الفرنسية على استعداد للرحيل، فاشتمل الموكب، فضلاً عن لويس الأصغر ذي السبعة عشر عاماً، والاثنين من الأتباع والوزير سوجر الذي كان يقود الموكب،ذلك إلى جانب العديد من الأتباع الآخرين من بينهم وليم دي نيفر Guillaume de Nevers وروترو من بيرش Rotrou de Perche والأساقفة من شارتر، والمندوب البابوي جيفري Geoffroy وخمسمائة من أفضل فرسان المملكة، ولدى مغادرة لويس قام والده بتقديم العديد من النصائح له ومن أهمها، أن يحسن التصرف، ويتمسك بحسن السلوك والكرامة، وأن يحافظ على هيبة النظام الملكي، ولا يستغل مكانته الإقطاعية في أكيتاين في الحرب أو الجرائم، وأن يمنع رجاله من السلب والنهب حتى لا يعرض حياته للخطر من رجال تلك المنطقة، وأنهى الأمر بعبارة يغلفها الحزن:" **ابني العزيز ليحميك الرب العظيم**

---

(1)Meade, Op.Cit., p. 32.
(2)weir op.cit, p20.
(3)Kelly, Op.Cit., p. 2; Swabey, Op.Cit., p. 32; Meade, Op.Cit., p. 35.
(4) Gobry, LOUIS VII, P 54; Owen, Op.Cit., p.14; Plaidy, op.cit, p 37; Kelly, Op.Cit., p. 1-2; Meade, op.cit, pp.32-33; Pernoud, Op.Cit., p.18.
(5) Gobry, LOUIS VI, p. 306; Pernoud, Op.Cit., p.17.

بيده اليمنى التي يحكم بها الملوك، وليحمي مرافقيك، فلو فقدتك لسوء الحظ وفقدت من أرسلتهم معك، فلن أهتم بعد ذلك بنفسي ولا بمملكتي" ولم ينس لويس السادس تقديم نصائحه للفرسان أيضًا قائلا: **"نيابة عن بلدكم المملكة الفرنسية، فإنا نتوسل إليكم أن لا تأخذوا شيئًا من الدوقية ولا تلحقوا بأهلها أي ضرر سواء بالإنسان الفقير أو بأرض أو شجر حتى لا تحولوا أصدقائنا إلى أعداء"**[١].

ويتضح من نصائح الملك لويس السادس السابقة مدى اختلاف نبرته في الخطاب الأول عن نبرته في الخطاب الثاني، فبحنان الأب ولطفه خاطب ابنه لويس، وبصرامة الملوك وحزمهم خاطب فرسانه، وضع لويس السادس في العربات مجموعة لا حصر لها من الهدايا الباهظة الثمن، وخزائن من الذهب والمجوهرات والقماش، وجميع ما يحتاج إليه الوفد من تجهيزات لضمان عرض فخم[٢]، ولقد أرهق لويس السادس شعب فرنسا، لاسيما طبقة الفلاحين بما فرضه عليهم من ضرائب خاصة لتمويل موكب زفاف الأمير لويس، فسخطت أكثر من مدينه عليه، وتذمر الفقراء من إضافة تلك الضرائب التي كانت في رأيهم قمعية جبرية بغير وجه حق[٣].

تحرك الموكب في ١٨ حزيران ١١٣٧، وسار ببطئ شديد فقد عبروا نهر اللوار بالقرب من تلال أورليان في أجواء شديدة الحرارة فانتابهم عطش شديد أضعف من طاقتهم، ذلك فضلاً عن الغبار الذي زاد من سوء الأحوال الجوية، فكانوا يتوقفون عن المسير نهارًا، ويتابعون السير ليلًا، وبعد مضي أسبوعين من المسير دخلوا مدينة ليموج Limoges في ١١ تموز بسرية تامة دون ضجة وقد وافق ذلك وقت مهرجان سانت مارتل Saint Martial[٤] التي اجتمعت من أجله حشود كثيرة للاحتفال بالعيد السنوي[٥].

وفي صباح يوم الأحد الموافق ١١ تموز وصل الموكب إلى الضفة الشرقية لنهر الجارون Garonne في مشهد عظيم، فالزوارق ملأت النهر بمظهر أشبه بموكب النصر وتم استقبال لويس ومرافقيه بترحاب خاص في بوردو، وكان على رأس قائمة المستقبلين رئيس أساقفة المنطقة جيفروي دي لوروكس Geoffroy de loroux الذي عبر النهر لاستقبال الأمير، ومرافقته إلى مقر إقامته، كانت إليانور تراقب الموكب الملكي من نافذه برج قلعتها وهو يعبر النهر، كانت ترتدي ثوباً جميلاً باهظ الثمن، حيث استعدت للقاء أميرها المجهول[٦].

وبطبيعة الحال لم يلتفت المؤرخون لمشاعر لويس والدوقة ، إلا أن الأحداث تشير إلى أن زواجهم كان ينم عن مسألة عقلانية بحتة ومصالح مشتركة فقط، استمرت تجهيزات الزفاف

---

(1)Suger, Op.Cit., p. 157.

(2) Gobry, LOUIS Vi,p. 306.

(3)Swabey, op.cit, p 32; Meade op.cit, p. 36.

(٤) سمي بذلك الاسم نسبة إلى شارل مارتيل، القائد العسكري للفرنجة الذي هزم جيوش الدولة الأموية في معركة بلاط الشهداء في عام ٧٣٢. يراجع: شوقي ابو خليل ، بلاط الشهداء بواتييه بقيادة عبد الرحمن الخافقي ،ط٢، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٩٨٠، ص ٣١ – ٣٥ .

(5) Meade, Op.Cit., p.37; Seward, Op.Cit., p. 22.

(6) Suger, op.cit, p 157; Meade, Op.Cit., p.37.

المرتقب أسبوعين، ومن ضمنها دعوة الضيوف لحضور ذلك الزواج، وفي يوم الاحتفال أقيمت ولائم لا نهاية لها، وبدأ المدعوين لحفل الزفاف بالتوافد وقيل أن عددهم تجاوز الألف زائر من الفرسان والنبلاء[١].

إن مظاهر البذخ والأبهة والميزانيات الكبرى التي صرفت في ذلك الزواج كانت مبالغ فيها ومن الصعب حصرها، وقد وصفت المؤرخة الامريكية ماريون ميد Marion Meade ذلك بقولها: **"من الصعب على لسان أي مؤرخ أن يصف مدى سخاء النفقات التي قدمت، بل من المستحيل لقلمه أن يصف وصفاً دقيقا كاملاً، القائمة المتنوعة والنادرة من اللحوم الشهية التي كانت هناك"**[٢].

لم تكن إليانور تفكر في الزواج من سيدها الإقطاعي لكنها في الوقت نفسه كانت ترى أن ذلك حق لها ، كما كانت تعتقد أيضا أن لويس في مكانة أقل من مكانتها ، كان منبع الخلاف هو التفاوت بين أهل الشمال والجنوب الفرنسي، فقد كان نهر اللوار يفصل بين المنطقتين، فالشمالية يحكمها ملوك ال كابيه الذين استولوا على العرش من آخر ملوك الأسرة الكارولنجية، والذين تعدهم إليانورمتخلفين حضارياً ويعيشون حياة بدائية بينما أهل الجنوب انصهروا في الحضارة، ونظروا نظرة تعالي على هؤلاء القادمين إليهم من الشمال، وذلك كثرت الخلافات بين الطرفين، في الوقت الذي لم تر فيه إليانور الأمير لويس بمفرده حتى تقيم شخصيته إلا نادراً قبل زفافها[٣]، ومن المؤكد أن أجواء الحفلة كانت صاخبة، فشعب أكيتاين أشتهر بحبه للغناء والموسيقى والرقص والمجون والشعر، فاعتلت أصوات إيقاعات الآلات الموسيقية، وهام الشعراء المتجولين غناءً[٤] .

وفي خضم ذلك الجو الصاخب بدا لويس مهموماً ومستاءً بينما استمتعت إليانور بما تسمعه، لكن ما أصابها بالقلق ادراكها أن زوجها يحتاج إلى قدر كبير من التحضر والتمدن، ولأنها شخصية قوية جريئة حتى أنها تصدرت المائدة وقامت بواجب الضيافة بثقة وقوة لأنها تدربت على المراسم في القصور الكبرى، لقد تصرفت إليانوربشكل طبيعي فلم تتكلف أوتشعر بالحرج، فقد وقفت على المائدة ترحب بالضيوف وبقيت بجانب لويس مدة طويلة تتقبل التهاني من أتباعها، ولاحظت إليانورأن ضيوفها يحدقون النظر إلى لويس إذ شعروا بأنه يتصرف ويبدو كالرهبان، ومع ذلك شعرت هي بالسعادة من هدوئه ذلك، لأنها رأت أنها بذلك ستتمكن من تشكيله وتغييره حسب رغبتها وستجعل منه فارساً محارباً مثل والدها

Meade, Op.Cit., p. 37; Weir, Op.Cit., p. 24.

(1) Kelly, op.cit,p.7.

(2) Meade, Op.Cit., p. 38.

(3)Ibid, p.39.

(٤) لقد أحدثت القصائد والأغاني التي نظمها وليم التاسع، بما اتسمت به من جرأةٍ صريحة في تناول مواضيع الحب والملذات الحسية، تبايناً ثقافياً واضحاً في التلقي، فبينما حظيت تلك الأعمال بقبولٍ وإعجابٍ واسع في أوساط مجتمع الجنوب، فإنها قوبلت بصدمةٍ شديدة من قبل الفرنسيين الشماليين، وتحديداً المؤسسة الدينية ورجال الدين، الذين نظروا إلى تلك النصوص بعين الازدراء والإدانة الشديدة، عادّين إياها أدباً ماجناً يتنافى مع ضوابطهم القيمية والأخلاقية. يراجع :

Meade, Eleanor, op.cit, pp.38-39.

وجدها[١].

انطلقت الأبواق ورنّت الأجراس في يوم الأحد الموافق ٢٥ تموز ١١٣٧ بينما شقّ موكب الزفاف طريقه عبر شوارع بوردو المرصوفة بالحصى، وتم تزيين المنازل الواقعة على طول مسار موكب الزفاف بشكل غني باللافتات والزهور، وفي حفل مهيب دقت أجراس كنيسة سانت أندريه[٢]Saint Andre في بوردو، معلنة أن إليانور وريثة عرش أكيتاين ولويس ولي عهد فرنسا أصبحا زوجين بصورة رسمية بعد أن كتب عقد زفافهما جيفري رئيس أساقفة بوردو، وبعدها تقدم العروسان إلى منصة مخملية نصب عليها اثنانِ من العروش في مذبح الكنيسة، وظهرت إليانور في أبهى حلة، وكانت فائقة الجمال وفي غاية الروعة فقد ارتدت جلباباً قريمسيًا، ووضعت تاجاً من الذهب على رأسها كان قد أهداه لها عريسها[٣]، كما اجتمعت حشود كثيرة لمشاهدة العروسين، وبعد إتمام مراسم الزواج داخل الكنيسة خرج الزوجان إليهم، فتعالت أصوات الناس هاتفين بلانتي - بلانتي ,Plente plente أي كاف علينا ذلك كثير، وذلك تعبيراً عن مدى إعجابهم بجمال ومظهر إليانور، بينما تهامس الجميع على لويس الذي كان مظهره أشبه براهب[٤].

اختلطت أهازيج الشعب مع غناء المنشدين الذين كانوا ينشدون أنشودة الزفاف بشكل راق[٥]، وعلى الرغم من الترحيب الحار بلويس في بوردو، بدأ الأب سوجر قلقاً ومضطرباً، إلا أن هناك فئة كانت رافضة ذلك الزواج وعملت على إثارة الفتنة لعدم إتمامه، وكان على رأس أولئك الكونت أنغوليم count of Angouleme الذي لم يحضر حفل الزفاف، وقد أثارت تلك الفتنة مخاوف الأب سوجر على لويس[٦].

وفي تلك الأجواء التي طغت عليها السرية التامة، أتمَّ جيفري مراسم تتويج لويس السابع دوقاً على أكيتاين، وقد استغل سوجر وأعوانه انشغال الحشود والضيوف بمظاهر الاحتفال الصاخبة لتنفيذ خطتهم؛ فبينما كان ضيوف إليانورغارقين في نشوة الشراب احتفاءً بها، وعامة الشعب منهمكين بلهفة في التهام ما جاد بهِ مطبخ القصر من ولائم فاخرة تنوعت بين المأكولات البحرية واللحوم والمشويات والفطائر، جرى تهريب الزوجين من القصر في منتصف النهار على عجل، حيث غادرا المكان خلسةً دون أن تلتفت إليهم الأنظار أو يشعر بمغادرتهم أحد[٧].

---

(1) Meade, Op.Cit., p. 40.
(2)Richard, Alfred, Histoire des comtes de Poitou, 778-1204. 2 Vols, Paris, 1903, P.61.
(3) Kelly, Op.Cit., p. 7-8; Meade, Op.Cit., p. 40; weir op.cit, p 25-26; Pernoud, Op.Cit., p. 13; Seward, Op.Cit., p. 22.
(4)Meade, op.cit, p .40.
(5) Kelly op.cit, p .7.
(6) Meade, Op.Cit., p. 41.
(7)Meade, Op.Cit., p. 41; Kelly, op.cit, p 8; Pernoud, op.cit, p 22; Seward, op.cit,P 23.

أخذ سوجر كافة الاحتياطات، وتجنب الطرق المؤدية إلى القلاع المعروفة لأتباع وليم العاشر، وذلك تحسبًا لوقوع أي كمين[١]؛وصل الموكب الملكي إلى بواتييه، وقد استقر الزوجان في القصرالخاص المعروف باسم موبيرجين Maubergeonne، الذي بناه وليم التاسع لزوجته الكونتيسة من شاتيلرو Countess of Chatellerault [٢] وما أن استقرت إليانور قليلاً في قصرها حتى أمرت بتنظيم ترحيب يليق بمكانة ضيوفها البارزين، وأسهبت في تقديم الهدايا لزوجها الذي كان من أبرزها وأكثرها شهرة عبر التاريخ مزهرية إليانور التي صنعت من الماس الخالص ومحلاة بالذهب واللؤلؤ والأحجار الكريمة والزئبق فضلاً عن الشعار الملكي لفرنسا، وقد نقش على تلك المزهرية بعض النصوص التي تقول **" قدمت إليانور هذهِ المزهرية إلى الملك لويس وقد ورثتها من جدها وليم لتاسع"**[٣] ، وقد تبرع بها الملك إلى الأب سوجر كي يزين بها كنيسته الجديدة التي بنها في دير القديس دينس[٤] .

استدعت إليانور الشعراء المتجولين لاستئناف الحفلات وأقيمت الولائم، وقدم رجال الدين والشعب، للاحتفال بتنصيب لويس ووضع الإكليل[٥] على رأسه ليكون من نبلاء بواتييه[٦]. بقي لويس ومرافقيه لعدة أيام في بواتييه وتلقى التحية من جميع الأتباع الذين كانوا غير متحمسين ذلك الزواج ولم يقدموا له التحية باكراً، وفي بادرةٍ سخية تعكسُ بالغ كرمها وحفاوة استقبالها لزوجها وضيوفه، نظمت إليانور رحلة ترفيهية اصطحبتهم فيها إلى قرية تالمو Talmo الساحلية للاستمتاع بصيد الأسماك، ولم يكن اختيار تلك الوجهة محض صدفة، بل كان استحضاراً لإرث المكان الذي دأب والدها، وليم العاشر،على اللجوء إليه طلباً للراحة والاستجمام، كان المسؤول عن تالمو شخص يدعى وليم دي ليزي Willem de Lisi إذ رفض القدوم لتقديم الولاء والطاعة للويس وقبوله كدوقاً على أكيتاين، ذلك صمم لويس على التوجه إليه مع مجموعة من فرسانه لتلقينه درساً إلى جانب التمتع برحلة الصيد والرياضة، يضاف إلى ذلك أن وليم قام بسرقة الصقور البيضاء الخاصة بالدوقة إليانور، التي كانت نادرة وباهظة الثمن، وطالب بمبلغ كبير مقابل إرجاعها[٧].

وصل فرسان الأمير إلى مدينة تالمو فقام وليم دي ليزي وأتباعه باحتجازهم وبعد وصل الأمير وأتباعه اصطدموا مع هؤلاء، ووصل الأمر بينهما إلى تدخل الأمير شخصياً في

---

(1) Kelly, Op.Cit., p.8.

(2) Meade , Op.Cit., p. 41.

(٣) تذكر المصادر أن وليم التاسع استلمها كهدية من ملك مسلم وهو اخر ملوك سرقسطة في اسبانيا ، من أسرة بني هود عبد الملك بن أحمد بن هود الملقب بـ"عماد الدولة" وهذه المزهرية موجودة الان في متحف اللوفر وهي البقايا المادية الوحيدة من حياة إليانور التي لاتزال موجـودة في العصـر الحديث . يراجع:

George T.Beech,TheEleanor of Aquitaine vase-WilliamIX of Aquitaine ,and Muslim spain,chicago Jourals,published by university of chicago,voL32,no1,1993,p3-10.

(4)Swabey, Op.Cit., p.115.

(٥)الإكليل: هو التاج أو عصابة تزين بالجواهر أو طاقة من الورد أو الزهر على هيئة تاج وهي من مراسم وطقوس المسيح عند الزواج والتتويج . يراجع : مسعود جبيران ، المصدر السابق، ص ١١٤.

(6) Meade, Op.Cit., p. 41.

(7) Ibid, p. 42.

العراك، وانتهى الأمر بهزيمة وليم دي ليزي وهروبه[١].

سيطر لويس على الوضع، وكانت أول تجربة له استخدم فيها سيفه، فقام بقطع يد وليم ومن شاركه في تلك السرقة، باستثناء عدد قليل استطاعوا الهروب إلى البحر من خلال ممر في القصر، وقد عدَ البعض موقف لويس من وليم وأتباعه لإظهار الشجاعة أمام إليانورعلى الرغم أن مظهره العام لم يكن يشبه القادة، وهكذا أتقن الزوج المتردد الخجول كيف يستطيع الفوز باحترام زوجته، كما قامت هي بتدعيم زوجها بالمديح والإطراء الزائف، وعملت من وقتها على تحويله إلى محارب عظيم وجرئ[٢].

تزامنت الاستعدادات الجارية لانتقال العروسين من بواتييه إلى باريس مع دخول الملك لويس السادس في نزع الموت الأخير، إذ اشتد عليه المرض لدرجة أيقن معها بقرب أجله؛ فبادَر باستدعاء أسقف باريس إتيان دي سينليس Etienne de Senlis (١٠٧٠ – ١١٤٢)، ورئيس دير القديس فيكتور جيلدون gilduin ector معرباً عن أمنيته في أن توافيه المنية في سانت دينس، إلا أن وهن جسده وتدهور حالته الصحية حالا دون نقله، فبُسطت له سجادة نُثر حولها الرماد على هيئة صليب، ليفارق الحياة بعد لحظات وجيزة في آب عام ١١٣٧، وعقب الوفاة مباشرة، برزت معضلة عدم تجهيز قبر مسبق للملك، مما استوجب تحركاً عاجلاً من أتباعه لتأمين موضع في مدافن الملوك بكنيسة سان دينس قبل بدء مراسم الجنازة، لا سيما في ظل موجة الحر الشديدة وتضخم جثة الملك المريضة، الأمر الذي أنذر بتحللها السريع وانبعاث روائح كريهة لا تليق بمقام الملك ولا تحتمل التأخير إكراماً لرفاته، وفي ذلك السياق، شرع رهبان القديس دينس في الحفر بالمقبرة الملكية مقترحين موقعاً عند سفح مذبح الثالوث المقدس محاذياً لقبر الإمبراطور شارل الأصلع، لكنهم اصطدموا بوجود رفات كارلومان الثاني Carloman II (٨٦٦- ٨٨٤)، وبينما طُرحت فكرة نبش قبر كارلومان لإحلال لويس السادس محله، احتج الرهبان بشدة تمسكاً بالقانون والأعراف التي تحظر نبش قبور الملوك، وفي خضم تلك الحيرة، تم العثور في الموقع ذاته على مساحة خالية تناسبت أبعادها بدقة متناهية مع جثمان لويس السادس، فدُفن فيها وفق العرف الملكي، مع إرجاء إغلاق القبر نهائياً لحين إقامة حفل التأبين الرسمي برعاية الملك الجديد[٣].

وفي أثناء سير الموكب الذي يقل العروسين إلى باريس، قدم إليهم وفد من القصر الملكي يتقدمهم الرهبان والفرسان حاملين إلى لويس خبر وفاة والده لويس السادس، وطلبوا منه الإسراع في القدوم إلى باريس ليتقدم مراسم تأبين والده واستلام العرش[٤].

استقبل لويس نبأ وفاة والده بمشاعر فيّاضة من الحزن والبكاء، مما دفعه إلى إرجاء عودته والبقاء في موقعه مدة وجيزة إجلالاً لروح أبيه وتكريماً لذكراه، في حين قد يبدو وصف المؤرخ غوبري (Gobry) لردة الفعل مبالغاً فيه-لا سيما وأن لويس السادس كان يعاني

---

(1)Weir, Op.Cit., p. 25.
(2) Weir, op.cit, p 27.
(3)Suger, Op.Cit., p.158-159; Gobry, Louis vi, p 307-308.
(4) Gobry, Louis vi, p. 319.

صراعاً طويلاً مع المرض جعل من رحيله أمراً متوقعاً-إلا أن المؤرخ استند في تبريره إلى الطبيعة النفسية لرجال العصر الوسيط، الذين اتسموا بحدة الانفعالات وتطرفها؛ فعلى الرغم من أن حياتهم كانت محفوفة بالمخاطر واعتيادهم حمل السلاح واستعدادهم الدائم للموت أو الإصابة في ساحات القتال، إلا أن حقيقة الفقد عند وقوعها كانت تخلّف أثراً نفسياً عميقاً وحزناً بالغاً في نفوس رفاقهم [١].

قلق المستشارون في باريس من تأخر لويس في القدوم لاستلام مقاليد الحكم، وكانوا أكثر خشية من أن يستفيد بعض المتمردين من قلة خبرة لويس وذلك لصغر سنه، ويستولوا على عرش فرنسا[٢].

يتضح مما سبق أن زواج الملك لويس السابع من إليانور دوقة أكيتاين مثل حدثاً جيوسياسياً مفصلياً في تاريخ فرنسا الوسيط، إذ شكّل طوق نجاة للعرش الفرنسي مكّنه من التوسع الجغرافي والاقتصادي المفاجئ للسيطرة على ربع مساحة البلاد وأغنى مقاطعاتها، وعلى رغم من الدور المحوري الذي لعبته المؤسسة الكنسية في هندسة ذلك التحالف لضمان الانتقال السلس والمزدوج للسلطة إلى الملك الشاب الذي واجه أعباء حكم معقدة ومبكرة، إلا أن ذلك الارتباط حمل بذور فشله منذ اليوم الأول، فقد اتسمت العلاقة بتناقض ثقافي ونفسي صارخ بين جنوب متحرر تقوده دوقة قوية ومستقلة، وشمال صارم ومحافظ يمثله ملك ذو طباع أقرب للرهبنة؛ مما أنتج تحالفاً هشاً بُني على المصالح البحتة وافتقر للانسجام الشخصيو وفي المحصلة، أدى ذلك التباين الجذري الذي تعذر ترويضه إلى تقويض ذلك الانتصار السياسي المؤقت، وأسفر لاحقاً عن تحولات تاريخية دراماتيكية كلفت فرنسا فقدان ذلك الإرث الجغرافي العظيم لصالح التاج الإنكليزي.

---

(1) Gobry Louis vi,p319.

(2) Gobry, Louis vii, p320.

الفصل الاول

سياسة فرنسا الداخلية في عهد الملك لويس السابع

١١٣٧- ١١٨٠

أولاً. لويس السابع ملكاً على فرنسا ودوره في الأحداث (١١٣٧- ١١٤٥):

١. تتويج لويس السابع ملكاً لفرنسا في عام ١١٣٧.

٢. المشاكل التي تعرض لها الملك لويس السابع في المدة (١١٣٧-١١٤٥).

ثانياً. سياسة لويس السابع بعد عودته من الحملة الصليبية الثانية ١١٤٩-١١٨٠:

١. أوضاع فرنسا الداخلية بعد عودة الملك لويس إليها.

٢. طلاق الملك إليانور وعودتها إلى مقاطعاتها في الجنوب.

٣. سياسة لويس السابع تجاه اليهود.

٤. وفاة الملك لويس السابع وتنصيب فيليب اغسطس ملكاً على فرنسا.

ثالثاً : المنجزات الحضارية والسياسية في عهد الملك لويس السابع.

أ- الحياة الثقافة :

ب- العمارة :

ت- النحت والرسم :

ث- المدارس والادب:

ج- الفكر اللاهوتي :

ح- الإدارة الحكومية:

١- البلاط الملكي :

٢- باريس مركز السلطة :

٢- إصلاحات لويس السابع ضد وراثة المناصب الإدارية:

٤- اصلاحات لويس السابع الخاصة بالأقنان:

٥- سياسة الملك لويس السابع في تأسيس المدن الجديدة:

أولاً . لويس السابع ملكاً على فرنسا ودوره في الأحداث (١١٣٧- ١١٤٥):

شكلت المدة الواقعة بين عامي (١١٣٧- ١١٤٥) مرحلة مفصلية وشائكة في تاريخ الملكية الفرنسية، إذ شهدت اعتلاء الملك الشاب لويس السابع سدة الحكم، حاملاً معه نزعة دينية عميقة وتكويناً يميل إلى حياة الرهبنة أكثر من ميله إلى دهاء السياسة ومناوراتها، ويسلط الضوء على البدايات المضطربة لعهده، والتي اصطدمت فيها رؤيته المثالية والزاهدة بتعقيدات الواقع الإقطاعي من جهة، وبطموحات زوجته القوية إليانور أكيتاين من جهة أخرى، والتي شكلت نقيضاً صارخاً لشخصيته بثقافتها المتحررة وتطلعاتها السياسية، وتبرز أهمية تلك الحقبة التأسيسية في كونها ساحة اختبار حقيقية لسلطة التاج الفرنسي في مواجهة تحديات قاسية، تمثلت في محاولات فرض السيطرة على المقاطعات المتمردة، والتعامل مع حركات الاستقلال في المدن الناشئة، وصولاً إلى الصدامات الحتمية والمريرة مع الكنيسة والبابوية حول حدود الصلاحيات والتعيينات الأسقفية، وقد أفرزت تلك النزاعات الحادة بين السلطتين الزمنية والروحية أزمات متتالية، بلغت ذروتها المأساوية في حريق مدينة فيتري، وهي الحادثة التي تركت ندوباً غائرة في نفسية الملك ووجهت مسار حكمه اللاحق نحو مسالك التكفير عن الذنب والبحث عن الخلاص الروحي.

١. تتويج لويس السابع ملكاً لفرنسا في عام ١١٣٧.

وصل الملك الشاب لويس إلى باريس بسلام برفقة زوجته إليانور أواخر آب ١١٣٧، بصفتهما ملكًا وملكة على فرنسا، وكان الفرسان على علم بموعد وصول الملك والملكة لذلك امتطوا خيولهم ووقفوا في انتظار وصولهما، وقد استقبل أهالي باريس الملك الجديد أحسن استقبال، ورحبوا بهِ ترحيباً عظيماً، واصطفت الجماهير المتحمسة لاستقباله على جوانب الطريق من اللوردات والأساقفة[١].

عقب الانتهاء من المراسم الرسمية لتشييع جثمان الملك لويس السادس، واصل الملك لويس السابع مسيره نحو القصر الملكي، ماراً من تحت أقواس السلام المكسوة بأغصان الزيتون، ويُعد ذلك المرور تقليداً راسخاً اتبعه ملوك فرنسا قبل ولوجهم القصر، حيث يحمل أبعاداً ريمسية ودينية تيمناً بالمسيح، وإشارةً جلية إلى زيت الزيتون المقدس الذي يُسبغ على الملك شرعيته، ولترسيخ دعائم حكمه[٢] تقرر إقامة مراسم إعادة تتويج لويس السابع بالتزامن مع يوم عيد الميلاد في كاتدرائية القديس إستيفان في بورجيه Cathedrale de bourges [٣]، وكان الغرض من إعادة تتويج لويس السابع حتى يطمئن ويتأكد أن السيادة له

---

(1) Gobry Louis vi, p .310; Kelly,op.cit., pp. 13 -53

(2) Weir, op.cit., p 28; Meade, op.cit., p.43.

(٣) كاتدرائية بورجيه: تتربع كاتدرائية بورج في مدينة بورج الفرنسية كصرحٍ ديني كاثوليكي مهيب مُكرس للقديس استيفان، وتكتسب أهمية خاصة بصفتها مقراً لرئيس أساقفة المدينة، شُيدت هذه التحفة المعمارية والتي كانت مبنى بسيط على الطراز الرومانسكي والذي كان قائمًا قبل بناء الكاتدرائية بين عامي ١١٩٥ و١٢٣٠ فوق أطلال كنيسة رومانية سابقة، لتُجسد ببراعة ذروة العمارة القوطية الكلاسيكية، وتزامن بناؤها مع مدة تشييد كاتدرائية شارتر الشهيرة، وتستمد الكاتدرائية مكانتها المرموقة من ضخامة بنيانها وتناغم فضائها الداخلي، إلى

على الرغم من تتويجه قبل بضع سنوات، وحصوله على موافقة الجميع، إلا أنه فضل أن يتوج رسميًا مرة أخرى لضمان السلطة بلا منازع، واستعد لحفل التتويج ببذخ كبير، وقد انتقدت الملكة إديلايد والدته ذلك البذخ واعتقدت أنه ربما يعرض خزينة الدولة للخطر[١].

استدعى لويس المجلس الملكي،وحضر أفراده برئاسة الأب سوجر، وطلب من الحاضرين استمرار إخلاصهم، ودعمه بعد تتويجه، عندئذ عارضت الملكة الأم تتويج ابنها لويس ورأت بأنه لا زال صغيراً ويحتاج وصياً عليه[٢]، وبناء على ذلك وبطريقة سرية قامت إديلايد بالاتصال بأعضاء المجلس الملكي، واقترحت أن تتبع تلك المعارضة من المجلس نفسه، وقد وافق بعض الأعضاء على اقتراح الملكة وعارضه آخرون، وكان على رأس المعارضين الأب سوجر الذي رأى أن في عدم تتويج لويس خطر يهدد الملكية الفرنسية[٣].

تم تتويج لويس تحت مسمى لويس السابع، ولم يرق ذلك التتويج لبعض الأعضاء وعلى رأسهم الملكة إديلايد [٤]، ويلاحظ إن قصة التتويج والإسراف فيه لا تتلاءم مع زهد لويس وتواضعه، الذي كان بعيداً كل البعد عن مظاهر الترف سواء كان في لباسه أو مظهره، ولعل المحرك الأساس لذلك زوجته إليانور المحبة لتلك المظاهر؛ وبعد أن تم تتويج لويس السابع عاد إلى دراسته وانضباطه في دير كنيسة نوتردام فكان يصوم يوم الجمعة مع الرهبان ولا يفطر إلا على الخبز والماء، محافظاً على أداء صلواته والترنم بالأناشيد الدينية، وكان تقياً وبسيطاً جدًا في لباسه لدرجة أن الذي لا يعرفه صعب جدًا أن يخمن أنه ملك، فسلوكه ولباسه يدل دلالة قاطعة على أنه راهب[٥] .

وقد قام سكرتير لويس السابع المؤرخ أودو ديويل Odo of Deuil (١١١٠ - ١١٦٢) برسم صورة مؤثرة إلى سيده واصفاً حالته:**" كانت حياته كلها نموذجية وصورة من الفضيلة وعندما كان صغيراً بدأ يحكم، ولم يمثل المجد الدنيوي أي متعة حسية له"** لقد كان تشدد لويس بالتدين والشؤون الكنسية سبباً في خلافاته ومشاكله المستقبلية مع إليانور[٦]، وعلى الرغم من الحياة الدينية التي عاشها لويس؛إلا أنه من الناحية السياسية رأى أن يسير على نهج والده في الحفاظ على حقوق التاج الفرنسي، وتوسيع مركز السيادة الملكية والحد من طموحات أتباعه، كما أنه بسط سلطته على كل أنحاء فرنسا من خلال إصدار قوانين إلى المدن، كما سار لويس خطوات واسعة في الإصلاح ليثبت للشعب أن الإدارة الحاكمة

جانب الثراء الفني الذي يظهر جلياً في الزخارف النحتية لبواباتها ومجموعتها النادرة من نوافذ الزجاج الملون التي يعود تاريخها إلى القرن الثالث عشر الميلادي. يراجع حول الكاتدرائية:

Robert Brunner, Burg Cathedral and its place in Gothic architecture, Architectural History Foundation, University of Michigan, 2007.

(1)Meade, op.cit., p 43; Gobry, Louis vii, p .60.

(2)Gobry, Louis vii, p. 60-61

(3)Ibid, p 60-61; weir, op.cit., p.34.

(4)weir, op.cit., p.34.

(5) Meade, op.cit., p. 45; Kelly, op.cit., p.13; Weir, op.cit., p.31.

(6)Richard, Alfred , op.cit., p.60.

أصبحت أكثر كفاءة وكان يتم كل ذلك بمساعدة الأب سوجر[١]، وبعد أن أصبح لويس ملكًا أراد أن يرد الجميل لسوجر وزير والده، الذي بذل جهده في الحفاظ على سلطته ضد أي تمرد، فعينه كبير المستشارين لمساعدته في حكم مملكته، فلويس كان لا يزال شاباً تنقصه الخبرة، لذا فالاعتماد على رجل كبير في السن ذي حكمة قد يعزز من سلطة الملك وهيبته[٢].

لم تكن سنوات الزواج الأولى هانئة بالنسبة لإليانور؛ فقد شعرت بوطأة الاختلاف الشاسع بين حيوية موطنها في أكيتاين وسكون باريس المطبق، وحين قادها لويس عبر درج البرج الحجري السميك نحو غرفتها، اصطدمت بواقع إقامةٍ يفتقر إلى الراحة والدفء الملكي؛ إذ لم يكن يبعث الحرارة في المكان سوى بضع جذوع مشتعلة ملأت الأجواء بدخان ضبابي خانق، لقد اتسم القصر الملكي بالكآبة وضيق منافذ الضوء والتهوية، حتى أن ثقوبه الضيقة كانت تحجب رؤية نجوم السماء أو مياه النهر في الأسفل، أما مخدعها الخاص، فكان ضيقاً ومعتماً يشبه صوامع الأديرة أكثر من كونه جناحاً ملكياً، ولم يكن يكسر حدة هذا الجمود سوى حديقة الفناء التي مثلت البقعة الوحيدة النابضة بالحياة بأشجار الصفصاف والتين والكمثري[٣].

كانت الشوارع في باريس صاخبة ومزدحمة خلف أسوار القلعة ، وكان الباعة يصرخون بأسعار الخبز والمعجنات، وكانت الماعز والخنازير تتجول على طول الطرق الترابية، وكانت النساء خجولات ومهذبات، وملابسهن تفتقر إلى الأناقة والذوق، أما الرجال فهم بخلاء وأجلاف يبدون أكثر جدية من أهل أكيتاين المرحين الذين كانت إليانور تعيش معهم، ولذا قامت إليانور بإدخال تغييرات عديدة في القصر واهتمت بأدق التفاصيل، وأصرت أن توزع في المجالس مفارش المائدة والمناديل ووضعت الخدم تحت إدارة صارمة وأمرتهم بغسل أيديهم بصورة متكررة، فضلاً عن أنها غيرت مديرة القصر إلى واحدة من اختيارها[٤].

حاولت إليانور نقل حياتها المليئة بالرفاهية والغنى والسهر إلى القصر، فدعت الشعراء المتجولين والمغنين وعدداً من الفنانين لإداء المسرحيات ودفعت الأموال للمشاهير للترفيه عنها وعن ضيوفها، إذ استغلت حب لويس لها فأنهكت الخزينة الملكية بمصروفاتها المبالغ بها على ثيابها غير المحتشمة، ومجوهراتها وعلى ما تصرفه في الحفلات الغنائية على لهوها، وغير ذلك مما لم يعتد عليه القصر ولا نساء باريس، مما أدى إلى إستياء واستنكار النبيلات اللاتي تحاشين الاختلاط بها[١].

كانت تصرفات إليانور حيال التغيرات التي أحدثتها في القصر هي القشة التي قصمت

---

[١] كان الأب سوجر يحب لويس السابع ويعده ابناً له وقد استمر يمارس دوره على عهده بإخلاص شديد فكان له الفضل في حفظ الإدارة الملكية من الانهيار في ذلك العهد . يراجع : محمد عبد النعيم ، تاريخ اوروبا في العصور الوسطى ، دار الثقافة العربية ، القاهرة ، ٢٠٠٦ ، ص ١٨٠ – ١٨١ ؛ نور الدين حاطوم ، المصدر السابق ، ص ٨١٤ – ٨١٥ ؛ محمد مرسي الشيخ ، المصدر السابق ، ص ٤٢٠ – ٤٢١ .

[2] Gobry, Louis vii, p.61.

[3] Amy Kelly, op.cit., pp.10-12.

[4] Meade, op.cit., p. 43; weir, op.cit., p. 29.

ظهر البعير، فمنذ قدومها إلى باريس وإقامتها في القصر لم تكن محبوبة لدى الملكة إديلايد، إذ ذكرت معظم كتاب سيرة إليانور أن والدة لويس كرهت زوجة ابنها منذ البداية، فنشبت بينهما عداوة وخلافات لم تنتهِ،فقد تدخلت إليانور بشؤون القصر التي كانت من اختصاص الأم إديلايد قبل مجيئها، وعندها اضطرت إديلايد أن تغادر البلاط وتركته لإليانور، وعلى الرغم من انتصار الملكة إليانورعلى إديلايد، إلا أنها لم تحظ بقدر كبير من النجاح مع زوجها، الذي لم يتحول إلى الفارس الوسيم الذي كانت تأمل أن يتحول اليه [٢].

وبالموازاة مع التوترات العائلية، واجهت إليانور انتقادات دينية لاذعة قادها برنارد، رئيس دير كليرفو، الذي استهجن بشدة مظاهر البذخ والتبرج وعدم الاحتشام التي اتسمت بها إليانور ورفيقاتها، وقد جرى أول لقاء بين إليانور وبرنارد خلال مجلس سينس Sens عام ١١٤٠، الذي حضره الملك لويس أيضاً، وهو المجلس الذي عُقد أساساً لمناقشة وإدانة نظريات الفيلسوف الفرنسي بيتر أبيلارد Peter Abelard (١٠٧٩- ١١٤٢)، وعلى الرغم من أن برنارد كان معروفاً بتسامحه في قضايا أخرى وسعيه لمحبّة أعدائه، إلا أنه وقف موقفاً متشدداً ضد أبيلارد ونظرياته العقلانية المثيرة للجدل حول الثالوث المقدس، إذ كان برنارد يؤمن بانتصار الإيمان على العقل، مما جعل المواجهة في ذلك المجلس حتمية لإنهاء الجدل القائم[٣].

حاولت إليانور أن تحول لويس السابع من راهب إلى فارس أنيق، لكنها أدركت أن ذلك لن يحدث بسهولة، لذا كان عليها أن تستغل حبه الشديد لها بما لديها من أنوثة وجمال، فسيطرت عليه من دون اصطناع أو تكلف، فلويس كان لا يعرف كيد النساء، كما أنه كان قليل الخبرة في التعامل مع مشاكل الحياة، لذا فقد استطاعت أن تفرض نفوذها عليه مستغلة ضعف شخصيته؛ وعلق أحد أصدقاء الملك قائلاً : **"لقد أحب الملكة أكثر مما يتصور العقل"**[٤].

كان هناك فارقًا قويا بين تدين لويس وتبرج إليانور، فقد كان لويس يحيط نفسه بالكهان ويستشيرهم ويسألهم النصح، مكيفا حياته على حسب ما تقتضي تعاليم الكنيسة، أما إليانور فكانت عكس ذلك تمامًا، فقد اعتادت في بلاط أكيتاين على عدم احترام رجال الدين، والسخرية منهم، فلم تكن تكترث لأوامر الأساقفة، ولأن شخصيتها كانت هي الأقوى لذا استطاعت أن تجعل الملك يتخذ موقفاً تجاه رجال الدين يخالف ميوله الدينية، كما أسهمت في تحرير نظام الإدارة لديه من أي ضابط ديني[٥]، أن حب لويس المفرط لإليانور جعله يرضخ

---

(1) Meade, op.cit., pp.44-45; Weir, op.cit., p.29; owen, op.cit,p.17.

[٢] نور الدين حاطوم ، المصدر السابق، ص ٨١٢.

[٣] روزنتال، ب . يودين، الموسوعة الفلسفية، ترجمة: سمير كرم ، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت،د.ت، ص٩.

Weir, op.cit., p34; Meade, op.cit., p. 44; owen, op.cit,p. 17.

(4) Meade, op.cit., p .45.

[٥] نور الدين حاطوم، المصدر السابق، ص ٨١٢ – ٨١٣ .

لنفوذها، وقد كان من قبل راضخاً لنفوذ والدته الملكة إديلايد، ومن ثم لنفوذ رجال الدين الذين تربى على أياديهم[١].

حاول سوجر أن ينصح الملك الشاب لويس السابع باتباع سياسة يكسب بها صداقة أتباعه، بعد أن أدرك أن كلاً من لويس وإليانور لم يكونا على قدر المسؤولية فهما غير ناضجين بصورة كافية لممارسة السلطة والمسؤولية، لذا حاول أن يجعل نفوذ إليانور مقتصراً على المجال الداخلي، ويتولى هو أمر لويس، لكن كان من الصعب عليه أن يسيطر على ما يجري بين إليانور ولويس في خصوصياتهما، وكانت إليانور من البداية تستاء من الأب سوجر وعدداً أخر من القساوسة الذين سيطروا على الملك والإدارة، وأصَرت أن يتخذ لويس قراراته بعيداً عنهم وأن يعتمد على نفسه، وأن يستعين بها عند الحاجة لأنها على دراية بأمور الحكم[٢] ، وقد ذكر الأب سوجر:**"أنه تم طرد عدد كبير من مستشاري الملك بعد الزواج بينما الذين بقوا في السلطة لم يكن أمامهم سوى تكييف أنفسهم وفقاً للتغيرات التي أحدثتها إليانور"**، وفي نهاية المطاف، نجحت إليانور بذكاء في استغلال طبيعة شخصية الملك لويس [٣]، لإبعاد سوجر عن البلاط الملكي، محبطةً بذلك كافة محاولاته لتحييد نفوذها، مما أسفر عن الإيقاع بالملك في سلسلة من الأزمات والأخطاء السياسية [٤].

٢. المشاكل التي تعرض لها الملك لويس السابع في المدة (١١٣٧-١١٤٥).

كان لويس السابع شاباً متفانياً في عبادته الدينية، ومتسامحاً مع رعاياه بصورة غير عادية، إلا أنه كان يفتقر للقوة، مما جعله يواجه العديد من المشاكل، لاسيما أنه سمح لنفسه أن تحكمه مشاعره فتخلى عن مثله العليا، وأصدر العديد من القرارات غير الصائبة، والتي كان بعضها له عواقب وخيمة أوقعته فيما لا يحمد عقباه، أما إليانور فقد شعرت أنها مؤهلة لتقديم المشورة للويس في المسائل المتعلقة بالمملكة الفرنسية، إلا أن طموحها لم يثبت نجاحه في العشر السنوات الأولى من قدومها إلى فرنسا[٥]، تمثلت أولى التحديات التي واجهت الملك لويس السابع في مدينة أورليان،وترجع أصول المشكلة إلى ستين عاماً مضت،عند ظهور حركة الكومونات[٦] التي أرادت أن تتحرر من الإقطاع، وأن يكون للكومون كيان سياسي واقتصادي مستقل[٧]، يمكن القول إن نجاح ثورة كولونيا[١] عام ١٠٧٥ ضد أسقفها ونجاح

---

(1) Kelly, op.cit., p.15.

(2)Meade, op.cit., p. 49; Weir, op.cit., p.32.

(٣) نور الدين حاطوم، المصدر السابق ، ص ٨١٢ .

(4) Meade, op.cit., p. PP. 49-50; Weir, op.cit., p..32.

(5) Meade, op.cit., p 52; Weir, op.cit., p 31.

(٦) حركة الكومونات : تعني لفظ كومون Commune المدينة التي تتمتع بالاستقلال السياسي والحكم الذاتي وفقا لقوانين وتنظيمات تخدم مصالح الطبقة التجارية ويختار أهلها حكامهم وموظفيهم بأنفسهم من دون أن يكون هناك مندوب من قبل سيد أو حاكم خارجي يتحكم فيهم. يراجع: عادل زيتون ، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، ج١ ، دار دمشق، ١٩٨٠ ، ص ٣٠؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، موسوعة الثقافة التاريخية والأثار الحضارية ، حضارة أوروبا في العصور الوسطى، ج ٢، دار الفكر العربي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ، ٢٠٠٦ ، ص ٥٠.

(7) Meade, op.cit., pP. 50-51.

الحلف اللومباردي الذي حصل على حقوقه في الحكم الذاتي من الامبراطور فردريك بربروسا (١١٢٢-١١٩٠)Frederick Barbarossa [٢]، لم تلبث ان اصبح نجاح هذهِ الثورات مثلاً احتذت بهِ بقية المدن الأوروبية في بروفانس(جنوبي شرقي فرنسا، مارسيليا Marseille، وآرل Arles، وأفينيون Avignon) وحوض نهر الراين وفلاندرز للحصول على سيادتها، حيث أخذت المدن تنتزع من سادتها الإقطاعيين اعترافات بحقوقها فازداد عدد البراءات والعهود الإعفائية التي حصلت عليها تدريجيا[٣].

أظهر الملك لويس السادس مرونة عظيمة في تعامله مع بعض المدن الناشئة في شمالي فرنسا مسايرة منه لنشاط الحركة الكومونات، فمنح كثيراً من تلك المدن الناشئة براءات ساعدت على تحريرها وتجنب بذلك معادات تلك المدن وحكوماتها الناشئة، إذ إنه رأى فيها أداة لكبح قوة كلا من البارونات والكنيسة[٤]، ومن تلك البراءات ما منحه الملك لويس لمدينة لور Lorres في وادي نهر اللوار الأعلى Loire ، فقد نص المرسوم الملكي على أن لكل من يسكن المدينة منزلاً وقطعة أرض بإيجار محدد، وأن من يعيش بالمدينة سنة كاملة ويوماً واحداً يصبح حراً، كما أعفى سكانها من بعض الحقوق الإقطاعية مثل الخدمة العسكرية أو العمل سخرة وأصبح من غير الجائز أن يحاكم سكانها خارج مدينتهم، لكنهم يخضعون لإجراءات معينة في التقاضي ويدفعون غرامات أو يمضون عقوبات على الوجه المبين في قانون المدينة بالتحديد[٥].

عندما ظهرت حركة الكومونات في البلاد التابعة للملك، كما حدث في مدينة أورليان كان الأمر مختلفاً، وعندما اعترض أفراد الطبقة النبيلة في هذه المدينة على الضرائب الباهظة وطالبوا بحصولهم على صك البراءة رفض لويس السادس تلبية طلبهم، لذلك انتهز أهل أورليان فرصة وفاته وتولي أبنه لويس السابع فقاموا بجعل مدينتهم قوموناً مستقلاً[١] .

بعد تسلم لويس السابع مقاليد الحكم، سار إليها لويس السابع وأعدم فوراً المتآمرين الذين سعوا إلى تعزيز العصيان المسلح في المنطقة، وقد تصرف لويس بوحشية حتى يقال إنه ملك قوي شديد إلا أنه بعد ذلك تراجع عن موقفه، ومنح أهل أورليان أكثر من الإصلاحات

---

[١] مدينة كولونيا : مدينة تجارية تقع شمال نهر الراين في غرب ألمانيا وهي إحدى أهم مدن العصبة الهانسية التجارية. يراجع: محمد صادق الكرباسي، دائرة المعارف الحسينية معجم المشاريع الحسينية ، ج٢ ، المركز الحسيني للدراسات ، لندن ، ٢٠١٥ ، ص ٣٣١ ؛ حسام الدين إبراهيم عثمان، المصدر السابق ، ص ١٦٥ .

[٢] بعد وفاة الإمبراطور الألماني كونراد الثالث (١١٣٨-١١٥٢) خلفه ابن أخيه فردريك الأول بربروسا (١١٩٠-١١٥٢) وكان شابا في الثلاثين من عمره امتاز بالشجاعة والفصاحة والكبرياء وسرعة الغضب والإيمان المطلق بعظمة الوظيفة الإمبراطروية وسموها، وقد أخذ فردريك يعمل منذ اعتلائه العرش على استرداد مكانة الإمبراطورية ومجدها المفقود وهو المجد الذي لا يتحقق في نظره إلا بالربط بين شطري الإمبراطورية في ألمانيا وإيطاليا. يراجع : هـ . ج . ولز ، معالم تاريخ الإنسانية ، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد ، مج ٣ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٤ ، ص ١٧٧ ؛ علية الجنزوري ، موسوعة الثقافة التاريخية والأثار الحضارية ، البابوية والإمبراطورية الرومانية ، ج٤ ، دار الفكر العربي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ، ٢٠٠٦ ، ص ٣٩ – ٤٠ ؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، أوربا في العصور الوسطى، ص ٣٦٠.

[3]Cambridge. Medieval. History, 8 Vols. London, 1928, Vol. 4, PP. 218-219.

[٤] مرسي الشيخ ، المصدر السابق ، ص ٤١٩ .

[٥] احمد علي اسماعيل ، دراسات في جغرافية المدن ، دار الثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٥ ، ص ٧٩ – ٨٠ .

المطلوبة، حتى لا يقال عنه بأنه من الطغاة، وعليه فقد فكان التردد سمة من سمات معظم تصرفاته السياسية والتي كان لها تأثير على مستقبلة السياسي حيث قامت حركات مماثلة لها في مدن الجنوب[٢].

على صعيد آخر، واجه التاج أزمة مستحدثة في أكيتاين أواخر عام ١١٣٧، فبعد مرور بضعة أشهر على استيعاب شعب أكيتاين للتغييرات السياسية فيها بعد وفاة وليم العاشر، وتحول ميراثه إلى زوج ابنته لويس ومغادرة إليانور إلى باريس، فقد اعترض بعض المواطنين في أكيتاين وبواتييه وترددوا بأن يضعوا أنفسهم في أيدي ملك عتبروه أجنبيًا عنهم لمجرد أن أراضي زوجته أصبحت جزءًا من بلده، فتنكروا رسمياً لسلطة الملك لويس السابع وأعلنت أكيتاين نفسها مدينة حرة مستقلة عن حكومة لويس، فكانت ضربه قويه ومفاجأة في حق هيبة الملك لويس وزوجته[٣].

واجه لويس ذلك الخبر بغضب شديد فأمر بتجهيز جيش من الفرسان مدججاً بالأسلحة تتقدمهم آلآت الحصار، وأصدر تعليماته للجيش بالزحف نحو المدينة المتمردة ، وكان بإمكان لويس أن يسيطر على الوضع بمنتهى السلمية من دون وقوع أي ضرر، لكنه لم يتعامل بدبلوماسية مع أهالي أكيتاين، فروع السكان وأصدر أحكاماً تعسفية ضدهم اذ أمر بقطع أيدي كل زعيم من زعماء المتمردين، وشردهم مع نسائهم وأطفالهم خارج حدود أكيتاين، وألزم التجار بحمل أبنائهم وبناتهم في عربات والخروج إلى باريس[٤].

وقد اجتمع التجار ومعهم أطفالهم وأمتعتهم ووقفوا أمام قصر الدوق مابيرجون Duke of Mabergon[٥] مستنجدين بالأب سوجر الذي عرف بحيادتيه فتوجه إلى بواتييه ليحل تلك المسألة، فأستدعى سوجر لويس للنقاش ومعرفة الأسباب التي أدت لذلك، وأثناء النقاش تجمع وفد من أكيتاين، وحاولوا الهجوم على لويس، فقام سوجر بحسم الموقف، وهدأ من ثورة المتمردين، وأعاد إليهم أبناءهم وبناتهم أحرارًا[٦].

وما أن علمت إليانوربما فعله لويس بأبناء مدينتها حتى غضبت وقالت **"إذا كان لويس يظن أن القوة بالوحشية فهو مخطئ"**، واتهمته بالضعف والانصياع لأوامر سوجر وطلبت منه أن يستمع اليها في المستقبل بدلاً من اي شخص لأنها اعرف بشعبها، ونتيجة لذلك تلاشى تأثير سوجر المعتدل ورضخ لويس للإملاءات الخاصة بزوجته المستبدة وغير المسؤولة الى حد ما[٧]،وعلى الرغم من أن إليانور لم ترافق لويس الى بواتييه لكنها قامت بعده رحلات الى الجنوب خلال السنوات الأولى من زواجها ربما كان اولها في أيلول عام ١١٣٨ ، وحضرت مهرجان السيدة العذراء في نوتردام في بوي لافيك حيث كانت برفقة زوجها لويس وشقيقتها

---

(1)Richard, Alfred, op.cit., p.61.
(2) Meade, op.cit., p. 51; Weir, op.cit., p.36.
(3)Weir, op.cit., p. 36.
(4)Seward, op.cit., p.31; Meade, op.cit., p. 51; Pernoud, op.cit., p. 33-34.
(5)Richard Alfred, op.cit., pP.61 – 68.
(6)Ibid, p 31; Meade, op.cit., pp. 51-52; Kelly, op.cit., p .15.
(7)weir,op.cit,pp.35-36;Seward, op.cit., p .31; Pernoud, op.cit., p. 34.

بترونيلا petronilla، التي ظلت صديقتها المقربة ومستشارتها الخاصة، ولا شك أنها وجدت علاقتها بأختها شيئاً مريحاً خفف عنها حياتها الكئيبة في باريس[١] ، وكانت تلك أول زيارة لإليانورمع لويس منذ أن تزوجته وكان تهدف إلى تطمين شعبها والاعتذار منهم عما حدث من زوجها[٢].

وعلى صعيد التحديات الإقليمية التي واجهت لويس السابع، برزت أزمة مقاطعة تولوز Toulouse[٣]، ويبدو أن الأمل الذي كانت تعيشه إليانور جعلها تفكر في استرداد مقاطعة تولوز التي رأت بأنها ميراث عن جدتها لوالدها فيليبا Philippa, Countess of Toulouse (١٠٧٣- ١١١٨)[٤].

ظلت مقاطعة تولوز في أيدي الغاصب الفونسو جوردان Alphonse Jourdion (١١٠٣- ١١٤٨)[٥] الذي حكمها على مدى السنوات العشرين الماضية ،حتى أن الدوق وليم وليم العاشر ولد إليانور لم يفكر في استرداد ميراث والدته، ففي الاشهر الأولى من العام ١١٤١ بدأت إليانور في الإلحاح على زوجها لويس السابع لاسترجاع تولوز من الفونسو جوردان، ورأى لويس في الاستحواذ عليها وسيلة لتوسيع حدود مملكته حتى البحر المتوسط

---

(1) weir, op.cit., p. 35.

(2) Et Ruth E. Harvey, "les épouses du premier troubadour duc Guillaume IX d'Aquitaine" , dans le Journal d'Histoire médiévale, Volume 19, 1993, p. 315; Weir, Eleanor, op.cit., p 37.

(٣) وهنا لا بد لنا أن نعطي لمحة عن تلك المقاطعة، وادعاءات حقوق إليانورفيها، تولوز مدينة فرنسية تقع على نهر الغارون جنوب غربي فرنسا ترجع نشأتها إلى ما قبل العصر الروماني، عرفت لدى المسلمين باسم طولوشة وتعتبر مركزا ثقافيا وتجاريا، في عام ١٠٦٢ توفي بونز الثاني pons II كونت تولوز ولم يكن لديه سوى ابنين هما: وليم Guillaume وريموند Raymond، وكان لدى الابن الأكبر وليم أربعة بنات فقط وكانت فيليبا الابنة الكبرى له، والتي تزوجت من وليم التاسع دوق اكيتاين وأنجبت منه وليم العاشر والد إليانور، وفي عام ١٠٨٨ توفي وليم كونت تولوز في مقر إقامته في مقاطعة بروفانس ووصى قبل وفاته أن يكون أخيه ريموند الرابع خلفًا له على تلك المقاطعة ، أختير ريموند الرابع ليكون أحد قادة الحملة الصليبية الأولى عام ١٠٩٥، وعندما غادر مقاطعته للشرق أصبح ابنه برتراند Bertrand خلفا له على تولوز فاستقر بها سبعة عشر عاماً حتى قدم عليه وليم التاسع دوق اكيتاين، مطالبًا بحقوق زوجته فيليبا وأن مقاطعة تولوز لابد أن تعود إليها باعتبارها الابنة الكبرى لوليم التولوزي، تعهد وليم التاسع بدفع مبلغ كبير مقابل خروج برتراند وأتباعه من تولوز، ولكنهم رفضوا الخروج فما كان منه إلا أن أرغمهم على ذلك بالقوة، رجع الفونسو جوردان Alphonse Jourdain ابن ريموند الثاني من الشرق، واتجه إلى تولوز بجيش كبير من المقاتلين الذي قدمهم له جده لأمه ملك قشتالة، بالإضافة إلى تكاتف شعب تولوز معه، فعمل على طرد وليم التاسع من تولوز، فخرج منها على أمل أن يعيد لزوجته فيليبا ذلك إلا أن المنية وافته قبل أن يحقق ذلك الأمل، وقد حاولت إليانور تحقيق ذلك الأمل لجدها وليم التاسع بعد وفاته . يراجع :

René Poupardin, « Louis le Pieux », Histoire du monde médiéval, Volume II (Expansion islamique et naissance de l'Europe féodale), traduit et publié par Garzanti, Milan, Italie, 1979, pp. 558–582; René Poupardin, I regni carolingi (840—918), in «Storia del mondo medievale», vol. II, 1999, pp. 583–588.

(4) Seward, op.cit., p 31; Pernoud, op.cit., p.34.

(٥) الفونس جوردان (١١٠٣ – ١١٤٨): كان كونتا لتولوز، وكان حريصًا على المطالبة بحقوق المواطنين في كونتيته لحصولهم على امتيازات وإعفاءات من الضرائب التي كانت تجبى منهم الصالح أدواق أقطانيا، وقد هزم من وليم التاسع Guillaume IX دوق اكيتاين يراجع :

Orderici Vitalis, op.cit., p.770; Elizabeth M Hallam , op.cit., pp. 60-61.

وتعزيز مكانته الشخصية، لذلك قام بوضع خطة لشن حملة على المدينة دون استشارة سوجر أو اتباعه الاخرين، وقد رفض البعض منهم تقديم العون له ومن بينهم الكونت ثيوبالد الرابع كونت بلوا وشامباني Thibaud IV, comte de Blois et de champagne (١٠٩٣-١١٥٢)[١]، الذي طلب الملك لويس السابع مساعدته في الهجوم على تولوز، كان رأيه في الحملة على تولوز بأنه مشروع أحمق، لذا رفض دعم سيدة الإقطاعي والوفاء بالتزاماته نحو سيده لويس، بإرسال القوات العسكرية التي يحتاجها في الحملة[٢] .

غادر لويس وإليانور باريس في الرابع والعشرين من حزيران ١١٤١ ، وكان غاضباً من ردة فعل ثيوبالد حيث اضطر للخروج بدونه، فلم يكن لدى لويس الخبرة العسكرية أو أية دراية بالمعارك، اما إليانور فقد رافقت لويس إلى بواتييه إذ بقيت بها بينما تقدم لويس بجيشة عن طريق أكيتاين متجهاً إلى تولوز[٣].

لم يكن جيش لويس منظماً بدقة، إنما كان قد تم جمعه عشوائياً، كما كان القادة ضعافاً وأجهزة الحصار متواضعة، واعتمد إليانور ولويس في خطتهما على مفاجأة المدينة حتى يسهل لهما السيطرة عليها، وعلى ما يبدو أنهما اعتمدا على أحلامهما أكثر من أي استراتيجية عسكرية، فلم يكن لدى الفونسو جوردون أية نية لتسليم المقاطعة إلى الدوقة الشابة وزوجها، حيث كان حذراً من اقتراب الفرنجة وأعد دفاعاً قوياً على حدود المدينة مرابطاً في موقعه ومتربصاً بقدومهما في جاهزية عسكرية تامة لصد الهجوم والإيقاع بخصومه[٤].

أظهر حصار تولوز ضعف لويس، وقلة خبرته وجهله بقواعد الحرب، فبعد حصار طويل أدرك لويس أنه تجاوز دوره، وأسهم في إعطاء صورة سيئة عن الجيش الملكي، لاسيما أنها كانت أول مشاركة رسمية له منذ أن تولى عرش فرنسا[٥]، لذا رفض التضحية بجيشه من أجل تنفيذ رغبة زوجته، حيث تراجع بسرعة خوفاً من أن يكتشف أتباعة ضعفه في الجنوب، بعد أن فكر بالتراجع عن ما أوقع نفسه فيه من ورطة، لذا عمد أن يجعل تراجعه مشرفًا، فأرسل رسلا إلى الفونسو للتفاوض معه وإخباره أنه سوف يترك تولوز مقابل أن يقوم الفونسو بتحية الملك، وأن يقوم بالاعتراف النظري بالتبعية له، وقد أدى ذلك الموقف إلى خجل لويس من نفسه، ومن الموقف الصعب الذي وضع نفسه فيه لكي يرضي زوجته إليانور[٦].

ولم تقتصر الأزمات على الجانب السياسي، بل امتدت لتشمل صداماً مريراً مع الكنيسة، فقد تميز حكمه بخلافه مع الكنيسة التي جعلها والده حليفة للتاج الفرنسي، ولم يشغل لويس العالم الإقطاعي فقط بل شغلته أيضًا قضايا العالم الكنسي ولاسيما تعيين الأساقفة، ومواجهة

---

(1) Meade, op.cit., p .53.
(2) Ibid, p 54.
(3) Meade, op.cit., p.54.
(4) Gobry, Louis vii,p.103.
(5)Ibid, p.103.
(6)Gobry, Louis vii, op.cit., p.103.

الامتيازات الإكليروسية[١] الخاصة بحق رجال الدين في الانتخابات وترسيمات الأساقفة دون الرجوع للملك[٢]، ومن ذلك القبيل ما حدث في الأيام الأولى من عهد لويس السابع، فمنذ عام ١١٣٧ بقي كرسي كنيسة لانجر Langer شاغراً بعد وفاة فيلان ديغريمونت Phelan Degremont Langer رئيس أساقفتها ، وهو ابن عم القديس برنارد من كليرفو ، فاجتمع كل من روبرت من لانجر، وبيير المتروبوليت رئيس أساقفة ليون Lyon، ومطران المدينة لاختيار الأسقف الجديد، وتوصلوا إلى اتفاق فحواه أن تشرع الانتخابات قبل استلام إشعار من القديس برنارد، وأن يقترح اسم المرشح للأسقفية فيما بينهم على أن يبقى ذلك الأمر سراً[٣]، وبينما كان برنارد في طريق عودته من ايطاليا، سارع المجلس للانعقاد وانتخب الراهب وليم دي صبران Willem de Sabran أسقفاً لكرسي لانجر، وما إن تناهى الخبر إلى مسامع برنارد قبل دخوله الأراضي الفرنسية، حتى بادر بإيفاد مبعوثٍ إلى روما لإحاطتها علماً بالمستجدات، ثم توجه شخصياً لمقابلة رئيس أساقفة ليون، وقد أبدى رئيس الأساقفة ندمه على ما جرى، مبرراً عجزه عن الاعتراض بأن المرشح مقربٌ من دوق بورغوندي ويحظى بدعمٍ مباشر من الملك لويس والملكة إليانور، غير أن برنارد واجه هذا الموقف بصرامته المعهودة، حيث أصدر أمراً للمتروبوليت (رئيس الأساقفة) بضرورة إعلان بطلان تلك الانتخابات، على الرغم من اعتذار الأخير وتبريره بأن ضغوط الموقف هي التي دفعتهم لتمرير مرشح دوق بورغوندي[٤].

غضب برنارد لذلك وأمر بإعلان بطلان الانتخابات، إلا أنهم تجاهلوه وانتظروا الملك لويس السابع، الذي كان قادمًا من مدينة بوي puy، لإتمام عملية تنصيب الأسقف الجديد فقرر برنارد وقف ذلك الأمر، وضرب بختمه بالبطلان على قرار إعلان المرشح الأسقفية لانجر الذي وقعه رئيس شمامسة لانجر وعميد فرع ليون، وأسرع أحد رهبانه نحو روما، للحصول - دون أدنى شك - على موافقة البابا إنوسنت الثاني Pope Innocent II والذي بدوره استنكر تلك المؤامرة التي قررت انتخاب أسقفًا دون الرجوع إلى موافقة روما؛ من

---

[١] الإكليروس: مصطلح يوناني الأصل، أُطلِق على رجال الدين في المسيحية، ويعني ميراث أو نصيب رجل الدين من العلم الإلهي ، وقد اعتُمد هذا المصطلح عند المسيحيين في القرن الثالث الميلادي، بعد مؤتمر "نيقية" لفرض فهم وإرادة رجال الدين، فيما اتفقوا عليه في المجمع من أمور لاهوتية، يمنع على الناس الخروج عنها، ومن يرفضها يتهم بالهرطقة وتعاقبه السلطات الحاكمة المتحالفة معها ، ومن ثم، بات المصطلح يُطلق على رجال الدين الذين يحتكرون الحقيقة الدينية، ويدعون بأنهم وكلاء الله في أرضه. والمصطلح في تطبيقه، وإن ظهر في المسيحية بالقرن الثالث الميلادي، من حيث الوظيفة، موجود منذ القِدم في المجتمعات (الوثنية)، حيث كان الكهنة يعدون وسطاء الإلهة مع الناس، ويدعون المعرفة الإلهية، ولهم عبر التاريخ علاقة مع السلطات الحاكمة تراعي المصالح المشتركة بين الطرفين. يراجع:

Bouquet, Martin (et al.), Lettre de saint Bernard, abbé de Clairvaux, à Louis, roi des Francs, Recueil des historiens de Gaule et de France, vol. 15, Imprimerie Impériale, Paris, 1808, p. 587 ; Bouquet, Martin, Glatt, moine de Saint-Maxent : extraits historiques, comtes de Poitou et ducs d'Aquitaine, Recueil des historiens de Gaule et de France, vol. 11, Imprimerie Royale, Paris, 1767, p. 409.

[٢] نور الدين حاطوم، المصدر السابق ، ص ٨١٣.

[3] Gobry, op.cit., p.67.

[4] Ibid, p.69.

جانبه طالب روبرت من لانجر، الذي استمال زميله، رئيس أساقفة ليون بالمضي قدماً في تكريس راهبه، وبين له أن الانتخابات صحيحة، وقد وافق عليه الملك والدوق، وبين روبرت أنه ليس لدى رئيس دير كليرفو الجرأة لمعارضة تلك السلطات [١].

من جانبهم قامو بأرسال رسلهم إلى روما للتأكيد على أن الاختيار كان قانونيًا، وأن المختار كان مستحقًا، فكان جواب البابا هو رفض المرشح ودعم قرار مستشاره برنارد وطرد الرسل الآخرين دون مزيد من الاعتبار، ولم يكتف بإلغاء الانتخابات فحسب، بل كلف رئيس دير كليرفو بالتأكد من صحة الأخبار[٢]، وصل برنارد إلى لانجر وبلغ المتآمرين رسالة شديد اللهجة من البابا، وأمرهم على التصويت بالإجماع، لاختيار قديساً وليس صديقًا للسلطات الزمنية، وعليه تم اختيار جيوفروي دي لاروش فانو-Geoffroy de Laroche Fano، رئيس كليرفو والصديق المقرب لبرنارد Geoffroy أسقفًا للانجر[٣] .

وفي عام ١١٣٨، برز تحدٍ كنسي خطير تجاوز في أهميته أزمة أسقفية لانجر التي كانت قائمة آنذاك، تمثل ذلك التحدي في شغور منصب رئيس أساقفة ريمس، وهو أحد أبرز المناصب الدينية في فرنسا، بوفاة رينو دي مارتينيRenuoMartigne في كانون الثاني من العام نفسه، بعد أن قضى قرابة أربعة عشر عامًا في المنصب الكنسي منذ عام ١١٢٤[٤]، إن بقاء هذا المنصب الرفيع شاغرًا لم يكن مجرد فراغ إداري، بل كان ينذر بإشعال صراع محتدم بين الطامعين في النفوذ والسلطة، مما شكل خطرًا حقيقيًا على استقرار المملكة، وأدركاً من القديس برنارد دي كليرفو، خطورة الموقف، بادر بتحذير الملك لويس السابع من مغبة ترك هذا المنصب دون راعٍ، وحثّه على ضرورة الإسراع في اختيار رئيس أساقفة جديد يتمتع بالكفاءة والنزاهة لملء ذلك الفراغ الحساس، حيث تنبّه لويس السابع، بفضل يقظة مستشاره برنارد، إلى الأبعاد السياسية والدينية لتلك القضية، وسعيًا منه لتأكيد سلطته الملكية وتجنب أي تدخلات قد تحد من نفوذه، اتخذ الملك قرارًا سريعًا وحاسمًا دون اللجوء إلى المشورة الواسعة من ذوي الخبرة، فقد بادر بإرسال ميثاق رسمي، مصدق عليه بالختم الملكي، إلى الهيئة الانتخابية المسؤولة عن اختيار الأسقف الجديد، حدد ذلك الميثاق بوضوح الإطار الذي يجب أن تتم فيه عملية الانتخاب، مؤكدًا على ضرورة الحفاظ على السلطات والحقوق التقليدية للأساقفة، وفي الوقت نفسه، ضامنًا أن يكون للملك الكلمة الفصل في هذا الاختيار الهام[١].

فقد طالب برجوازيو ريمس، الذين لاحظوا أن مدينة لاون المجاورة حصلت على حكم الذاتي، وكانوا ينتظرون فقط الفرصة لتقليدها؛ وتحقق لهم ذلك عند خلو كرسي ريمس، فطالبوا ان ينتخبوا من يدير شؤونهم دون تدخل من الملك لويس السابع ، وقد وقع مواطنوا ريمس في خطأ ضد الأساقفة استحقوا عليه المعاقبة، فكانوا قد سجلوا ميثاق بإلغاء الضرائب

---

(1)Gobry, op.cit., p.69.
(2)Ibid, p.70.
(3)Ibid, p.71.
(4)Ibid, p.72.

الأسقفية، مما أدى لحرمان الأسقف من وسائل سبل العيش الأساسية للحياة وخصوصاً دفع رواتب الحراس والجنود، مما شكل خطراً على أمان الأسقفية فالمسؤولون في الأسقفية، وكانوا خائفين من أن يجدوا أمامهم قوة مسلحة ضد الكنيسة، وناشدوا الملك لويس بمساعدتهم، والذي بدوره أرسل رسالة تهديد ووعيد وأمر بإلغاء تلك التدابير، وقال: **"إن الانتقاص من سلطة الأساقفة، يوازي الانتقاص من السلطة الحاكمة"** ورداً على ذلك قام اهالي في مدينة ريمس بإلقاء مسؤولي الأسقفية في السجن(٢).

تردد الملك لويس السابع في تولية أسقف ريمس الجديد خوفاً من وقوع حرب أهلية، لكن الأهم من ذلك كان من المعتاد أنه خلال خلو مقعد الأسقفية يقوم الملك بالصرف على إيرادات ودخل أساقفة ريمس والتي كانت محل ترحيب الخزينة الملكية(٣)، وبعد انتظار عامين ضغط لويس السابع على الجميع، وأمر أخيراً بالشروع في الانتخابات وعين للإشراف عليها المندوب البابوي جوفري دي ليفز Geoffroy de Leves وأسقف شارتر d'Arras d'Auxerre أراس، وأوكسير Soissons، وأسقفي سواسون Swason ، وجمعت الأسماء المرشحة في صناديق الاقتراع، وأعلن اسم برنارد مرشحاً لرئاسة ريمس إلا أنه رفض ذلك المقعد وتلك المكانة المرموقة؛ لأنه أعدَ نفسه خادماً للبابا، لذا تم استبعاده من تلك المسؤولية ومن أي مسؤوليه مشابهة لها، ولذا أصبح من الضروري عمل استطلاع جديد وكان المرشح الجديد هو سامسون دي موفوازين Samson de Mauvoisin (٤)، كان سامسون رجلا مسالماً يريد تحقيق التعاون والانسجام بين القوى المدنية والدينية وحاول الوصول إلى حوار مع زمرة البلدية(الكومونات) التي كانت تحت أيادي مجموعة من رجال الأعمال الجشعين الذين كانوا مستقلين عن السلطة الكنيسية، لكنه لم يتوصل إلى شيء، وحتى عندما وضع القديس برنارد في الصورة لم يستطع إيجاد حل للمشكلة، وعندها تحدث إلى لويس السابع، وكان الملك يقف إلى جانب رئيس الأساقفة ضد زمرة البلدية، لكنه لم يتجرأ على التدخل للحفاظ على شعبيته(٥).

فوض لويس السابع ثيوبالد الثاني كونت شمبانيا Theobald II, Count of Champagne (١٠٩٠- ١١٥٢) للتدخل، لكن الأخير لم يكن من أتباع لويس، فرفض التدخل متحججاً بعدم وجود أمر لديه من السلطة القضائية، فقرر الملك لويس السابع استخدام القوة، ودخل ريمس معتمدًا على تفاني جيشه، غير متردد في التعاون مع الأسقفية، وعندها سحق كل من قاوم، فغرق المتمردون في دمائهم، وألغى الملك ميثاق بلدة ريمس، أما المطران سامسون فقد عفا عن من بقي من الجناة(٦).

---

(1)Gobry, op.cit., p.72.
(2)Ibid, pp.72-73.
(3)Ibid, p.73.
(4)Ibid, p.74.
(5)Ibid,p.74-75.
(6)Ibid, p.75.

عندما عاد لويس إلى باريس في خريف عام ١١٤١ بعد قضاء فصل الصيف في الجنوب، وبسبب ما لحق بلويس من الذل والإهانة لعدم استيلائه على مقاطعة تولوز، حاول تحسين صورته ورفع مكانته في عيني زوجته إليانور، وبدا مصمماً على إزالة الأثر السيء الذي تركته عليها[١]، وبعدها وقعت اشتباكات بين السلطة الملكية والسلطة الكنيسة عام ١١٤١، حيث بلغت الأمور ذروتها ونظمت الكنيسة كل قواها للوقوف ضد سلطة الملك، بسبب كرسي أسقفية بورجيه Bourges الذي كان شاغرًا، وأرد لويس أن يعاكس منتخب الكنيسة ويضع أسقفًا من رجاله بأي ثمن[٢]، هنا صمم لويس لأسباب حيرت باروناته على تعيين أحد مستشاريه المدعو كارديوك Carduc إرضاء لزوجته إليانور واستبعد بطرس دي لا شارتر Peter de la Charter المرشح من قبل البابا انوسنت الثاني الذي بعث بهِ إلى بورج ليتولى منصبه[٣].

طالب الملك بإجراء انتخابات جديدة، إلا أن الكنيسة رفضت استبعاد بطرس وإعادة الانتخابات، وناشدوا البابا بتجاهل مطالبات لويس السابع الذي وصفوه قائلين: **"هو الطفل الذي يحتاج إلى تعليم مرة أخرى"**، وعندما علم لويس بأن البابا انوسنت ينظر إليه بوصفه طفلاً استشاط غضباً واستولى على الآثار المقدسة بالكنيسة، ومنع الأسقف الجديد من دخول بورجيه، وحظر على رجال الدين الاحتفال بالطقوس الدينية مع الجماهير، وقصر تلك الطقوس على التعميد والدفن، وأصدر حكمًا بالحجر عسكرياً على أسقف بورجيه وأقسم بكل المقدسات انه مادام حياً فلن يسمح ابداً بدخول بطرس مدينة بروج، مما كان له أكبر الاثر في سير الأحداث بعد ذلك[٤]، وعندما وصلت الأخبار إلى البابا انوسنت قرر حرمان لويس وطرده من الكنيسة، وتلك عقوبة خطيرة جداً تهز عرش الملوك لأنه من المعلوم أن ذلك القرار سيمنعه من ممارسة الطقوس الدينية في أي مكان ويتحلل أتباعه من يمين الولاء له، إلى جانب حرمانه من جميع حقوقه الدينية والدنيوية؛ وعلى الرغم من خطورة قرار الحرمان الكنسي، أصرَ لويس على عناده، وازداد غضبه عندما علم أن الكونت ثيوبولد حاكم شامبني يقوم بحماية بطرس دي لاشارتر على الرغم من أنه تابع إقطاعي له ولزوجته إليانور، لذلك قرر لويس وإليانور ضرورة الانتقام من الأعداء وعلى رأسهم ثيوبولد حاكم مقاطعة شامبنى Champagne [٥]، ومع استمرار الملك في عناده، وتشجيع إليانورعلى المقاومة، فكانت تحقد على الكنيسة الأسباب شخصية تعلقت بزواج أختها بترونيلا petronilla(١١٢٥-١١٥١) ذات التسعة عشرة عاماً من راؤول فرماندوا Raoul of vermandois[٦] سنشال

---

(1)Meade, op.cit., pP. 54-55; weir, op.cit., p. 38.

(2) Ibid, p.75.

(3) Meade, op.cit., pP. 54-55;weir, op.cit., p. 38.

(4)Bernardus (Abbas Claraevallensis), "Epistula ad Iocelynum, Episcopum Suessionensem," Collectio Historicorum Galliae et Franciae (R.H.G.F.), Vol. 15, Editio Victoris Balmy, Lutetiae, 1878, pp. 581-582.

(5) Ibid, p 76; Kelly, op.cit., p21.

(٦) راؤول فرماندوا (- ١١٦١): ينتمي إلى جيل لويس السادس كونه نجل هيو شقيق فيليب الأول ولويس السادس، وبالتالي هو ابن عم لويس السابع والذي جعل منه مندوب أمير فرنسا وكان يتمتع بسمعة جيدة من

فرنسا[١].

كانت بترونيلا برفقة شقيقتها إليانور عندما التقت براؤول في محكمة باريس، كانت بترونيلا فتاة جذابة وتمتلك ميراثاً كبيراً في بورغوندي Burgundy يتمثل في مجموعة من الأراضي والقلاع تُعرف باسم "آيليث"، وقد آل إليها ذلك الميراث نتيجة لمصاهرات سياسية قديمة، وتحديداً زواج جدها وليم الثامن William VIII (١٠٢٣- ١٠٨٦) من هيلدغارد Hildegard (١٠٥٦- ١١٠٤) ابنة روبرت الأول Robert I (١٠١١- ١٠٧٦)، مما أدى إلى انتقال العديد من الإقطاعيات والحقوق لتستقر في النهاية كحصة ميراث خالصة لبترونيلا، كما أنها شقيقة إليانور زوجة الملك لويس السابع، وكل تلك مزايا جعلتها مطمعاً لراغبي الزواج، لكنها رفضت جميع اللوردات المؤهلين الذين تقدموا لخطبتها، ويرجع ذلك إلى أنها وأثناء حفل زفاف أختها تعرفت على الكونت راؤول من فيرماندو وهو قريب الملك، وجمعت بينهما علاقة عاطفية وكان راؤول آنذاك يزيد عن الخمسين عاماً، فهو في بعمر والدها، ولم تكن تلك المشكلة، بل إن المشكلة تركزت في أنه كان متزوجاً وزوجته إليانور من بلوا ابنة أخ الكونت ثيوبولد كونت شامبني دام زواجهما ٢١ عاماً دون وجود وريث، وخلال العطلة الصيفية التي قضاها لويس وإليانور في بواتييه عام ١١٤١، كان بصحبتهما بتروتيلا و راؤول الذي طور علاقته ببتروتيلا حتى أصبح هناك ضرورة لعقد الزواج بينهما، وعلى الرغم من أن إليانور رأت في زواجهما ضربة قاضية لثيوبالد الذي كان معادياً لراؤول ولم يف بالتزاماته الإقطاعية تجاه لويس[٢].

أحبت بترونيلا راؤول وقررت الزواج منه، ولإتمام ذلك الزواج كان لا بد من أن يتخلص راؤول من زوجته الشرعية، ضغط راؤول على عدد من الكهنة المحليين لإبطال زواجه من زوجته الأولى ، فاستعان بثلاثة أساقفة من مؤيديه الأول كان شقيق راؤول وهو أسقف نوين Noyon، وأسقفي Layn وسنلس Senlis، وهؤلاء نجحوا في إصدار قرار أثبتوا فيه بطلان زواج راؤول من زوجته إليانور، لوجود قرابة رحم بينهما وأقروا بزواجه من بترونيلا في الحال[٣]، لم يعارض لويس السابع، وزوجته إليانور زواج بترونيلا من راؤول، الذي بادر بدوره إلى فسخ عقد زواجه الأول متذرعاً بحجة القرابة المعهودة كمسوغ شرعي لإبطال الزيجة، وقد كان راؤول يرمي من وراء تلك المصاهرة الجديدة إلى تحقيق

الشجاعة والبسالة التي لا تقهر ويقال أنه أصيب بسهم في عينه عندما كان بجانب لويس السادس في حصار قلعة يفري Livry مما سببت له إعاقة في عينة.

Gobry, Louis vii, op.cit,p 79;Kelly, op.cit,p2.

[١] سنشال: مساعد الملك الفرنسي ومستشاره وقد عرفت في اللاتينية باسم Senescalus وكانت في بداية ظهورها تعني المندوب على المشروبات الملكية بمعنى رئيس La Bouteiller أو الأمين الملكي Préposé à La Table royale سقاة الخمر، ثم تطورت مع الوقت وأصبحت تعني حاجب الملك، ومع ازدياد أهميته وقربه من السلطة الملكية اعتبر حامله ملحق للملك، وأخيرا أصبح السنشال لقب شرفي يحمله أهم القيادات العسكرية ومستشاري الملك. يراجع :

Louis Halphen, Charlemagne , op.cit., p.143 .

[2] Pernoud, op.cit., p. 35; Owen, op.cit., p.18; Seward, op.cit., p. 32; Meade, op.cit,pp. 56. 12.

[٣] نور الدين حاطوم ، المصدر السابق ، ص ٨١٣ .

جملة من الأهداف الجوهرية، جمعت بين الرغبة في الظفر بجمال بترونيلا وضمان امتداد نسله، فضلاً عن تعزيز وجاهته السياسية ومكانته المرموقة عبر توطيد صلاته بالبلاط الملكي وتوثيق قربه من الملك لويس[١].

احتجت الزوجة الأولى على قرار الطلاق، واستنجدت بعمها ثيوبالد، الذي ابلغ بضرورة قدومه ليتسلم أبنه اخية ، وقرر الاخير الانتقام من راؤول عدوه اللدود، لذلك أرسل إلى البابا انوسنت الثاني يخبرة بطلاق أبنة اخية من راؤول وأن زواجة من بترونيلا غير شرعي، وأن الأساقفة الذين قرروا ذلك نفذوا أوامر الملك لويس السابع، اي بمعنى انه مازال يتدخل في امورالكنيسة، فأرسل البابا مفوضه خصيصًا إلى فرنسا لإلغاء زواج راؤول من بترونيلا[٢]، ولذلك قرر البابا إنوسنت الثاني ضرورة عقد مجمع ديني في مدينة لاجني سير مارني Lagny - sur - Marne في مقاطعة شامبني Champagne، وفي هذا المجمع قرر المندوب البابوي صلاحية زواج راؤول وإليانور، وعندما رفض راؤول العودة إلى زوجته قرر المندوب البابوي طردهما من رحمة الكنيسة ووضعت أراضي راؤول وبترونيلا تحت الحرمان الكنسي وصب اللعنة المقدسة عليهما، كما تم طرد الأساقفة الثلاثة الذين قرروا بطلان زواجهما، وفرضت عليهم عقوبات إكليروسية، وأصبح الصراع الديني شديد الخطورة[٣]، لذلك يمكننا القول أن الملكة إليانور ولويس اعتبروا أن ثيوبالد هو المسؤول عن مشاكلهم لأنه تابع إقطاعي ولم يؤد التزاماته الإقطاعية تجاه سيده بل إنه تحدى لويس وتجرأ عليه وأثار غضبه عندما قام بإيواء بطرس دي لاشارتر وتأييده مما أدى إلى انهيار سمعة الملك[٤].

رفض لويس الإذعان لقرار البابا نكاية في ثيوبالد وخوفاً على بترونيلا، لذلك كان لابد له من أن يستلهم من إليانور الدفعة له لاتخاذ الخطوة الحاسمة التي حولت الحرب الباردة بينه وبين ثيوبالد إلى حرب ساخنة، أعد لويس جيشاً بعث بهِ إلى شامبني للتصدي ثيوبالد وإجباره على الاستسلام، وقد استمر جنوده يخربون وينهبون القرى، ويحرقوا المحاصيل وينهبوا البيوت والكنائس ويقتلوا الرجال[٥].

جمع لويس جيشه ودخل بشكل مفاجئ مقاطعة مو Meaux ولم يجد أي شكل من أشكال المقاومة ثم عبر طريق المارون، فأحرق القرى وأوقع العشرات من القتلى، ثم ذهب إلى أقصى شرق منطقة ثيوبالد حيث العاصمة فيتري Vitry ، رد ثيوبالد على ذلك الهجوم بوابل من السهام التي أطلقها من أبراج القلعة الخشبية، وبعدها أدرك أن مقاومته لن تفيد، حيث قام الرماة من جيش لويس بإطلاق أسهم على أبراج القلعة الخشبية، فاحترقت وتحولت إلى كرة

---

(1)Kelly, op.cit., p.222.

(٢) نور الدين حاطوم ، المصدر السابق، ص ٨١٣.

(3)Ernest Lavisse, « Louis VII - Philippe Auguste - Louis VIII (1137-1226), Histoire de France, Volume III, Partie I, Paris, 1901, p. 6.

(4)James M. Ludlow, D.D: The Age of The Crusades, Eras of The Christian Church. Edinburgh, 1897, p. 164.

(٥) نور الدين حاطوم ، المصدر السابق، ص ٨١٣.

نارية[١].

ومن ذلك نستنتج أن الملك لويس السابع عندما وجد صلابة من الكونت ثيوبالد في التصدي له وتحصن في مدينته أشعل بها النيران ، وهو يدرك تماماً مدى قسوة ذلك العمل وشدة وطأته على أهل مدينة فيتري، الذين لم يكن لهم دور في الصراع مع الكونت، فسكان فيتري على الرغم من كونهم من أهل شامباني إلا أنهم من رعايا الملك لويس السابع، وبالتالي لهم حق التمتع بالأمان في مدينتهم التي أحرقت عن عمد؛ فقد لجأ الملك إلى إشعال النيران لكي يتمكن من القضاء على أكبر عدد من سكان فيتري، وربما أراد إبادة المدينة كلها؛ لأنه إذا كان يحارب ثيوبالد فقط فلماذا أشعل النيران بالمدينة؟ وهو يدرك تماماً سرعة سريانها في المنازل الخشبية، ذلك فضلاً عن أن مدينة فيتري- طبقا لما جاء في المصادر- كانت تعلو بعض الشيء عن المناطق المحيطة بهاء، وذلك بعد جغرافي مساعد أسهم في شدة إضرام النيران بها، ولم يكتف بذلك فقط بل تفاقم في قسوته ضد هؤلاء الرعايا[٢].

فقد اضطر سكان مدينة فيتري حيث وجدوا أنفسهم فجأة وسط المعركة، وعندئذ خرجوا من منازلهم التي كانت من الخشب ذات أسقف من القش فأشعل رجال الملك لويس النيران بمنتهى الوحشية في تلك البيوت، وأساؤوا معاملة الناس، مما جعل سكان المنطقة يهرعون إلى الكنيسة على أمل أن لا يصيبهم مكروه، سحب سكان المدينة مرضاهم وجرحاهم إلى كاتدرائية القديس بول، معتقدين أنه لا يمكن لأحد أن يؤذيهم هناك وفجأة، طارت جمرة من أحد المنازل المشتعلة في الهواء وهبطت على سطح الكنيسة، وفي غضون دقائق، اشتعلت النيران في المبنى بالكامل، ومن أعلى قمة خارج المدينة، تمكن الملك لويس من رؤية النيران الضخمة تتصاعد إلى السماء، وسمع نداء الناس المحاصرين بالداخل يصرخون طلبًا للمساعدة، لكن قبل أن يتمكن أحد من فعل أي شيء لإنقاذهم؛ انهار السقف، مما أسفر عن مقتل كل من كانوا بالداخل[٣].

وقد تفاوتت أعداد الضحايا الذين زهقت أرواحهم وتفحمت أجسامهم ؛ فقد ذكر البعض أن عددهم يقرب من ثلاثمائة شخص، بينما يقدر عدد آخر من المؤرخين أن عدد الضحايا كان الف وخمسمائة، بينما تناول تلك الحادثة بعض المؤرخين دونما ذكر عدد الضحايا الناتج عن الحريق، هذا فضلاً عن أنه هناك من لم يذكر الحادثة نفسها[١].

أدان القديس برنارد عدوان الملك لويس على الكونت ثيوبالد ، فأرسل عدة رسائل إليه يلومه فيها على أخطائه ويحذره من أنه يعرض نفسه وروحه للخطر، وأنه يثير غضب الله عندما اتهمه بالقتل وحرق الكنائس وتشريد الفقراء من مساكنهم، فهو من ذلك مثل قطاع الطرق واللصوص فقال:**" لقد أطبقت علينا المحن واشتدت الكروب، واضطربت الأرض من هول الفظائع التي شملت الأسر والنفي والإحراق، والتي لم تستثنِ غنياً ولا فقيراً، بل**

---

(1)Ernest Lavisse, op.cit., p.7 .

(2)Richard W. Kauper, Chivalry in the Middle Ages. Cambridge University Press, 2016.p.202.

(3)Richard W. Kauper, op.cit., p . 202.

امتدت لتطال الدين ذاته بالازدراء والامتهان، وفي خضم هذا البطش والظلم، تعرض الكونت ثيوبالد لاضطهاد مرير، وهو المدافع النبيل عن الأبرياء والحرفيين الصالحين، حتى استنزفت قواه وكاد أن يسقط فريسة سهلة في قبضة خصومه وأعدائه" كما رجاه أن يرفع يديه عن الكونت ثيوبالد [٢].

أما في باريس فقد ابتهجت الملكة إليانور في قصرها لما حدث، وشعرت بالرضى لنجاح وانتصارات لويس السابع كما اعتقدت، مع ذلك انتابها شعور بالقلق، لأن تلك الانتصارات لم تكن مجيدة كما كانت تتوقع[٣].

ظل الملك لويس السابع في شمبانيا لعدة شهور، وعندما عاد إلى باريس، واصل جنوده الحرب هناك واحتلوا معظم مناطق الريف، وحينما التقى لويس بإليانور لاحظت أن الحرب قد فرضت ضغوطاً على حالته الصحية والنفسية، حيث أنه كثيراً ما كان يستيقظ في الليل فزعاً متشنجاً، كما أن الكآبة والعزلة هيمنت عليه وهو لا يزال في سن الثانية والعشرين، وقد بذلت إليانور قصارى جهدها لرفع معنوياته وطمأنته بالقول: **"لم تكن أنت السبب في ذلك الخطأ، وإذا كان فالله قد قدر بحرق الكنيسة"**[٤].

ازدادت حالة لويس سوءا، وكان لا بد من تدخل برنارد لمعالجة الأمر والتوسط للسلام مع كونت شامبانيا والكنيسة،فاستاء القس برنارد من ما فعله لويس الملك الطفل الذي لم يعد طفلاً، ووصفه بعدم الوفاء في تحقيق العدالة فقد خيب آمال فقراء بلده، وكنيستها الأم، وتمرد على مستشاريه سوجر وأسقف سواسون Soissons ولم يستمع لإرشاداتهم[٥].

كتب برنارد إلى لويس السابع رسالة تأنيب تظهر ما كان يعتلج في صدره من غضب على تهور الملك لويس وعدم قبوله نصح الناصحين:**"كثيراً ما تتسرع ولا تتقبل النصيحة التي تتلقاها** ، ويتسائل برنارد في رسالته للويس عن بؤرة الشر الذي كان لويس يتلقى منها أوامره **"أنت تتبع مشورة من ؟! أنا لا أعرف من هو مستشار الشر؟! فاستشاراتها الشريرة الشيطانية هي التي كانت وراء إطلاق النار والذبح حتى ارتفع صراخ المصابين، وعلى أنين المحروقين وسالت دماء القتلى من الآباء فكثر الأيتام والأرامل** وأنهى برنارد رسالته بالتهديد والوعيد **"لا يا ملك كيف تجرؤ على التهور هكذا؟ أنا أخاطبك بل أحذرك، لأنني أخشى من شدة ما سوف يحدث لك"**[٦].

غرق لويس في الاكتئاب، واعتقد أن عقاب الله ينتظره، فحاول التقرب من الله فحلق شعرة مثل الرهبان وارتدى ملابسهم، فتجربته الأولى في ممارسة الحكم بشكل مستقل قد مُنيت بهزيمة نكراء، كما تحطمت مساعيه الطموحة لدعم أجندة زوجته، إليانور السياسية، مما أثبت عجزه في الساحة السياسية، ومما زاد من وطأة هذا الفشل وعمّق من أزمته، هو العجز

---

(1)Ibid, p. 202.
(2) Gobry, op.cit., p. 833.
(3)Meade, op.cit., p. 59.
(4)Meade, op.cit., p. 59.
(5) Kelly, op.cit., pp. 23-24.
(6)Ibid, p. 24.

عن تأمين مستقبل العرش الفرنسي، فبعد انقضاء ست سنوات على زواجه، ظلت المملكة تنتظر وريثًا ذكرًا لم يأتِ بعد، مما وضع استمرارية سلالته الحاكمة على المحك [١].

وفي سنة ١١٤٣ وتحت قيادة سوجر بدأت مفاوضات للسلام، وايضاً تحت تأثير القديس برنارد الذي كان في ذلك الظرف وسيطاً وحكماً وذلك بتأثيره على البابا والملك وكونت شامبانيا وبعد مداولات ومناقشات حثيثة اقنع لويس السابع وثيوبالد بأن يوقعان على عقد معاهدة فيتري عام ١١٤٣، التي لم تطبق فعلياً إلا بعد عام من عقدها، كان من اهم بنودها اطلاق سراح الكونت ثيوبالد الذي تم اسره في مدينة فيتري مقابل الغاء الحرمان الكنسي الذي صدر بحق راؤول دي فيرماندو وزوجته بترونيلا ،وان يعترف لويس السابع ببطرس شاتر الذي انتخبه الكهنة مطراناً لبورجيا[٢].

ونظراً لما سبق يقف الباحث مع الرأي بأن الاتفاقية اطلق عليها اسم فيتري لعدة اسباب منها ان الكونت ثيوبالد كان اسيراً في تلك البلدة، فضلاً عن ان فيتري كانت هي مسرح الاحداث التي حصلت، وعلى ما يبدو أن تلك الاتفاقية كانت وقتية لأنه بمجرد اطلاق سراح الكونت ثيوبالد بعد رفع الحرمان الكنسي عن صهر لويس السابع راؤول وزوجته عادت مرة اخرى اللعنة الكنسية عليهما، وكان نتيجة عدم الالتزام باتفاقية فيتري فقد قام لويس السابع باجتياح جزء من اراضي ثيوبالد الثاني واعلان رفضه تقليد اي شخص في المناطق الاسقفية الشاغرة لكن في مقابل ذلك حشد ثيوبالد الثاني ضد الملك لويس بأن تحالف مع كونتي فلاندز وسواسون، وقد اعلن خطبة ابنه من ابنة كونت الفلاندز وخطوبة ابنته من كونت سواسون ،لكن لويس السابع رفض هاتين الزيجتين واعلنهما غير شرعيتان، لانهما تم عقدهما دون موافقة الملك، لذلك حاول اصدار امر من الكنيسة بفسخ عقدي الزواج بحجة درجة القرابة، إلا أن القديس برنارد تدخل رافضاً نهج لويس السابع في قضية الزواج تلك بوصفه متزوجاً من ابنة عمه في الدرجة الرابعة، فأولى بهِ ان يفسخ عقد زواجه من إليانور ايضاً حسب درجة القرابة، وحسب رؤيتنا بأن لويس فتح على نفسه باباً حينما رفض زواج ابن وابنة كونت شامباني على الرغم انه لم يكن مهتماً، واختار لويس تجاهل ذلك اللوم من القديس برنارد ، لكن إليانور تعاملت مع ذلك الامر بجدية اكبر فيما بعد، وفي ٢٤ أيلول عام ١١٤٣ توفي البابا انوسنت الثاني وخلفه البابا سليستين الثاني Pope Celestine II (— - ١١٤٤) الذي كان اكثر اعتدالاً ، فقد الغى الحظر الكنسي على الاراضي الفرنسية[٣].

حاولت إليانور الخروج من جو الاكتئاب والملل الذي طوقها وقد واتتها الفرصة عندما جاءتها دعوة للمشاركة هي وزوجها في إعادة تكريس كنيسة القديس دينس وذلك في يوم الأحد ١١ حزيران ١١٤٤، وهو اليوم الذي يتم فيه افتتاح الأب سوجر كنيسة سانت دينس في فرنسا، اذ ركز سوجر على إعادة بناء الكنيسة فحولها إلى عمارة لم يسبق لها مثيل فبدلاً من الجدران الحجرية، صمم المهندسون المعماريون الكنيسة بأقواس عالية وأقبية متقاطعة،

---

(1) Heer, Friedrich, The Medieval world. London, 1961, P. 397.

(٢) نور الدين حاطوم ، المصدر السابق، ص ٨١٤ .

(3)weir,op.cit,P. 41.

سمح التصميم بتكوين نوافذ زجاجية ملونة ضخمة أضافت بريقًا إلى كنيسة مظلمة وصامدة ذات يوم، كانت الملكة إليانور ترتدي ثوبًا فخمًا للغاية فوق ثوبها، وهوثوب مخملي أحمر اللون، مزينًا بالفراء، وكانت الأساور الثمينة تتدلى من معصميها، والاقراط الطويلة تتدلى من أذنيها،وبجانبها الملك لويس الذي بدا غريبًا في ردائه الرمادي البسيط، وكأنه راهب اكثر من كونه ملكاً[١].

استغلت الملكة إليانور فرصة حضور القديس برنارد حفل الافتتاح لتفاتحه في أمر شائك، آملةً أن يتشفع لدى البابا لرفع الحرم الكنسي عن الكونت راؤول دي فرماندوا؛ تمهيداً لإتمام زواجه من شقيقتها بترونيلا، إلا أن مسعاها قوبل بصدٍ حازم، ولم يحقق اللقاء النجاح الذي توقعه، فقد أدرك برنارد أن الملك لويس السابع لم يكن سوى ضحية لمشورة زوجته المتهورة، وإزاء ذلك، اضطر القديس إلى توبيخ الملكة بشدة، واضعاً حداً لتدخلاتها السياسية بلهجة صارمة قائلاً: **"لا شأن لكِ بالتدخل في شؤون الدولة"**، ولم يكتفِ بذلك، بل أمرها بضرورة الجنوح للسلام، وعدم تأليب الملك ضد الكنيسة، وحثها بدلاً من ذلك على توجيه زوجها نحو أعمال الخير، قاطعاً لها وعداً بأنه في حال التزامها بهذه الوصايا، فإنه سيتوجه بالدعاء إلى السيد الرحيم ليمنحها الذرية التي طال انتظارها[٢].

وفي خضم ذلك الموقف، تملكت القديس برنارد دهشة كبيرة من الأسلوب المباشر والجريء الذي طرحت به إليانور مطالبها؛ فلم يكن معتاداً على أن تعقد امرأة مساومات أو اتفاقات بتلك الجرأة التي تضاهي جرأة الرجال؛ لقد كان يتوقع منها إبداء الندم والأسف العميق، أو التماس المغفرة عما سلف -لا سيما أحداث فيتري المأساوية- إلا أنها، وعلى النقيض من زوجها، لم تظهر أي علامات للتوبة أو استشعار الذنب، وبدلاً من ذلك وجدها تجرؤ على "مساومة الله"، وتتحدث بوقاحة للتأثير على البابا، ولم يكن ذلك السلوك غريباً على برنارد الذي كان خبيراً بتاريخ عائلتها؛ إذ رأى فيها امتداداً لأسلافٍ اتُهموا بالزنا، ولأبٍ متغطرس ناصب الكنيسة العداء وفضّل الحياة الدنيا، حتى وصل الأمر بأهلها إلى طرد رجال الدين من مناصبهم لعدم توافقهم مع أهوائهم؛ لذا لم يستغرب أن تكون إليانور غريبة عن طريق الاستقامة مثل ذويها[٣]، وفي نهاية المطاف، يبدو أن كلاً من الطرفين قد أوفى بعهده؛ إذ التزمت إليانور بوصايا برنارد، وبرّ هو بكلمته، لتثمر تلك التهدئة عن إنجاب إليانور لطفلتها الأولى بعد عام واحد، وتحديداً في عام ١١٤٥، وقد أطلقت عليها اسم ماري Mary (١١٤٥ – ١١٩٨) تيمناً بالعذراء مريم، وهي الطفلة التي قُدّر لها لاحقاً أن تتزوج من وريث ثيوبالد وتصبح كونتيسة لشامباني[١].

شعرت إليانور بالسأم والملل لاسيما بعد ابتعادها عن الشؤون السياسية وعلى الرغم من وجود طفلتها ماري إلا أنها تركت تربيتها للخادمات،أما لويس فظلت ذكريات الحرب متوهجة في داخله، وعلى الرغم من أنه لم يعد يعاني من الكوابيس، إلا أنه لم يتعافى تماماً

---

(1)Meade, op.cit., pp. 63-64; pernoud, op.cit., pp. 38-41; Weir, op.cit., p. 26.
(2)weir, op.cit., pp.45-46.
(3) Richard, Alfred, op.cit., p.82; Kelly, Eleanor, P. 29, Meade, op.cit., p. 67.

من أحداث فيتري ومع أنه فعل كل ما بإمكانه للمساعدة في إعادة بناء البلدة المحترقة، فقد ظل يراوده يقين بأن جهوده قاصرة عن التكفير عن آثامه وخطاياه، فقد رأى أن الشيء الوحيد الذي يستطيع محو خطاياه هو الحج إلى الأراضي المقدسة، اذ كانت القيام برحلة الحج رؤية لاحت أمام عينيه منذ الطفولة، فمنذ أن كرس نفسه لخدمة الكنيسة وهو يتخيل نفسه وهو يقطع الطريق إلى القدس، ويقضي عيد الفصح في الضريح المقدس، كما عهد إلى إليانور بسر آخر هو أن أخيه الأكبر فيليب حلم بزيارة قبر السيد المسيح وعندما قتل فيليب أقسم لويس على القيام برحلة الحج بدلاً عنه[٢].

ويتبين لنا مما تقدم أن السنوات الأولى من حكم الملك لويس السابع قد اتسمت بالتخبط الشديد الناجم عن ضعف شخصيته، وتناقض قراراته، وخضوعه المستمر لطموحات زوجته إليانور أكيتاين، وقد أسفر ذلك الضعف عن سلسلة من الإخفاقات السياسية والعسكرية، بدءاً من سوء التعامل مع التمردات الداخلية ومطالب الحركات الكومونات، مروراً بالفشل المهين في حملة تولوز، وصولاً إلى الصدام العنيف مع البابوية والكنيسة بسبب التدخل في التعيينات ودعم الزيجات غير الشرعية، وتوجت تلك الأزمات بحرب انتقامية مدمرة ضد مقاطعة شامباني انتهت بفاجعة حريق كنيسة فيتري ومقتل مئات المدنيين، وهي الحادثة التي شكلت نقطة تحول كبرى؛ إذ أغرقت الملك في ندم عميق واكتئاب حاد، مما دفعه في النهاية - وبعد الرضوخ للسلام بضغط من الكنيسة - إلى اتخاذ قرار مصيري بالتكفير عن خطاياه عبر الخروج للحج إلى الأراضي المقدسة.

---

[1] Richard, Alfred, op.cit., p.82; Meade , op.cit., p. 67.

[٢] محمد مرسي الشيخ ، المصدر السابق ، ص ٤٢٠ ؛ محمد عبد النعيم ، المصدر السابق ، ص ١٨٠ .

ثانياً. سياسة الملك لويس السابع بعد عودته من الحملة الصليبية الثانية ١١٤٩-١١٨٠:

شكلت مرحلة ما بعد الحملة الصليبية الثانية حقبة مفصلية وحرجة في تاريخ حكم الملك لويس السابع، إذ امتدت تداعياتها لتشمل العقود الثلاثة الأخيرة من حياته، فبعد أن عاد من المشرق مثقلاً بتبعات الإخفاق العسكري والإحباط الديني، وجد الملك نفسه مضطراً لمواجهة واقع سياسي واجتماعي معقد داخل مملكته، ولم تقتصر تحديات تلك المرحلة على احتواء الغضب الشعبي ومعالجة الآثار النفسية والسياسية لهزيمة الحملة، بل امتدت لتشمل أزمات أسرية عميقة وديناميكيات إقطاعية عاصفة غيّرت خريطة النفوذ في القارة الأوروبية، لاسيما مع تصاعد الصراع مع الأسرة البلانتاجنتية والانفصال التاريخي عن زوجته إليانور أكيتاين وما تلاه من خسارة لقطاع واسع من الأراضي، وعلى الرغم من تلك العواصف السياسية والعسكرية، أظهر لويس السابع نهجاً فريداً ومغايراً في إدارة شؤونه الداخلية، متخذاً سياسات اتسمت بتسامح لافت مع الأقليات، ومكرساً سنواته الأخيرة لتأمين استقرار التاج الفرنسي وضمان استمرارية حكم الأسرة الكابية، وتقتضي الإحاطة الشاملة بسياسة الملك في تلك المدة الحافلة التوقف عند أبرز ملامحها، بدءاً من تفحص المشهد الداخلي الذي لاقاه الملك فور تطأ قدماه العاصمة.

١. أوضاع فرنسا الداخلية بعد عودة الملك لويس إليها.

في مطلع شهر تشرين الثاني من عام ١١٤٩، وعقب غياب ناهز العامين والنصف، عاد الملكان إلى العاصمة باريس، فدخلاها وسط مراسم احتفالية مهيبة تصدّرها الأب سوجر الذي حرص على تكريمهما ومنح الملك لويس أوسمة تقديراً لشجاعته الشخصية، بيد أن تلك المظاهر الاحتفالية لم تنجح في حجب مشاعر الحزن والغضب الدفين التي اعترت نفوس الشعب الفرنسي جراء النتائج المخيبة للحملة الصليبية الثانية، إذ طرحت الأوساط التي لم تشارك في الحملة تساؤلات ملحة حول مسببات ذلك الإخفاق الذريع، وعلى الرغم من أن الرأي العام الفرنسي عزا أسباب الفشل ظاهرياً إلى خيانة الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين Manuel Komnenos[١] لعقده هدنة مع السلاجقة، وإلى فساد أمراء بيت المقدس لقبولهم الرشوة من حاكم دمشق معين الدين أنر[٢] مما أدى لفك الحصار عنها، إلا أن سهام النقد واللوم الأكبر وُجهت بشكل مباشر إلى الملكة إليانور بذريعة أن كثرة أمتعتها أعاقت

---

[١] مانويل كومنين (١١١٨ - ١١٨٠): أطلق الشعب البيزنطي عليه لقب (الحاكم الأعلى) أي الشخص الذي له السلطان الأعلى على الجميع وأنه بالتالي إمبراطور الرومان وليس أحد سواه إمبراطورًا، وقد تولى العرش خلفًا ليوحنا الثاني، كان يؤمن بفكرة السيادة العالمية، فله سياسته في الشرق والغرب معا. يراجع : علي محمد محمد الصلابي ، الدولة الزنكية، المكتبة العصرية ، دمشق ، ٢٠٠٧، ص ٤٩١.

[٢] معين الدين أنر : هو معين الدين بن عبد الله الطغتكيني، كان أحد مماليك طغتكين في العهد السلجوقي ثم أصبح مدير حفيده محمود بن بوري طغتكين هب لمقاومة حصار الصليبيين لدمشق عام ١١٤٨ودافع عنها بالدهاء والقتال، وهو الذي أنشأ المدرسة المعينية الحنفية بحصن الثقفين غربي المسجد الأموي (في منطقة الحديقة اليوم) عام ١١٣٠ ، وإليه ينسب قصر معين ببلاد الغور من أعمال دمشق. تزوجت ابنته عصمت الدين خاتون من نور الدين محمود وبعد وفاته من صلاح الدين الأيوبي. توفي سنة ١١٤٩ . يراجع : ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت ، ١٩٠٨، ص ٢٤٨ ؛ ابن الجوزي ، مرآة الومان في تاريخ الأعيان ، ج٨ ، حيدر آباد ، ١٩٥١، ص ٢٠٣ .

تقدم الجيش، كما طال اللوم عمها ريموند الثاني دي بواتية Raymond de Poitiers [١]، والقائد جيفري دي رانكون Jeffrey D. Rancon لعدم التزامه بالأوامر العسكرية للملك لويس أثناء عبورهم آسيا الصغرى[٢].

دهش لويس مما وجد عليه فرنسا، التي كانت في حال أفضل مما تركها عليه، وذلك بفضل مجهودات وزيره سوجر[٣]، وبعد عودة إليانور إلى باريس سيطرت عليها حالة شديدة من الكآبة والحزن الذي كانت تعاني منه من قبل لاسيما أنها علمت أنها حامل للمرة الثانية ، على الرغم من أن علاقتها بلويس كانت فاترة مصحوبة بالخلافات، ولما جَرته الحملة الصليبية الثانية من أحداث، وأقواها ارتياب لويس في عفة زوجته لاسيما بعد زيارتهما لعمها في أنطاكية، وعلى أيه حال يبدوا أن جنس المولود هو الفيصل في استمرار علاقة الاثنين ببعضهما[٤].

سيطر على الملك لويس يقينٌ راسخ بأنه سيرزق أخيراً بالوريث الذكر الذي طال انتظاره لسنوات، مستنداً في ذلك إلى إيمان عميق بجدوى نصائح البابا التي لا يمكن -في نظره- إلا أن تثمر عن طفل سليم؛ وهو يقينٌ دفع حتى الفرنسيين، الذين دأبوا على تشويه سمعة الملكة إليانور، إلى اضطرار التعامل معها كأم لوريث العرش المحتمل، وعلى النقيض من تفاؤل الملك، كانت إليانور تكابد وطأة اكتئاب حاد طوال أشهر الحمل، إذ بدت الحياة في عينيها خاوية من القيمة ومشاعر الحب أكثر من أي وقت مضى، وقد تجسدت تلك الفجوة العاطفية بوضوح في حياتهما الخاصة؛ وعلى الرغم من مبيتهما في حجرة واحدة، كان كل منهما ينفرد بسرير مستقل، وظلت محاولات لويس الحثيثة للتقرب من زوجته تصطدم بنفورها الشديد وعدم رغبتها في البقاء بجواره [٥] .

وضعت إليانور ابنتها الثانية إليس Alis (١١٥٠– ١١٩٧) في أوائل صيف عام ١١٥٠ في هدوء تام دون ترحيب ومظاهر باهظة بالأميرة الجديدة، فلويس كان ينتظر وريثا ذكرًا طال انتظاره ، بعد أن شارف عمره على الثلاثين، ولم يسبق لعرف ال كابيه أن لا يكون للملك ولي عهد ذكر، لذلك بدأ بالتفكير بان الرب غير راض عن زواجه، وان إليانور كانت محقة في التشكيك في صحته، وكان ذلك رأي بارونات فرنسا ايضاً الذين بدأوا يحثون لويس

---

[١] ريموند دي بواتية: (١١١٥ - ١١٤٩) ريموند الثاني كان أمير إمارة أنطاكية بين السنوات ١١٣٦–١١٤٩. وكان أصغر أبناء وليم الرابع دوق أنطاكية وقتل في معركة إنب التي جرت بينه وبين نور الدين زنكي بضربة سيف من أسد الدين شيركوه بن شاذي وأرسل رأسه إلى الخليفة العباسي المقتفي لأمر الله خلفه ابنه بوهيمند الثالث تحت وصاية والدته نظرا لصغر سنه. يراجع :

Catlaus, Brian A. Infidel Kings and Unclean Warriors: Faith, Power and Violence in the Age of the Crusades and Jihad. Farrar, Strauss and Giroux. 2014,p. 86.

[2]François Armand Gervase, Histoire du sucre, Volume III, Imprimerie François Barois, Paris 1721, p. 349.

[3] Owen, op.cit., p.28; Kelly, op.cit., p.71; Meade, op.cit., pp.127-130; Gobry, Louis vii, p.141.

[4] Meade, op.cit., p.128; Owen, op.cit., p.29.

[5]Meade, Eleanor, P.128. Kelly, Eleanor, P.74.

على تنحية الملكة جانباً والزواج من امرأة اخرى، مما جعله يفكر في الأمر بجدية[١].

وعلى الرغم من حالة الاضطراب والغضب والقلق التي سادت فرنسا عقب ولادة الأميرة إليس؛ فهناك شخص واحد لم ينتابه مثل ذلك وهو الأب سوجر الذي نصح لويس أن يتراجع عن قراره، لاسيما أن لويس وإليانور لا يزالا في شبابهما والعمر أمامهما لإنجاب وليًا للعهد، وحذره بأنه سوف يخسر ربع فرنسا بخسارته إقطاع إليانور إذا طلقها، فيفقده مصدر قوته[٢].

وعلى الرغم من اختلاف وجهات النظر التي سادت فرنسا حول مسألة الطلاق، الإ أن وجهة نظر الأب سوجر هي التي انتصرت، وتمَ التراجع عن فكرة الطلاق لاسيما وأن سوجر أدرك النتائج التي سوف تترتب على ذلك الطلاق، فلن تقتصر على خسارة فرنسا لدوقية أكيتاين فقط بل إنه في حالة إذا ما تزوجت إليانور مرة أخرى فإن أملاكها سوف تنتقل إلى زوجها الجديد ، وذلك يؤدي إلى ارتفاع شأنه وجعلة في مكانة إعلى من مكانة سيده الملك، لذلك بذل الأب سوجر كل جهوده لمحو فشل الحملة الصليبية الثانية من عقول الفرنسيين، كما حاول إزالة الإحباط من نفس لويس وأقنعه بأن الحياة يجب أن تستمر، كما أبلغه بالمكائد التي دبرت ضده أثناء غيابه في الشرق من بعض أتباعه المعادين[٣]، وعلى رأس هؤلاء الأتباع كان جيفري بلانتاجنت[٤]،كونت أنجو[٥]، وابنه هنري الثاني Henry

---

[١] بالنسبة للبارونات الذين حاولوا إقناع الملك لويس بتطليق إليانور فإنهم برروا موقفهم بأن دوقية اكتاين هي أكثر المقاطعات تمرداً واضطراباً ، في أوروبا ولم يسبق وأن قدمت لفرنسا موارد وإيرادات مهمة.وإذا نظرنا إلى هذا الرأي نجد أنه صحيحا ومقبولا لأن لويس السادس نفسه الذي كان يتمتع بشخصية قوية لم يستطع السيطرة على الفوضى والتمرد المنتشرة في اكتاين وكان يفتقر إلى الإيرادات التي تمكنه من إخضاع تلك الدوقية وقد استمرت تلك الفوضى بعد وفاة لويس السادس عام ١١٣٧ وتولى ابنه لويس السابع، فمملكة الفرنجة لم تكن مهيأة لاحتواء هذه المقاطعة الكبيرة حتى منتصف القرن الثاني عشر .

Owen, op.cit., p.29; Pernoud, op.cit., p.78; Meade, op.cit., p.129.

[٢] دينس مونيقورس، المصدر السابق، ص ٧٤.

Owen, op.cit., p. 31; Meade, op.cit., p.130.

[٣] روجر أوف ويندوفر ، ورود التاريخ، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ، ج٣٩ ، ترجمة: سهيل زكار ، دار الفكر ، دمشق ، ٢٠٠٠، ص ١٦٨.

[٤] يعود الفضل في إرساء قواعد أسرة البلانتجنت إلى سلسلة من شحن القلاع في وادي اللوار، وقد ارتقى أمراء تلك القلاع في القرن العاشر ليصبحوا كونتات أنجو، كان الانجنفيين ذو مزاج ناري، وأقوياء في القتال، يسرعون للانتقام مما لحقهم من أخطاء، كما أنهم كانوا كرماء نحو الكنيسة. كان هؤلاء الرجال ذوي تأثير رفيع في شغل أدارهم في النشاطات السياسية المعقدة، وبالتدريج تمكنوا من بناء قاعدة قوية من خلال مزيج من النشاط الحربي والدبلوماسي والزيجات السياسية الجيدة والتحالفات، ففي سنة ١١٢٨ غذا الكونت فولك الخامس ملكاً للقدس، وترك حكم أنجو لإبنه جيفري الأشقر (١١٢٨ ١١٥٦) وتمكن جيفري من الاستيلاء على نورمنديا وادعى الحق في عرش إنكلترا من خلال زواجه من الإمبراطورة ما تبلدة وقد لقب جيفري الأشعر بلقب بلانتجنت لأنه كان يرتدي قبعة زينت بقشة مكنسة وحمل أبناء جيفري هذا اللقب وسار ابن جيفري هنري الثاني على خطا والده بالتحرك السياسي فتزوج زواجا رائعا وكان مهاجما فعالا ولذلك أقام مملكة واسعة وحافظ عليها. يراجع : سهيل زكار ، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ، تواريخ أسرة بلانتغنت ،ج٣٠ ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٩٨ ، ص ٧ .

[٥] انجو او الامبراطورية الانجوية: تسمية تطلق على مجموعة من المناطق التي كان يحكمها عائلة بلانتاجانت الانجويون اثناء القرن الثاني عشر ومطلع القرن الثالث عشر الواقعة بين جبال البرانس جنوباً حتى ايرلندا شمالا وتاسست هذه الامبراطورية في عام ١١٥٤ وعاصمتها شينون . يراجع :حسنين عبد الكاظم عجة ،سنوات الفوضى في انكلترا بين صراع الغرباء ومصائب الانكليز،ص١٢١.

II[١]، وكان جيفري هو ابن الملك فولك الخامس Fulk V كونت أنجو نموذج للأمير النبيل في العصر الوسيط، وقد آل إليه إقطاع أبيه بعد مغادرة والده إلى الأراضي المقدسة، وقد تزوج جيفري من ماتيلدا ابنة هنري الأول ملك نورماندي وإنكلترا، وأنجب منها ابن أطلق عليه هنري الثاني تيمنا باسم جده[٢]، وقبل خروج الملك لويس السابع في الحملة الصليبية الثانية عام ١١٤٧ حاول جيفري كونت أنجو ونورماندي التقرب من سيده لويس فتوجه إلى البلاط الفرنسي لخطبة ماري ابنة الملك لويس وإليانور لابنة هنري الثاني، وكان جيفري يخطط لإتمام ذلك الزواج لأنه كان يطمع في أن يحصل من ورائه على دوقية أكيتاين أو جزء منها كصداق للأميرة ماري، ولم تعر الملكة إليانور الخطبة والفتى الصغير هنري أي اهتمام بسبب انهماكها في التحضير للحملة الصليبية الثانية[٣].

سمع برنارد من كليرفو بأمر تلك الخطبة، فاتخذ موقفاً صلباً تجاهها، ويعود ذلك إلى أمرين: أولهما الخوف من ضياع دوقية أكيتاين من الملك الفرنسي، وثانيهما وجود صلة قرابة بين ماري وهنري من الدرجة الثالثة، ولأن برنارد كان يعرف جيفري وابنه حق المعرفة، ولعله قد قرأ في وجه هنري ملامح قائد قادم لا يستهان بهِ، لذا فقد أرسل للويس تنبيها لرفض تلك الخطبة **"إن كونت أنجو (جيفري) قد ألح في طلب الزواج بين ابنه وابنتك، وهذا أمر لا ينصح فيه أبداً بل أنه أيضًا غير قانوني"**[٤].

كان هنري الثاني يبلغ من العمر ثلاثة عشر عاماً عندما جاء مع والده للخطوبة، لا شك أن إليانور فحصته بدقة بوصفه صهراً لكنها كانت أيضا مشغولة في تلك المدة بالتحضير للحملة الصليبية أكثر مما كانت مهتمة بهذين الزوجين الشابين[٥]؛ وبعد عودة لويس السابع من الحملة الصليبية الثانية كان هنري بلانتاجنت شاباً يافعاً، وقد سمع أن ذلك الفتى أصبح شخصاً لا يستهان بهِ، فقد تنازل له أبوه عن إقطاع أنجو عام ١١٥٠، كما سمع لويس بخبر أفزعه، وهو أن هناك محاولات لضم أنجو ونورماندي وانكلترا تحت حكم رجل واحد، واستبعد لويس أن يكون ذلك الرجل هو هنري الفتى اليافع إلا أن ستيفن ملك انكلترا أكد له

---

[١] هنري الثاني(١١٣٣– ١١٨٩): يُجسد الملك هنري الثاني نموذجاً للقائد السياسي المحنك الذي استطاع بفضل إرادته الصلبة تأسيس ملكية مركزية قوية، مُخرجاً إنكلترا من حقبة الفوضى التي سبقتها، عبر فرض الأمن وتحجيم نفوذ البارونات وتوجيههم نحو النشاط الزراعي بدلاً من النزاعات العسكرية. وقد تزامنت هذه السياسة الداخلية مع إصلاحات قضائية واقتصادية وتطوير للمؤسسة العسكرية، مما مكنه من بناء إمبراطورية واسعة امتدت من جنوب فرنسا إلى شمال أسكتلندا. غير أن طموح هنري في إخضاع كافة السلطات للتاج اصطدم بنفوذ الكنيسة وتوماس بيكيت، وهو صراع انتهى بمأساة مقتل بيكيت واضطرار الملك لاحقاً للإقرار بحريات المؤسسة الدينية على الرغم من نجاحاته السياسية والجغرافية الهائلة . يراجع :

Gesta Regis Henrici Secundi (The chronicle of the reigns of Henry II and Richard 1 A.D 1169-1192, vol. l, ed. W Stubbs, (London 1867); J. P. Carr, Feudal Strength, Henry II and the Struggle for Royal Control in England, (Eastern Michigan University 2007),pp. 3-17.

[٢] سهيل زكار ، الموسوعة الشامية ، ،ج٣٠، ص ٤١ .

Douglas Boyd ,op,cit,p.121.

[3] Meade, op.cit., p.134.

[4] Ibid, p.135.

[5] Meade, Elenor,op,cit, PP. 135 – 136.

أن هناك قلق كبير من طموح هنري بلانتاجنت[١].

كان هناك تحالف قوي بين الملك لويس السابع والملك ستيفن ملك انكلترا وابنه يوستاس Eustace منذ عام ١١٣٧، فقد قدم يوستاس الولاء للويس من أجل مقاطعة نورماندي التابعة للتاج الإنكليزي، وقد تعاطف لويس السابع مع ستيفن ملك انكلترا، ولوجود صلة قرابه بينهما من ناحية يوستاس نجل ستيفن الذي تزوج من كونستاس أخت لويس، وقد استوجب ذلك عقد معاهدة بين الطرفين ضد الملكة ماتيلدا والدة هنري وزوجة جيفري[٢].

كان لويس السابع هو السيد الأعلى لجيفري وهنري، وكان لا بد من أخذ موافقته على ذلك التنازل، إلا أن هنري رفض الاعتراف بسيادة لويس وتقديم التحية له، وازدرى ذلك العرف الذي يلزمه بذلك، فكان ذلك سببًا كافيًا لبداية الخلاف بين لويس وهنري[٣]، فقرر لويس السابع أن يلقن الشاب هنري درسًا لا ينساه، فتحالف مع الملك ستتيفن ملك انكلترا وابنه يوستاس ضد جيفري وابنه هنري وسارت قواته لقتالهما، والتقى جيش لويس ويوستاس عام ١١٥٠، بجيش لا يستهان بهِ من أنجو وبريتاني ونورماندي وعلى رأسهم هنري ووالده جيفري أمام برج آسكي، إلا أن تدخل الوساطة ونصائح الأب سوجر الذي صنع السلام بين الملك لويس السابع والدوق جيفري، حيث نصح جيفري بأن يقوم الابن هنري الثاني بالذهاب إلى باريس لتقلد دوقية نورماندي من الملك الفرنسي لويس السابع، فذهب إلى بلاط الملك الفرنسي في آب ١١٥١، وأقسم يمين الولاء والطاعة للملك الفرنسي لويس السابع ، وتنازل عن بعض الأقاليم الصغيرة في إقليم فيكسين Vexin[٤].

ويتبن كيف تبلورت العلاقات السياسية الفرنسية الإنكليزية على أساس ما يراه الملك الفرنسي من أن مصلحة التاج الفرنسي كانت تفرض نفسها أولا في العلاقات بين المملكتين، وتلك النهج كان يميز سياسة ملوك فرنسا بصفة خاصة، ويتضح ذلك من خلال العلاقات بين الملك لويس السابع والدوق جيفري بلانتاجنت وابنه هنري، إذ أعاد ذلك إلى الأذهان أسلوب أسرة هيو كابيه المفضل في محاولة تجزئة المملكة الأنجلو نورماندية، من أجل القضاء عليها لما تمثله من خطر على مملكة فرنسا، لذلك فالملك لويس السابع لم يرد ضياع الفرصة في التنكر لما صالح عليه الملك ستيفن وابنه من قبل وهي دوقية نورماندیا وعلى الرغم من علاقة المصاهرة التي تربطهما ، لذا سرعان ما صالح الدوق جيفري بلانتاجنت وابنه هنري على دوقية نورماندیا نفسها، وفي ١٣ كانون الثاني ١١٥١ توفي معلم لويس الأول ومستشاره وصاحب الكلمة العليا في المملكة الأب سوجر بشكل مفاجئ، وبوفاته ظهرت عقبتين مهمتين: أولهما تجدد الصراع بين لويس السابع وأسرة البلانتاجنت، وثانيهما فسخ

---

(1)Meade, Elenor,op,cit, PP. 135 – 136.

(٢) روجر أوف ويندوفر ، المصدر السابق، ص ١٥٣-١٥٤ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٦٨.

(4)Meade, op.cit., p. 141; Gobry,op,cit,p. 153.

زواج لويس من إليانور[١] .

وإذا تساءلنا عن سبب تجدد الصراع بين لويس وأسرة البلانتاجنت يلاحظ أن أحد أتباع لويس السابع ويدعى جيرالد بيرليه Berlai Jiraldus - وكان حاكمًا على قلعة محصنة جداً في مونتريه Montreuil، وممثلا لمصالح آل كابية في بواتو - كان شديد المضايقة لجيفري لوقوع تلك القلعة بين بواتو وأنجو، وقد قام جيفري بمحاصرة القلعة لمدة عام، وفشل جيرالد في ردعه، وأخيرا استولى جيفري على القلعة وأخذ جيرالد أسيرا، وخرقاً للعرف الإقطاعي قام الدوق جيفري بحبسه في زنزانة وعامله معاملة لا تليق بممثل للبلاط الفرنسي إذ يعد ذلك الأمر إهانة شخصية له[٢]، وفي الوقت نفسه لم ينس إهمال هنري ابن جيفري من تقديم التحية له عندما أصبح دوقاً على نورماندي، لذا فقد عد لويس أن هنري وقحاً تجاهل واجبه الإقطاعي، كما أن موقف جيفري من جيرالد قد ألزم لويس تأديبهما، أما إليانور فقد كانت تنظر لذلك الأمر على أنه مضيعة للوقت وليس له مبرراً[٣].

في مطلع صيف عام ١١٥١، حشد الملك لويس قواته العسكرية على تخوم نورمانديا استعداداً لمواجهة جيفري وابنه هنري، إلا أن الأقدار شاءت أن يُصاب الملك بحمى شديدة في خضم العمليات العسكرية، مما اضطره إلى الانسحاب والعودة إلى باريس حيث لازم الفراش لمدة طويلة، ومع ظهور بوادر تماثله للشفاء، أشار عليه مستشاروه بضرورة وقف الحرب وحقن الدماء، مذكرين إياه بأن مكانته كملكٍ حمل الصليب وأدى مناسك الحج تتنافى مع الاستمرار في الاقتتال وإزهاق الأرواح[٤]، فتوصلوا إلى اتفاقية سلام (هـدنـه الــرب)[٥] واتفق بموجبها أن يؤدي هنري قسم الولاء للويس ويكلف برنارد للتوصل إلى تسوية بين الطرفين وأن يرفع قرار الحرمان الذي صدر بحق جيفري بسبب ما فعله مع جيرالد[٦].

وفي ٢٥ آب ١١٥١ وصل الكونت جيفري، وابنه هنري إلى باريس في قاعة المحكمة الدولية في باريس بناءً على دعوة من برنارد، وذلك لحضور المفاوضات حول هدنة السلام مع سيدهم الأعلى الملك لويس السابع، ولم تكن زيارتهما لباريس لمجرد تقديم الولاء والتبعية إلى لويس فقط؛ إنما كان هدفهما الرئيس الحصول على موافقة لويس على تعيين هنري دوقاً

---

(1)Robert of Torigni, Records of the Reigns of Stephen, Henry II and Richard I, edited by Richard Howlett, Rawls Series, Volume IV, Longman, London, 1889, p. 162.; Owen, op.cit., p.30; Pernoud, op.cit., p. 80; Kelly, op.cit., p.75.

(٢) روجر أوف ويندوفر ، المصدر السابق، ص ١٣٧ .

(3) Owen, op.cit., p. 31; Meade, op.cit., pp.138-141; Pernoud, op.cit., pp. 79-80; Weir, op.cit., pp. 87-88.

(4) Meade,op.cit,P. 141.

(٥) هدنة الرب : محاولة من الكنيسة للحد من القتال والحروب في أوروبا، فبدأت بتحريم القتال في الأيام المقدسة ثم امتد ذلك التحريم واتسع فشمل بعضاً من أيام الأسبوع، وأي مسيحي يقوم بقتل مسيحي آخر فكأنما أهدر دم المسيح ، وكان قانوناً كنسياً صارماً ينبغي احترامه، وكل من يخالفه يعاقب بالحرمان الكنسي . يراجع : ستيفن رانسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج١، ترجمة : السيد الباز العريني ، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، عمان ، ١٩٩٧، ص ١٣٠ – ١٣١ .

(٦) روجر أوف ويندوفر ، المصدر السابق، ج ١ ، ص ١٦٩.

لنورمنديا وأيضا لحل مشكلة جيرالد برلي؛ لكن زيارة جيفري وابنه جرت أثناء مرض لويس، وبعد حضورهم استيقظ بصعوبة للترحيب بضيوفه، وقد بدا الجو غير مناسب للمناقشة العادية فكان لارتفاع درجة حرارة الطقس أن أصيب الحاضرون بحدة في المزاج كما أن عدم توقير واحترام الملك عند دخولهما القاعة بددت أي آمال للمصالحة السلمية، فلم يتحدث جيفري وابنه مع الملك لويس بأسلوب مهذبً بل تحدثو بتحدي خال من التوقير، وعلاوة على ذلك فإن جيفري قد صحب معه خلال الزيارة الأسير جيرالد الذي ساقه مكبلاً في السلاسل بصورة مهينة، الأمر الذي سبب صدمة عنيفة للملك لويس السابع، كما أن ذلك الأمر أثار صمت ودهشة الجميع، وأغضب القديس برنارد الذي طلب منه الإفراج عن جيرالد مقابل رفع قرار الحرمان ضده، إلا أن جيفري رفض أن يطلق سراح جيرالد وقال إذا كان سجني لجيرالد خطيئة فأنا أرفض العفو، وعندها هدد برنارد جيفري بأن عقابه سيكون الموت المفاجئ خلال شهر، ولكن جيفري لم يظهر أي قلق حيال ذلك التهديد[١].

شكلت تلك المناقشة المحتدمة التي شهدها البلاط الملكي، والتي لم يسبق لها مثيل منذ سنوات، دليلاً قاطعاً أمام الملك لويس على تعاظم الخطر البلانتاجنتي، ومع ذلك كان موقف الملك مثيراً للدهشة؛ إذ التزم الصمت ولم يحرك ساكناً لتهدئة حدة التوتر الذي خيم على الأجواء، مما أدى في نهاية المطاف إلى انسحاب جيفري وابنه من القاعة، وهو سلوك طالما انتهجه الأنجوفيّون كلما تعثرت مفاوضاتهم السياسية، وفي خضم ذلك المشهد المتوتر، استعادت إليانور -التي كانت حاضرة- ذكريات والدها وجدها ومواقفهما الصارمة تجاه رجال الدين، مستهجنةً في قرارة نفسها إصرارتلك الفئة على إقحام أنفسهم في كل شاردة وواردة، وهو الأمر الذي طالما أثار حفيظتها وسأمها، فلم يرغب جيفري في أن يكون دمية في يد برنادر، إنما كان من نوعية الرجال الذين كان منهم أجدادها وهي إن لم تستطع مساعدته أثناء المناقشة؛ فقد أيدته في سرها ، حيث حضرت إليانور ذلك اللقاء وكان لديها الفرصة الكافية أثناء المفاوضات لدراسة شخصية هذين الرجلين جيفري وهنري، فعلى الرغم من أن جيفري كان في الثامنة والثلاثين من عمره لكنه لا يزال محتفظاً بالصفات الطبيعية التي أكسبته الوسامة، إلا أن ابنه هنري جذب انتباهها أكثر من والده فقد كان في الثامنة عشر من عمره، مثقفاً ثقافة متنوعة استمدها من القراءة والتجربة، وكان متألقا ومهذباً وقوي البنية ووسيم ومظهره مظهر أمير حقيقي، وعلى الرغم من إعجابها بجرأة جيفري إلا أن الذي لفت انتباهها هو هنري ابن جيفري صاحب البنية القوية، والطول الفارع ، فقد بدا شابًا وسيما، ذا شعر أحمر وعيون زرقاوان تتألقان بالطاقة، وبشرة منمشة، ورأت فيه إليانور مظاهر الفتوه والرجولة، على الرغم من صغر سنه، إلا أنه كان ذو شخصية مختلفة تماماً عن شخصية لويس الراهب، فرأت فيه الزوج الذي طالما حلمت بهِ على الرغم من أنها كانت تكبره بإحدى عشرة سنة[٢].

---

(1)Meade , op.cit,pp.141-142;Owen, op.cit,p.30.

(2)Kelly, op.cit., p 77; Mead, op.cit., p.142.

تبادل هنري وإليانور نظرات الإعجاب، وقيل أن جيفري قد لاحظ تلك النظرات فحذر ابنه من الوقوع في المحظور مع زوجة سيده الأعلى إليانور، إلا أن شغف هنري وطموحه العالي جعله يرى إليانور فرصة لا يمكن التفريط بها[١].

أقام جيفري وابنه هنري في قصر الملك لويس بباريس لعدة أيام بهدف إجراء مفاوضات سياسية، وهي المدة التي استغلتها إليانور بذكاء لفتح قنوات اتصال سرية مع هنري؛ حيث شرعت في تبادل الرسائل معه عبر إحدى وصيفاتها المخلصات التي كانت موضع ثقتها التامة، ليتوج هذا التواصل باتفاق حاسم بينهما يقضي بالزواج فور حصولها على الطلاق من لويس، وقد نقل المؤرخ والتر ماب (Walter Map) - المقرب من هنري وكاتب سيرته- ملامح تلك القصة، مشيراً إلى أن تفاصيل اللقاءات ظلت طي الكتمان، فليس من المعلوم بدقة كيف أو أين تمت تلك الاجتماعات، وإن كانت الترجحات تشير إلى استغلال إليانور لمرض لويس وعجزه، حيث يُعتقد أنها أرسلت وصيفتها عبر الممرات المظلمة للقصر حاملة رسالة تدعو فيها هنري لزيارتها في جناحها الخاص تحت جنح الظلام بعد أن يخلد الجميع للنوم، ومهما كانت الوسيلة التي اجتمعا بها، فقد تمت الخطة بدقة متناهية وسرية تامة حالت دون تسرب أي خبر داخل أروقة القصر، وعلى الرغم من أن الروايات التي تداولها المعاصرون اتهمت هنري بإغواء زوجة سيده الأعلى وسرقتها رغماً عنه، إلا أن التحليل المنطقي للأحداث يرجح كفة أخرى؛ فإذا كان ثمة إغراء، فمن المؤكد أن المبادرة جاءت من جانب إليانور التي لم تكترث لفارق السن بينها وبين ذلك الفتى المفعم بالشباب، ولا الافتقاره لفنون التودد والكياسة التي يتقنها الفرسان، بل وجدت فيه طوق النجاة والفرصة السانحة للهروب من قيود الحياة مع ال كابيه [٢]، فغادر الكونت جيفري مع ابنه هنري باريس، بعد أن تم الاتفاق السياسي بينه وبين لويس، فقد أعطى الحرية لجيرالد وعائلته، وتخلى رسميًا عن فيكسين[٣]، وقدم ابنه هنري التحية للويس، وفي المقابل اعترف لويس بهنري دوقاً على نورماندي، وتبادلا قبلة السلام [٤].

غادر جيفري وابنه هنري باريس بعد الاتفاق مع الملك لويس في أوائل أيلول عام ١١٥١، بعد أن نجحوا في تحقيق أهدافهم في خداع لويس، لكنهم في الوقت نفسه كانوا غاضبين لأنهم اضطروا إلى التنازل عن فيكسين، التي اعتبروها خسارة مؤقتة وثمناً ضئيلاً

---

(1) Mead, op.cit., p 146; Owen, op.cit., p.30.

(2)Wlater Map, De Nugis Curialium (Courtiers' Trifles). Edited and translated by Frederick Tupper and M.B. Ogle (London, 1961), P. 297.

(٣) أثار دهشة الفرنسيين موافقة جيفري وابنه على التنازل عن فيكسين وعلى الرغم من أهميتها الكبيرة لهما وذلك لأنها تقع على الحدود الشمالية الشرقية بين نورمنديا وفرنسا وكانت مثار نزاع بين الدولتين منذ القرن العاشر حتى تم تقسيمها، فأصبح الجزء الشمالي منها تابعا لدوقية نورمنديا، أما الجزء الجنوبي فأصبح تابعا لال كابيه في فرنسا. وعلى الرغم من أن جيفري و هنري اعتبرا بلدة فيكسين مهمة للحفاظ على أمن وسلامة دوقية نورمنديا، إلا أنهما في الماضي وفي العام ١١٤٤ تنازلا عن نصف هذه المدينة إلى لويس السابع مقابل اعترافه بجيفري دوقا لنورمنديا. أما الآن وفي عام ١١٥١ وخلال زيارتهما هذه وافقا على التخلي عن باقي المدينة لمصلحة لويس، وهذا أدهش الفرنسيين ولم يجدوا له تفسيرا سوى أنه يعد معجزة من معجزات برنارد .

(4) Gobry, Louis vii, p 153-154; Robert of Torigni, op.cit., p.162.

مقابل مقاطعة أكيتاين الغنية، ومقابل اعتراف لويس السابع بهنري دوقاً لنورماندي، حيث أصبح في وضع أفضل وأخذ يعد العدة لتحقيق طموحاته في غزو إنكلترا[١].

وفي أثناء رحلة العودة إلى أنجو، اضطر الكونت جيفري وابنه هنري للتوقف للراحة فقاما بالسباحة في نهر اللوارعلى بعد خمسة وعشرين ميلا(٤٠كم) من الجنوب الشرقي من مدينة لومان Le mans المدينة التي ولد فيها هنري، وكان الحر والغبار شديدًا لدرجة يصعب تحملها، فأصيب جيفري فجأة بحمى شديدة، وهناك تحققت نبوءه الأب برنارد، إذ بعد ثلاثة أيام توفي في السابع من أيلول ١١٥١ وكان يبلغ من العمر ثمان وثلاثون، تاركاً لابنه هنري دوقية أنجو، ونورماندي، وإدعاء الحق بعرش انكلترا الذي فشل هو في طلبه[٢]، وقبل أن يصل خبر وفاة جيفري إلى فرنسا، جددت إليانور مطالبتها بالانفصال عن لويس بإلحاح، فوافق لويس على ذلك على الرغم من تردده في السابق، فحاجته إلى وريث ذكر غلبت على حبه لإليانور، ورضى بالتخلي عن الوريثة الأغنى في أوروبا وفي العالم المسيحي، فلا قيمة لستحواذه على أكيتاين من دون وريث ذكر من سيدتها[٣].

تم الاتفاق بين لويس وإليانورعلى الانفصال بشكل سلمي وفقًا لشروطهما التي كانت تنص على أن تستعيد إليانور إقطاعها، وأن تدين بالولاء والتبعية للويس دون أن يتدخل في شؤونها الداخلية، وأن تبقى كلا من ماري التي كان لها من العمر ست سنوات، وأليس التي كانت لا تزال في المهد تحت وصاية لويس؛ لكن أشد ما كان يخشاه لويس هو فقد ميراث ابنتيه بعد إنجاب إليانور من أي زوج وريث ذكر[٤].

---

[١] في الرابع عشر من أيلول من العام ١١٥١ خطط هنري لعقد اجتماع يضم البارونات النورمان لمناقشة ووضع خطة يمكن من خلالها غزو إنكلترا، والتي كانت تستند إلى جمع الأموال من أجل تشكيل جيش كبير من المرتزقة ودفع مرتباتهم، ووجد هنري أنه يستطيع الآن ، بعد اعتراف لويس،جمع تلك الأموال بسهولة ويسر بعد أن قوى مركزة .

Meade, op.cit., p.146.

[٢] أميرة مصطفى أمين يوسف ،إليانور دوقة أكتين وملكة فرنسا ثم إنكلترا (١١٢٢ – ١٢٠٤)، حوليات مركز البحوث والدراسات التاريخية ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ٢٠١١، ص ١٢٨؛ سهيل زكار، المصدر السابق، ج٣٠ ، ص ٨٤- ٨٦ .

[3] Meade, op.cit., p.138.

[٤] روجر أوف ويندوفر ، المصدر السابق، ص ١٧١.

٢. طلاق الملك إليانور وعودتها إلى مقاطعاتها في الجنوب.

قبل أن يوضع قرار فسخ الزواج موضع التنفيذ، ذهب لويس مع إليانور في ٢ أيلول ١١٥١ لعمل جولة في إقطاعها أكيتاين، ولم تكن جولة عادية والدليل على أهمية المرافقين الذين رافقوهما فمنهم سكرتيره الخاص ثيري جاليران Terry gleran ومستشاران آخران هما آدم برولارت Adam brulart، وهيو دي شاميفلوري Hugh de chamaiflorie وعدد بارز من الأساقفة والبارونات، وكان الهدف سحب قواته العسكرية الخاصة، وأجهزته الإدارية، تمهيدًا لعودة آلية النظام الإداري لصاحبة الإقطاع[١]، وفي ٢٥ كانون الأول ١١٥١ احتفلت الحاشية الملكية بعيد الميلاد في مدينة ليموج Limoges ومن هناك سافرت الحاشية جنوباً إلى مدينة بوردو Bourdoux وبعدها زارت الحاشية الملكية كنيسة القديس جان دي انجلي Saint Jean d'Angly في الثاني من شباط عام ١١٥٢ إذ حضروا عيد تطهير مريم العذراء[٢]، وخلال تلك الجولة، أصبحت مقاطعة أكيتاين خالية تماماً من الحاميات الفرنسية مهيئةً بذلك الأجواء لعودة إليانور، وفي أواخر الشهر حدث الانفصال الفعلي بين الزوجين؛ إذ توجهت إليانور إلى بواتييه بينما عاد لويس إلى باريس، ولم يتبقَ لإضفاء الصبغة الرسمية على الطلاق سوى انعقاد المجمع البابوي، حيث رُفعت قضية الانفصال بدعوى وجود صلة قرابة بين الزوجين الملكيين، وبمساندة من برنارد وموافقة البابا يوجين الثالث، تم فسخ الزواج رسمياً بحضور حشد من الأساقفة، وفي سياق تصوير المشهد السياسي لهذا الحدث، نقل شاعر من مدينة ريمس صورة نابضة بالحياة تظهر الملك لويس وهو يستشير بارونات، الذين نصحوه بالتخلي عنها قائلين إنها **"شيطانة حقيقية"** قد تدفعه لقتل نفسه، مؤكدين أن الأهم من ذلك هو عدم إنجابها لولي عهد ذكر[٣].

وعلى صعيد السرد التاريخي، رسم أحد مؤرخي القرن السابع عشر مشهداً درامياً خيالياً يصف رد فعل الملكة إليانور لحظة سماعها قرار الطلاق، مدعياً أنها سقطت مغشياً عليها وظلت تبكي بذهول لمدة ساعتين مما أثار قلق الأساقفة والبارونات على سلامتها العقلية، إلا أن تلك الرواية تفتقر إلى المنطق التاريخي وتعد محض خيال، إذ لا يوجد مبرر لحزن إليانورعلى طلاق سعت لتحقيقه وحلمت بهِ لسنوات؛ ولو نُسبت تلك الحالة للملك لويس لكانت أقرب للتصديق، كونه كان كارهاً للانفصال وشعر بالندم والأسف على قراره، وفي المحصلة إذا كان هذا الانفصال يمثل نهاية مخزية للويس، فإنه بلا شك كان بمثابة بداية جديدة وانطلاقة لإليانور[٤].

إن القرار الذي اتخذه لويس بتطليق إليانور والذي عده العديد من معاصريه قراراً أحمق وخاطئ، كان الاختيار الوحيد أمامه، على الرغم من أنه كان يمكنه أن يسجنها ويحتفظ

---

(1) Owen, op.cit., p.31; Meade, op.cit., p .147.
(2)Kelly, Eleanor, PP. 78 – 79;Meade, op.cit., p.147.
(3)Bouchet, Jean, les annals d'Aquitaine, poitiers, 1644, P .141.
(4)Natalie de Waly, Histoires du ministre de Reims au XIIIe siècle, Bibliothèque de Reingard, Paris, 1876, p. 6; Meade, op.cit., p 147; Kelly, Eleanor, op.cit., pP. 78 – 79.

بأملاكها أو يطلقها على أساس الزنا، وفي تلك الحالة أيضا سوف تظل إقطاعاتها ميراثا لبناتها، حيث لا تستطيع إليانور أن تتزوج مرة أخرى بعد اتهامها بالزنا، لكن بالنسبة للويس فإنه لن يستطيع الزواج في الحالتين، فإذا سجنها لا يمكنه الزواج مرة أخرى طالما بقيت إليانور في عصمته وإذا طلقها على أساس الزنا أيضا لا يمكنه أن يتزوج مرة أخرى[١]، لذلك فإن القرار الذي اتخذه كان الحل الوحيد أمامه، وهكذا وبحلول عام ١١٥٢ لم يكن بارونات فرنسا هم المؤيدون فقط لقرار لويس بالطلاق؛ بل وافق عليه الأب برنارد ليس فقط بسبب عدائه الشخصي لإليانور لكن أيضا لوجود قرابة رحم بينهما، وذلك لم يجعله يأسف على خسارة فرنسا للملكة وميراثها[٢].

وفي الحادي والعشرين من آذار ١١٥٢، انتهى الزواج بين الملك لويس السابع والملكة إليانور، وفي يوم ٢٢ آذار سافرت الملكة وأتباعها إلى بواتييه التي وصلت إليها أخبار طلاق إليانور قبل وصولها إليها فاستعد المواطنون بإقامة الموكب وتزيين واجهات المنازل لاستقبال الدوقة، ومرة أخرى، أصبحت الوريثة المرغوبة لأكيتاين، لكنها كانت أيضًا في خطر إجبارها على الزواج مرة أخرى[٣].

خلال رحلة إليانور إلى بواتييه وعند اقترابها من مدينة بلوا Blois علمت أن الكونت تيوبولد أوف بلوا Theobald of Blois يخطط لاختطافها لكنها استطاعت أن تتفادى ذلك حيث قام أتباعها بحمايتها، وأسرعت جنوباً متجهة إلى مقاطعة تورين Touraine، التي كانت تابعة للدوق هنري دوق نورمنديا، وكانت إليانور تعتقد أنه بوصولها إلى هذه المقاطعة سوف تصبح بأمان، لكن خاب ظنها حيث كانت إليانور قد اتخذت احتياطها بعد تعرضها لعملية الاختطاف الأولى، فأرسلت دليلاً للتأكد من عدم وجود فرسان آخرين خططوا لاختطافها، وفي طريق عودتها إلى أكيتاين، اضطرت إلى الفرار ليلًا على متن مركب على نهر اللوار إلى مدينة تورز، لكن الخطر لم ينته بعد[٤].

ففي تورز، علمت أن جيفري، الأخ الأصغر للدوق هنري دوق نورمنديا، كان على استعداد لاختطافها، عندئذ غيرت طريقها مرة أخرى وسافرت على طريق جانبي صغير،

---

[١] إبّان القرن الثاني عشر، رسّخت الكنيسة الكاثوليكية مبدأً يعتبر الزواج، متى ما تمّ بأركانه الصحيحة والمكتملة، سرّاً مقدساً ورباطاً أبدياً لا سبيل إلى نقضه أو حله مطلقاً، وفي حال ثبوت ارتكاب أحد الزوجين لجريمة الزنا، كانت الكنيسة تكتفي بمنح ما يُعرف في الفقه الكنسي بـ "الانفصال عن السرير والمائدة"، يُتيح هذا الإجراء القانوني للزوجين حق الانفصال الجسدي والإقامة في مكانين منفصلين، مما يُعفى الطرف المتضرر من إلزامية المساكنة والعيش مع الشريك الخائن، وعلى الرغم من تحقق هذا الانفصال الفعلي، إلا أنه لا يُسقط الرابطة الزوجية؛ إذ يظل عقد الزواج سارياً ومقدساً أمام الله والكنيسة، وتستمر صفة الزواج قائمة بين الطرفين بكامل اعتباراتها من الناحيتين القانونية والدينية. يراجع :

John Witte Jr, From Sacrament to Contract: Marriage, Religion, and Law in the Western Tradition, Westminster John Knox Press,2012,pp.31-33.

Meade, op.cit., p.148.

[2]Meade, op.cit., p.148.

[3]Salmon, A., Ed. Recueil des chroniques de touraine ed, (tours, 1874) P. 135; Kelly, Eleanor, P. 80.

[4] Kelly, Eleanor, op.cit., p.80.

أخيرًا عادت بأمان إلى قصرها في بواتييه[١]،لقد تحررت إليانور من زواجها التعيس، ولكن كما أظهرت رحلتها إلى الوطن، فقد بدا أنها الآن في موقف أكثر خطورة، لقد كانت ذات يوم ملكة فرنسا المحترمة التي كانت تطالب باحترام رعاياها، وصلت إليانور بعد عيد الفصح قلعة ما بيرجون Ma Bergon حيث بدأت حياتها الجديدة فاجتمعت عائلتها من جديد واستدعت الكتاب لكتابة الرسائل والدساتير، وأرسلت ملاحظاتها إلى أتباعها تخبرهم عن طلاقها وتطلب منهم إعادة الولاء والقسم بإخلاص إلى كونتيسة بواتييه ودوقة أكيتاين، كما حددت المنح والامتيازات لرؤساء الأديرة المختلفة؛ وكان اهتمام الملكة إليانور الأول بعد عودتها هو تخليص أكيتاين من قبضة آل كابيه، على الرغم من أن مواطني الملك لويس غادروا المدينة ، إلا أنها عدت أن ذلك لم يكن كافياً وبالتالي عند وصولها، أعلنت الحاجة إلى إلغاء كل قرار اتخذته إليانور بالاشتراك مع لويس أو اتخذه لويس بمفرده[٢] .

يتضح مما سبق الصعوبات التي تعرض لها كل من الملك لويس وزوجته إليانور خلال عودتهما إلى فرنسا والزيارة التي قاما بها إلى روما للاستماع إلى نصيحة البابا في مسألة قرابة الرحم التي ادعتها إليانور وبنت عليها طلبها والجهود التي بذلها البابا للتوفيق بين الزوجين والإصلاح بينهما كما تبين الأوضاع في فرنسا بعد عودة الملك لويس والملكة إليانور إليها واستمرار توتر العلاقة بينهما لاسيما بعد فشل إليانور في إنجاب الوريث الذكر للمرة الثانية مما جعل مستشاري لويس ينصحونه بضرورة تطليقها واستجابة الملك لرغبتهم، إذ ترتب على هذا الطلاق نتائج أهمها انسحاب قوات الملك لويس من الأراضي التابعة لإليانور ثم عودة إليانور إليها.

٣.سياسة لويس السابع تجاه اليهود.

تميز عهد الملك لويس السابع بسياسة فريدة من نوعها تجاه الأقلية اليهودية في فرنسا، فقد أظهر تسامحًا وحمايةً لهم، الأمر الذي بدا غريبًا ومدهشًا في نظر معاصريه، لاسيما بالنظر إلى ورعه الشديد وولائه المطلق للكنيسة الكاثوليكية، في زمن كانت فيه المشاعر المعادية لليهود تتصاعد في أوروبا، مدفوعة بالتحيزات الدينية والاقتصادية، أذ شكل نهج لويس السابع استثناءً ملحوظًا، بسعيه إلى الموازنة بين التزاماته الدينية ومسؤولياته كحاكم يسعى لتحقيق الاستقرار والعدالة لرعاياه كافة[٣].

لم تكن حماية لويس السابع لليهود مجرد موقف شخصي، بل تجسدت في إجراءات قانونية وإدارية ملموسة، ابرزها مرسوم شرطة إيتامبس الصادر عام ١١٧٩، الذي يعد وثيقة تاريخية مهمة، اذ لم يكتفِ ذلك المرسوم بالاعتراف بالوجود القانوني للجالية اليهودية في المدينة، بل أقرّ بوجود منصب العميد اليهودي، الذي يتمتع بسلطة قضائية محددة، تخوّله

(1) Salmon, Chroniques, op.cit., p.135.
(2) Meade, op.cit., p.149.
(3)Achille Locher, Philippe Auguste et son temps (1137-1226), Bibliothèque Hachette et des Sciences Comptes, Paris, 1881, p.48.

إعتقال المدينين اليهود الذين يتخلفون عن سداد ديونهم، ويشير ذلك الإجراء إلى وجود نظام من الإدارة الذاتية القضائية داخل الجالية اليهودية، أقره التاج ومنحه الشرعية؛ ويمكن افتراض أن هذا الهيكل الإداري لم يكن مقتصرًا على إيتامبس وحدها، بل كان قائمًا في كل المدن التي شكل فيها اليهود جالية ذات أهمية اقتصادية واجتماعية ، بل وصل تسامح لويس السابع إلى حد معارضة بعض قرارات الكنيسة التي عدّها مجحفة بحق اليهود [١] .

فبعد انعقاد مجمع لاتران الثالث عام ١١٧٩، الذي أصدر سلسلة من القوانين التي استهدفت عزل اليهود عن المجتمع المسيحي، ومن بينها منعهم من توظيف خدم مسيحيين؛ لم يتردد لويس السابع في التعبير عن رفضه، إذ وجه الملك احتجاجًا رسميًا إلى البابا الكسندر الثالث **Alexandre III**(١١٠٠- ١١٨٠) ، معترضًا على هذا القرار الذي كان من شأنه أن يعيق حياة اليهود اليومية وأنشطتهم الاقتصادية[٢].

وعلى الرغم من أن الكنيسة لم تتراجع عن قرارها بخصوص الخدم المسيحيين، فإن احتجاج الملك لم يذهب سدى، ففي محاولة لإرضاء لويس السابع وتقديرًا لموقفه، قدم البابا تنازلًا في مسألة أخرى، إذ قرر أنه وإن كان لا يُسمح لليهود ببناء معابد جديدة، فإنه يحق لهم ترميم وإعادة بناء معابدهم القديمة التي تعرضت للانهيار أو كانت آيلة للسقوط، وقد علّق البابا على ذلك بقوله: **"يجب أن يكونوا سعداء بالسماح لهم بممارسة شعائرهم الدينية في معابدهم القديمة"**؛ يعكس هذا التساهل، على محدوديته، التأثير الذي أحدثه تدخل الملك لصالح رعاياه اليهود[٣].

كانت نتيجة تلك السياسة الملكية أن شهدت الجاليات اليهودية في عهد لويس السابع مرحلة من الاستقرار والازدهار النسبي، وقد أشار المؤرخ والراهب ريغورد، الذي كتب في عهد فيليب أغسطس، إلى مدى النفوذ الاقتصادي الذي بلغه يهود باريس، يذكر ريغورد أنه عند تولي فيليب أغسطس العرش، كان اليهود يمتلكون ما يقرب من نصف عقارات المدينة، وكان لهم دائنون من جميع الطبقات الاجتماعية في باريس والمناطق المحيطة بها، ويضيف أن منازلهم كانت مليئة بالمسيحيين الذين أقسموا ألا يغادروها حتى يسددوا ديونهم بالكامل[٤].

وقد تكون في رواية ريغورد بعض المبالغة، التي قد تعكس تحيزه الشخصي أو تهدف إلى تبرير السياسات القاسية التي اتخذها فيليب أغسطس لاحقًا ضد اليهود، ومع ذلك فإن شهادته، حتى لو كانت منحازة، تقدم دليلًا قاطعًا على أن سياسة لويس السابع قد أتاحت لليهود فرصة لتحقيق نجاح اقتصادي كبير وتكوين ثروات طائلة، وهو أمر ما كان ليحدث لولا الحماية والتسامح اللذين أظهرهما الملك، لقد وفرت حكومته بيئة سمحت لهم بالاندماج في النسيج الاقتصادي للمملكة، وإن كان ذلك قد أثار حفيظة بعض معاصريهم[١].

---

(1)Achille Locher, op.cit., p.48.
(2)Ibid, p.48.
(3)Ibid, p.48.
(4)Ibid, p.48.

٤. وفاة الملك لويس السابع وتنصيب فيليب اغسطس ملكاً على فرنسا.

كان لويس قد بلغ من العمر عام ١١٧٩ تسعة وخمسين سنة وقد بدأ يشعر بثقل السنوات التي قضاها، واعتلال صحته، فأراد أن يعين من يكفيه ذلك الثقل، فعزم على تتويج ابنه فيليب الثاني أغسطس[٢] **Philippe II Auguste** (١١٦٥- ١٢٢٣)[٣] ملكًا على فرنسا

---

(1)Achille Locher, op.cit., p.48.

[٢] في وقت الفجر المبكر رزق الملك لويس السابع في يوم السبت ٢١او٢٢ آب (اغسطس) عام ١١٦٥ بمولوده الذكرالمنتظر، ووريثه الوحيد الذي أعطى ال كابيه طابعا خاصا مميزا، وقوة وسعة ملك؛ حتى أصبح أشهر وأهم ملوك أسرته، ألا وهو الملك فيليب أغسطس؛ عُمّد الطفل في كنيسة قلعة سانت ميشيل ديلا بليس Saint Michel de la Place ، وأُطلق عليه الاسم الغريب فيليب، تيمّنًا بعمه الذي قُتل بشكل مأساوي، كان أول اسم في العائلة هو الملك فيليب الأول وقد أُدخل هذا الاسم الشرقي غير المألوف إلى عائلة ال كابيه عن طريق زوجة هنري الأول الروسية المولد، آنا كييف Anna Kyiv ، والدة فيليب الأول، كان لدى الملك لويس السابع عدد كبير من البنات، حيث أنجب من الملكة إليانور دى أكويتان ابنتيه "مارى" Mary، و"أليس" Alice، بينما أثمر زواجه الثاني الذي عقد في عام ١١٥٤ من الملكة كونستانس دى كاستيل بنتين الأولى "مارجريت"، والثانية أديل دي شامباني"، على حين رزق من زيجته الثالثة بالملكة "أديل دى شامباني" بابنته أجنيس" Agnes، لهذا السبب لم يكن لديه أى وريث شرعى ذكر يخلفه في حكم مملكة فرنسا، لهذا فقد ابتهل كثيرًا إلى ربه هو وزوجته " أديل دي شامباني" كي يهبهما الولد، وفي ذلك يذكر أحد المؤرخين: أن الملك لويس السابع قال وهو معترف بكل عطايا الرب له، وكله ثقة بقلبه الرحيم: **"إنى أبتهل إليك أن تهبنى وريثاً لملك فرنسا، وأن تجعل ملكه قوياً، وأن تجعل خاتمة أيامى ملأها السلام، حتى تتقبل روحي"** .بينما يضيف مؤرخ آخر إن الحاكم الملك لويس السابع قام هو وزوجته أديل دي شامباني. وكذا جميع رجال الدين وشعب المملكة كله بالاتجاه إلى الصدقات والهبات، ثم توجه الحاكم الذى لم يكن به أى شائبة، فخر وتكبر إلى الرب آملاً فيه، طالبا منه ولذا مبتهلاً إليه بهذه الكلمات **"إلهي أدعوك لكى تذكرني، وألا تحكم على عبدك؛ لأنه لا يوجد أحد عادل في نظرك، ولكن كن رحيما بعبدك المخطئ، فإذا أخطأت فذلك لأن مثلي مثل البشر جميعًا، وإذا لم أكن قد فعلت فى حياتى شيئا قد أرضاك، فأنا أدعوك ألا تجعلني أهلك من جراء آثامى إلهى ارحمني فأنت الرحيم وامنحنى ابناً وريثا لبدني، وحاكماً نبيلاً لمملكة فرنسا نكاية في أعدائى الذين سيلومونني قائلين: لقد ضاع أدراج الرياح وذهبت صدقاتك وهباتك سدى؛ غير أنك يا ألهى قادر على أن ترحمني وتأمر بأن تتحقق آمالي في أواخر أيامي"** . كانت تلك هى الأدعية التي اتجه بها الملك لويس السابع وزوجته، وجميع رجال الدين والشعب في المملكة الفرنسية إلى ربهم الذي لبى دعائهم .

John w. baldwin, the government of philip augustus: the foundations of medieval french royal power, university of california press ltd., oxford, england, 1991,p.3; William holden hutton, philip augustus macmillan and co, ltd, new york, 1896,pp.15-16 .

[٣] اختلف المؤرخون في دقة تحديد تاريخ ميلاده؛ ومن ذلك ما ذكره ريجور Rigor بأنه ولد في شهر آب (أغسطس) في اليوم الحادى عشر الموافق أعياد كل من ثيمونيوس Timotheus وسيمفورينانوس Symphorianus، ولهذا كان يجب أن يُعطى له لقب أو اسم ديني هو منحة أو هبة الله Philippe Dieudonez. ، إلا أن المؤرخ وليم دى نائجي William de Naege ذكر أن ميلاد فيليب أغسطس كان في اليوم الثاني عشر من شهر أيلول فى عيد القديس تيموزيه Saint Timothée والقديس ثمفوريان Saint Simphorien، على حين ذهب آخرون إلى تحديد ميلاد هذا الملك بـ عام ١١٦٥ دون تحديد يوم ما في شهر بعينه .ومما سبق من آراء المصادر المتاحة يطرح تساؤل متى ولد الملك فيليب أغسطس؟ الذي حدد ميلاده مؤرخو تلك المدة المختصون بتاريخ فرنسا بعيد القديسين سالفي الذكر اللذين يحتفل بهما في يوم اثنين وعشرين من شهر آب (أغسطس) ، وبناءً على ذلك يمكن القول أن ميلاد الملك فيليب الثاني كان في شهر أغسطس ونظرا لتفاوت تحديد يوم ميلاده فيما بين اليوم الحادى عشر حسب رواية "ريجور ". واليوم الثاني والعشرين من الشهر نفسه. يُرجح أنه قد ولد في الحادي عشر من أغسطس عام ١١٦٥ في مدينة باريس. ولعل هذا هو السبب في تسميته بالملك فيليب أغسطس"، فقد أرجع "ريجور " سبب ذلك إلى ميلاده في هذا الشهر، فضلاً عن أنه كان ملكاً جليلاً حيث عمل على زيادة أملاك التاج ، فإنجازاته جعلته ملكا شديد التميز، حيث كانت لديه المقدرة على استغلال الظروف لصالحه، ولاسيما عندما استغل ضعف أعدائه، وعمل على تشتيتهم، ومن هنا استحق لقب "أغسطس" لانتشار سلطته الملكية، وربما ايضاً تشبهاً بالامبراطور الروماتي أوكتافيوس اغسطس ، كما عرف أيضا بسم فيليب الفاتح Philippe Le

على الرغم من أنه كان في الرابعة عشرة من عمره[١].

وحرصاُ من الملك لويس السابع على انتقال العرش إلى ابنه فيليب أغسطس ومنع أية محاولة معارضة قرر في ١٥ آب ١١٧٩ وعلى غرار أسلافه في تأمين التاج للملك الجديد أثناء حياته ،اذ ادرك الملك لويس السابع أن ايامة اصبحت معدودة في هذه الدنيا، والمرض اوهن جسده،وبناءً على ذلك قام الملك بعقد مجلس كبير في باريس ضم جميع الأساقفة والأبرشيات، ومطارنة المملكة كلها، وعندما حضر الجميع نهض الملك ودخل كنيسة صغيرة ليستخير ربه إذ اعتاد حينما يريد إنجاز شئ ما أن يقوم فيصلّي ويبتهل أولاً، وعندما انتهى من ابتهالاته بعث في طلب جميع الأساقفة والأمراء الواحد تلو الآخر حيث كشف لهم عن نيته، وما يعتزم فعله إذ عقد العزم على تتويج ابنه فيليب وذلك بعد أن أخذ رأيهم ومشورتهم، وعندما سمع الأمراء والأساقفة رغبة الملك صاحوا جميعاً في آن واحد: **"فليكن، فليكن"**، وبمجرد أن انتهى المجلس عاد كل واحد منهم إلى عمله[٢].

Conquerant، وهو لقب ملائما له، وكما ظهر أيضا في كثير من الوثائق باسم فيليب أغسطس ملك فرنسا المسيحى Philip Augustus, Christian King of France ، وفي بعض الأحوال لقب بالكاثوليكي حيث كان يتحر أربع ذبائح على مذبح دير سانت دونيس كل عام . وكان الملك لويس، قبل ولادة الأمير فيليب، قد رأى هذه الرؤية في الحلم، وبدا له أن فيليب ابنه كان يحمل في يده كأسًا ذهبيًا ممتلئًا بالدماء البشرية؛ ثم قدمه لجميع القادة والزعماء ، فشربوه جميعا؛ وقد قص الملك لويس هذه الرؤية إلى هنري، أسقف ألبانو، مبعوث الكرسي الرسولي في فرنسا، متوسلاً إليه، باسم الرب، ألا يكشف هذا السر لأحد قبل وفاته. ولكن عندما توفي الملك لويس، شارك الأسقف هنري هذه الرؤية مع عدد كبير من رجال الدين . يراجع : ملحق رقم ٢ ؛

Jim Bradbury, Philip Augustus, King of France 1180–1223, Routledge Taylor & Ratze Group, London, 1998,pp1-2; Meade, op.cit p.282; Contenu (P) , Guerre, État et société à la fin du Moyen Âge : études sur les armées : voirdes rois de France, Paris, 1972, p.51.

[١]يصف المؤرخ الانكليزي جيرالدوس كامبرينسيس في كتابة "تعليمات الملوك" وكان معاصراً لولادة الملك فيليب أغسطس قال **"حدث أنه في إحدى ليالي بداية الخريف، وحوالي ساعة النوم الأولى، بعد منتصف الليل بقليل، قيل إنه بفضل الله وُلد فيليب،انتشرت هذه الشائعة في جميع أنحاء المدينة(باريس)، واستقبلت ببهجة لا توصف، في وقت واحد في جميع أنحاء المدينة بطولها وعرضها من كل جانب، انفجرت الأجراس الصاخبة، وكانت الأضواء الشمعية كثيرة جدًا في كل شارع، لدرجة أن أولئك الذين لم يعرفوا سبب الاضطرابات غير المعتادة والأصوات الصاخبة والإضاءة الشاملة، تخيلوا أن حريقًا ما كان يهدد المدينة في ذلك الوقت، قفزت في ذلك الوقت كشاب يكمل للتو عامه العشرين، من السرير الذي كنت قد نامت عليه للتو، وأسرعت إلى النافذة، نظرت إلى الخارج فرأى في الشارع عجوزين فقيرتين بائستين تحملان شموعًا أمامهما، كانت وجوههما وكلماتهما وإيماءاتهما تعبر عن الابتهاج على حد سواء وهما تسيران بخطى سريعة، تلتقيان وتتدافعان بين الحين والآخر، فسألتهما عن سبب هذهِ الإثارة والبهجة، وعندها نظرت إحداهما إلى الوراء وأجابت: "الآن لدينا ملك وهبنا إياه الله، وريث عظيم للمملكة بفضل الله، سينزل على ملككم(هنري الثاني) الخسارة والعار والعقاب الشديد، كما لو كانت قد قالت علانية: "لقد وهب لنا صبي هذه الليلة، والذي سيكون بالتأكيد بنعمة الله مطرقة ملككم كانت المرأة تعلم أن جيرالدوس كامبرينسيس ورفاقه من مواطني إنكلترا، ولذلك أطلقت العجوز، وكأنها بروح النبوة، هذا الحكم عليهم وعلى ملكهم بمرارة، والذي تحقق فيما بعد بشكل حقيقي للغاية."**.

William holden hutton, op.cit., pp.15-16.

[2]Guillaume de Nanges, "Opera Philippi Augusti: Excerpta ex Chronica Magnae Franciae (Saint-Denis)," Collectio Historicorum Galliae et Franciae, Volumen XVII, edidit Michel Jean-Joseph Bréal, Typographia Regia, Lutetiae, 1818, pp. 348-349.

ثم بعد ذلك عُقد العزم على تتويج الملك الجديد في عيد الصعود **L'Ascension**[١] الذي يحدد في السادس عشر من شهر آب، وعندما حان يوم الاحتفال اتجه الملك لويس السابع إلى كومبني **Compiegne**، وبرفقة ابنه فيليب، للراحة والترفيه وهناك جرت حادثة أجلت من التتويج بعض الوقت، فقد ذكر جيم برادبري **Jim Bradbury** وغيره من المؤرخين تلك الحادثة: **"بينما كان الملك لويس السابع يقضى بعض الوقت في المدينة استأذنه ولي العهد في الذهاب للصيد في الغابة بصحبة بعض القناصين، وبمجرد دخولهم الغابة وجدوا خنزيراً برياً، فقام القناصون بإطلاق الكلاب وبدأوا في مطاردة الفريسة داخل الغابة العميقة المتشابكة الأغصان والفروع، وهم يصيحون وينفخون في الأبواق، وتفرقوا هنا وهناك في الدروب والسبل المتعددة، في خضم ذلك كله ترك ولي العهد فيليب الذي كان يمتطي حصان صيد قوى صحبته، وركض إثر الفريسة في كل صوب واتجاه إلى أن وصل الحصان إلى درب غير مأهول، وعندما اصطاد ولى العهد فريسته نظر خلفه فلم يجد أيا ممن كانوا معه، والليل يكاد يسدل ستاره عليه، ووجد نفسه وحيداً وسط هذه الغابة الكبيرة المتشعبة، عندئذ انتابه الخوف، ومرت عليه ساعة تتبعها أخرى، والحصان يحمله حيث شاء، وهكذا ظل هائماً على وجهه مدة يترقب، وينظر حوله عسى أن يجد أحدا في إثره، ولكنه لم يسمع أو يرى أحدا على الإطلاق، فأصابه رعب شديد إلا أنه تمالك نفسه ومسح العرق المتصيب على جبينه، ورسم على جبهته علامة الصليب المقدس، وأوصى نفسه بكل تقوى إلى الله، وإلى العذراء مريم المباركة، وإلى القديس دينس المبارك، شفيع ومدافع عن ملوك فرنسا، وفي نهاية صلاته نظر إلى اليمين، فرأى فجأة بالقرب منه فلاحاً يوقد ناراً، وكان هذا الفلاح طويل القامة، ومظهره فظيعًا، ووجهه بشع ومسود بالفحم، يحمل فأساً كبيرة على كتفه، عندما رأى ولى العهد هذا الفلاح انتابه الخوف إلا أنه تمالك نفسه، فاقترب منه الفلاح وحياه بسماحة، وقال له: فليحفظك الرب أين تذهب في هذه الساعة المتأخرة فلقد رأه في حالة مزرية لدرجة أنه لم ينزل من على جواده إذ أنه لم يعرفه، أخيرا رد عليه الملك فيليب أغسطس قائلاً: أنا رجل نبيل جئت للصيد في الغابة وفقدت من كانوا بصحبتي لحمايتي، ولهذا أرجوك أن تعيدني إلى المدينة ، والتي أنت على دراية تامة بها،عندما علم الفلاح بذلك ترك مافي يده، واصطحب مولاه إلى كومبني** وبحسب رواية مختلفة قليلاً، **بقي فيليب يومين وليلة واحدة في الغابة، وأصدقاؤه المنكوبون، بعد أن بحثوا عنه في جميع الجوانب،لم يجدوه إلا في مساء اليوم الثاني، يحتضر جوعًا وإرهاقًا،** وبعد تلك الحادثة سقط الأمير الصغير طريحًا للمرض بسبب

---

[١] عيد الصعود : احتفال يقام يوم الثلاثاء بعد أربعين يوما من عيد الفصح، ويحتفل المسيحيون في هذه العطلة بذكرى رفع السيد المسيح عيسى (عليه السلام) إلى السماء مع السحاب بحضور حواريه، وهذه الحادثة موصوفة في أعمال الرسل ، احتفل به في القرن الرابع الميلادي وتطور مع عيد الحصاد عند اليهود. يراجع : البابا شنوده الثالث، تأملات في عيد الصعود، ط٤، سلسلة نبذات للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٣؛

Herbert Thurston: Feasts of our Land, the principal Festivals of Blessed Virgin, The Assumption, Annuciation, and Nativity, the Catholic Encyclopedia, Tome, III, London, 1908, p.162.

التجربة القاسية التي مر بها، وأصابته حمى شديدة وألغي التتويج بعد أن يأس الجميع من حياته[١].

عاش الملك لويس السابع حالةً من اليأس العميق والقنوط، عاكفاً على البكاء والصلاة ليل نهار ومجافياً للنوم، حتى تجلى له في إحدى الليالي القديس والشهيد توماس بيكيت **Thomas Becket**[٢] (أسقف كانتربري) في المنام، حاملاً إليه رسالةً مفادها:**"لقد أرسل ربنا يسوع المسيح خادمه توماس إليك ليخبرك أنه إذا آمنت وذهبت بقلب تائب وسجدت عند قبر الشهيد، فإن ابنك سيتعافى"**، ونظراً لأن قيام ملك فرنسي بزيارة إنكلترا في مهمة كهذه كان يعد سابقةً تاريخيةً غير مألوفة، لم يجرؤ لويس على اتخاذ القرار دون التشاور مع مستشاريه وكبار البارونات؛ والذين بادروا بتحذيره بشدة من مخاطر عبور البحر، ومن منح ثقته لغريمه التقليدي الملك هنري الثاني، إلا أن الملك لويس واجه تحذيراتهم بشجاعة، مؤكداً أنه لا يخشى أحداً، ومع تكرار الرؤيا لثلاث ليالٍ متتالية حاملةً الكلمات ذاتها، ووصول الأمر حد تهديد القديس له في النهاية إن لم يمتثل؛عقد لويس العزم نهائياً على المضي قدماً، وقرر ألا يثنيه شيء عن تلبية ذلك النداء الروحي[١].

وعلى الفور أرسل لويس رسلاً إلى الملك هنري الثاني للاستئذان بزيارة الضريح المقدس في انكلترا، وذلك ضماناً لحرية العودة، فأجابة الملك الإنكليزى بالترحاب، وتوجه الملك لويس على الفور في رحلته وأبحر من ويتساند **Whitsand** مصطحباً معه فيليب كونت فلاندرز، وبلدوين **Baldwin** إيرل آف جوسنس **Guisnes** وهنري أف لوفين **Henry of Louvaine**، والكونت وليم ماندفيل، وأدفوكات أف بوثنيو **Advocate of Bethune**، وعديد من بارونات مملكة فرنسا، كل ذلك الجمع عبر إلى مملكة انكلترا في أواخر آب ١١٧٩، وبسماع الملك هنري الثاني بقرب وصول الملك لويس السابع وبارونانه، بادر بالتوجه لاستقبالهم، حيث التقى بهم في قلعة دوفر **Dover Castle** فى يوم الأربعاء ٢٧ آب ١١٧٩، وقدم لهم الحفاوة التي تليق بهم، ومن هناك تمت مسيرة عظيمة إلى داخل الكنيسة الكبيرة حضرها الأساقفة، ورؤساؤهم والإيرلات والبارونات والشعب الإنكليزي في

---

(1) Pernoud, op.cit., p.173; Owen, op.cit., pp.70-71.

(٢) توماس بيكيت (١١١٩- ١١٧٠): ولد في لندن عام ١١١٨ في طبقة غنية من والد ثري ومحترم وسيدة مؤمنه ، وقد ظهر نبوغ توماس وهو صغير فأهتم به ثيو بالد رئيس أساقفة كانتربري وأرسله ليدرس القانون المدني والكنسي في بولونيا وغيرها، وعلى الرغم من أنه درس العلوم الكنسية الدينية إلا أنه شغل نفسه في بداية الأمر كليا بقضايا علمانية كالعديد من طبقته في ذلك العصر، وعندما توج الملك هنري الثاني ملكا على انكلترا عام ١١٥٤ قام بتعيين صديقه الحميم توماس بيكيت مستشاراً رئيسي كأمين لإنكلترا، إذ كان الأخير قادرا في دعم ومساعدة الملك هنري الثاني في القضاء على البارونات (كانت حياة توماس بيكيت قائمة على المتعة والمشاركة في الحفلات والأعياد الجميلة، وعندما أصبح مستشارا للملك هنري الثاني كان منزله مفتوحا أمام الجميع وكل من يحتاج إلى العيش أو أي شيء، إذ كانت طاولته مشرفة باكواب وأطباق من الفضة والذهب وممتلئة من أفضل انواع الأطعمة وأجود أنواع النبيذ ، كان بيكيت مستشارا أمينا وحريصا في العمل الشاق ولديه خبرة في الأمور العظيمة إذ يمكن له أن يراجع في العديد من الشؤون الكبيرة في ذهنه، لذلك كلف بواجبات ثقيلة كونه المستشار الأول الذي يريد المجد والنفع لمملكة انكلترا:

Andre Maurois ,A history of England , London , the badly head ، second edition , 1962,p.96; Edith Thompson, History of England, New York, 1873,p.70.

يوم السبت ٣٠ آب ١١٧٩، وفي أبرشية كانتربري قامت التراتيل والأناشيد والسرور العظيم احتفالاً بوصول الملك الفرنسي، وقام الملك لويس على الفور، بتقديم هبة سنوية تقدم بشكل دائم احترما للشهيد توماس بيكيت، وأمضى ملك فرنسا لويس السابع ثلاثة أيام في كانتربري في صلاة وصيام وقيام، وهناك تقبل من الملك هنري الثاني بعض الهدايا كعلامة للود والمحبة، وعلى أثر ذلك غادر الملك كانتربري عائداً إلى عاصمته باريس، وذلك في يوم الثلاثاء ٢ أيلول ١١٧٩[٢].

عدت تلك الرحلة التي يوليها مؤرخو ذلك العصر أهمية كبيرة؛ فهي تعهد بأن الملك الفرنسي لن يُشجّع بعد الآن الثورات التي كان يُؤجّجها باستمرار ضدّ غريمه اللدود، ممهّد ذلك الطريق للعلاقات ودية بين هنري الثاني وفيليب الشاب، التي مثّلت بداية عهد الجديد، وبعد مرورسبعة أيام عاد لويس إلى باريس بعد أن استعاد فيليب عافيته، وقرر تتويجه في الأول من تشرين الثاني ١١٧٩[٣].

عقب عودة الملك لويس إلى باريس، توجه مباشرة إلى سانت دينس تعبيراً عن امتنانه العميق لشفاء ابنه، وهناك حُسم الأمر بتحديد موعد تتويج فيليب الشاب ليكون متزامناً مع عيد جميع القديسين، إذ بات إتمام تلك المراسم ضرورة سياسية ملحة لا تحتمل أي إرجاء[٤].

وبحلول الأول من تشرين الثاني عام ١١٧٩ وصل فيليب إلى مدينة ريمس التي كانت تعج بالوفود والزائرين القادمين من مختلف الأقاليم والبلدان؛وقد تصدر الحضور الملك الإنكليزي المتوج هنري الشاب(الأصغر) **Henry The Younger** (١١٥٥-١١٨٣) برفقة شقيقيه ريتشارد **Richard I** [٥](كونت بواتو) وجيفري الثاني كونت بريتاني **Geoffrey II, Duke of Brittany** (١١٥٨- ١١٨٦) ونظراً للرابطة العائلية التي تجمع هنري الشاب بالملك الجديد -بوصفه زوج شقيقته- فقد حمل معه هدايا نفيسة مرسلة من والده، مقدماً فروض الولاء لفيليب عن إقطاعياته [٦]، وداخل أروقة كاتدرائية ريمس العظيمة، جرت

---

(1) William holden hutton , op.cit., p .P.20.

(2) Radulphus de Diceto, Imaginibus Historiarum, Collectio Historicorum Galliae et Franciae, Volumen XII, Victor Balmey, Lutetiae, 1904,p.201.

(3) Seward, op.cit., p.139.

(4) William holden hutton , op.cit., p. P21.

[٥] ريتشارد الأول (قلب الأسد)(١١٥٧ -١١٩٩): ولد في أيلول عام ١١٥٧، ابن الملك الإنكليزي هنري الثاني Henry II من زوجته إليانور، تنتمي أسرته إلى الملوك الأنجلوساكسون والملك الفريد العظيم ، توج ملكًا لانكلترا بعد وفاة والده في عام ١١٨٩ ، تصدى لمؤامرات اليهود في انكلترا، وقد وصف بانه طويل الأوصال قوي البنية ذا شعر ذهبي يميل إلى الحمرة، وعرف بالوسامة وورث عن أمه شجاعتها وتذوقها للشعر والرومانسية، أما على الجانب الحربي، كان ذا طابع عنيف وحاد، ولديه القدرة على قيادة الرجال، غرف بالتكتيك والاستراتيجية في المعارك، ويعد واحد من أشهر الملوك في تاريخ انكلترا، وبعد عشرة أشهر فقط من توليه العرش انضم إلى الحملة الصليبية الثالثة على المشرق الإسلامي، وترك أملاكه تحت وصاية أخيه جون. يراجع : منير نصيف جاسم ، ريتشارد الاول ملك انكلترا ونشاطه السياسي والعسكري حتى ١٩٩٩ ، رسالة ماجستير ، جامعة واسط ، كلية التربية للعلوم الإنسانية ، ٢٠٢٠ ؛ علي رمضان فاضل ، ريتشارد قلب الأسد فارس أوروبا الأول، الدار العالمية ، الجيزة، ٢٠١١ .

(6) William holden hutton , op.cit., p. P21.

المراسم المهيبة حيث قام وليم[١] رئيس أساقفة ريمس، بمسح فيليب بالزيت المقدس[٢] ووضع التاج فوق رأسه، لتعلو حينها أصوات النبلاء وعامة الشعب بالهتاف: **"يعيش الملك، يعيش الملك"**، والذي كان يبلغ من العمر لحظة تتويجه أربعة عشر عاماً وشهرين وعشرة أيام وعندئذ صاح زعماء الأقاليم وعامة الشعب هاتفين بحياة الملك **"يعيش الملك، يعيش الملك"**[٣]، وكان والده لا يزال مريضًا، ولم يتمكن من حضور حفل التتويج، فقد أقعده الشلل بعد إصابته بنزيف حاد في المخ،وبقيت والدته بجانب زوجها ،وكانت أولى خطوات الملك الجديد تأكيد منح والده لرهبان كانتربري ومنحه الحرية لأقنان أورليانز ولتبرع بكل ما يملك والده من ذهب وفضة ومجوهرات وخواتم وملابس ثمينة لتوزيعها على الفقراء، وظل الملك عليلاً لمدة سنة، ثم توفي في ١٨ أيلول ١١٨٠ في مدينة باريس بعد أن حكم ثلاثة وأربعين سنة[٤].

أوصى الملك لويس السابع قبل رحيله بأن يوارى الثرى في الدير الملكي بمدينة باربيل **Barbil** الذي أشرف على تأسيسه بنفسه، وتخليداً لذكراه، شيدت له زوجته الملكة أديل دي شامباني **Adele de Champagne** (١١٤٠- ١٢٠٦) ضريحاً استثنائياً صُنع من الذهب والفضة ورُصّع بنفائس الأحجار الكريمة، ليغدو تحفة فنية فريدة تعكس مستويات مبهرة من الفخامة والثراء؛ وبذلك انتهت حياة الملك لويس السابع، وتسلم ابنه فيليب الثاني أغسطس فوراً مقاليد حكم فرنسا، وكان في الخامسة عشرة من عمره، وعلى الرغم من صغر سنه استطاع أن يضبط شؤون فرنسا ويجعل منها مملكة قوية[٥].

---

[١] وليم(١١٣٥- ١٢٠٢): ابن ثيوبولد الرابع كونت بلوا وشامبانى الذى توفى عام ١١٥٢ ، وكان وليم هذا خال الملك فيليب أغسطس، وفي بادئ الأمر كان وليم يعمل بوظيفة أسقف سينس"، ثم أصبح رئيس أساقفة ريمس"، وقد عرف بلقب ذو الأيدى البيضاء Aux Blanches - mains صاحب المكانة الأولى في كنائس فرنسا. يراجع :

Langres, La Naissance de la cathédrale : les archevêques de Reims et leur Église aux XIe et XIIe siècles, Éditions Dominique Geniot, 2005, p. 814; Pierre Desportes, Reims et les Rémois au XIIIe et XIVe siècles, Éditions Picard, 1979, p.743.

[٢] المسح بالزيت المقدس، المعروف أيضًا باسم "المسح المقدس" أو "مسحة الملك"، طقس ديني تاريخي استُخدم لتنصيب ملوك فرنسا ملوكًا شرعيين؛ ويُعد هذا جزءًا من تتويج الملك، وبالتالي يمنحه السلطة والشرعية من الله، تقول الأسطورة بأن حمامة أرسلها روح القدس تركت بعض الزيت المقدس ليحفظ في كنيسة في بلدة (ريمس) ، واستخدم ذلك الزيت لمسح جميع ملوك فرنسا منذ القرن التاسع، فإذا مسح الملك بهذا الزيت يرتفع فوق مراتب البشر العاديين، ويصطبغ بطبيعة مقدسة، ليكون خليفة الله على الأرض. يراجع :

Conor O'Brien, Les origines de l'onction royale Études d'histoire de l'Église : Églises et rites de passage, volume 59, Oxford University Press, juin 2023, pp. 27- 47.

[٣] يراجع حول تتويج الملك فيليب أغسطس ملحق رقم ٥؛

William holden hutton , op.cit., p. P21.

[٤] سهيل زكار، المصدر السابق ، ج ٣٠ ، ص ١٨٣- ١٨٤ ؛ مونيقورس المصدر السابق ، ص ٧٥.

[٥] وليم لانجر، المصدر السابق ، ص ٦٣٠ ؛

Gobry, op.cit., p. 310.

ثالثاً: المنجـزات الحضـارية والسياسية في عهد الملك لويس السابع.

يمثل عهد الملك لويس السابع حقبة انتقالية مفصلية في تاريخ فرنسا وأوروبا خلال العصر الوسيط، حيث تبلورت فيه نهضة شاملة عكست التزاوج الفريد بين الرؤية السياسية الطموحة والروحانية الدينية العميقة، لم يكن ذلك العهد مجرد امتداد زمني للسلطة الملكية، بل كان بوتقة انصهرت فيها تحولات جذرية أعادت تشكيل المشهد الحضاري والإداري للمملكة، ففي تلك المرحلة، تجلت عبقرية العصر عبر ثورة معمارية قوطية غير مسبوقة، وحراك فكري وأدبي جعل من باريس منارة للعلم، وازدواجية ثقافية جمعت بين رعاية الفنون المقدسة واحتضان الآداب الدنيوية، وعلى الصعيد السياسي، أرسى لويس السابع دعائم الدولة المركزية من خلال تحجيم نفوذ الإقطاع، وتأسيس نظام قضائي يعتمد على الكفاءة القانونية، وترسيخ مكانة باريس كعاصمة فعلية للحكم، فضلاً عن إصلاحاته الاجتماعية الجريئة التي استهدفت تحرير الأقنان وبناء المدن الجديدة، إن استعراض منجزات ذلك العهد يكشف لنا عن ملامح مشروع نهضوي متكامل مهد الطريق لصياغة هوية فرنسا الثقافية والسياسية، وهو ما يمكن تتبعه بوضوح من خلال عدة محاور، تتصدرها طبيعة الحياة الثقافية آنذاك.

أ. الحياة الثقافة :

يثمل العصر الوسيط لاسيما القرن الثاني عشر، مرحلة محوريةً تبلورت فيها كافة المشاريع الحضارية، سياسية كانت أو ثقافية، في بوتقة الإيمان الديني الذي شكّل المنظور الأوحد للعالم،وفي هذا السياق، لم يكن الإيمان مجرد عقيدة، بل كان المحرّك الجوهري الذي أشعل نهضة فنية وأدبية بلغت ذروة من الإبداع والروعة لم تشهدها أوروبا من قبل، ويتربع عهد الملك لويس السابع في قلب هذا القرن العظيم، شاهداً على تجليات الروح البشرية في أسمى صورها الفنية والفكرية [١].

لم يبرز دور الملك لويس السابع بوصفه فاعلاً مباشراً أو مُوجِّهاً فنياً في هذا الحراك الثقافي المتعدد الأوجه؛ بل تجلّت اسهاماتها في شخصيته التي كانت التقوى والورع أبرز سماتها، لقد كان بمثابة الضمانة الحية والمظلة الروحية التي ازدهرت تحتها الفنون والآداب، فمن خلال رعايته الأبوية، أشرف على هذا التطور وشجّعه، ليصبح بذلك الحامي الأول للأعمال الجديرة بالثناء، سواء كانت مشاريع خيرية تخدم المجتمع أو إبداعات ثقافية تغذي الروح، هذه الرعاية لم تكن وليدة عهده، بل هي امتداد لإرث ملكي راسخ، فعندما كان جده الأكبر، روبرت الثاني الورع، يرتدي الزي الليتورجي[٢] ليترأس بنفسه الصلوات في

---

(1) Gobry, op.cit., p.159.

[٢] الزي الليتورجي (أو الملابس الطقسية): مجموعة الثياب والحلل المخصصة التي يرتديها رجال الدين ومساعدوهم حصراً أثناء تأدية الشعائر والخدمات الدينية العامة، وتحديداً خلال الاحتفال بالقداس والأسرار الكنسية، لتمييزهم عن الحضور وللإشارة إلى طبيعة الدور المقدس الذي يؤدونه. تتجاوز وظيفة هذه الأزياء الجانب الجمالي أو التنظيمي لترتقي إلى بعد رمزي ولاهوتي عميق، حيث تشير إلى "تجرّد" الخادم من شخصيته الدنيوية ولبسه "الإنسان الجديد" لتمثيل المسيح أو الكنيسة أثناء الصلاة، كما أنها تعكس عبر ألوانها المتنوعة (كالأبيض، الأحمر، البنفسجي) الزمن الطقسي

الكنائس، وعندما أسهم والده، لويس السادس (البدين)، بسخاء في تشييد الأديرة مثل دير السيسترسيين في شاليس **Chalis**، كانت هذه الأفعال تجسيدًا حيًا للرعاية الملكية الممنوحة للفن المقدس، وتأكيدًا على أن التاج الفرنسي هو الحامي الأول للإيمان وتجلياته الفنية [١].

شهدت الموسيقى الكنسية في ظل ذلك المناخ الروحي تطورًا استثنائيًا، فالموسيقى، بوصفها الفن الأكثر ارتباطًا بالنفس البشرية لانبثاقها الأول من الصوت الإنساني العفوي، حافظت على استمرارية مذهلة عبر العصور، فالألحان الليتورجية ونغمات المزامير التي كانت تُتلى في القرن الثاني عشر، ما هي إلاصدى لتلك الأنغام التي رُتّلت في الأديرة البيزنطية منذ القرن الخامس، وقد تكيفت مع التقاليد الغريغورية التي هيمنت على الكنيسة الغربية[٢].

ومن أبرز إنجازات عهد لويس السابع في هذا المجال، تأسيس (مدرسة نوتردام) للعازفين والمؤلفين الموسيقيين في كاتدرائية باريس التي كانت قيد الإنشاء، وسرعان ما اكتسبت تلك المدرسة شهرة واسعة، وأصبحت منارة للإشعاع الفني، حتى قيل إن الملك لويس السابع كان يحرص على الاستماع إلى مؤديها، وقد أثمرت هذه المدرسة إنتاجًا موسيقيًا غزيرًا، ومن المؤكد أن الملك قد استمع إلى العديد من المقطوعات التي كانت تُعزف في كاتدرائية السيدة مريم العذراء، وتجسّدت عبقرية هذا العصر في شخصية آدم دي سان فيكتور **Adam of Saint Victor** (١١٢٢- ١١٩٢) الشاعر والموسيقي الذي عاصر الملك لويس السابع، بوصفه قسيسًا في دير سان فيكتور الشهير، ولم تكن أعماله مجرد ألحان، بل كانت تأملات لاهوتية عميقة، فقد ألفّ مجموعة أناشيد تمجّد السيدة مريم العذراء، وكتب (الكون الأصغر) و(نبع الفلسفة)، وهي أعمال شعرية ريمسية، والأهم من ذلك، أن فنه كان يحمل رسالة إنسانية سامية؛ حيث دافع عن كرامة الطبيعة البشرية، مؤكدًا على مبدأ المساواة الروحية بين المسيحيين بوصفهم أبناء لله جميعًا[٣].

وعلى النقيض من هذا المناخ الروحي الذي رعاه الملك؛ نشأ تيار فني موازٍ، هو الشعر الدنيوي المستلهم من مفاهيم (الحب البلاطي)، إذ لم يكن هذا التيار وليد بلاط باريس، بل جاء مع الملكة إليانور أكيتاين من الجنوب الفرنسي النابض بالحياة، فجدّها وليم التاسع دوق

والمناسبات الدينية المختلفة من أعياد وأصوام، وقد تطورت أشكال هذه الملابس عبر التاريخ مستمدة أصولها غالباً من اللباس الروماني واليوناني القديم لتستقر على هيئات ثابتة تحمل كل قطعة منها دلالة روحية خاصة. يراجع :

Boyle, J. R., Church Garments: Their Origin and Significance, A. Brown and Sons, London, 1896; Norris Herbert, Church Garments: Their Origin and Development, J. M. Dent, London, 1949.

(1) Ibid, p.288.

(2) Ibid, p.288.

(٣) اديب مصلح، مختارات مريمية، منشورات المكتبة البولسيه، بيروت، ٢٠٠٩، ص ١١٦؛ شارل حلو وآخرون ، موسوعة أعلام الفلسفة العرب والأجانب، ج١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢، ص ١١٣.

Gautier, Léon, Les œuvres poétiques d'Adam de Saint-Victor 1858-1859, 3e éd., Julien, Lanier & Cosnard Press, Paris, 1894.

أكيتاين، كان هو نفسه شاعرًا جوالًا تروبادورTrapador[١]، مؤلفًا ومؤديًا، وقد حوّل بلاطه في بواتييه إلى مركز ثقافي يجتمع فيه أساتذة هذا الفن الغنائي، عندما أصبحت إليانور ملكة فرنسا، وجلبت معها هذا التقليد الشعري وشعرائه إلى بلاط باريس[٢].

ويبدو أن هذا الفن، بما يحمله من صراحة عاطفية واحتفاء بالحب الدنيوي، لم يرق للملك لويس السابع، الذي ربما رآه ترفًا سطحيًا لا يليق بالوقار الملكي والتقوى المسيحية، وعلى الرغم من التحفظ الملكي، لم يندثر هذا التقليد الشعري، بل وجد من يرعاه، فبنات لويس السابع وإليانور، الأميرة ماري التي أصبحت كونتيسة شامبانيا، والأميرة أليكس التي أصبحت كونتيسة بلوا، أصبحن ورثة والدتهن في هذا المجال، فمن برعاية الشعراء في بلاطيهن، ليتحول هذا الفن من مجرد ضيف في البلاط الملكي إلى تيار ثقافي راسخ في فرنسا[٣].

وهكذا، يرسم عهد لويس السابع لوحة ثقافية فريدة تتسم بالازدواجية، فمن ناحية بلغ الفن الديني ذروته تحت رعاية ملك ورع جعل من الإيمان هويته، ومن ناحية أخرى، شهد عهده بزوغ فجر الشعر الدنيوي بفضل ملكة ذات إرث ثقافي مختلف، وهو الإرث الذي ضمنت استمراريته بناته من بعدها، ليؤسسن معًا لمشهد ثقافي فرنسي أكثر ثراءً وتنوعًا[٤].

وقد شهد عهد الملك لويس السابع في منتصف القرن الثاني عشر ثورة أدبية في فرنسا، تمثلت في بزوغ الرواية البلاطية جنساً أدبّياً جديدًا أحدث قطيعة مع الملاحم البطولية السابقة، بدعم من شخصيات نسائية نافذة مثل إليانور أكيتاين وابنتها ماري دي شامباني، تحول التركيز من الحروب الكبرى إلى عالم الفارس الجوال ومُثُل الفروسية والحب العذري، ونسج هذا الأدب الجديد بين ثلاثة خيوط رئيسة، روايات المغامرة التي تتبع رحلة الفارس لإثبات جدارته الأخلاقية، والروايات الرومانسية التي جعلت من (الحب البلاطي) المحرك الأساس للأحداث، حيث يخدم الفارس سيدته بإخلاص مطلق، فضلاً عن الروايات الخيالية التي استلهمت من الأساطير الكلتية لتقدم عوالم ساحرة مليئة بالعناصر العجائبية، ويُعد الشاعر كريتيان دي تروا **Chrétien de Troyes** الأب الروحي لهذا الفن، حيث جسدت أعماله مثل لانسلوت **Lancelot** وبيرسيفال **Perceval** هذا التمازج المبدع، الذي لم يؤسس فقط للسرد الروائي الحديث في أوروبا، بل خلّف أيضًا إرثًا ثقافيًا خالدًا لا يزال تأثيره ممتدًا حتى اليوم[١].

---

[١]تروبادور: شعر غنائي ظهر جنوبي فرنسا أواخر القرن الحادي عشر ، يراجع حول هذا الشعر: باأحمد فاطمة الزهرة، أثر الشعر الأندلسي في شعر التروبادور، رسالة ماجستير، جامعة عبد الحميد بن باديس – مستغانم، كلية الأدب العربي والفنون، ٢٠٢٤ ، ص ٣٧ – ٣٨ ؛ مريم محمد هاشم البغدادي ، شعراء التروبادور، دار تهامة للنشر والتوزيع ، جدة ، المملكة العربية السعودية ، ١٩٨١، ص ٩ إلى ١٢٩ .

[2] Gobry, op.cit., p.164.

[3] Gobry, op.cit., p.164.

[4]Ibid, p.164.

ب. العمارة :

كانت الكنائس والأديرة في بداية عهد لويس السابع لا تزال تتبع في تصميمها الأساليب المعمارية السابقة، لاسيما الفن الروماني، حيث كانت السمة الغالبة هي الأسقف الخشبية المسطحة التي وعلى الرغم من زخارفها الغنية ورسومها البديعة، شكلت نقطة ضعف قاتلة، فقد كانت تلك الأسقف عرضة للحرائق المدمرة التي اندلعت بفعل الحوادث أو أعمال الحرب، مما أدى إلى فقدان العديد من الصروح الدينية والفنية القيمة، أمام ذلك التحدي، برزت الحاجة إلى حل هندسي مبتكر يجمع بين الجمالية الهيكلية ومتانة البناء ومقاومة النيران، وجد مهندسو تلك المدة الحل الأمثل في استبدال الخشب بالحجر، وتحديدًا في بناء الأسقف،إلا أن المحاولات الأولى لبناء أسقف حجرية ضخمة ومسطحة باءت بالفشل، إذ سرعان ما كانت تنهار تحت وطأة وزنها الهائل، ومن رحم تلك الإخفاقات، وُلد الابتكار الذي سيغير وجه العمارة الأوروبية إلى الأبد، إذ أدرك البناؤون أن تحويل السقف إلى هيكل مقوس يسمح بتوزيع قوة الجاذبية الهائلة (الضغط العمودي) بصورة فاعلة وتحويلها إلى قوة دفع جانبية تمارس على الجدران[٢].

لم تكن تلك الخطوة خالية من التحديات؛ فالقوة الجانبية الجديدة كانت تتطلب جدرانًا وأعمدةً بالغة الضخامة والقوة لمقاومتها، مما أدى في البداية إلى ظهور مبانٍ ذات أعمدة هائلة ودعامات خارجية ثقيلة، كانت فاعلة من الناحية الهيكلية لكنها تفتقر إلى الرشاقة والجمال وتثقل المظهر الخارجي للمبنى، وللتغلب على تلك المشكلة، شهد عهد لويس السابع تطورًا مزدوجًا أرسى أُسس الجمالية القوطية:

* الأقواس المزدوجة وتقسيم الصحن: تم تقسيم القبو المركزي الطويل إلى وحدات أصغر وأكثر قابلية للإدارة من خلال استخدام أقواس عرضية ضخمة (الأقواس المزدوجة)، هذا التقسيم لم يسهل عملية البناء فحسب، بل أضفى إحساسًا بالإيقاع والتنوع على الفضاء الداخلي للكنيسة، مقسماً الصحن الرئيس إلى سلسلة من الخلجان المتتالية.

* القبو المتقاطع (**Rib Vault**): كان الابتكار الأبرز تطوير القبو ذي الأضلاع المتقاطعة، يتم إنشاء هذا القبو من خلال تقاطع قبوين أسطوانيين (مهدين) في المركز، مما يخلق شبكة من الأضلاع الحجرية التي تحمل الوزن الأساسي للسقف، تلك التقنية العبقرية سمحت بتوزيع الضغط بشكل متساوٍ على أربع نقاط دعم بدلاً من جدارين متصلين، مما خفف العبء بشكل كبير عن الجدران[٣].

ذلك التطورات الهيكلية أتاحت للمهندسين تحقيق ما كان مستحيلاً في السابق، فبفضل تركيز الوزن على نقاط محددة، لم تعد هناك حاجة لجدران سميكة، بل أصبح من الممكن فتح مساحات واسعة فيها للنوافذ الزجاجية الملونة التي أغرقت الداخل بالضوء الإلهي، ولدعم الهيكل بشكل أكبر وإضفاء المزيد من الرحابة والفخامة، تم إثراء التصميم بعناصر معمارية

---

(1)Gobry, op.cit., p.164.
(2)Ibid, pp.243, 244, 259, 262 .
(3)Gobry, op.cit., pp.243, 244, 259, 262.

جديدة مثل الممرات الجانبية (الأجنحة الجانبية)، والجناح العرضي الذي يتقاطع مع الصحن الرئيس(**Transept**)،والممشى الدائري حول المذبح (**Ambulatory**)، والمصليات الصغيرة المتألقة من الهيكل الرئيس (**Apse Chapels**)، كل تلك المحاولات والتحسينات التي تبلورت خلال عهد الملك لويس السابع، أدت إلى ولادة العديد من التحف المعمارية التي وعلى الرغم من احتفاظها بوحدة الأسلوب القوطي الوليد، تميز كل منها بأصالة فريدة، لتكون شاهدة على حقبة من الإبداع الهندسي والفني غير المسبوق[١].

تزامنت تلك النهضة المعمارية مع ازدهار روحي وديني لافت، فقد كانت الحياة الدينية في عهد لويس السابع تتسم بالتقوى والإيمان العميق، وشهدت نشاطًا رهبانيًا واسع النطاق، كان القديس برنارد دي كليرفو، أحد أبرز الشخصيات الدينية في القرن الثاني عشر، شخصية مؤثرة خلال تلك الحقبة، حيث أسس بمفرده واحدًا وأربعين ديرًا جديدًا من النظام السيسترسي[٢]، وبنيت الكنائس الصغيرة تحت رعاية لويس السابع، وخصص يوم الأحد ٢١ نيسان ١١٦٣ لتكريسها في حضور البابا الكسندر الثالث، وأسس لويس دير باربو **Barbeau** كعربون شكر الله بعد ولادة ابنه فيليب أغسطس عام ١١٦٥، وأطلق على عهد لويس العصر الذهبي للشرائع العادلة التي صاحبت تعيين الأساقفة، فكانت العلاقة بين الدولة والأساقفة علاقة ودية [٣].

خلال مدة حكم الملك لويس السابع وفي منتصف القرن الثاني عشر، شهدت فرنسا تحولًا معماريًا جذريًا، حيث بدأت ملامح الطراز القوطي في الظهور بمنطقة المجال الملكي الفرنسي، والمناطق المجاورة له،هذا الأسلوب الجديد لم يكن مجرد تطوير هندسي، بل كان تعبيرًا عن رؤية لاهوتية وفلسفية جديدة، وتجسيدًا للسلطة المتنامية للملكية الفرنسية، ويقف صرحان عظيمان كشاهدين على هذه الولادة، كنيسة دير سان دوني، المهد الأيديولوجي، وكاتدرائية سينس [١].

كان أول تطبيق متكامل لهذا الطراز هي كنيسة سان دوني الواقعة شمال باريس، نقطة الانطلاق الحقيقية للعمارة القوطية، والفضل في ذلك يعود إلى رئيس الدير الطموح والمؤثر،

---

(1)Ibid, pp.243, 244, 259, 262.

(٢) النظام السيسترسي: حركة رهبانية كاثوليكية إصلاحية تأسست عام ١٠٩٨ في منطقة سيتو Seto بفرنسا على يد القديس روبرت دو موليم ومجموعة من الرهبان الذين انشقوا عن النظام البندكتي التقليدي، وذلك بهدف العودة إلى الالتزام الحرفي والصارم بـ "قاعدة القديس بندكت" الأصلية. تميز هذا النظام بردة فعل قوية ضد الثراء والترف الذي طغى على أديرة "كلوني" في ذلك الوقت، حيث ركز السيسترسيون على التقشف الشديد، والبساطة في المأكل والملبس والعمارة، والاعتماد الكلي على العمل اليدوي- خاصة الزراعة واستصلاح الأراضي- لتحقيق الاكتفاء الذاتي بدلاً من الاعتماد على العوائد الإقطاعية. وقد عُرف أتباع هذا النظام بلقب "الرهبان البيض" نظراً لارتدائهم ثياباً من الصوف الطبيعي غير المصبوغ تمييزاً لهم عن "الرهبان السود" البندكتيين، ولعب القديس برنارد دي كليرفو دوراً جوهرياً في صياغة روحانية النظام ونشره في كافة أنحاء أوروبا خلال القرن الثاني عشر الميلادي. يراجع : كريمة سعيد حسين محمد، بواكير الحركة الصوفية في العصر المدرسي "القديس برنارد دي كليفو نموذجًا "، مجلة كلية التربية، جامعة الإسكندرية، مج١١، العدد١، ٢٠٢٣؛

Johannes Geiger, La vie monastique au Moyen Âge : un portrait culturel de l'apogée de l'ordre cistercien, Bibliothèques Veritat, Würzburg, Allemagne, 1903.

(3)Gobry, op.cit,pp.243, 244, 259, 262 .

سوجر، الذي كان مستشارًا للملكين لويس السادس والسابع،حيث لم يسعَ سوجر إلى مجرد تجديد الكنيسة الكارولنجية القديمة، بل أراد إنشاء مبنى يعكس الجلالة الروحية ويمثل "أورشليم السماوية"على الأرض، تأثر سوجر بشدة بكتابات الفيلسوف المسيحي ديونيسيوس الأريوباجي **pseudo-Dionysius the Areopagite**، التي ربطت بين الضوء المادي والضياء الإلهي، من هذا المنطلق، رأى سوجر أن الفن والعمارة، من خلال الجمال والضوء، يمكنهما أن يرفعا النفس البشرية من العالم المادي إلى العالم الروحاني، سعى إلى إنشاء مساحة داخلية غارقة في الضوء الملون أو ما أسماه الضوء الجديد **Lux Nova**، كوسيلة لتقريب المؤمنين من التجربة الإلهية [٢].

لتحقيق رؤيته، جمع سوجر وفريقه من البنائين بين عدة عناصر معمارية كانت موجودة بشكل منفصل ولكن لم تُستخدم معًا من قبل بهذه الطريقة المتكاملة :

* القوس المدبب (**Pointed Arch**): سمح بتوزيع الأحمال بصورة أكثر فاعلية وبناء أسقف أعلى وأكثر رشاقة.

* القبو المضلع (**Ribbed Vault**): ركّز وزن السقف على أعمدة ودعامات محددة، مما حرر الجدران من وظيفتها عناصر حاملة للوزن.

* الدعامات الطائرة (**Flying Buttresses**): دعمت الجدران العالية من الخارج، مما سمح بتقليل سماكتها وإنشاء فتحات واسعة للنوافذ، بدأ العمل في واجهة الكنيسة عام ١١٣٥، لكن التحول الأهم بدأ بوضع حجر الأساس للجزء الشرقي (الجوقة) في ١٤ تموز ١١٤٠، بحضور الملك لويس السابع نفسه، في إشارة واضحة إلى التحالف بين الكنيسة والتاج، وقد أثمر هذا المشروع الطموح، الذي حظي بدعم واسع من النبلاء والإقطاعيين الذين تبرعوا بالمال والمعادن الثمينة، عن تكريس الجوقة في ١١ حزيران ١١٤٤، لقد كانت النتيجة مبهرة: جوقة دائرية ذات كنائس صغيرة متراصة، تدعمها اثنتا عشرة عمودًا تريمس إلى الرسل الاثني عشر، وتغمرها أنوار النوافذ الزجاجية الملونة التي وصفها سوجر بفخر في كتابه الإدارة **De Administratione** [٣].

إذا كانت سان دوني هي الحاضنة التي وُلِدَت فيها الفكرة، فإن كاتدرائية سان إتيان في سينس **Cathédrale Saint-Étienne de Sens** تُعد أول كاتدرائية بُنيت بالكامل على الطراز القوطي منذ البداية، بدأ بناؤها حوالي عام ١١٣٥ تحت إشراف رئيس الأساقفة هنري سانجلير **Henri Sanglier**(١٠٨٥- ١١٤٢)، أي قبل مشروع سوجر في سان دوني ببضع سنوات، مما يجعلها سباقة في تطبيق بعض المبادئ القوطية، موقعها الاستراتيجي في قلب مدينة سينس، التي كانت مركزًا دينيًا وإداريًا مهماً على نهر اليون، الطريق التجاري الحيوي إلى باريس، جعلها المكان المثالي لمشروع بذلك الضخامة، سعى

---

(1)Ibid, pp.243, 244, 259, 262 .

(2)Gobry, op.cit,pp.243, 244, 259, 262.

(3) Philippe Plagnieux, La basilique de Saint-Denis : Seine-Saint-Denis, Éditions du Patrimoine, 1998, p. 2.

كل من رئيس الأساقفة والملك لويس السابع إلى بناء صرح يعكس قوة المدينة ونفوذها في العالم المسيحي، ولتحقيق ذلك، استعانوا ببناة مبتكرين تجرأوا على التخلي عن ثقل وضخامة العمارة الرومانية السائدة، وقدموا حلاً ثوريًا، تجلى ذلك الابتكار في تصميم متكامل وموحد يتسم برحابة استثنائية وارتفاع شاهق لم تعهده المباني السابقة، معتمدين في ذلك على تقنيات هيكلية رائدة أبرزها الأقبية المضلعة السداسية **Sexpartite Vaults** التي غطت مساحات مربعة مزدوجة لتصبح لاحقاً البصمة المميزة للعمارة القوطية المبكرة، وإلى جانب ذلك، أرسَت الكاتدرائية معيار الجدار الداخلي ثلاثي المستويات، والمؤلف من الرواق السفلي، والرواق الأوسط(**Triforium**، وطبقة النوافذ العليا (**Clerestory**)، مما منح الفضاء الداخلي إحساساً فريداً بالرشاقة والسمو، وبفضل تلك الجرأة الهيكلية وفضاءاتها الداخلية المغمورة بالنور، شكّلت كاتدرائية سينس النموذج الأولي الذي ألهم بناء أعظم كاتدرائيات فرنسا لاحقاً، مثل نوتردام في باريس وشارتر، لتُعلن بذلك رسمياً عن بزوغ فجرعصر الكاتدرائيات القوطية [١].

ت. النحت والرسم :

تحرر النحت الديني تدريجياً في عهد لويس السابع من قوالب الفن الرومانسكي الصارمة والمجردة، متجهاً نحو تعبير أكثر إنسانية وطبيعية،حيث أصبحت واجهات الكنائس والكاتدرائيات الكبرى مسارح حجرية تُروى عليها قصص الكتاب المقدس، وتُقدم كـ "مواعظ الفقراء" التي يفهمها الأمي والمتعلم على السواء، كانت البداية الحقيقية لهذه الثورة الفنية في كنيسة دير سان دوني الملكية، تحت إشراف الأب سوجر، مستشار الملك لويس السابع، عند إعادة بناء الواجهة الغربية للكنيسة (١١٣٧-١١٤٠)، تم تقديم برنامج نحتي متكامل يربط العهدين القديم والجديد، ويقدم المسيح في مشهد "يوم الحساب" على الطمأنينة (المدخل الأوسط)، محاطاً بالرسل والعذارى الحكيمات والجاهلات، كانت تلك التماثيل لا تزال تحمل بعض سمات الرومانسك من حيث استطالتها والتصاقها بالبنية المعمارية، لكنها أظهرت وضوحاً ورقة في التعبير مهّدت الطريق للنحت القوطي، كما تجلت هذه اللغة الفنية الجديدة بأبهى صورها في "البوابة الملكية" لكاتدرائية شارتر عام ١١٤٥ حيث زينت مداخلها تماثيل-أعمدة لشخصيات من العهد القديم ملوك وملكات وأنبياء - لم تكن مجرد رموز دينية، بل حملت رسالة سياسية عميقة، فمن خلال تصوير أسلاف المسيح كملوك، تم الربط ببراعة بين السلالة الحاكمة في إسرائيل[٢] وسلالة الكابيتيين الحاكمة في فرنسا، وعلى

---

[1] Collectif, La métropole sénonaise : la première cathédrale gothique dans son contexte (actes de colloque international, Sens, 10 - 11 - 12 octobre 2014 en l'honneur du 850e anniversaire de la consécration de la cathédrale Saint-Étienne de Sens.), Paris, Picard, 2017, p.413.

[٢] يحتل ملوك العهد القديم، أمثال داود وسليمان وغيرهما من أسلاف السيد المسيح، مكانة جوهرية في العقيدة المسيحية؛ حيث يمثلون السلطة الإلهية المصطفاة والممسوحة بالزيت المقدس، ويشكلون الامتداد الروحي والجسدي الذي انحدر منه يسوع المسيح، وخلال العصر الوسيط، وفي ظل تفشي الأمية بين غالبية عامة الشعب، اتخذت الكنائس دور "الكتب المصورة" لتكون بمثابة مواعظ بصرية تُقرب المفاهيم الدينية للبسطاء، وفي هذا السياق، وظّف الملك لويس السابع تلك الفنون والرمزية الدينية بذكاء بالغ كأداة دعاية سياسية رفيعة المستوى؛ إذ

رأسها لويس السابع، ذلك التوازي قدّم الملك الفرنسي باعتباره الوريث الشرعي للحكم المقدس، وأن سلطته مستمدة من الله مباشرة، وبهذا لم تعد التماثيل مجرد أدوات تعليم ديني، بل أصبحت وسيلة فعالة لتعزيز السلطة الملكية وتأكيد شرعيتها الإلهية[١].

شهد الفن الديني في تلك الحقبة تحولات جوهرية مدفوعة برؤية جمالية ولاهوتية سعت إلى غمر الفضاء الكنسي بالضوء واللون، وسرد القصص المقدسة بأسلوب بصري غني، وقد تمثل الابتكار الأبرز في التطور الهائل لفن الرسم على الزجاج المعشق، الذي استفاد من الثورة المعمارية القوطية؛ حيث أتاحت تقنيات الأقواس المدببة والأقبية المضلعة تحرير الجدران من وظيفتها الإنشائية الحاملة، مما سمح بفتح نوافذ واسعة غُطيت بالزجاج الملون، جاء ذلك التوجه تجسيداً لفلسفة الأب سوجر في سان دوني، الذي اعتبر الضوء الملون انعكاساً مادياً "للنور الإلهي" القادر على الارتقاء بالمؤمن من العالم الحسي إلى العالم الروحاني، فحولّت تلك النوافذ الكاتدرائيات إلى كتب مقدسة مضيئة تروي سير الأنبياء والقديسين، ولم يكن ذلك التطور بمعزل عن الموروث الفني السابق؛ إذ ظهرت التأثيرات البيزنطية بوضوح في الهيبة الرسمية للأيقونات والخلفيات الذهبية التي تريمس للسماء، بينما استمرت التقاليد الرومانسكية حاضرة عبر قوة الخطوط الخارجية والزخارف الهندسية والنباتية المعقدة، وبالتوازي مع ذلك، برزت مشاغل باريس كمركز فكري وفني رائد في فن تزيين المخطوطات والكتب الدينية، حيث تميزت منمنماتها بأناقة الخطوط، وحيوية الألوان، مع نزعة مستحدثة نحو تصوير المشاعر الإنسانية، مما أضفى على السرد الديني بعداً عاطفياً وجمالياً متجدداً[٢].

عمد إلى تصميم تماثيل هؤلاء الملوك التوراتيين بملامح وأزياء تُحاكي ملوك فرنسا، وقد أتاح له ذلك الربط المبتكر إحاطة عرشه بهالة من القدسية، وتكريس سلطته بشرعية إلهية راسخة مستمدة بشكل مباشر من الكتاب المقدس.

.Gobry, op.cit,pp.243, 244, 259, 262.

(1)Viollet-le-Duc, Eugène, Dictionnaire d'architecture française du XIe au XVIe siècle, Volume II, A. Morel, Paris, 1875, p.132.

(2) Gobry, op.cit., p.288.

ث. المدارس والادب:

شهد القرن الثاني عشر الميلادي في أوروبا، لاسيما في مملكة فرنسا، تحولًا فكريًا وعلميًا عميقًا، مثّل حجر الأساس لظهور الجامعات بمفهومها الحديث، وفي قلب تلك النهضة، برزت باريس منارة للعلم والمعرفة، حيث أدت المبادرات الملكية، وعلى رأسها جهود الملك لويس السابع، إلى ازدهار غير مسبوق للمؤسسات التعليمية، وتتويجها بتحول جامعة باريس إلى مركز إشعاع فكري ذاع صيته في جميع أنحاء العالم المسيحي، ولم يقتصر ذلك التوسع المعرفي على العاصمة فحسب، بل امتد ليشمل مدنًا وقرى كانت تُعد ثانوية في السابق، مما أتاح فرصة التعليم لشريحة أوسع من المجتمع، إلا أن باريس بقيت القطب الأبرز، حيث احتضنت على ضفتي نهر السين كوكبة من المدارس المرموقة التي شكلت نواة الجامعة الوليدة، كانت الضفة اليمنى لنهر السين، وتحديدًا جزيرة فرنسا ، موطنًا لأشهر تلك المدارس وأكثرها تأثيرًا، وهي مدرسة كاتدرائية نوتردام[١].

وقد اكتسبت تلك المدرسة شهرتها بفضل إدارة شخصيات فذة من أمثال الفيلسوف البارز غيوم دي شامبو **Guillaume de Champeaux**، الذي تولى إدارتها لسنوات قبل أن يصبح أسقفًا لمدينة شالون، تميزت مدرسة نوتردام بتركيزها على اللاهوت والفنون الحرة، وجذبت الطلاب من مختلف أنحاء أوروبا؛ اما على الضفة اليسرى، التي أصبحت فيما بعد الحي اللاتيني الشهير، تنافست عدة مدارس كبرى على استقطاب العقول النيرة من أبرزها، مدرسة دير سان جينيفيف **Saint Genevieve Monastery**، عُرفت بتركيزها على المنطق والفلسفة، ومدرسة دير سان فيكتورحيث اشتهرت بمنهجها الذي يجمع بين الدراسات اللاهوتية والتصوف، وقدمت اسهامات مهمة في تفسير الكتاب المقدس، ومدرسة دير سان جيرمان دي بري **Germain de Pré** كانت مركزًا هامًا آخر للدراسات الدينية والأدبية[٢].

جسّد المنهج الدراسي السائد في تلك الحقبة الرؤية المعرفية للمجتمع، حيث تبوأت العلوم الدينية مكانة مركزية بصفتها الغاية الأسمى للعملية التعليمية في مدارس الكاتدرائيات والأديرة[٣]، وفي ذلك الإطار لم يكن المنطق مجرد مبحث نظري، بل شَكّل أداة منهجية جوهرية عُرفت بفن الجدال، وظُفت لخدمة النصوص الدينية والدفاع عن العقائد، وقد خضعت المعرفة لتصنيف هرمي دقيق؛ تصدرته العلوم النظرية (التأملية) التي تطلب المعرفة لذاتها، وعلى رأسها اللاهوت بوصفه قمة العلوم، تليها الرياضيات بفروعها الأربعة (الرباعي **Quadrivium**) من حساب وهندسة وفلك وموسيقى، وصولاً إلى علوم الأخلاق والسياسة التي تعنى بضبط السلوك ونظام المجتمع، واستند هذا البنيان المعرفي إلى العلوم المنطقية، التي اختصت بآليات التفكير السليم وصياغة التعبير عبر الفنون الحرة الثلاثة (التريفيا **Trivium**): النحو لضبط اللغة، والبلاغة لفنون الإقناع، والجدل لإدارة المناظرات، وفي المقابل جاءت العلوم الميكانيكية (التطبيقية) لتشغل حيزاً وظيفياً يُعنى

---

(1)Gobry, op.cit., p.299.
(2)Ibid, p.299.
(3)Ibid, p.301.

بتسخير المعرفة لتلبية الحاجات المادية والحياتية، مغطيةً مجالات متنوعة كصناعة الأسلحة، والملاحة، والزراعة، والطب، وفنون المسرح [١].

وعند الإشارة إلى الأدب في سياق القرن الثاني عشر، فإن المفهوم يتجاوز الأعمال الخيالية ليشمل كامل النتاج المكتوب (**Litteratura**)، بما في ذلك الأعمال الفلسفية، اللاهوتية، التاريخية، والشعرية، وقد شهدت تلك المدة، بفضل الاستقرار النسبي وتزايد المراكز التعليمية، ازدهارًا أدبيًا ولغويًا منقطع النظير في هذا الجزء من أوروبا، فظهرت أعمال كبرى في الفلسفة المدرسية، وتألقت أشعار التروبادور، وبدأ تدوين الملاحم البطولية باللغات المحلية، مما مثل طفرة ثقافية حقيقية ووصول الإنتاج الفكري المكتوب إلى ذروة لم يسبق لها مثيل حتى ذلك الحين[٢].

ج. الفكر اللاهوتي :

شهد القرن الثاني عشر، وتحديداً إبان حكم الملك لويس السابع لفرنسا، نهضة فكرية استثنائية تجلت في ازدهار ملحوظ لعلوم اللاهوت والتصوف، وفي صميم ذلك الحراك المعرفي، برزت مدرسة سان فيكتور في باريس كمنارة إشعاع روحي وثقافي، حيث قدمت للعالم المسيحي نخبة من المفكرين والمؤلفين الأفذاذ الذين رسخوا بصمات جلية لا تُمحى في مسار الفكر الديني وعلى خطى معلمه هيو[٣]، سار ريتشارد من سان فيكتور (١١١٠-١١٧٣)، وهو لاهوتي ومتصوف من أصل اسكتلندي، ليصبح أحد أبرز مفكري المدرسة الفيكتورية، تميز ريتشارد بقدرته الفائقة على التحليل النفسي والروحي العميق، متخذاً من المحبة جوهراً للحياة المسيحية، ومفتاحاً أساسياً لسبر أغوار سر الثالوث الأقدس، وقد تجلى إرثه المعرفي في إسهامات لاهوتية بالغة الأهمية، يأتي في طليعتها رسالته حول "الثالوث"،

---

(1)Gobry, op.cit., p.301.

(2)Ibid, p.301.

(٣) هيو من سان فيكتور (١٠٩٦-١١٤١): أحد أبرز أعلام هذه المدة، وهو لاهوتي وفيلسوف صاغت كتاباته فهمًا عميقًا ومنظمًا للعقيدة المسيحية. ويقف عمله الموسوعي "أسرار الإيمان المسيحي" (De sacramentis Christianae fidei) شامخًا كأول "خلاصة لاهوتية" (Summa Theologica) في العصور الوسطى، حيث سعى من خلاله إلى تقديم عرض منهجي وشامل للإيمان المسيحي، ينقسم هذا العمل الضخم إلى قسمين رئيسيين، القسم الأول: يتناول "عمل الخلق" (opus creationis)، ويستعرض في اثني عشر جزءًا موضوعات تأسيسية تبدأ من طبيعة الله وصفاته، مرورًا بسر الخلق، والملائكة، وسقوط الإنسان في الخطيئة، وانتهاءً بمفاهيم النعمة والإيمان ودورها في مسيرة الخلاص، القسم الثاني: يركز على "عمل الاستعادة" (opus restaurationis)، حيث يتعمق في أسرار المسيح، طبيعته، وعمله الفدائي. كما يتناول بالتفصيل أسرار الكنيسة السبعة ودورها في حياة المؤمن، ويختتم بالغايات الأخيرة (الأخرويات)، متناولًا الدينونة، والقيامة، والحياة الأبدية، ولم يقتصر إسهام هيو على هذا العمل فحسب، بل اشتهر أيضًا بمنهجه التربوي الذي قدمه في كتابه "ديداسكاليكون" (Didascalicon)، الذي وضع فيه أسسًا لدراسة الفنون والعلوم كتمهيد لفهم أعمق للاهوت. كما عُرف بعمق تحليله الرمزي للكتاب المقدس، وهو ما يظهر جليًا في كتابه "السباعي"، الذي يُظهر ولعه بالترميز العددي، حيث ربط كل شيء في العقيدة المسيحية بالرقم سبعة، مقدمًا شروحات رمزية للخطايا السبع المميتة، ومواهب الروح القدس السبع، والفضائل السبع (ثلاث لاهوتية وأربع أساسية)، والتطويبات، والأسرار الكنسية.

Poirel, Dominique, Hugo Saxo, The Germanic Origins of the Thought of Hugh de Saint-Victor, Revue de France, Vol. 33, No. 1, Stuttgart: Jan Thorbeck Verlag, 2006, pp. 163-174; Roger Baron, Science et Sagesse in Hugues de Saint-Victor, Paris, 1957. pp. 231-263.

التي تُعد من أكثر الأعمال أصالة وعمقاً في حقبتها، فقد انطلق فيها من فلسفة الحب الكامل ليثبت ضرورة الوجود الثالوثي في الذات الإلهية، معتبراً أن المحبة الصادقة تستلزم وجود مُحب، ومحبوب، ومحبة متبادلة بينهما تتجسد في الأقنوم الثالث، واستكمل ذلك الطرح برسالته الثانية حول تجسد الكلمة، التي واصل فيها تأملاته اللاهوتية العميقة حول سر التجسد وأبعاده الخلاصية[1].

أما على الصعيد الروحي والصوفي، فقد أثرى ريتشارد الأدب المسيحي بعملين كلاسيكيين الأول، بنيامين الصغير، بمثابة دليل تمهيدي لتهذيب النفس وضبط الأهواء، حيث يصف فيه رحلة الروح في كبح جماح الشهوات والأفكار كتهيئة ضرورية لبلوغ مرحلة التأمل، في حين يرتقي العمل الثاني، بنيامين الكبير، بالقارئ نحو المراتب العليا للتأمل، مستعرضاً بدقة متناهية مراحل الاتحاد الإلهي والنشوة الروحية التي تختبرها النفس الإنسانية في مسيرتها الخالصة نحو معرفة الله ومحبته المطلقة[1].

وهكذا، يتبن لنا أن كل من هيو وريتشارد من سان فيكتور قمتين فكريتين في عصرهما، اذ أسهما في إرساء أسس اللاهوت المدرسي من خلال منهجيتهما المنظمة، وفي الوقت ذاته، عمّقا أبعاد التجربة الروحية والتصوف المسيحي من خلال كتاباتهما التأملية الملهمة، مما جعل من مدرسة سان فيكتور منارة للعلم والإيمان في قلب باريس خلال القرن الثاني عشر.

ح. الإدارة الحكومية:

شهدت الإدارة الحكومية في فرنسا خلال حقبة ال كابيه، ولا سيما في عهد الملك لويس السابع، تحولات جذرية ومفصلية أسست لميلاد الدولة المركزية الموحدة على أنقاض النظام الإقطاعي اللامركزي، فقد أدرك التاج الفرنسي أن ترسيخ السيادة الحقيقية يتطلب تفكيك البنى التقليدية التي منحت كبار اللوردات والنبلاء نفوذاً واسعاً، واستبدالها بجهاز إداري وقضائي محترف يدين بالولاء المطلق للمؤسسة الملكية، وتجلت تلك الرؤية الاستراتيجية الشاملة في إعادة هيكلة مؤسسات الحكم جذرياً؛ بدءاً من تحويل البلاط الملكي من مجلس للمحاربين إلى هيئة من الخبراء القانونيين والمستشارين، مروراً بتثبيت باريس كمركز سياسي وقضائي دائم للبلاد، ولم تقتصر تلك الاصلاحات على قمة الهرم السلطوي، بل امتدت لتشمل إصلاحات إدارية واجتماعية واقتصادية عميقة، تمثلت في القضاء على ظاهرة توريث المناصب الحكومية، وتأسيس مدن ملكية جديدة لاستقطاب السكان وتنشيط الاقتصاد، فضلاً عن الخطوات الجريئة وذات البعد الإنساني والسياسي نحو تحرير الأقنان، لقد شكلت تلك السياسات المتكاملة نهجاً براغماتياً متدرجاً نجح في سحب البساط من تحت النفوذ الإقطاعي، واضعاً اللبنات الأولى لإدارة حكومية مؤسسية تستند إلى سيادة القانون، والكفاءة، والمركزية الإدارية.

---

[1] R. Roques, Structures théologiques de la gnose à Richard de Saint-Victor. Essais et analyses critiques, Paris, Bibl. EPHE, Section sciences religieuses t. 1962,p.72.

١- البلاط الملكي :

شهدت حقبة ال كابيه في فرنسا تحولاً محورياً في بنية السلطة، إذ انطلقت عملية تركيز الصلاحيات وتعزيز النفوذ الملكي من خلال إعادة تشكيل الأداة السيادية الأبرز، وهي البلاط الملكي، تميز ذلك التحول ببروز وهيمنة واضحة للعنصرين الكنسي والبرجوازي على حساب الطبقة الأرستقراطية العسكرية التقليدية، التي كانت تشكل عصب النظام الإقطاعي[٢].

ففي قلب هذا البلاط، لم تعد السيادة للمحاربين وكبار الإقطاعيين، بل أصبحت حكراً على نخبة جديدة من الشخصيات النافذة التي استمدت قوتها من معارفها وخبراتها الإدارية والقانونية، كان أبرز هؤلاء وأكثرهم انخراطاً في شؤون الحكم رجال الدين والمستشارون من عامة الشعب، الذين أثبتوا ولاءهم وكفاءتهم للملك، ومن بين الأسماء اللامعة في تلك المدة نجد شخصيات مثل جيلبرت لا فليش **Gilbert La Fleche** ، وآدم بروسلارد **And Adam Broslard**، وبوشارد لو فيوتر **Bouchard le Feutr** ،وكادورك **Kadork**، فضلاً عن تيري غاليران الذي انتمى إلى فرسان الهيكل، مما يعكس تنوع الخلفيات التي اعتمد عليها التاج، ومع مرور الوقت، نجح المجلس الملكي في التحرر تدريجياً من هيمنة كباراللوردات الإقطاعيين، الذين كان حضورهم في السابق شرطاً أساسياً لشرعية القرارات؛ وفي خطوة تاريخية دشنت مرحلة جديدة من الإدارة القضائية، بدأ يظهر في البلاط الملكي المتخصصون في القانون، أو "فقهاء القانون" (**jurisperitus**)، مثل الفقيه مينييه، الذي مثّل بداية بزوغ طبقة من الخبراء القانونيين المحترفين في خدمة الدولة[٣].

علاوة على ذلك، أصبح حضور"البالاتينات"(كبار موظفي القصر) والمستشارين المقربين من الملك أمراً ثابتاً وشبه اعتيادي في مختلف جلسات المحكمة، بغض النظر عن طبيعة القضايا المطروحة أو أهميتها، لم يقتصر دورهم على الحضور الشكلي، بل كانوا يتدخلون بفاعلية في معظم المحاكمات، وفي كثير من الأحيان، كان الملك يوكل إليهم مهمة عقد جلسات المحكمة وترؤسها نيابةً عنه، كان هؤلاء المستشارون، وغالبيتهم من رجال الدين ذوي التعليم الرفيع والخبرة الواسعة في إدارة الشؤون العامة، هم المحرك الفعلي للعملية القضائية، وسرعان ما أصبحوا المسؤولين شبه الحصريين عن الجوانب الجوهرية في إصدار الأحكام، والتي تتطلب دقة وخبرة فنية، مثل إجراء التحقيقات الدقيقة، وفحص الأدلة والمستندات المكتوبة، وصولاً إلى صياغة منطوق الحكم النهائي[٤].

وهكذا تبلورت تدريجياً هيأة قضائية متخصصة داخل البلاط الملكي، تعمل جنباً إلى جنب مع كبار الإقطاعيين، إلا أن دور هؤلاء الأخيرين بدأ يتقلص ويصبح ريمسياً أكثر منه فعلياً، حيث انحصرت مهمتهم، التي أصبحت أقل عبئاً، في الأغلب على المصادقة الشكلية أو

---

(1), op.cit., p.72.

(٢) وليم لانجر، المصدر السابق، ص ٦٢٩.

(3)Achille Locher, op.cit., p.47.

(4)Ibid, p.47.

التصويت بالتزكية على الأحكام التي كان قد أعدها وصاغها بالفعل المستشارون المختصون، يمثل هذا التطور خطوة حاسمة في مسيرة الانتقال من قضاء إقطاعي قائم على العرف والتقاليد إلى قضاء دولة منظم يستند إلى القانون والخبرة الفنية.

٢- باريس مركز السلطة :

شهد عهد الملك لويس السابع منعطفاً حاسماً في تاريخ فرنسا الإداري والسياسي، إذ بدأت باريس تتحول بشكل متزايد لتصبح ليس فقط مقر الإقامة المفضل والمُعتاد للملك، بل أيضاً المركز الفعلي للسلطة الحكومية، ذلك التطور لم يكن نتيجة قرار رسمي أو مرسوم ملكي، بل ترسخ تدريجياً أمراً واقعاً فرضته الممارسة العملية واستمرارية الوجود الملكي في المدينة، ونتيجة مباشرة لهذا التمركز، أضحى قصر المدينة في باريس الموقع الرئيس الذي تُنظر فيه غالبية القضايا والمنازعات المعروضة على البلاط الملكي، فعلى الرغم من أن البلاط كان لا يزال يتنقل مع الملك في بعض الأحيان، إلا أن البيانات الإحصائية المستقاة من سجلات الأحكام القضائية تكشف عن نمط واضح، عند تحليل قائمة المواقع التي مارس فيها البلاط الملكي وظائفه القضائية خلال تلك المدة، يمكن التأكيد على هيمنة باريس الساحقة؛ فمقابل كل قضيتين أو ثلاث قضايا كان يُفصل فيها في مدن ملكية أخرى مهمة مثل أورليان أو إيتامب، كانت هناك ما يقارب خمس عشرة قضية يصدر حكمها من باريس[١].

ذلك التفاوت الكبير يبرهن على أن العاصمة قد اكتسبت ثقلاً قضائياً لا يضاهى، بتلك الطريقة، وبفعل قوة الظروف وتواتر الممارسة، وليس بموجب تشريع صريح، شهد القرن الثاني عشر بداية التأسيس لمقر قضائي ثابت ومستقر، لقد مهد ذلك التحول التدريجي الطريق أمام ظهور برلمان باريس لاحقاً كهيئة قضائية عليا ومستقلة، متخذاً من العاصمة مقراً دائماً له، ومرسخاً بذلك مكانة باريس كقلب نابض للدولة الفرنسية الحديثة[٢].

٣- إصلاحات لويس السابع ضد وراثة المناصب الإدارية:

كانت المشكلة الأساسية التي واجهها لويس السابع تكمن في أن المناصب الإدارية، وبخاصة منصب رئيس المقاطعة (**Prévôt**)، قد بدأت تُعامل كإقطاعيات شخصية يمكن توريثها من الأب إلى الابن، ذلك العرف حوّل المسؤولين الملكيين من وكلاء معينين خاضعين للمساءلة إلى أسياد محليين، مما يفرغ السلطة الملكية من محتواها ويجعل الولاء للعائلة مقدماً على الولاء للتاج، لقد كان ذلك النظام الوراثي يهدد بتقويض بنية الدولة ويمنع الملك من ممارسة سلطته المباشرة في تعيين المسؤولين الأكفاء والموالين له[٣].

وإدراكاً منه لتلك المخاطر، أطلق لويس السابع حملة دؤوبة ومنهجية لمكافحة مبدأ توريث المناصب الإدارية واستعادة حق التعيين الملكي وتجلت استراتيجيته في مسارين، الأول الاسترداد بالتفاوض والتعويض، يتضح ذلك التوجه بوضوح في قضية مقاطعة فلاجي (**Flagy**) في إقليم سين- إيه- مارن عام ١١٧٧، فبدلاً من المواجهة العسكرية المباشرة، قام

---

(1) Achille Locher, op.cit., p.47.
(2) Achille Locher, op.cit., p. 47.
(3) Ibid, p.47.

الملك باسترداد الحق الوراثي للمنصب مقابل تقديم تعويضات مالية لأصحابه، يُظهر ذلك الإجراء حكمة سياسية وقدرة على استخدام الموارد المالية كأداة لتحقيق أهداف استراتيجية مركزية، اما المسار الثاني فهو المنع التشريعي الصريح، كان الملك أكثر حسماً في المناطق الجديدة أو عند إعادة تنظيمها، فعندما أسس منصب رئيس المقاطعة في سان- جينجو **Gingoux Saint**، أصدر مرسوماً صريحاً وقاطعاً ينص على أن **"الحق الوراثي في هذا المنصب محظور تماماً"**، هذا الإعلان لم يكن مجرد إجراء إداري، بل كان بمثابة بيان سياسي يؤكد على سيادة الملك المطلقة في إدارة شؤون مملكته[١].

٤- اصلاحات لويس السابع الخاصة بالأقنان:

لم تكن مبادرات لويس السابع معزولة، بل جاءت استكمالاً لنهج بدأه والده، لويس السادس، فقد شهد عهد لويس السادس تدخلات ملكية في تنظيم جوانب من حياة الأقنان، مثل أهليتهم للشهادة أمام المحاكم في بعض القضايا، وقواعد زواجهم، ومصير أبنائهم، إذ شكلت تلك الإجراءات سوابق قانونية مهمة، حيث بدأت تعترف للأقنان ببعض الحقوق المحدودة، ممهدة الطريق لخطوات أكثر جرأة في عهد لويس السابع[٢]، ومن أبرز أعمال لويس السابع في ذلك المجال، وأكثرها دلالة، هو ميثاق أورليانز الذي أصدره حوالي عام ١١٨٠، والذي بموجبه حرر جميع أقنان مدينة أورليانز والمناطق المحيطة بها، لم يكن ذلك الإجراء مجرد عمل من أعمال التقوى الدينية، بل كان قرارًا سياسيًا واقتصاديًا مدروسًا، اعترف الملك في ذلك الميثاق بالطبيعة القاسية والمستبدة للأعراف التي كانت تقيد هؤلاء الأفراد، مشددًا على ضرورة تخفيف وطأة الهيمنة الإقطاعية، وبذلك لم يكتفِ لويس السابع بتحرير مجموعة من الأفراد، بل وضع سابقة للتحرير الجماعي، مما يشير إلى تحول في النظرة الملكية تجاه القنانة كمؤسسة[٣].

وتتجلى فلسفة لويس السابع بشكل أوضح في ميثاق فردي يعود تاريخه إلى عام ١١٥٢، يتعلق بتحرير قينة تدعى أنياس **Anies**، إن ديباجة ذلك الميثاق، وإن لم يتم العثور على النص الكامل له في المصادر المتاحة بسهولة اليوم، إلا أن الإشارة إليها في النص الأصلي تكشف عن منطق عميق استند إليه الملك، فبحسب ما ورد، تبدأ الديباجة بالتأكيد على مبدأ لاهوتي مفاده أن **"مرسومًا إلهيًا شاء أن يُمنح جميع البشر من أصل واحد نوعًا من الحرية الطبيعية"**، تلك العبارة تحمل في طياتها رؤية ثورية بالنسبة لعصرها، فهي تربط الحرية ليس بمنحة من سيد أو ملك، بل بمشيئة إلهية وأصل إنساني مشترك، ويقر الميثاق بأن القنانة هي حالة طارئة، نتجت عن **"خطأ"** أدى إلى فقدان البعض **"لكرامتهم الأولى"**، ومن هنا، يرى الملك أن دوره، بموجب **"جلالته الملكية"**، هو إعادة هؤلاء الأفراد إلى حالتهم الطبيعية، أي **"إعادتهم إلى الحرية"**، إن مبادرات لويس السابع، سواء في أورليانز أو في قضية أنياس، تثبت أن سلالة ال كابيه لم تنتظر حتى القرن الرابع عشر لتبدأ في تقويض

---

(1) Achille Locher, op.cit., p. 47.
(2) Ibid, p.48.
(3) Ibid, p.48.

الأسس النظرية للقنانة، بل إنها، ومن خلال استحضار مفاهيم الحرية الطبيعية والأصل الواحد للبشر، ساهمت بشكل فعال في رفع مكانة الطبقات المهمشة، ووضعت اللبنات الأولى لمجتمع أكثر عدالة، معززة في الوقت ذاته من سلطتها المركزية كضامن لتلك الحقوق المستعادة[١].

٥- سياسة الملك لويس السابع في تأسيس المدن الجديدة :

كانت رؤية لويس السابع تتجاوز مجرد إنشاء تجمعات سكانية، فمن خلال تأسيس تلك المدن، كان يهدف إلى تحقيق الازدهار الاقتصادي من خلال اجتذاب الفلاحين والحرفيين الباحثين عن فرص أفضل، مما أدى إلى استصلاح الأراضي البور، وتنشيط التجارة، وخلق مراكز اقتصادية جديدة تدر ضرائب مباشرة لخزينة الملك، بدلاً من خزائن النبلاء الإقطاعيين، وقد شكلت تلك المدن ملاذاً آمناً للأقنان والتابعين الفارين من قسوة أسيادهم، وبتقديم الحماية والامتيازات لهم، كان الملك يجذب ولاء هؤلاء السكان نحوه مباشرة، محولاً إياهم من **"أقنان النبلاء"** إلى **"رعايا الملك"**، وهو ما أضعف بشكل كبير قاعدة القوة البشرية والاقتصادية للوردات الإقطاعيين، وقد لخص مؤرخ معاصر لذلك الأثر العميق بقوله إن الملك لويس، بتأسيسه تلك المدن، **"جرّد عدداً من الكنائس والنبلاء من ممتلكاتهم باستقبال رجالهم الذين لجأوا إلى مقاطعاته"**، في إشارة واضحة إلى أن تلك السياسة كانت بمثابة ضربة موجعة للنظام الهرمي القائم [٢].

لم تمر تلك السياسة دون مقاومة، فقد أثارت حفيظة النبلاء والمؤسسات الكنسية الذين رأوا فيها اعتداءً مباشراً على حقوقهم التقليدية وسلطتهم على أراضيهم وأقنانهم، وإدراكاً منه لضرورة الموازنة بين طموحاته وحقيقة القوة الإقطاعية، لجأ لويس السابع إلى البراغماتية، وتجلى ذلك بوضوح في الاتفاقية المبرمة عام ١١٧٧ مع النبيلين جوسلين **Jocelyn** وغوتييه دي ثوري **and Gautier de Thury** ، ففي تلك المعاهدة، قدم الملك تنازلاً محسوباً، حيث تعهد بعدم إيواء الأقنان أو الخدم الفارين التابعين لهذين النبيلين في مدنه الجديدة، ونص الاتفاق على آلية سريعة لاستعادة الهاربين، حيث يكفي "شهادة بسيطة من شهود موثوقين" لإعادتهم إلى أسيادهم، متجاوزاً بذلك الإجراءات القضائية المعقدة أو اللجوء للمبارزة، يوضح ذلك الاتفاق أن الملك كان مستعداً للتفاوض وتقديم ضمانات للنبلاء لضمان نجاح مشروعه الأكبر دون الدخول في صراعات مفتوحة ومكلفة[٣].

ومما تقدم يتبين لنا أن عهد الملك لويس السابع لم يكن مجرد امتداد زمني للسلطة الكابيتية، بل مثّل حقبة انتقالية مفصلية ونهضة شاملة أعادت تشكيل هوية فرنسا سياسياً وثقافياً وإدارياً، فقد تبلورت في تلك المرحلة ازدواجية ثقافية فريدة جمعت بين رعاية الفنون المقدسة، التي تعكس تقوى الملك وورعه، واحتضان الآداب الدنيوية المتمثلة بالشعر والرواية البلاطية، وعلى الصعيد الفني، شهد ذلك العصر ولادة العمارة القوطية بابتكاراتها

---

(1) Achille Locher, op.cit., p.48.
(2) Ibid, p.49.
(3) Ibid, p.49.

الهندسية الجريئة كالقباب المضلعة والنوافذ الزجاجية المعشقة، مما حوّل الكاتدرائيات إلى صروح مضيئة تعزز الشرعية الملكية وتوثق التحالف الوثيق بين الكنيسة والتاج، فكرياً، رسّخت باريس مكانتها كمنارة علمية بفضل ازدهار المدارس وتطور الفكر اللاهوتي، لتضع اللبنات الأولى لظهور الجامعاتو أما سياسياً وإدارياً، فقد أرسى لويس السابع دعائم الدولة المركزية الموحدة عبر تفكيك النفوذ الإقطاعي، وتأسيس بلاط ملكي مؤسسي يعتمد على الخبراء وفقهاء القانون بدلاً من النخبة العسكرية، مع تثبيت باريس كعاصمة فعلية ومركز قضائي دائم، وقد توجت تلك الاستراتيجية بإصلاحات جريئة شملت القضاء على توريث المناصب الإدارية، وإصدار مواثيق لتحرير الأقنان استناداً إلى مبدأ الحرية الطبيعية، فضلاً عن تأسيس المدن الملكية الجديدة التي سحبت البساط الاقتصادي والبشري من تحت اللوردات، ليصيغ بذلك مشروعاً نهضوياً متكاملاً نقل فرنسا من اللامركزية الإقطاعية إلى رحاب الدولة المؤسسية الحديثة.

الفصل الثاني

سياسة فرنسا الخارجية في عهد الملك لويس السابع

١١٤٥- ١١٧٨

أولاً.نشاط الملك لويس السابع في الحملة الصليبية الثانية حتى عودته إلى فرنسا ١١٤٥ – ١١٤٩:

١. وصول خبر سقوط الرها للغرب الاوروبي واستجابة الملك لويس السابع.

٢. نشاط الملك لويس السابع وزوجته إليانور في الإعداد للحملة الصليبية الثانية.

٣. دور الملك لويس السابع في الحملة الصليبية الثانية ونتائج ذلك ١١٤٧ – ١١٤٩.

٤.عودة لويس السابع إلى فرنسا والمخاطر التي واجهها.

ثانياً. بداية الصراع بين الملكين لويس السابع و هنري الثاني ١١٥٢ – ١١٦٢:

١. زواج الملكة إليانور من الملك هنري الثاني وتداعياته.

٢. الصراع حول دوقية تولوز ونتائجها ١١٥٩ – ١١٦٢.

ثالثاً. الصراع بين الملكين لويس السابع و هنري الثاني ١١٦٢ – ١١٧٩:

١. توتر العلاقة بين هنري الثاني ورئيس أساقفة كانتربري توماس بيكيت حتى مقتله ، ودور الملك لويس السابع في تلك الأحداث بين عامي ١١٦٢ – ١١٧٣.

٢. الصراع الداخلي في انكلترا ودور الملك لويس السابع فيه ١١٧٣ – ١١٧٨.

أولاً. نشـاط الملك لويـس السابع في الحملة الصليبية الثانيـة حتى عودته إلى فرنسا ١١٤٥ – ١١٤٩:

شكلت الحملة الصليبية الثانية (١١٤٥ - ١١٤٩) منعطفاً حاسماً في تاريخ الصراع بين الغرب الأوروبي والمشرق الإسلامي خلال العصر الوسيط، ومثلت استجابة عسكرية ودينية واسعة للتحولات الجذرية في موازين القوى إثر التهديدات التي واجهت الوجود الصليبي في بلاد الشام، وفي قلب تلك الأحداث التاريخية الكبرى، يبرز دور الملك لويس السابع ملك فرنسا كأول عاهل أوروبي يتولى قيادة حملة صليبية بنفسه، مدفوعاً بمزيج معقد من الحماس الديني، والرغبة العميقة في التكفير عن أخطائه، وإثبات مكانته السياسية، حيث مثلت مشاركته في تلك الحملة حقبة مليئة بالتحديات والمفارقات، بدءاً من جهوده المضنية في الحشد وتدبير التمويل، مروراً بالرحلة الشاقة والمحفوفة بالمخاطر عبر الأراضي البيزنطية وآسيا الصغرى، ووصولاً إلى الانتكاسات العسكرية المتتالية، والخلافات العميقة مع حلفائه وحتى مع زوجته الملكة إليانور أكيتاين.

١. وصول خبر سقوط الرها للغرب الاوروبي واستجابة الملك لويس السابع.

كان المشرق الإسلامي في النصف الثاني من القرن الحادي عشر يعيش حاله من الفوضى السياسية والعقائدية لا نظير لها، فقد كانت هناك خلافتان العباسية (٧٥٠ – ١٢٥٨) في بغداد والفاطمية(٩٠٩-١١٧١) في القاهرة ، كانتا في صراع عقائدي محتدم، كما أن أحوالهما الداخلية كانت سيئة[١]، إلى أن سيطرة السلاجقة الاتراك على الخلافة العباسية عام ١٠٥٥، ثم بسطوا سيطرتهم على بلاد الشام التي كانت خاضعة للدولة الفاطمية، فحقق الب إرسلان (١٠٢٩-١٠٧٢) سنة ١٠٧١ انتصاراً كبيراً على الجيش البيزنطي بقيادة الامبراطور رومانوس الرابع Romanos IV (١٠٣٠-١٠٧٢) في موقعة ملاذكرد، مما مهد الطريق أمام السلاجقة لإخضاع معظم مناطق آسيا الصغرى التابعة للبيزنطيين لسيادتهم[٢]، لم يلتزم السلاجقة ببنود المعاهدة التي أبرمها السلطان ألب أرسلان مع الجانب البيزنطي، إذ شكّلت وفاة السلطان، بالتزامن مع الاضطرابات السياسية التي عصفت بالإمبراطورية البيزنطية، دافعاً لهم للتنصل من الاتفاق، ونتيجة لذلك شهد عهد خليفته السلطان ملكشاه (١٠٥٥- ١٠٩٢) تصعيداً عسكرياً في آسيا الصغرى، حيث شن السلاجقة حملات واسعة أسفرت عن تخريب المدن البيزنطية وتعريضها للنهب والإحراق[٣] .

---

[١] احمد بن علي الحريري، الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين، تحقيق : سهيل زكار، مكتبة الملاح ، دمشق ، ١٩٨١ ، ص ٢١١ .

[٢] زبيدة عطا ، بلاد الترك في العصور الوسطى ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، د . ت ، ص ٥٠ ؛ نعيم فرح ، المصدر السابق ، ص ٢١٢ .

[٣] سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، ج١، المكتبة الانجلو مصرية ، القاهرة ، ٢٠٠٩، ص٤٣٣ – ٤٣٤.

لذلك استنجد الامبراطور البيزنطي ميخائيل السابع Mikhail VII (١٠٥٠– ١٠٩٠)، بالبابا جريجوري السابع Gregory VII(١٠١٥- ١٠٨٥) لصد الزحف السلجوقي، غير أن انخراط البابا في صراعه مع الإمبراطور هنري الرابع حول مسألة التقليد العلماني حال دون تقديم الدعم المطلوب في تلك المدة، وعلى إثر ذلك، جدد الإمبراطور ألكسيوس كومنين Alexios Komnenos (١٠٤٨- ١١١٨) طلب العون من البابوية وملوك الشطر الغربي من أوروبا، وهو ما تمخض عنه شن أوروبا الغربية حملات عسكرية واسعة هدفت إلى انتزاع الأراضي المقدسة[١]، وفي مقدمتها فلسطين ومدينة القدس [٢].

انبثقت الحروب الصليبية[٣] في العصر الوسيط من واقع الخطبة التي ألقاها البابا أوربان الثاني بالدعوة للحملة الصليبية أمام حشود المستمعين من الكهنة والفرسان وعامة الناس في مدينة كليرمون بإقليم أوفرن وسط فرنسا في٢٧ تشرين الثاني ١٠٩٥، ودعا فيها إلى إطلاق الحملة الصليبية الأولى، حيث شكلت حدثاً حاسماً ما زالت آثاره في المشرق الإسلامي حتى يومنا هذا[٤] ، وفي البداية تم ارسال حملات من الجماهير من خارج دائرة الفرسان بقيـــادة بطرس الناسك Peter the hermit [٥]، وكوتيه سانزافـوار (ولتر المفلس)[٦]، ونظراً لما

---

[١] زبيدة عطا، المصدر السابق، ص ٥٠ .

[2] Rachel A. Koestler-Graco, Eleanor Aquitaine, the heroine of the Middle Ages, Chelsea Publishing House, London , 1973 ,pp.34-35.

[٣] يمكن تسمية كل الحروب التي خاضتها الجيوش الأوروبية ضد المسلمين بالحروب الصليبية، ولكن اصطلاح الحروب الصليبية هو تسمية مستحدثة أطلقها المؤرخون على الغزو الأوروبي للأراضي المقدسة في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، (الخامس الهجري) والذي أشعله البابا أوربان الثاني عام ١٠٩٥ تحت شعار تخليص القبر المقدس ، وقد عرفها الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور في كتابه الحركة الصليبية بأنها «حركة كبيرة نبعت من الغرب الأوروبي المسيحي في العصور الوسطى، واتخذت شكل هجوم استعماري على بلاد المسلمين، وبخاصة في الشرق الأدنى، بقصد امتلاكها» ؛ وقيل إنها سميت بالحروب الصليبية لأن المشاركين فيها جعلوا شعارهم صلباناً من القماش يخيطونها على صدورهم فوق ملابسهم. يراجع : ليلة ازرار، المملكة اللاتينية في بيت المقدس عهد بلدون الاول ١١٠٠- ١١١٨، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، ٢٠٠٩ ، ص ٢٠ ؛ شفيق جاسر احمد محمود ، الحروب الصليبية : جذورها ، دوافعها ، وأسباب نجاح الحملة الاولى ، داره الملك عبد العزيز، مج ١٥ ، العدد ٢، الرياض ، المملكة العربية السعودية، ١٩٨٩، ص ٣٨ – ٣٩.

[4] Rachel A.Koestler,op,cit.,pp.34-35.

[٥] بطرس الناسك (١٠٥٠- ١١١٥): احد من الشخصيات المؤثرة في الحملة الصليبية سميت بـ"حملة الفقراء" سبقت ما نعرفه في عالمنا الإسلامي من حملات وكانت هذه الحملة في ١٥ أيلول ١٠٩٦،ولكن قبل ذلك بشهور قامت جيوش من الفقراء والعبيد والفرسان المعدمين وبشكل غير متوقع أو غير مخطط بتنظيم حملة إلى الأرض المقدسة وانطلقوا إلى القدس بمفردهم وكان العبيد ابتلوا بالجفاف والمجاعة والطاعون لسنوات قبل ١٠٩٦ ويبدو أن بعضهم رأى في الحملة الصليبية مهرباً من واقعهم المرير، دفع الناس إلى ذلك عدد من المصادفات والأحداث السماوية (الفلكية) في بداية ١٠٩٥ التي بدت كأنها مباركة إلهية للتحرك انهمار النيازك وظهور شفق، خسوف للقمر، وظهور مذنب، فضلاً عن أحداث أخرى، منها الاعتقاد بقرب نهاية العالم منتشرا في بدايات القرن الحادي عشر للميلاد، وكان قائد الحملة بطرس الناسك وهو راهب ذو شخصية مؤثرة ومتحدث مفوه من أمينس فكان القائد الروحي لهذه الحركة، وعرف أيضا بركوبه حماراً ولبسه البسيط وكان قد وعظ بنشاط لأجل الحملة في شمالي فرنسا ادعى أنه عيّن من المسيح ذاته. يراجع :

John Hill, Strayer, Joseph (ed.) Dictionary of The Crusades. New York: American Council of Learned Studies,1987, p. 523, Riley-Smith, Jonathan, The First Crusaders, 1095–1131, Cambridge University Press, London, 1997,p.312.

[٦] يُعد والتر، الذي اشتهر - وإن كان ذلك خطأً - بلقب "المفلس"، أحد الشخصيات القيادية البارزة في "حملة الفقراء" التي سبقت الحملة الصليبية الأولى، حيث عمل ملازماً لبطرس الناسك. تحرك والتر بشكل مبكر

اتصفت بهِ تلك الجماعات الشعبية (غير النظامية)، من عدم التنظيم والتجانس، وعدم وجود قيادة موحدة، حيث ضمت أعداداً كبيرة من المعدومين والفقراء بدافع الجوع وليس بغرض ديني، فأخذت تشن الغارات على المناطق الزراعية فسلبوا سكان القرى من دون تفرقة بين المسلمين والمسيحيين وعلى طول مسيرتها إلى القسطنطينية، فرفضها البيزنطيون وكان رد فعلهم قوياً، ثم توجهت تلك الحشود نحو نيقية Nicaea[١] عاصمة السلطان قلج أرسلان[٢] في آسيا فساقوا الماشية، وقتلوا السكان في الضواحي، كما انهم لم يستجيبوا لنصيحة الامبراطور بوجوب البقاء في قلعة كيفيتوت Kifitut حيث المعسكر الصليبي، وعدم القيام بأي تحرك قبل وصول الحملة النظامية، فتمكنت جموع الاتراك السلاجقة بزعامة قلج أرسلان من إبادتها وسحقها بالقرب من هرسك عند مدخل إزميت عام ١٠٩٦ ، ولم ينجُ منهم سوى قلة عادت أدراجها إلى القسطنطينية، وعلى الرغم من تلك النكسة المبكرة، تُجمع المصادر التاريخية على نجاح الحملة الصليبية الأولى(١٠٩٦-١٠٩٩) بمجملها، حيث أسفرت عن تأسيس أربع كيانات سياسية لاتينية، أبرزها مملكة بيت المقدس، إلى جانب إمارات أنطاكية

ومنفصل عن بطرس قبل تشكيل الجيوش الرئيسة المكونة من الفرسان، وقاد جموعاً من العامة عبر أراضي الإمبراطورية الرومانية المقدسة ومملكة المجر، وصولاً إلى صربيا والمقاطعة البلغارية التابعة للإمبراطورية البيزنطية. وعلى الرغم من أن عبورهم لألمانيا والمجر اتسم بالهدوء، إلا أن قيام أتباعه بنهب منطقة بلغراد استدعى فرض رقابة أمنية مشددة من الحراسات البيزنطية رافقتهم حتى وصولهم إلى القسطنطينية. في القسطنطينية، التأم شمل قوات والتر مع بطرس الناسك، وقدم لهم الإمبراطور ألكسيوس الأول كومنينوس الدعم بنقلهم عبر السفن إلى الضفة الأخرى من مضيق البسفور، وهناك، وعلى الرغم من مناشدات والتر المتكررة للمقاتلين بضرورة كبح جماحهم والانتظار لحين صدور التعليمات، اندفع الصليبيون للاشتباك مع الجيش التركي دفعة واحدة، مما أدى إلى تلقيهم هزيمة نكراء. وفي خضم تلك الأحداث، واجه والتر مصيره المحتوم بتاريخ٢١ تشرين الأول ١٠٩٦، حين شنت قوات السلطان السلجوقي قلج أرسلان الأول هجوماً كاسحاً، انتهى بمقتل والتر في أرض المعركة بعد أن أصيب بسبعة أسهم. يراجع: سعد خليل الشعيبات، مصادر تمويل الحملات الصليبية ٤٨٨-٦٤٨ هـ/١٠٩٥-١٢٥٠، الناشر: الآن ناشرون وموزعون، عمان، ٢٠٢١، ص ١٢٥؛ سامي بن عبدالله المغلوث، أطلس الحملات الصليبية على المشرق الإسلامي في العصور الوسطى، شركة العبيكان للأبحاث والتطوير، الرياض ،٢٠٠٩، ص ٢٨- ٣١.

[١] نيقيه: اسمها الحالي أزنيق Iznik في تركيا، وهي إحدى مدن إقليم بثينا البيزنطي أحد أكبر وأهم المدن البيزنطية واشتهرت المدينة بمكانتها التجارية وبكونها أحد أهم الطرق العسكرية المؤدية إلى الأراضي الداخلية لأسيا الصغرى. يراجع :

Kazdon (A.B.), The Oxford Dictionary of Byzantines, Volume 1, Oxford, UK, 1994, pp.1463-1465.

[٢] قلج أرسلان الأول (١٠٧٩-١١٠٧) : كان السلطان الثاني لدولة سلاجقة الروم، أسس والده سليمان بن قتلمش كبير قبيلته والقبائل المجاورة دولة مستقلة في الأناضول بانفصاله عن الإمبراطورية السلجوقية الكبرى عام ١٠٧٧، وبعد وفاة والده، أسره السلطان جلال الدولة ملك شاه، ثم أطلق سراحه عام ١٠٩٢، ليصبح قائد قبيلة "يفا الغز" ويزيل قائدها السابق المعين أمير الغازي المعين، ويتخذ نيقية عاصمة له، ولكن وبعد ثلاث سنوات فقط، وجَّه البابا أوربان الثاني الدفعة الأولى من الصليبيين من أوروبا الغربية إلى الشرق الأوسط ، أعاد قلج أرسلان الأول تأسيس دولة سلاجقة الروم، كما هزم الصليبيين في ثلاث معارك خلال الحملة الصليبية في سنة ١١٠١،كان انتصاره على الصليبيين مهماً بالنسبة للسلاجقة، لأنه أثبت أنه يمكن هزيمة فرسان الصليبيين، بعد الحروب الصليبية انتقل قلج نحو الشرق إلى حران وديار بكر، وحاول سنة ١١٠٧ غزو الموصل، ولكنه هُزم من قِبل محمد بن ملكشاه سلطان دولة السلاجقة العظمى، بدعم من الأرتقيين ورضوان بن تتش والي حلب في معركة نهر الخابور. وتوفي قلج بعد الهزيمة وهو يحاول عبور النهر. يراجع : ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، دار الكتب العلمية، بيروت ، ٢٠٠٨، ص٢١٩ – ٢٢١ .

وطرابلس والرها[١]، التي خضعت في الغالب لحكم النورمان والفرنسيين، ويُعزى ذلك الانتصار الصليبي واحتلال بيت المقدس بشكل رئيس إلى حالة التشرذم السياسي، والنزاعات الداخلية، والوهن الذي كان ينخر في جسد الأمة الإسلامية آنذاك[٢].

بعد انتهاء الحملة الصليبية الأولى تعالت الاصوات لحملة صليبية ثانية ضد المسلمين، فبعد انتهاء الملك لويس من أداء طقوسه الدينية في كنيسة القديس دينس وتوقيعه معاهدة سلام مع ثيوبالد كونت شامبانيا، جهزوا للاحتفال بعيد الميلاد ١١٤٤ في مدينة بورج حيث قاموا باستدعاء اتباعهم للمشاركة في تلك المناسبة الدينية، ولاسيما أن هناك حدث جلل قد هز العالم الأوروبي في تلك الأثناء هو سقوط إمارة الـرها على يد عماد الدين زنكي ١١٤٤[٣]، التي كان لها ردة فعل عنيفة في الغرب الاوروبي، بسبب مكانتها الدينية ولأنها أول الإمارات الصليبية التي تأسست في الشرق وأول الإمارات التي سقطت في يد المسلمين[٤]، في الوقت الذي كان فيه حاكمها الكونت جوسلين الثاني Joscelin II ، (١١١٣- ١١٥٩) يحتفل بعيد الميلاد في مدينة تل باشر[٥]على ضفاف نهر الفرات[١] والثابت تاريخياً أن ضعف شخصية

---

[١] إمارة الرها: مدينة بين الموصل والشام، بنيت في السنة السادسة من موت الإسكندر، بناها الملك سلوقس، وتميزت إمارة الرها بموقعها الاستراتيجي في أرض الجزيرة، ووقوعها بين عدة أنهار هي دجلة والفرات، مما أكسبها دورًا دفاعيًا بالغ الأهمية للكيان الصليبي في الشرق، وقد وصفها ابن قاضي شهبة بقوله: **"كانت الرها من أشرف المدن وأعظمها محلًا عند النصارى، وهي أحدى الكراسي عندهم، فأشرفها بيت المقدس، ثم أنطاكية، ثم رومية ثم القسطنطينية، ثم الرها، وكان على المسلمين من الفرنج بالرها شر عظيم"**. يراجع : روجر أوف ويندوف، المصدر السابق،ص٤٠؛ علية عبد السميع الجنزوري، إمارة الرها الصليبية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، ٢٠٠١ ، ص٣٩ -٤٠ ؛ ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية في السيرة النبوية تاريخ السلطان نور الدين محمود بن زنكي ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، ١٩٧١ ، ص ١١٥ - ١١٦ ؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان ، ج ٣، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ص ١٠٦ .

[٢] فاروق عمر فوزي، محسن محمد حسين، تاريخ فلسطين في العصر الاسلامي الوسيط ٦٣٤ – ١٥١٧، دار الشروق، الاردن، ١٩٩٩، ص ١٥٧؛ مفيد الزيدي ، موسوعة الحروب الصليبية (الاسباب – الحملات – الآثار)، دار اسامة ، الاردن ، ٢٠٠١، ص ٦٢ .

[٣] عماد الدين زنكي (١٠٨٧ – ١١٤٦) : أبو المظفر الأتابك، الملك المنصور عماد الدين، قائد عسكري وحاكم مسلم تركي الأصل حكم أجزاء من بلاد الشام وحارب الصليبيين. كان أبوه مملوك للسلطان ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي(١٠٥٥- ١٠٩٢)، ولاه الخليفة المسترشد(١٠٩٢- ١١٣٥) سنة ١١٢٢ على الموصل بعد موافقة السلطان محمود(١١٠٥- ١١٣١) ابن السلطان محمد بن ملكشاه وفي سنة ١١٢٧ ملك حلب بتوقيع السلطان محمود واستولى على (الرحبة) و(الجزيرة الفراتية) وفتح الرها سنة ١١٤٤، وكان يحتلها الصليبيون بزعامة (كروسي جوسلان)، في عام ١١٤٦ توجه إلى قلعة (جعبر) على نهر الفرات في بلاد الشام وحاصرها وأصبح في إحدى الليالي مقتولا، قتله خادمه وهو راقد على فراشه ، ودفن بصفين، وخلفه ابنه سيف الدين غازي في الموصل وابنه نور الدين محمود في حلب ثم في دمشق . يراجع : علي محمد الصلابي، السلطان الشهيد عماد الدين الزنكي شخصيته وعصرة، مؤسسة أقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، ٢٠٠٧.

[٤] من العوامل التي أسهمت في استرداد عماد الدين زنكي لإمارة الرها من أيدي الصليبيين ظهور طبقة من عامة الناس استنكرت احتلال الصليبيين لبلادهم، كما نشط الفقهاء والعلماء في الدعوة للجهاد ، فظهر عماد الدين زنكي في الموصل عام ١١٢٧ ليقود تلك الحركة، وسط دعم من العلماء والمفكرين، مما جعله أقوى حاكم مسلم في زمانه بسبب جهاده ضد الصليبيين. كذلك من العوامل التي أسهمت بدعم عماد الدين الزنكي هي وفاة ملك بيت المقدس فولك الأنجوى وولاية ابنه بلدوين الثالث Baldwin III ملكا على بيت المقدس (١١٤٣-١١٦٢) تحت وصاية والدته مليسند Melisend .يراجع : وليم الصوري ، تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ، ج٧،ترجمة: سهيل زكار ، دار الفكر،دمشق ، ١٩٩٥، ص ٩٤ ؛ ابن كثير، البداية والنهاية ، ج١٢، دار الحديث ، القاهرة، ٢٠٠٦، ص ٢٠٦ .

[٥] تل باشر : قلعة حصينة ومدينة واسعة في شمالي حلب. ياقوت الحموي، المصدر السابق، ص ٤٠.

أمير الرها جوسلين الثاني وانغماسه في الملذات والتمتع بمظاهر الترف، حتى أنه لم يلتفت للتقدم السريع لجيوش عماد الدين الزنكي والذي ضم إلى سلطانه الموصل وحلب والشام، واستطاع فصل أمارة الرها عن بقية الممتلكات الصليبية في الشام[٢].

كانت الأحوال الداخلية في إمارة الرها مشجعة لاسيما أن حاكمها جوسلين الثاني كان قد دخل في صراع مع أمير أنطاكية ريموند الثاني دي بواتية Raymond II de Poitiers (١١١٥-١١٤٩) حول حماية الإمارات الصليبية في الشمال، ممّا هيأ السبيل أمام الزنكي لمواجهة أمارة كل منهما على حده[٣]، ومن الأمور المهمة التي ساعدت عماد الدين موت أشد أعدائه بأسًا وقوة وهو الإمبراطور البيزنطي يوحنا الثاني كومنين John Comnenus II[٤] وانشغال الإمبراطور الجديد مانويل الأول Manuel I (١١١٨- ١١٨٠) بحماية العرش البيزنطي ضد المتمردين على السيادة البيزنطية العليا[٥]، وكذلك عدم محافظة الجيل الصليبي الجديد على الكيان الصليبي الذي أسسه الجيل الأول، بل أنه لم يكن يدرك أهمية دوره التاريخي بينما المسلمون يحيطون بهِ من كل الجوانب فشارك جوسلين الثاني دون أن يدري في إنجاح حركة الجهاد التي قادها عماد الدين زنكي[٦].

انتهج عماد الدين زنكي في مستهل حكمه للموصل استراتيجية حذرة تجنب فيها الصدام المبكر مع الصليبيين، مفضلاً التركيز أولاً على تمتين جبهته الداخلية اقتصادياً وعسكرياً، وتأمين خطوطه الدفاعية عبر ضم الإمارات الصغيرة المتناثرة في الجزيرة والشام، وقد تجلى دهاؤه السياسي في استغلال عامل الوقت، إذ عقد هدنة مؤقتة مع جوسلين الثاني أمير الرها، استثمرها في توحيد سلطته وبسط نفوذه على حلب وتجنيد الجيوش،وحين استتب له الأمر، وجه أنظاره صوب الرها، مستفيداً من الظرف المثالي الذي خلقه العداء المحتدم بين الإمارات الصليبية، والذي شغل حكامها عن تحصين حدودهم، مما سهّل مهمة الزنكي في فرض حصار محكم دام ثمانية وعشرين يوماً، تكلل بإسقاط المدينة في الثالث والعشرين من كانون الأول عام ١١٤٤[٧]، وهنا تجدر الاشارة الى ان الباحث لا يتناول كافة التفاصيل عما وقع من أحداث أثناء استرداد الرها، فالمصادر العربية والأجنبية قد أسهبت في

---

(١) ابن الاثير، التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية بالموصل ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، د.ت ، ص ٦٦ .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية، ج٢، ط٣ ، المكتبة الانجلو مصرية ، القاهرة ، ١٩٧٥، ص٤٦٦ - ٤٦٧ .

(٣) عليه عبد السميع الجنزوري، المصدر السابق، ص٣٠١- ٣٠٣ .

(٤) يوحنا الثاني (١٠٨٧ - ١١٤٣) : إمبراطور بيزنطي اعتلى عرش الإمبراطورية في المدة الممتدة من ١١١٨ إلى ١١٤٣ ، وكان الابن الأكبر لأليكسيوس الأول كومنينوس، كرس جهود الإمبراطورية للتعافي من معركة ملاذكرد، وقد حقق العديد من الإنجازات العسكرية ضد السلاجقة و في البلقان، ورسخ السلطة البيزنطية في الإمارات الصليبية الناشئة مثل كونتية الرها وإمارة أنطاكية ونجح في استعادة بعض من سمعة الإمبراطورية البيزنطية، وقد أختار ابنه مانويل لخلافته وفقاً لنبوءة بأن خليفته يجب أن يبدأ اسمه بحرف الميم. يراجع : كينيا موس يوحنا ، أعمال يوحنا ومانويل كومنيوس ، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، ج٢٨ ، ترجمة: سهيل زكار ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٩٧ ، ص ٢٦ .

(٥) محمود سعيد عمران ، تاريخ الحروب الصليبية ١٠٩٥ – ١٢٩١ ، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٦٥.

(٦) علي محمد الصلابي، السلطان الشهيد عماد الدين، ص ١٢٧.

(٧) ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ،ج٥ ، دار الكتب العلمية، بيروت ، ٢٠١٠، ص ٢٤٢.

ذكر ذلك الحدث المهم، ولذا ستركز الدراسة على نتائج ذلك الاسترداد[١].

أحدث نجاح عماد الدين زنكي في استرداد إمارة الرها صدمة كبيرة في الأوساط المسيحية، إذ أثار سعيه الحثيث لتوحيد العالم الإسلامي مخاوف الصليبيين وزعزع استقرار إماراتهم في المشرق، التي باتت تستشعر خطراً وجودياً متزايداً [٢]،ولم تمضِ سوى سنتين على ذلك الإنجاز، وتحديداً في عام ١١٤٦، حتى لقي زنكي حتفه أثناء حصاره لقلعة جعبر التابعة لبني عقيل على يد أحد غلمانه المدعو "برنقش"، وهو الحدث الذي حاول الصليبيون استغلاله فوراً لقلب الموازين لصالحهم على الرغم من تولي ابنه نور الدين محمود[٣]،مقاليد الحكم، وقد تضاربت الروايات التاريخية في تفسير دوافع ذلك الاغتيال، فبينما عزتها بعض المصادر إلى خوف الخادم من تهديد سيده له بالقتل[٤]، أشارت مصادر أخرى إلى وجود أبعاد تآمرية، إما باتفاق سري بين القاتل وأصحاب القلعة لفك الحصار، أو بدوافع قومية تعود للأصل الإفرنجي للخادم، مما يرجح فرضية التواطؤ المسبق مع الصليبيين أو رغبته في الانتصار لبني جلدته[٥]، ولم تكد أخبار مقتل عماد الدين الزنكي تصل إلى الصليبيين حتى تحرك جوسلين الثاني من تل باشر بعد أن جمع حوله جيشاً من الصليبيين بلغ ٢٠ ألفاً وتقدم لاستعادة الرها، بعد أن تأكد من مساندة مسحيي الرها لاسيما الأرمن، فتقدم بجيشة وتمكن من اقتحام المدينة واستردادها في ٢٧ تشرين الأول ١١٤٦، وصلت الأخبار إلى أن نور الدين زنكي الذي أصبح حاكماً لحلب، فتحرك بصورة سريعة لاستعادة تلك الإمارة ،التي بذل لها والده الغالي والنفيس للسيطرة عليها، وتحصنت قوات جوسلين الثاني في إحدى أبراج المدينة، الا أن الحصار الذي فرضته قوات نور الدين أرغم جوسلين الهرب من الرها تاركاً وراءه أعداداً كبيرة من الصليبيين والأرمن وغيرهم تحت رحمة سيوف المسلمين،

---

[١] يراجع من التفاصيل حول سقوط الرها: ابن الأثير، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية ، ص٦٦-٧٠.

[٢] وليم الصوري ، الحروب الصليبية ، ج٣ ، ترجمة : حسن حبشي ، الهيئة المصرية العامة لكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٤ ، ص ٢٦٧ .

[٣] نور الدين زنكي(١١١٨- ١١٧٤): هو مؤسس الدولة النورية و ثاني أولاد عماد الدين زنكي بعد سيف الدين غازي، تأثر أبناء عماد الدين بما كان لأبيهم من خلال وفضائل، فكانوا جميعا من رجال الجهاد وفرسانه، على تفاوت في ذلك بينهم. كان نور الدين فارسا بارعًا ،شجاعًا، ذا هيبة ووقار عادلا. يراجع : كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة: نبيه أمين فارس، ط٥، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٨، ص ٣٤٨ ؛ علي محمد الصلابي ، القائد المجاهد نور الدين محمود زنكي شخصيته وعصره ، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة ، ٢٠٠٧.

[٤] ذكر ابن الأثير إلى أن الدافع المباشر لاغتيال القائد عماد الدين زنكي كان نابعاً من خوف خادمه على حياته، بدأت فصول الحادثة أثناء حصار قلعة جعبر، حين استيقظ زنكي منتصف الليل ليضبط خادمه برنقش ومعه بعض الغلمان يشربون الخمر، متجاوزين الأعراف لدرجة شرب برنقش من كأس سيده، أثار ذلك الخرق الصارخ للانضباط غضب زنكي الشديد، فوبخ خادمه وتوعده بالقتل والقصاص مع إشراقة شمس الصباح، ونظراً لما عُرف عن زنكي من صرامة عسكرية متناهية وحزم لا يلين في تنفيذ العقوبات، أدرك برنقش يقيناً أن التهديد جدي وأن هلاكه واقع لا محالة، ودفعاً لذلك المصير المحتوم، بادر الخادم بالتخلص من سيده؛ فانتظر حتى استغرق زنكي في نومه، وتسلل مع الغلمان إلى خيمته ليلاً حيث طعنوه حتى الموت، وعقب تنفيذ الجريمة، لاذ الجناة بالفرار فوراً واحتموا داخل قلعة جعبر المحاصرة، وهو الحدث الذي برّر لاحقاً ظهور نظريات تاريخية تُرجح وجود تواطؤ مسبق بينهم وبين حامية القلعة. يراجع : ابن الأثير ، الكامل في التاريخ، ج ٩، دار الكتب العلمية، بيروت ، ٢٠٠٨ ، ص ١١١- ١١٣.

[٥] ابن العديم، زبدة الحلب من تاريخ حلب ،ج٢ ، دار الكتاب العربي ، دمشق ، ١٩٩٧، ص ٣٢٦؛ ابن القلانسي ، تاريخ دمشق ، دار حسان، دمشق ، ١٩٨٣، ص ٤٤٤ .

وبذلك اتم استردادها للمرة الثانية[١].

تناهت أخبار سقوط الرها عن طريق الحجاج والمسافرين وكان من هؤلاء هيو أسقف جبلة[٢]، الذي وصل إلى البلاط البابوي في مدينة فيتربو Viterbo الواقعة في جنوبي ايطاليا وبرع في تصوير ما حدث لسكان الرها بعد سقوطها، وطلب من البابا إيجين الثالث Eugenius III[٣] تقديم المساعدة من دون تأخر[٤]، وقد تباينت آراء المؤرخين حول مصدر إرسال هيو للغرب الأوروبي، إذ يرى بعض المؤرخين أن ميليسندا[٥] ملكة مملكة بيت المقدس هي التي أرسلته بالتعاون مع حكومة أنطاكية[٦] ويرى بعضهم الآخر أن إمارة أنطاكية، بحكم قربها الجغرافي من الرها وكونها الهدف التالي المنطقي لزنكي، كانت صاحبة المصلحة الأكثر إلحاحًا في طلب العون، وبما أن الأسقف هيو انطلق من مدينة جبلة الواقعة ضمن نفوذ أنطاكية، فمن المنطقي أن يكون قد أُرسل بتكليف مباشر من أميرها، وربما يكون الرأي الصائب ما أتى بهِ رانسيمان وهو أنه تم إرسال أسقف جبلة إلى البابا إيجين الثالث بالاتفاق ما بين ميليسندا وامير أنطاكية[٧].

بدأت الدعوة لتجهيز حملة صليبية جديدة على الشرق، وقد تعددت وجهات نظر الباحثين حول أول من دعا إليها هل كان البابا إيجين الثالث أم الملك لويس السابع فقد انقسموا إلى قسمين الأول يؤكد أن الملك لويس السابع هو أول من دعا إلى الحملة الصليبية الثانية، إذ أعلن رغبته بالقيام بحملة صليبية إلى الشرق في اجتماع بورج، وبعث برسالة من لدنه إلى

---

(١) سعيد احمد برجاوي، الحروب الصليبية في المشرق، دار الافاق الجديدة ، بيروت ، ١٩٨٤ ، ص ٢٨٨ ؛ علية عبد السميع الجنزوري، المصدر السابق، ص ٣٢٤ .

(٢) مكسيموس مونروند ، تاريخ الحروب المقدسة ، ج٢، ترجمة : مكسيموس مظلوم ، القدس ، ١٨٦٥ ، ص ٣١.

(٣)إيجين الثالث (١٠٨٠- ١١٥٣): تولى البابوية من شباط عام ١١٤٥ وحتى تموز عام ١١٥٣ كما كان مسؤولا عن دير القديس زينو Zeno في بيزا عام ١١٢٨ ، أصبح مسؤولا عن الدائرة الأسقفية في أواخر عام ١١٣٠، وقابل برنارد دي كليرفو فوقع تحت سحر بطاعته والتحق به ليصبح راهبا في دير كليرفو وبعد أن تم انتخابه لمنصب البابوية شجع على الحملة الصليبية الثانية وعمل على زيادة نفوذ الكنيسة وكلف ببرنارد بالدعوة للحملة الصليبية وسافر إلى فرنسا عام ١١٤٧ المباركة جهود لويس السابع من أجل القيام بالحملة الصليبية الثانية وطلب مساعدة كونراد الثالث إمبراطور ألمانيا ضد الثوار الرومان وتوفي عام ١١٥٣. يراجع :

Kelly, The Oxford Dicitionary of popes (Oxford 1988) PP. 172-173.

(٤) إسحاق عبيد ، روما وبيزنطة من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتيني لمدينة قسطنطين ٨٦٩ – ١٢٠٤ ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ١٨٢ .

(٥) ميليسندا (١١٠٥ – ١١٦١): امرأة حكيمة راجحة العقل ذات خبرة واسعة ، تميزت على بنات جنسها، وكانت منافسة قوية لأعظم الأمراء مكانة وقوة برعت في تدبر أمور المملكة في المدة التي كان ابنها صبيًا، ولكن كانت هناك عناصر طائشة في المملكة حاولت أن تؤثر على بلدوين لتخلص من ولاية والدته محرضة له على الاستقلال بالحكم. يراجع :

Hamilton, Bernard, Medieval Women, ed. Derek Baker; Women in the Crusades: The Queens of Jerusalem. Oxford, Church Historical Society, 1978, p. 631; Hodgson, Natasha, Women, the Crusades and the Holy Land in Historical Narrative, Boedell Press, England, 2007, p. 332.

(٦)هانس ابرهارد ماير ، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: عماد الدين غانم، ط٢ ، دار المدى للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ٢٠٠٩ ، ص ١٧٧ .

(٧)ابن القلانسي، المصدر السابق ، ص ٤٣٨؛ شيماء رزاق شاكر، موقف الامبراطور البيزنطي مانويل الأول كومنينوس ١١٤٣- ١١٨٠ من الحملة الصليبية الثانية، مجلة مركز دراسات الكوفة ، جامعة الكوفة، كلية الطب ، ج٢ ، العدد ٧٣ ، ٢٠٢٤، ص ٦٢٨.

البابا إيجين الثالث في الشهور الأولى من عام ١١٤٦ ليخبره عن رغبة الملك، وأعقب ذلك إصدار البابا للمرسوم البابوي الخاص بالدعوة للحملة الصليبية، أما القسم الثاني فيؤكد أن البابا إيجين الثالث هو الذي أصدر المنشور البابوي في الأول من كانون الأول عام ١١٤٥، وهو أول من دعا إلى القيام بالحملة الصليبية الثانية[١] . ويبدو أن الرأي الثاني هو الرأي الصحيح لان البابا أصدر النشرة البابوية في الاول من كانون الأول عام ١١٤٥ قبل عقد اجتماع بورج من الشهر نفسه.

رأى البابا إيجين الثالث على الرغم من صعوبة ظروفه أن الملك لويس السابع هو الشخص الرائد في أوروبا الذي يمكن أن يعهد إليه بمهمة تجهيز الحملة إلى الشرق **" البابا إيجين، خادم خدام الرب، إلى ابنه العزيز في المسيح، لويس ملك الفرنجة الشهير والمجيد، وإلى أبنائه الأعزاء، الأمراء وكافة المخلصين للرب في غاليا، السلام والبركة الحوارية"**[٢]، ويرجع اختيار البابا للملك لويس الذي يبلغ من العمر ٢٥ عاماً لأنه نذر بالقيام بحملة صليبية إلى الشرق كنوع من الندم والتوبة على ما اقترفت يداه في حق مدينة فيتري، وهي المدينة الخشبية التي اضرم فيها النار أثناء صراعه مع كونت شامباني وأحرقها بما فيها من الأحياء[٣]، وذكر بعضهم أن البابا أختار فرنسا بوصفها الموطن الطبيعي للحماس الصليبي[٤]، وتشير المصادر إلى أن البابا كان يعرف رغبة لويس بالقيام بحملة صليبية عن طريق القديس برنارد، كذلك كان النورمان في جنوبي ايطاليا منشغلين في الساحل الإفريقي بالقرب من تونس، كما أن روجر الثانيRoger II of Sicily[٥] ملك صقلية[٦] لم تكن

---

(1) Gleber (Dr – P – H): Papst Eugen III (1145 – 1153) (Jena 1936), PP. 37-40.

(٢) وللمزيد عن دعوده البابا للملك لويس السابع يراجع : ملحق رقم ٤ ؛

W.L. North, Letter XLVIII of Pope Eugenius III to King Louis VII of France December 1145), paris: the edition of J-P. Migne, 180, 1855), pp. 1064-1066.

(٣) محمود سعيد عمران ، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في عهد الإمبراطور مانويل الأول ١١٤٣ – ١١٨٠ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٥ ، ص ١٣٦ .

(٤) ارنست باركر، الحروب الصليبية، ترجمة: السيد الباز العريني، ط٢، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ، ١٩٩٧،ص٧٣.

(٥) روجر الثاني(١٠٩٥- ١١٥٤): هو روجر الثاني بن روجر الأول شقيق جويسكارد، تمكن من توحيد المملكة النورمانية في جنوب إيطاليا وصقلية تحت زعامته، وتوج ملكاً في باليرمو في عيد الميلاد ٢٥ كانون الأول عام ١١٣٠ على يد المندوب البابوي وتخوفت بيزنطة منه واعتبرت تتويجه ملكاً تحدياً صارخاً لحقوقها في جنوب إيطاليا، لذلك شجعت بيزنطة الملك الألماني لوثير الثاني على القيام بحملته ضد روجر الثاني عام ١١٣٦، وقد أدرك روجر أن التحالف البيزنطي الألماني موجه ضده لذلك أرسل سفارة إلى القسطنطينية عام ١١٤٢-١١٤٣ يطلب يد أميرة بيزنطة للزواج من أحد أولاده، لكن مانويل رفض مطلبه ورفضت عروضه للمشاركة في الحملة الصليبية الثانية في اجتماع إيتامب عام ١١٤٧ ، لذلك استغل انشغال الإمبراطور مانويل كومنين بمراقبة مرور قوات الحملة الصليبية الثانية عبر أراضيه وهاجم الأراضي البيزنطية. دعا روجر الثاني إلى حملة صليبية صد بيزنطة بحجة مسؤوليتها عن فشل الحملة الصليبية الثانية، ولكن هذه الحملة لم تنفذ بسبب معارضة البابا إيجين الثالث وموت روجر الثاني في أول عام ١١٥٤. يراجع: مصعب حمادي نجم ، الصليبيون في بلاد الشام، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠١٣ ، ص٢٣٩ – ٢٤١؛ فاضل محمد الحسيني، آفاق الحضارة العربية الإسلامية، دار الشروق للنشر والتوزيع، الاردن ، ٢٠٠٦، ص ٥٧ .

(٦) صقلية: هي جزيرة تقع في منتصف البحر المتوسط على شكل مثلث، وقد تميزت بكثرة جبالها وحصونها وقلاعها وبخصوبة أرضها وكثرة مزارعها . يراجع : ابن حوقل ، صورة الأرض، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٩٢، ص ١١٣.

علاقته على ما يرام مع البابوية، وكانت انكلترا في صراع داخلي بعد وفاة الملك هنري الأول، لذلك استجاب لويس السابع للنداء واجتمع بكبار الإقطاعيين والأساقفة في يوم عيد الميلاد في مدينة بورج التي وصل إليها المندوب الباباوي يجودفري لانجريوس Godfrey langerius في ٢٥ كانون الأول ١١٤٥ تحدث فيه المندوب عن ما تعرضت اليه الرها من الاضطهاد والعذاب، وما يعانيه المسيحيون في الشرق وحث الجميع على الاسراع لإنقاذهم[١].

وعندما أفصح الملك لويس السابع عن عزمه قيادة الحملة الصليبية الثانية والتوجه إلى الأراضي المقدسة، اصطدمت رغبته بدايةً ببرودٍ ورفضٍ من قبل أتباعه في فرنسا وأكيتاين، إذ ساد التردد أوساط النبلاء والبارونات الذين استشعروا خطورة الرحلة واستحضروا العبر القاسية من تجارب أسلافهم، رافضين تكرار التهور الذي أدى سابقاً إلى رهن الأراضي وخسارة الأرواح، لا سيما ذكرى حملة دوق أكيتاين وليم التاسع التي انتهت بكارثة وفشل ذريع راح ضحيته أكثر من سبعين ألف قتيل نتيجة فتور الحماس الديني وسوء التقدير[٢]، وفي السياق ذاته، تصدر سوجر واجهة المعارضين، حيث نصح الملك بالتريث وإعادة النظر في قراره، مستنداً في ذلك إلى مبررات سياسية وعسكرية واقعية، فقد رأى أن غياب الملك لمدد طويلة قد يعرض البلاد للانهيار والفوضى، لاسيما أن لويس لم يكن يتمتع بخبرة عسكرية كافية، وكانت حملاته السابقة غير موفقة، فضلاً عن الخطر الأكبر المتمثل في عدم وجود وريث ذكر للعرش، مما يجعل المملكة في مهب الريح حال وفاة الملك[٣]، وعلى الرغم من تأخر لويس بضعة أشهر في الرد على البابا إيجين، إلا أن القديس برنارد لعب دوراً محورياً في تغيير مسار الأحداث، حيث شجع الملك على المضي قدماً، مصوراً المشاركة في الحملة كسبيل وحيد للتكفير عن الآثام، ومستغلاً علاقته الطيبة بالملك لتوجيه القرار[٤]، واللافت أن برنارد، حين استشاره الملك لمواجهة معارضة سوجر، انتهج سياسة ذكية برفضه إبداء رأي فردي قبل التشاور مع البابا، وذلك لترسيخ الدور القيادي للكنيسة وجعلها المرجع الأول والأخير في مسألة الحروب الصليبية [٥].

وبناءً على نصيحة القديس برنارد أرسل الملك لويس السابع برسله إلى روما لإخبار البابا بتعهده المشاركة في الحملة الصليبية الثانية، وصل الرسل في بداية عام ١١٤٦، واستقبلهم

---

[١] مكسيموس مونروند ، المصدر السابق ، ص ٣١ .

[٢]أودو أوف دويل، رحلة لويس السابع إلى الشرق، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ،ج٧ ، ترجمة : سهيل زكار ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٩٥ ، ص ١١ ؛ كارل بروكلمان ، المصدر السابق ، ص ٣٤٨ .

[٣]مونيقورس، تاريخ ملوك فرنسا من مبدا ملكهم الى الملك لويز فيليب، ترجمة :حسن قاسم ، مطبعة بولاق، القاهرة، د . ت، ص ٧٤؛

Archer (T.A.): The crusades, London, 1894, P. 210; Meade, op.cit., p.70; Kelly, Eleanor, P. 32.

[4] Brundage (J.A.): The crusades A Documentary survey. (The Marquette University press, 1976),p.88.

[5] Perry (V.G.): "The second crusade", in setton: History of the crusade, vol. II. (Philadlphia, 1955),p.468.

البابا بالترحاب ثم عادوا إلى فرنسا يحملون معهم موافقة البابا على مشاركة الملك لويس بالحملة الصليبية الثانية ودعاء البابا للملك بالنصر، كما اوصاهم البابا إيجين بطاعة الملك، والاعتدال في الملبس، ووعدهم وكل من شارك في الحملة بمحو خطاياهم، وحماية أزواجهم وأطفالهم في الغرب، هذا فضلاً عن العديد من الإرشادات والمواعظ التي حملتها رسالة البابا إيجين الثالث[١]، الذي أوكل مسؤولية التبشير للحملة الصليبية الثانية لبرنارد، على الرغم من أنه هو الداعي لها، وذلك بسبب ما كان في روما من اضطرابات ومشاكل وبالتالي لم يستطع مغادرتها[٢].

بدأ برنارد الذي كان يحمل جميع صفات ومزايا بطرس الناسك مسيرته الدعوية من بلده الأم فرنسا، حيث دعى الجميع في يوم الفصح إلى حضور مجمع في مدينة فيزيلاي ٣١ اذار عام ١١٤٦ برعاية الملك لويس السابع، واجتمعت الحشود الغفيرة من الشعب الفرنسي أمراء ورجال دين ، حول برنارد الذي بنيت له منصة خشبية كبيرة، حتى يتمكن من رؤية الجموع المحتشدة، وكان إلى جانبه الملك لويس السابع مرتدياً الصليب الذي أرسلته إليه البابوية، فحثّ برنارد الجميع على الذهاب للدفاع عن الأراضي المقدسة وحدد لهم موعد الخروج للحملة بعد سنة من ذلك الوقت، فاستجاب الجميع لدعوته بمنتهى الحماسة والشوق أملًا في ذلك الغفران المزعوم[٣].

عندما انتهى القديس برنارد من خطابه سلم الصليب إلى الملك لويس، وبدموع تنهمر على خديه، تقدم الملك لويس ليأخذ الصليب صاح الحشد، **"إلى القدس!"** ممتلئين بالعاطفة، اندفع الآلاف من الناس إلى الأمام صاحوا، **"صلبان! أعطونا صلبانًا!"**، وبحركة مسرحية مؤثرة خلع القديس برنارد أرديته الخارجية وقذف بها إلى الجمهور المتحمس طالباً منهم تقطيعها وصنع منها الصلبان، لتوضع على صدور الجنود، ثم نزل بينهم وانهمك مع الجمهور في خياطة الصلبان من أرديته وأردية من معه[٤].

كتب برنارد الى البابا إيجين يخبره أن دعوته قد أثمرت: **"أنت أمرت وأناء أطعت وسلطة من أعطى الأمر جعلت طاعتي مثمرة فلم أكد أفتح فمي وتكلمت وعلى الفور تضاعفت أعداد الصليبين إلى ما لانهاية "**، كما وضح في رسالته أن المدن والقرى **"ستخلو من الرجال فسيصبح هناك رجلًا واحدًا لكل سبعة من النساء"** وأنهى رسالته بالقول: **"سيصادفك في مدن وقرى فرنسا أرامل لا يزال أزواجهن أحياء"**[٥].

لم تنحصر مساعي الحشد للحملة الصليبية في النطاق الفرنسي فحسب، بل امتدت طموحات القديس برنارد لتشمل الألمان، حيث بادر بمراسلتهم لدعوتهم للمشاركة، وحينما لم

---

[١] أودو أوف دويل ، المصدر نفسه ، ص ١١.

[٢] وليم الصوري، الحروب الصليبية، المصدر السابق، ص ٢٦٨ - ٣٤٨.

[3] Swaby, F., Eleanor of Aquitaine: Platonic Love, and the Troubadour, Greenwood's Guides to Medieval Historical Events, Greenwood Press, London, 2004, p. 36.

[٤] تيسير بن موسى ، نظرة عربية على غزوات الإفرنج من بداية الحروب الصليبية حتى وفاة نور الدين ، الدار العربية للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٣ ، ص ١٣٠.

[5] Kelly op.cit.,p.35 .

تُوتِ تلك المراسلات أكلها، اضطر للتوجه شخصياً لإقناع الإمبراطور كونراد الثالث Conrad III[١] غير أن الاستجابة الألمانية جاءت مخيبة للآمال في مستهل الأمر نتيجةً لجملة من التحديات المعقدة، إذ كانت ألمانيا ترزح تحت وطأة التدهور الاقتصادي وانتشار المجاعات، فضلاً عن اضطرام نار الحرب الأهلية الناجمة عن النزاع السياسي الطويل الذي بدأ بين كونراد الثالث ولوثير الثالث السكسوني Lothair III of Saxon (١٠٧٥- ١١٣٧) عقب وفاة هنري الخامس، واستمر الصراع حتى بعد وفاة لوثير وتولي كونراد الثالث Conrad III (١٠٩٣-١١٥٢) العرش، حيث احتدم الخلاف مع ورثة لوثير- هنري المتكبر وابنه هنري الأسد **Henry the Lion** Henry the (١١٢٩- ١١٩٥)، وكذلك ولف السادس Wolf VI(١١١٥- ١١٩١)- حول أحقية الحكم والسيطرة على دوقيتي بافاريا وسكسونيا، وإلى جانب ذلك الوضع الداخلي المتأزم، خشي كونراد من أن تؤدي مشاركته في الحملة إلى توتير علاقاته الدبلوماسية مع القسطنطينية[٢]،وعلى صعيد آخر، كان البابا إيجين الثالث يعيش حالة من التجاذب السياسي والتردد إزاء مشاركة كونراد، فهو لم يُستشر في انضمامه كما حدث مع لويس السابع، وكان في أمسّ الحاجة لبقاء الإمبراطور بالقرب منه لكبح جماح الثوار في إيطاليا، وقد استشرف البابا مخاطر غياب الملك الألماني، موقناً بأن ذلك سيؤدي حتماً إلى تآكل السلطة الإمبراطورية في شمال ووسط إيطاليا في ظل الصراعات الدائرة بين المدن، مما يفسح المجال لتعاظم النفوذ البيزنطي وتنامي خطر روجر الثاني ملك صقلية، الذي كان يشكل مصدر قلق دائم للكرسي الرسولي[٣].

بذل القديس برنارد جهوداً حثيثة ومستمرة لاستمالة الإمبراطور الألماني كونراد للمشاركة في الحملة، متجاوزاً عقبة اللغة التي كانت تضعف أحياناً من تأثير خطاباته في الجماهير الألمانية،وقد تكللت تلك المساعي بالنجاح في السابع والعشرين من كانون الأول عام ١١٤٦، خلال اجتماع البرلمان الألماني لتتويج كونراد رسمياً، إذ تمكن برنارد من التأثير العميق في نفس الإمبراطور الذي هتف معلناً: **"نعم إنني أدرك أن كل هذه النعم هدايا إلهية، وأنا لا أريد مقابلتها النكران، لذا أنا على أتم الاستعداد لخدمة الرب"**، والواقع أن موافقة كونراد وتطلعه لقيادة الحملة لم تكن وليدة التأثر الروحاني فحسب، بل تضافرت معها دوافع سياسية واقتصادية، إذ وجد في تلك المشاركة مخرجاً من الأزمات الداخلية والحروب الأهلية التي أنهكت الاقتصاد الألماني، فضلاً عن رغبته في منافسة خصمه دوق بافاريا وولف السادس،

---

(١) عادل عبد الحافظ عثمان شحاته، العلاقات السياسية بين الإمبراطورية الرومانية المقدسة والشرق الإسلامي ١١٥٢ – ١٢٥٠ ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ١٩٨٩ ، ص ٤٥ .

(٢)اصبح كونراد الثالث ومانويل كومنين حليفان في تلك المرحلة، فقد تزوج مانويل من برثا من سالزباخ Berta of Salabach شقيقة زوجة كونراد الثالث ملك ألمانيا بتأثير من أبيه جدا كومين وذلك عام ١١٤٢ ولذلك ارتبط البيت البيزنطي بالألمان برباط المصاهرة . يراجع : عزيزة فوال بابتي ، موسوعة الإعلام العرب والمسلمين والعالميين ، ج٣ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠٠٩ ، ص ٤٨٩؛

Nicetas, Chonitas, Historia in corpus scriptorium Historiae, Byzantinae Bonne, 1835 1835,P. 266.

(3) Lane – Poole , "Germany, 1125 – 1152" in Camb. Med. Hist. Vol., V, London, 1980, PP. 345 – 349.

الذي سبق واستجاب للدعوة، وسعيه لانتزاع شرف زعامة الحملة من لويس السابع وعدم تركه ينفرد بالمجد وحده، وهكذا اتسع نطاق تأثير برنارد ليتجاوز الملوك والأمراء ويشمل كافة طبقات المجتمع، الذين تعهدوا جميعاً بحماسة منقطعة النظير بالتوجه صوب القدس[١].

٢. نشاط الملك لويس السابع وزوجته إليانور في الإعداد للحملة الصليبية الثانية.

وجد الملك لويس أن الإعداد للحملة يتطلب مبالغ مالية باهظة، لذلك فُرضت الضرائب الثقيلة على كل أنحاء فرنسا لجمع المال، والإنفاق على الحملة مما سبب الكثير من المشقة على الفرنسيين، حيث قام الملك لويس بعمل إحصاء للسكان من أجل جمع الأموال، كما فرض الضرائب على الكنيسة وجميع اتباعه من العلمانيين ورجال الدين [٢] .

شهدت مدينة إيتامب Étampes الفرنسية انعقاد مجلس تاريخي مهم في المدة الممتدة من يوم الأحد الموافق ١٦ شباط وحتى ١٨ شباط من عام ١١٤٧، وذلك بدعوة رسمية من الملك لويس السابع لمناقشة التجهيزات ومعرفة الطرق التي سوف تسلكها الحملة الصليبية واختيار الشخص الذي سينوب عن الملك لويس أثناء غيابه في الأراضي المقدسة وتحديد موعد رحيل الحملة الصليبية، وحضره الاجتماع عدد من البارونات والقساوسة والرهبان، وأمراء من بلوا، ولانجرس، والفلاندرز، ونيفار، وفضلاً عن القديس برنارد مندوب البابا إيجين الثالث الذي كان قد عاد من المانيا قبيل عقد الاجتماع، وذلك للاتفاق على اتخاذ المسار الممكن للحملة الصليبية، ومناقشة الشؤون التنظيمية لفرنسا من بعد خروج الملك لويس في الحملة[٣].

افتتح الملك لويس السابع بتقرير حول الإنجازات التي حققها حتى ذلك الوقت حيث تسلم ردوداً من قبل رسل كل من روجر الثاني، ومانويل كومنين، وكونراد الثالث وأستمع المجتمعون إلى تقرير من القديس برنارد حول النجاح الذي حققه في الدعوة إلى الحملة الصليبية في فرنسا والمانيا، ثم الاستماع إلى الرسائل القادمة من مختلف البلدان، وفي ثاني أيام الجلسة أقترح الحضور مساريين للخروج، أولهما المسار البري والآخر مسارًا بحريًا، إذ كان المسار البري المقترح عبر وادي نهر الدانوب والقسطنطينية، أما المسار البحري فكان عن طريق صقلية وبمساعدة من ملكها[٤].

أرسل الملك لويس خطابين لكل من ملك صقلية روجر الثاني[٥] والإمبراطور مانويل كومنين ليتحقق من مدى رغبتهم في الاسهام في إمدادات الحملة الصليبية الثانية[٦]، رحب

---

[١] عادل عبد الحافظ ، المصدر السابق ،ص ٤٧ ؛ ميخائيل زابوروف ، الصليبيون في الشرق ، ترجمة : إلياس شاهين ، دار التقدم، موسكو ، ١٩٨٦ ، ص ١٧٧ ؛ عزيز سوريال عطية، الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب ، ترجمة : فيليب صابر سيف، دار الثقافة، القاهرة، د.ت ، ص ٥٩ ؛
Gobry, Louis VI , p.122.

[2] Swards Kelly, Makers of World History, 2nd ed., St. Martin's Press, New York, 1995, p. 43.

[٣] أودو أوف دويل، المصدر السابق، ص ١٤ .

[4] Gobry, op.cit., p.125.

[٥] أسمت غنيم، العلاقات البيزنطية الألمانية أثناء الحملة الصليبية الثانية في ضوء وثائق كينا، الفنية لطباعة والنشر، دمشق ، ١٩٨٧، ص١٧-١٨.

[٦] أودو أوف دويل، المصدر السابق، ص ١٣ .

روجر بخطاب لويس السابع وأرسل إليه سفراءه، وتمت مناقشة عروض روجر الثاني، وحصل خلاف بين المجتمعين، حيث ابدى البعض منهم قبول العروض التي قدمها مبعوثيه بشأن توفير السفن اللازمة لنقل الصليبيين إلى الشرق، وقد برر هؤلاء قبولهم وتفضيلهم عروض روجر بأن الرحلة البحرية أقل عرضة للخطر[١]، ولن تواجه الصعوبات التي قد تواجه الجيش في الطريق البري ومخاطر العبور في أراضي مجهولة في آسيا الصغرى، وعلاوة على ذلك فإنهم سوف يتجنبون مخاطر اعتداء الإمارات اليونانية عليهم لعداوتهم للفرنسيين[٢].

كان على رأس الحزب المؤيد لمشاركة روجر جيوفروي دي لاروش فانو Roger Geoffroy de Laroche-Fanou اسقف لانجرس، الميال بقوة إلى روجر الثاني ملك صقلية، وهو معاد للبيزنطيين بسبب الأذى الذي الحقوه بالصليبيين من خلال الحملة الصليبية الأولى، وكذلك تأثير رسل روجر الذين قدموا إلى فرنسا قبل عقد الاجتماع بمدة وتمكنوا بسبب وجودهم المبكر من كسب عدد من الفرنسيين إلى جانبهم بحكم العلاقات الأسرية التي تربط بين البلدين، إذ يذكر أن أسرة هوتفيل Hautevilles النورمانية هي فرنسية الأصل، أما الفريق الأخر المؤيد للطريق البري فقد برروا اختيارهم هذا بأن روجر في الوقت الحاضر في حاله حرب مع البيزنطيين وأنه قدم العرض لصالحه، فضلاً عن أنهم لا يثقون في النورمان المشهورين بالغدر والخداع بنظرهم[٣]، وعلى الرغم من الخلافات التي حصلت في الاجتماع فقد تم في نهاية اليوم الثاني اختيار الطريق البري الذي يمر عبر الأراضي البيزنطية، وانسحب رسل روجر الثاني من الاجتماع [٤].

ويرجع رفض لويس السابع لعروض روجر الثاني لأنه يدرك تماماً أن روجر يهدف من خلال عرضه السابق إلى كسب الفرنسيين في صفة لمناهضة السياسة البيزنطية ، كما كان يرغب في عزل لويس السابع عن كونراد الثالث، في الحملة الصليبية الثانية، الذي وقع معاهدة سرية مع مانويل كومنين للتحالف ضده، وكان روجر الثاني يطمع في أنطاكية التي كان يراها حق من حقوقه الشرعية، فهو الوريث الوحيد من ذرية ابن عمه بوهمند الأول Bohemond I of Antioch (١٠٥٤- ١١١١) أمير أنطاكية، والذي دخلة في صراع طويل الأمد مع أميرها ريموند دي بواتيه ولأن ريموند هو عم إليانور زوجة لويس فبالتالي سيرفض لويس عرض روجر إرضاء لزوجته[٥]، وللمؤرخ جوبري Gobry رأي آخر فقد أرجع سبب رفض لويس لاقتراح روجر إلى خوفه من سفن القراصنة البربر التي قد تهاجمهم أثناء مسيرهم عبر الطريق البحري[٦].

---

(١) ارنست باركر ، المصدر السابق ، ص٧٤ – ٧٥ .

(2)Meade, op.cit, p.76.

(٣) أودو أوف دويل ، المصدر السابق ، ص ٢٩٩ – ٣٠٠ .

(4)Pernaud, R., Eleanor of Aquitaine, Coward McCann, New York, 1968, p. 53.

(٥) محمد سهيل طقوش، تاريخ الحروب الصليبية (حروب الفرنجة في المشرق ١٠٩٦ - ١٢٩١)، دار النفائس، ٢٠١١، ص ٣١٦ .

(6) Gobry, op.cit., p.125.

كما أن كونراد الثالث إمبراطور المانيا كان سيرفض الطريق البحري بسبب عدائه مع روجر الثاني النورمندي، كذلك أن كونراد لو وافق على الطريق البحري سيدخل في نزاع مع روجر وسوف يؤدي إلى إفشال الحملة، وكان مانويل كومنين يفضل أن تسلك القوات الطريق البري حتى يتمكن من الإشراف على القوات الصليبية ، كما كان يتخوف من أن يوجه روجر الحملة الصليبية الثانية ضد القسطنطينية أو ضد أنطاكية التي كان يدعي السيادة عليها، وكانت علاقات روجر مع البابوية سيئة ، فلم يبد أي مظهر من مظاهر الطاعة تجاه البابوية، لذلك لم تبد البابوية أي ترحيب بهِ عندما أعلن عزمه على المشاركة في الحملة الصليبية الثانية، وتخوفت البابوية أن يعمل روجر على تدمير العلاقات بين اللاتين والبيزنطيين عن طريق توجيه الحملة إلى حرب عدائية ضد بيزنطة[١].

يبرز هنا تساؤل جوهري حول الدوافع الحقيقية التي دفعت بالملك لويس السابع إلى طلب العون من روجر الثاني، على الرغم من إدراكه المسبق لأطماع الأخير في إمارة أنطاكية، فضلاً عن علاقاته المتوترة مع كل من الإمبراطور مانويل كومنين والملك كونراد الثالث والسلطة البابوية، وفي تفسير ذلك السلوك، يذهب بعض المؤرخين إلى أن لويس السابع أراد توظيف ورقة روجر الثاني كمناورة سياسية للضغط على الإمبراطور مانويل، بغية انتزاع أكبر قدر ممكن من التسهيلات اللوجستيةلمرور الحملة الصليبية عبر أراضي الإمبراطورية، ولا سيما أن لويس بادر بمراسلة مانويل في صيف عام ١١٤٦ بالتزامن مع طلبه المساعدة من روجر، ونحن نميل إلى تأييد هذا الرأي، إذ أثبتت تلك الاستراتيجية نجاحها في البداية، حيث سارع مانويل- تحت وطأة الضغط واحتمالية التحالف بين لويس وروجر-لإرسال خطاب في شهر آب من العام نفسه أبدى فيه ترحيبه بمرور القوات الصليبية دون قيد أو شرط، غير أن الموقف البيزنطي تغير جذرياً عقب اجتماع إيتامب، فبمجرد رفض عروض روجر الثاني واتفاق الصليبيين على سلوك الطريق البري، استغل مانويل زوال ورقة الضغط الصقلية وبدأ بفرض شروط صارمة، مطالباً لويس السابع بأداء يمين الولاء والتبعية للإمبراطور البيزنطي، والتعهد بإعادة الأراضي التي كانت تابعة سابقاً للدولة البيزنطية حال استعادتها من أيدي المسلمين[٢].

وفي اليوم الثالث والأخير من انعقاد مجمع إيتامب، انصب الاهتمام على ترتيب البيت الداخلي للمملكة، حيث تقرر اختيار نائبٍ يتولى تصريف شؤون الحكم أثناء غياب العاهل الفرنسي، وقد وقع الاختيار بدايةً على شخصيتين بارزتين هما الأب سوجر والكونت وليم دي نيفار William de Nivar، غير أن الموقف شهد تحولاً مفاجئاً حين أعلن الكونت وليم اعتذاره عن المهمة لرغبته في الانقطاع للعبادة والالتحاق بدير شارتر، أما الأب سوجر، فقد أبدى زهدًا واضحًا في قبول الوصاية على العرش، ناظرًا إليها بوصفها عبئاً ثقيلاً ومسؤولية جسيمة لا مجرد تشريف، إلا أنه أذعن في نهاية المطاف وقبل المهمة نزولاً عند رغبة البابا

---

[١] سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص ٦٢٢ .

[٢] مكسيموس مونروند ، المصدر السابق ، ص٣٩ – ٤٠ .

إيجين الثالث وإلحاحه[١]، وبعد انتهاء اجتماع إيتامب تقرر مغادرة الحملة خلال ثلاثة أشهر، وأن يكون مكان الاجتماع بمدينة مينز Mainz [٢]، في تلك الأثناء قرر البابا إيجين الثالث مغادرة مدينة فيتربو في كانون الثاني عام ١١٤٧ والتوجه إلى فرنسا لزيارة الملك لويس السابع ومباركة الحملة[٣].

توجه الملك لويس السابع لاستقبال البابا إيجين، حيث تم اللقاء بينهما في مدينة ديجون Dijon في مطلع شهر نيسان من عام ١١٤٧، لينطلقا معاً في موكبٍ ملكي وبابوي مهيب صوب باريس، وفي أثناء تلك الرحلة، وتحديداً في السادس من نيسان، توقف البابا في مدينة كليرفو لعقد اجتماع مع برنارد، الذي كان قد عجّل بالعودة إلى المدينة خصيصاً لاستقبال الحبر الأعظم، وكان برنارد قادماً من ألمانيا بعد رحلة بدأت في آذار، شهد خلالها مجمع فرانكفورت الذي أقر توجيه حملة ضد الصقالبة الوثنيين، وهي الحملة التي باءت بالفشل وأسهمت في تأخير دخول تلك القبائل في المسيحية، مما دفع برنارد للإسراع في عودته إلى كليرفو ليكون في انتظار البابا[٤]، الذي وصل العاصمة باريس بعد رحلة استغرقت ثلاثة أشهر، وبعد أن قطع مسافة ١٥٠٠كلم ، زار فرنسا من أجل الاحتفال بعيد الفصح في كنيسة القديس دنس حيث ترأس القداس الذي أقيم في الكنيسة، وبعد الانتهاء من الاحتفال قام البابا بفتح البابا الصغير أمام المذبح أزال الإناء الفضي الذي يحوي عظام القديس دينس وقدمة قرباناً ثميناً للملك لويس السابع، كما قام بوضع حربته المذهبة في يد لويس ومباركة الحملة الصليبية بقيادة لويس السابع قبل رحيلها إلى الشرق[٥].

بعدها توجد الملك لويس إلى مكان إقامة الرهبان، وهناك تناول العشاء معهم، ثم ودع سوجر وأوصاه بالمملكة وسار مع زوجته إليانور وعدد من النبلاء في مملكة فرنسا إلى مدينة مينز مكان تجمع القوات الفرنسية قبل التوجه إلى الشرق[٦]، وفي أثناء تواجد البابا في فرنسا وصلته سفارة بيزنطية تحمل رسالة من الامبراطور مانويل كومنيين في نيسان ١١٤٧، وتضمنت الرسالة شروط الامبراطور لعبور الجيش الفرنسي عبر أراضيه، وهي أن يحافظ الفرنسيين علي أمن الامبراطورية وعدم الاضرار بأراضيها خلال مرورهم، وأعاده الأراضي التي كانت تحت السيادة البيزنطية واستولى عليها الترك المسلمين، وأن يقسم الملك وأتباعه على تنفيذ مطالبه بحضور الكهنة، وأن يرسل البابا كاردنيالاً مع الجيش

---

(1)Meade, Eleanor, op.cit.,P. 76.

(٢) مدينة صناعية تقع غرب المانيا على نهر الراين تم بناؤها بالقرب من قلعة رومانية قام اتيلا الهوني باجتياحها في القرن الخامس الميلادي ، وفي عهد الفرنجة أصبحت عاصمة الإقليم أوستريا . يراجع : جابر محمد ، دراسات في التاريخ الروماني ، دار التعليم الجامعي ، الاسكندرية ، ٢٠٢٣ ، ص ٤٥ ؛

Merriam-Webster Staff, Webester "New Geographical Dictionary, 1998,p712.

(3)Gobry, op.cit.,p.126.

(٤) ستيفن رانسيمان، تاريخ الحملات الصليبية ، ترجمة: نور الدين خليل ، ط٢، الاسكندرية ، ١٩٩٨ ، ص٢٩٥-٢٩٧ .

(٥) إسحاق عبيد ، المصدر السابق ، ص ١٩٤ .

(٦) سيد علي الحريري، الاخبار السنية في الحروب الصليبية ، ط٢،الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ١٩٨٥، ص ٩٦؛ رأفت عبد الحميد ، قضايا من تاريخ الحروب الصليبية ، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية ، القاهرة ، ١٩٩٨ ، ص ٩٧ .

الفرنسي ليمنع التجاوزات التي يمكن أن تحدث أثناء مرور الجيش عبر أراضيه، وبناءً على ذلك عين البابا كرادلة كمندوبين له لمرافقة الجيش الصليبي، فقد عين الكاردنيال جاي الفلورنسي Jay the Florentine لمرافقة القوات الفرنسية ودايتوين من بورتو And Daytona from Porto لمرافقة القوات الألمانية[١]، وكان هدف البابا حتى لا تقع مشاكل وانقسامات، كما حدث في الحملة الصليبية الأولى[٢].

قرر كل من الملك لويس السابع وزوجته إليانور اختيار الوفد المرافق لهما في الحملة الصليبية إلى الشرق، فكان وفد لويس يتكون من أودو اوف ديل سكرتيره السابق مؤرخًا لحملته، وتيري جاليران الذي كان قد تم اختياره ليكون حارساً شخصياً للملك ومسؤولاً عن الخزينة والنفقات هذا بالإضافة لمجموعه كبيرة من النبلاء والإقطاعين[٣].

أما إليانور فقد حرصت على تأكيد استقلاليتها وتميز حضورها في الحملة الصليبية، إذ لم تكتفِ بالمشاركة التقليدية، بل عمدت إلى تشكيل وفدها الخاص الذي اختارته [٤] ، بعناية بعد جولة تفقدية في إقطاعياتها، وقد وقع اختيارها على نخبة من فرسان أكيتاين، ضامةً إليهم مجموعة من الشعراء والمغنين ليكونوا في صحبتها، ضاربةً بذلك عرض الحائط بقرارات القديس برنارد في اجتماع فيزلاي التي حرّمت مظاهر اللهو ومشاركة المغنين في الحملة، وقد أثار ذلك الإصرار، إلى جانب طبيعة إليانور التي عُرفت بحبها للترف والمرح وقلة اهتمامها بالجوانب الدينية، تساؤلات المؤرخين حول الدوافع الحقيقية التي جعلتها تتجشم عناء السفر ومشاقه [٥].

وفي معرض تفسير تلك الدوافع، تباينت آراء الباحثين وتكاملت، إذ يُرجع المؤرخ أوين Owen مشاركتها إلى عاملين رئيسيين: الأول عاطفي يتعلق بتعلق الملك لويس الشديد لزوجته وغيرته عليها التي منعته من تركها خلفه في فرنسا، والثاني شخصي يرتبط بطبيعة إليانور التي ورثت عن جدها وليم التاسع حب المغامرة وشعورها بالمسؤولية تجاه رفع مجد عائلتها، وتضيف المؤرخة ميد Meade بعداً آخر يتمثل في رغبة إليانور بزيارة عمها ريموند أمير أنطاكية والاحتفال بعيد الفصح في الأراضي المقدسة، ومن زاوية أخرى، يسلط المؤرخ سيوارد Seward الضوء على التزامات إليانور العلنية، مشيراً إلى أنها نذرت الحج

---

(1) Grumel (V.) "Au seuil de la 11 croisade deux lettres de Manuel comnene au pape", Revue des Etudes Byzantines, Tom. 3, (Paris, 1945).pp124- 125; Rowe (I.G.) The papacy and the Greeks (1122-1153)", Church history 28, (Rome, 1959).p.160.

(٢) تولى العديد من القادة والأمراء قيادة الحملة الصليبية الأولى ١٠٩٦ - ١٠٩٩ أبرزهم جودفري دي بوايون وبهموند النورماني وريموند دي تولوز وروبرت أمير نورمانديا وشارك فيها ليس فقط من البلدان القريبة مثل فرنسا وإيطاليا وأسبانيا بل أيضًا من البلدان البعيدة مثل إسكتلندا والدنمارك وغيرهما فقد اتخذت الحملة الأولى شكل هجرة ضخمة ضمت جموعاً مختلفة من المسيحيين الغربيين الذين انتسبوا إلى جنسيات ودول متعددة. يراجع : سعيد عبد الفتاح عاشور، المصدر السابق ، ص١١٢ - ١٣٠.

(3)Meade, op.cit., p.78.

(4)Seward, Eleanor of Aquitaine, Queen Mother, Newton Abbott, Eng.: David and Charles, 1978, p. 42; Mead, op. cit., p. 78.

(5)Weir,op.cit,p.55.

Seward, op.cit., p.42; Mead, op. cit., p.78.

للصلاة في قبر المسيح بالقدس، وأقسمت أمام البابا والقديس برنارد على جلب أتباعها للمشاركة، مما جعل من المستحيل على برنارد منعها، ويؤكد سيوارد أيضاً على دافع غيرة الملك لويس وحبه كسبب لاصطحابها، موضحاً في الوقت ذاته أن مشاركتها لم تكن بدعة تاريخية، فقد سبقتها العديد من الأميرات في الحملة الأولى، وعلاوة على تلك الأسباب، لا يمكن إغفال دافع الفضول وحب استكشاف أجواء الشرق لدى امرأة مدللة اعتادت الرفاهية، وربما تصورت أن الحملة ستكون بمثابة نزهة ترفيهية[١].

تأهب كل من لويس السابع وزوجته للخروج في الحملة، فلويس كان همه مسألة التكفير عن ذنوبه وأراد أن يحقق طموحه في الذهاب للحج إلى الأراضي المقدسة، هذا فضلاً عن تأكيد سلطته بوصفه أول ملك من ملوك أوروبا الغربية يشارك في حملة صليبية[٢]، ولعل ما أورده المؤرخون عن طبيعة الاستعدادات الشخصية للملكة إليانور عن ملامح شخصيتها التي لم تغفل جانبها الأنثوي رغم مهامها السياسية، إذ حرصت على تجهيز خزائن ملابس ضخمة ومتنوعة تهدف من خلالها إلى الظهور بمظهر لائق وجذاب أمام البلاط البيزنطي، ولتثبت لنساء القسطنطينية وأنطاكية أن ملكة فرنسا لا تقل عنهن تمدناً وحضارة، وانعكاساً لذلك التوجه، أمرت إليانور بإعداد تجهيزات شاملة اتسمت بالمبالغة، حيث اصطحبت معها كميات وفيرة من الملابس والمجوهرات والذهب والعطور ومستحضرات التجميل، إلى جانب الفراء للوقاية من البرد والأحجبة للحماية من شمس الطريق الحارقة، ولم تقتصر رفاهية الرحلة على الزينة، بل شملت الجوانب اللوجستية، إذ حملت معها الخيام والأسرة الكبيرة ذات المراتب الوثيرة لضمان راحتها وراحة مرافقاتها، وأصرت على جلب السجاد لتغطية الأرضيات الطينية الرطبة وقايةً من الأمراض، ناهيك عن الصناديق المحملة بأواني الطهي وأدوات الغسيل والمناشف، برفقة طاقم من عاملات النظافة، الأمر الذي أدى إلى تكدس العربات وثقل حركتها بسبب تلك المستلزمات الشخصية للملكة وللنبيلات اللواتي حذون حذوها في ذلك الإعداد المترف[٣].

حرص الملك لويس قبل خروجه على زيارة الأديرة والمنازل وتوزيع الصدقات والطلب من رعاياه الصلاة والدعاء من أجل نجاح الحملة، وعهد بمسؤولية فرنسا للأب سوجر وأوصاه بالحفاظ على أمن الدولة وأمنها وأمره بإعادة تنظيم الشؤون الملكية المالية من دون إضافة أعباء جديدة على الفقراء[٤]، أما إليانور فقد أشار المؤرخ برنود Pernoud إلى أنها وأثناء جولتها في أكيتاين عملت على تجديد الامتيازات التي تتمتع بها الكنائس في إقطاعها، وقدمت دعمها المالي بصورة خاصة للأديرة، والذي استمر طوال مدة حياتها[٥]، وربما يكون برنود قد بالغ بوصفه ذلك الدعم من إليانور للكنائس، فما اشتهرت بهِ من بغض رجال

(1) Mead, op. cit., p. 78.
(2)Owen, op.cit., p. 20.
(3)Meade, op.cit., p.77 – 78.
(4) Seward, op.cit., P.43; Kelly, op.cit., p.36.
(5) Pernoud, op.cit., p.51.

الدين ودور العبادة، يجعلنا نشك في صحة ذلك القول، أو ربما يكون وراء سخاء إليانور حبها لإقطاعها لا لرجال الدين وكنائسهم [١] .

٣. دور الملك لويس السابع في الحملة الصليبية الثانية ونتائج ذلك ١١٤٧ – ١١٤٩ .

وسط أجواءٍ احتفاليةٍ مهيبة، أُضيئت الشموع إيذانًا بانطلاق الحملة الصليبية الثانية، إذ امتزجت أصوات أجراس كنيسة سانت دينس بهتافات الحشود المحتشدة وابتهالاتهم، وقد خرجت جموع الناس بمختلف فئاتهم من نساء وأطفال وشيوخ وحتى الفقراء والمتسولين لوداع مليكهم وقائد الحملة لويس السابع، رافعين أكف الضراعة له بالتوفيق والنصر، في حين اكتست جدران المدينة وطرقاتها بالأقمشة الحمراء الموشاة بالصلبان تعبيرًا عن القداسة والدعم الشعبي لذلك الحدث التاريخي[٢].

غادر لويس السابع، وهو لا يزال في ريعان شبابه دون السادسة والعشرين، برفقة إليانور منطقة سانت دينس بتاريخ ٨ حزيران ١١٤٧، متوجهين صوب مدينة ميتز (Metz)، التي اتُخذت مقراً لتجمع الجيش الفرنسي وبوابةً للتحرك العسكري باتجاه الشرق [٣]، وقد اختلف المؤرخون في عدد القوات الفرنسية فقيل إن عددهم بلغ سبعون ألفاً، وقيل مائه ألف، وقيل مليوناً من الرجال والفرسان، وربما الرأي الصائب هو سبعون ألفاً هو ما أورده وليم الصوري، لأنه اعتمد في روايته على من شاركوا في لحملة[٤]، ومن المؤكد أن أي شخص سمع عن مثل ذلك العدد الكبير من الفرسان بدروعهم وخوذاتهم المتلألئة في الشمس ورياتهم التي تلوح في النسيم، كان يتأكد من أنهم على وشك الانتصار على جميع أعداء الصليب ويغزون أراضي الشرق، لكن في الواقع كان جيشاً من العربات والجنود محملة بالأمتعة والمؤون وحشد من الخادمات التي كانت عبارة عن اغراء لا يقاوم وسبباً لانتشار الفساد الاخلاقي بين صفوف الجيش الفرنسي وحسب ما ذكره الكثير من المؤرخين[٥].

اتفق كل من الإمبراطور كونراد الثالث والملك لويس السابع أن يسير كلاً منهما على حده وذلك حفاظاً على المؤن، وحتى لا يقع بين جيوشهما منازعات أثناء الرحلة ،فغادر الجيش الألماني من رغنسبورغ Regensburg عبر بافاريا ثم نهر الدانوب ماراً بالنمسا عبر هنغاريا وبلغاريا وتراقيا وصولاً إلى القسطنطينية في آيار عام ١١٤٧، وبلغ عدد قوات كونراد عشرين ألفا من الفرسان والمشاة ، وبما أن كونراد قد بلغ الخمسين من عمره فقد عهد بأمر القوات إلى ابن أخية فردريك دوق سوابيا Frederick, Duke of Swabia (١٠٥٠-

---

(1) Seward, op.cit.,p.16 – 17 .

(2) Meade, op.cit p.79.

(٣) أودو أوف دويل، المصدر السابق، ص ١٨ -١٩.

(٤) وليم الصوري ، المصدر السابق ، ص ٢٧١ .

(٥) يراجع : حول الانحرافات الجنسية في الحملات الصليبية. امام الشافعي محمد حمودي ، أشرف صالح محمد سيد، الانحراف الجنسي في عصر الحروب الصليبية ١٠٩٥ – ١٢٩١، دار البشير للثقافة والعلوم ، الاردن، ٢٠١٨، ص ١١٨ .

James m.Ludlow, The Age of The Crusades New york ,1896,pp.173-177; Desmnd Seward,op,cit.,p.31.

١١٠٥)[١]، وبعد شهر تقريباً من خروج الجيش الألماني وصل لويس إلى ميتز، كانت القوات الفرنسية أكثر عدداً من للقوات الألمانية، إلا أنها كانت أكثر نظامًا وانضباطاً من الجيش الألماني وفور وصول الملك لويس فرض القوانين والقواعد على أفراد الجيش بل أنه فرض على أتباعه قسم الولاء والتبعية والالتزام بالوفاء بعهدهم، وذلك حتى يضمن رحلة هادئة خالية من المشاكل[٢]،وعند وصول القوات الألمانية إلى حدود الدولة البيزنطية، تكررت المشاهد نفسها التي حدثت عند زحف الحملة الصليبية الأولى عام ١٠٩٧ وذلك من ناحية عدوان أفراد جيشة على أهالي البلاد التي مروا بها، كما أثاروا المشكلات مع البيزنطيين عندما وصلوا إلى القسطنطينية في أيلول ١١٤٧، حيث أعاد الألمان صور الاعتداء والنهب والسلب على أهالي البلدان التي مروا بها بمنتهى الهمجية، والتي كانت تابعة للإمبراطور البيزنطي مانويل، ولم تقتصر إساءتهم على المواطنين بل تعدتها إلى دور العبادة والرهبان، فقد أحرقوا ديرًا بمن فيها من الرهبان فهرع الأهالي إلى الإمبراطور كونراد مستنجدين بهِ، إلا أنه اعتذر متحججًا بصعوبة ضبط الجيش الألماني، وقد اعترف بذلك في خطاب أرسله إلى الإمبراطور البيزنطي مانويل[٣] :**"لا تنسب إلينا الضرر الذي حدث مؤخرًا في أراضيك من جانب العامة في جيشنا، ولا تغضب لذلك السبب لأننا أنفسنا لم نقترف تلك التصرفات، ولكن كان مبعثها الغوغاء الذين اندفعوا وراء شهواتهم، لقد كانوا ماهرين في اقتراف تلك التصرفات بناء على رغبتهم الشخصية"**[٤].

ومن تلك الرسالة يستشف أن كونراد قد أقّر في ذلك الخطاب على ضعفه وقلة حيلته، أمام الجيش الألماني الذي كان يبدو أنه لا يقوده سوى رغباته، وقد أخلى كونراد نفسه من المسؤولية التي قد تكون سببًا في وقوع مشاكل عواقبها وخيمة في مواجهة الإمبراطور مانويل، غير أن عودة الوفاق بين كونراد الثالث ومانويل سمح للأول بالعبور إلى آسيا الصغرى، سلك الألمان طريقهم إلى القسطنطينية، وعندما وصلوا إلى حدود الدولة البيزنطية، كان في استقبالهم سفراء الإمبراطور مانويل كومنين الذين صحبوهم إلى القسطنطينية، فعاد الوفاق بين كونراد ومانويل وبدت الأمور ظاهريًا أنها عادت لوضعها الطبيعي لكن الإمبراطور البيزنطي فرض على الإمبراطور الألماني أداء قسم الولاء والتبعية، ومن جانب آخر، فقد أرسل إلى السلطان السلجوقي مسعود(١١٠٨- ١١٥٢)في مدينة قونية بشأن الحملة الصليبية القادمة لكنه أخفى أمر ذلك[٥]، وكانت الإقامة في القسطنطينية التي قضاها كونراد وجيشه مريحة والأمور كانت تبدوا أنها على ما يرام[٦] .

غادر الجيش الألماني القسطنطينية، مرورًا بنيقية التي غادرها في ١٥ تشرين الأول

---

[١] مفيدة زدادرة ، الحملة الصليبية الثانية ١١٤٨، رسالة ماجستير، جامعة ماي ١٩٤٥، كلية التربية للعلوم الانسانية ، قسم التاريخ والآثار، الجزائر، ٢٠١٣، ص ٣٩ .

[2] Gobry, op.cit.,p.127.

[٣] حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام ، الزهراء للإعلام العربي ، القاهرة ، ١٩٨٧ ، ص ٢٠٠ .

[٤] أسمت غنيم ، المصدر السابق، ص ٢٤ .

[٥] ستيفن رانسيمان ، المصدر السابق،ص ٣١٠ .

[٦] يوحنا كينا موس ، المصدر السابق، ص ٨١.

١١٤٧ بعد أن قضى ثلاثة أيام فيها، لتبدأ رحلة عذاب الجيش الألماني في آسيا الصغرى التي سوف تنتهي بهلاك معظمه على أيدي الأتراك السلاجقة، سار الألمان شرقًا نحو آسيا الصغرى وتحديدًا نحو قونية متخذاً طريقاً داخل منطقة صحراوية قاحلة[١] ، الأن أول الصعوبات التي واجهته في تلك المنطقة النقص الشديد في الغذاء، لأن ما أخذه كونراد الثالث معه من مؤن نيقية قد أمدت الجيش باحتياجاته لمده ثمانية أيام فقط، علماً بأنه كان الجيش الالماني أن قطع مسافه ٢٠٠ ميل – ٣٢١ كيلو متر- في فتره زمنية قدرها ٢٠ يوماً حتى يصل قونية، وكان برفقتهم الأدلاء الذين كان قد طلبهم كونراد من الإمبراطور مانويل، والذين كانوا على درجة عالية من الخبرة والمعرفة بالطرق[٢]،إلا أن هروب المرشدين كان سبباً في اتهامهم بخيانة الجيش الألماني في آسيا الصغرى، وأنهم تعمدوا قيادته إلى تلك المناطق الصحراوية الوعرة ليتركوه هناك، بل إن هناك من ذهب إلى أبعد من ذلك فذكر، أن هؤلاء المرشدين بعد هروبهم اتجهوا إلى السلاجقة وأخبروهم بحالة الجيش الألماني ومعاناته وشجعوهم على الهجوم عليه[٣].

لم يبق أمام الحملة الألمانية إلا أن تتابع مسيرها نحو الشام عبر الأراضي السلجوقية متجاهلة نصائح الإمبراطور مانويل لكونراد بأن يتجنب المرور بتلك الأراضي حتى لا يصطدم بهم، واتباع الطريق الساحلي الغربي ثم الجنوبي المليء بالأراضي والقلاع البيزنطية، ومن ضمن تلك النصائح إعادة كل من عزف عن المشاركة في القتال إلى أوطانهم، حتى لا يكونوا عائقًا في تحرك الجيش[٤].

تابع الألمان مسيرهم إلى الشام دون أدنى شك بما يحاك خلفهم من البيزنطيين، إلا أنه بعد مرور ثمانية أيام على مسيرهم، عانى أفراد الجيش الألماني من الجوع نتيجة لنقص في المؤن والإمدادات، فقد أنهكهم الجوع وطول الطريق، مما اضطرهم لأكل الدواب، وبينما هم في ذلك الوضع السيء، استغل السلاجقة الحالة السيئة التي وصل إليها الألمان، وأرسلوا بعض الفرق العسكرية للهجوم عليهم أثناء سيرهم، فلم تأخذهم بهم شفقة ولا رحمة، وأخذوا يمطرونهم بوابل من سهامهم دون أن يبدي هؤلاء أية مقاومة بسبب ما كانوا عليه من ضعف وهوان [٥]، وعبر وليم الصوري عن أثر ذلك على الجيش الألماني بقوله: **"لكن عسكرنا صاروا في خطر لكثرة ما انهال عليهم من السهام والنشاب التي لم ينقطع وابلها، والتي كانت تتساقط عليهم من كل جانب دون أن تتاح لهم فرصة ينزلون بخصمهم مثل الذي أنزله**

---

[١] يبدو أن سبب ذلك هو اعتقاد كونراد الثالث بأنه سيصل إلى قونية سريعاً بعد أن اختار أقصر الطرق، هذا فضلاً عن ثقته واعتماده على المرشدين الذين قدمهم له مانويل.يراجع : وليم الصوري، الحروب الصليبية، ص ٢٧٢- ٢٧٣.

[٢] وليم الصوري، تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار ، ص ٩٩ .

[٣] شيماء رزاق شاكر، المصدر السابق ، ص ٦٣١.

[٤] محمد سهيل طقوش، المصدر السابق، ص ٣١٨.

[5] Kelly, op.cit., p.40.

بهم أو يلتحمون به من قريب"[١].

وهكذا انتهت معركة معركة دوريليوم ١١٤٧ بتحطيم معظم قوات الجيش الألماني على أرض آسيا الصغرى ولم يكن سوى مذبحةٍ مروعة ، قتل فيها تسعة أعشار الجيش ، وأصيب كونراد الثالث نفسه بجرحين أحدهما في رأسه، وحاول كونراد الثالث عبثاً جمع شتات جيشه، إلا أنه ترك المعركة عند المساء ممعناً في الفرار مع من تبقَّى من رجاله، عائدين إلى نيقية، في حين غنم السلاجقة كمياتٍ لا حصر لها من الغنائم ، فقد غنموا كل ما في معسكرهم من مواد، وخيولٍ، واسروا أعداداً كبيرةً منهم، وظلَّت الغنائم تباع في أسواق المدن الإسلامية عدَّة شهور، وبتلك الهزيمة الساحقة يمكننا التأكيد بأن الجيش الألماني قد فشل في تحقيق الغاية التي جاء من أجلها إلى الشرق، مما كان له أثر سيئ على الحملة الصليبية الثانية[٢].

أما الملك لويس السابع فقد سار بجيشة نحو القسطنطينية، متجهاً نحو الراين، وقام بارسال الفيسيوس Alvesius أسقف آراسArras ، وليو Leo رئيس كنيسة القديس سان برتون San Berton ، أمامه من ميتز إلى مدينة ورمز Worms بهدف تجهيز السفن لعبور نهر الراين، وصل لويس إلى ورمز في ٢١ حزيران ١١٤٧، حيث استُقبل بحفاوة كبيرة ،وبعد عبور النهر، أقام معسكره في أحد المروج على الضفة الأخرى في انتظار أرنولف، أسقف ليزكس Arnulf, Bishop of Lisieux ، ورجاله من النورمان والإنكليز، وحصل الجيش الفرنسي على المؤن اللازمة من سكان ورمز، لكن نشب نزاع بين الطرفين أدى إلى توقف التجارة، مع ذلك عبر أسقف آراس النهر ووعد أهالي ورمز بالأمان، مما شجعهم على استئناف نشاطهم التجاري وتزويد المعسكر الفرنسي بالاحتياجات الضرورية، وبسبب سوء إدارة الملك لويس وعجزه عن توفير المؤن والغذاء بسبب ارتفاع الأسعار، قرر عدد كبير من جيش لويس الانسحاب والعودة إلى بلادهم على الرغم من تحمسهم للخروج في الحملة الصليبية والوصول إلى الأراضي المقدسة[٣] .

أرسل الملك لويس أسقف آراس، والحاجب بارتلميو[٤]، وراعي دير سان بيرتن، أمامه من ورمز إلى راتسبون لمقابلة رسل الإمبراطور مانويل كومنين[٥]، وفي راتسبون التي وصلها ٢٩ حزيران ١١٤٧، استُقبل من قبل أهل المدينة استقبالاً رائعاً يليق بمكانته، واستقبل

---

(١) وليم الصوري، تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار ، ص ٩٩؛ ياسر كامل محمود ، الكمائن الإسلامية ودورها في العمليات العسكرية ضد الصليبيين في الشرق اللاتيني ١٠٩٦ – ١١٩٣ ، مجلة وقائع تاريخية ، كلية الآداب ، جامعة الوادي الجديد ، العدد ٣٦ ، ٢٠٢٢ ، ص ٣٣٠ .

(2) Seward, op.cit., p.44.

(٣) أودو أوف دويل ، المصدر السابق ، ص ٢٠ .

(٤) الحاجب بارتلميو : شغل منصب الحاجب من ١١٤٧ وحتى ١١٤٩ ، ورافق الملك الفرنسي لويس السابع في حملته الصليبية على الشرق، وقد جعله الملك مبعوثاً له إذ أرسله إلى فرنسا سنه ١١٤٩ ليقدم السوجر Suger المعلومات التفصيلية عن الحملة الصليبية، هذا فضلاً عن إلى المهام الدبلوماسية الخاصة التي قام بها لصالح الملك، ومن هذه المهام أنه تقدم سابقا الجيش الفرنسي نحو القسطنطينية لتأمين الطرق، وحل بعض المشاكل بعد تفاوضه مع الإمبراطور مانويل الأول . يراجع :

Odo of Deuil, De Profectione ludovici VII in Orientem, the Journey of Louis VII to the east trans (by) Berry (Virginia, G) (New York, 1947)p.487.

(٥) أودو أوف دويل، المصدر السابق، ص ٢٢

رسولي الإمبراطور مانويل ديميتريوس Demetrius، وموروس Moros، اللذين كانا يحملان رسالة إليه[١]،اشتملت في جزئها الأول على عبارات المديح والإطراء وطلب عقد معاهدة مع بيزنطة[٢]، أما جزئها الثاني فيتضمن شرطين: الأول أن لا يستولي على أية مدينة أو حصن تابع لبيزنطة، وأن يتصرف كصديق، أما الشرط الثاني فهو أن يتعهد الملك لويس أن يعيد للإمبراطور مانويل أية مدينة يستردها من السلاجقة كانت تابعة من قبل للبيزنطيين، وأن يقسم النبلاء الفرنسيون على هذين الشرطين[٣].

رحب لويس وأتباعه بالشرط الأول وعدوّه مقبولاً، لكنه رفض الشرط الثاني وفضل أن يؤجله إلى لقاء الإمبراطور، ويرجع السبب في عدم الموافقة على الشرط الثاني إلى حدوث انقسام بين الفرنسيين حول ذلك، فقد قال البعض: إنه لو أراد أن يسترد ممتلكاته من السلاجقة فإنه سيفعل ذلك أما بالشراء أو التفاوض أو القوة، لذلك أرادوا أن يأخذ منهم أية مدينة يمكن استعادتها من السلاجقة بطريقة من تلك الطرق، وقال البعض الآخر : إنه ينبغي تحديد ممتلكاته قبل أن يتم التعهد بإعادتها، وعندها تعالت الأصوات ومن أهمها قول أحد النبلاء **"القسطنطينية لنا هؤلاء الزنادقة لم يقوموا بالدفاع عن المسيحية، ولا على الضريح المقدس سيأتي يوم ويقوم الأتراك السلاجقة بالاستيلاء على القسطنطينية"** وقد حث ذلك الملك لويس على غزو القسطنطينية ولكن جاء رد لويس متزناً : **"نحن لسنا هنا لمعاقبة الإغريق ولكن من أجل التكفير عن خطايانا"**[٤].

عندما تأخر الفرنسيون في الرد، احتج البيزنطيون على التأخير، وزعموا أنهم يخشون أن يقوم مانويل بإحراق المؤن وتدمير التحصينات ليحمي رعيته وممتلكاته من الصليبيين ونهبهم، وبعد موافقة لويس على الشرط الأول وتأجيل موافقته على الشرط الثاني، أقسم بعض قادة لويس بالمحافظة على أمن الدولة البيزنطية نيابة عن ملكهم لويس السابع، وفي المقابل تعهد البيزنطيون، نيابة عن الإمبراطور مانويل على تجهيز أسواق كافية من أجل تزويد الجيش الفرنسي بما يحتاج إليه من مؤن، بعد ذلك عاد ديمتريوس حاملاً تلك الأخبار إلى القسطنطينية، بينما انتظر موروس لمرافقة الوفد الفرنسي الذي سيتوجه إلى القسطنطينية من أجل التفاوض مع مانويل كومنين، وضم الوفد الفرنسي ألفيسوس Alphysus أسقف آراس ، وبارتلميو الحاجب Bartholomew the Chamberlain، وأرشيبا لدكونت بوربون And Archiba, Count of Bourbon ، ومانساس صاحب بولوس And Manassas, the owner of Paulus ، وأفرارد صاحب باراس Averard Baras ، وتحركت تلك السفارة إلى القسطنطينية بسرعة وتبعهم الملك لويس السابع[٥] .

---

[١]كان من المتعارف في عرف الغرب أنه لا بد من خروج الملك من مدينته لاستقبال والترحيب بالملك المسيحي ونبلائه إلا أن الإمبراطور مانويل لم يخرج للترحيب بالملك لويس السابع، وفي ذلك دلالة على الكبر والغطرسة . يراجع : روجر أوف ويندوف، المصدر السابق ، ص٣٦ – ٣٧ .

[2] Kelly, op.cit., pp. 41-42.

[٣] أودو أوف دويل، المصدر السابق، ص ٢٢

[4] Gobry, op.cit.,p.130.

[5] Kelly, op.cit.,pp.40-41.

اجتاز الجيش الفرنسي الأراضي الهنغارية التي وصلوها بعد خمسة عشر يوماً ، كان باستقبال الملك لويس رسل ملك هنغاريا جيز الثاني Geza II of Hungary (١١٣٠-١١٦٢) محملين بالهدايا ودعوه إلى زيارة الملك الهنغاري فاستجاب لدعوتهم وتم الاتفاق بينهما على السماح للقوات الفرنسية وللحجاج بالمرور بأمان وبعدها عاد الملك لويس إلى معسكره محملاً بالهدايا[١]، ولكن العلاقات بين الملكين توترت بعض الشيء بعد علم ملك هنغاريا بوجود عدوه بورس (الذي كان يهدد بسلب ملكه) بين أفراد الجيش الفرنسي، والذي تسلل خلسه دون علم من لويس السابع إلا أنه لما علم بوجوده أصبح أسيراً عنده، فطالب ملك هنغاريا ببورس تبعاً لما تقتضيه معاهدة الصداقة بينهما، إلا أن لويس رفض تسليمه وتعريض حياة إنسان للموت، على الرغم من ذلك مر الفرنسيون بسلام في الأراضي الهنغارية[٢].

بعد اجتياز القوات الفرنسية الأراضي الهنغارية وصلوا إلى الأراضي البلغارية[٣] حيث مروا بمدينة بلغراد Belgrade(عاصمة صربيا)، ثم براندیزي Branichevo (شرق صربيا)، إذ تم تزويدهم في المدينة الثانية بإمدادات وصلت إليهم من بلاد المجر عن طريق نهر الدانوب ، وهذا ما أشار إليه أودو أوف دويل بقوله : **"حدث أنه منذ دخولنا إلى بلغاريا، وهي أرض تعود للإغريق (البيزنطيين). وبينما كنا على وشك دخول الجزء غير المسكون منها، زودنا أنفسنا في بلدة براندیزي الفقيرة بإمدادات كانت هنغاريا (المجر) قد قدمت معظمها عن طريق الدانوب "**[٤]، كما أن الجنود الفرنسيين كانوا قد حصلوا على كميات كبيرة من مواد البناء والحطب للوقود من خلال الاسطول الذى تركه الألمان بالأرض البلغارية أثناء سيرهم ، فاستولى عليه الفرنسيون، وعلى عدد من القوارب الصغيرة التي استخدمها جنود الحملة ليعبروا بها نهر الدانوب لإحضار بعض الإمدادات من إحدى القلاع المجربة على الحدود بين المجر وبلغاريا[٥]، وعلى أثر ذلك تقدمت طلائع الجيش الفرنسي نحو مدينة نيش البلغارية، وهناك تعرفوا على النقود البيزنطية النحاسية المعروفة باسم ستاميناي Stamenai ، وكانوا يدفعون خمسة دنانير لقاء القطعة الواحدة منها، اي أنهم كانوا يخسرون في عملية التبادل، وذلك مخالف لما تنص عليه المعاهدة بين البيزنطيين والفرنسيين، هذا فضلاً عن إلى سكان المدن البيزنطية كانوا يغلقون أبواب مدنهم وحصونهم أمام الجيش الفرنسي واكتفت بمدهم بالمؤن من فوق أسوارها، التي كانت لا تكف لسد جوع الجيش الفرنسي الهائل مما دعاهم للسلب والنهب، والسبب الذي جعل البيزنطيون يعاملون

---

(1) Perry, op.cit.,p. 488; Weir,op.cit.,p.56.

(٢) أودو أوف دويل، المصدر السابق، ص ٣٠ – ٣١ .

(3) Hugh Clifton Griffith,The second and Third Crusades:Their Justification and goals as seen by The clergy,athesis submitted to the faculty of the Graduate college in partial fulfillment of the requirements for the degree of master of Arts,university Kalamazoo michigan,1980,p.13-15.

(4) Hugh Clifton Griffith,op,cit.,p.15.

(٥) محمود سعيد عمران ، المصدر السابق ، ص١٤٩ .

الفرنسيون على ذلك النحو هو سوء تصرف الالمان الذين نهبوا كل شيء وجدوه أمامهم [١].

وكيفما كان الأمر، فقد استمر الجند الفرنسيين في طريقهم من نيش حتى بلغوا صوفيا وهناك استقبلهم دوقها ميخائيل براناس Mikhail Branas بكل الود والترحاب وساعدهم في الحصول على المبادلات التجارية، وفتح لهم الأسواق، وقدم الكثير من المؤن للجيش الفرنسي، وقائده لويس السابع الذي قام بدوره بتقسيم تلك المؤن والأطعمة على الفقراء والأغنياء في جيشه ليتمسكوا بالسلام فيما بينهم وبين البلغار والبيزنطيين، ويبعدهم عن أعمال السلب أو النهب، اذ أنفق لويس عليهم الكثير من الأموال، الأمر الذى هدد بإفلاس الخزانة الملكية لذلك كتب إلى نائبه بالمملكة الفرنسية سوجر ليمده بمزيد من الأموال المصاريف الرحلة[٢]. ويبدو أن الملك الفرنسي لويس السابع كان حريصاً كل الحرص على ألا يتعرض الصليبيون للشعب البلغاري والبيزنطي على السواء، إذ تصور أنه بتوزيعه للأموال والمؤن عليهم أنه بذلك يستطيع أن يكف أيديهم على أية عمليات ابتزاز أو إهدار الممتلكات البلغار.

سعى الإمبراطور البيزنطي مانويل إلى توجيه الملك لويس السابع لسلوك طريق سيستوس Cestus وعبور الدردنيل نحو آسيا الصغرى، مكرراً النصيحة التي أسداها سابقاً لكونراد الثالث بتجنب طريق دريانوبل Dryanople، إلا أن الملك لويس تمسك بمسار الحملة الصليبية الأولى متجهاً صوب القسطنطينية، مبرراً رفضه بجهله للطريق الجديد[٣]، وفي خضم مسيره، التقى لويس ببعثته التي سبقته، والتي حملت إليه أنباءً زادت الموقف تعقيداً، فقد علم بعبور كونراد البسفور، والأخطر من ذلك تناهي الأنباء عن عقد الإمبراطور مانويل هدنة لمدة اثني عشر عاماً مع السلاجقة الأتراك[٤].

أثار ذلك التصرف حفيظة الفرنسيين الذين اتهموا الإمبراطور بالخيانة، وضغطوا على لويس لشن هجمات على الحصون البيزنطية والتحالف مع روجر الثاني ملك صقلية ضد مانويل، لكن لويس آثر التروي ملتزماً بوصايا القس برنارد بالتركيز على هدف الحملة الأساسي: **"كن حذراً مثل العصفور الذي يتجنب أفخاخ الصياد"**[٥]، وعلى الجانب الآخر، كانت شكوك الإمبراطور مانويل تتصاعد تجاه نوايا لويس السابع، حيث اعتبره حليفاً سرياً لخصمه روجر الثاني، لا سيما بعد قيام الأخير بمهاجمة السواحل البيزنطية تزاماً مع تحرك جزء من الجيش الفرنسي عبر أبوليا Apulia ورفض لويس التعهد بإعادة المدن المستردة من السلاجقة للسيادة البيزنطية، وعلى الرغم من تلك المؤشرات التي أوحت بوجود اتفاق خفي، فإن الشواهد التاريخية تنفي وجود أي تحالف فعلي بين الملكين، إذ سار لويس السابع منذ البداية في نهج مغاير لروجر الثاني، رافضاً عروضه بنقل الجيش عبر سفن صقلية أو

---

[١] أودو أوف دويل، المصدر السابق، ص ٣٠ – ٣١ .

[2] Perry,Op. Cit.,P.489.

[٣] ول وايريل دنيورانت ، قصة الحضارة، عصر الايمان ، ج٤ ، ترجمة : محمد بدران، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٨٨ ، ص ٣١.

[٤] سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية ، ج١، ص٤٨٥ – ٤٨٦ .

[٥] محمود سعيد عمران ، المصدر السابق ، ص ٨٣.

مهاجمة القسطنطينية، لوعيه التام بأن فتح جبهة صراع مع البيزنطيين سيحكم على حملته الصليبية بالفشل المحتم، حتى وإن توفرت له المساندة البحرية النورمانية[١].

وصل لويس وزوجته إليانور والجيش الفرنسي إلى أسوار القسطنطينية في ٤ تشرين الأول ١١٤٧، وكان في طليعة مستقبليهم كبار رجال الدين ونبلاء المدينة وأثريائها وعامة الناس، وطلبوا منه قبول الدعوة لمقابلة مانويل في قصر بلاشيرناي Blachernae، واستجاب الملك لويس لطلب مانويل ودخل مع عدد من رجاله إلى القصر الإمبراطوري، واستقبل مانويل الملك لويس السابع في بهو القصر بحفاوة واحترام كبيرين، وتبادل العناق والقبل وجلس الاثنان في الداخل وتبادلا الأحاديث الودية بواسطة مترجم بينهما ودار الحوار بعد سؤال الإمبراطور مانويل عن أحوال لويس السابع، وحول استعداد بيزنطة لتقديم كل الإمكانات والمساعدات لتسهيل مهمة الحملة، ثم انتهى الاجتماع وديًا وذهب الملك لويس السابع بمعية أشراف البلاط البيزنطي إلى مقر إقامته في قصر الضيافة بولكلوم Boulkoleom المطـل على القرن الذهبي[٢].

وفور وصول لويس إلى مقر إقامته بعث برسالة إلى سوجر أخبره فيها عن المصاعب التي واجهوها: **"في أعقاب رحلة شاقة من حجنا مرت علينا مصاعب ومخاطر غير محتملة!! ولكن بمساعدة إلهية استطعنا الوصول بأمان إلى القسطنطينية البهيجة"** وقد طلب من الأب سوجر استخدام كل الوسائل الممكنة لإرسال الكثير من المال له في أسرع وقت ممكن[٣].

شهدت زيارة الملك لويس إلى القسطنطينية برنامجاً حافلاً، حيث اصطحبه الإمبراطور مانويل في جولات استكشافية شملت كنائس المدينة ومعالمها البارزة، وقد تملك الصليبيين الذهولُ أمام عظمة وفخامة القصر الإمبراطوري البيزنطي، ولم تقتصر الجولة على المعالم العمرانية، بل تخللتها أنشطة ترفيهية مشتركة كرحلات الصيد وترويض الفهود، وصولاً إلى زيارة الأسواق البيزنطية الزاخرة، تلك الأسواق التي عكست الهيمنة الاقتصادية المنقطعة النظير للقسطنطينية باعتبارها "عاصمة المجد" الحاضنة لثلثي ثروات العالم في ذلك الحين، فقد كانت المدينة مركزاً تجارياً عالمياً تتدفق إليه أنفس البضائع، من الحرير الصيني والهندي إلى العطور والزيوت العربية، مروراً بالسجاد الفارسي والفراء الروسي، وهي منتجات شرقية راجت في تلك الأسواق، وادت الدولة النورية (١١٢٧- ١٢٥٠) حينها دوراً محورياً وشريكاً مهماً في حركة استيراد تلك البضائع وتصديرها إلى الإمبراطورية[٤].

---

[١] سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية ، ج١، ص٤٨٥ – ٤٨٦ .

Ralph Johannes Lilly, Byzantium and the Crusades 1096-1204, translated by J. C. Morris and J. E. Readings, Clarendon Press, London 1993, p.154.

[٢] وصف أودو أوف ديل قصر بولكلو Boulkoleom :بقوله: **"إن منظره الخارجي من الجمال بقدر حيث لا يضاهيه مكان آخر، أما داخله فبوسعي أن أقول عنه كل شيء: لقد كان مزينًا بالذهب بكل دقة، إضافة إلى عدد كبير من مختلف الألوان وكانت الأرض من المرمر، وقد رصفت بمهارة فائقة ولست أدري فيما إذا كان الفن أم المواد التي احتوتها قد زادت من جمالها أو من قيمتها"** . يراجع : أودو أوف دويل، المصدر السابق، ص٤٢ .

[3] Pernoud, op.cit.,pp.57-58.

[٤] علي محمد الصلابي ، الدولة الزنكية، ص ٤٩١.

لم يقتصر حسن الضيافة البيزنطية بالملك لويس فقط، بل حتى زوجته إليانور حظيت بحفاوة واهتمام كبيرين من الإمبراطورة البيزنطية إيرين Irene [١]،التي بدورها أحسنت استقبالها وضيافتها، لذا كانت إقامة إليانور في بيزنطة مريحه جدًا، فقد سخرت لها الإمبراطورة خدماً لخدمتها وتنفيذ رغباتها، يضاف إلى ذلك فأنها قامت باصطحابها إلى العديد من الأماكن والكنائس البيزنطية[٢].

انبهرت الملكة إليانور بما شاهدته من مناظر جميلة وساحرة في القسطنطينية، كما دهشت من كنائسها وقصورها وما احتوت من روائع فنية، وميادين سباق الخيل، كما أثارها روعة أقمشة وملابس البيزنطيات وتعدى ذلك بمدى تنظيم طقوس الحكم في بيزنطة، وأخذت إليانور تقارن بين تنظيم بيزنطة وانضباط موظفيها وخدمها، والطقوس الملكية التي كانت أقرب للكمال، وبين فوضى باريس، وتسيب الخدم والموظفين، وبساطة الطقوس في داخل القصر الملكي، ودهشتها من ما احتوته قائمة الطعام للولائم الاحتفالية التي أقامها الإمبراطور مانويل للترحيب بالملك لويس السابع، فقد احتوت العديد من أصناف الطعام الغريب، منها الخرشوف[٣] والكافيار الذي كان غريبًا عن الفرنسيين والماعز المحشو والعديد من الصلصات التي صنعت من نوادر السكر والفلفل والقرفة هذا فضلاً عن مدى روعة تنسيق المائدة غير المألوف، التي احتوت على كؤوس النبيذ والشوك وبقية أدوات المائدة التي نظمت بعناية[٤] .

قارنت الملكة إليانور بين مانويل الذي شدّها قوة شخصيته وأناقة ثيابه التي كانت تدل على رفاهية الملوك، وبين لويس الذي كان شاحباً وبردائه الصليبي الخشن الذي كان أشبه بالرعاة الزاهدين، مما جعل إليانور تستحقر لويس، فبيزنطة كانت البداية لاستيائها من لويس كزوج[٥]، وفي الوقت الذي أقام فيه لويس وزوجته في قصر بولكلو نصب رجال الجيش خيامهم حارج أسوار المدنية وأقاموا هناك لبضعة أيام للراحة قبل عبورهم البسفور والتوجه إلى آسيا الصغرى[٦]، وأثناء ذلك قام بعض الجنود الفرنسيين بإشعال النيران في العديد من بيوت وأشجار الزيتون، فعاقبهم الملك لويس ببتر آذانهم وأيديهم وأقدامهم وهذا اضطر البيزنطيين إلى إغلاق أبواب المدينة في وجوههم، وعلى الرغم من ذلك ظل البيزنطيون

---

[١] الامبراطورة إيرين(١١١٠- ١١٦٠): أميرة ألمانية كانت تدعى بيرثا السلزباخية وقد عرفت في القسطنطينية باسم إيرين وهي شقيقة زوجة الإمبراطور كونراد إمبراطور ألمانيا، وقد تزوجت من الإمبراطور مانويل عام ١١٤٢. يراجع : أسمت غنيم ، المصدر السابق ، ص ١٩.

[2]Weir,op.cit.,pp57-58; Meade, op.cit.,p.92 .

[٣] الخرشوف: نبات يُؤكل منه قلب الزهرة وهو غني بالألياف والفيتامينات ومضادات التغذية، يعد جزء من مطبخ البحر المتوسط. يراجع : مجموعة من المؤلفين ، الموسوعة العربية العالمية ، ج١٠ ، ط٢ ، مؤسسة اعمال للنشر والتوزيع ، الرياض ، ١٩٩٩ ، ص ٣٦؛ يعقوب صروف ، مجلة المقتطف ، باب الزراعة ، ج١ ، مج ٣٣ ، ١٩٠٨ ، ص٥٢٧ – ٥٢٨ .

[4]Seward, op.cit.,P.44.

[٥] أودو أوف دويل، المصدر السابق، ص ٤٧.

[6]William of Newburgh, The history of English Affairs, Edited with translation and commentary by P.G. Walsh and M.J. Kennedy. Book 1 (warminster, 1988), P. 93.

يقدمون المؤن للقوات الفرنسية كما كان هناك سوقاً داخل المعسكر الفرنسي لتبديل العملة[١].

قضى الملك لويس بضعة أيام في بيزنطة، وبعد أن احتفل بعيد القديس دينس مع الأساقفة البيزنطيين، وصلته أنباء أن الجيش الألماني استولى على مدينة قونية وحقق نصرًا عظيمًا على السلاجقة في آسيا الصغرى وقتلوا منهم حوالي أربعة عشرة ألفاً من دون أن يتكبدوا أي خسارة ، ما دفع الجنود الفرنسيين إلى الإلحاح على ملكهم أن يعبر بهم إلى آسيا الصغرى واللحاق بالجيش الالماني للمشاركة في الغنيمة، ويرجح البعض أن الامبراطور البيزنطي كان مصدر تلك الشائعة خوفاً من انتصار الرأي المطالب بالتحالف مع روجر الثاني الصقلي ومهاجمة القسطنطينية، وسواء كانت تلك الإشاعات صحيحة أم غير صحيحة فإنها تظهر مدى خطورة الفرنسيين على أمن القسطنطينية[٢]، وعندها قرر مغادرة القسطنطينية، والإسراع في اللحاق بذلك النصر المزعوم، وعلى ما يبدو أن حسن استقبال مانويل للويس قد أعمى بصيرته عن رؤية الحقيقة، فكل الدلالات كانت واضحة لاسيما بعد أن علم الملك لويس بشأن الهدنة التي عقدها مانويل مع السلاجقة إلا أن لويس ظل غافلاً، اتجه الفرنسيون في طريقهم إلى خلقدونية محملين بهدايا مانويل ومزودين بأسطول لتلك المهمة وهناك قام حاج فلمنكي مع عدد من الرجال بمهاجمة مكاتب الصرافين البيزنطيين ونهبها، فهرب الصرافون على سفن نقلتهم إلى الجانب الآخر، وعندما علم لويس بما حدث طلب إلقاء القبض على الفلمنكي حيث تم شنقه، وسلمت المنهوبات إلى أسقف لانجرس، ثم استدعى الملك صرافي المال في صباح اليوم التالي وأعاد لهم ما فقدوه[٣]، وأرسل الملك لويس أرنولف صاحب ليزيو، وبارتلميو الحاجب، إلى الإمبراطور مانويل ليبرر ما حدث ويطلب إعادة التجار الفرنسيين وبضائعهم، وحصل رسل لويس على مطالبهم، كما أعلن مانويل استعداده للاجتماع بالملك لويس السابع [٤].

كشف الإمبراطور مانويل عن نواياه الحقيقية متبنيًا سياسة أكثر حدة تجاه الصليبيين، إذ بدأ يمارس ضغوطًا ابتزازية على الملك لويس السابع عبر مبعوثيه، تضمنت مطالب محددة أبرزها تزويج إحدى قريبات الملك -التي كانت ترافق الملكة إليانور- لأحد أبناء أخيه، فضلًا عن اشتراطه أداء النبلاء الفرنسيين يمين الولاء له، وقد ربط مانويل تقديم الدعم اللوجستي اللازم للجيش الفرنسي، من مرشدين ومؤن وأسواق للصرافة، بتحقيق تلك المطالب، بل ومنحهم "ضوءًا أخضر" للقيام بأعمال السلب والنهب في حال عدم توفر تلك الامتيازات، مصرحًا لهم بالاستيلاء على أي مدينة أو قلعة تمتنع عن تقديم المساعدة ونهبها ثم إخلائها [٥]. ويمكن تفسير ذلك الموقف المتناقض لمانويل، الذي غض الطرف سابقًا عن تجاوزات الفرنسيين وأعمال الحرق والتخريب التي طالت القسطنطينية وخلقدونية، بأنه كان يهدف

---

(1) Perry, Op. Cit., P. 491.

(٢) محمود سعيد عمران ، المصدر السابق ، ص١٥١ – ١٥٢ .

(٣) اسحق تاوضروس عبيد ، روما وبيزنطة من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتيني لمدينة قنسطنطين ٨٦٩ – ١٢٠٤ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ٢٠٠ .

(٤) ستيفن رنسيمان ، المصدر السابق ، ص ٣١٢ .

(٥) محمود سعيد عمران ، المصدر السابق ، ص ٨٥؛ أودو أوف دويل، المصدر السابق، ص ٥٠.

استراتيجيًا إلى إخراج القوات الفرنسية من العاصمة البيزنطية أولًا لضمان أمنها، فبمجرد تحقيقه لهذا الهدف وضمان ابتعادهم، تحرر من قيوده وبات أكثر وضوحًا وتشددًا في فرض إرادته[١].

وفي سياق تحليل تلك الشروط، يرى المؤرخ محمود سعيد عمران أن مانويل لم يتطرق فيها أو فيما بعد إلى مسألة إلزام الفرنسيين بإعادة الأراضي التي قد ينتزعونها من السلاجقة إلى السيادة البيزنطية - وهي الأراضي التي كانت تابعة للإمبراطورية سابقًا- مما يشير إما إلى عدول الإمبراطور عن تلك الفكرة، أو أن الرواية التاريخية التي زعمت وجود تلك المطلب باطلة من الأساس لعدم وجود ما يساندها في المصادر الأخرى[٢].

فناقش الفرنسيون مطالب الإمبراطور مانويل حيث كان أول المعترضين روبرت الأول كونت درو Robert I, count of Drew (١١٢٥ – ١١٨٨) أخو الملك الفرنسي زواج قريبته من ابن أخي مانويل، وقام باختطافها ومضى إلى نيقوميديا، وقال البعض ولاسيما أسقف لانجرس: **" أن من العار أن نقدم الطاعة والولاء لرجل كافر"** بينما ساد رأي جماعة أخرى بسبب عددها الكبير ورأيها المنطقي، ورأى أفراد تلك الجماعة أنه لا توجد مشكلة في تقديم الطاعة والولاء للإمبراطور البيزنطي بشرط الحفاظ على الولاء للملك أولاً، ولكي ينتزعوا خوف الامبراطور منهم ، قالوا :**"دعونا نكون في سلام مع المسحيين"**[٣].

أذعن الملك لويس لرغبات الإمبراطور مانويل وأقسم مضطراً على القبول بكافة شروطه، ثم واصلت الحملة مسيرها حتى بلغت نيقية في الأول من تشرين الثاني عام ١١٤٧، وهناك، تناهت إلى مسامع الفرنسيين الأنباء المفجعة حول الكارثة التي حلت بالجيش الألماني، غير أن لويس قابل تلك الأخبار بالإنكار والتشكيك، مفضلاً البقاء في نيقية ريثما يستقر رأيه على الطريق الذي سيسلكه، ولم يقطع الشك باليقين إلا وصول فريدريك الأول بربروسا، ولي عهد العاهل الألماني، الذي جاء ليؤكد حقيقة المأساة ويدعو لويس للاجتماع بكونراد، وبذلك وجد كونراد الثالث نفسه مجبراً على التخلي عن غطرسته السابقة حين كان يرفض انتظار الفرنسيين في القسطنطينية مستهيناً بهم بقوله: **"إن الفرنجة لا يمثلون شيئاً بالنسبة لنا، ونحن لن ننتظر أي شخص أياً كان"**، ليتحول موقفه جذرياً من الكبرياء إلى طلب النجدة والمؤازرة من الملك لويس[٤].

كان كونراد في منطقة قريبة من نيقية فاسرع لويس لمواساته والتباحث معه فيما سوف يفعلانه ، وصل الملك لويس السابع إلى مقر كونراد في تشرين الثاني ١١٤٧ وبعد أن تبادلا التحايا وقبلة السلام تناقشا حول الحالة الراهنة بواسطة مترجم (أسقف متز) واتفقا على الاستمرار في الحملة، وضم من تبقى من جيش كونراد إلى جيش لويس، والتراجع عن فكرة اتخاذ طريق الحملة الصليبية الاولى عبر آسيا الصغرى، وأن يتخذ بدلاً من الطريق الساحلي

---

[١] أودو أوف دويل، المصدر نفسه ، ص ٥٠.

[٢] محمود سعيد عمران ، المصدر نفسه ، ص ٨٥؛ أودو أوف دويل، المصدر نفسه ، ص ٥٠.

[٣] محمود سعيد عمران ، المصدر نفسه ، ص١٥٢ – ١٥٣ .

[٤] علي محمد الصلابي، صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس، دار المعرفة، بيروت ، ٢٠٠٨، ص ١٣١؛ وليم الصوري ، الحروب الصليبية ، ج٣ ، ص ٢٨٠ .

الطويل على امتداد الساحل الغربي لآسيا الصغرى، وأن ينتظر الملك لويس الجيش الالماني في لوبار بالقرب من بحيرة أبولونيا، ويتعين على كونراد أن يتبع الملك بسرعة بعد أن يحصل على الإمدادات من نيقية[١]، ولكن لماذا تراجع لويس السابع عن رأيه في اتخاذ طريق الحملة الصليبية الأولى في آسيا الصغرى؟، وهل كان لهزيمة كونراد الثالث دور في ذلك ؟، مما لاشك فيه أن ما وقع لكونراد الثالث من هزيمة ساحقة على أيدي السلاجقة عند سلوكه ذلك الطريق، كانت العامل الأساس الذي دفع لويس السابع إلى اتخاذ الطريق الساحلي، هروباً من الهجوم السلجوقي، وتجنباً للمصير السيئ للجيش الألماني وحتى يمكنه أيضًا الحصول على المؤن اللازمة للجيش من المدن البيزنطية على طول الساحل، فضلاً عن الإفادة من مساعدة الأسطول البيزنطي[٢].

ولكن لم تكتمل سعادة الألمان بمد الفرنسيين يد العون والمساعدة لهم، وأبى القدر أن ينهي مأساتهم عند ذلك الحد، فقام البيزنطيون بمهاجمة الالمان أثناء تقدمهم من نيقية إلى لوبار لانهم أغاروا على القرى البيزنطية المجاورة، لذلك استنجد كونراد بالملك لويس فأرسل إليهم فرقة عسكرية بقيادة إيفو كونت سواسون Ivo Count of Soisson قامت بحراستهم حتى وصلوا إلى هناك، وأنقذت فلولهم من الهلاك لدرجة أنهم أخذوا يرددون بأنه لو لم يأت الكونت إليهم على جناح السرعة لكان قد قضي عليهم جميعا[٣].

وصلت القوات الفرنسية والالمانية إلى مدينة إيسيرون Esseron في ١١ تشرين الثاني ١١٤٧ ثم تقدمت القوات إلى فيلادلفيا[٤]، ونصح كونراد الثالث لويس بالمسير على الطريق الساحلي قائلاً: **"يوجد طريقان مفتوحان أمامكم: أولها أقصر ولكن موارده أقل، وثانيهما أطول، ولكن موارده أوفر، فمن الأفضل أن يعيشوا لمدة طويلة وسط الوفرة بدلا من أن تهلكوا بسرعة ويخزي وسط الحاجة... لذلك فإنني أتوجه إليكم بنصيحتي لتسلكوا طريق الساحل، وتحافظوا على قوة فرسانكم لخدمة الرب حتى ولو جاءت هذه الخدمة متأخرة إلى حد ما"**[٥]، وافق الملك لويس على نصيحة كونراد، وتقدما إلى ميناء إدرميد Idramide، ومنه إلى مدن بيرغامون Pergamon وأزمير ومنها إلى أفسوس Ephese[٦] التي وصلها

---

(١) ميخائيل زابوروف ، المصدر السابق ،ص ١٨٣ ؛ ستيفن رانسيمان ، المصدر السابق ، ص ٣١٢ .

(2) Chalandon, Essai Sur Le Regne D'Alexis 1er Comnene (1081−1118), (Paris 1900), p. 305; Bell, K., Mediaeval Europe 1095−1254, (Oxford 1932), p. 89; Oman, Art of War, I, p. 245.

(3) Odo of Deuil, Op. Cit., P, pp. 97−99.

(٤) فيلادلفيا: مدينة تقع في تركيا الحالية واسمها الآن Alaerehir ، قام الأتراك السلاجقة بالسيطرة عليها من الإمبراطورية البيزنطية بعد موقعة ملاذكرد عام ١٠٧١ ، واستطاعت بيزنطة استعادتها عام ١٠٩٨. وأصبحت خط الدفاع الرئيسي عن الحدود البيزنطية ومركزا للحملات العسكرية البيزنطية المتجهة نحو الشرق . يراجع :
Alexander Kazdan, The Oxford Dictionary of Byzantium, Volume III, Oxford University Press, New York, 1991, p. 1648.

(٥) يوحنا كينا موس ، المصدر السابق، ص٩٤ – ٩٥ .

(٦) أفسوس: أطلق عليها الإغريق اسم ثيولوغوس Theologos وهي تعرف باسم التيلوت Alttelot، كانت فيما مضى تقوم بين جبليين ووسطهما وادي وكانت الكنيسة التي يوجد بها ضريح القديس يوحنا على بعد عشرة امتار من المدينة على رأس جبل، ولأن البقعة القريبة من الكنيسة كانت أكثر حصانة فقد نقلت مدينة أفسوس من قبل

في تشرين الثاني عام ١١٤٧[١].

شهدت الحملة تطورات غير محسوبة أدت إلى نتائج عكسية [٢] فما إن التقى الجيشان حتى دبّ التوتر بينهما نتيجة تهكم الفرنسيين المستمر على نظرائهم الألمان ووصفهم بعبارة **"الفقاعة الألمانية"**، مما عمق الفجوة بين الطرفين، وفي ظل تلك الأجواء المشحونة، غادر الصليبيون نيقية في أواخر تشرين الثاني، وعند وصولهم إلى مدينة أفسوس، تلقى الملك لويس رسائل تحذيرية عبر مبعوثي الإمبراطور مانويل تنبّهه من حشود السلاجقة المتأهبة للانقضاض عليهم، وعرضوا عليه الاحتماء بالقلاع البيزنطية، إلا أن لويس تجاهل تلك التحذيرات، مفضلاً عدم إظهار أي علامات للخوف حفاظاً على هيبته الملكية، ولتجنب أن يكون للإمبراطور مانويل أي فضل عليه، لاسيما وأن الأخير كان قد أرسل إشارات يتنصل فيها من مسؤولية أي أعمال انتقامية قد يقوم بها البيزنطيون رداً على تجاوزات الفرنسيين السابقة، والمفارقة تكمن في أن هذا الشقاق أضاع فرصة استراتيجية كبرى، إذ كان الجيشان يمتلكان مهارات قتالية متكاملة، فقد تميز الفرنسيون ببراعة القتال على ظهور الخيل واستخدام الرماح مستفيدين من سرعة خيولهم، بينما برع الألمان في قتال المشاة واستخدام السيوف، مما يعني أن اتحادهما الحقيقي وتنسيق جهودهما كان كفيلاً بخلق قوة صليبية ضاربة يصعب قهرها أو هزيمتها [٣].

أما الإمبراطور كونراد الثالث فقد عاد بجيشه إلى القسطنطينية عبر أسطول إرسله إليه الإمبراطور مانويل، وقد اختلفت أراء المؤرخين حول أسباب عودته فقيل أنه شعر بوعكة صحية، فرغب بالاستشفاء في القسطنطينية، وقيل أنه أراد قضاء فصل الشتاء هناك بصحبة الإمبراطور مانويل، أما آخر تلك الأسباب فيعود إلى عدم احتمال جيش كونراد لسخرية وتعالي الفرنسيين، وقد ظل كونراد بالقسطنطينية إلى أن غادرها إلى القدس عبر السفن البيزنطية عام ١١٤٨ ، ولم يسلك كونراد السفر عبر آسيا الصغرى بتاتاً[٤].

تقدمت القوات الفرنسية من دون أي اهتمام أو رد على رسائل مانويل ومضت في طريقها حتى وصلت إلى وادي ديسيرفيون Decerfen[٥]،وفي أثناء ما كان الفرنسيون في ديسيرفيون أرسل لويس جواسيساً في جميع أنحاء المنطقة للاستطلاع، وعلى الرغم من كافة الاحتياطات التي اتخذها، إلا أن السلاجقة استطاعوا مباغتة الفرنسيين وظهروا بشكل مفاجئ وبأعداد كبيرة على ضفة النهر المواجه لهم، ومنعوهم من استخدام الماء[٦]،حيث كانت

الأتراك إليها. يراجع : لودولف فون سوخم ، وصف الأرض المقدسة ، ج٣٧ ، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة : سهيل زكار ، دار الفكر العربي للطباعة والنشر ، دمشق ، ١٩٩٩ ، ص٢٨٣ – ٢٨٤ .

[١] اسحاق عبيد ، المصدر السابق ، ص ٢٠١ ؛ زبيدة عطا ، المصدر السابق ، ص ٩٣ .

[2] Gobry, op.cit., p 131; Kelly, op.cit., p.47.

[٣] أودو أوف دويل، المصدر السابق، ص٦٨ - ٦٩.

[4] Gobry, op.cit., p 131; Owen, op.cit., p 25.

[٥] ديسير فيون: هو وادي قريب من إفسوس. يراجع: وليم الصوري، تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، ص ٥١٨.

[٦] المصدر نفسه ، ص ١٠٨.

مجموعة من السلاجقة يقذفون السهام على الفرنسيين لمنعهم من عبور النهر، الأمر الذي جعل لويس يقوم بسحب قواته بعيداً عن نظر السلاجقة وإعادة تنظيمها قبل عبور النهر، وقبل بدء المعركة، طلب لويس من قواته أن يقاتلوا بشجاعة، وألا يمنعهم الخوف من الدفاع عن أنفسهم وأوضح لهم أنه سيكون أول من يعبر النهر[١].

بعد أن امتطى لويس جواده أعطى الإشارة لقواته ببدء المعركة في الأول من كانون الثاني ١١٤٨ حيث نجح هو وقواته في عبور النهر، ودارت معركة حامية الوطيس في ذلك المكان حيث أصابوا من الأتراك السلاجقة وأسروا العديد منهم، مما جعل البقية ينسحبون من ساحة المعركة، وبذلك استطاع الفرنسيون- حسب الروايات الفرنسية - السيطرة على معسكر السلاجقة وقتلوا وأسروا الكثير من السلاجقة واستولوا على معسكرهم بما فيه من الأسلاب وغنائم[٢].

يبدو أن تلك السردية التاريخية تظل محل شك وتساؤل، إذ أغفلت المصادر والمؤرخون المسلمون ذكر ذلك الانتصار المزعوم تماماً، وانفرد بتوثيقه المؤرخ أودو أوف دويل ويُعزى هذا التفرد على الأرجح إلى محاولة المؤرخ تلميع صورة الملك لويس وحفظ ماء وجهه، لا سيما أن المعطيات التاريخية والنتائج الكارثية للحملة الصليبية الثانية تتنافى منطقياً مع فرضية تحقيق نصرٍ فرنسي بذلك الحجم.

أمضى الفرنسيون ليلتهم على الضفة الثانية للنهر، وهم سعداء بالانتصار الذي حققوه على السلاجقة وتحركوا في صباح اليوم التالي إلى لاودكيا Laodicea التي تقع على أحد روافد نهر الماينذر The Minder التي وصلها في الثالث من كانون الثاني عام ١١٤٨ ، وبعد ذلك واصل لويس وقواته السير منها إلى أضاليا Dahlia وفي الطريق رأوا جثث الحجاج الالمان ملقاه وكان هناك جماعات من السلاجقة يراقبون تحركات لويس وقواته، لذلك قام لويس بتنظيم قواته لإدراكه بأن المعركة واقعه لا محال مع السلاجقة[٣] .

وعند تقدم جيش الملك لويس اعترض طريقه جبل ضخم كان من الصعب صعوده لوعورته فوضعت خطة لذلك وهي اختيار مجموعة من الفرسان يترأسهم قائد للصعود إلى قمة الجبل فوقع الاختيار على أحد رجاله ويدعى جوفري دي رانكون Goffrey de Rancon لقيادة المقدمة، ويتولى هو بنفسه قيادة المؤخرة، وقد أمرهم الملك لويس باصطحاب إليانور ومن معها من السيدات، لكن جوفري لم يلتزم بأوامر لويس فعندما وصل إلى قمة الجبل وجدوا أن المنطقة كانت شديدة الرياح بحيث لا يمكن إقامة معسكر، وأخبر رجاله أن هناك مكاناً أفضل من قمة الجبل يمكن أن يعسكروا فيه، لذلك ترك القمة ونزل إلى السفح المقابل حتى يعسكروا فيه، وفي الوقت نفسه لم يكن لويس وقواته على علم بالتغيرات التي أحدثها جوفري[٤].

---

[١] وليم الصوري ، الحروب الصليبية ، ج٣ ، ص ٢٨٢ .

[٢] أودو أوف دويل، المصدر السابق ص ٧١.

[٣] ستيفن رانسيمان ، المصدر السابق ، ص٣١٤- ٣١٥ .

[4] Meade, op.cit., PP. 49 – 50; Weir,op.cit.,p.61.

وفي سياق تحليل خلفيات ذلك القرار، تُشير بعض الروايات التاريخية إلى دور محوري ادته الملكة إليانور في تشجيع جوفري على عدم الالتزام بأوامر الملك، مستندة في ذلك إلى عمق العلاقة الشخصية والروابط القديمة التي تجمعها بهِ، إذ يُذكر أن إليانور ولويس كانا قد قضيا ليلة زفافهما في قلعة جوفري سابقاً، ولم يكن دافع إليانور مجرد الصداقة فحسب، بل نبع تأييدها لقرارات جوفري المخالفة من عدم إيمانها بالكفاءة العسكرية لزوجها الملك لويس، مما جعلها تميل إلى الثقة بتقديرات القائد الميداني وتدعم خروجه عن طاعة الملك[١].

استغل السلاجقة الفرصة وقاموا باحتلال قمة الجبل، وأخذوا يوجهون السهام على القوات الصليبية التي كانت تتحرك نحو القمة للحاق بالمقدمة مما أدى إلى قتل وأسر ٧٠٠٠ صليبي، بينما هرب بعضهم وتمكنوا من اللحاق بالمقدمة بصعوبة بسبب امتعة إليانور الثقيلة التي منعت الحرس الخلفي من التصدي لهجمات السلاجقة وعاقت تقدمهم على سفح الجبل[٢]، وفي خضمّ تلك المواجهة الدامية، أفلت الملك لويس بأعجوبة من براثن موتٍ محقق، وذلك بعد أن أطبق عليه الخطر من كل جانب وتساقط حراسه الشخصيون صرعى وهم يستميتون في الدفاع عنه باذلين أرواحهم فداءً له، وحينما أُردي جواده قتيلاً وأصبح راجلاً، لم يستسلم الملك لليأس، بل تشبث بجذور الأشجار المتدلية ليرتقي بصعوبة بالغة قمة صخرةٍ ضخمة اتخذها موقعاً دفاعياً، وظل يقاتل السلاجقة بجلدٍ وصبر حتى حلول المساء[٣].

ومما ساهم في نجاته في تلك اللحظات الحرجة، أن الجنود السلاجقة انصرفوا عنه وتركوه وشأنه، مدفوعين بجهلهم لهويته الملكية، وانشغالهم المحموم بجمع الغنائم والأسلاب، مفوّتين بذلك صيداً ثميناً لم يدركوا قيمته [٤]، وبعد نجاح لويس في الهروب ولحاقه بقواته بعد انتهاء معركة جبل كادموس Cadmus، تحركت القوات الصليبية تحت قيادته متجهة إلى أضاليا، وخلال سير القوات الصليبية إلى هناك تعرضوا لهجمات السلاجقة فضلاً عن ما كانوا يعانون منه من الجوع والإرهاق، وصل الصليبيون إلى أضاليا في العشرين من كانون الثاني عام ١١٤٨ وبوصولهم إليها كانت أمامهم فرصة للراحة والاستجمام[٥].

كان أمام لويس طريقان إلى الشام، أما طريق البحر إلى السويدية [٦] وأنطاكية، وأما طريق البر بحذاء الشاطئ الجنوبي لآسيا الصغرى إلى قيليقية Colcaille وأنطاكية، اجتمع لويس مع بارونـاته لاستشارتهم في اختيار الطريق الذي سوف يسلكوه فاختار البارونات الطريق الساحلي لبعده عن خطر السلاجقة ولأنه يستغرق ثلاثة أيام للوصول إلى أنطاكية بعكس الطريق البري الذي سيستغرق أربعين يوماً فضلاً عن إمكانية تعرضهم للهجمات

---

(1)Meade, op.cit.,PP. 98 – 99; Kelly, Eleanor, PP. 49 – 50; Weir,op.cit.,p.61.
(2)Weir,op.cit.,PP. 61 – 62,; Kelly, Eleanor, P. 50.
(3)Meade, op.cit., p.100.
(4)Kelly, Eleanor, P. 50.

(٥) سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية ، ج٢، ص ٦٢٧ .

(٦) خليج السويدية : عبارة عن امتداد جزء من البحر في اليابسة، يقع بين جبل الأقرع من الجنوب وجبل اللوكام من الشمال في جنوب غربي انطاكية بين رأس البسيط من الجنوب ورأس الخنزير من الشمال ،يصب به نهر العاصي . يراجع : عادل عبد السلام ، جغرافية سورية العامة ، جامعة دمشق ، دمشق ، ١٩٩٦ ، ص ٢٠ .

السلجوقية[١]، وبعد أن تم اختيار الطريق الساحلي لاستكمال الرحلة إلى أنطاكية، بقى أمام القوات الصليبية مشكلة عدم توفر السفن اللازمة لنقلهم إلى شاطئ الشام حيث عانا الملك لويس وقواته من عدم توفرها وبعد انتظار طويل لم يحصل الصليبيون إلا على عدد قليل منها لم يكف لنقل كل القوات الصليبية، لذلك أبحر لويس وحاشيته وعدد من القوات الصليبية وترك الباقين في أضاليا، يعانون من سوء معاملة البيزنطيين وهجمات السلاجقة حتى تم نقلهم على دفعات إلى الشام [٢].

غادرت القوات الفرنسية بقيادة لويس مدينة أضاليا بعد أن امضى فيها خمسة أسابيع في طريقها إلى أنطاكية فوصلوا إلى ميناء السويدية في ١٩ آذار عام ١١٤٨[٣]، ولم يكن الإمبراطور مانويل كومنين وحده هو الذي حاول أن يستغل الحملة الصليبية الثانية لتحقيق مصالحة، بل رأى كل واحد من الأمراء الصليبيين في الشرق في حملة لويس السابع فرصة يمكن استغلالها لتحقيق مصالحة الخاصة ومن بينهم ريموند دي بواتييه حاكم أنطاكية، كان قد بنى على الملك لويس آمالا كبيرة لتحقيق مصالحه[٤].

عندما علم الأمير ريموند دي بواتييه حاكم أنطاكية وعم الملكة إليانور بوصل الملك لويس وزوجته شعر بسعادة بالغة ولم ينتظر في قصره حتى يأتوا إليه بل أسرع مع حاشيته ومعظم سكان المدينة إلى الميناء ليكون في شرف استقبالهم، وفرح بمقدمها وفعل كل ما يستطيع لإسعادها، وعندما وصلت الملكة إليانور إلى أنطاكية كان يغلب عليها التعب الشديد والإرهاق لكنها بعد وصولها أنطاكية واستمتاعها بجمال جوها ومزارعها وحدائقها الغناء وسفوح جبالها التي كُسيت بالأزهار، كما دهشت من جمال آثارها الرومانية القديمة ومبانيها وقصورها الجميلة التي كانت تذكرها بموطنها في بواتييه والتي ارتاحت بها من عناء السفر وكانت الإقامة فيها ممتعة[١] .

أثار جمال مدينة أنطاكية في نفس الملكة إليانور حنيناً جارفاً لوطنها، إذ استعادت ذاكرتها صور بوردو وبواتييه، وما عزز شعورها بالألفة أن لغة أكيتاين كانت هي السائدة في المدينة، ناهيك عن أن حاشية عمها ريموند من فرسان وكهنة كانوا في الأصل من بواتييه، وتربطها بمعظمهم علاقات جيدة وصداقة منذ الطفولة، وقد اتسمت شخصية ريموند بالجاذبية والسحر، فقد كان راعياً للأدب وشعر التروبادور، سائراً على نهج أبيه وليم التاسع وأخيه وليم العاشر، مما أضفى على بلاطه جواً من المرح والألفة، وفي خضم تلك الأجواء، استغرق الاثنان- إليانور وعمها-في استعادة ذكريات طفولتهما بقصر "أومبرير Ombriere في أكيتاين، فبدأ ريموند في نظرها تجسيداً حقيقياً لفارس أحلامها، جامعاً بين الوسامة

---

[1]Michaux, Joseph François, History of the Crusades, Volume I, 6th Edition, Verne & Co., Paris, 1841, p.393.

[٢] أودو أوف دويل، المصدر السابق، ص ٨١-٨٣ ؛ روجر أوف ويندوف ، المصدر السابق ، ص ١٦٦.

[٣] حسن حبشي ، نور الدين والصليبيون ، دار الفكر العربي للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، د.ت ، ص ٥١ ؛ علي الغامدي، أنطاكيا في عصر الحروب الصليبية (٤٩١-٦٦٦هـ / ١٠٩٨-١٢٦٨م)، جامعة أم القرى، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، ١٩٩٧، ص ١٨ .

[٤] سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية ، ج١ ، ص ٤٩٨.

والشجاعة والفروسية، وهي الخصال التي طالما تمنتها في زوجها لويس ولم تجدها[٢]، ولم يكتفِ ريموند بالدعم المعنوي، بل سعى جاهداً لإخراج الملكه إليانور من حالة الوهن والاكتئاب التي خلفتها مشاق الرحلة، فأغدق عليها الهدايا وأمدّها بخزائن الملابس الحريرية الفاخرة، كما حرص على الترفيه عنها بتنظيم مجالس الأنس التي ضمت الشعراء والمنشدين والراقصات، ووفر لها كل سبل الراحة والملذات، وقد أدت تلك الرعاية المكثفة وحياة الترف إلى انتعاش روح إليانور ورفيقاتها، فانغمست في حياة اللهو التي يسرها لها عمها، مما مهد الطريق لنشوء ميل عاطفي ومشاعر متبادلة بينهما تجاوزت حدود القرابة [٣].

أفصح ريموند فيما بعد عن رغبته بأن يساعده في القيام بحملة ضد حلب والاستيلاء عليها والقضاء على قوة نور الدين، وبين له أن الأخير هو الخطر الحقيقي والفعلي الذي يهدد الإمارات الصليبية، وأن هدفه الاستيلاء على أنطاكية بعد أن استولى على إمارة الرها، فحاول ريموند مراراً وتكراراً إقناع الملك لويس وقواته ليشاركوا في القيام بحملة مشتركة ضد حلب وذكر أن ذلك يمكن تحقيقه دون صعوبة وأن الاستيلاء على حلب سيعود بالفائدة على كل الإمارات الصليبية ويرفع مكانة الملك لويس، إلا أن لويس رفض ذلك بشده معللًا أن مجيئه ليس من أجل الحرب ولكن وفاءً لنذره[٤] .

يُعزى رفض الملك لويس السابع لخطة ريموند أمير أنطاكية إلى مزيج معقد من الصدمة الثقافية والشكوك الشخصية العميقة، ففور وصول لويس إلى أنطاكية، واجه واقعاً اجتماعياً مغايراً لتوقعاته، إذ وجد أن الصليبيين المقيمين هناك قد انغمسوا في أنماط الحياة الشرقية، مُحاكين المسلمين في مظهرهم من حيث ارتداء الأزياء الفاخرة والعمائم وإطلاق اللحى، وقد تفاقم استياء لويس ومخاوفه حين لاحظ شيوع الزواج المختلط بين الصليبيين وأهل البلاد، مما أثار فزعه من فكرة "تهجين" الأجيال القادمة وضياع الهوية الإفرنجية، ولم يقتصر الأمر على ذلك النفور الثقافي، بل تأزم الموقف سياسياً وشخصياً بسبب الغيرة التي اشتعلت في قلب لويس تجاه زوجته الملكة إليانور، نظراً لعلاقتها الوثيقة بعمها ريموند وإصرارها على دعم مشروعه العسكري، مما دفع الملك للشك في وجود علاقة عاطفية محرمة بينهما[٥].

وعلى الرغم من أن البعض حاول وضع تلك العلاقة في إطارها الطبيعي بحكم صلة القرابة، إلا أن الشائعات وجدت أرضاً خصبة لدى القادة الفرنسيين المناوئين لإليانور، والذين كانوا يُضمرون لها العداء ويُحمّلونها مسؤولية الهزائم السابقة بسبب ثقل أمتعتها، وقد تعززت تلك الريبة بسبب تحدث إليانور مع عمها بلهجتهما المحلية التي لم يفهمها لويس وحاشيته، مما جعلهم يفسرون تلك الأحاديث المبهمة على أنها أدلة تدين سلوكها، على الرغم

---

[١] أودو أوف دويل، المصدر السابق، ص ٨١-٨٢ .

[2] Meade, op.cit, p.104, Weir,op.cit.,PP. 64 – 65.

[٣] زينب عبد القوي، اليانور دوقة أكوتين "مرآة أوربا بالقرن الثاني عشر" ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، الجيزة ، ٢٠٠٩ ، ص ٨٦ .

[٤] محمود سعيد عمران، المصدر السابق ، ص ٩٠ .

[٥] امام الشافعي محمد حمودي، أشرف صالح محمد سيد ، المصدر السابق، ص ٨٨- ٨٩.

من افتقارهم لأي دليل مادي قاطع [١].

فضلاً عن الأسباب السابقة فهو لا يريد الاصطدام بالزنكيين بعد أن تعرض الجيش الالماني للكارثة على يد السلاجقة في آسيا الصغرى، ولم يبق سوى جيشة في الميدان، لذلك لم يكن راغباً، أن يزج نفسه في مغامرة ضد نور الدين غير مضمونة النتائج، وربما رفض لويس طلب ريموند لأن الملكة ميسلند الوصية على عرش مملكة بيت المقدس بعثت فوشر من أنجليوم Faucher of angelium بطريك القدس (١١٤٧– ١١٥٧) إلى لويس لتصرفه عن مهاجمة حلب، وتدعوه للتحرك إلى بيت المقدس، وإخباره أن كونراد سبقه إلى بيت المقدس، لذلك لم يكن بوسع لويس، القيام بأعمال السلب والنهب خوفاً من العار بينما خصمة كونراد كان يحارب من أجل الصليب[٢] .

اتجه ريموند إلى ابنة أخيه إليانور لعلها تساعده في اقناع زوجها بالهجوم على نور الدين حيث بدت خطة ريموند معقولة إلى حد كبير بالنسبة إلى الملكة إليانور فقد كان المسلمون بزعامة نور الدين إذا نجحوا في اجتياح شمال الشام واستولوا على أنطاكية فستسقط الأرض المقدسة، ولن يمنعهم شيء من الزحف والاستيلاء على مملكة بيت المقدس، إلا أنها قوبلت بالرفض من زوجها[٣].

أعلن لويس السابع رداً على طلب الأمير ريموند أنه لم يحمل الصليب إلا للحج إلى كنيسة القيامة والذهاب للدفاع عن القدس، ويمكنه أن يشارك ريموند في حملة ضد حلب بعد أن ينتهي من حجه إلى القدس، عندئذ استاء ريموند من رفض الملك لطلبه، وأخذ يكن عداء شديداً له، وراح يتآمر ضده، فعزم على أن يحرمه من زوجته إما قسراً أو بمؤامرة يدبرها في الخفاء، فحرضها على ترك زوجها[٤]، واستجابت الملكة إليانور لريموند، فقد رفضت مرافقة زوجها إلى القدس وأعلنت نيتها البقاء في أنطاكية بجانب ريموند بل وطلبت الطلاق من زوجها، وقد كان الملك لويس على علم بالمؤامرات التي يديرها ريموند، لذلك استشار كبار باروناته حول كيفية العمل في ظل مؤامرات الأمير، فأشار عليه رجاله بالرحيل عن أنطاكية، لذلك أخذ الملك إليانور بالقوة وترك فجأة أنطاكية ليلاً وسار بدون أن يستأذن ريموند بالرحيل[٥] .

وقد اتهمها المؤرخ وليم الصوري بالرعونة والطيش: **"وقرر انتزاع زوجته منه بالقوة المقصود ريموند أو عن طريق التآمر، وأبدت الملكة على الفور موافقتها على ذلك، لأنها كانت امرأة حمقاء، وكانت جميع أعمالها وتصرفاتها من قبل ومن بعد تؤكد هذا وتبرهن أنها كانت طائشة غير مبالية، مما يتنافى مع مكانتها الملكية، حتى أنها لم تقم بأي اعتبار لميثاق الزواج ولم تكن مخلصة لزوجها"**، فهل سمحت إليانور لنفسها بمغامرات الحب في

---

(١) امام الشافعي محمد حمودي، أشرف صالح محمد سيد ، المصدر السابق، ص ٨٨- ٨٩.

(2) Meade, op.cit., p.102 ;Kelly, Eleanor, op.cit., PP. 55 – 58.

(٣) عبد العظيم رمضان، الصراع بين العرب وأوربا من ظهور الإسلام إلى انتهاء الحروب الصليبية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٣، ص ٤٤٩ ؛ ميخائيل زابوروف ، المصدر السابق ، ص ١٨٥ .

(٤) وليم الصوري، الحروب الصليبية ، ج٣ ، ص٢٨٩ – ٢٩٠ .

(5) Meade, op.cit., p. 103; Seward, op.cit., p. 48.

أنطاكية؟ فلم تكن تلك التهمة الوحيدة بل اتهمت بأنها كانت على علاقة بعبد مسلم جميل، ومره ثانية قالوا إنها تحب صلاح الدين الأيوبي (١١٣٨- ١١٩٣) ، على الرغم من أن صلاح الدين لم يكن معروفاً في تلك المرحلة ، والواقع إن تلك الاتهامات لم يثبت عليها دليل من المصادر التي بين أيدينا سوى رواية وليم الصوري البتراء[١]، وهكذا غادر لويس أنطاكية إلى بيت المقدس بعد أن اصطحب معه زوجته إليانور بالقوة ،وعندها رأت إليانور بأن أثارة صلة، القرابة للانفصال هو الأمر المحتوم الذي سينهي علاقتها بلويس[٢].

وصل لويس السابع إلى طرابلس ومنها إلى القدس في نيسان عام ١١٤٨ ، وسط استقبال حافل من الملك بلدوين الثالث[٣]، وأمه ميليسندا ورجال الدين وكل أهالي المدينة الذين أحاطوا بالملك وزوجته وأظهروا لهما الاحترام والتوقير ورفعوا الأهازيج وتلاوة التراتيل الدينية، وبعد انتهاء الملك من صلاته في كنيسة القيامة تمت دعوته لاجتماع في مدينة عكا لمناقشة الخطط التي يجب اتباعها لزيادة رقعة المملكة الصليبية[٤].

أقيم مجلس عكا في ٢٤ حزيران سنة ١١٤٨ وذلك لمناقشة الخطة التي سوف يسير عليه الصليبيون من أجل توسيع مملكة بيت المقدس، وقد ترأسه الملك بلدوين الثالث ووالدته ميليسند، وحضره كلّ من الإمبراطور كونراد الثالث والملك لويس السابع ومجموعة من النبلاء والأمراء وكبار الشخصيات الدينية والعلمانية من الفرنسين والألمان والأوربيين بشكل عام، ولم تحضر الملكة إليانور ذلك الاجتماع ربما بسبب خلافها مع الملك لويس السابع أو أنها أصلاً لم يتم دعوتها للحضور، وبعد مناقشات ومداولات واختلاف في الآراء استقر أمرهم على مهاجمة دمشق[٥].

وهناء نستنتج أن الحملة الصليبية قد انحرفت عن هدفها الأساسي الذي أتت من أجله إلى الشرق وهو القضاء على الزنكيين واسترداد الرها واتجهت لمساعدة مملكة بيت المقدس، وفي الحقيقة إن قرار الصليبيين بمهاجمة دمشق كان قراراً خاطئاً اتسم بالحماقة المطلقة، وأنه مخالف لقواعد الأدب واللياقة وذلك لأن دمشق بقيادة حاكمها معين الدين أنر كان الحليف الوحيد للصليبيين من بين أمراء المسلمين في الشام والوحيد الذي يستطيع مساعدتهم

---

[١] وليم الصوري، الحروب الصليبية ، ج٣ ، ص ٢٩٠ ؛ امام الشافعي محمد حمودي، أشرف صالح محمد سيد ، المصدر السابق، ص ٨٨؛

[٢] حسين مؤنس، المصدر السابق، ص ٢١٤ ؛

Meade, Eleanor, P. 109.

[٣] بلدوين الثالث(١١٣٠ - ١١٦٣): الابن الأكبر للملكة ميليسيند Melisende والملك فولك الأنجوي Fulk of Anjou، تولى الحكم تحت وصاية أمه الملكة، ثم انفرد بالحكم دونها من أبرز انجازاته التي حققها ضد المسلمين استيلائه على مدينة عسقلان سنة ١١٥٣، وفي عهده حدثت الحملة الصليبية الثانية التي انتهت بالفشل. توفي بلدوين الثالث في العاشر من شباط سنة ١١٦٣ من دون أن يخلف أبناء وخلفه في العرش أخوه عموري الأول كونت يافا وعسقلان. يراجع : محمد مؤنس عوض، معجم اعلام عصر الحروب الصليبية في الشرق والغرب ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ٢٠٢٣ ، ص ٣٦٨-٣٦٩؛ عبد اللطيف عبد الهادي، السياسة الخارجية المملكة بيت المقدس الصليبية في عهد الملك بلدوين الثالث ١١٤٦- ١١٦٣، رسالة ماجستير، كلية الآداب ،جامعة عين شمس، ١٩٩٠.

[٤] سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحرة الصليبية ، ج٢ ، المصدر السابق ، ص ٦٣١ .

[٥] وليم الصوري ، الحروب الصليبية ، ج٣ ، ص٣٠٧ – ٣٠٨ .

من أجل وقف تقدم نور الدين وكان المفترض أن يقر المجتمعون مهاجمة نور الدين زنكي الذي زلزلهم وأقض مضجعهم، إلا أنهم ربما أرادو من ذلك أن يبدوا بمواضع الضعف، والتخلص منها ليستعينوا بنصرها على مهاجمة أصحاب القوة، وقد أعد الصليبيون العدة لمهاجمة مدينة دمشق وبدأت التجهيزات، وقيل أنهم قد فرقوا على العساكر سبعمائة ألف دينار، ولم يظهروا أنهم يريدون غزو مدينة دمشق بل بانياس[١] .

وقسم الجيش الذي اخْتُلفَ في تعداده فقيل سبعين ألف، مقسمين على ستة آلاف فارس وستين ألف راجل وقيل كانوا مائه ألف راجل وعشرة آلاف فارس، كانت المقدمة بقيادة ملك بيت المقدس بلدوين الثالث ومن يرافقه من قوات مملكة بيت المقدس، والسبب في قيادته المقدمة لأنه يعرف المنطقة أكثر من الملك لويس وكونراد الثالث والمنتصف بقيادة لويس السابع، إذا أوكل إلية تأمين المساعدة لبلدوين إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك ،والمؤخرة بقيادة كونراد وكانت مهمته حماية القوات الصليبية من أي هجوم مباغت يأتي من الخلف، وذلك حتى يضمنوا أقصى حماية لصفوفهم، وكان من المقرر البدء بالبساتين المحيطة بدمشق التي كان يحيط بها سور لحمايتها من الأعداء المتسللين وقد كان لذلك السور دور كبير في حماية مدينة دمشق[٢].

تقدم الصليبيون من طبرية نقطة تجمعهم باتجاه دمشق في ١٥ تموز عام ١١٤٨ ثم وصلوا إلى بانياس، وعقدوا اجتماعاً لتحديد الجهة التي سيهاجمون من خلالها مدينة دمشق، وبعد تباحث القادة مع عدد من الناس العارفين بموقع المدينة، والمناطق المجاورة لها، قرروا أن أفضل وسيلة للاستيلاء على المدينة الاستيلاء على البساتين المحيطة بها من معظم الجهات، وتابع الصليبيون تقدمهم حتى وصلوا إلى قرية داريا في ٢٣ تموز عام ١١٤٨ وقاموا بتنظيم قواتهم منعاً لحدوث المنازعات فيما بينهم، وتشير المصادر العربية إلى توقف الصليبيين في المكان المسمى منازل العسكر، فوجدوا الماء مقطوعاً فيه، فتوجهوا ناحية المزة[٣] بسبب وفرة المياه فيها[٤].

وصل الصليبيون إلى منطقة المزة في يوم السبت ٢٥ تموز ١١٤٨ وحاولوا بعد ذلك الوصول إلى نهر بردى[٥] ليطفئوا ظمأهم ويرووا غليلهم التي زاد شدتها ما تحملوه من المشاق المضنية، لكنهم فشلوا في السيطرة على النهر، لأن جيش أمارة دمشق من المسلمين

---

[١] ابن القاضي شهبة، الكواكب الدرية في السيرة النورية ، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة: سهيل زكار، ج٢٣، دار الفكر، دمشق ، ٢٠٠٠، ص ٢٢٦ .

[٢] بن القلانسي، المصدر السابق ، ص٤٦٢- ٤٦٣ .

[٣] المزة: وصفها ابن جبيربأنها قرية كبيرة، هي من أحسن القرى، وبها جامع كبير وسقاية معينة . يراجع: ابن جبير، رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، د.ت، ص ٢٤٩.

[٤] أبو شامة ، المصدر السابق ، ص ٥٢ .

[٥] لم يذكر وليم الصوري اسم النهر، كما لم تحدد المصادر العربية أي نهر هو، وذكر جروسيه أن النهر هو نهر بردى، وذكر قتيبة الشهابي أنه لابد أن يكون النهر هو نهر بردى أو بانياس أو الداراني، ويرجح أن يكون نهر بردى هو المقصود لأنه النهر الرئيسي والأغزر. يراجع: قتيبة الشهابي ، صمود دمشق أمام الحملات الصليبية ، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٨، ص ١٦٠ ابن القلانسي، المصدر السابق، ص ٤٦٤.

René Grousset, Histoire des croisades et du royaume franc de Jérusalem, tome II, Éditions Plon, Paris, 1935,P. 258.

حاول منع وصولهم إلى النهر، إلا أن الصليبيين استطاعوا السيطرة عليه بعد معركة طاحنه مع المسلمين، وبعد سيطرة الصليبيون على نهر بردى، تقدموا بقواتهم، فنزلوا بالميدان الأخضر[١]، ولم يستطع أهل دمشق صدهم عن ذلك المكان[٢] ، وصل الصليبيون إلى دمشق وعسكروا خارجها وكان الحاكم على دمشق مجير الدين بن طغتكين[٣] ووزيره ومدبر أموره معين الدين أنر[٤].

خرج أهالي دمشق للدفاع عن بلادهم واقتتلوا قتالًا شديدًا مع الصليبيين، وأستشهد من المسلمين نحو مئتين، وقتل العديد من الصليبيين، واستمرت رحى الحرب دائرة إلى أن حل الظلام، وبات الصليبيون في الميدان الأخضر على أبواب دمشق، وبات المسلمون على أسوار مدينتهم، وعندئذ أرسل معين الدين أنر إلى سيف الدين غازي[٥] صاحب الموصل ونور الدين محمود أبناء عماد الدين زنكي يستنجد بهما، وبعد مرور عدة أيام وصل سيف الدين إلى حمص بجيش قوامه عشرين ألف ووصل نور الدين إلى حماة[٦].

هرع سيف الدين لنجدة دمشق وفور وصوله أرسل لمعين الدين رسالة يخبره بأنه قد حضر ومعه جميع أسلحة بلاده **"قد حضرت ومعي كل من يحمل السلاح في بلادي"** ووضع شرطا لملاقاة الصليبيين، وهو أن يدخل نوابه دمشق **"فأريد أن يكون نوابي بمدينة دمشق لأحضر وألقى الفرنج"**، وبرر ذلك الشرط بأنه في حالة الهزيمة سيحتمي بدمشق، وفي حالة الانتصار ستكون دمشق لأهلها لا ينازعهم فيها أحد **"فإن انهزمت دخلت أنا وعسكري البلد واحتمينا بهِ، وإن ظفرت فالبلد لكم لا أنازعكم فيه"**[٧].

أخّر معين الدين أنر الرد على سيف الدين لينظر ما يكون من أمر الصليبيين فأرسل إليهم مهددًا: **"إن ملك الشرق قد حضر، فإن رحلتم وإلا سلمت دمشق إليه، وحينئذ تندمون وحينئذ تندمون"**، ووعدهم أنه في حالة رحيلهم عن دمشق فسوف يقوم بتسليم بانياس إليهم، وقد وضّح المؤرخ أبو شامة ردة فعل الصليبيين لتهديد معين الدين أنر **"فأجابوه إلى ذلك، واجتمعوا بملك الألمان، وخوفوه من سيف الدين وكثرة عساكره وتتابع امداده، وأنه ربما**

---

[١] مكان معرض دمشق الدولي اليوم ، بين التكية السليمانية شرقه وساحة الأمويين غربه ، وبين نهري بردى شمالة وبانياس جنوبه . يراجع : قتيبة الشهابي ، المصدر نفسه ، ص ٢٥٠ .

[٢] شهاب الدين النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، ج٢٧ ، تحقيق: مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د.ت ، ص ١٥٠ .

[٣] مجير الدين بن طغتكين (- ١١٦٩):هو ابن محمد بن بوري بن طغتكين، ولد ببعلبك، وقدم إلى دمشق مع أبيه، وتولى حكم دمشق بعد وفاة والده محمد عام ١١٣٩، وكان صغير السن لذلك سيطر عليه معين الدين أنر، وسيطر على زمام الأمور بعد وفاة معين الدين أنر، وظل يحكم دمشق حتى دخلها نور الدين محمود عام ١١٥٤، ثم انتقل إلى بالس - مدينة بناحية الفرات - ثم توجه إلى بغداد، وتوفي فيها عام ١١٦٩. يراجع : ابن عساكر ، تراجم من تاريخ دمشق ، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، ج ١١ ، ترجمة: سهيل زكار، دار الفكر، دمشق ، ٢٠٠٠، ص ١٨٩.

[٤] ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٤٨ .

[٥] سيف الدين غازي (١١١٥ -١١٤٩): كانت ولايته على الموصل ثلاث سنين وشهراً وعشرين يوما، توفي سنة ١١٤٩، ودفن بالمدرسة التي بناها بالموصل.يراجع: ابن العبري، تاريخ مختصر الدول ، ط٢، دار الرائد اللبناني، بيروت ١٩٩٤، ص ٣٥٩.

[٦] ابن الأثير، التاريخ الباهر ، ص ٨٨.

[٧] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٩، ص ١١٥.

ملك دمشق فلا يبقى لهم معه مقام بالساحل، فأجابهم إلى الرحيل عن دمشق، فرحل ورحل فرنج الساحل، وتسلموا حصن بانياس من معين الدين وبقي معهم حتى استرده نور الدين محمود"[١].

ذكر وليم الصوري[٢] أن: **"الدماشقة نجحوا في رشوة بعض رجال مملكة بيت المقدس بمبلغ كبير من المال"**[٣]، لذلك قام هؤلاء الرجال بنصح الملك والأمراء والحجاج بأن ينقلوا معسكرهم من الجانب الغربي للمدينة إلى الجنوب الشرقي بحجة أن تلك الجهة خالية من الأشجار، كما أنه لا يوجد نهر أو خندق يعيق وصولهم إلى المدينة ، كما أن السور ضعيف **"لابد أن ينهار عند تعرضه لأول هجمة"**، وعندما سمع قادة القوات الصليبية المحاصرة لدمشق النصائح التي وجهت إليهم، قاموا في ليلة ٢٧ تموز عام ١١٤٨ بنقل المعسكر إلى الجهة الجنوبية الشرقية من جانب باب كيساني وباب شرقي [٤]، فوجدوا المكان الجديد بعيداً عن بساتين الفاكهة وعن الماء، وأخذ الطعام في النقصان، وأدركوا أن الخيانة أتت أكلها، وراحوا يتشاورون فيما يجب عمله في ظل الوضع الجديد وأيقنوا أنه لا يمكنهم الرجوع إلى المكان الذي كانوا فيه، بسبب قيام القوات الإسلامية باستعادة ذلك المكان بعد مغادرة الصليبيين له ، وقرروا في النهاية الارتداد دون أن يحققوا هدفهم المنشود ، فعادوا إلى المملكة سالكين الطريق نفسه الذي جاءوا منه[٥].

ومهما يكن من أمر فقد فك الصليبيون الحصار عن مدينة دمشق فجر يوم الاربعاء ٢٨ تموز ١١٤٨ وحين علم المسلمين برحيلهم، قاموا بملاحقتهم وقتلوا من الرجال والخيول والدواب العدد الكثير، وقام الصليبيون بإحراق الربوة وما يجاورها انتقاماً من المسلمين[٦]، فوصل الصليبيون إلى بيت المقدس في أوائل آب ١١٤٨ منكسي الرؤوس، فلم يحققوا مجدًا ولا نصرًا، إنما تعرضوا لخسارة كبيرة في رجالهم وعتادهم، وضاعت هيبة الجيش الصليبي الذي لا يهزم ولا يقهر وبدأ مجد المسلمين يظهر ويكبر[٧].

بعد وصول الصليبيين إلى بيت المقدس، عقدوا اجتماعاً للقيام بأي عمل يرفع من ذكرهم في عيون الخلف واقترح البعض محاصرة عسقلان ، ولكن رفض الاقتراح قبل مناقشته[٨]، وتبين من اقتراح محاصرة عسقلان، أن مملكة بيت المقدس أرادت الاستفادة من قوات الحملة الصليبية الثانية من أجل القيام بعمل يؤدي إلى توسيع رقعة المملكة، والتعويض عن

---

[١] ابو شامة ، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، ج٢، تحقيق: محمد حلمي محمد ، القاهرة ، ١٩٥٦، ، ص ٢٠٦ ؛ بن قاضي ، المصدر السابق، ص ١٢٧ – ١٢٨.

[٢] وليم الصوري ، الحروب الصليبية ، ج٣ ، ص٣١٤ – ٣١٧ .

[٣] أرسل معين الدين أنر إلى ملك القدس (بلدوين الثالث) مائتي ألف دينار من النحاس المصري المطلي بالذهب، وأرسل إلى إلبناند صاحب طبرية خمسين ألفاً من الذهب الزائف. يراجع : ميخائيل السوري الكبير ، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، ج٥، ترجمة: سهيل زكار، دار الفكر، دمشق ، ٢٠٠٠، ص ١٨١ .

[4]Grousset (R.): Histoire des croisades et du Royaume Franc de Jérusalem 3 Lome. (Paris, 1936) P. 263.

[٥] عادل عبد الحافظ عثمان شحاته، المصدر السابق ، ص ٦١ .

[٦] ابن كثير، المصدر السابق، ص ٢١١؛ ابن العديم ، المصدر السابق ، ص ٤٧٤ .

[٧] ستيفن رانسيمان ، المصدر السابق ، ص٣٢٩ – ٣٣٠ .

[٨] وليم الصوري ، الحروب الصليبية ، ج٣ ، المصدر السابق ، ص ٣٢٠ .

الفشل الذي لحق بهم أمام أسوار مدينة دمشق، ولكن لويس وكونراد رفضا المشاركة في حصار عسقلان ، ولم تذكر المصادر أسباب رفضهما ، وربما يرجع السبب في ذلك إلى الكراهية المتبادلة بين رجال الحملة الصليبية الثانية والصليبيين المقيمين ببلاد الشام ، الأمر الذي لم يجعل الاقتراح يوضع موضع التنفيذ[١].

لم يبق الإمبراطور كونراد في فلسطين مدة طويلة بعد عودة من حصار دمشق بل توجه إلى القسطنطينية لحضور حفل زفاف أخيه هنري على ابنة أخي مانويل كومنين ثيودورا في محاولة للهرب من حزن الهزيمة والاندماج في مراسم الاحتفال بالزفاف، وفي شباط سنة ١١٤٩ غادر الإمبراطور كونراد القسطنطينية عائدًا إلى وطنه[٢] ، فمكث الملك لويس السابع في مملكة بيت المقدس مدة سته أشهر بعد رحيل كونراد الثالث بعيد الفصح في القدس[٣]، أما الملكة إليانور فكانت غاضبة بسبب تأجيل لويس للرحيل، فكانت ترغب في العودة ومغادرة الأراضي المقدسة لتبتعد عن زوجها الذي تكرهه والذي كان سبب حزنها وكآبتها[٤].

يتضح مما سبق أن سقوط إمارة الرها في قبضة عماد الدين زنكي عام ١١٤٤ قد أثار موجة من الفزع في الأوساط الأوروبية، مما شكل الدافع الرئيسي لانطلاق الحملة الصليبية الثانية، وفي ذلك السياق، برز الدور المحوري لإليانور في الإعداد للحملة والمشاركة فيها، غير أن مرافقتها لموكب ضخم محمل بالخزائن والأمتعة شكل عبئاً لوجستياً ثقيلاً على القوات الصليبية، وخلال رحلتها، أبدت إليانور انبهاراً شديداً بما شهدته في القسطنطينية من كنائس وعمارة فريدة، ومع انتقال الحملة إلى الشرق، تكشفت تداعيات خطيرة على الصعيدين العسكري والشخصي، فقد شهدت العلاقة بين إليانور وزوجها الملك لويس توتراً حاداً إثر التقارب المثير للجدل بينها وبين عمها ريموند دي بواتييه، حاكم أنطاكية، وقد دفع تلك الوضع الملك لويس إلى الرفض القاطع لمساندة ريموند في مساعيه للاستيلاء على حلب، مما أثار غضب إليانور ودفعها للمطالبة بالطلاق رغبةً في البقاء إلى جانب عمها، وعلى الصعيد الاستراتيجي، منيت الحملة الصليبية بفشل ذريع نتيجة تضافر عدة عوامل، أبرزها غياب القيادة الموحدة، وتصاعد حدة الانقسام والشكوك بين قادة الجيشين الفرنسي والألماني، كما أسهم ضعف التنسيق مع البيزنطيين، الذين توجسوا خيفة من الأطماع التوسعية الأوروبية، في تكبد الحملة خسائر فادحة حتى قبل وصولها إلى القدس، وتفاقمت الأزمة نتيجة سوء التخطيط العسكري والسياسي المتمثل في توجيه الهجوم نحو دمشق - التي كانت حليفة للصليبيين - بدلاً من استهداف حلب أو الرها، وذلك في ظل تنامي قوة الإمارات الإسلامية، وفي النهاية، ألقى ذلك الفشل الذريع بظلاله على العلاقة الزوجية، حيث تعمقت مشاعر الكراهية والاحتقار لدى إليانور تجاه الملك لويس، محملة إياه مسؤولية الإخفاق لضعف شخصيته وافتقاره للحنكة العسكرية.

---

[١] وليم الصوري، المصدر السابق، ص ٣٢٠ .

[٢] ستيفن رانسيمان ، المصدر السابق ،ص ص ٤٥٨ – ٤٥٩ .

[٣] وليم الصوري، الحروب الصليبية، المصدر السابق ، ص ٣٢١ .

[4] Meade, op.cit., p.118; Weir,op.cit.,p. 69.

٤. عودة لويس السابع إلى فرنسا والمخاطر التي واجهها.

استطاع الاب سوجر ضبط أوضاع فرنسا، وأحوالها في مدة غياب ملكها لويس السابع في الشرق، وتميزت إدارته بالمثالية، فاستطاع أن يتغلب على كل الصعوبات التي واجهت فرنسا بمنتهى الحكمة والرشد، وذلك باعتماده على مجلس من الأساقفة والنبلاء، ونتيجة لتحسين إدارته المالية، فقد تمكن من تأمين حاجات الحملة الفرنسية الصليبية دون الضغط على الشعب، كما استخدم الدبلوماسية في أنشطة انتخابات الأساقفة[١] .

استمر الجفاء بين الملك لويس وإليانور منذ وجودهم في أنطاكية ولم ينته وظلت علاقتهم متوترة، إذا كان الملك لويس متأثرًا بشدة بتجاربه خلال الحملة الصليبية الثانية، حتى أنه قضى ساعات طوال ورأسه منحنيًا للصلاة وحلق لحيته على طريقة الكهنة، علقت الملكة إليانور قائلة: **"أنا متزوجة من راهب، وليس ملكًا"**، فشعر الملك لويس باليأس التام من إنقاذ زواجه، ومرة أخرى، وافق على إنهاء الزواج بمجرد عودتهما إلى فرنسا، لكن سوجر حذر الملك وذكّره بأنه سيخسر أكيتاين الثمينة، وعلاوة على ذلك، إذا تزوجت الملكة إليانور مرة أخرى وأنجبت ابنًا، فستضيع أكيتاين إلى الأبد، وينصحه بضرورة تأجيل مشاكلة مع زوجته حتى يعود إلى فرنسا، كان نصائح سوج منطقية بالنسبة للملك لويس، وغير رأيه مرة أخرى[٢].

كتب سوجر إلى الملك لويس أكثر من مرة يطلب منه العودة إلى فرنسا[٣] ، وبسبب الحاح الأخير غادر الملك لويس مملكة بيت المقدس في أوائل صيف عام ١١٤٩ بعد الاحتفال بعيد الفصح في الأرض المقدسة، عائداً إلى فرنسا على متن سفينتين صقليتين، في وقت كانت العلاقة مع إليانور ما زالت متوترة مما جعلها تبحر هي ورفيقاتها في سفينه خاصة بهن بينما أبحر لويس مع مستشاره تيري غاليران على متن سفينة أخرى[٤]، وخلال رحلة العودة، التحقت سفينة الملك بأسطول نورماني بالقرب من سواحل شبه جزيرة البلوبونيزPeloponnese[٥]، إلا أن هذا الأسطول تعرض لهجوم مباغت من قبل البحرية البيزنطية عند رأس ماليه Malea، ولتجنب تداعيات هذا الهجوم، بادر الملك لويس برفع العلم الفرنسي على سفينته، مما أمن له عبوراً سالماً ومتابعةً لرحلته بسلام، وعلى الرغم من ذلك، نجحت القوات البيزنطية في الاستيلاء على سفينة أخرى كانت تقل عدداً من أتباع الملك ومقتنياته، وهي الغنائم التي لم يوافق الإمبراطور مانويل على إعادتها إلى فرنسا إلا بعد مرور عدة أشهر، وتجدر الإشارة إلى أن الملكة إليانور قد وقعت في الأسر خلال تلك الأحداث المضطربة، بيد أنه تم إطلاق سراحها في وقت قصير لتكمل طريقها[٦].

---

[١] نور الدين حاطوم ، المصدر السابق ، ص ٨١٥ .

[2]Meade, op.cit., p.121.

[3] Weir,op.cit.,p. 69 .

[٤] ستيفن رانسيمان، المصدر السابق، ص٣٣٠- ٣٣١ .

[٥] وهي عبارة عن شبة جزيرة تكون الجزر الجنوبي من اليونان حالياً .يراجع : ستيفن رانسيمان، المصدر السابق، ص ٣٣١ .

[6]Perry, Op. Cit., P. 511.

لم تنته مشاكل إليانور ولويس في عرض البحر عند هذا الحد، فقد تشتت سفينتيهما وانقطاع سبل التواصل بينهما تماماً، فقد ظل الملك لويس تائهاً في البحر يصارع الأمواج إلى أن تمكن أخيراً من بلوغ سواحل كالابريا في جنوب إيطاليا بتاريخ ٢٩ تموز عام ١١٤٩، ولم يستطع الوصول إلى مكان الملكة إليانور ومعرفة إن كانت على قيد الحياة أم لا ، في تلك الأثناء، استمر الغموض يكتنف مصير إليانور لقرابة الشهرين، حتى نجح مبعوثو روجر الثاني ملك صقلية، في العثور عليها واقتيادها بأمان إلى مدينة باليرمو Palerom الصقلية، وعقب نزولها من السفينة، كانت الملكة تعاني من حالة شديدة من الإعياء والمرض، مما حتم عليها الخضوع لمدة من الراحة والنقاهة لتسترد عافيتها قبل استئناف رحلتها الشاقة للالتحاق بزوجها في إيطاليا، وتقديراً للموقف، بادر الملك روجر بإرسال رسله إلى الملك لويس ليبث في نفسه الطمأنينة بشأن سلامة إليانور، مؤكداً له أنه سيتولى ترتيبات إرسالها إليه في أقرب وقت ممكن فور تماثلها للشفاء واستعادتها لقوتها [١].

وعندما علم لويس بمرض إليانور قلق عليها بشدة وانتظر وصولها مدة ثلاثة أسابيع، وقد كتب إلى الأب سوجر يخبره بما يكنه من تقدير واحترام لملك صقلية، وأنه تلقى منه رسالة يطمئنه بها على إليانور وأنها محل تكريم الملك روجر:**"وما تلقيناه منه من رسائل عبر الرسل تعبر عن تكريم رائع لزوجتنا فنحن في انتظار وصول الملكة"**[٢]، وعندما وصلت أبحرا أخيرا إلى كالابريا بعد أن تعافت تماماً وشعر لويس بالراحة[٣] ، التقى لويس السابع وزوجته إليانور بالملك روجر الثاني في بوتزا potenza ، واقترح روجر على لويس القيام بحملة صليبية جديدة للانتقام من بيزنطة ، ووافق لويس ومستشاروه على الاقتراح بسهولة، وقام لويس بتتويج روجر ملكاً على صقلية ثم واصل رحلته إلى فرنسا، وبرحيل لويس من القدس طويت صفحة الحملة الصليبية الثانية عام ١١٤٩[٤].

وفيما كانت إليانور تيمم وجهها شطر كالابريا للحاق بزوجها لويس، فُجعت بنبأ مقتل عمها ريموند دي بواتيه إثر الهجوم الكاسح الذي شنه القائد المسلم نور الدين زنكي على أنطاكية، وقد أسفرت تلك الحملة عن مقتلة عظيمة في صفوف الفرنجة، كان من أبرز ضحاياها صاحب أنطاكية ريموند نفسه، الذي ابتهج المسلمون بمصرعه ابتهاجاً عظيماً، وصل إلى حد إرسال رأسه وذراعه الأيمن في صندوق إلى الخليفة العباسي المقتفي لأمر الله (١١٣٦-١١٦٠) في بغداد، احتفاءً بالنصر وتأكيداً على هلاك أحد أعتى قادة الفرنجة وأشدهم بأساً [٥]، ولم يقتصر وقع ذلك الخبر الأليم على الحزن العميق الذي اعتصر قلب إليانور فحسب، بل إنه فجّر موجة عارمة من السخط تجاه زوجها لويس، مُحمّلة إياه وزر تلك المأساة لتقاعسه ورفضه نجدة عمها، وإذا كانت مشاعر النفور والعداء التي أضمرتها إليانور

---

(1) Meade, op.cit.,p. 121

(2) Meade, op.cit., p. 121; Owen, op.cit., p. 28.

(3)Meade, op.cit,PP. 121 – 122،

(٤)وليم الصوري ، الحروب الصليبية ، ج٣ ، ص ٣٢١ .

(٥) سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص ٦٣٨؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٢ ، دار الحديث ، القاهرة ٢٠٠٦، ص٢١١- ٢١٢.

لزوجها طوال الثمانية عشر شهراً المنصرمة -منذ إرغامها قسراً على مغادرة أنطاكية- قد بلغت مبلغاً كبيراً، فإنها تضاءلت وتلاشت أمام حجم الكراهية التي اجتاحتها عقب علمها بتلك الفاجعة، مما رسخ قناعتها وحسم قرارها بشكل نهائي بضرورة الطلاق وانفصام عرى تلك الزيجة[١].

التقى الزوجان لويس وإليانور في إيطاليا بالبابا إيجين الثالث في ١٩ تشرين الأول ١١٤٩، حيث رحب بهما بحنان أثناء إقامتهما، حينها أدرك البابا أن لويس يعاني من الخزي والعار بعد فشل حملته على الشرق، لذلك تصرف بلباقة وذكاء ولم يوجه إلى الملك أي لوم أو توبيخ، وأدرك منذ البداية أن زيارة هذا الملك الذي كانت علاقته مع البابوية دائما مضطربة وراءها أسباب خفية، لاسيما أن إليانور هي أيضاً كانت خارجة عن طاعة الكنيسة ولا تلتزم بمبادئها، لذلك فلم يكن هدفها مناقشة أحداث الحملة الصليبية ولا سبب فشلها، وإنما تحكيمه في قضية طلاقها[٢].

عرض كلّ من الملك لويس السابع والملكة إليانور مشاكلهما الزوجية أمام البابا إيجين الثالث بشكل منفرد، فبينما أفصحت إليانور عن تعاستها من ذلك الزواج، شكا لويس من سلوكيات زوجته في أنطاكية وميلها إلى اللهو والمرح الصاخب، مُقراً في الوقت ذاته بحبه العميق لها، وقد لمس البابا في لويس تعلقاً عاطفياً كبيراً وشبه طفولي بزوجته، مما دفعه لرفض فكرة إبطال الزواج، آمراً إياهما بالسعي لاستعادة الود بينهما[٣].

وعلى الرغم من نفور إليانور المعتاد من رجال الدين، إلا أنها اضطرت لتصنّع الاحترام أمام البابا لكسب تأييده، متجاوزة الأسباب الحقيقية لطلب الطلاق المتمثلة في البرود العاطفي، ومركزة بدلاً من ذلك على ذريعة "قرابة الدم" والحرمة الشرعية، مستشهدة بعدم إنجابها لولي عهد ذكر دليلاً على الغضب الإلهي، إلا أن البابا إيجين لم يقتنع بتلك الحجج، فأفتى بصحة الزواج وشرعيته، وحظر عليها المطالبة بالطلاق مجدداً، ولم يكتفِ البابا بالجانب الفقهي، بل سعى عملياً لرأب الصدع بين الزوجين، إذ جهز لهما مخدعاً خاصاً مزيناً بستائره الثمينة وألزمهما بقضاء الليلة معاً، فرضخت إليانور للأمر الواقع، وأسفرت تلك الليلة عن حملها بابنتها الثانية أليس[٤].

غادر لويس وإليانور توسكولوم Tusculum في الصباح التالي بعد أن باركهم البابا وأمطرهم بالهدايا وأرسل معهم مرافقين من الكرادلة، وإذا كان كل من إليانور ولويس قد وصلا إلى توسكولوم وهم في خصومة شديدة فقد تركوها وهم في خصومة أشد، وإن كان لويس قد حاول من ناحيته إصلاح نفسه وتصرفاته مع إليانور، بعد ذلك توجها إلى فرنسا حيث بدأ رحلة شاقة فعبرا جبال الألب وقبل أن يصلوا إلى باريس بعدة أيام قدم إليهما الأب سوجر لمقابلة الملك لويس وأخباره بالمؤامرات التي دبرت ضده أثناء غيابه في الشرق[٥].

---

(1)Weir,op.cit.,p.71.
(2)Meade, op.cit., p.124.
(3)Swabey, op.cit., p. 23.
(4)Swabey, op.cit., p. 23; Owen, op.cit., p 28.
(5)Owen, op.cit., p. 28.

ثانياً. بداية الصـــراع بين الملكين لويس السابع وهنري الثاني ١١٥٢ – ١١٦٢:

يُعد الصراع المبكر بين العاهلين، الفرنسي لويس السابع والإنكليزي هنري الثاني، وتحديداً في المدة الممتدة بين عامي (١١٥٢ - ١١٦٢)، محطة مفصلية في تاريخ السياسة الفرنسية، إذ رسمت تلك الحقبة ملامح التنافس الأنجلو- فرنسي الذي امتد لعقود لاحقة، وتنبثق أهمية هذا الطرح من تتبع التداعيات المعقدة التي أعقبت الإخفاق العسكري والسياسي لملك فرنسا في الحملة الصليبية الثانية، وهو الإخفاق الذي أفضى إلى شرخ عميق انتهى بفسخ زواجه من إليانور أكيتاين، لم يكن زواج الأخيرة السريع والمفاجئ من هنري بلانتاجنت مجرد تحول عائلي، بل شكل زلزالاً سياسياً قلب موازين القوى، إذ تحول هنري من تابع إقطاعي للتاج الفرنسي إلى خصم لدود يسيطر على مساحات شاسعة من الأقاليم الفرنسية، قبل أن يُتوج نفوذه باعتلاء عرش إنكلترا، وفي سياق ذلك التحول تبنا الملك لويس السابع سياسة نسج التحالفات والمصاهرات السياسية المضادة مع القوى الناقمة، مروراً بالنزاعات الدبلوماسية والعسكرية المحتدمة، ولاسيما الصدام الكبير حول دوقية تولوز، والنزاع الاستراتيجي على إقليم فيكسن. ومن خلال استقراء هذه الوقائع، تتجلى بوضوح طبيعة التداخل المعقد بين الروابط الإقطاعية والمطامح التوسعية، وكيف أسهمت تلك التجاذبات الممزوجة بالدهاء الدبلوماسي والمناورات العسكرية في إعادة تشكيل خارطة النفوذ في أوروبا الغربية خلال العصر الوسيط، مؤسسةً بذلك لمرحلة صراع طويلة ومريرة بين التاجين، وهي المرحلة التي انطلقت شرارتها الأولى والأكثر تأثيراً مع التحول الجذري في ولاء دوقية أكيتاين.

١. زواج الملكة إليانور من الملك هنري الثاني وتداعياته.

بدأت إليانور حياتها من جديد واستئنافها لدورها السابق كدوقة لأكيتاين، وبحلول عيد الفصح، وبعد عودتها سالمةً إلى منزلها في بواتييه، قامت بإرسال إشعارات إلى كبار أتباعها لإبلاغهم بطلاقها وطلبت منهم تقديم الولاء والقسم لكونتيسة بواتو ودوقة أكيتاين، وتجديد المنح والامتيازات لمختلف رؤساء الأديرة، إذ بدا جلياً أن الشاغل الأكبر لإليانور في تلك المرحلة تمثل في تصميمها القاطع على تطهير أكيتاين من أي هيمنة للعرش الفرنسي، فإلى جانب طرد موظفي الملك لويس وإجلائهم من أراضيها، لم تكتفِ بتلك الإجراءات، بل مضت نحو خطوة أكثر حزماً أعلنت من خلالها الإبطال الفوري لجميع المراسيم والقرارات السابقة، سواء تلك التي صدرت بمشاركتها مع الملك لويس أو التي انفرد هو باتخاذها[١].

بدأت إليانور تستعد لتنظيم شؤونها الخاصة والتخطيط لتحقيق هدفها الجديد في الزواج من هنري بلانتاجنت، لكن لسوء الحظ كان وضع إليانور وهنري حساسًا وحرجاً للغاية بوصفهما أتباعاً إقطاعيين تابعين للويس، حيث كان يتطلب البروتوكول الإقطاعي منهما الحصول على موافقته قبل الزواج، وكانت إليانور تعرف جيدًا مشاعر الكراهية التي يكنها زوجها السابق

(1) Meade, op.cit., p.150.

لويس لهنري بلانتاجنت ذلك الشخص الذي فضلته إليانور عليه، والذي رأت أنه بزواجها منه يمكنها الانتقام منه بعد أن عاشت معه خمسة عشر سنة في سأم وكراهية ، فاعتقدت أنه بزواجها من هنري سوف توجه ضربة مؤلمة للملك لويس السابع[١].

لم يكن موافقة لويس على الزواج هي المشكلة بل إن العقبة الرئيسة والخطرة تتمثل في احتمال قيام الملك لويس وجيشه بالهجوم على أكيتاين بعد أن يعلم بذلك الزواج، لذلك ونتيجة للأسباب السالفة أحاطت إليانور إجراءات زواجها بسرية تامة وظلت اتصالات إليانور بهنري موضع تخمين لدى كثير من المؤرخين[٢].

في منتصف شهر آيار من عام ١١٥٢، وفي خطوة متسارعة أعقبت طلاقها بثمانية أسابيع فقط، بادرت إليانور بمراسلة هنري لتطلعه على مستجدات وضعها، مما دفعه للتوجه فوراً إلى بواتييه بصحبة نفرٍ من رفاقه، حيث وصل في الثامن عشر من الشهر ذاته، وقد عُقد القران في كنيسة القديس بيير **Pierre** ضمن مراسم اتسمت بالهدوء والسرية التامة، مقتصرةً على حضور المقربين فقط، وغابت عنها مظاهر البهجة والأبهة المعتادة في زيجات الشخصيات البارزة، ولم يكن ذلك التكتم عبثياً، بل جاء كإجراء احترازي لضمان تمرير عقد الزواج شرعياً، إذ تكمن المفارقة التاريخية في أن صلة القرابة التي تجمع إليانور بهنري- إذ يلتقيان في جدهما المشترك روبرت الثاني **Robert II** (١٠٥٠- ١١٣٤) دوق نورماندي-، كانت أوثق من تلك التي ربطتها بطليقها لويس، مما تطلب وجود خبراء قانونيين لإضفاء الشرعية على تلك الزيجة[٣].

شكّل نبأ زواج إليانور من هنري صدمةً نزلت كالصاعقة على الملك الفرنسي لويس السابع، الذي تملكته دهشةٌ بالغة إزاء التناقض الصارخ في موقف طليقته، إذ كيف لها أن تتذرع سابقاً بقرابة الرحم وتقطع المسافات الطويلة من أنطاكية لفسخ زواجها منه مستندةً إلى ورعها المزعوم، لتقدم بعد ذلك مباشرة على الزواج بمن هو أقرب إليها دماً، متجاوزةً بذلك التحذيرات الكنسية السابقة التي أطلقها القديس برنارد بخصوص حرمة هكذا زيجات [٤]، لذلك أحدث نبأ زواج إليانور من هنري بلانتاجنت صدمة سياسية مدوية هزت أركان البلاط الفرنسي، إذ وجد الملك لويس السابع نفسه أمام واقع جديد تحول فيه تابعه بالأمس إلى منافس قوي، مما جعل مستشاريه يدركون فداحة الخطأ الاستراتيجي الذي ارتكبوه بتشجيعهم إياه

---

(1) Meade, op.cit., p.150.

(٢)يذكر بعض المؤرخين إنه من المحتمل أن يكون الدوق هنري قد قابل الملكة اليانور مرة واحدة، وذلك عندما كان في حضرة الملك لويس السابع يقسم له يمين الولاء من أجل دوقية نورماندیا، ومن الواضح أنها انجذبت إليه فبدأت التمرد على زوجها، وكانت تعرف والده الدوق جيفري أفضل مما تعرفه، وأن هنري عندما تزوج منها كان أصغر منها بأحد عشر عاماً، يراجع :

Brooke, Zachary Nugent, A History of Europe from 911 to 1198, Methon Publishing House, London, 1938, p.313.

(3)Rachel A. Koestler,op,cit,pp. 63-64.

(4)Gervase of Canterbury, opera Historica, history of the reigns of Stephen, Henry II and Richard I Vol., 1, Cambridge University Press, 2014, p. 149; Rachel A. Koestler,op,cit,pp. 63-64.

على الانفصال، مستحضرين بأسف تحذيرات المستشار سوجر التي لم تجد في السابق أذناً صاغية، ولم يقتصر صدى ذلك الحدث على الصدمة النفسية، بل دفع لويس - مدفوعاً بالغضب والرغبة في الانتقام- إلى اتخاذ أسرع قرارات حياته بشن هجوم على إقطاعات هنري، مستغلاً حالة السخط التي عمت أرجاء أوروبا وتلاقي مصالحه مع جبهة واسعة من المتضررين والناقمين، فقد انضم إلى ذلك الحلف الانتقامي كلٌ من جيفري بلانتاجنت، شقيق هنري، الذي كان ساخطاً لضياع فرصة زواجه من إليانور وتهميش حصته من الإرث بثلاث قلاع فقط، وهنري أوف شامبين **Henry of Champagne**(١١٦٦- ١١٩٧) الذي تبددت أحلامه بالسيطرة على دوقية أكيتاين بعد أن كان يطمح لنيلها عبر زواجه من ماري ابنة إليانور، وصولاً إلى يوستاس ابن الملك ستيفن، الذي استشعر خطراً داهماً يهدد طموحه في اعتلاء عرش إنكلترا أمام تعاظم نفوذ هنري الذي بات يسيطر على نصف فرنسا، وهكذا تلاقت مصالح تلك الأطراف وتوحدت جهودهم للانتقام من الخصم المشترك[١].

عقد الملك لويس اجتماعا طارئاً في بلاطة مع مستشاريه لبحث وإيجاد حل أمام تلك الأحداث واتخاذ القرار والعقاب الرادع لهذين الزوجين الخائنين، إذ اقترح مستشارو لويس ضرورة إعلان الحرمان الكنسي ضد الزوجين وطبقاً لذلك أرسل لويس مذكرة يطلب الزوجين للمثول أمامه في البلاط الفرنسي لرد التهم المنسوبة إليهما ، غير أن الزوجين قابلا الأمر الملكي بتجاهل تام وامتنعا عن الحضور، حيث أدى ذلك التحدي السافر إلى تأجيج غضب الملك، مما جعله يدرك حتمية اللجوء إلى تدابير عملية صارمة لمواجهة ذلك التمرد وإخضاعهما[٢].

وفي أثناء خروج هنري في طريقه إلى انكلترا وبعد عيد القديس يوحنا ١١٥٢ خرج الملك لويس ومعه يوستاس والكونت روبرت دي بيرشي **perche** ، وهنري كونت شامبين، وجيفري أخو الدوق هنري على رأس جيش كبير لتجريد هنري من نورماندي، وأنجو وأكيتاين، ومن جميع ممتلكاته الأخرى في فرنسا، واتفقوا على تقسيمها فيما بينهم، وتم الاجتماع لذلك الغرض في قلعة نوفمارشي **Neufmarche** التي تقع على الحدود بين مين وأنجو وفرضوا عليها حصاراً ، وأرسلوا جيفري أخو هنري على رأس قوة كبيرة لحصار أنجو، وما أن علم هنري بذلك زحف من باربيفلور **Barbefleure** شمال غربي فرنسا من أجل رفع الحصار عن القلعة، ولكن قبل وصوله وجد أن سكانها قد استسلموا للويس بعد خيانة رجال حاميتها، وقد قام لويس بإهداء تلك القلعة ليوستاس الذي تزوج من اخته فيما بعد[٣].

---

(1)Seward, op.cit., P.71; Kelly, op.cit., p.82; Meade, op.cit., pp.153-154.

(2)Jarvis Canterbury, The Historical Works of Jarvis Canterbury, edited by William Stubbs, Volume 1, Longman Press, London, 1879, p. 149.

(٣) سهيل زكار، المصدر السابق، ص ٨٦ ؛ روجر أوف ويندوف، المصدر السابق، ص ١٧١.

وهكذا كانت العلاقات بين الملك لويس وهنري الثاني قبل اعتلائه العرش في طريقها إلى الصدام المسلح، إذ استطاع الدوق هنري أن يقيم معسكره بالقرب من أنديل **Andelle** ونهب نصف فيسكين الواقعة بين نهرين ايكا **Icca** واندیل، وهي منطقة تابعة لنورماندي، وكان والد هنري جيفري قد أعطاها للملك لويس بشكل مؤقت، وعندئذ أحرق هنري العديد من القلاع المعادية له والتي كان من أهمها باسكرفيل **Baskerville**، وشيترى **Chitrey** ، وستيربيني **Stirpiney** ، وهي قلاع كانت تحمى أعداءه لوقوعها على الحدود بين نورماندي وأملاك السلطة الملكية إلى جانب قلعة هيو دي جورني **Hugh de Gornay**، التي تسمى لافيرى **La ferter** لرفض صاحبها تقديم الخدمات هنري، فضلاً عن قلعتي بروبول **Brueboles** وفيل **Vill** ، ثم دخل إلى دوقية نورماندي، حيث ألحق أضرارا بالغة بريتشارد دي أكويلا **Richard de Aquila** المتعاون مع أعدائه وأحرق قلعة بونفيل **Bonnville** ، ومن ثم توجه إلى أنجو وأرغم أخيه على الاستسلام[١]، واثناء تواجد هنري في دوقية أنجو، قام الملك لويس بمهاجمة دوقية نورماندي، وأحرق بعض القلاع أهمها، بورج ريجيولا **Bourg Regulia**،وخلال سته أسابيع كان هنري قد دمر كل أعداءه ومعارضيه[٢]، وفي تلك الاثناء مرض الملك لويس بالحمى وعاد إلى فرنسا وهو يشعر بالندم والحسرة على أكيتاين التي كان يراها ميراثاً شرعياً لابنتيه ماري وأليس[٣]، وما لبثت الوساطة أن تدخلت لعقد السلام بين الطرفين، فعبر هنري الثاني إلى دوقية نورماندي، ومن هناك ذهب إلى ملاقاة الملك لويس السابع ملك فرنسا، من أجل كسر حاجز العداء الموجود بينهما منذ عام ١١٥٢، ولتقديم فروض الولاء والطاعة من أجل دوقية نورماندي، وأنجو، ومين، واكوتين وتورين **Touraine** وكان معه كبار الأمراء الإنكليز[٤].

استغلت إليانور فرصة وجود هنري معها في بواتييه لكي تطلعه على كل الدوقية ليتعرف على أملاكها واقعياً، ولكي تقدمه إلى أتباعها الذين كانوا وعلى الرغم من حبهم لها لا يحترموا زوجها الأول لويس السابع وتهديداته التي لم تؤثر على استقلالهم، كما أن البارونات التابعين لها قابلوا هنري ببرود شديد عندما قدمته لهم مما اضطرها إلى الرضوخ لإرادتهم وهي عدم تقديم الولاء والتبعية له لأنه لا يزيد عن كونه زوجاً لدوقتهم، ومع ذلك توقعت إليانور أن موقفهم من زوجها سوف يتغير، وأن كراهيتهم له سوف تذوب بمرور الوقت وهم في النهاية لم يكن لديهم أي اختيار سوى قبوله[٥].

وقبل أن يغادر هنري اكتاين طلب من إليانور أن تقيم في قلعة أنجري **Angres** وهي العاصمة الأصلية لأجداده الأنجفيين، لكن من المحتمل أن إليانور كانت تقضي جزءاً من

---

[١] روجر أوف ويندوف، المصدر السابق ، ص ١٧٢ .

[2]Lavisse, Ernest, Histoire De France, 3 vol. (Paris, 1901),p.30; Robert of Torigni, Records of the Reigns of Stephen, Henry II and Richard I, edited by Richard Howlett, Rawls Series, Volume IV, Longman, London, 1889, p.165 .

[3]Meade, op.cit., p.153; Kelly, Eleanor, op.cit., p. 83.

[4] Owen, op.cit., p .32; Seward, op.cit., p. 72.

[5] Meade, op.cit., p p.155-157.

وقتها في بواتيية ، وأوكلت بدورها لخالها راؤول دي فاي **Raoul de Faye**(١١٠٠ - ١١٩٠) على إقطاعها في أكيتاين خلال غيابها كذلك فقد جعل هنري والدته مسؤولة عن نورماندي ليضمن الحفاظ على سلام إقطاعاته في غيابه، وحتى لا يتكرر ما حدث معه في السابق مع الملك لويس السابع[١].

تطورت الأحداث السياسية في انكلترا في تلك الأثناء، فقد أراد الملك ستيفن بعد أن بلغ السادسة والستين من عمره، وبعد سبعة عشر عاماً من حكمه أن يتوج ابنه البكر يوستاس على انكلترا بعد أن أحس بالخطر من ناحية هنري، وكان عازماً على استكمال الاجراءات القانونية والمراسيم الشرعية التي يتطلبها ذلك الأمر، متجاهلاً سوء سمعة ولده، وقسوته المفرطة مع أتباعه الإقطاعيين، فضلاً عن ذلك أن يوستاس شخص مقيت وغير محبوب من أغلب القوى المتنفذة في انكلترا ، ويبدو أن هدف الملك ستيفن من جعل ابنه ملكاً حقيقياً على حياته لضمان وراثة العرش خوفاً من أن يحدث معه ما فعله هو ورئيس الأساقفة وليم كوربيل مع ماتيلدا عندما أقسموا لها بالولاء وبعد وفاة ولدها الملك هنري الأول اغتصب العرش وحنث باليمين بل وأقنع رئيس الأساقفة وليم كوربيل على الاعتراف بهِ والتنكر من القسم لماتيلدا[٢].

كان من أبرز المشكلات التي لم يستطع الملك ستيفن حلها رفض الكنيسة طلبه، لأنها رأت أنّ الملك ستيفن قد استولى على عرش انكلترا بصورة غير شرعية[٣]، وقد أثار ذلك غضب الملك ستيفن من ردة فعل الكنيسة تجاه تتويج ابنه، فأمر بسجن رجالها في أحد المنازل وجردهم من ممتلكاتهم، وأرغمهم تحت التهديد بأن يفعلوا ما يأمرهم بهِ، إلا أنهم صمدوا على موقفهم، وبعد مدة أطلق سراحهم دون أدنى أذى، ورد إليهم ممتلكاتهم بعد أن أعلن توبته عن معاداة الكنيسة وأسقفيتها[٤].

أبحر هنري الثاني إلى انكلترا على رأس أسطول مكون من ٣٦ سفينة و ١٤٠ من الفرسان وثلاثة آلاف جندي، ومع ذلك لم يحصل على مراده، إلا أن الأوضاع بدأت تتطور لصالحه، فقد توفى في عام ١١٥٣يوستاس ابن ستيفن ملك انكلترا فجأة في منتصف آب أثناء تناول وجبة العشاء[٥]، وكان ذلك هو الخيط الذي أوصل هنري لحكم انكلترا، وفي العام نفسه ولدت إليانور ابنها الأول الذي أطلقت عليه اسم وليم **William**، وقد ابتهجت لولادته، فإلى جانب سخريتها من زوجها السابق لويس بإهدائها هنري وريثاً ذكراً، فقد كان لذلك الطفل امتيازاً سياسياً هو حجبه أية مصادرة من لويس سيدها الأعلى على أملاكها، إلا أن ذلك

---

(1) Ibid, p 158; Seward, op.cit., P. 73.

(2) Edmund King, King Stephen, New Haven, 2010, p.253 – 255.

(٣) نور الدين حاطوم ، المصدر السابق ، ص ٨١٧ ؛ سهيل زكار، المصدر السابق ، ص ٨٦.

(٤) يراجع حول صراع الملك ستيفن وهنري الثاني: موج سلام قلم ، المؤامرات والتمردات المضادة لعرش إنكلترا ١٠٦٧- ١٢٦٧، رسالة ماجستير، جامعة واسط ، كلية التربية للعلوم الإنسانية، ٢٠٢٤، ص ٧٤ .

(٥) على الرغم من ان وفاة يوستاس كانت بسبب السمك الفاسد الذي تناوله ، لكن مؤرخي القرن الثاني عشر أرجعوا وفاته إلى أنها عقاب الله الذي كان يعمل لصالح قضية هنري بلانتاجنت .

William Hunt, The English Church in the middle ages, London ،1888, p.112; Allen C. Thomas, A.M., Op. Cit., p.66.

المولود توفى وهو في المهد[١]، وفي العام نفسه عقد الملك ستيفن والدوق هنري في مدينة وينشستر**Winchester**[٢] معاهدة في وولنغفورد **Wallingford** جاء في مضمونها: **بفضل عدالة السماء رئيس أساقفة كانتربري ثيوبالد** Theobald **(١٠٩٠ - ١١٦١) وأساقفة المملكة، بما أن الملك ستيفن محروم من الورثاء باستثناء الدوق هنري فقط، لذلك جرى الاعتراف خلال اجتماع كامل للأساقفة مع نبلاء المملكة الآخرين بأن يكون هنري دوق نورماندي خليفة لستيفن في حكم انكلترا، والاعتراف بهِ من قبل جميع الأساقفة ونبلاء المملكة، ووافق هنري أن يتمتع ستيفن بكامل الحرية في السلطة على انكلترا حتى وفاته على شرط أن يقسم الملك والأساقفة والنبلاء على أنه بعد وفاة ستيفن، يتولى هنري سلطة انكلترا بدون عقبات، وعلى ذلك افترق الملك والدوق بكل حب وسلام**[٣] .

وفي عام ١١٥٤ عاد هنري إلى نورماندي وسط استقبال حافل من والدته ماتيلدا وجميع شعب نورماندي، وتابع حكمه على المقاطعات التي ورثها عن والده، ومن نورماندي عقد هنري اتفاقية مع الملك لويس السابع، تعهد فيها لويس أن يعيد لهنري فيرتويل **Verneuil** ونوفمارشي، ودفع هنري للويس ألفي مارك تعويضاً عن نفقات أخذ وحفظ وتحصين هاتين القلعتين[٤] .

احتاج لويس أن يتحالف مع حلفاء جدد هذا فضلاً عن حاجته لوريث ذكر فقد بلغ سن الرابعة والثلاثين دون أن يتحقق له ذلك الأمل، فتحالف مع ريموند الخامس **Raymond** كونت تولوز وذلك بعد زواجه من أخته كونستانس أرملة يوستاس، ومن ثم قرر الذهاب للحج إلى سانتياغو دي كومبوستيلا، وهناك تزوج ابنة الفونسو السابع **Alfonso Vil** ملك قشتالة كونستانس **Constance** (١١٣٦- ١١٦٠) التي كانت تبلغ من العمر ثمانية عشر سنة، وتحالف مع والدها ضد هنري[٥]، وفي العام نفسه ١١٥٤ وتحديدًا في يوم الخامس

---

[١] روجر أوف ويندوف، المصدر السابق ، ص١٧٦ – ١٧٧.

Mead, op.cit., p 158; Owen op.cit., p 34.

[٢] تقع في انكلترا جنوب التون Alton ، واتخذها الملك الفريد العظيم Alfred the Great عاصمة له ودفن بها، وهي تمثل الجزء المركزي من مقاطعة Hampshire الإدارية والتاريخية في لندن، تأسست في البداية من لدن الشعوب سلتيك، كانت عاصمة Wessex و مركزا للتعلم وفي وقت لاحق كانت مقر حكومة الملك كانوت الدنماركية Canute بقيت تحت حكم الملوك النورمان حتى ظهور لندن عاصمة وحيدة في أواخر القرن الثاني عشر تشتهر وينشستر بكاتدرائيتها من القرن ١١ وحتى القرن ١٤ كانت مركزا فكريا لانكلترا حيث يوجد بها كلية وينشستر، التي تأسست عام ١٣٨٢ . يراجع:

Editorial Board, Encyclopædia Britannica, Encyclopædia Britannica Company, Chicago, USA, 2006, p. 2064; Editorial Board, Encyclopædia Britannica, Encyclopædia Britannica Company, 15th Edition, Chicago, USA, 1974, p. 669; Cortland Canby, Encyclopedia of Historic Places, Facts on File, New York, 1984, p. 1424.

[٣] روجر أوف ويندوف، المصدر السابق، ص ١٧٧ ؛ نور الدين حاطوم ، المصدر السابق ، ص ٨١٧ .

[٤] سهيل زكار، المصدر السابق ، ص ٩٢؛

Owen, op.cit., p .36.

[5] Bouchard, Constance , Those of My Blood: Creating Noble Families in Medieval Francia. University of Pennsylvania Press ,2001,p126; Jaritz, Gerhard; Szende,

والعشرين من تشرين الأول، توفي الملك ستيفن بعد حكم دام تسع عشرة سنة، وفور وصول الخبر لهنري خرج إلى انكلترا تاركاً وراءه والدته في نورماندي ومصطحباً معه زوجته إليانور، لكن لسوء الأحوال الجوية وشدة الرياح وأسباب أخرى تأخر وصولهم شهراً، وظلت انكلترا خلال تلك المدة بدون ملك، إلا أن أحوالها كانت مستقرة وغير مضطربة، وربما يعود ذلك لحبهم للملك الجديد أو لخوفهم منه[١]، وبوفاة الملك ستيفن انتهى حكم أسرة النورمان في انكلترا، وبدأ حكم أسرة بلانتاجنت التي وصل أول ملوكها هنري وزوجته إليانور وإخوانه والعديد من النبلاء إليها في الثامن من كانون الأول من عام ١١٥٤، وقد استقبلوا بحفاوة كبيرة من رجال الدين والعلمانيين، والشعب المتعطش لإصلاحات الملك الجديد[٢] .

ذهب هنري إلى لندن، وفي يوم الأحد ١٩ كانون الأول وقبل عيد الميلاد، توج ملكا تحت مسمى (هنري الثاني **Henry II**) وتوجت إليانور ملكة في كنيسة وستمنستر **Westminster** على يد ثيوبالد رئيس أساقفة كانتربري، وذلك بحضور رؤساء الأساقفة والأساقفة وبارونات كل من انكلترا ونورماندي وسط احتفال عام وهتاف من الحشود ليحيا الملك حياة طويلة[٣]، وبعد مرور شهرين من التتويج وضعت إليانور مولودها الذكر الثاني، التي أطلقت عليه اسم هنري الشاب (الأصغر) تيمنا وفخراً باسم والده[٤].

وبعد تتويج هنري الثاني مباشرة مارس سلطاته في انكلترا، فأصدر مرسوما ضد المرتزقة وأمرهم بالعودة إلى بلادهم، وعين لهم يوماً أذا لم يغادروا انكلترا خلاله سوف يعرضوا انفسهم للخطر، وأمر بهدم جميع القلاع التي لم تكن موجودة زمن جده هنري الأول، وعمل على هدم كل القصور الإقطاعية التي بنُيت بغير إذن ملكي، والتي بلغ عددها ألف تقريبا واسترجع مدينتي نورتمبرلاند **Northumberland**، وكمبرلاند **Cumberland** ،الاسكتلنديين وأعاد الأراضي والوظائف الملكية التي ضاعت في زمن ستيفن، كذلك عمل على إعادة هيكلة مجلس الشؤون المالية والمجلس الملكي، واهتم بالنظام العام، وعين قضاة في جميع أنحاء المملكة مع موظفين قانونيين لنشر العدل، هذا فضلاً عن تدخله المباشر لسماع شكاوي أهل المنطقة في حال تراخي أحد القضاة ومحاسبته على ذلك، وعين توماس بيكيت مستشارًا خاصًا له، وبعد أن أتم شؤون انكلترا الداخلية أصبح بإمكانه وفي غضون سنة ١١٥٥أن يغادرها، وهو أكثر اطمئنانا، إذ قضى نصف سنوات حكمه تقريبا متنقلا بين أجزاء إمبراطوريته المترامية الأطراف[١].

وفي آذار ١١٥٥عاد لويس السابع إلى باريس بعد زواجه من كونستاس، وحرص على النهج الدبلوماسي، فاتبع سياسة السلام مع أتباعه والملوك الأجانب على حد سواء، وعقد

Katalin, eds,Medieval East Central Europe in a Comparative Perspective. Routledge,2016,p.84.

(١) روجر أوف ويندوف، المصدر السابق، ص ١٩٣؛ سهيل زكار، المصدر السابق ، ج ٣٠، ص ٩٤.

(٢) سهيل زكار، المصدر السابق ، ص ٩٤ .

(٣) روجر أوف ويندوف، المصدر السابق، ص ١٩٣ ؛ سهيل زكار، المصدر السابق ، ص ٩٤-٩٦ ؛ عاشور، أوروبا في العصور الوسطى، المصدر السابق ، ص ٢٦٠ .

(4) Pernoud, op.cit.,p.101

لويس في يوم ١٠ حزيران ١١٥٥ مجلسًا في سواسن **Soissons** بحضور كبار الأساقفة وكبار اللوردات الإقطاعيين، وذلك من أجل اتفاقية سلام بين رجال الدين والنبلاء، وألزم الجميع على عدم التعرض لممتلكات الضعفاء والأبرياء، وأصدر مرسوما بموافقة جميع الأساقفة والتوابع بأنه اعتبارًا من عيد الفصح المقبل ولمدة عشر سنوات سيسود السلام والأمن بصفة عامة على جميع كنائس المملكة مع كل ممتلكاتها وعلى جميع المزارعين مع ماشيتهم وأغنامهم، وعلى جميع المحلات التجارية في مختلف المواقع، وأقسم الجميع باحترام ذلك المرسوم وحذر لويس المجتمعين بأن القضاء سيقف بكل حزم المعاقبة المجرمين[٢].

طالب الملك الفرنسي عام ١١٥٦ بحقه في إقليم فيكسن ولم يكن هناك خيار سوى الدخول في مرحلة الصراع العسكري، لكن الملك هنري الثاني بادر بوضع خطة كفيلة بضم العرش الفرنسي للتاج الانكليزي مستغلاً الظروف التي يعيشها الملك لويس السابع طليق زوجته إليانور، فقد تزوج من الأميرة كونستانس القشتالية لكنها لم تنجب وريثاً للعرش الفرنسي إنما أنجبت فتاة تدعى مارجريت **Margaret** (١١٥٨- ١١٩٦) وتصور هنري أن لويس لن يتمكن من إنجاب وريثاً ذكراً بعد ذلك[٣]، لذا اقترح هنري أن يزوج ابنه الكبير من مارجريت ابنة لويس وتلك الخطة الدبلوماسية التي تمنى هنري تنفيذها كان من شأنها ضم فرنسا إلى انكلترا بعد أن يصبح ابنه هنري الصغير ملكاً على كل من انكلترا وفرنسا[٤].

كانت تلك المهمة صعبة لما بين لويس السابع وهنري وإليانور من علاقات عدائية، لذلك يتطلب الأمر إسناد الموضوع إلى شخصية تقوم بمهمة المفاوضة على إتمام الزواج لذلك اختار هنري لتنفيذ تلك المهمة توماس بيكيت الذي تتوافر فيه مقومات تنفيذها[٥]، توجه توماس بيكيت إلى باريس في مهمة دبلوماسية رسمية بتكليف من الملك هنري الثاني، بهدف الترتيب للقاء المرتقب مع الملك الفرنسي لويس السابع، غير أن إعداد تلك السفارة وترتيبات الموكب كانت من تدبير الملكة إليانور، التي حرصت على تجهيز حاشية ضخمة تهدف من خلالها إلى إثارة دهشة الملك لويس وبلاطه[٦].

وعندما وصلت السفارة إلى باريس في حزيران عام ١١٥٨، خرج السكان من منازلهم مذهولين لمشاهدة الموكب الذي اتسم بأبهة غير مسبوقة، إذ تقدمته طليعة مكونة من مائتين وخمسين رجلاً من المشاة يملؤون الطريق ويرتلون الأناجيل، يتبعهم حرس المستشار الخاص برفقة كلاب الصيد، وتسير خلفهم ثماني عربات ضخمة ومحصنة، تجر كل واحدة منها خمسة جياد، وقد شُحنت بصناديق الذهب والفضة والمعادن النفيسة، فضلاً عن خيمة المستشار الملكي وتجهيزاته، بينما سار في المؤخرة ثمانية وعشرون حصاناً يحملون

---

(١) وليم لانجر ، المصدر السابق ، ج ٢، ص ٥٣٢ ؛ سهيل زكار، المصدر السابق ، ص٩٦-٩٧ .

(2) Gobry, op.cit.,p.211-212.

(٣) سهيل زكار ، تواريخ أسرة بلانتغنت ، ص ١١٠ .

(4)Meade, op.cit., pp. 191 – 192; Kelly, Eleanor, op.cit., P .46.

(5) Weir,op.cit.,p.148.

(6)Meade, op.cit., p.193; Weir,op.cit.,p.148.

الأطباق الذهبية والكتب والتحف والملابس الفاخرة[١].

توسط بيكيت ذلك المشهد المهيب محاطاً بمائتي خادم، وحاشية من النبلاء والفرسان والمستشارين الذين تميزوا بملابس تعكس رتبهم ومناصبهم، حاملين الصقور البازية على معاصمهم، في حين بدا بيكيت بملابسه الأنيقة والفاخرة وكأنه ملكٌ متوج وليس مجرد مبعوث، وقد حقق ذلك الاستعراض الغاية التي أرادتها إليانور، إذ شعرت بالغبطة للصدى الذي أحدثه مظهر الإنكليز لدى الفرنسيين، حتى أن الملك لويس نفسه خُيل إليه أن طليقته تعيش حياة تضاهي حياة إمبراطورة بيزنطية، فعلى الرغم من أن مهمة بيكيت كانت سياسية بالدرجة الأولى، إلا أن إليانور نجحت في تمرير رسالة شخصية من خلال ذلك الثراء الفاحش، مفادها أنها تحيا في مستوى رفيع من الرفاهية والسلطة بعيداً عنه[٢].

وقد أثار لويس إعجاب شعبه بالاستعدادات التي قام بها للترحيب بضيوفه فقد رتب لاستقبالهم قاعة كبيرة وجديدة وأمر بإغلاق أسواق باريس حتى لا ينفق ضيوفه أية أموال في شراء أي شيء من عاصمته، لكن بيكيت الذي كانت لديه الأوامر بالبذل والإنفاق فقد أرسل رجاله إلى الضواحي الباريسية لشراء ما يلزمهم[٣]، وعندما قام لويس بدعوة بيكيت وحاشيته إلى مأدبة طعام قرر بيكيت دعوة لويس إلى مأدبة أكبر وأفخم جعلت الفرنجة يتحدثون عنها مدة طويلة، كما قام بيكيت بتوزيع الهدايا في جميع أنحاء باريس من ملابس وجواهر حتى فرغت جميع الصناديق، كما قام بتسديد نفقات الطلاب الإنكليز الذين كانوا يدرسون في جامعة باريس، وكان أهم ما حققه هو موافقة الملك لويس على مشروع الخطبة[٤].

ويعلق أحد المؤرخين على تلك السفارة التي تشهد على جانب من العلاقات الدبلوماسية الفرنسية الإنكليزية موضحاً أن الضخامة التي كانت عليها سفارة الملك الإنكليزي هنري الثاني تلك والموجهة إلى قصر الملك لويس السابع في باريس واستعراضها داخل حدود المملكة الفرنسية إن دلت على شيء فإنما تدل على ما يتمتع بهِ ملك انكلترا من قوة وغنى في السلطة والمال مقارنة بما يعانيه الشعب الفرنسي من جمود في تلك المدة، أي أن سفارة كتلك لشخص المستشار فماذا لو كانت للملك نفسه، وتركت سؤالاً يدور في عقول الفرنسيين وأذهانهم: أي ملك هذا ؟ فمنذ ذلك التاريخ زرعت تلك السفارة الخوف والفزع في قلوب الفرنسيين من ذلك الملك الذي كان يتمتع بتلك القوة[٥].

يبدو أن السفارة أتت أكلها كما أرادها الملك هنري الثاني، ونجحت في تحديد موعد يجمع الملكين لويس السابع وهنري الثاني في آب من عام ١١٥٨، وفي الموعد المحدد عبر الملك هنري القنال الإنكليزي لمقابلة الملك الفرنسي من أجل الإفصاح عما يدور في ذهنه من عقد مصالحة متبوعة بعقد مصاهرة سياسية مع الملك لويس السابع بأن يقوم الملك هنري بخطبة ابنة الملك لويس السابع مارجريت من زوجته الثانية كونستانس لابنه ووريثه هنري

---

(1)Meade, op.cit., p.193; Weir,op.cit.,p.148.
(2)Meade, op.cit., p.193; Weir,op.cit.,p.148.
(3) Owen, Eleanor, op.cit., P .47.
(4)Meade, op.cit., p.193.
(٥) روجر أوف ويندوفر ، المصدر السابق ، ص ٢٠٤ .

الشاب[١]، وعلى أن يكون إقليم فيكسين صداقاً للعروس، وكان الطفل هنري في الرابعة من عمره أما خطيبته فكانت لا تزال رضيعة، وبذلك الزواج يستطيع الملك هنري الثاني أن يضع يده على إقليم فيكسن، أما الرضيعة مارجريت فستكون رهينة ذلك الزواج الذي أصبح بمثابة زواج شرعي لأن الميثاق نص على أن الطفل هنري لو مات قبل إتمام الزواج تتزوج مارجريت من الابن جيفري الثاني **Geoffrey II** (١١٥٨ – ١١٨٦) وهو الابن الآخر للملك هنري الثاني، وانتهى اللقاء على المصالحة من دون تحديد موعد الزواج، ومن دون تحديد تفاصيل أخرى انتظاراً للقاء آخر[٢].

وتلبيةً لدعوة الملك الفرنسي لويس السابع، أجرى الملك الإنكليزي هنري الثاني زيارة رسمية ثانية إلى العاصمة باريس في شهر أيلول من عام ١١٥٨، بهدف توطيد أواصر الهدنة بين البلدين والتباحث حول مستقبل الأميرة الفرنسية مارجريت، وقد اتسمت تلك السفارة بطابع دبلوماسي استثنائي، إذ حرص الملك هنري على القدوم بحاشية صغيرة، رافضاً بشدة وبشكل قاطع كافة مظاهر الإسراف والبذخ التي عُرضت عليه لتكريمه، ومفضلاً الابتعاد عن التكلف، وعلى الرغم من ذلك الرفض الصارم من قِبل هنري لمظاهر الترف، أصر الملك لويس وبارونـاته على استقباله بحفاوة بالغة وتكريم مفرط، وعلى الصعيد الدبلوماسي، تكللت المباحثات بإبرام معاهدة جيزور **Treaty of Gisors** إذ أذعن لويس لكافة التعديلات التي طرحها هنري، وكان أبرزها استعادة مدينة جيزور وبلدة فيكسين وثلاث قلاع أخرى كصداق للأميرة مارجريت، وهي ذات الأراضي التي كان جيفري، والد هنري، قد تنازل عنها سابقاً للتاج الفرنسي، ولم يبدِ الملك الفرنسي أي تحفظ على مقترحات هنري سوى رفضه القاطع تولي الملكة إليانور مسؤولية الإشراف على تربية ابنته مارجريت، معللاً ذلك بعدم أهليتها وانعدام ثقته بها، وتداركاً للموقف وحرصاً من هنري على إنجاح مساعي الزيارة، بادر باقتراح إسناد مهمة التربية إلى رئيس بلاطه روبرت نيوبيرة **Robert Newburgh** والذي تقع قلعته على الحدود الفرنسية، فوافق الملك لويس على الاقتراح لثقته في روبرت، كذلك غادر هنري باريس وبصحبته الأميرة مارجريت وانتهت العلاقات بين الملكين بالود[٣].

قرر لويس في تشرين الثاني عام ١١٥٨ القيام برحلة حج إلى جبل القديس ميكائيل[٤] في نورمنديا، وطلب من هنري السماح له بعبور أراضيه، فوافق ورافقه إلى الدير وقد استمع

---

(1) Kelly, op.cit., p.107-109; Meade, op.cit., p 193-194.

(2)John W. Baldwin, Chrétien dans l'histoire, éd. Norris J. Lacey et Joan Tasker Grimbert, D.S. Brewer, Londres, 2005, p. 9.

(3) Gobry, Louis vii, pp 195 - 196; Meade, op.cit., p.194.

(٤) جبل القديس ميكائيل : مكان مقدس عند المسيحيين منذ القدم، لاعتقادهم بظهور الملاك ميكائيل فيه لما ورد عن كتبهم المقدسة أن يسوع قد رأى في ذلك المكان رجلا فسأله: **"هل لنا أنت أو لأعدائنا؟"** فأجابه: **"كلا أنا ميكائيل رئيس جند الرب والآن أتيت لمساعدتك"** .يراجع : الكتاب المقدس: الإصحاح الخامس ، سفر يشوع: الآيات ١٤ ، موقع الأنبا تكلا هيمانوت ، تراث الكنيسة القبطية الأرثوذكسية

https://st-takla.org/pub_oldtest/Arabic-Old-Testament-Books/06-Joshua/Sefr-Yasho3-Chapter-05.html

معه إلى القداس الديني وتناولا العشاء معاً في غرفة الطعام مع الرهبان، وبعد أن اطمأن على ابنته وعلى الترتيبات الخاصة لها عاد إلى باريس محملاً بالهدايا وهو مقتنع بأن مشاكله مع انكلترا انتهت إلى الأبد، لكن ذلك الانطباع لم يدم طويلا[١].

قام الملك الفرنسي في بداية كانون الأول ١١٥٨ بدور عظيم لإتمام السلام بين الملك الإنكليزي هنري الثاني وكونت بلوا ثيوبولد الخامس **Theobald V** (١١٣٠ – ١١٩١) من أجل ضبط بعض الحدود القائمة بينهما ومحل النزاع بين الطرفين، وكانت ترتيبات الملك الفرنسي لويس السابع هدفها جعل سلطته أعلى من سلطة الملك الإنكليزي هنري الثاني[٢].

توفي البابا أدريان الرابع **Adrien IV** في ١ أيلول عام ١١٥٩رئيس الكنيسة الرومانية، فنشب نزاع على البابوية بين الكسندر الثالث **Alexander III** (١١٠٥-١١٨١) وأكتافين (فكتور الرابع) **Octavien**(١٠٥٩- ١١٦٤)، فكان الأول مؤيدا من قبل ملكي فرنسا وانكلترا، وكان الثاني مؤيدا من إمبراطور ألمانيا فردريك الأول بربروسا والملقب بصاحب اللحية الحمراء ورجال الدين، فراسل الإمبراطور فريدريك ملكا فرنسا وانكلترا وطلب منهما الاعتراف بأكتافين، ولكنهما رفضا ذلك وتم انتخاب البابا الاسكندر بتأييدهما[٣]، وكانت تلك المرة الوحيدة التي اتفق فيها لويس وهنري على أمر والتي عُدَت الأخيرة لما سوف تظهره الأحداث المقبلة.

يتبين أن العلاقات الفرنسية الإنكليزية التي تمثلت في العلاقة بين الملك لويس السابع والملك هنري الثاني منذ اعتلاء عرش انكلترا، لم تتعد أكثر من علاقة سيد بفصله الإقطاعي، فلم نجد صداماً عسكرياً بين الطرفين حتى ١١٥٩، بل على العكس نُلاحظ أن الملك الإنكليزي لجأ إلى سيده الإقطاعي ملك فرنسا لحل كثير من الخلافات التي دخل فيها حيث اعتمد عليه في حل الصراع القائم بينه وبين ليوبولد الخامس كونت بلوا ، وربما يكمن السبب الذي دفع الملك هنري الثاني إلى ذلك هو أنه كان لا يزال في طور البداية لتثبيت حكمه داخل مملكته وضبط الأمور فيها لاسيما صراعه مع البارونات وكبار الإقطاعيين الذين كثيراً ما أثاروا القلاقل ضده، لذلك نلاحظ أن المدة القادمة سوف تحمل الكثير من المفارقات التي ستوضح مدى اعتراف الفصل الإقطاعي هنري الثاني بسيادة الملك لويس السابع الإقطاعية عليه .

٢. الصراع حول دوقية تولوز ونتائجها ١١٥٩ – ١١٦٢.

وجدت إليانور زوجها هنري يرتقي من مجد إلى مجد، كما أن مساحات الأراضي التي استولى عليها كانت في ازدياد، فبدأت تفكر في عام ١١٥٩ باسترجاع ميراثها في تولوز، الذي سبق أن فشل زوجها السابق لويس في استعادته، فتأملت من زوجها الطموح استعادته[٤]، رحب هنري بفكرة إليانور ورأى أنها ميراث شرعي ومن ثم بدأ يفكر في كيفية

---

(1)Owen, op.cit., p. 47, Weir,op.cit.,PP. 148 – 149.

(2) W. L Warren, Henry II, (London: Eyre Methuen, 1973), p. 90.

(٣)وليم لانجر ، المصدر السابق ، ص ٥٧٦ .

(4) Seward, op.cit., p 98, Kelly, op.cit., p.109.

استردادها[١]، كانت السيطرة على تولوز ستمنح هنري السيادة على منطقة تجارية ثرية تمتد من ساحل المحيط الأطلسي ووادي غارون **Garonne** إلى البحر المتوسط، وكانت مدينة تولوز تقع على منبع نهر غارون[٢] الصالح للملاحة، وعلى ملتقى طرق تجارية مهمة، حيث تلتقي الطرق الرومانية من لاروشيل وبوردو وبايون **Bayonne** على ساحل المحيط الأطلسي بتلك الممتدة شرقًا من ناربون **Narbonne** على البحر المتوسط وآرل **Arle**على نهر الرون **Ron**[٣].

كان الكونت ريموند الخامس **Raymond V** (١١٣٤- ١١٩٤) حاكم مقاطعة تولوز متزوجاً من كونستانس أخت الملك لويس السابع ملك فرنسا وأنجبت منه ثلاثة أبناء ذكور، لذا فإن ادعاء إليانور الحق في امتلاك تولوز من شأنه أن يحرم ريموند وعائلته منها، بل سيؤدي إلى غضب لويس الذي سينحاز إلى أخته الأمر الذي سيؤثر على السلام القائم بين انكلترا وفرنسا، لذلك أصبح كل من هنري وإليانور في حيرة من أمرهما، فهو لا يمكنه التخلي عن تلك المقاطعة، كما أنه لا يرغب في إفساد السلام القائم على البلدين، كانت الأوضاع السياسية في تولوز آنذاك متوترة لاندلاع الحرب بين حاكمها وكونت برشلونة رامون برينجوار الرابع **Ramon Berenguer IV** (١١١٣- ١١٦٢) كما أن أتباع ريموند حاكم تولوز كانوا مستائين منه[٤].

لم يعلن هنري خطته لغزو تولوز صراحه، لذلك عقد تحالفاً مع كونت برشلونة في نيسان عام ١١٥٩، ولتأكيد التحالف خطب ابنة ريموند إلى ابنه ريتشارد وبعدها، أرسل هنري رسالة إلى ريموند حاكم تولوز يطلب تسليم المقاطعة إلى إليانور فرفض ريموند بالطبع التنازل، عليه قرر هنري الهجوم عليها، هناك اصطدم لويس بموقف هنري وسلوكه، لكنه لم يرغب في أن يؤثر ذلك الموقف على معاهدة السلام التي عقدها معه[٥].

---

(1)Weir,op.cit.,p. 149; Kelly, Eleanor, PP. 106 – 108.

(٢) يعد نهر الغارون أحد أبرز المعالم الجغرافية في جنوب غرب فرنسا، إذ يبدأ رحلته من الجانب الإسباني لسلسلة جبال البرانس، وتحديداً من قمة "أنتو" في منطقة أرجوان الشاهقة التي يبلغ ارتفاعها ٣٤٠٤ أمتار.يشق النهر طريقه في اتجاه عام نحو الشمال الغربي قاطعاً مسافة إجمالية تصل إلى ٦٤٧ كيلومتراً، ليمر أثناء جريانه بمدينتي تولوز وبوردو الاستراتيجية الواقعة قرب نهايته. وتتوج هذه الرحلة عند مصب "الجيروند" في المحيط الأطلسي، حيث يلتقي بنهر الدوردون. تاريخياً، لم يكن الغارون مجرد مجرى مائي، بل شكل محوراً حيوياً ورئيسياً للنقل في المنطقة، كما اكتسب أهمية استراتيجية إضافية بفضل اتصاله بالبحر المتوسط عبر "قناة ميدي" (قناة الجنوب). وقد تجلى تأثير هذا النهر في التقسيم الإداري الفرنسي، حيث استمدت ثلاثة أقاليم أسماءها منه، وهي: غارون العليا، ولوت غارون، وتارن غارون. يراجع :

Smith, William, A New Classical Dictionary of Greek and Roman Biographies, Mythology and Geography, John Murray, London, 1850, p. 492.

(٣) هو واحد من الأنهار الرئيسة في أوروبا (وهو أطول نهر فرنسي)، حيث ينبع من جبال الألب السويسرية في أقصى الطرف الشرقي، ويمر عبر بحيرة جنيف ويمر عبر جنوب شرقي فرنسا. وينقسم إلى فرعين بالقرب من مصبه على البحر المتوسط، يعرفان باسم رون والدلتا . يراجع : اسماعيل سرهنك ، حقائق الاخبار عن دول البحار، ج٣ ، المطبعة الاميرية ببولاق مصر، القاهرة ، ١٨٩٨، ص ٤ ؛

David Edwards May, Inland Waterways of France. St Ives, Cambridgeshire, UK, Emrai, 2010, pp. 210-220.

(4)Weir,op.cit.,p.150.

(5) Kelly, Eleanor, op.cit., P. 110.

سعى الملك هنري الثاني لعقد لقاء مع الملك لويس السابع استمر ثلاثة أيام، تناقش فيها الملكان في أمر زواج ابنة الملك الفرنسي مارجريت من هنري الشاب، وفي أمور عديده من أجلها يتم عقد تحالف بين الطرفين، وأخبر الملك هنري الثاني الملك لويس السابع بما يعتزم القيام بهِ تجاه مقاطعة تولوز، محاولاً بذلك استمالة الملك لويس، من أجل الضغط على الكونت ريموند الخامس وانتهى اللقاء دون التوصل إلى نتيجة مقنعة، لذلك كان لويس السابع في حيرة من أمره، فهو لم يستطع دحر ادعاءات الملك الانكليزي في تولوز لأنه هو نفسه سعى إلى الضغط عليها من قبل عندما كان زوجاً للملكة إليانور وريثة أكيتاين، من خلال قيادته لحملة عقيمة على الدوقية في عام ١١٤١ إلا إنه في الوقت نفسه لن يسمح للملك هنري الثاني بأن يحقق نجاحاً في تلك الكونتية، لأن أخته وأبناءها لم يكن مشكوكاً في طاعتهم له[١].

لذلك لم تنجح الدبلوماسية في إثبات حقوق إليانور في كونتية تولوز، عندئذ أصبح الملك هنري الثاني منقاداً للاشتباك في حرب مع كونتها، فقام بتجهيز الإعدادات الضخمة لتلك الحملة، فاعتمد على فرسانه في التغلب على صعوبة المكان، ويقال إن الملك هنري الثاني قام بجمع المال من الذين تقاعسوا عن الخدمة من أهل المدن وأيضاً من اليهود ، وانضم إليه في تلك الحملة الأمراء والنبلاء والبارونات الذين يخضعون لسلطته الملكية، فضلاً عن حليفه الملك الاسكتلندى مالكلوم الرابع **Malcolm IV** (١١٤١ - ١١٦٥) وجيشه الذى احتاج إلى خمس وأربعين سفينة، لنقله عبر القنال، للحاق ببارونات جميع الدوقيات التابعة للتاج الملكى (نورماندي، وأنجو، وبريتاني واكتاين وبوتريس)، فضلاً عن كونت برشلونه - الذى كان مساويًا للملوك في المكانة - وملكة أراجون **Aragon** ، فضلاً عن بعض الكارهين لسيادة دوقية تولوز، وعلى رأسهم، كان ريموند الأول ترينكافيل **Raymond Trencavel** كونت بيزريس (**Beziers**) وكاركسون، ووليم أف مونتبيلير **William of Mont Pellier** ولم يرى مثل ذلك الجيش إلا في الحروب الصليبية الكبرى[٢].

استطاع ذلك الجيش الضخم، أن يحرز تقدماً لا بأس بهِ في مسيرته تجاه دوقية تولوز، فعلى طول طريقه قام بفرض سيطرته على كل الأماكن التي ثارت على دوقية اكياتين من قبل بمساعدة من كونتها واستخدم في ذلك الأسلحة الكثيرة، فأحياناً يتم له الاستيلاء على العديد من المدن بالرشوة، مثل مدينة جاهورس **Gahors** التي تقع على الحدود بين أكيتاين وتولوز، ونجح ريموند ترينكفيل في القيام بثورة في شرق كونتية تولوز، وكان الغرض منها محاولة الضغط على الكونت ريموند، لكى يخضع لسيادة الملك هنري الثاني دون الدخول معه في حرب، فيكون مثله مثل دوق بريتاني، الذي أخضع من قبل وانضم بقواته للملك في تلك الحرب، وعند اقترب الجيش من مقاطعة تولوز في تموز ١١٥٩ طلب الملك الفرنسي لويس السابع اللقاء مع الملك الإنكليزي من أجل التدخل للوساطة بين الطرفين لعقد الصلح،

---

(1) Meade, Eleanor, op.cit., P. 197.

(2) Roger of Wendover, Flowers of History, 2 Vols, Trans. from the Latin by Gilles J. A., London 1849,pp.532-33; William of Newburgh, The Church Historians of England, Vol IV, Part II, Trans. by Joseph Stevenson, (London Seeley's 1861),pp. 2-3.

إلا أن الوساطة لم تثمر عن شيء[١].

بعد فشل الملك هنري في كسب الملك لويس لصفه في الحرب، تحرك مباشرة على رأس جيشه إلى مدينة تولوز لامتلاكها، وفرض السيادة الإنكليزية عليها، إلا أن الخلافات بدت تلوح في الأفق في صفوف جيش التحالف، نتيجة ما سيحققه ذلك الجيش من نجاح إذا ما استطاع ذلك[٢]، وهكذا أخذت العلاقات الفرنسية تتأثر بالموقف العسكري فوق أرض تولوز ومن أجل تفادى الموقف، قام الملك هنري الثاني بوضع جيشه وترتيبه من أجل الاستيلاء على القلعة المجاورة لكونتية تولوز، فبذلك العمل يستطيع حجز أهم المدن عنها، و يعزلها عن الأقاليم المجاورة لها، أملاً في استمالة الكونت ريموند، فضلاً عن أنه قام بإعطاء الأوامر بالهجوم على أراضي السلطة الملكية الفرنسية المجاورة لدوقية نورماندي، أملاً في الضغط على الملك لويس السابع من أجل الرحيل، ولم يزعج ذلك الأمر الملك الفرنسي وظل هناك يقوم بحراسة أملاك أبناء أخته ليل نهار، واستمر الملك الإنكليزي في حصاره حتى خريف عام ١١٥٩ ولم يتعد هجومه أكثر من التهديد، إذ بدأ جيشه في النقصان والضعف، فمع نهاية أيلول ١١٥٩ قام الملك هنري بإعطاء أوامره بالانسحاب من أمام تولوز بعد حصار دام شهرين ونصف، وشعر هنري بالملل لطول الحصار فلم يعتد البقاء مكان واحد مدة طويلة، لذلك انتهز فرصة وجود الملك لويس امام باب المدينة والذي قدم لحمايه أخته وليس للحرب أو مساعدة الحاكم ريموند، لذلك قرر فك الحصار عن المدينة وأعلن أنه ليس من الاحترام والتوقير أن يهاجم مدينة يقطن بها سيده الأعلى ملك فرنسا، على الرغم من تشجيع مستشاره توماس بيكيت له في الاستمرار إلا أنه أصر على سحب قواته والعودة إلى بواتيه[٣].

لم يكن ما حدث هو السبب الحقيقي لانسحاب الملك هنري الثاني من تولوز إنما ما تكبده من الأموال الباهظة التي أنفقها على جنوده خلال مدة الحصار إلى جانب الوباء الذي انتشر بينهم، وربما يعود ذلك إلى تراجع مصلحة هنري الشخصية الذي وجد أن غزو تولوز سيكلفه الكثير من الخسائر في الأموال والأنفس إذا قورنت بأرباحها التي ستعود بالفائدة فقط على زوجته إليانور[٤].

عاد هنري إلى بواتيه، ووصل إلى إليانور أنباء ما حدث فتلاشى حلم عودة ميراثها إليها، وتبددت أحلام مجد جدها وأبيها، فغضبت أشد الغضب من ذلك التصرف من هنري، وكان ذلك هو بداية اشعال فتيل الخلاف بينها وبين زوجها التي ألقت عليه اللوم لعدم الجرأة للوقوف في وجه لويس، وعلى العكس من ذلك كان موقفها من توماس بيكيت الذي تغير من

---

(1) Warren, Op.Cit., p.86.

(٢) سهيل زكار ، تواريخ أسرة بلانتغنت ، ص ١١١ .

(٣) أثار قرار هنري هذا المستشار بيكيت مما أدى إلى نشوب الخلاف بينهما، فقد كان توماس يقود فرقة من قوات هنري وكان يأمل في تحقيق النصر عند نشوب المعركة لذلك اتهم بيكيت الملك بالحماقة لفك الحصار وأخبره بأنه إذا هاجم تولوز فسيتمكن من الاستيلاء عليها وبذلك يصبح ملك فرنسا أسيرا عنده لكن هنري لم يتراجع عن قراره، بل غادر وقواته تولوز في ٢٦ أيلول ١١٥٩، وترك خلفه مستشاره بيكيت الذي قام بمهاجمة عدة قلاع.
Meade, op.cit., p. 197-199; Seward, op.cit., p. 99.

(4) Ibid. p .199.

الكراهية إلى المودة لموقفه تجاه الهجوم على تولوز[١].

في خريف عام ١١٦٠ توفت كونستانس ابنه ملك قشتالة الزوجة الثانية للويس السابع، وذلك أثناء ولادتها بابنتها الثانية، وعلى أثر ذلك أصبح لويس السابع والدًا لأربع بنات، ولم ينتظر لويس كثيرا بعد وفاتها وخلال أسبوعين تزوج من أديلا أف بلوا أخت الكونت ثيوبولد الخامس كونت بلوا، وهنري كونت شامبانيا، في خطوة مثلت تحولاً جذرياً في مساره سياسته، فقد برز جلياً توجه الملك الفرنسي نحو هندسة تحالفات استراتيجية قوية تستند إلى شبكة من المصاهرات السياسية، إذ عمد في العام ذاته إلى تجديد التزامه السابق بتزويج ابنتي - من الملكة إليانور - من ابني أخي الملك ستيفن ثيوبولد وهنري، وجدد هذا التحالف في عام ١١٦٠، ولم يكن ذلك التحالف من أجل الملك لويس وحده، بل كان أيضا من أجل كونت ثيوبولد، الذي كان في صداقة مع الملك هنري الثاني، إلا أنه على الرغم من تلك الصداقة، قام بالدفاع عن أملاك الملك الفرنسي عندما تعرضت للهجوم من قبل قوات الملك هنري الثاني، عندما كان يريد الضغط على الملك لويس من أجل الانضمام له ومساندته في هجومه على دوقية تولوز، إلا إن هنري عاد وأخضع الكونت في خريف ١١٥٩[٢].

كان زواج الملك لويس من أديلا ، ضربة سياسية، أثمرت عن وجود تحالف سياسي لفرنسا على حدود نورماندي، وخلق تضافرًا عدائياً ضد مشاريع الملك هنري الثاني، ونتيجة للمصاهرة السياسية التي عقدها الملك لويس السابع بدأت العلاقات الفرنسية الإنكليزية تأخذ شكلاً جديدا لأن الملك هنري ما لبث أن رد بالثأر من ذلك بامتلاك مقاطعتي فيكسن (جيسور، نيفيل) والتحكم فيهما، وذلك عندما قام بإلزام ابنه هنري الشاب، بالزواج من مارجريت ابنة الملك لويس السابع ملك فرنسا، على الرغم من أنه مازال طفلاً، فبدا من المرجح أن يكون ذلك بتحريض من فرسان المعبد[٣] روبرت دي بروRobert de Bruy ، وتوستى دى سانت أومير**And Tostee de Saint-Omer** ، وريتشارد دى هاستنج **Richard de Hastings** ، الذين كانوا مسؤولين عن حراسة القلعتين، وكانوا شاهدين على قبول ذلك الأمر في آيار الماضي، إذ إنهم قاموا بفتح القلعتين مباشرة وتسليمهما، إلى الملك هنري

---

(1)Seward, op.cit., p.100.

(2) Kelly, op.cit., p.110.

(٣) فرسان المعبد : بعد تأسيس فرسان القديس يوحنا بعشر سنوات أي عام (١١١٨) قام تسعة فرنسيين يرأسهم الراهب هوج دي بايان Hugues de Payens ، وجود فري دي سانت أومار Godfrey dest Omer بتكوين جماعة، قيل: إنهم استلهموا نظامها من نظام جماعة الحشاشين الإسماعيلية، وسموا أنفسهم فرسان المعبد أو فرسان الهيكل Knights Templars. وسماهم العرب الداوية، وكان ملك بيت المقدس حينذاك - هو بولدوين الثاني، الذي خلف جود فري البويوني، فقدم للجماعة منزلا يقيمون فيه بالقرب من الموقع الذي كانوا يقولون عنه: إنه موقع هيكل سليمان وأطلقت الجماعة على نفسها اسم الجنود الفقراء المعبد سليمان بغرض استكمال ما يقوم به فرسان القديس يوحنا من عمل خيري. فبينما كان فرسان القديس يوحنا الاسبتارية يهتمون بمساعدة زوار بيت المقدس وحجاجه، لاسيما المرضى كانت مهمة الجنود الفقراء المعبد سليمان في حماية هؤلاء الزوار والحجاج، وهم في طريقهم إلى الأراضي المقدسة، وعند مغادرتهم لها. ومن ثم أطلق عليهم بعد ذلك اسم فرسان المعبد . يراجع : ستيفن هوراث ، فرسان الهيكل القصة الأساسية ، ترجمة : إبراهيم محمد إبراهيم ، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ، ٢٠١٣ ؛ سمير عطا ، الأسبارتية وفرسان المعبد ، مجلة الفيصلية ، العدد ٣٦٧ ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، المملكة العربية السعودية ، ٢٠٠٧، ص٦٢ – ٧١ .

الثاني ملك انكلترا، أشعل ذلك العمل ثورة الملك لويس السابع الذى كان ساخطاً للغاية من مغبة ذلك الحدث، وأنزل عقابه بهيئة فرسان المعبد الذين كانوا في مملكته، وعلى الجانب الآخر كان الملك هنري قد كافأهم بالعديد من مراتب الشرف والاحترام، والذي قام بأخذ موافقة البابوية، على ذلك الزواج على الرغم من عدم بلوغ الابن السن القانونية، وذلك عندما استغل قدوم اثنين من الكرادلة إلى مملكة انكلترا للحصول على اعتراف الملك هنري الثاني ومملكته بالبابا الكسندر الثالث واشترط في مقابل اعترافه بالبابا أن تعترف البابوية بذلك الزواج[١].

علق الملك الإنكليزي آمالاً كبيرة على اعتراف البابوية بهذا الزواج، على الرغم من أنه كان يعترف بالبابا الكسندر الثالث من قبل ذلك الحدث، واحتفل بذلك الزواج في تشرين الثاني١١٦٠ في مدينة نوفمبرج **Newfemburg** القريبة من لندن وكان الابن هنري في السابعة من عمره، والابنة مارجريت في الثالثة من عمرها، وكان ذلك الزواج بعد أيام قلائل نتيجة لزواج الملك لويس السابع من أديلا أف بلوا، وتسلم الملك هنري الثاني القلعتين في تأمين من فرسان المعبد، الذين كانوا مستأمنين عليها فأعطوها للملك هنري، طبقا لشروط المعاهدة المبرمة بينه وبين الملك لويس السابع، الذي كان ساخطاً من ذلك العمل، فقام صهره الكونت ليوبولد بتهديد الملك هنري الثاني، وذلك بالهجوم على تورين ورينفوركيد **Reinforced** أكبر القلاع على حدود قلعة شاومونت **Chaumont** على ضفاف نهر اللوار، وكان عجولاً في تهديده للملك الإنكليزي، حيث إن موسم الحملات لم ينته بعد، لذلك لم ينتظر الملك هنري قدوم الفرسان من دوقية أنجو، فاعتمد على جنوده المرتزقة وقام بهجوم شديد الوطأة على القلاع التي وقعت في يد الكونت، ففى خلال أيام قلائل استطاع أن يستردها جميعا، وفى النهاية كان له ما أراد من خلال نصر مشهود على قلعة شاومونت[٢].

ولم ينته الأمر عند ذلك الحد ، إذ لم يكن الملك الفرنسي بالملك الذي يرضى بالهزيمة فجمع قواته واتجه صوب دوقية نورماندي في نيسان ١١٦١ وفي مدة وجيزة أصبح وجهاً لوجه على حدود دوقية نورماندي مع قوات الملك الإنكليزي إلا أن الملكان تجنبا الصدام واستمعا إلى مشورة أصحاب العقل والحكمة، وجعلوا التهدئة هي النتيجة النهائية لهذا الصدام، وبالفعل عقدت هدنة بين للملكين عرفت بهدنة فريتفال **Freteval** نسبة إلى المكان الذي عقدت فيه، وذلك في تشرين الأول من عام ١١٦١ تلاه معاهدة سلام ثانية في عام ١١٦٢، أشرف عليها البابا ألكسندر الثالث وعلى الرغم من ذلك التوقف المؤقت في الأعمال العدائية، فإن استيلاء هنري على فيكسين بدأ نزاعًا ثانيًا طويل الأمد بينه وبين ملوك فرنسا[٣].

---

(1)Danbabin, Jean, Henry II and Louis VII in Harper-Bell, Christopher; Vincent, Nicholas (eds.). Henry II: New Interpretations. Woodbridge, England: Boydell Press. 2007, pp. 60-62.
(2)Digelman, Lindsay, "Marriage as a tactical response: Henry II and the royal wedding of 1160". English Historical Journal, Vol. 119, No. 483 (September 2004), p. 957.
(3)Christopher HarperBell and Nicholas Vincent, Henry II: New Interpretations, Boedell Press, Woodbridge, London, 2007, p.56.

ثالثاً. الصراع بين الملكين لويس السابع وهنري الثاني ١١٦٢ – ١١٧٩:

شهدت المدة الممتدة بين عامي ١١٦٢ و١١٧٩ تحولاً جذرياً في طبيعة الصراع الأنجلو-فرنسي، حيث اتخذت المواجهات بين الملكين لويس السابع وهنري الثاني أبعاداً مركبة تداخلت فيها الطموحات السياسية والحدودية بالتوازنات الكنسية والنزاعات الأسرية العميقة، فقد أدرك الملك الفرنسي لويس السابع حجم التهديد الوجودي الذي تشكله الإمبراطورية الأنجوية المترامية الأطراف لسيادته ومستقبل تاجه، فعمد إلى انتهاج استراتيجية استنزافية ذكية تهدف إلى تقويض سلطة غريمه هنري الثاني من الداخل وتطويقه من الخارج، لم يقتصر ذلك الصراع المحتدم على المواجهات العسكرية المباشرة أو المناوشات الحدودية المعتادة، بل امتد ليتبلور في استثمار لويس السابع ببراعة سياسية بالغة للشقاق المؤسسي العنيف الذي نشب بين التاج الإنكليزي والكنيسة ممثلة برئيس أساقفتها، فضلاً عن توظيفه المتقن والمباشر للتصدعات الخطيرة داخل البيت الأنجوي الحاكم، مقدماً نفسه كراعٍ للمظلومين وداعمٍ رئيسي للتمردات العائلية التي قادتها الملكة وأبناؤها، وتتجلى أهمية تلك المرحلة التاريخية في كونها أسست لنمط جديد من حرب الاستنزاف الدبلوماسي والسياسي في الغرب الأوروبي، محددةً مسارات العلاقة وموازين القوى بين المملكتين من خلال أزمتين عاصفتين كادتا أن تعصفا بعرش هنري الثاني وتعيدا رسم خارطة النفوذ في المنطقة بأسرها.

١. توتر العلاقة بين هنري الثاني ورئيس أساقفة كانتربري توماس بيكيت حتى مقتله ودور الملك لويس السابع في تلك الأحداث بين عامي ١١٦٢ – ١١٧٣ .

بعد وفاة ثيوبالد رئيس أساقفة كانتربري في نيسان ١١٦١، كان لا بد من اختيار خليفة له، بقى منصب أسقف كانتربري شاغراً مدة عام تقريباً، وكان ثيوبالد يأمل ويدعو أن يخلفه توماس بيكيت، مستشار الملك لتولي منصب كرسي كانتربري، ولا غرو أن تلك الرغبة كانت مبنية على ثقة ثيوبالد في شخصية توماس، لاسيما أن تلك الرغبة توافقت تماماً مع توجهات الملك نفسه[١]، ألا أن تلك الرغبات تقاطعت مع توماس بيكيت بعد رفضة قبول تولي منصب كرسي كانتربري، ويبدو أن توماس كان مدركاً أن قبوله تسنم المنصب سيدخله في الكثير من المشاكل والمصاعب، لاسيما أن سياسة هنري الكنسية تتعارض تماماً مع واجبه في حماية حقوق الكنيسة في إنكلترا[٢]، على الرغم من أنه أخلص للملك هنري ووقف معه في جميع القرارات سواء كانت سياسية أو في ما يتعلق بالكنيسة الانكليزية أو غيرها، حتى لو كانت تلك السياسة تتعارض مع مطالب الكنيسة، ألا أنه أمتنع عن قبول تسنم منصب

[١] احمد صالح عبوش ، قادة الاصلاح والتشريع في العالم عبر التاريخ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ٢٠١٩ ، ص ١٦٨ .
[٢] يراجع حول صراع الملك هنري الثاني وتوماس بيكيت: حيدر جابر حسين الزرفي، علاقة رؤساء أساقفة الكَنيسَة الإنكليزية بملوك إنكلترا ١١٠٠ – ١٢٢٨ ، اطروحة دكتوراه، جامعة واسط ، كلية التربية للعلوم الانسانية، ٢٠٢٥، ص ١٠٣.

رئيس الاساقفة لأكثر من عام، وبين للملك أنه في حال موافقته تولي المنصب فأن صداقتهما ستنتهي تماماً، وأنه لن يسمح بقبول تخفيض الامتيازات الكنسية، التي كان الملك هنري يسعى لتخفيضها، وخاطب توماس بيكيت الملك قائلاً: **"أعلم أنك ستطلب مني أشياء كثيرة في الأمور الكنسية، والتي لم أكون قادرًا على التنازل عنها، ومن ثم سيستغل أولئك الذين يغارون مني فرصة رفضي، لتحريضك على إنهاء علاقتك بي وستكرهني إلى الأبد"**[١].

نجحت مساعي الملك هنري وقبل توماس تولي المنصب، وفي ٢ حزيران ١١٦٢، أنتخب توماس بيكيت رئيساً لأسقفية كانتربري، وفي ٣ حزيران ١١٦٢، تم تكريسه رئيسًا للأساقفة من هنري بلوا**Henry of Blois** (١٠٩٦ – ١١٧١) ، أسقف وينشستر الذي ترأس مجلس الانتخاب والأساقفة المساعدين الآخرين في كانتربري، وبعد تكريسه خاطبه الاسقف هنري وينشستر:**"أخي العزيز، يجب عليك الآن الاختيار بين مصلحة ملكك الأرضي وملكك السماوي"**، ليرد عليه توماس بيكيت، بعد أن راكع أمامه ويداه مرفوعتان: **"بفضل الله وقوته سأختار، لن أتخلى أبداً عن نعمة ملك السماء من أجل حب أو حظوة ملك أرضي"**، وعلى الصعيد السياسي، ورث الملك هنري الثاني تركة مثقلة بالنزاعات مع الكنيسة تعود جذورها إلى عهدي جده هنري الأول والملك ستيفن، ففي عهد هنري الأول، سادت هدنة مضطربة كانت تمنح الكنيسة حق التعيينات الكنسية شريطة موافقة الملك، وهو حل وسط أبقى للتاج قدراً من الهيمنة والنفوذ من خلال استمرار الملك في توظيف رجال الكنيسة كمستشارين له [٢]، أما إبان حكم الملك ستيفن، فقد أدت سياساته التي اتسمت بالفوضى إلى تنامي نفوذ المحاكم الأسقفية وتوسعها في منح حصانة مطلقة لرجال الدين، بلغت حد إعفائهم من المساءلة القانونية حتى في جرائم القتل[٣]، رفض هنري الثاني الإبقاء على تلك القوانين المتساهلة، وكان يمني النفس بأن يكون بيكيت عوناً له في إخضاع رجال الدين للقانون المدني أسوة ببقية طبقات المجتمع، غير أن آمال الملك تبددت أمام دفاع بيكيت المستميت والمتعصب عن الحصانة الكنسية، ورفضه محاكمة رجال الدين المتورطين في جرائم القتل، وقد بلغت الأزمة ذروتها حين قدم بيكيت استقالته من منصب المستشار الملكي، وهي خطوة اعتبرها هنري إهانة شخصية، معبراً عن خيبة أمله بالقول إن بيكيت: **"أشعر أنه لم يعد يهتم ليكون في خدمة بلادي"**، واعتبر هنري أن استقالة بيكيت كانت بمثابة الصفعة على وجهه، فقد خابت آمال هنري في بيكيت، والذي كان يظنه عوناً له، وكان يرجو مساعدته في تطبيق القانون المدني على رجال الدين مثل باقي الطبقات لاسيما أنه في أثناء وجود هنري في نورماندي علم أن أكثر من مائة من أعمال القتل قد ارتكبت من قبل رجال الدين منذ أن تولى عرش انكلترا، مما جعله يغضب من بيكيت الذي تساهل مع تلك الحالات فقرر محاكمته، وكان ذلك بداية الصراع فيما بين هنري ورئيس الأساقفة[٤].

---

(1) Gobry, op.cit., p.212.

(2)John Milton, History of England, John Allisteri, London, 1670, p.141.

(3) Sharon Turner , F.S.A,R.A.S.L, history of England during the middle ages,vol I , London, 1853, p.211.

(٤)وليم لانجر ، المصدر السابق ، ص٥٣٢ – ٥٣٣ ؛ نور الدين حاطوم ، المصدر السابق ، ص ٨٠٨.

وضع هنري قوانين جديدة تدعى دستور كلارندون **Clarendon**، تضمنت ستة عشر قانوناً، هدفت في مضمونها إلى إعطاء الولاية والهيمنة للمحاكم العلمانية في المسائل القضائية لرجال الدين، وقد دعا فرسان انكلترا وأساقفتها وعلى رأسهم توماس بيكيت للاجتماع في مدينة كلارندون في كانون الثاني عام ١١٦٤، وأمرهم بالتوقيع على الدستور، إلا أن توماس رفض وضع ختمه على تلك القوانين، لكن ذلك الرفض لم يغير من قناعة هنري شيئًا نحو الدستور الجديد، بل كانت ردة فعله هو دعوة بيكيت للوقوف أمام المحكمة الملكية(١).

وقف بيكيت أمام المحاكمة، وظل صامدًا على موقفه المعارض لدستور هنري على الرغم من إعلان الأساقفة تأييدهم الملك أنه مذنب لخروجه عن أراده سيده، وأمرت المحكمة بالقبض عليه، إلا أنه طلب استئناف القضية في محكمة البابا وخرج من القاعة ، وفي أعقاب ذلك، بدأت الأقاويل تسري بأن الملك يضمر نية سجنه مدى الحياة بعد التنكيل به بفقئ عينيه وقطع لسانه، ولم تكن تلك المخاوف من فراغ، إذ كانت الأذهان لا تزال تستحضر واقعة قريبة في ممتلكات هنري بفرنسا، حيث تعرض أحد الأساقفة لتشويه وحشي على يد أحد اللوردات الإقطاعيين، مما أضفى طابعاً من الجدية والرعب على تلك الشائعات (٢).

اضطر توماس بيكيت إلى التخفي والتحرك تحت جنح الظلام هرباً من ملاحقة رجال الملك هنري الثاني، ميمماً وجهه شطر فرنسا حيث كان يقيم البابا ألكسندر الثالث في مدينة سينس، طامعاً في نيل حماية الملك الفرنسي لويس السابع، وفي خطوة اتسمت بالسرعة والدهاء السياسي، استبق الملك الإنكليزي وصول بيكيت بإرسال وفد دبلوماسي رفيع المستوى إلى باريس - ضم كلاً من جيلبرت فوليوت **Gibert Folliot** رئيس أساقفة لندن، ووليم إيرل أرنوديل **Arundel** - بهدف قطع الطريق على بيكيت وعزله دولياً، سعى الوفد جاهداً لإقناع الملك لويس بعدم استقبال رئيس أساقفة كانتربري، بل ووصل الأمر إلى حد التوسل للبابا لرفع رعايته عنه، مدعمين مطالبهم بتهديدات صريحة بأن أي مساعدة ستقدم لبيكيت ستدفع هنري للتحالف مع أعداء فرنسا (٣)، وعلى الرغم من وصف هنري الثاني لغريمه في رسائله بـ**"الخائن المعزول"**، إلا أن تلك المناورات تحطمت على صخرة كبرياء الملك لويس السابع ومبادئه وكان رده: **"معزول؟ ومن الذي يملك سلطة عزله؟ أنا ملك، ولي من السيادة ما لملك إنكلترا، ولكن يديّ مكبلتان عن عزل أصغر قسيس في مملكتي"**، وأردف لويس أن إرث أجداده في إيواء المظلومين هو شرف لتاجه لن يحيد عنه، غير أن رياح التهديد الإنكليزية طالت دير بونتيني **Pontini** الهادئ وأجبرت رهبانه الخائفين على التخلي عن بيكيت، إلا أن موقف لويس السابع ظل ثابتاً، وصرخ في وجوههم موبخًا: **"أهكذا**

Seward, op.cit., pp. 101-102; Meade, op.cit., pp. 212-213.

(1) Meade, op.cit., p.221-222;

(2)Owen, op.cit.,p.51.

(3)Achille Locher, Histoire de France, Tome III, Partie I, Louis VII, Philippe Auguste, Louis VIII, Paris, 1911,P.32; Kelly, Eleanor, op.cit., PP. 120 – 122; Weir,op.cit.,p. 161.

يموت الدين في قلوبكم؟ أتخشون تهديدات بشر زائل وتنبذون من وهب نفسه لله؟"، وقام بنقل بيكيت إلى مدينة سينس باسطاً عليه حماية ملكية مطلقة وتعهد بعدم المساس به[١].

يتضح ذلك من أن الملك لويس السابع لم يكن الملك الذى يترك هذا الموقف يمر دون الاستفادة منه، في صراعه مع الملك هنري الثاني، وهو الذى عرف عنه تقواه وحبه لرجال الدين وتقربه لهم، ذلك سعى لخلق نوع من التحالف مع أكبر القوى في الغرب الأوروبي في ذلك الوقت وهي البابوية، محاولاً كسر قوى الملك الإنكليزي، فنراه قد أرسل إلى البابا يطلب معونته لحماية توماس بكت ضد الطاغية على حد تعبيره، وبذلك بدأ يعد العدة لمناصرة توماس، محاولاً كسب الأنصار داخل مملكة انكلترا نفسها، وكان لويس يسعى لأن يجعل قضية توماس قضية أوروبية مسيحية عامة تقلل من نفوذ هنري الثاني داخل القارة الأوروبية بصفة عامة والغرب الأوروبي بصفة خاصة، مما يساعده على مواجهة أطماع الملك هنري الثاني في الأملاك للفرنسية[٢].

ولإدراك السلطة الإنكليزية مدى العداء القائم بينها وبين مملكة فرنسا قام الملك هنري الثاني في غضون أيام قلائل، بإرسال سفارة إلى البابا الكسندر الثالث، مكونة من روجر **Roger** رئيس أساقفة يورك، وهنري **Henry** رئيس أساقفة ونشيستر وجابرت رئيس أساقفة لندن **London**، وهيلاري **Hilary** رئيس أساقفة شستر، والتقوا جميعاً بالبابا في مدينة سينس، وقالوا عن توماس الكثير من خلال عريضة اتهامات لكن البابا لم يصدق تلك الدعاوى الكاذبة لظنه أنهم شهود زور[٣].

وبعد رفض الملك لويس تسليم بيكيت زاد غضب الملك هنري الثاني وقرر الانتقام مما دفعه في بداية عام ١١٦٥ إلى العبور إلى دوقية نورماندي، ومن هناك أصدر مرسوما يستهزئ فيه وينقم على البابا الكسندر الثالث، ورئيس الأساقفة توماس بيكت، وقرر طرد كل أقارب توماس بيكت خارج انكلترا بعد تجريدهم من أملاكهم ووضعهم في مراكب وشحنهم إلى الفلاندرز[٤]

كما حدث خلاف بين الملك لويس السابع والملك هنري الثاني في سنه ١١٦٧وعلى أثره أحرق عساكر هنري مدينة كومونت **Chaumont** الفرنسية، وأسروا عددًا كبيرًا من الفرسان والمدنيين، فرد لويس على ذلك الهجوم بإحراق قرية أندلي **Andelelys** ليعود بعدها إلى فرنسا وقد خسر ألف رجل هذا فضلاً عن أعداد الفرسان الهائلة التي وقعت في أسر رجال هنري الثاني وعلى الرغم من تلك الخسائر إلا أن الملكين، لم يلبثا أن وقعّا صلحاً في مقاطعة لافرت برنارد **Lavert Bernard** القريبة من إقليم فيكسن، وذلك في تموز

---

(1)Kelly, Eleanor, op.cit.,pp. 120 – 122; Weir,op.cit.,p.161.

(2) George William Greenaway, English Hitorical Documents Edited by David G. Douglas and George Gremanaway. Vol, 2, London: Eyre and spottis woode, 1953, P. 734.

(3) Frederic G. Bacshawe , the history of the royal family of England ,vol ,I , London , 1912,p.65.

(4) A.F.Pollard , the history of England A. study in political evolution ،1971,p.11.

١١٦٨، وبينما هم هناك وصلت رسل ملك اسكتلندا ومبعوثي أمير جوينند، ورسل من كل الناقمين على سياسية الملك الإنكليزي، تطلب اللقاء مع الملك الفرنسي، وعندما اجتمعوا بهِ طلبوا منه ألا يعقد سلام مع الملك هنري، وطالبوا أيضاً بمساعدته ضد الملك نفسه، الذى ما إن علم بهذا إلا ورفض الاستمرار في الحديث عن السلام، وقد استجاب الملك لويس لنداء كبار الإقطاعيين والتابعين، متمسكاً بدعمهم ومعلناً بذلك تأييده للثورة ضد العرش الإنكليزي[١].

وفي ضوء ما سبق يتضح أن الملك لويس السابع، وهو الملك الذي يكن بداخله كل الازدراء للملك الإنكليزي لم يكن ليضيع على نفسه فرصة من خلالها يستطيع القضاء على الملك الإنكليزي وتقليص نفوذه داخل مملكته، كل ذلك من أجل الحفاظ على سلامة تاجه، الذي كان مهددًا، طالما أن الملك هنري ينعم بالأمان والسلام، لذلك استجاب لنداء كل الناقمين على سياسة هنري، ورفض عقد السلام معه عساه بذلك أن يحقق أمله في تكوين حلف مناهض يستطيع من خلاله تحقيق الأمان لمملكة فرنسا، والقضاء على قوة الملك الإنكليزي، الذي سرعان ما مكث للراحة للتفكير، عساه أن يفعل شيئاً لمواجهة ذلك التحالف[٢].

وهكذا يتبين أن الراحة التي أعطاها الملك هنري لنفسه لم تكن إلا هدنة من أجل الاستعداد لحملة قوية، يستطيع بها القضاء على ذلك التحالف بزعامة الملك الفرنسي، الذي أصبح متاخماً لحدود مع دوقية نورماندي، لذا قاد الملك هنري حملة قوية استطاع من خلالها الهجوم على القلاع التابعة للملك لويس السابع والواقعة على الحدود مع دوقية نورماندي، وقام بإحراق أربعين قرية من ممتلكات كونت بونثيو **Count of Ponthieu** المتحالف مع الملك الفرنسي، مما دفع الأخير إلى الرد بهجوم على قلعة شانبرين **Chenebrun** الواقعة في دوقية نورماندي، لكنه كان هجومًا ضعيفاً تكبد فيه خسائر كثيرة، مما دفعه إلى الانسحاب وعلى الجانب الآخر قام الملك الإنكليزي بتدمير قلعة هيودي نيفاشتيو، **Hugh de Neufchâteau** ، وخرب كثيرا من أراضي كونت أن بيرش **Perche** و دمر كثيرا من الأراضي لاسيما التي لم تقع في قبضته أثارت كل تلك الأحداث الملك لويس السابع كثيراَ فمع نهاية عام ١١٦٨ كانت النتائج في غير صالحه، لذا حاول جاهدًا إعداد قواته من أجل خوض معركة يكون له فيها الغلبة، -على الأرجح أنه فشل في هذا-، لم تنته المناوشات بين لويس السابع وهنري الثاني، والمحاولات التي قام بها لويس لإحلال السلام عن طريق الدبلوماسية لم تجد نفعا، فلا قوة ولا دبلوماسية أثبتت فاعليتها في كسر هيبة هنري الثاني، ففكر لويس أن مالم يجن ثماره بالقوة والدبلوماسية قد يجنيه بالحيلة[٣].

في عيد الغطاس[٤]عام ١١٦٩ دعا لويس هنري لاجتماع في مونت ميرال

---

(1) Weir,op.cit.,p.172.

(2)Franck Bright, M.A., Op. Cit.,p.45.

(3)Owen, op.cit.,pp. 57 – 59,

(٤) عيد الغطاس : يحتفل العالم المسيحي في السادس من كانون الثاني (يناير) من كل عام بـ "عيد الغطاس"، وهو مناسبة دينية تخلد ذكرى معمودية السيد المسيح في نهر الأردن على يد يوحنا المعمدان (يحيى بن زكريا). ويُشير ذلك الحدث، وفقاً للرواية الإنجيلية، إلى التجلي العلني للمسيح أمام العالم، حيث يذكر الإنجيل أن السماء انفتحت عند صعوده من الماء، وحلّ

Montmirail التي تقع على حدود مين بالقرب من شارتر **Chartres**، وكان يصحب كليهما حاشية ضخمة، لاسيما هنري الذي كان مصحوبا بأبنائه الثلاثة، كل منهم متألق في ملابسه ومحاطين بالبارونات والفرسان، وافتتح هنري المفاوضات مع لويس بخطاب رصين بلاغيا فتحدث قائلاً: **"سيدي الملك، في عيد الغطاس هذا أوصي بأبنائي الثلاث وأراضي إلى حمايتك"**، وكان الاجتماع يهدف إلى للتفاوض حول تسوية سلمية دائمة، ومناقشة عدة أمور كان من أهمها: محاولة التوصل لتسوية سلمية بين هنري وتوماس بيكيت، إلا أن الملكين عجزا عن الوصول إلى حل وسط يرضي جميع الأطراف وخلال ذلك الاجتماع اقترح الملك لويس السابع على الملك هنري الثاني أن يقسم إمبراطورية الأنجفيين بين أبنائه الثلاثة، حتى يضمن اعتراف البارونات المحليين بحقهم، هذا إلى جانب أن هنري سيصبح باستطاعته التفرغ للسيطرة على أتباعه المتمردين، وكان تقسيم لويس المقترح على النحو التالي: يتوج الابن الأكبر هنري على انكلترا ونورماندي ومين وأنجو أما ريتشارد فيعين كونتا على أكيتاين، وأخيرًا جيفري على بريتاني على شريطة أن يكون ولاؤهم لسيدهم الأعلى لويس السابع[١]

كانت تلك محاولة من لويس لإضعاف إمبراطورية هنري، عن طريق توزيعها بين الأب وأبنائه، ولم يستشر لويس إليانور في ذلك التقسيم إلا أنها فرحت كثيراً بتعيين ابنها ريتشارد على أكيتاين، فهو المفضل والمقرب منها، وفي نفس العام قررت أن تورث ابنها ريتشارد الولاية على أكيتاين، فزارت القرى والمدن التابعة لمنطقتها، وذلك حتى تحصل على تأييد وموافقة أتباعها على ولاية ريتشارد الذي كانت تعلق عليه آمال استعادة أمجاد آبائها وأجدادها[٢].

شهدت كنيسة وستمنستر في يوم السبت الموافق الرابع والعشرين من أيار عام ١١٧٠، وتزامنًا مع عيد القديس باسيليوس، مراسم تتويج الملك هنري لابنه هنري الشاب ملكًا على إنكلترا على يد رئيس أساقفة يورك، وقد شاب ذلك الحدث واقعة مثيرة للجدل تمثلت في عدم

روح الله عليه بهيئة حمامة، مع سماع صوت من السماء يُعلن بنوّته الإلهية. وقد اكتسب العيد تسمياته من دلالاته الطقسية واللاهوتية؛ فاسم "الغطاس" مُستمد من طقس التعميد الذي يتم عبر تغطيس الطفل في الماء، بينما يُعرف لدى الكلدان والموارنة والسريان باسم "الدنح"، وهي لفظة سريانية تعني الظهور والإشراق، في إشارة إلى المعنى اللاهوتي العميق المتمثل في الظهور الإلهي للعالم. وتتنوع مظاهر الاحتفال بهذا العيد عالمياً باختلاف الثقافات؛ ففي الدول ذات الطابع الأرثوذكسي مثل روسيا واليونان وبلغاريا، ترتبط الطقوس بالمياه، حيث يُلقى الصليب في البحر أو النهر ليقوم الشباب بالغوص لاستخراجه، إضافة إلى السباحة في المياه المتجمدة تبركاً. أما في إسبانيا ودول أمريكا اللاتينية (كالمكسيك والأرجنتين)، فيتخذ العيد طابعاً كرنفالياً ، حيث تُنظم المواكب الضخمة وتُوزع الهدايا وسط الأضواء والموسيقى والمفرقعات. وفي السياق ذاته، تتميز الثقافة الإيطالية بتقليد "لا بيفانا"، وهي الشخصية المماثلة لـ "بابا نويل"، التي تقوم بتوزيع الهدايا على الأطفال ليلة العيد. يراجع : القس أثناسيوس المقاري ، الزمن الطقسي بين عيدي النيروز والصليب ، دير القديس أنبا مقار الكبير ببرية شيهيت، القاهرة ، ٢٠٠٩ ، ص٧٢ – ٧٥ ؛ جر يصائي ، عادات الحفلات والهدايا في عيد الميلاد ، ورأس السنه ، والغطاس ، مجلة الآثار ، بيروت ، ج١ ، ١٩١١ ، ص٢٥١ – ٢٥٢.

[١] اندهش كل من حضر مؤتمر مونت ميرال من موقف هنري الثاني وموافقته على تقسيم أراضيه التي اكتسبها بمشقة بالغة إلى أولاده فذكر البعض أنه فعل ذلك لأنه كان يخطط سرا للقيام بحملة صليبية إلى الأراضي المقدسة، بينما ذكر البعض الآخر أنه كان يخطط للحصول على الإمبراطورية الرومانية المقدسة، لذلك أراد التخلص من مسؤولية حكم بلاده.

Seward, op.cit., pp. 117-119; Meade, op.cit., p.242.

[2] Seward, op.cit., pp. 117-119.

تتويج زوجته مارغريت، ابنة الملك لويس السابع، إلى جانبه [١]،وهو الأمر الذي وصفه المؤرخ سيوارد **Seward** بالإغفال الغريب والمهين، بل وكاد يكون في حكم المؤكد أنه إهانة متعمدة للملك الفرنسي، وعلى الرغم من تباين الروايات التاريخية حول سبب غيابها حيث عزا المؤرخ روبرت من توريني ذلك إلى تأخر وصولها من نورماندي، بينما أشارت مصادر أخرى إلى تعمد تأخيرها في كاين **Caen** ، إلا أن النتيجة كانت غضبًا عارمًا اجتاح الملك لويس السابع، ودفعه لشن هجوم عسكري فوري على الحدود النورماندية، استدعى ذلك التصعيد عودة الملك هنري شخصيًا إلى الدوقية للإشراف على تحصيناتها الدفاعية، ولم تهدأ وتيرة الصراع إلا بعد تدخل الكونت ثيوبالد بلوا للوساطة، حيث عُقدت سلسلة من الاجتماعات بين الملكين في فاندوم، ولافيرتيه **Laverty**، تكللت بنجاح هنري في استرضاء الملك لويس واحتواء الأزمة [٢].

وبالعودة إلى الخلاف بين الملك هنري وتوماس بيكيت فانه قد ظل قائماً، وبعد عدة مقابلات بين هنري وبيكيت تدخل لويس مرة أخرى والبابا إلكسندر الثالث أيضًا، لإنهاء ذلك الخلاف اذ أمر البابا هنري بصورة مباشرة، إعادة بيكيت إلى منصبه على رئاسة أساقفة كانتربري وإلا سوف يوقع قرار الحرمان على انكلترا، وقد استجاب هنري فوراً لأوامر البابا خوفًا من الحرمان، كما لبّى دعوة لويس للاجتماع الثاني في افرانشس **Avranches** حيث قابل توماس ووعده بإعادته إلى منصبه وإعادة حقوق الكنيسة[٣].

فشكر بيكيت لويس على مساعدته وحمايته التي كانت لا تقدر بثمن، ثم عاد إلى انكلترا واستغل صلاحياته كرئيس أساقفة كانتربري، بإصدار قرار الحرمان في حق كلا من أسقف يورك والأساقفة الذين شاركوا في تتويج ابن هنري على انكلترا في مدة غيابه في فرنسا وذلك لما اعتبره إهانة في حقه ككبير للأساقفة فكانت مهمة التتويج من صلاحياته[٤].

وفي العام نفسه ١١٧٠ زار أربعة من الفرسان هنري الثاني عندما كان في نورماندي برفقة أسقف يورك، وقدموا إليه شكوى ضد توماس بيكيت وما أصدره من قرارات حرمان ضد الأساقفة، فثار غضب الملك نتيجة أفعال بيكيت، وقال: **"ألا يوجد بين الذين يأكلون زادي من يكفيني مؤونة ذلك الأسقف العاصي"**، وعندها قرر الفرسان الذهاب إلى انكلترا حيث بيكيت في كانتربري، وطالبوه برفع قرار الحرمان عن رجال كنيسة يورك وإعادتهم إلى وظائفهم، إلا أن بيكيت تجاهل طلبهم، فخرجوا من عنده غاضبين ثم عادوا بعد ذلك في كانون الأول ١١٧٠ وقتلوا بيكيت وقطعوه إربا[٥].

لم يكن مقتل الأسقف بيكيت عاديًا فقد ثارت أوروبا كلها، وعلى رأسها البابا ضد هنري

---

(1)Robert of Torigni, op.cit.,p.207.

(2) Seward, op.cit., p.117.

(3)Elizabeth Brown, Woman and Her Chapters in Lord and Mrs Ed, Parsons and Wheeler, Palgrave Macmillan, New York, 2002, p.18.

(4)Gobry, Louis VII, p. 226.

(٥) موريس بيشوب ، تاريخ اوربا في العصور الوسطى ، ترجمة : علي السيد علي ، المجلس الاعلى للثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٥ ، ص ٦٧ ؛ نظير حسان سعداوي ، تاريخ انكلترا وحضارتها في العصور القديمة والوسطى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ٨٥ .

الثاني، ورفض البابا كل محاولات هنري لتبرير موقفه، بأنه لم يأمر الفرسان بقتل بيكيت، وقام بإصدار قرار الحرمان على هنري الثاني ومملكته، وعلى القتلة الذين ذبحوا بيكيت مع كل من زوّدوهم بالمساعدة أو بالرضى، أوعملوا على إيوائهم[١].

٢. الصراع الداخلي في انكلترا ودور الملك لويس السابع فيه ١١٧٢ – ١١٧٨.

بعد مقتل توماس بيكيت لجأ أبناء هنري إلى ديار والدتهم إليانور، فالغضب مما فعله والدهم تجاه بيكيت كان شديدًا، وسمعوا بمدى الصداقة التي كانت تربطه بوالدهم ، اذا اهتزت صورة أبيهم في نظرهم، وسقطت صورة البطل التي لازمتهم طوال عمرهم[٢].

لاشك أن إليانور شعرت بكراهية أبنائها لوالدهم وسمعتهم كثيراً وهم يتحدثون عنه باحتقار شديد ، فبعد مؤتمر مونت ميرال لم يعد هؤلاء الأطفال صغاراً مثل ما كانوا من قبل فقد أصبحوا كبارًا، فهنري الشاب كان في الثامنة عشرة من عمره، وريتشارد في السادسة عشرة أما جيفري فكان في الخامسة عشرة، وعلى العكس من ذلك كان هنري يراهم بأنهم لا يزالون صغارًا على الإمساك بسلطة أو تولي حكمًا، على الرغم أن هنري عندما كان في سن ابنه هنري الشاب كان يقود جيوشا وغزوات، وعلاوة على ذلك فقد سلمه والده دوقية نورماندي وهو في سن التاسعة عشرة من عمره[٣].

ولو تساءلنا عن الأسباب التي دفعت هنري الثاني من عدم إعطاء أبناءه حكماً لبعض المدن في إمبراطورتيه المترامية الأطراف نجد أن الإجابة على ذلك تكمن في أنانية هنري الثاني التي أجبرته على عدم التخلي عن شيء يخصه حتى ولو كان لأبنائه وأن ثقته في الغرباء كانت أكبر بكثير من ثقته بأبنائه وكأنه كان يتنبأ بغدرهم، ولذا عندما نادى بتتويج ابنه هنري الشاب على انكلترا كان ذلك من الناحية النظرية فقط، واعتقاد هنري أن إعداد أبنائه للحكم يحتاج إلى وقت طويل فهم في نظره لم ينضجوا بعد[٤].

اعتقدت الملكة إليانور أنه لن يكون هناك سلام في الامبراطورية حتى يقلدهم الملك مناصبهم ويسمح لهم بممارسة سلطتهم بالقوة لأنها كانت تعلم أنه لن يسمح لأي عضو من عائلته بممارسة أي سلطة[٥] .

---

(١) سهيل زكار، المصدر السابق ، ج ٣٠، ص ١٣٢ ؛ وليم لانجر ، المصدر السابق ، ص ٥٣٣.

(٢)على الرغم من تراجع مكانة الملك هنري وتأثر سمعته، وما وثقته السجلات التاريخية حول انقلاب أبنائه عليه وتنامي مشاعر الكراهية تجاهه، إلا أن الواقع كان يتسم بتعقيد أكبر؛ فقد احتفظ الأبناء باحترامهم الضمني له، لكنهم في الوقت ذاته تمردوا على سلطته ورفضوا الانصياع لمطالبه، متقصدين تجنب لقائه إلا في أضيق الحدود، واقتصرت اجتماعاتهم به على المناسبات الدينية الكبرى كأعياد الميلاد والفصح، وذلك بعد فترات جفاء وانقطاع امتدت لشهور، وأحياناً لسنوات طويلة، ولم يكن ذلك التباعد وليد الصدفة، بل كان نتاج تراكمات مريرة رسخت في أذهانهم؛ فإلى جانب التداعيات القاتمة لحادثة اغتيال توماس بيكيت، كان لسوء معاملة الملك لوالدتهم أثر بالغ في نفوسهم،غير أن الشرخ الأعمق الذي صدّع جدار العائلة تمثل في علاقته غير اللائقة بـ "روزاموند كليفورد"، النبيلة الإنكليزية التي اشتُهرت بلقب "روزاموند الجميلة" والتي اتخذها الملك عشيقة له، فقد شكلت شخصية روزاموند، وما حظيت بهِ من اهتمام علني ومكانة من قِبل الملك، إهانة مباشرة وصريحة لوالدتهم الملكة، لتتحول تلك المرأة في أعين الأبناء إلى رمز لانهيار استقرارهم العائلي، وسبباً جوهرياً زاد من حدة الاحتقان واتساع الفجوة بينهم وبين أبيهم.

Seward, open, pp. 95, 122.

(3) Seward, op.cit.,pp 122-123; Meade, op.cit., p.264.

(4) Meade, op.cit., p. 264-265.

(5) Ibid, pp. 264-265.

انتهزت إليانور تواجدها مع الملك هنري في مدينة شينون **Chinon** عام ١١٧٢ محاولةً ردم الهوة بين الأب وابنه وتلبية طموحات الأخير، وعلى الرغم من الحقائق التي تشير إلى استهتار الأمير بالواجبات الرسمية، وتمرده على تعليمات والده وتفضيله حياة اللهو والفروسية على أعباء السلطة، وبينما أغفلت إليانور عن عمد ذكر البذخ المالي للأمير، فقد استمرت في الدفاع عنه مدفوعةً بتعاطف أمومي وفلسفة شخصية ترى أن له الحق في التصرف بحرية، متأثرة في ذلك بذكريات شبابها ورغبتها المماثلة في الانعتاق والعيش بلا قيود حينما كانت في عمره[١]، وبحلول عام ١١٧٣ كسبت إليانور في صفها جميع الساخطين في كل من فرنسا وانكلترا على هنري كحلفاء[٢]، وكانت رغبة أولئك جميعاً التخلص من سلطة هنري على اقطاعاتهم، هذا فضلاً عن أنها كسبت زوجها السابق لويس السابع كحليف لها[٣].

وصل لويس السابع في ذلك الوقت لدرجه كبيرة من النضج بوصفه رجل دولة قوي وسياسي فطن على حد سواء، وقد رأى لويس السابع في التعاون مع إليانور وأبنائها الثمار التي حان وقت قطافها للانتقام، كما أنها كانت فرصة لا يمكن تفويتها لتحسين صورته في فرنسا بوصفه رجل حرب وسياسي محنك، هذا إلى جانب اضعاف قبضة الملك هنري الثاني على مقاطعاته الفرنسية، وتمكين أبنائه من خلعه عن العرش، وهي أهداف اعتقد الملك لويس السابع أنها ستحول صهره عاهل انكلترا المقبل الملك (هنري الشاب) إلى بيدق يحركه كيفما يشاء[٤]، واللافت أن لويس السابع تجاوز أسلوب التحريض إلى الاشتراك المباشر في قيادة ذلك التمرد والمشاركة في جميع حيثياته[٥]، الى درجة دفعت بعض المعاصرين للجزم أنه

---

(1) John D. Hosler, Henry II Amedieval Soldier at War 1147 – 1189 ،Boston, 2007,p,196.

(٢) ربما تكمن دوافعها في رغبتها في إسقاط تلك الإمبراطورية على سيدها لأنها كانت مقتنعة بأن هناك وقت طويل حتى ينتقل الحكم إلى أبنائها فهي متأكدة من أن هنري لن يتنازل عنه طواعية ومع أن المؤرخين لم يمدوننا بأي تعليق عن تفكير اليانور إلا أنهم كانوا متفقين جميعا على أنها العقل المدبر لتلك الثورة والقائد الأعلى لها ، فقد أكد جيرفاس كانتربري بأن الانقلاب التام الذي حدث ضد هنري قد خطط ونفذ من لدن الملكة فقال عنها إنها امرأة طائشة ذكية جداً ولدت من أصل نبيل، لكن طائش ، أما المؤرخ المجهول للجيستا فيقول بأن مديري هذه الخيانة الشنيعة كانوا لويس ملك فرنسا، واليانور ملكة انكلترا، بينما أشار وليام أوف نيوبيره إلى تلك الثورة فقال بعد أن وصل الملك الشاب إلى سن الرجولة **"همس في أذنه بعض الأشخاص بأنه يحق له الآن الحكم بمفرده"** ،وذكر رالف من نسيتو في كتابه صورة التاريخ قائلاً:**"بينما كان الملك هنري الثاني غائباً في ايرلنده، بدأ رالف دي فاي وهو عم الملكة اليانور في خرق عقل الملك الشاب وإبعاده عن أبيه"**، وقد قيل كان هذا بناء على نصيحة من الملكة اليانور، وقالا أنه من الواضع إنه من غير اللائق أن تكون ملكا ولا تمارس حكم المملكة . يراجع : سهيل زكار ، تواريخ أسرة بلانتغنت ، ص ١٣٣ ؛

Jervassey of Canterbury, The Historical Works of Jervassey of Canterbury, Vol. 1, ed. William Stubbs, Longman, London, 1878, p.242.; Meade, op.cit., p. 268; Benedict Peterborough, The Works of King Henry II, 2 vols., ed. William Stubbs, Rolles Series, London, 1867, p. 49.

(٣) عباس فخري حمزه، هنري الثاني والتطورات الداخلية في انكلترا ١١٥٤ – ١١٨٩ ، رسالة ماجستير ، جامعة بابل، كلية التربية للعلوم الانسانية ، ٢٠١٥، ص ١٣٥ .

(4)Arthur Hassall, M.A., Arthur Hassall, The History of British Foreign policy, London, 1912, p.29.

(5) Edith Thompson, Op. Cit., p.51.

كان العقل المدبر له، والقوة التي استند اليها المتمردون في مناوأة ملكهم[١].

وظف لويس السابع الخطأ الذي اقترفه هنري الثاني في تقسيم ممتلكاته القارية بين أبنائه لصالحة، على أساس أن ابناء هنري الثاني حكموا عملياً ممتلكات أبيهم في فرنسا وامتلكوا الإمكانات اللازمة لخلعه عن عرش إنكلترا، وهو مأخذ كبير على هنري الثاني الذي اعتقد أنه بتقسيم ممتلكاته الفرنسية بين ابنائه اثناء حياته، وتهيئة ابنه البكر هنري الشاب لوراثة عرش إنكلترا[٢]، سيتلافى نشوب خلافات بين ابنائه قد تتطور إلى نزاعات مزمنة تهدد الممتلكات الأنجوية، وتهيئ مدخلاً للطامعين في السيطرة عليها، أو إرهاقها واستنزاف طاقاتها بالشكل الذي ينعكس سلباً على ثقلها العسكري والسياسي[٣]. وهكذا يتبين أن التعاون بين لويس وإليانور دلّ على أن كلاهما كان يتحرك وراء مصالحه الشخصية بشكل عملي بحت بغض النظر عن دوافعه العاطفية.

لم يشك هنري بوجود مؤامرة تحاك من خلفه، إلى أن جاء ريموند كونت تولوز سراً إليه وحذره بأن المؤامرات في أكيتاين قد اختمرت وأن عائلته يخططون للإطاحة بهِ[٤]، ومع ذلك فإن هنري الثاني لم يلتفت لذلك الخصم غير الموثوق بهِ والمعروف بالغدر والخيانة، فلم يصدق خيانة إليانور له، لاسيما أنه على يقين من كراهية كونت تولوز لها، كما أن جواسيس الملك هنري لم يخبروه بتلك المؤامرة ولم تصل إليه أية تقارير عن الغدر والخيانة[٥]، وبعد التفكير في الأمر ملياً توقع أن خصمه اللدود لويس السابع كان من الممكن أن يثير الفتنة بين أبنائه للانتقام منه، وتفاديًا لما قد يحدث من فتن استدعى هنري الثاني ابنه الشاب هنري إلى انكلترا حتى يبقى تحت ناظريه وتحت حراسة شديدة، وبعد وصول الملك وحاشيته بعد رحلة شاقة إلى شينون**Shino**[٦] في الخامس من آذار عام ١١٧٣، وفي تلك الليلة نام الملك هنري بعمق أكثر من عادته وفي الصباح التالي استيقظ ليجد أن ابنه قد هرب وعندما علم بأن ابنه غادر المملكة واتجه إلى باريس للاحتماء بالملك لويس السابع ،علم أن الهروب كان مخططاً له بدقة، فالخيول كانت قد أرسلت إلى الابن على مراحل حتى لا يجد أية صعوبة في الهرب، لكن الشخص الذي رتب ووضع كل تلك التفاصيل ظل مجهولاً على الرغم من أن الراجح أن إليانور هي المسؤولة عن ذلك[٧].

لم يكن ذلك الهروب إلا انعكاساً لحالة من السخط المتراكم لدى الملك الشاب تجاه والده،

---

(1) Eyre Evens Crowe, France, Vol. I, London, 1830, p.47.

(2)William Grimshaw, A History of England from the First Invasion of Julius Caesar until 1850, Philadelphia, USA, 1851, p. 49.

(٣) عبد القادر احمد اليوسف ، المصدر السابق ، ص ١٧٩ .

(٤) كان هدف كونت تولوز تصفية حسابه مع اليانور والقضاء على ادعاءاتها في الدوقية .

Weir,op.cit.,p.199.

(5)Meade, op.cit., p.270; Kelly, Eleanor, pp.179 – 180.

(٦) شينون : مدينة فرنسية تقع في إقليم اللوار جنوب غرب مدينة تورز وهي مبنية على صخرة عالية :

Moore, W. G., Op. Cit., p. 180.

(٧) يراجع حول صراع الملك هنري الثاني مع ابنائه : موج سلام قلم ، المصدر السابق ، ص٨٢- ٨٣ ؛ سهيل زكار ، المصدر السابق ، ج٣٠ ، ص ١٣٦ .

إذ كان يعاني من عدم كفاية الأموال المخصصة لنفقاته ونفقات حاشيته، لاسيما في ظل ما عُرف عنه من ميل شديد للإسراف، وقد تفاقمت الأزمة وتعمقت الفجوة بينهما عندما شرع الملك هنري الثاني في التفاوض مع هيوبرت الثالث، إيرل موريان، لتزويج ابنته أليس من الابن الأصغر جون **John** (١١٦٦- ١٢١٦)، ففي خضم تلك الترتيبات، طلب الأب من ابنه هنري الشاب التنازل لأخيه جون عن قلاع استراتيجية في إقليم أنجو، وهي شينون ولودان**Lodan** وميرابو **Mirabeau** ، لكنه قوبل ذلك الطلب برفض قاطع من الابن في تحدٍ صريح لإرادة والده، مما دفع بالأمور نحو منعطف خطير، ففي نيسان عام ١١٧٣، ترك هنري الشاب والده سراً والتحق بإخوته ريتشارد وجوفري في أكيتاين، مدعوماً بتحريض وتأييد من والدته الملكة إليانور التي نصحتهم باللجوء إلى الملك لويس السابع، لتبدأ بذلك مرحلة جديدة من الصراع العائلي والسياسي[١].

أرسل الملك هنري سفراءه إلى باريس برسالة يطالب فيها لويس السابع بتسليم ابنه، ووعده بأنه سوف يحل له جميع مشاكله، وأقسم بأنه يأخذ بنصيحة الملك لويس في تحقيق رغبات ابنه، رد لويس على الأساقفة ساخراً منهم **"فسألهم من الذي أرسل تلك الرسالة؟ فأجابوا على الفور أنها من هنري ملك انكلترا فأجاب ساخرًا من المستحيل ذلك !! فملك انكلترا معي، أنت مخطئ تمامًا في منح اللقب لأبيه، لقد مات ذلك الملك، ومن الأفضل لو أنه توقف عن اعتبار نفسه ملكًا، لأنه قبل كل شيء سلّم مملكته لابنه" وأن "استمراره في انتحال شخصية الملك سيُصحح قريبًا"**، كان رد لويس غريباً ويحوي الكثير من الدهاء والفطنة، كما يدل رده على إعلان حرب مبطنة[٢]، لكنه بعد التشاور مع مستشاريه وافق على ارسال هنري الشاب وزوجته لكن ليس إلى إنكلترا بل إلى دوقية نورمندي وتحت وصايته، وهناك تحدث الملك هنري الثاني مع ابنه لإقناعه، وعزم على إعطائه ثلاث قلاع كبيرة غير أن الابن رفض ذلك، مطالباً إما بإنكلترا أو دوقية نورماندي أو دوقية أنجو، وكان ذلك الطلب اقتراحاً من الملك الفرنسي وكل البارونات والأمراء الذين يكرهون وجود الملك هنري على عرش مملكة انكلترا[٣]، مما دفع الابن هنري إلى البحث عن ذرائع ومسوغات تدعم مطالبه من والده، وهو ما أفضى إلى انهيار لغة الحوار بينهما ووصولها إلى طريق مسدود، غادر الابن إثر ذلك إلى بلاط الملك الفرنسي، غير أن تخبطه استمر هناك، إذ دخل في نزاع مع مستشاريه دفعهم إلى التخلي عنه والعودة إلى خدمة الملك هنري الثاني في إنكلترا، إذ عكست تلك التصرفات افتقار الابن للحكمة والبصيرة، مما أدى إلى فشل طموحاته بسذاجة، وانتهى بهِ الأمر بإعلان العداء السافر لوالده [٤].

في الوقت نفسه قام لويس السابع ملك فرنسا بعقد اجتماع كبير في مدينة باريس، حضره

---

[١] موج سلام قلم ، المصدر السابق ، ص٨٢- ٨٣ ؛ سهيل زكار ، المصدر السابق ، ج٣٠ ، ص ١٣٦ .

[2] Kelly, op.cit., p.179- 180;Seward, op.cit., p.130.

[3] David Moyn, King Henry II and the Conflict of 1173-1174 A study of the many aspects, presented in fulfillment of the requirements for the MA in History University of Oslo,2018,p.15.

[4] Ibid, p.15.

كل الأمراء في مملكة فرنسا، لأخذ يمين الولاء للملك هنري الشاب، وأنهم سوف يقومون بمساعدته في طرد والده من مملكته، إلا إذا تم تسليم الملك الصغير حقه وحقق له رغباته، وبالمثل قام الابن بالقسم للحاضرين، على أن لا يقوم بعقد أي سلام مع والده الملك هنري الثاني، إلا بعد موافقتهم، والمصادقة منهم عليه[١]، والأخطر من ذلك ان لويس السابع استطاع نسج خيوط تحالفات إقليمية طوّق بها مملكة انكلترا من أغلب جهاتها، وفتح آفاقاً واسعة لجبهات عسكرية مناوئة لجيوش هنري الثاني[٢]، في مقدمتهم فيليب كونت فلاندرز **Philip I, Count of Flanders** (١١٤٣- ١١٩١) مقابل حصوله على ألف جنية سنويًا من دخول مملكة انكلترا فضلاً عن مقاطعة كنت كاملة، أما قلعة دوفر وقلعة روشيستر فلأخيه ماثيو أوف بولونيا **Mathew of Boulogne** (١١٣٧- ١١٧٣) مقابل طاعته أيضا، أما إيرل دوم اف مورتجان **Earl Doom of Mortghan** ،وثيوبولد الخامس كونت بلوا **Theobald V, Count of Blois** ،(١١٣٠ - ١١٩١) فسيحصل كل منهما على مئتي جنيه سنويًا من دخول مقاطعة أنجو وقلعة أمبويز مقابل طاعتهم أيضاً ،وانضم اليهم وليم الاسد ملك اسكتلندا **William the Lion, King of Scotland** (١١٤٢-١٢١٤) الذي حصل على وعد من هنري الشاب وبعض بارونات شمالي انكلترا بالتنازل عن بعض مقاطعاتهم مقابل دعمهم عسكرياً ضد الملك هنري الثاني[٣] .

كما شملت قائمة المناصرين فرسان الملك الشاب، وأبرزهم وليم تانكر فيل **William ville Tanker** وليم مارشال إيرل بيمبروك الأول **William Marshal, 1st Earl of Pembroke** (١١٤٦-١٢١٩) وجوفري أف لوزنينان **Geoffrey of Lusignan** (١١٥٠ - ١٢٦٠) ووليم أف نيف **William F. Neave** ، بل وقام البعض بتسليم قلاعه طواعية للملك الشاب منهم جوسلين كريسبين **Jocelyn Crispin** وجلبرت اف ابيزا **Gilbert of Ibiza** وروبرت أف مونتفورد **Robert F. Mountford**[٤]، وبهذا الاتفاق اتضحت ملامح العلاقات الفرنسية الإنكليزية فبعد الاحتفال بعيد القيامة العام ١١٧٣ ثارت كل مملكة فرنسا وأبناء الملك هنري الثاني الثلاثة، هنري وريشارد وجوفري وكل الأمراء والبارونات المقربين منهم في انكلترا ونورماندي وأكيتاين وأنجو وبريتاني جميعاً ضد الملك هنري الثاني، متبعين أسلوب تشتيت الجهد العسكري من خلال مهاجمة ممتلكاته في فرنسا وانكلترا على حدٍ سواء[٥].

---

(1) Christopher Harper Bill & Nicholas Vincent, Henry II, Woodbridge ،2007, p.47.
(2) E. Wyatt Davies, M.A., A History of England, New York, 1916,p.31.
(3) William Grimshau, History of England from the First Invasion by Julius Gaesar to the Accession of Victoria, philadephia,1847, p.54.
(4) Benedicit of Peterborough,The chronicle of the reigns of Henryll and Richard. 1. 2vols. London, 1857,p. 44; Robert, Hoyt Stanley chodorow, Europe in the Middle Ages, United States of America, 1976,p.780.
(5) Smollett, M. D., A Complete history of England from the descent of Julius Caesar to the treaty of Aix la Chapelle, 1748, Vol. III ،London, 1758, p.157.

ويمكن القول أن أغلب إقطاعات هنري الثاني انضمت للثورة ما عدا نورماندي التي ظلت وفيّة لنظام هنري، أما من عائلته فقد بقي ابنه جون الذي كان لا يزال صغيراً خارج دائرة الثورة، وفي بداية فصل الربيع في ٢٩ حزيران عام ١١٧٣ بدأ الصدام الفعلي بهجوم على المنطقة الواقعة بين نهر السين ونهر إيرو **Eure** سقطت نتيجة له قلعة جورناي **Gournay** إحدى قلاع الملك الإنكليزي هنري الثاني في يد الابن هنري الشاب والملك الفرنسي لويس السابع وحلفائهم وبدا للجميع سهولة امتلاك كثير من الأراضي بالهجمات تارة والخداع تارة أخرى، فقاموا بفرض حصار على فيرنويل **Verneuil** التي تقع على نهر إيرو وبقى هناك الملك الفرنسي لويس السابع بجيشه محاصراً لها[١] .

أما باقي الحلفاء فبدأوا بهجوم قوى من أجل الاستيلاء على إقليم فيكسن وأثناء سيرهم في الطريق إلى هناك احرقوا كثيراً من القرى، وكان هدفهم الرئيس هو الاستيلاء على قلعة روان لكن واجهتهم حاميات قوية، لذا بدا لهم تغيير خطة الهجوم بأن يقوموا بهجوم مضاعف من خلال جانبي نهر السين ويتمثل ذلك في قيام فيليب الأول كونت فلاندرز بعبور الحدود النورماندية عند أوميل **Aumale** التي ستأخذ بسهولة ومنها يتجه إلى قلعة دراين كورت **Drien Court** المجاورة لقلعة روان بينما يقوم الملك الفرنسي لويس السابع باقتحام روان من الجنوب الشرقي بالزوارق والعبور إلى دوقية نورماندیا من خلال دوقية بلوا وترك الحصار المفروض على فيرنويل[٢]، وبذلك وقعت روان تحت تهديد مباشر من قوتين في الوقت نفسه فضلاً عن محاصرة فيرنويل من قبل جيش الملك الفرنسي لويس السابع في ذلك الوقت والتي صمدت لمدة شهر حيث فقدت فيه جزءاً صغيراً نتيجة لوجود ثلاثة أبراج قوية كل واحد منها منفصلاً عن الآخر ويحتوى على حوائط قوية وخزان للمياه وأهم تلك الأبراج كان يسمى بالكبير، وبعدما تعرض أهالي القلاع للحصار ورأى الجميع أنهم لا يجدون ما يأكلون طلبوا هدنة من الملك لويس السابع الذي عاد إليهم من أجل عرض الأمر على سيدهم الملك هنري الثاني ومن أجل طلب الإغاثة وإن لم يحصلوا عليها في خلال ثلاثة أيام يقوموا بتسليم القلعة للملك الفرنسي لويس السابع[٣].

نجحت الحامية في الحصول على القسم من الملك لويس السابع والابن هنري الشاب وروبرت الأول شقيق الملك الفرنسي وثيوبولد الخامس كونت بلوا ووليم ذو الأيدي البيضاء رئيس أساقفة سينس **Sens** (١١٣٥- ١٢٠٢) على أنهم إذا استسلموا للملك الفرنسي لويس السابع في المدة المحددة سوف يحسن لهم ويحلهم من الأسر ولا يسمح للآخرين ببيعهم، وأرسل لهم الملك هنري الثاني عن طريق الرسل أنه موافق على التسوية بينهم وبين الابن هنري الشاب والملك الفرنسي، وهكذا تأكد للملك هنري الثاني وجهة ذلك الهجوم الذي كان غرضه دوقية نورمانديا، لذا قام بالذهاب إلى انكلترا ليتدبر الأمر من هناك ويعد جيشه ويجهز المؤن والذخائر، فمكث هناك أياماً قلائل قام خلالها بهجوم قوي بالزوارق على الثائر

---

(1)Smollett, M. D, Op. Cit., p.160.
(2) Ibid, p.160 – 161.
(3) John D.Hosler, Op. Cit., p.198.

روبرت دي بومنت **Robert de Beaumont** إيرل ليكستر **Lecster** (١١٦٨ – ١١٩٠) ، وظل متعلقاً بالأمل والرجاء في الدفاع عن دوقية نورماندیا لاسيما بعدما تعثر كونت فلاندرز في المناطق المجاورة، وعلى الجانب الآخر قامت جماعة من جيش الحلفاء بالإغارة على دوقية نورماندیا من خلال أحد الجسور لكن حامية المدينة تصدت لهم وقاومت المغيرين بشجاعة، وجعلت المهاجمين يرتدون خلال الجسر الذي دمر من لدن الحامية، وكان الماء عميقاً في طريق تراجعهم فغرقوا جميعاً، وعندما سمع الملك الفرنسي بهذا قال: **"إن عناصر الطبيعة إلى جانب النورمان، فعندما قمت بغزو نورماندیا آخر مرة مات جزء كبير من جيشي عطشاً، ويمكننا اليوم أن نشكو من كثرة الماء"**[١].

قام الابن هنري الشاب بناء على تحريض الملك لويس بضم قواته إلى قوات فيليب الأول كونت فلاندرز وقوات أخيه ماثيو أوف بولونيا، وحشدوا عدداً كبيراً من الرجال المسلحين، وهاجموا دوقية نورماندیا وقام ذلك الجيش بالاستيلاء على قلعة أوميل بسرعة كبيرة وذلك على حساب ما قدموه من أموال لحراس القلعة، وسارعوا إلى حصار قلعة دراين كورت **Driencourt** التي تقع شمال روان التي كانت تحت قيادة جماعة من الفرسان الأشداء، واستطاع جيش التحالف الاستيلاء عليها وواصل زحفه إلى قلعة أركيوس **Arques** الواقعة على شاطئ القنال الإنكليزي الجنوبي جنوب أبو **Abu** وذلك في ٢٥ تموز١١٧٣، وعاد الدوق فيليب الأول كونت فلاندرز إلى دوقيته سراً، أما أخوه مانيو كونت بولونيا فمات على أثر جرحه من سهم عندما كان مع الحامية، واستطاع أخوه بطرس **Peter** تولي حكم بولونيا من بعده كل تلك العوامل مجتمعة أدت إلى نهاية تلك الحملة على دوقية نورماندیا من دون أن تحقق أي نتائج[٢].

في خضم تلك التطورات، حاول هنري الثاني اختراق حصار فيرنويل بجمع المعلومات الاستخباراتية، إلا أن وقوع جواسيسه في الأسر في ٢٦ تموز١١٧٣، وهو ما دفع الملك هنري الثاني إلى التحرك العاجل للتعامل مع الموقف، فاتجه صوب دامافيل **Damvill**، وفي اليوم التالي تمكن من الاستيلاء على قلعتها التي تخص جلبرت دي تليرس **Gilbert de Timeres**، وقبض على عدد كبير من الفرسان والرجال من جيوش الحلفاء، ليعود بعدها إلى روان [٣]، وإدراكاً منه لحتمية المواجهة، حشد هنري قواته لفك الحصار عن فيرنويل، مراهناً على تفوقه التكتيكي داخل أراضيه، وبمجرد اقتراب الجيش الإنكليزي، أيقن لويس السابع خطورة الموقف وصعوبة مجابهة هنري المحمل بمشاعر الغضب والانتقام، فآثر الانسحاب المفاجئ في ٩ آب ١١٧٣، مخلفاً وراءه كميات كبيرة من الإمدادات والمؤن[٤].

---

(1) Andre Maurois, Op. Cit., p.106.
(2) A. F. Pollard, M.A., Litt.d., The History of England, London ،1912., p.122.
(3)Roger of Wendover, Op. Cit., p.371.
(4) Charles M. Andrews, A History of England Revised and Enlarged ،Boston, 1903 , p.102.

دفع ذلك الانسحاب وما سبقه من انتصارات عسكرية للملك هنري، فضلاً عن تنامي حالة الذعر في صفوف العناصر الفلمنكية [١] إلى تراجع التحالف عن مواصلة العمليات العسكرية على الحدود النورماندية واللجوء إلى مسار التهدئة، وسعت قوات الحلفاء بكل ثقلها لرأب الصدع بين العاهل الإنكليزي وأبنائه، وعبّر عن ذلك أحد المؤرخين بقوله **:"إن الأولاد أخذوا قضية أبيهم، وجلبوا بغضاء رجال الدين ولعنة الناس لأنفسهم، ومع ذلك ينبغي العفو عنهم لأنهم كانوا شباباً"** وقد تكللت تلك المساعي بعقد مؤتمر للصلح في يوم الأربعاء ٢٣ أيلول ١١٧٣ في منطقة وسطى بين جيزور وترير **Trier** إذ كان الملك لويس السابع منتظراً هناك وبرفقته الأساقفة ورؤسائهم والإيرلات والبارونات في المملكة، وحضر معهم الأبناء هنري الشاب وريتشارد دوق أكيتاين وبواتو وجيفري دوق بريتاني أما الملك هنري الثاني فحضر هو الآخر ومعه رؤساء الأساقفة وكبار بارونات المملكة[٢].

قدم هنري الثاني خلال ذلك اللقاء عروضاً سخية لأبنائه، فمنح البكر نصف عائدات إنكلترا وأربع قلاع في نورماندي، ولريتشارد نصف عائدات أكيتاين وأربع قلاع، ولجوفري مقاطعة بريتاني شريطة زواجه من وريثتها كونستانس، مع تقديم النصح لهم بضرورة الاعتدال وإرساء العدل [٣]، وعلى الرغم من إتمام ذلك السلام بين الأب وأبنائه، إلا أن العلاقات الفرنسية الإنكليزية ظلت على وضعها، ففي اليوم التالي لهذا اللقاء قامت قوات الملك الفرنسي بالاشتباك مع قوات الملك الإنكليزي بين مقاطعتي كورتليس **Curteles** وجيزور في معركة مشينة[٤] حول قلعة ترير **Trier**، وفي الوقت نفسه قام روبرت دي يومنت إيرل ليكستر وجمع جيشاً كبيراً وعبر بهِ إلى مملكة انكلترا، حيث تعرضت مملكة انكلترا في تلك المدة لهجوم كبير من البارونات[٥] .

يتضح مما سبق أن اشتباك قوات الملك الفرنسي مع قوات الملك الإنكليزي من دون معرفة أسباب ذلك في الوقت الذي كان فيه الملكان مجتمعين لعل مرجعه العداء المتأصل بينهما، وربما كان بإيعاز من الملك لويس السابع نفسه، نظراً لتعرض المملكة الإنكليزية في الوقت نفسه لهجوم البارونات، مما يرجح الجزم بأن الملك الفرنسي حتى تلك اللحظة استطاع

---

[١] المقصود بـ "العناصر الفلمنكية" هم الجنود، والمرتزقة، والنبلاء القادمون من مقاطعة فلاندرز وهي منطقة تاريخية جغرافية تقع في وقتنا الحاضر في (شمال بلجيكا، وأجزاء من شمال فرنسا، وجنوب غرب هولندا). يراجع:

Eljas Oksanen, Flanders and the Anglo-Norman World, 1066–1216, Cambridge University Press,2012,p.211-253; Hunt Janin & Ursula Carlson, Mercenaries in Medieval and Renaissance Europe, McFarland & Company,2013,pp.34-38.

[2] W. H. Margetson, Chassell's History of England from the Roman invasion to the wars of the Roses, Vol. I, London, 1909, p.204.

[٣] موج سلام قلم ، المصدر السابق ، ص ٨٦ .

[٤] في العرف ومواثيق الفروسية في العصر الوسيط، يُعد القتال أو نصب الكمائن فور انتهاء أو أثناء سريان مساعي السلام عملاً خائناً ومشيناً.

Maurice Keen, The Laws of War in the Late Middle Ages, Routledge & Kegan Paul, London ,1965, p.106.

[5] L. F. Salzmann, Henry II, New York, 1914, p.122.

أن يخلق للملك الإنكليزي مالم يتوقعه من مشاكل فنجح في إثارة أبنائه ضده وأيضاً إثارة أفصاله وباروناته، وكونّ حلفاً قوياً فشل أمامه الملك الإنكليزي هنري الثاني مما دفعه في النهاية إلى الرضوخ لمطالب أبنائه ومزق مملكة انكلترا في الوقت الذي كان يجب أن تظهر فيه متحدة أمام كل الأخطار التي تواجهها من كل جانب والحفاظ على كيانها في مواجهة مملكة فرنسا .

وعلى ما يبدو أن العلاقات الفرنسية الإنكليزية كان لها أثر كبير في عدم اقتناع أبناء الملك هنري الثاني بنتيجة ذلك اللقاء، لذا ما لبث الابن هنري وبصحبته جون **John** كونت ألينكون **Alencon**، فضلاً عن مجموعة من الفرسان الأشداء أن قاموا جميعاً بمهاجمة مدينة سيز **Seez** التي تقع في جنوبي دوقية نورماندیا، غير أن سكان المدينة قاوموا بشجاعة واستبسال على الرغم من افتقادهم للقيادة، لذا كان مصير هذا الهجوم الفشل، مما أعطى الفرصة للملك هنري الثاني لتأمين دوقية نورماندیا ضد أي هجوم آخر يأتي على فجأة، وبعد ذلك قام الملك بجولة داخل مملكته لتأمين حدوده ولإعادة الثقة في نفوس رعاياه، وعندما وصل إلى دوقية أنجو سمع أن ابنه ريتشارد احتل مدينة سنتيس **Saintes** بجنوده، فأسرع إلى هناك مصطحباً معه سكان دوقية بواتييه، واستطاع تحرير المدينة من يد ابنه الذي كان آنذاك قد أعلن ولاءه للملك الفرنسي لويس السابع وبات يقاتل تحت لوائه [١] .

وما لبث فيليب كونت فلاندرز في حضور الملك الفرنسي لويس السابع ونبلاء المملكة الفرنسية أن قام بوضع يده على بعض الآثار المقدسة وأقسم أنه سيقوم خلال خمسة عشر يوماً بعد مضى عيد القديس يوحنا **Sant Joun** أي في ٢٤ حزيران ١١٧٤ يغزو مملكة انكلترا بقوة كبيرة، وأن يخضعها ويضعها تحت ولاية الابن هنري الشاب فقام هنري الشاب بالذهاب إلى مدينة وزانت **Wissant** الواقعة في دوقية فلاندرز في ١٤ تموز من العام نفسه ليرسل أحد قادته على رأس جيش كبير إلى انكلترا، وسانده في ذلك فيليب كونت فلاندرز مساندة كبيرة وتمكن ذلك الجيش من النزول في أرويل **Orwell** على الشاطئ المقابل لمملكة انكلترا ونهبها في١٥ آب ١١٧٤، ومن هناك قاموا بمهاجمة نورويتش **Norwich** واستولوا عليها في ١٨ آب ١١٧٤ونهبوها وحملوا معهم من الأسرى كثيراً، واستغلالاً للموقف وأثناء مهاجمة ذلك الجيش مملكة انكلترا جمع كل من الملك الفرنسي والابن هنري وفيليب كونت فلاندرز قواتهم من جميع المناطق مرة أخرى فتوفر لديهم من الجيوش الكثير وتحركوا لحصار روان في آب من عام ١١٧٤ أملين في الاستيلاء عليها[٢]، واستطاع النورمان بشجاعة مقاومة ذلك الجيش على الرغم من قلتهم انتظاراً لقدوم الملك هنري الثاني معتمدين على الأسوار القوية واستمر الحصار مدة طويلة حتى وصل الملك هنري الثاني على رأس جيش قوي إلى روان وما إن علم الملك الفرنسي لويس السابع بذلك حتى خاف على أملاكه المتاخمة لدوقية نورماندیا من ذلك الجيش وبالتشاور مع حلفائه المحاصرين أقدموا على حرق آلات الحصار وتمزيق الخيام ورحلوا عن مدينة روان في أواخر آب

(1)L. F. Salzmann, Henry II, New York, 1914, p.122.
(2) John D.Hosler, Op.Cit., p.203.

١١٧٤، وعندما وصل الملك هنري الثاني إلى روان وجد الحلفاء قد رحلوا عنها، فاتجه إلى دوقية أنجو ومنها عاد إلى دوقية نورمانديا، وعندما علم الابن هنري الشاب برحيل والده الملك إلى أنجو قام ومعه فيليب الأول كونت فلاندرز بقيادة جيش ضخم لمحاصرة قلعة تسمى جرافلين **Graveline** تقع على شاطئ القنال الإنكليزي لأنه بالاستيلاء عليها يستطيع العبور بسهولة إلى مملكة انكلترا، وعند عودة الملك الإنكليزي هنري الثاني وجد جيوش ابنه هنري الشاب وفيليب الأول كونت فلاندرز قد خرجوا إلى جرافلين في وقت كانت الرياح معاكسة لهم فلم تمكنهم من العبور إلى الشمال[١].

وفي ظل احتدام ذلك الصراع تعرضت مملكة انكلترا لهجوم من الشمال قاده الملك الاسكتلندي وليم الأسد مما دفع الملك الإنكليزي للعبور لمواجهته[٢]، وعندما علم الملك الفرنسي لويس السابع عبور الملك الإنكليزي هنري الثاني إلى الشمال قام باستدعاء الابن هنري الشاب وفيليب كونت فلاندرز بقواتهم المحاصرة لمدينة الجرافلين **Gravelin** الفرنسية، ليعودوا إليه من أجل فرض حصار آخر على روان من كل الجوانب واستثنى من ذلك نهر السين الذي كان في موسم الفيضان، وما لبث الملك هنري الثاني أن علم بذلك فرجع على رأس جيشه إلى روان المحاصرة منذ آب ١١٧٤، وفي الصباح الباكر أرسل بحارته عبر النهر ليتمكنوا من فتح ثغرة يستطيع من خلالها اختراق معسكر الملك الفرنسي، وواصل البحارة سيرهم من خلال الغابات الكثيفة ولم يصبهم أذى، وتمكنت قوات الملك هنري الثاني من قتل ما يزيد عن مائة مقاتل من قوات الملك لويس وحلفائه، مما دفع الملك الفرنسي للإحساس بصعوبة الموقف بعد شهر من الحصار لاسيما بعدما استطاع الملك الإنكليزي هنري الثاني فتح ثغرة للمدينة على الرغم من حصانة أبراجها، وهي العوامل التي دفعت الملك لويس السابع إلى الانسحاب من أمامها[٣].

تكللت المساعي الدبلوماسية والوساطات بالنجاح في إنهاء حالة النزاع القائم بين الملك هنري الثاني من جهة، والملك لويس السابع يصحبه أبناء هنري المتمردون (هنري الشاب

---

(1) Allen C. Thomas, A.M., Op. Cit., p.78.

(٢)استغل الملك الاسكتلندي وليم الأسد تلك الظروف الدقيقة لمطالبة الملك هنري الثاني بإعادة بعض أجزاء نورثمبريا التي تبعت التاج الاسكتلندي تاريخياً واستولى عليها الملك هنري الثاني في بواكير عهده، وحين رفض الملك هنري الثاني طلبه، جمع وليم الأسد جيشاً اسكتلندياً كبيراً وهاجم شمالي إنكلترا برفقة بعض البارونات الإنكليز المتمردين على ملكهم، لكن الجيش الاسكتلندي اقترف أعمالاً وحشية في المناطق التي اقتحمها، فدمر ونهب المدن الإنكليزية التي مر بها، وقام بفظائع ، منها بقر بطون النساء وقتل الأطفال وسواها من الأعمال التي دفعت بارونات شمال إنكلترا وأساقفتها وعامة سكانها إلى حمل السلاح ضده لإرغامه على الانسحاب، وخلافاً للرواية المغلوطة، لم يُهزم وليم الأسد في معركة فارنهام (إذ أن تلك المعركة جرت بين القوات الملكية ومتمردين آخرين بقيادة إيرل ليستر ولم يكن ملك اسكتلندا طرفاً فيها)، بل اضطر لعقد هدنة مع القوات الإنكليزية في أواخر صيف وخريف عام ١١٧٣ ، انسحب على أثرها إلى بلاده، إلا أنه كرر الهجوم في العام التالي، فهُزم في معركة ألنويك الفاصلة في ١٣ تموز ١١٧٤ ، ووقع مع كبار نبلائه في أسر جيوش إنكلترا التي قادها رانولف دي غلانفيل، في حين لم يقع أخوه ديفيد في الأسر بل نجح في الانسحاب والفرار عائداً نحو اسكتلندا، لينتهي بذلك تحالف اسكتلندا مع المتمردين إلى فشل ذريع، ويعود شمالي إنكلترا مجدداً تحت قبضة التاج الإنكليزي.يراجع:
Samuel Rawson Gardiner, A Student's History of England, Vol. I ،New York, 1916. p.99; Franck Bright, M.A., Op. Cit., pp.104 – 105.

(3)Smollett, M. D., Op. Cit., p.161.

وجيفري) من جهة أخرى، حيث عُقد لقاء تاريخي في منطقة جيزور في السابع والعشرين من أيلول عام ١١٧٤، وقد سبق ذلك اللقاء تطور دراماتيكي يتعلق بالأمير ريتشارد، الذي استُثني في البداية من مفاوضات الصلح نظراً لدوره الخطير في التمرد ورفضه المستمر للاستسلام، إلا أن عزلته في الميدان دفعته للتوجه إلى والده في بواتييه يوم ٢٣ أيلول ١١٧٤ طالباً الصفح، حيث انهار باكياً عند قدمي والده، مما دفع إخوته للتوسط له ليتم شموله في المصالحة النهائية، وإن جاءت بشروط أقل سخاءً مما عُرض عليه سابقاً [١]،وبموجب معاهدة جيزور، أعلن الملك هنري الثاني في خطاب موجه لرعاياه عن إحلال السلام بنعمة من الرب مع أبنائه والملك الفرنسي حفاظاً على مجد مملكته، وتم تثبيت بنود الاتفاق بميثاق رسمي تضمن منح ابنه الأكبر هنري الشاب خمسة عشر ألف قطعة ذهبية من العملة الأنجوية سنوياً فضلاً عن قلعتين في نورماندیا يختارهما الملك، بينما حُدد نصيب ريتشارد بنصف إيرادات دوقية أكيتاين مع قلعتين في بواتو، وحصل الابن جيفري على نصف إيرادات بريتاني، وفي المقابل، أبقى الملك على زوجته الملكة إليانور رهن الأسر كضمانة سياسية لالتزام ريتشارد ببنود هذا الصلح [٢] **"ومنذ الآن عاد إلى جميع رجالي الذين تركوني وأطاعوا غيري عادوا إلى طاعتي وذلك بحضور أبنائي، وأقسموا جميعاً يمين التبعية لي أمام جميع الناس وسيحتفظون بالأراضي التي كانت بأيديهم عندما تركوا طاعتي، وجميع القلاع التي تم تحصينها ضدي سوف تعود إلى ما كانت عليه عندما بدأت الحرب"**[٣].

وبمقتضى تلك المعاهدة وضحت حدود العلاقة بين الملك الإنكليزي هنري الثاني وأبنائه وأوحت بأن انتصاراً سياسياً قد حالف الملك هنري الثاني بعد تلك الاتفاقية لأنها قللت كثيراً من المميزات التي تمتع بها أولاده في الصلح الأول سنة ١١٧٣، وعلى الرغم من فشل التحالف في تحقيق أهدافه على مدى سنة ونصف خاضها الطرفان في صراع انقسم بين قتال وحصار، إلا أنه لم يثمر عن أية نتيجة، كما أن الملك لويس السابع وكونت فلاندرز وكبار البارونات رغبوا في العودة إلى أراضيهم فضلا عن ملل جنودهم من القتال، وأحس أبناء الملك لويس السابع أن أباهم لحقت بهِ هزيمة سياسية، لأنه لم يستطع إحداث الفرقة بين الملك الإنكليزي وأبنائه والقضاء على وحدة التاج الإنكليزي في ذلك الوقت، ولم يحقق أية استفادة

---

[١] موج سلام قلم ، المصدر السابق ، ص٨٧ – ٨٨ .

[٢] علم الملك هنري أن اليانور كانت هي مهد تلك المؤامرة، فوجه قواته نحو ممتلكات الملكة جنوبا في بواتو وعمل على تدمير جدرانها والاستيلاء على قلاعها وحرق مزارع الكروم واقتلع المحاصيل ونشر الرعب والإرهاب في المنطقة، وما أن أحيطت اليانور علما بذلك حتى أدركت أن موقفها أصبح صعباً، كما أن الصلح مع هنري كاد يكون مستحيلاً، لذا فضلت الفرار واللجوء إلى ملك فرنسا، متنكرة بزي فارس، إلا أنه تم القبض عليها وسلمت لهنري وذلك إثر خيانة من أحد بارواناتها، وقد قام هنري الثاني بسجن اليانور لمدة ١٥ سنة، وظلت سجينة حتى وفاة الملك هنري الثاني . ول ديورانت المصدر السابق ، ص ١٩٢.

Christopher Harper, Op. Cit., p.47.

[3] Thomas Reimer, Treaties, Agreements and Letters, Volume 1, London, 1745, pp. 12-13.

سوى الحصول على سلام يشوبه الإحساس بالهزيمة[١] .

وهكذا أمكن لأبناء هنري الثاني أن يعودوا إلى الرعاية الأبوية وإلى حياتهم الطبيعية لهذا عملوا على إزالة جميع الشكوك بتقديم الولاء والطاعة لأبيهم وذلك أثناء الاحتفال بعيد القديسة مريم في لومان **Lamans**، وإثر انقضاء تلك المناسبة، غادر الأخوان ريتشارد وجيفري، بينما رافق الابن الشاب هنري والده إلى دوقية نورماندي في نيسان من عام ١١٧٥، وقد جاءت تلك الرحلة بهدف عقد لقاء مع الملك الفرنسي لويس السابع في مدينة جيزور، وهي مساعٍ توجت بنجاحهما في إبرام هدنة مع الملك الفرنسي، ليعودا عقب ذلك أدراجهما إلى منطقة بور**Bure** في دوقية نورمانديا[٢] .

ومن الواضح أن استقرار الأمور في مملكة انكلترا جعل من شخصية الملك هنري الثاني قوة يسعى الجميع للتقرب منها، فمع حلول عام ١١٧٦ قام وليم الثاني ملك صقلية بإرسال رسل إلى الملك هنري الثاني لطلب الزواج من ابنته جوان **Joan** (١١٦٥- ١١٩٩) أصغر بناته، واستجاب لطلبه في ٢٠ آيار ١١٧٦، وتحول طلب الزواج من الوعد إلى الإجابة بخطبة وزواج، وتأكيداً لذلك قام الملك هنري الثاني بإرسال رسل إلى صقلية بهدف إقامة حلف مع ملكها يزيد من التقارب ويوثق التحالف وبعد الاتفاق على الهبات والمنح الخاصة بالزواج عادوا إلى انكلترا وعلى أثر ذلك، أبحرت جوان ابنة الملك إلى صقلية في ٢٧ آب ١١٧٦،وجرى ترسيمها زوجة للملك وليم أمام مجموعة من النبلاء في كنيسة سانت جيل **Saint Gilles** في ٩ تشرين الثاني ١١٧٦ وذلك على يد يوحنا **John** أسقف نورويتش، ولم تكن هذه المصاهرة هي الدليل الوحيد على قوة شخصية الملك هنري الثاني أمام قوة خصمه الملك لويس السابع فكانت هناك مصاهرة أخرى بين الملك نفسه والملك ألفونسو الثامن ملك قشتالة **Alfonso VIII of Castile** (١١٥٥- ١٢١٤) بزواج الفونسو الثامن من إليانور**Eleanor** (١١٦١- ١٢١٤) ابنة الملك الإنكليزي وذلك في عام ١١٧٦[٣].

ومن الواضح أن الملك هنري الثاني نجح في عقد ثلاث مصاهرات سياسية، بدأها بهنري الأسد دوق سكسونيا عن طريق زواج ابنته ماتيلدا**Matilda** (١١٥٦- ١١٨٩) وأيضا مع ملك صقلية وليم الثاني **William II of Sicily** (١١٥٣- ١١٨٩) عن طريق زواج ابنته جوان، فضلاً عن الفونسو الثامن ملك قشتالة عن طريق زواج إليانور، وإذا لوحظ في تلك الزيجات يظهر أنها اختيرت بعناية فائقة، فمصاهرة الملك هنري الثاني لهنري دوق سكسونيا من الواضح أنها كانت موجهة ضد الملك الاسكتلندي وليم الأسد في الشمال وبالنظر إلى مصاهرته مع ملك قشتالة وملك صقلية وما يتمتع بهِ هذان الملكان من قوة في الغرب الأوروبي نجد أنه يستطيع من خلالهما تهديد مملكة فرنسا نظراً لامتداد أملاكهم مع حدود مملكة فرنسا في الجنوب، وبذلك يضع الأملاك الفرنسية بين شفي الرحى في حالة أي

---

(1)Robert Southey, LL.D,the early naval history of England,Philadelphia: Carey,Lea ,and Blanchard, 1835.,p.131; Andre Maurois ,op.cit., p. 109.

(2)David Moyn, Op. Cit., p.16

(3)Roger of Wendover, Op. Cit., pp. 413-417.

صراع يندلع بين الطرفين فضلاً عن الحفاظ على أملاك مملكة انكلترا في ذلك الجزء بفرض سيادته عليه، مما أدى إلى ارتفاع أسهم الملك الإنكليزي في الغرب الأوروبي[١].

قامت بين الملك الفونسو الثامن ملك قشتالة وسانشوا السادس ملك نافار **Sancho VI of Navarre** (١١٣٢- ١١٩٤) عام ١١٧٧ معارك طاحنة، إلا أنهما أتيا إلى انكلترا ليقوم الملك هنري الثاني بعقد تسوية بينهما ويفصل بينهما فيما هما فيه يتنازعان ،ويتضح أن الملك الإنكليزي هنري الثاني كان يتمتع بقوة لا يستهان بها فشلت أمامها مهارة الملك الفرنسي لويس السابع السياسية والعسكرية، وخلقت منه الأب الروحي سياسياً لممالك الجنوب والساعد القوي لأصهاره ضد أعدائهم، وجعلت الوجود الإنكليزي يهيمن على الجزء الجنوبي الغربي من القارة الأوروبية، فدفعت تلك الأسباب الملك لويس السابع إلى تبني سياسة جديدة تجاه الملك الإنكليزي هنري الثاني الذي بدأ ينتصر سياسياً أمام قوته[٢].

ونتيجة لذلك تأثرت العلاقات الفرنسية الإنكليزية وبدأت تلوح في الأفق معالم جديدة لها، لذا فمع حلول عام ١١٧٧ بدأت تظهر إلى الوجود مرة أخرى فكرة خطوبة أليس ابنة الملك لويس السابع من ريتشارد ابن الملك هنري الثاني، وعلى أثر ذلك رحل الملك هنري الثاني من مدينة لندن إلى دوقية نورماندیا في أواخر شهر آب ١١٧٧ بعدما قام بتنظيم مملكته وفقاً لرغباته، ومن نورماندیا رحل إلى الحدود الفرنسية من أجل لقاء الملك الفرنسي المنتظر هناك، فالتقيا في مدينة إيفري **Every** في ١٩ أيلول ١١٧٧ وبحضور رؤساء الأساقفة والبارونات والأمراء في المملكتين وعقدا لقاء ناقشا فيه كثيراً من الأمور المتعلقة بالمملكتين، ومع نهاية اللقاء قام الملك هنري الثاني بالقسم أمام الحضور بواجب السلطة الملكية للملك الفرنسي، وأن ابنه الدوق ريتشارد يجب عليه أن يتزوج من أليس ابنة السيد الإقطاعي، وفي المقابل وعد الملك الفرنسي لويس السابع بأنه سوف يقوم بإعطاء ريتشارد مدينة بورج مع بعض الملحقات كصداق للعروس أليس عند إتمام الزواج، فضلاً عن تثبيت الحدود المتفق عليها بينهما، فضلاً عن إعطاء الابن هنري الشاب كل الأجزاء الفرنسية في إقليم فيكس التي وعد بها عند إتمام زواجه من ابنته مارجريت، ولكن الملك قد تنصل من وعده نتيجة للظروف التي تم فيها الزواج، وعلى الجانب الآخر لم يقم الملك الإنكليزي هنري الثاني بالضغط على ابنه ريتشارد لإتمام الزواج[٣] .

وفي إطار الحديث عن لقاء الملكين استطاع العقلاء من الطرفين إقناعهما باتباع تلك الشروط المتفق عليها، وجاءت على النحو الآتي: **"نحن الملكين لويس ملك فرنسا، وهنري ملك انكلترا، نرغب في أن يعرف الجميع أننا وعدنا بكل وقار وبإلهام من الرب أن نحمل الصليب ونذهب إلى بيت المقدس وعلى الجميع أن يعرفوا أننا منذ الآن أصدقاء على الدوام، وأن كل منا على استعداد لحماية الآخر ضد جميع من يرد الاعتداء عليه بقدر ما أوتي من قوة، وإذا حاول أي إنسان أن يؤذي أي واحد منا ، فإنني أنا الملك هنري سوف**

---

(1)Roger of Wendover, Op. Cit., pp.438 – 451.
(2)Christopher HarperBell and Nicholas Vincent, Op. Cit., p.232.
(3) Warren,Op. Cit,pp. 145-147.

أقسم على حماية مولاي ملك فرنسا لويس السابع ضد جميع البشر بقدر ما أوتيت من قوة لأنه مولاي وحليفي، وأن نحفظ العهود التي ندين بها لرجالنا ما داموا مخلصين لنا، ومن الآن فصاعداً كل الأحداث محل الخلافات بيننا ستزول وكل منا نحن الطرفين موافقون على تبادل الأراضي والأملاك وأشياء أخرى، ومن الآن لن يقف أحد منا في وجه الآخر وسيتم إلغاء الرسوم، ولم نكن قادرين على أنفسنا لإحداث ذلك من قبل"، واتفق الطرفان على جمع الأموال من أجل الأراضي المقدسة وانتهى هذا اللقاء في ٢٥ أيلول ١١٧٧[١].

وبانعقاد تلك المعاهدة بدأت اتجاهات جديدة تتحكم في العلاقات بين المملكتين وهذا يتضح مع حلول كانون الثاني من عام ١١٧٨ بعدما قضى الملك هنري الثاني عيد الميلاد في دوقية أنجو واستطاع فرض سيطرته على جميع المقاطعات المتاخمة لمملكة فرنسا والقنال الإنكليزي، وقام بإرسال رسل إلى الملك الفرنسي لويس السابع من أجل توضيح ما يقوم بهِ في مقاطعات الحدود، إلا أن الرسل عادت حاملة معها خطاباً من ملك فرنسا لويس السابع يحمل بداخله الحماية الكاملة لمملكة انكلترا، وجاء فيه: **"من لويس السابع ملك فرنسا إلى كل الذين قدموا خطابات تأتى بالموافقة، يجب عليكم أن تعرفوا أننا نملك داخل حمايتنا كل أراضي الملك هنري الثاني والواقع على هذا الجانب من القنال الإنكليزي، وفي حالة عبورنا إلى انكلترا بقصد الرحلة سيتخلل هذه الرحلة الثقة المتبادلة ولم يكن هناك قصد للشرور، ويكون ذلك اما لتقديم المساعدة أو من أجل الدفاع والحماية لكل الأراضي الإنكليزية وعلى الأسس المفروضة في معاهدة ايفري"**، وبذلك بدأت العلاقة تدار بين الطرفين منذ انعقادها حتى وفاة الملك لويس السابع[٢].

يتضح من نص المعاهدة مدى استجابة الطرفين لتغليب لغة المصالحة وإحلال السلام محل النزاع العسكري، مدفوعاً بدوافع استراتيجية ملحة لدى الجانبين، فعلى صعيد الملك لويس السابع، جاء الجنوح للسلم بعد أن مُنيت كافة مساعيه الرامية لكبح جماح القوة الصاعدة للملك هنري الثاني بالفشل، لا سيما مع تنامي شهرة ونفوذ الأخير قرب نهاية العقد الثامن من القرن الثاني عشر، إذ سعى لويس عبر مزيج من المناورات العسكرية والسياسية للحفاظ على هيبة التاج الفرنسي ومكانته كسيد إقطاعي أعلى في الغرب الأوروبي، إلا أن عجزه عن حسم المواجهة لصالحه دفعه للقبول بالتهدئة، وفي المقابل وعلى الرغم من الطموحات التوسعية للملك هنري الثاني في تعزيز مملكته الفتية، فقد كان مثقلاً بالهواجس الأمنية والعائلية، أبرزها خيبة أمله في ولاء أبنائه الذين خضعوا لتأثير الملك الفرنسي، فضلاً عن توجسه المستمر من دهاء لويس السابع ومؤامراته التي قد تجره إلى صراعات غير محسومة العواقب، وقد توجت تلك المخاوف المتبادلة باتفاق حظي بمباركة المملكتين، تضمن اعترافاً صريحاً من هنري الثاني بالسيادة الإقطاعية للويس السابع، وهو تنازل تكتيكي هدف من

---

[١] حضر هذا اللقاء أشخاص ذات مكانة داخل المملكتين والابن هنري الشاب والعديد من رؤساء الأساقفة وآخرون كل هؤلاء جاءوا من مملكتي فرنسا وانكلترا ليشهدوا التوقيع على معاهدة إيفري بين الملكين ١١٧٧. يراجع :
Warren,Op. Cit, pp. 145-147.

[2] Warren,Op. Cit, p.147.

ورائه هنري إلى تحييد خطر الوقيعة بينه وبين أبنائه، وتأمين حدوده المتداخلة مع فرنسا، وبذلك شكلت معاهدة إيفري محطة مفصلية أنهت حقبة من الصراع المحتدم، لتدشن مرحلة جديدة اتسمت بتعادُل كفتي القوى السياسية بين العاهلين.

الفصل الثالث

سياسة فرنسا الداخلية في عهد الملك فليب الثاني أغسطس ١١٨٠- ١٢٢٣

أولاً.سياسة الملك فيليب اغسطس الداخلية ودوره في الأحداث من عام ١١٨٠ – ١٢١٩:

١. أحوال اليهود في فرنسا خلال حكم الملك فيليب أغسطس ١١٨٠ – ١٢١٩.

٢. صراع الملك فيليب أغسطس مع الكونتات وحكام المقاطعات المجاورة ١١٨٠– ١١٨٩.

أ– حروب الملك فيليب أغسطس ضد أمراء شامباني وكونت الفلاندرز ودوق بورغوندي.

ب–التدخل الفرنسي في الأزمات الداخلية الإنكليزية وانعكاساتها السياسية.

ثانياً . سياسة الملك فيليب أغسطس تجاه الهرطقة الألبيجنسية (الكاثار) ١٢٠٩– ١٢١٨:

١.الوضع السياسي والديني في جنوب فرنسا مقاطقة (لانغدوك).

٢. اندلاع الحرب الألبيجنسية ودور الملك فيليب أغسطس في توسيع النفوذ الملكي.

٣. وفاة الملك فيليب أغسطس ١٢٢٣.

ثالثاً . المنجـزات السياسية و الحضـارية في عهد الملك فيليب أغسطس:

١.توسيع النطاق الملكي.

٢. سياسة الملك فيلب اغسطس تجاه الكنيسة ورجال الدين.

٣. سياسة الملك فيلب اغسطس تجاه الفلاحين والاقنان.

٤.سياسة الملك فيلب اغسطس تجاه الطبقة البرجوازية.

٥.سياسة الملك فيلب اغسطس الإدارية والقضائية.

٦. سياسة الملك فيلب اغسطس المالية.

٧.سياسة الملك فيلب اغسطس العسكرية.

٨.سياسة الملك فيلب الاجتماعية والثقافية.

أ. المستشفيات:

ب. التعليم والأدب والمدارس:

ت. جامعة باريس:

أولاً. سياسة الملك فيليب اغسطس الداخلية ودوره في الأحداث من عام ١١٨٠ – ١٢١٩:

يُعدّ عهد الملك فيليب أغسطس، حقبة مفصلية ونقطة تحول جوهرية في مسار التاريخ الفرنسي والأوروبي خلال العصر الوسيط، إذ تسلم مقاليد الحكم والمملكة الفرنسية ترزح تحت وطأة تحديات جسيمة، أبرزها النفوذ المتنامي لكبار الأمراء والإقطاعيين، والتهديد الوجودي الذي مثلته الإمبراطورية الأنجوية المترامية الأطراف، وقد اتسمت سياسة فيليب أغسطس الداخلية بمساعيه الحثيثة لترسيخ دعائم السلطة الملكية المركزية، وتطويق نفوذ البارونات والكونتات الطامحين، إلى جانب إعادة هيكلة الموارد الاقتصادية والاجتماعية للمملكة، وهو ما تجلى بوضوح في قراراته الحاسمة والمثيرة للجدل تجاه الأقليات كاليهود، وتوظيفه الذكي للغطاء الديني لكسب ولاء الكنيسة والتفاف الشعب،وعلى صعيد الأحداث الإقليمية الكبرى، أدى دوراً سياسياً وعسكرياً بالغ الدهاء في صراعه المرير ضد التاج الإنكليزي، مستغلاً ببراعة التصدعات الأسرية داخل البيت الأنجوي لتفكيك أملاكهم في القارة الأوروبية، وبناءً على ذلك، تبرز أهمية تتبع التحولات المعقدة لسياسات ذلك الملك، بدءاً من الخطوات الأولى لاعتلائه العرش، مروراً بإدارته للأزمات الداخلية، وصولاً إلى مواجهاته الاستراتيجية التي أعادت رسم الخريطة السياسية لفرنسا وأرست اللبنات الأولى لدولتها القوية.

١. أحوال اليهود في فرنسا خلال حكم الملك فيليب أغسطس ١١٨٠ – ١٢١٩.

أصدر الملك فيليب اغسطس منذ الأشهر الأولى من حكمه، مراسيم صارمة ضد المجدفين[١] والهراطقة، وقد نالت استحسان الكنيسة، لكن المصلحة المالية أدت نشاطا لا يقل أهمية عن المصلحة السياسية في الاضطهاد الذي مارسه في المدة نفسها تقريبًا ضد اليهود، الذين كانوا مكروهين من رجال الدين بسبب معتقداتهم، ومن النبلاء والشعب بسبب ثرواتهم، ويذكر المؤرخ غيوم دي نائج William de Naeg: **"إن أعداد مهولة من اليهود كانت تقطن باريس، وقد تجمعوا فيها من شتى أرجاء الأرض نظراً للسلام والحرية اللذين كانا يسودان فيها حينذاك إذ أنهم سمعوا عن نبل وسمو ملوك فرنسا تجاه أعدائهم، والرأفة والرحمة التي يتعاملون بها مع رعاياهم، لهذه الأسباب أتى كبراء وحكماء الشريعة الموسوية إلى فرنسا واتخذوا من باريس موطنا لإقامتهم، وظلوا بها مدة طويلة حتى استطاعوا تكوين ثروة بل وشراء نصف المدينة كلها، وخالفوا المراسيم ومؤسسة الكنيسة المقدسة"**[٢].

ذهبت بعض الروايات إلى أن الملك فيليب أغسطس كان يسمع بعد القصص عن اليهود وقتلهم المسيحيين الابرياء كرواية القديس ريتشارد Saint Richard، الذي كان جسده

---

[١] التجديف في المسيحية هو الكفر أو السب أو الاستهزاء بالله أو بكلمته أو بأي من أقانيم الثالوث المقدس (الآب والابن والروح القدس)، كما يُفهم أيضًا على أنه إنكار صريح أو ازدراء لأعمال الله أو صفاته المقدسة. يراجع: محمد أحمد عطية الشيشي، الحماية الجنائية للأديان، أطروحة دكتوراه، جامعة عين شمس، كلية الحقوق قسم القانون الجنائي، ٢٠١٧، ص ٢٨٠.

[2] Guillaume de Nangis, Op. Cit., p. 49.

مستلقيًا في كنيسة القديسين الأبرياء في شامبو Innocent de Shampoo بباريس، الذي زُعم أنه تعرض للذبح والصلب على أيديهم ، وتخليداً لذكراه، شُيدت له كنيسة عام ١١٥٨، ليُعلن بعد ذلك رسمياً قديساً يُعرف باسم ريتشارد من بونتواز Richard of Pontoise، وكان يقال له وهو صغير وللأطفال الذين كانوا يعيشون معه في القصر أن اليهود الذين يعيشون في باريس يأخذون كل عام أحد المسيحيين في يوم الجمعة الأعظم من الأسبوع الحزين[١]، ويقتادونه عبر مساراتهم الوعرة تحت الأرض، ويقومون نكاية في الرب الذي صلب في مثل ذلك اليوم بتعذيب هذا الرجل المسيحي وصلبه، وأخيراً يقومون بخنقه نكاية في الدين المسيحي، وقد تكرر ذلك الفعل عدة مرات، وعلى الفور قام الملك بعمل تحرياته للتأكد من صحة ما يقال قبل المضي فيما عزم عليه، واقتنع بصحتها، وقبل اتخاذ أي قرار حاسم، لجأ إلى استشارة ناسك يُدعى برنارد Bernard، وهو رجلٌ عُرف بقدسيته وصلاحه في دير غراندمونتGrandmont، غير بعيد عن حديقة نينسين Ninsin، في غابة سانت ماند Saint Mand قال له الملك: **"يا أخي: ما نصيحتك لي بشأن هؤلاء الكفار ولصالح الكنيسة والفقراء؟ " المسيحيون؟ فرد عليه سيدي الملك، أنصحك بتحرير جميع المسيحيين في مملكتك من كل ما يدينون بهِ لليهود، ونفي جميع اليهود من المملكة المذكورة، والاحتفاظ بخمس ديون هؤلاء الكفار لاستخدامك الخاص".** بعد ذلك (قال فيليب لباروناته) أن الأخ برنارد على حق، ردّ عليه باروناته**: "يا سيدي، افعل ما يحلو لك"** وبالفعل ألقي القبض عليهم في يوم سبت وهم في صوامعهم يوم السادس من آذار عام ١١٨٠، وتم تجريدهم من أموالهم[٢].

ومن خلال القراءة التحليلية لتلك الأحداث، يتجلى بوضوح مسعى الملك للتخلص من يهود باريس تحت غطاء شرعي وديني، بهدف الحفاظ على صورته حاكماً عادلاً ومتسامحاً لا يقدم على معاقبة رعاياه من دون تثبت، غير أن التحليل النقدي لتلك الرواية يطرح تساؤلات

---

[١] ينقسم التقويم اليهودى إلى ثلاثة عناصر: أولها اليوم اليهودى ثانيها الأسبوع اليهودي، ثالثها الترتيب اليهودي للوقت في الشهر، فيما يتعلق بالعنصر الثاني المختص بالأسبوع اليهودي الذي نتحدث بصدده إذ يتم حساب أيام الأسبوع اليهودية وليس تسميتها، وتسمى اليوم الأول واليوم الثاني وهكذا حتى اليوم السابع والذي ينتهي باسم يوم السبت" Shabbath (باللغة العبرية)، ويُعرف اليوم السادس أيضا يوم الجمعة، وفي العهد الجديد بـ ليلة السبت أو بـ "يوم الإعداد ومازال يستخدم هذا المصطلح بواسطة الكنيسة اللاتينية لارتباطه بيوم الجمعة الأعظم من الأسبوع الحزين الذي يحدد بالخامس والعشرين من شهر آذار حسب التقويم المسيحي. يراجع:

Herbert Thurston, Fêtes de notre terre, les principales fêtes de la Sainte Vierge, de l'Assomption, de l'Annonciation et de la Nativité, Encyclopédie catholique, Tome III, Londres, 1908, p.163; Francis E. Gigo, "The Jewish Calendar," Catholic Encyclopedia, Volume III, Robert Appleton Company, New York, 1908, pp. 166-168.

[٢] يراجع ملحق رقم ٦ ؛

Rigord, Gesta Philippi Augusti, Christianissimi Francorum Regis, R.H.G.F., Tome, XVII, Paris, 1888, p.22; Guillaume de Nangis, Op. Cit., p.47: Ralph de Descito, « Images de l'Histoire », Historiens de Gaule et de France (R.H.G.F.), édité par Michel Jean Joseph Bréal, Volume 17, Victor Balmy, Paris, 1878,p.617; Albéric de Trois-Fontaine, « Annales d'Albéric », Collection des Historiens de Gaule et de France (R.H.G.F), Volume 18, édité par Michel J. Bréal, Royal Press, Paris, 1822, p.745.

جوهرية يحيطها بالكثير من الشك، فمن المستبعد عقلاً وتاريخياً أن تتجرأ أقلية يهودية على ارتكاب مثل تلك الأفعال الاستفزازية المتكررة داخل مجتمع مسيحي ذي أغلبية كاسحة، دون أن يثير ذلك ردود فعل شعبية عنيفة لا تنتظر تدخل الملك شخصياً، علاوة على ذلك، عُرف اليهود على مر العصور التاريخية بحذرهم الشديد ودهائهم في التعاملات لتجنب الصدامات، مما يجعل تورطهم في مثل تلك الأفعال المكشوفة أمراً يتنافى مع المنطق والحرص على البقاء[١].

أما عن أسباب طرد اليهود، فقد ذكر أن اليهود كان لديهم خدم وحجاب مسيحيون للعمل معهم وعلى أرجح القول كانوا يقومون بتهويدهم وجعلهم يرتدون عن المسيحية، وكان ذلك مخالفًا لأمر الله وشريعة الكنيسة، وترافق ذلك مع استغلال مالي قاسٍ، إذ اعتمدوا على تأويل خاص للنصوص الدينية وتحديداً ما ورد على لسان موسى في سفر التثنية **"لا تُقرض أخاك بالربا"**، بل **"لغريب"**، فإن اليهود فهموا كلمة **"غريب"** على أنها كل مسيحي، وثقلت تلك الأعباء على المواطنين والجنود والفلاحين في الضواحي، وفي مختلف المدن والقرى، حتى أن كثيرًا منهم اضطر إلى التخلي عن ممتلكاته، وتفاقمت الأزمة حين استغل الدائنون اليهود القانون الجرماني الذي يتيح احتجاز المدين، فبات العديد من المسيحيين أسرى ومحتجزين داخل بيوت اليهود في باريس وكان هذا هو السبب الأول الذي جعله الملك فيليب أغسطس يطرد اليهود كلهم من المملكة[٢].

أما السبب الثاني فيرجع إلى التعدي على مقتنيات الكنيسة ومقدساتها، ففي أوقات العسرة والضائقة المالية، اضطرت بعض الكنائس إلى رهن أوانيها المقدسة ، بما في ذلك الكؤوس والصلبان الذهبية والفضية التي تحمل صورة المسيح المصلوب كضمانات، غير أن تلك المقتنيات تعرضت لانتهاك صارخ واستخدام مسيء يعكس ازدراءً للدين المسيحي، حيث تم التعامل معها بطرق تتنافى تماماً مع قداستها، ولقد بلغ ذلك الاستخفاف مداه حين استُعملت الكؤوس المُكرّسة لسر الإفخارستيا (التناول) في أغراض دنيوية بحتة، كاستخدامها لتقديم الكعك المغمّس بالنبيذ للأطفال، مما عُدّ تدنيساً مباشراً لمكانتها الروحية العظيمة[٣].

أما ثالث تلك الأسباب التي جعلت الملك يطردهم من المملكة، فهي أن اليهود يخشون أن يأتي ضباط الملك ويفتشون بيوتهم، وتبرز في ذلك السياق حادثة لأحد اليهود المقيمين في باريس، والذي كان يحتفظ بحوزته بمقتنيات كنسية نفيسة كضمانات، شملت صليباً ذهبياً مرصعاً بالأحجار الكريمة، ونسخة من الإنجيل مزخرفة بإتقان فني بديع وأنفس الجواهر، إلى جانب كؤوس فضية وغيرها، ولتجنب افتضاح أمره، عمد ذلك الشخص إلى وضع تلك المقدسات داخل كيس والتخلص منها بطريقة مهينة عبر رميها في قاع حفرة مخصصة للصرف وقضاء الحاجة، وسرعان ما انكشف ذلك الأمر عندما عثر أحد المسيحيين على تلك

---

(1) Taudier Louis Vaussion, Op. Cit., pp. 71-72.

(2)Jacques Levron, Philippe Auguste ou Fédération France, Bibliothèque Académique Perrin, 1976 .P. 36.

(3)Guillaume de Nangis, Op. Cit., p.50.

المقتنيات، لتنتهي الحادثة باسترداد المفقودات، حيث سُلمت النصوص والوثائق إلى الملك، بينما أُرجعت الحلي والمصاغ إلى الكنيسة [١].

وعلى ما يبدو أن تلك الأعمال للملك فيليب أغسطس ضد اليهود، نالت إعجاب الجميع، ولاسيما رجال الدين المسيحي، الذين أطلقوا على سنة ١١٨١ اسم السنة اليهودية Jubileus، لأن فيها ستة قوانين بمقتضاها أعيدت الأملاك إلى أصحابها، وسددت فيها كل الديون، وهكذا بذل الملك كل ما في وسعه في تلك السنة، لتسديد ديون جميع المسيحيين في فرنسا التي يدينون بها لليهود[٢]، وعلى الرغم من سمو العمل الذي قام به الملك فيليب أغسطس لتخليص مسيحيي فرنسا من سخرة اليهود لهم، إلا أن الملك أمر في عام ١١٨١، جميع اليهود بالاستعداد لمغادرة مملكة فرنسا، وأن يكونوا جميعًا في الخارج في عيد القديس يوحنا المعمدان John the Baptist الذي يحتفل به في ٢٩ آب[٣]، كي يقوموا ببيع أمتعتهم، ومقتنياتهم التي حصلوا عليها من الربا، في الوقت الذي يحتفظون فيه بممتلكاتهم التي كانوا قد اشتروها كالمنازل، والحقول، والمراعي، وحقول العنب والمعاصر، وكل ما هو محل إرث[٤].

وأمام صرامة الملك في تنفيذ قراره واستحالة التراجع عنه، سادت حالة من القلق والارتباك الشديدين في أوساط اليهود، فأسرع بعضهم بالتعميد، واعتناق الديانة المسيحية، فقام الملك بإعادة جميع ممتلكاتهم إليهم إكراما للدين الذي اعتنقوه، وأعفاهم من بعض الضرائب مثل باقي المسيحيين، أما أولئك الذين رفضوا اعتناق العقيدة المسيحية، فقد ذهبوا إلى البارونات والأساقفة وعرضوا عليهم مبالغ طائلة شريطة أن يتوسطوا لدى الملك لإبقائهم، لكن الأمراء والأساقفة رفضوا استقبالهم استجابة منهم لإرادة الرب، ولما رأى اليهود النجاح الضئيل لجهودهم، ولم يعودوا قادرين على الاعتماد على نفوذ الأرستقراطية، أصابهم الذهول فصرخوا سكيما Skima، إسرائيل، أي اسمع يا إسرائيل، وبدأوا يتهيؤون للمغادرة، لأن الوقت كان يقترب عندما سيضطرون إلى مغادرة فرنسا بأكملها، وكانوا يعلمون أن لا شيء يمكن أن يؤخر المدة التي حددها لهم المرسوم الملكي، فبدأوا ببيع أثاثهم بسرعة مدهشة، لأن ممتلكاتهم العقارية كانت جميعها تابعة للملكية، وبعد أن تم أخذوا معهم الثمن لدفع نفقات سفرهم، فغادروا البلاد مع زوجاتهم وأولادهم ومواليهم[٥]، وفي غضون شهر حزيران عام ١١٨٢ أي السنة الثالثة من حكم فيليب أغسطس، دخل عامه السابع عشر، تم رحيل هؤلاء اليهود الذين كانت كل الطرق مسدودة أمامهم، ووقت جلائهم عن فرنسا يدنو شيئًا فشيئا، فبدأوا في بيع أمتعتهم وممتلكاتهم على عجل، في الوقت نفسه، أمر الملك بحجز إرثهم[٦].

---

(1)Guillaume de Nangis, Op. Cit.,p.50.
(2)Ibid, p. 50.
(3) Herbert Thurston, Op. Cit., p.163.
(4)Rigord,Op.Cit.,p.25;Guillaume de Nangis, Op. Cit.,p. 51.
(5)Guillaume de Nangis, Op. Cit.,pp. 51-52.
(6) Rigord, Op. Cit, pp. 25-26; Guillaume de Nangis, Op. Cit.,pp. 51-52.

وهكذا يتضح أن موقف الملك فيليب أغسطس الصارم ضد اليهود في فرنسا، كان خطوة مهمة في حصوله على رضا رجال الدين والشعب الكامل معاً، واللذان رأيا فيه ملكاً حازماً متديناً في طرده لليهود الذين رفضوا الدخول في الدين المسيحي، بل لم يكتف بذلك فقد حاول محو أي أثر لهم يجعل لهم حقا أو شأنا في تلك البلاد، بأن تم تحويل المعابد اليهودية إلى كنائس، وفى ذلك تقول المصادر بعد أن غادر اليهود وخلت فرنسا من فساد هؤلاء الغوغاء، أمر الملك بتنظيف معابدهم، حتى يتم تخصيصها للكنائس، وتكريس المذابح هناك، وعمل قداس بها لخدمة الرب[١]، مما كان له عظيم الأثر على الشعب الفرنسي، فقد حظى الملك فيليب أغسطس بولاء الجميع واحترامهم، إذ أنه استطاع أن يجعل من المكان الذي طالما سب المسيح وأهين من اليهود، مكاناً لعبادته وتقديسه من جميع المسيحيين، وقد حذا حذو الملك في ذلك المضمار طبقة البرجوازيين في أورليان Les Bourgois d'orliens **"الذين قاموا بتحويل أحد الصوامع إلى كنيسة، وزوده بالمؤن حتى تقام فيه الشعائر الدينية ليل نهار للملك وكافة الشعب المسيحى ودولة فرنسا كلها، كما قام أهل إيتامبس الواقعة جنوبي باريس وشمال شرقي بويست وأورليان بتحويل أحد الهياكل اليهودية بيتاً للعبادة"**[٢].

لذلك أثنى وليم دي نايجيس William de Naigues مستشار الملك فيليب أغسطس قائلاً: **"بالفعل يجب أن تدعو الكنيسة المقدسة كلها لروح هذا الملك، لأنه كان دائما على أهبة الاستعداد للدفاع عنها وتأمينها، لقد قضى على اليهود الذين كانوا العدو اللدود للدين المسيحي، كما عاقب ونبذ خارج مجتمع الكنيسة المقدسة جميع البدع والهرطقات التي لا تتفق وتعاليم الدين تلك هي الأعمال الجليلة التي قام بها تقربا للرب، لهذا يجب على الكنيسة المقدسة كلها أن تتحاكي بهذه الأفعال والأقوال لتكون قدوة يحتذى بها العالم أجمع"**[٣]، وعلى الرغم من تلك الإجراءات الحاسمة، يبدو أن سياسة الإبعاد لم تشمل جميع اليهود آنذاك، لاسيما أولئك الذين تظاهروا باعتناق المسيحية، وهو ما تعكسه بوضوح حادثة مروعة وقعت في الخامس عشر من نيسان عام ١١٩٢ في أرض بري Bri وتحديداً في قلعة تُدعى براي، ففي تلك الأرض نفسها كانت كونتيسة بري تملك العديد من اليهود، الذين كانوا، كعادتهم، يقرضون المال بالربا وحدث أن فلاحًا مسيحياً، كان مدينًا لهؤلاء اليهود بمبلغ كبير من المال، ولأنه لم يسدد دينه، تخلت الكونتيسة عن ذلك الرجل التعيس لهم لمعاقبته على هواهم، بعد أن أغروها بالهبات الكثيرة، وبعد أن سُلِّم ذلك الرجل إليهم، جرده اليهود من ملابسه، ووضعوا إكليلاً من الشوك على رأسه، وقادوه من قرية إلى قرية، وانهالوا عليه ضرباً بالعصي، حتى رفعوه على الصليب، وطعنوا جنبه بحربة، وغطوا قدميه ويديه بالدماء على اثر المسامير، ليمثلوا على هذا العبد آلام الرب تمثيلاً كاملاً، وعندما سمع الملك بتلك الحادثة أشفق بشدة وتأثر تأثيرا بالغاً انتصاراً لدينه، فانطلق بجيشه في سرية تامة وبخطى متسارعة ليباغت الجناة قبل أن يتناهى إليهم خبر قدومه ويتمكنوا من الفرار، ولدى وصوله

---

(1)Ibid, pp.26- 27; Guillaume de Nangis, Op. Cit., p.52.
(2)Ibid, p. 28; Guillaume de Nangis,op. cit.,p.52.
(3)Guillaume de Nangis, op. cit., p.53.

أحكم قبضته على أبواب المدينة ومنافذها، وألقى القبض على كل من طالته يداه منهم، ليبلغ عدد المقبوض عليهم ما يزيد عن ثمانين شخصاً، حيث أمر بحرقهم أحياء قصاصاً وانتقاماً لما اقترفوه من تنكيل، في حين أصدر حكماً صارماً بالسجن المؤبد على كونتيسة بري جزاءً لتواطؤها وتخليها عن الفلاح [١].

وفي تناقض ظاهري مع ذلك العداء، يكشف مرسوم عام ١١٩٨ القاضي بالسماح بعودة اليهود عن رؤية استراتيجية أعمق للملك تتجاوز مجرد الرغبة في تمويل حملاته العسكرية، إذ هدف فيليب من ذلك الاستدعاء إلى مأسسة سلطته وتعزيز سيادة الدولة المركزية عبر إخضاع النشاط اليهودي لإدارة ملكية دقيقة[٢]،وهو نهج طويل الأمد دعم لاحقاً طموحاته التوسعية كغزو نورماندي، وقد ولّد ذلك التحول السياسي انقساماً مجتمعياً واضحاً [٣]،ففي حين رحبت النخب التجارية والإدارية بعودة الانتعاش المالي، قوبل القرار بتوجس شديد من قبل جيل من المسيحيين الذين نشأوا في بيئة خالية من اليهود وتشربوا أفكاراً مسبقة ترفض عودتهم إلى النسيج الاجتماعي[٤].

وهكذا استطاع الملك فيليب أغسطس الحفاظ على المصالح المسيحية من الأطماع اليهودية، وهيأت له الظروف أن يظهر بصورة حامى المسيحيين والكنائس بأكثر من شكل، ففي أثناء تصديه لليهود قامت في مدينة إيتامبس ثورة عارمة ١١٩٩، كان لها سيئ الأثر على الكنائس وبعض المخصصات لها، واستطاع الملك القضاء على تلك الثورة وأصدر عدة قرارات صيغت في صورة مرسوم ملكي نصه: **"باسم الثالوث المقدس الأوحد الأقدس، آمين. إنني فيليب ملك فرنسا بفضل الله أدعو كل الرجال الحاضرين والغائبين أن يعلموا أن هناك عديدا من الأضرار والاضطهادات والاضطرابات التي ألحقتها ثورة "إيتامبس" نحو الكنائس وبضائعها والفرسان وبضائعهم وقد قمعنا الثورة ذاتها، وأعلمنا الكنائس والفرسان أن من الآن فصاعدا لن تقوم ثورة في إيتامبس. وسوف تستعيد الكنائس والفرسان الحريات والحقوق التي كانوا يتمتعون بها قبل الثورة، مع استثناء أن كل الرجال والفلاحين التابعين لهم سوف يلحقون بجيشنا وبحملاتنا بالضبط كما يفعل خدمنا، وسوف نفرض ضريبة على الخدم والفلاحين التابعين للكنائس وللفرسان الذين يستقرون في القلعة أو فى ضواحي إيتامبس الذين كانوا مشتركين في الثورة، وأكثر من ذلك طالما يسرنا ويرضينا، إذا حدث أن لم يدفع الضريبة أي من هؤلاء الخدم أو الفلاحين الذين فرضت الضريبة عليهم، فسوف نستطيع بحكم القانون القبض على الخادم أو الفلاح ومصادرة جميع منقولاته، بغض النظر عن أية كنيسة أو فارس يتبع له الخادم أو الفلاح [٥].**

---

(1)Guillaume de Nangis, op. cit., p.117.

(2) Achille Locher, Philippe Auguste et son temps, p. 143.

(3)Ibid, p. 144.

(4)Dana Cushing, The Jewish Exile Community in the Christian World under Philip Augustus 1198–1215, BA thesis in Medieval Studies, University of Toronto, 1995, p. 6.

(5) A. Giry et E. Lavisse: Documenta sur les relations la royaute avec les villes in France de 1180 a1314, Paris: Picard, 1885, p. 36.

يتبين مما سبق أن تلك الوثيقة مهمة للغاية، إذ أنها أظهرت صرامة الملك فيليب أغسطس في قمع تلك الثورة والقضاء على مخلفاتها والحد من تكرار ذلك، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لهذا النص أهمية لسببين، أولهما: أنه يوضح أن الامتيازات المدنية كانت امتيازات حقيقية وكان من الممكن إلغاؤها كعقاب لارتكاب إثم، ثانيهما: إنها تمثل بياناً ببعض الحقوق التي يتوقع الملك فيليب أغسطس أن يقتضيها من رجاله، ونظرًا لحنكة الملك فيليب أغسطس في إدارة أمور مملكته، فقد حاول الموازنة بين فئات شعبه، وذلك بموقفه الحكيم من دافعي الضرائب المنتجين ضد تعصب الكنيسة، ففي عام ١٢٠٤ منع الرهبان من تحريم دخول المسيحيين في علاقات تجارية مع اليهود المرابين، والعمل على خدمتهم[١]، ويبدو أن ذلك الموقف للملك فيليب أغسطس عدّته الكنيسة تدخلاً في سلطتها، ونظرًا لقوة الشخصية التي كانت تعتلى الكرسي البابوي آنذاك وهو البابا إنوسنت الثالث Pope Innocent III[٢]، الذي بادر بإرسال خطاب للملك فيليب أغسطس في ١٦ كانون الثاني عام ١٢٠٥، استهله باستنكار الأفعال السيئة لليهود ضد المسيحيين مذكرًا إياه، بأن أقل تلك الأفعال كان كافيا للعقوبات التي تعرضوا لها، لاسيما أن اليهود لم يترددوا في الحصول على العبيد "الخدم" المسيحيين والمرضعات ليمارسوا دورهم السابق نفسه في تهويد هؤلاء المكرهين على حد تعبيره، محددًا ضرورة تحديد الضريبة المفترضة، ووضع شهادة المسيحيين ضد اليهود محل تقدير وعلى العكس من ذلك بالنسبة لشهادة اليهود ضد المسيحيين، مع التأكيد على قراره البابوي بقتل المسيحيين الذين ينساقون وراء اليهود من الناحية الدينية، كما أكد منع اليهود تماماً من الاستهانة بأعياد القديسين، أو المسيحيين عامة ومن يستهين بذلك فله عقوبة بأن يجرى على أوجه مختلفة عبر القرى والشوارع العامة[٣].

عليه يتبين أنه عندما أصبحت الحاجة ملحة لعودة اليهود، بناء على دورهم المهم في الاقتصاد الفرنسي آنذاك، ونظرًا للعائد الكبير من ضرائبهم، فقد حاول البابا إظهار الملك في

---

(1) L lazard: Essai sur la condition des juifs dans le domaine royal au XIII, Siècle, Paris, 1887.

(٢) البابا إنوسنت الثالث (١١٦١-١٢١٦): اسمه لو ثاريو دي كونتي Lothario De Conti، كان من أبرز بابوات العصر الوسيط، ابن كونت تراسميند دى سيجنى Comte Trasimund de segni، وابن أخو البابا كلمنت الثالث Clement III (١١٣٠- ١١٩١)، ولقد ولد لوثاريو في ١١٦٠م أو ١١٦١ في أنجني Anagni، وتوفي في ١٦ تموز عام ١٢١٦ في بريجيا Perugia، وقد أرسل منذ حداثة عمره للتربية في روما، ثم درس اللاهوت في باريس، والقانون في بولونيا، وأصبح واحدا من أبرز معلمي اللاهوت في ذلك الوقت. إلي أن تم ترسيمه بابا تحت اسم إنوسنت الثالث، وفي ذلك الوقت نجح في ازدياد النفوذ البابوي، مما كان له عظيم الأثر على سير الأحداث في تلك المدة. يراجع عن هذا البابا:

Barry, The Papal Monarchy, New York, 1903, pp. 282-332; Hill: A History of European Diplomacy, V.I, New York, 1905, pp. 313-31; Mullany: Innocent III, American Catholic Quarterly Review, Tome, XXXII, Philadelphia, 1907, pp. 25-48; Michael ott: Innocent III, Pope, The Catholic Encyclopedia, Tome. VIII, London, 1910, pp. 13-17.

(3)Bouquet Martin (et autres), « Lettre à Octave, évêque d'Ostie » (1200), Collection des historiens de Gaule et de France (R.H.G.F), Vol. 19, Royal Press, Paris, 1833,pp. 471-473.

صورة الحاكم الذي لا يبالي بأمور دينه بقدر اهتمامه بمصالحه الملكية الشخصية، كما أراد التأكيد على أن قرارا كقرار العفو عن هؤلاء اليهود ليس من حق الملك، وإنما لابد أن يصدر من البابا، لذلك رأى إنوسنت الثالث أن يكون هو صاحب القرار الأول في تحديد أسلوب معاملة اليهود، وبذلك يكون هو صاحب الكلمة الأولى فيما يتعلق بأمور دول غربي أوربا حتى الداخلية منها، مدعمًا بذلك سمو السيطرة البابوية على الإمبراطورية من جهة، ومن جهة أخرى يخصص معظم الإيراد الضريبي اليهودي للخدمات الدينية(١).

ويبدو أن التدخل البابوي في الشؤون الفرنسية كان بمثابة الحافز الذي دفع الملك فيليب أغسطس لتبني سياسات حازمة تهدف إلى الموازنة بين الحفاظ على صورته الدينية وترسيخ سلطته الملكية، وقد تبلور ذلك في حزمة من الترتيبات التنظيمية التي امتدت من أيلول عام ١٢٠٦ وحتى شباط عام ١٢١٩، ركزت تلك الإجراءات على إعادة هيكلة المعاملات المالية لليهود وتسهيل إدارتها مقابل جملة من الضمانات والشروط الصارمة، حيث تم تحديد سقف لفوائد الإقراض لا يتجاوز ثلاثة وأربعين بالمائة سنوياً، لضبط النسبة التي كانت تُحتسب بـ ٢% لكل جنيه أسبوعياً، ولإضفاء طابع رسمي ورقابي، أُلزم اليهود بتوثيق عقودهم بختم خاص يخضع لإشراف مجلسين للمراقبة في كل مدينة، مع فرض حظر تام على قبولهم لرهن أو استئجار ممتلكات الكنيسة من زخارف وأراضٍ، أو حتى أدوات الفلاحة(٢)، وقد أثمرت تلك السياسات الضريبية والرقابية عن فوائد اقتصادية عظمى للخزانة الملكية، تجلت في القفزة الهائلة للدخل الضريبي المتأتي من اليهود، والذي تضاعف عدة مرات ليرتفع من ألف ومائتي جنيه باريسي فقط في عام ١٢٠٢، إلى سبعة آلاف وخمسمائة وخمسين جنيهاً بحلول عام ١٢١٧(٣).

وهكذا حافظ الملك فيليب أغسطس على المصالح المسيحية من جهة، ومنع اليهود من ممارسة أفعالهم الشنيعة السابقة مؤكدًا ما ذكره البابا من قبل، فقد أصدر الملك عقب انتصاره في عام ١٢١٤ قانونا لجميع اليهود الموجودين بمملكته، أمر بأن لا يقوم أحد منهم بالحجز على مقتنيات الكنيسة المقدسة، وأن لا يقوم أحد بالتأجير من رجل دين يهودي، إلا بموافقة من مرؤوسه وبأوراق موقعة من كل من القس والدير التابع لهما، كما لا يُجبر مسيحي أيا

---

(1) Achille Locher, Op. Cit., p.144.

(2) Ibid, p. 144;Joseph Adler, The Jewish Encyclopedia: A Descriptive Record of the History, Religion, Literature, and Customs of the Jewish People from the Earliest Times to the Present Day, Funk & Wagnalls, London, 1986, pp. 71-73.

(٣) يُمكن فهم الواقع الاقتصادي للجنيه الفرنسي في عهد الملك فيليب أغسطس باعتباره وحدة حسابية معيارية لتقييم الثروات الكبرى وليس عملة ملموسة للتداول اليومي؛ إذ اعتمد التداول الفعلي على "الدنييه" الفضي ضمن نظام نقدي يُقسّم الجنيه الواحد إلى عشرين "سو" أو مائتين وأربعين "دنييه"، مع أفضلية قيمية للجنيه الباريسي على نظيره التورنوي، وتتجلى القيمة الشرائية الضخمة للجنيه في كونه يوازي ثمن قطيع صغير من الخراف، أو حصيلة ثمانية أشهر من الكدح لعامل بسيط، بينما يكسبه الفارس المحارب في أيام معدودة، مما جعله مقياساً لرؤوس الأموال الاستراتيجية وميزانيات الدول-التي بلغت مائتي ألف جنيه آنذاك ومولت تحصينات باريس والحروب الكبرى-وليس أداة للتبادلات التجارية البسيطة. يراجع :

Achille Locher, Social France under Philippe Auguste, translated by Edward Benjamin Cribial, Henry Holt Company, New York, 1912, pp. 323-324.

كان على بيع ميراثه أو ربعه مقابل تسديد دين ليهودي، بل يُعهد بحصتي الميراث والربع الخاصة بالمدين لليهودى بشرط أن لا تتعدى مدة الدين حولا كاملا، وعندما يحصل الدائن على المبلغ المقترض منه يقوم بإعادة كل شيء للمدين، وله أن يحصل على ربح آخر أسبوعيًا في السنة على أن لا يأخذ أي من الدواب، أو العربات، أو أية معدات أخرى من منزل المدين، على ان تسري هذه الأوامر التي أصدرها الملك على يهود مملكته[١].

ويبدو أن الرغبة في تيسير العلاقات بين المسيحيين واليهود، مع الاحتراس من أية أفعال يهودية دون معرفة القائم بها، دفعت البابوية لإصدار أمر خاص بهؤلاء اليهود، وأصدر قرارا في مجلس لاتيران الرابع المنعقد في١٢١٥ تضمن ضرورة ارتداء اليهود في فرنسا علامة مميزة على ملابسهم في شكل مستدير يجمع اللونين الأحمر والأبيض[٢]، بغية تمييز اليهود عن غيرهم، وبالتالي سهولة القبض عليهم عند أي فعل يُصدر منهم من جهة، ومن جهة أخرى ضمان استمرار تدخل البابوية في مثل تلك الأحوال[٣].

يتبين من خلال ماتقدم أن سياسة الملك فيليب أغسطس تجاه اليهود في فرنسا اتسمت بالبراغماتية الشديدة والتقلب بين الاضطهاد الديني والاستغلال الاقتصادي، فقد استهل الملك حكمه بعداء صريح تُوج بقرار طردهم عام ١١٨٢ ومصادرة ممتلكاتهم وإسقاط ديون المسيحيين لهم، مستنداً إلى ذرائع شملت اتهامهم بالربا الفاحش، وازدراء المقدسات المسيحية، والادعاءات الشعبية بارتكابهم جرائم ضد المسيحيين، مما أكسبه تأييداً كاسحاً من الكنيسة والشعب، غير أن ذلك الموقف المتشدد سرعان ما تحول في عام ١١٩٨ إلى سياسة استيعاب نفعية، حيث سُمح لهم بالعودة بهدف استغلال قدراتهم المالية لتمويل طموحات الملك التوسعية وتعزيز سلطته المركزية، وقد أخضع فيليب نشاطهم الاقتصادي، لاسيما الإقراض، لرقابة حكومية صارمة ولوائح دقيقة تضمنت تحديد نسب الفوائد ومنع المساس بممتلكات الكنيسة، وهو ما قفز بالعائدات الضريبية للخزانة الملكية بشكل هائل، وقد أسفرت تلك السياسة عن صراع نفوذ بين السلطة الملكية التي سعت لحماية مصادر تمويلها وحمايتهم من بطش رجال الدين، والسلطة البابوية بقيادة إنوسنت الثالث التي حاولت فرض وصايتها الدينية والسياسية على سياسات الدولة، وانتهى ذلك الصراع بفرض قيود مجتمعية ورقابية قاسية على اليهود لضمان عدم تجاوزهم، تكللت بإلزامهم بارتداء شارات ملونة مميزة لتمييزهم وعزلهم مجتمعياً وفقاً لمقررات مجمع لاتيران الرابع عام ١٢١٥، لتشكل تلك الحقبة نموذجاً لتوظيف الأقلية اليهودية كأداة مالية تتقاذفها مصالح السلطتين الزمنية والدينية.

---

(1) Jean-François Engelier, Histoire de France, édition Brült, Paris, 1978, p. 431.

(2) Mark M. Epstein, "Clothing, Judaism," in Medieval France, eds. William Keppler and Grover Zinn, Garland Publishers, New York, 1995, p. 237.

(3) Henry Leclercq, "Lateran Councils," The Catholic Encyclopedia, ed. Charles Herberman et al., Vol. 9, Robert Appleton Company, New York, 1910, p. 18.

٢. صراع الملك فيليب أغسطس مع الكونتات وحكام المقاطعات المجاورة ١١٨٠- ١١٨٩.

شهدت الساحة السياسية في أوروبا الغربية بين عامي ١١٨٠ و١١٨٩ تحولات استراتيجية ومخاضاً عسيراً مع اعتلاء الملك فيليب أغسطس عرش فرنسا، ليجد نفسه محاطاً بشبكة معقدة من التحديات الإقطاعية والسياسية التي هددت كيان التاج الفرنسي، فمن جهة، واجهت الملكية الفرنسية طموحات واسعة وأطماعاً متزايدة لكبار الأمراء والكونتات، وفي مقدمتهم آل شامباني، وكونت فلاندرز، ودوق بورغوندي، الذين استغلوا حداثة سن الملك لتشكيل تحالفات طوقت الأراضي الملكية وسعت لفرض الوصاية المباشرة على مقاليد الحكم، ومن جهة أخرى، كان التهديد الأبرز والأكثر خطورة يتمثل في الإمبراطورية الأنجوية بقيادة الملك الإنكليزي المتمرس هنري الثاني، الذي أحكم قبضته على أكثر من نصف الأراضي الفرنسية، مشكلاً بذلك ضغطاً خانقاً على السيادة المركزية في باريس، وفي خضم ذلك المشهد المضطرب، لم يستسلم فيليب أغسطس لتفوق خصومه العسكري أو لقلة حلفائه، بل كشف عن دهاء سياسي وحنكة دبلوماسية مبكرة، إذ ارتكزت استراتيجيته على تفكيك التحالفات الإقطاعية المناهضة له عبر توظيف سلاح المصاهرة، وضرب مراكز القوى ببعضها، واستغلال الصراعات الداخلية العميقة داخل البيت الأنجوي من خلال دعم أبناء هنري الثاني المتمردين ضده، لقد مثلت تلك الحقبة بداية حاسمة لسلسلة من المواجهات والمناورات التي هدفت إلى كسر شوكة النبلاء المستقلين، وتقويض الهيمنة الإنكليزية في فرنسا، مؤسسةً بذلك للمرحلة الأولى من مسيرة الملك فيليب نحو بسط النفوذ الملكي المطلق وتوحيد فرنسا.

أ- حروب الملك فيليب أغسطس ضد أمراء شامباني وكونت الفلاندرز ودوق بورغوندي:

انقسم المشهد السياسي آنذاك إلى تيارين رئيسيين، تزعم التيار الأول فيليب كونت فلاندرز Philip, Count of Flanders [1]، مستنداً إلى نفوذ بلدياته القوية، بدءاً من غنت Ghent التي تميزت بعمرانها الشامخ وكثافتها السكانية، وإيبرس Ypres ذائعة الصيت في صباغة الصوف، مروراً بـ أراس Arras العاصمة التجارية الثرية، وصولاً إلى ليل Lille التي اكتسبت شهرتها من أناقة تجارها وجودة منسوجاتها التي نافست في أسواق الممالك الأجنبية وعادت عليها بالثروات، ولم يقتصر نفوذ الكونت فيليب على تلك الحواضر، بل امتد ليشمل مقاطعات بولوني وغينيس وسان بول، فضلا عن ذلك كلف لويس السابع كونت فلاندرز بمراقبة ابنه وتقديم المشورة له، وأقسم التابع العظيم اليمين بإخلاص لحماية سيده

[1] فيليب دى الزاس المعروف باسم فيليب الأول ملك فلاندرز(١١٤٣-١١٩١): ابن تييري من دى ألزاس استطاع فيليب اغتصاب السلطة في الكونتية عندما رحل والده إلى فلسطين عام ١١٥٧، أسس مقاطعات وأضاف مستعمرات جديدة علاوة على المدن الأخرى ومساهماتها الاقتصادية، تزوج من اليزابيث ابنة راؤول الخامس دى فرمندوا Raoul V de Vermandois، ولم ينجب فيليب الألزاس أولاذا، لكنه أصبح كونت فرمندوا منذ عام ١١٦٣، وبعد مدة صراعه مع الملك فيليب أغسطس، صاحب الحملة الصليبية الثالثة، وتوفى في فلسطين عام ١١٩١، ونجح ابن اخته بلدوين دى هاتوه في تولي مقاليد الحكم، وأصبح بلدوين الثامن كونت **فلاندز**.

David M. Nicholas, Philippe, comte d'Alsace (1144-1191), Encyclopédie de la France médiévale, éd. William W. Kepler et Grover A. Zinn, Garland Publishers, New York, 1995, p. 438.

الشاب وإعداده للحكم [١]، وفي المقابل، تمثل التيار الثاني في نفوذ آل شامباني House of Champagne، بقيادة الملكة الأم أديل دي شامباني المهيمنة على مقاليد الحكم والوصية على العرش، يعاضدها أخوال الملك الذين شغلوا مناصب حساسة، في مقدمتهم وليم، رئيس أساقفة ريمس وصاحب المكانة الدينية الأبرز في فرنسا، وهنري الأول كونت شامباني Henry I, Count of Champagne [٢]، ولثيوبولد الخامس كونت بلوا وشارتر Leopold V, Count of Blois and Chartres [٣] إلى جانب ستيفن الأول كونت سانسير Stephen Count Sancerre (١١٣٣- ١١٩١) صاحب مرتبة أقل شأنا قليلاً، وقد شكّل ذلك التحالف خطراً استراتيجياً على الملكية، لا سيما أن أطماع آل شامباني في السلطة كانت مدعومة بامتداد جغرافي واسع لممتلكاتهم التي أحاطت بالأراضي الملكية من معظم الجهات، فضلاً عن تحالفهم السياسي مع هيو الثالث دوق بورغونيا [٤]، الذي كان مرتبطاً مع تلك العائلة من خلال اتفاقية سياسية[١].

في خضم الصراعات السياسية المحتدمة بين كونتات فلاندرز وشامباني، كانت المملكة الفرنسية ترزح تحت وطأة الهيمنة التوسعية للملك الإنكليزي هنري الثاني، الذي أحكم قبضته على أكثر من نصف الأراضي الفرنسية وسعى لضم البقية، من خلال تطويق التاج الفرنسي بسلسلة من الحلفاء والولايات الموالية، سعياً لتقويض سلطته وعزله تماماً عن محيطه الخارجي، وأمام ذلك التهديد، تجلت الحنكة السياسية للملك الفرنسي الشاب فيليب أغسطس، الذي أدرك ضرورة تحجيم نفوذ أخواله من آل شامباني عبر نسج تحالف استراتيجي مع كونت فلاندرز الطموح ، وتتويجاً لذلك المسار وعلى الرغم من تتويج الملك فيليب اغسطس

---

(1) Raoul de diceto, "Pictures of History," Collection of Historians of Gaul and France (R.H.G.F), Volume XIII, edited by Michel Bréal, Victor Balmet edition, Paris, 1878, p.616; Engelier, Op.Cit.,p.429; Baldwin, J. W The Government of Philip Augustus Foundations of French Royal power in the Middle Ages, Berkeley and Los Angeles; University of California Pres, 1986, pp. 15-16; Achille Locher, Philippe Auguste et son temps, p. 51.

[٢] هنرى الأول (١١٤٣-١١٩١): كونت شامباني ابن تيوبولد الرابع كونت بلوا وشامباني، وقد تزوج هنرى من "ماري" ابنة الملك لويس السابع من زوجته إليانور أكيتان، بذلك يكون هنرى الأول كونت شامباني خال الملك فيليب أغسطس، وزوج أخته مما سيكون له عظيم الأثر على سير الأحداث.

Achille Locher, Op. Cit., p. 51.

[٣] ثيوبولد الخامس(١١٣٠-١١٩١): ابن ثيوبولد الرابع كونت بلوا وشامباني، وقد صاهر الملك لويس السابع بزواجه من ابنته أليس من زوجته إليانوردى أكويتان، وبذلك يكون في نفس درجة قرابة أخيه بالنسبة للملك فيليب أغسطس -خاله وزوج أخته لأبيه بالإضافة لدوره البارز في المملكة الفرنسية.

Crosby, Everett U. The King's Bishops: The Politics of Welfare in England and Normandy, 1066-1216. New York: Palgrave Macmillan, 2013, p. 95.

[٤] هيو الثالث دوق بورغوندي(١١٤٢-١١٩٢): ابن أود الثاني Eudes II دوق بورغونديا (١١٤٣-١١٦٢م) من زوجته مارى دى شامبانى Marie de champagne، وقد تزوج هيو الثالث من أليس دى اللورين Alix de Lorraine، وقد ظهر هيو كشخصية بارزة في الأحداث مع الملك فيليب أغسطس، حيث كانت كونتيه بورغوندي واحدة من أهم كونتيات فرنسا في العصر الوسيط، وتقع فيما بين نهرى اللوار Loire وسوني Saône، وجنوب سينس وشمال لايون Lyon. يراجع:

Constance B. Bouchard: Burgundy, France in the Middle Ages, Garland Publishers, New York, 1995, pp. 154-175.

في حياة والده، إلا أن المحيطين بهِ أشاروا بضرورة إعادة تتويجه مرة أخرى، وبالفعل اتجه الملك في ٤ حزيران ١١٨٠ إلى كنيسة سانت دونيس بمدينة باريس، وهناك أعيد تتويجه أمام مذبح الكنيسة[٢]، وفي ذات اليوم تزوج الملك إليزابيث Elisabeth (١١٧٠- ١١٩٠) ابنة بلدوين الخامس كونت هانوه Baldwin V, Count of Hanover[٣]، وابنة مارجريت أخت فيليب كونت فلاندرز، والذي كان يحمل أمام الملك فيليب أغسطس سيف الإمبراطور شارلمان كما هي العادة المتبعة عند تتويج الملك[٤].

اتسمت تلك المراسم بأبهة استثنائية، إذ سار الموكب الملكي وسط ابتهاج شعبي عارم، وتألقت العروس ذات الثلاثة عشر ربيعاً، وهي تمتطي جوادًا أبيض، والملك على جواده الحربي، مزينًا بعباءة فاخرة وريش ورايات، وسط هتافات الشعب المبتهجة، كانت الملكة ترتدي ثوبًا من قماش ذهبي نصف أحمر مرصع بالزمرد والياقوت، وكان رأسه مغطى بغطاء رأس مستطيل، وحجاب يصل إلى كعبيه، **"وقف الملك بعباءته الزرقاء حاملاً صولجاناً ذا حلية مبهمة تشبه الزنبقة أو الرمح، وسط كنيسة ازدانت مظاهرها كأيام الأعياد، امتزج نور الشموع ببريق الزجاج الملون للنوافذ الوردية ليخلق جواً من الرهبة، بينما انتصبت فوق المذبح راية الدير العتيقة الحمراء الموشاة بخيوط الذهب، كشعلة متوهجة"**[٥]، وبينما كان ذلك الاحتفال يتم في كنيسة القديس دينس، كان الملك وزوجته الملكة راكعين عند قدم المذبح العالي وينحنيان بتواضع لتلقي البركة الزوجية من الموقر جاي الأول من نويرز Jay the first from Noirs (١١٢٠- ١١٩٤)، رئيس أساقفة دينس، بحضور عدد كبير من الأساقفة والبارونات، وقع حادث لا ينسى: **"كان أهالي المدن والضواحي والقرى والبلدات المجاورة قد حضروا بأعداد كبيرة ومليئين بالفرح لحضور مثل هذا الاحتفال المهيب، لرؤية الملك والملكة مزينين بالتاج، وبما أن حماسة الكثير من الناس الفضوليين كانت تسبب المتاعب والاضطرابات، قام فارس من أسرة الملك، يحمل**

---

(1)Houghden, Roger Dee (and Benedict of Peterborough), The Works of King Henry II, ed. William Stubbs, Vol. 1, Longmans, Green, Reader, and Dyer, London, 1867, pp. 243-244; Achille Locher, Op. cit., p.51.

(2)Henry Martin, Histoire de France depuis les temps les plus reculés jusqu'en 1789, Volume 3, Fourne Publishers, Paris, 1855, p. 506.

(٣) بلدوين الخامس (١١٥٠ – ١١٩٥): كان يحكم كونتية هانوه ١١٧١ إلى عام ١١٩٥ التي اتسمت بأنها منطقة زراعية تتوسط أنهار شلدت، وسامبرت ودندرى، وأكبر مدينتين بها هما فرمندوا ومونس وسيتمكن فيليب أغسطس من ضم أجزاء منها لممتلكاته، وهو كونت فلاندرز تحت اسم بالدوين الثامن من فلاندرز من عام ١١٩١ إلى عام ١١٩٤، وماركيز نامور تحت اسم بالدوين الأول من عام ١١٨٧ إلى عام ١١٩٥. يراجع:

David M. Nicholas, Op. cit., p. 3.

(٤) ارتبط سيف الإمبراطور شارلمان الأسطوري، المعروف باسم "جويوز" (Joyeuse)، ارتباطًا وثيقًا بتاريخ الملكية الفرنسية، حيث كان جزءًا لا يتجزأ من مراسم تتويج ملوك فرنسا، بما في ذلك ملوك سلالة الـ كابيه التي حكمت فرنسا لقرون، وقد توارثت الأجيال قناعة بأن هذا السيف هو نفسه الذي حمله شارلمان، الإمبراطور الذي وحّد جزءًا كبيرًا من أوروبا الغربية في أوائل العصر الوسيط، وهكذا، لم يكن سيف شارلمان مجرد قطعة من عتاد الحرب، بل تحول إلى رمز للشرعية والقوة والسلطة الملكية، وتناقله الملوك المتعاقبون من سلالة الـ كابيه كجزء من الشعارات الملكية التي تؤكد على استمرارية الحكم وامتداده إلى الإمبراطور المؤسس. يراجع:

Pierre Champion, Histoire De France, Moyen Age et Renaissance, Flammarion, 1934, p. 36.

(5) Taudier Louis Vaussion, Philippe Auguste, 4e éd, Alfred Mamé et Fils, Tours, France, 1874, pp.37-38.

عصاً في يده، بإلقائها عشوائيًا هنا وهناك على الحشد لتهدئة الاضطرابات، في تلك اللحظة، وبعد أن أخطأ في تقدير ضربته، كسر على الفور ثلاثة مصابيح معلقة أمام المذبح العالي على رؤوس الزوجين، وانسكب الزيت الذي كانت تحتويه على جباه الملك والملكة، وهي علامة على وفرة المواهب التي كان روح القدس يسكبها عليهم من السماء، وأعتقد الناس أن الله أجرى هذه المعجزة لكي ينشر مجد الملك واسم الملك على نطاق واسع، وينشر ضجيج شهرته على وجه الأرض كلها، كما يبدو أن سليمان قد تنبأ في ترنيمة حبه عندما قال: "اسمك كالزيت المسكوب"[١]، الذي يجب تفسيره على النحو التالي: ضجيج اسمك ومجدك وحكمتك سينتشر من بحر إلى بحر، ومن الأنهار إلى أقاصي الأرض، وسيحني الملوك رؤوسهم أمامه، وستخضع له أمم كثيرة[٢].

ونظراً للصبغة الدينية التي كانت سائدة في تلك المدة فإن مؤرخيها يرون ذلك الحدث ليس بالواقعة، لكنه أتى كما لو كان أمرًا إلاهياً، وإشارة لإتمام نعم روح القدس على الملك بترديد ونشر اسمه، وتمجيد أفعاله في جميع أرجاء الأرض، لأن الزيت يرمز إلى الشهرة والمجد والحكمة وكانت تلك النعم الثلاث تضئ نفسه طوال حياته ذلك لأنه كان مشهوراً بانتصاراته ومبجلاً بأفعاله وحكيما بورعه وخشيته من الإله وحكمه لمملكته بأسلوب حكيم[٣].

لم تقتصر مكاسب ذلك الزواج الملكي على الأبعاد الرمزية، بل شكل نقلة نوعية لهيبة التاج الفرنسي، فقد كانت الأميرة من نسل شارلمان الإمبراطور الذي يحظى بمكانة سامية في قلوب الفرنسيين، وعلاوة على ذلك، حقق فيليب أغسطس مكاسب جغرافية وسياسية هائلة تمثلت في المهر السخي الذي قدمه كونت فلاندرز، والذي ضم مقاطعات استراتيجية أراس Arras، وسانت أومر Saint-Omer، وأيرAire، وهيسدن Hesdin [٤]،مع تعهد صريح بانتقال مقاطعته بأكملها إلى التاج الفرنسي لعدم وجود وريث له، وعلى الرغم من أن ذلك التحالف حظي بمباركة مجلس الملك وتأييد كبار اللوردات، فإنه أشعل غضب الملكة الأم وأمراء آل شامباني، وفي رد حازم على تلك الاستياء، فرض فيليب سيطرته الكاملة على ممتلكات والدته، وقطع تواصله مع أخواله، متجاوزاً إياهم حتى في الطقوس الدينية حين استعان بأسقف سينيس بدلاً من خاله رئيس أساقفة ريمس لمسح الملكة بالزيت المقدس،

---

(١) هذا البيت الشعري منسوب إلى الملك سليمان عليه السلام، وهو مقتبس من "نشيد الأناشيد" في الكتاب المقدس، الاصحاح الأول، سفر نشيد الإنشاد، الآية الثالثة.

(2)David M. Nicholas, Op. cit., p. 438.

(3) William Chester Jorda, The French Monarchy and the Jews from Philip Augustus to the Last Capetians, University of Pennsylvania Press, All rights reserved Printed in the United States of America ,1989, P. 3; Taudier Louis Vaussion, op. cit, pp.71-72; Guillaume de Nangis, Actes de Philippe Auguste, Extraits des Chroniques de la Grande France (Saint-Denis), Collection des Historiens de Gaule et de France (R.H.G.F.), édité par Michel Jean-Joseph Bréal, Volume XVII, Royal Press, Paris, 1818, p.48.

(4)Raoul de diceto, Op. cit., p. 617; Achille Locher, Op. cit., p. 52; David M, Op. cit., p. 732.

لينطلق فور انتهاء تلك المراسم في أولى حملاته العسكرية لترسيخ سلطته في أرتوا[١].

وفي غضون ذلك، زاد كونت فلاندرز من تعقيد المشهد حين دفع الأمور إلى أقصى حد، رافضاً السماح للملكة الأم بالتصرف في المدن والقلاع المشمولة ضمن مهرها بعد وفاة زوجها الملك لويس السابع، وصادر عائداتها المالية، ذلك التعنت دفع أمراء شامباني لتحريض شقيقتهم الملكة الأم على الخروج والتمرد ضد ابنها الملك، فغادرت العاصمة الفرنسية قاصدةً نورماندیا برفقة رئيس أساقفة ريمس وكونتات شارتر وسانسير، وهناك استنجدت بالملك الإنكليزي هنري الثاني طالبةً الحماية من تصرفات ولدها العاق وحليفه كونت فلاندرز[٢]، هنا وجد الملك الإنكليزي الفرصة مواتية للتدخل في الشؤون الداخلية لمملكة فرنسا، لذا بادرا بالموافقة على المساعدة، فأمر بإعداد جيش ضخم، وترك مملكته، مصطحباً معه ابنه هنري الشاب، ولما علم الملك فيليب بهذا طلب من والد زوجته تجهيز جيش كبير للتصدي للجيش الإنكليزي[٣].

وعلى ما يبدو أن الملك الإنكليزي أراد من تلك الحملة إظهار القوة لملك مازال يتأهب للإمساك بتلابيب الحكم في المملكة الفرنسية وإرهابه وممارسة الضغط عليه حتى تكون كلمته مسموعة عنده خلال المراحل التالية، وربما وجد في مناورته العسكرية ما قد يحول دوقية فلاندرز إلى ساحة حقيقية لقتال مرير لا تعرف عواقبه، إلا أنه وهو المحنك سياسياً، فعندما رأى ضخامة الجيش الفرنسي تحت قيادة كونت فلاندرز، أراد اللجوء إلى السلم خوفاً من الدخول في حرب تكون نتيجتها في غير صالح مملكته، في الوقت الذي يحارب فيه خارج نطاق أملاكه، مما دفعة إلى قبول الوساطة لتبادل أطراف الحديث حول إنهاء حالة الصراع وتجنب الدخول في حرب لم يكن له فيها ناقة ولا جمل، فأدت الوساطة دورًا كبيرًا في بداية حياة الملك الجديد، ولحسن الحظ، كان مبعوث الكرسي الرسولي، الكاردينال سانت كريسوغوCardinal Saint Chrysogo ، في فرنسا في ذلك الوقت، دفعت تحذيراته الملكين إلى الموافقة على الهدنة، إذ تمكن من تجديد العرض الخاص بالوفاق بين الملكين وتجديد معاهدة إيفري بين الملك فيليب والملك هنري الثاني، لذلك قرر ملكا فرنسا وانكلترا، عقد اجتماع في موضع يقع بين قلعتي جيسور وترير، حضره الملك الإنكليزي هذه المرة ليس بوصفه خصماً، إنما من أجل أن يؤدي دور الوسيط بين الابن وأمه، وفى ذلك الاجتماع الذي عقد في ٢٨ حزيران ١١٨٠ جددت معاهدة إيفري التي سبق ان عقدت بين الملكين لويس السابع وهنري الثاني في عام ١١٧٧، وصدر عقب اللقاء المرسوم الثاني: **"أننا نحن فيليب ملك فرنسا وهنري ملك انكلترا، بفضل من الرب نرغب في أن نضع أمام جميع الناس، أننا الآن وفي المستقبل قمنا بتجديد معاهدة الصداقة التي عقدها سيدي الوالد ملك فرنسا، وهي المعاهدة التي أكدها ملك انكلترا هنري الثاني في إيفري، بحضور أساقفة**

---

(1)Taudier Louis Vaussion, Op. Cit., P. 35: Rigord, Op. cit., p. 7; Raoul de diceto, Op. Cit., p. 617.

(2) Roger de Hoveden, The Journals of Roger de Hoffden, edited by William Stubbs, Vol. 1, Longmans, London, 1868, pp. 244-245.

(3) Raoul de diceto, Op. Cit., p.618.

ونشستر، وقد أزيلت فيها كل أسباب الخلاف بيننا، ويتعهد كل منا، بأنه لن يطلب من الآخر أية أرض أو مقاطعات باستثناء مقاطعتى آفرين Auverfine وشاتروه Chateauroux اللتين سببتًا للخلاف بيننا، والإيجارات الصغيرة للأراضي الخاصة ببري Berry وإذا ما تم الاستيلاء على أي جزء منها، سواء ضدنا معا أو ضد واحد منا. وعلى أي حال إذا لم نكن قادرين نحن على الوصول إلى اتفاق من خلال مناقشاتنا، فيما يتعلق بهذه المناطق التي استثنيناها من مواد الاتفاق العام، فإنني أنا فيليب ملك فرنسا قد اخترت ثلاثة من رؤساء الأساقفة من كليرمونت ونيفرنوس وتريف Treves وثلاثة من البارونات هم الكونت نيويولد و الكونت روبرت وبطرس تورنيه Peter Toruaine، أما أنا هنري ملك انكلترا، فقد اخترت ثلاثة من رؤساء الأساقفة هم: رئيس أساقفة كل من لامانس وبريجورد و نانتس، وثلاثة من البارونات هم: ميورك دى كورتناى ووليم منجوت، وبطرس دي مونت رابيل، للبحث في هذه المسألة، وسنعترف بصدق بما سيوصون به مهما كان، ونعد بصدق أننا سنلتزم بجميع ما يتقدم من شروط و توصيات"[١].

ومن نصوص تلك المعاهدة نخلص إلى أن الملكين فيليب أغسطس وهنري الثاني قد قاما بتسوية كثير من الأمور التي أدت إلى احتفاظ الملكين كليهما بما تحت أيديهما من أملاك فضلا عن ترتيب الأمور بالنسبة للقلاع المتنازع عليها، وإذا ما احتاج الأمر لنقاش وكل ذلك إلى لجنة تناقش الأمر لحله، ويلاحظ أن بنود تجديد تلك المعاهدة قد أغفلت الحديث عن الأراضي المقدسة، ولم يذكر فيها أي بند خاص بهذا الشأن، وعلى الجانب الآخر يلاحظ أن التوصل إلى تجديد معاهدة إيفري يرجح الحد من وجاهة الرأي القائل أن الملك الإنكليزي قد اصطدم بقوة عسكرية مفاجئة تفوق توقعاته تحت قيادة تحالف كونت فلاندرز والملك الشاب فيليب أغسطس[٢].

ومنذ البداية اتضحت قوة الملك الفرنسي السياسية، من خلال اختياره لكونت فلاندرز لقيادة الجيوش لما يعلمه من تنافس وضغينة بين الملك والكونت، وأيضا بين الكونت نفسه وكونت شامباني المناصر لأمه الملكة أديلا فضلاً عن تمسكه بما تعهد عليه الملك الإنكليزي من حقوق للتاج الفرنسي من قبل إلى جانب اختياره خمسة أعضاء من الذين اشتركوا في التوصل إلى نتيجة في عهد والده الملك لويس السابع، وهذا يؤكد مهارته السياسية في اختيار رجاله ممن يتمتعون بمقدرة سياسية عالية، ذلك في الوقت الذي أحس فيه الملك الإنكليزي بالفعل أن الملك الجديد لم يكن بالصيد السهل وأنه يمتلك إصراراً على المحافظة على حقوق السيادة الإقطاعية التي ورثها عن أبيه مما سيترك باب الصراع مفتوحاً على مصراعيه في ظل ملكين لهما تلك الصفات على عرش مملكتي فرنسا وانكلترا[٣].

لم يمر وقت طويل حتى اكتشف أمراء شامباني، وكونت فلاندرز أن معاهدة إيفري تحطم

---

(1) Rigord, Op. Cit., p. 7; Roger de Hoveden, Gesta Regis Henrici Secundi, V. I, pp. 245-46; Achille Locher, Op. Cit., p. 52.

(2) Taudier Louis Vaussion, Op. Cit., P. 41.

(3) Achille Luchaire, Philippe Auguste, Bibliothèque Hachette & Cie., Saint-Germain, 1884, p. 23.

آمالهم في السلطة، وظاهرياً تصالحت والدته وأسرتها مع الملك الشاب من أجل الحفاظ على الشكل العام، لكنهم أخذوا عليه سوء تنفيذه الشروط المعاهدة، وقد حاول كونت فلاندرز منع الملوك من التفاهم مع بعضهم بعضاً، وقد استوعب أن زواج بنت شقيقته لن يجلب عليه شيئا، وأن فيليب أغسطس تلاعب بهِ، والأمر الآخر والخطير أن الملك فيليب أغسطس طالب بوراثة دوقية فيرماندوا بعد وفاة راؤول كونت فيرماندوا زوج اخت فيليب الفلاندرز، وأن ممتلكاته يجب أن تعود إلى التاج، ولكونه أخو الوريثة لا ينوي أن يسمح لملك فرنسا بأن يعظّم نفسه[١].

لم يرق التحالف المُبرم بين التاجين الفرنسي والإنكليزي لكونت فلاندرز الطموح، مما أجّج نار الخلاف بينه وبين الملك فيليب أغسطس، ودفعه إلى مغادرة باريس مصطحباً معه ابنة شقيقته الملكة إليزابيث، وفي مسعىً منه لتقويض سلطة الملك الشاب، عمد الكونت إلى ترويج شائعات تزعم نية فيليب إرسال فرسانه للاستيلاء على قلاع البارونات وتحصيناتهم، ما مهّد الطريق لتشكيل حلفٍ مناهضٍ، وقد وجد فيليب نفسه في عزلة شبه تامة بعد أن انحاز جلّ أتباع المملكة لخصمه، واصطف تحت لواء الكونت كلٌّ من أمراء شامبانيا، وهيو الثالث دوق بورغوندي، وكونتا هينو ونامور، فضلا عن حشد من اللوردات الفرنسيين الذين حرّكتهم الرغبة في استعادة استقلالهم السياسي الكامل، ولزيادة أحكام الحصار على فيليب أغسطس، قام كونت فلاندرز بإدخال عدد من بارونات بلجيكا ولوريان وكونت تاميور ودوق لوفان ضمن تلك المعاهدة[٢].

كما حاول إدراج الإمبراطور فردريك الأول باربروسا Frederick I Barbarossa إمبراطور ألمانيا (١١٥٢ - ١١٩٠)[٣]، ضمن مصالحه الشخصية، وجعله يتدخل من أجل توسيع نطاق حدود الإمبراطورية الألمانية حتى البحر البريطاني- يفصل بين الجزر البريطانية وشمال غرب القارة الأوروبية-، وخوفًا من تلك الثورة العظيمة، اشتكى الملك فيليب إلى البابا ألكسندر الثالث، الذي التمس دعمه، وكتب بحزن إلى الأب الأقدس: **"إن بارونات مملكتنا يهاجموننا في شبابنا ويزعزعون أيام حكمنا الأولى، أولئك الذين، لأسباب عديدة، يجب أن يبقوا مخلصين لنا، يثورون علينا ويشنون حربًا ضارية على مملكتنا"**[٤].

---

(1) Ibid, p. 23.

(2)« Le Chanteur d'Alphonse de Poitiers » (anonyme), « Extrait d'une brève histoire de France », dans : Collection des historiens de Gaule et de France, édité par Michel Jean-Joseph Bréal, Volume 17, Royal Press, Paris, 1818, p. 429.

(٣) فردريك باربروسا عندما توفى الملك كونراد الثالث هو هنشتاوفن ملك ألمانيا (١١٣٨-١١٥٢) خلفه ابن أخيه فردريك الأول باربروساء الذي كان شابا في الثلاثين من عمره، اشتهر بالشجاعة والفصاحة وشدة المراس والكبرياء، وامتاز بإيمانه العميق بعظمة الوظيفة الإمبراطورية وسموها، وقد حرص منذ اعتلائه العرش على تأكيد ذلك، ولهذا عمل على الربط بين شطرى الإمبراطورية في ألمانيا وإيطاليا.

Le moine inconnu du Lao, « Annales du moine du Lao », dans : Recueil d'historiens de la Gaule et de la France, édité par : Dom Brial, vol. 18, Royal Press, Paris, 1822, p. 707.

(4)Taudier Louis Vaussion, Op. Cit., P. 43.

ومع حلول صيف عام ١١٨١، دشّن هذا الحلف عملياته العسكرية بتحركات منسقة، إذ تولى ستيفن كونت سانسير، قيادة جيوش شامباني وبورغوندي، لاختراق النطاق الملكي، متوجهاً صوب قلعة سانت بريسون Saint - Brisson الواقعة على نهر اللوار، التي سرعان ما سقطت بيده لعدم قدرتها على الصمود، ليواصل زحفه بعدها نحو أورليان، وبالتزامن مع تلك الأحداث، قاد كونت فلاندرز جيشه نحو الشمال الشرقي من باريس، حيث تمكن من الاستيلاء على قلعة كريبي أون فالو Creepy On - Valua الواقعة إلى الشمال الشرقى من باريس، ومن ثم تحرك صوب قلعة سنيلس Senlis وفرض عليها حصارًا شديدًا، إلا أنها أبدت صموداً تزامناً مع وصول الأنباء عن تحرك الملك الفرنسي، وهو ما دفع كونت فلاندرز إلى إعادة توجيه فرسانه نحو قلعة لوفر Louvre، التي تقع على مسافة عشرين كيلو متر من باريس عاصمة التاج الفرنسي[١]، ولم يكتفِ كونت فلاندرز بالتصعيد العسكري، بل لجأ إلى المناورة السياسية عبر مراسلة الإمبراطور الألماني فردريك الأول بربروسا، ثم ما لبث أن ذهب إليه شخصيا لإقناعه بتوسيع أملاكه على حساب مملكة فرنسا، غير أن الملك الفرنسي أظهر من الذكاء السياسي الكثير، فضلاً عن اتقاد الذهن الذي تمتع به، عندما تصدى لقوات كونت فلاندرز بنجاح كبير وذلك دفعهم إلى الارتداد في الوقت الذي تحركت فيه قواته في الاتجاه المقابل وقامت باحتلال قلعة سانت برسون Saint Person التي تعرضت للهجوم، وهي قلعة أخرى من قلاع كونت سيليس، وأجبرته على طلب السلام، ولم تكتفِ الجيوش الفرنسية بذلك، بل واصلت زحفها السريع نحو الشمال لتشن هجوماً عنيفاً على قلعتي فالوا Valois ونويونNoyo، مما أسفر عن إلحاق دمار واسع في المنطقة [٢].

وسرعان ما برهن الملك الفرنسي على ذكائه السياسي، حينما بادر بتحييد الجبهة الألمانية عبر إبرام معاهدة سلام مع الإمبراطور فردريك بربروسا، الذي كان منشغلاً بصراعه مع البابوية، مما منح الملك الفرنسي الفرصة للتفرغ لمواجهة الأخطار الأخرى، وفي خضم تلك الأحداث، تعزز موقف فيليب بدعم عسكري لافت من أبناء الملك الإنكليزي هنري الثاني (الأمير هنري، وريتشارد دوق آكيتاين، وجيوفري دوق بريتاني)، إذ سعى هؤلاء لإثبات جدارتهم العسكرية عبر حشد ثلاثة جيوش من عموم المملكة الإنكليزية لمؤازرة الملك الفرنسي ضد تحالف كونت فلاندرز الذي كان يهدف للقضاء عليه، وقد تُرجم ذلك الدعم إلى نصر ميداني سريع، حيث ركز الحلفاء هجومهم أولاً على الكونت ستيفن (كونت سانسير)، وتمكنوا في غضون أيام قلائل من تدمير حصونه والاستيلاء على قلاعه واغتنام موارد كثيرة [٣].

---

(1) Achille Locher, Op. Cit., p. 53.

(2) Brentano, F.F.R., The Middle Ages, London, 1922, pp. 250-251.
Robert de Mont, "The History of Robert and its Supplement," in: Collection of Historians of Gaul and France, edited by Michel Bréal, vol. 18, Royal Press, Paris, 1822, p. 336; Edmond Martin, "The Acts of the Bishops of Trier," in: Collection of Historians of Gaul and France, edited by Michel Bréal, vol. 18, Royal Press, Paris, 1822, pp. 670-671; Brentano, F., Op. Cit., p. 252.

برزت الحنكة السياسية والدهاء العسكري للملك فيليب أغسطس بوضوح من خلال إدارته للأزمات التي أحاطت بمملكته، إذ استهل مساعيه بتأمين جبهته الغربية عبر إبرام تحالف استراتيجي مع ملك إنكلترا وأبنائه، وعقب ذلك وجه ضربة عسكرية حاسمة مكّنته من السيطرة على قلعة شاتيون سور لوار Chatillon Sur Loire، التابعة لكونت سانسير، مجبراً إياه على الرضوخ وطلب الصلح، لم يتوقف طموح الملك عند ذلك الحد، بل واصل زحفه السريع نحو إقليم فالوا ونجح في تأمين مدينة سينلس، وعلى الرغم من تلك لانتصارات المتتالية، ظل كونت فلاندرز يمثل التحدي الأعظم بما يمتلكه من ترسانة عسكرية ضاربة تعتمد على فرسان بلجيكا وميليشيات المدن الكبرى كغنت، وإيبرس، وأراس، وبروج Bruges، وليل، وبعد تعثر القوات الملكية في حصار كريبي أون فالوا، سنحت للملك فرصة ذهبية لتقويض نفوذ خصمه إثر وفاة إيزابيلا كونتيسة فلاندرز عام ١١٨٢ دون أن تترك وريثاً، مما أعاد طرح قضية إرث فرماندو وفالوا[١] التي ينبغي أن تؤول لشقيقتها كونتيسة بومون Beaumont، فقد كان فيليب كونت فلاندرز متزوجاً من إيزابيلا دي فرمندوا أخت رالف الخامس Ralph V كونت فرماندو وفالوا، وعلى الفور طالب الملك فيليب أغسطس بحقه فى فرماندو، رداً على ذلك كتب كونت الفلاندرز بخصوص فيرماندوا وأميان:**"لقد وهبني والدك هذه الأراضي، وأنت تتذكر أنك أكدت هذه الهبة بخاتمك الملكي، من غيراللائق أن يقدم ملكٌ وعد ضمانًا غير موثوق به"**، أجاب فيليب أغسطس:**"أجل، لكن والدي أعطاك إياها لتمتلكها مؤقتًا فقط، وأما بالنسبة لتفاخرك بأنني أكدت بنفسي هذه الهبة، فأنت تعلم جيدًا أن التنازل الذي قدمه طفل لا قيمة له. إذا كنت لا تزال تؤخر السماح لي بالعودة إلى هذه الممتلكات، فسترى ما يمكن أن تمنحه القوة المتفوقة جنبًا إلى جنب مع القانون الجيد للسيد الذي لا يطالب إلا بما هو مستحق له"**[٢]، وقد ترجم وعيده ببدء الاستيلاء على بعض القلاع، مما دفع الكونت للجوء إلى مناورة سياسية عبر الزواج بأخرى وجعل منطقة أرتوا الحيوية جزءاً من مهرها لعرقلة طموحات الملك الفرنسي في ضم تلك الأراضي[٣].

لم يكتف فيليب أغسطس بذلك، بل عمل على إضعاف ذلك الحلف، ومما ساعده على ذلك أن خاله تيوبولد دى بلوا كان مسالماً، كذلك سأم وليم أسقف ريمس من الحرب، وقد وافقوا على العرض المقترح عليهم، الذي بمقتضاه استعادوا مكانتهم السابقة في البلاط الملكى هذا من جهة أمراء شامباني، ومن جهة أخرى أرهق بلدوين الخامس كونت هانوه من الانسياق وراء الفلاندرز، وقد اتخذ الصراع منحىً شخصياً وسياسياً معقداً حينما عمد الملك إلى استخدام المصاهرة كأداة ضغط، إذ لوح في العام ١١٨٤[٤] بتطليق زوجته إليزابيث، متذرعاً

(1) David M. Nicholas, op. cit., p.72; Baldwin, J. W, op. cit., p.8.
(2) Achille Luchaire, Op. Cit., P. 25.
(3)Gisleberto Montensis, "History of Hainaut," in: Collection of Historians of Gaul and France, edited by Michel Bréal, Volume 18, Royal Press, Paris, 1822, p. 372; David M., p. 348.
(4) Gisleberto Montensis, Op. Cit., p. 372.

بعدم إنجابها وريث للعرش، في خطوة يُرجح أنها لم تكن نابعة من إرادته المنفردة بقدر ما كانت استجابة لتحريض والدته وأعمامه الذين ناصبوا الفلمنكيين العداء، وبينما كانت الترتيبات تجري في سينلس لإعلان الانفصال رسمياً، تحول الموقف إلى مشهد درامي مؤثر حين خرجت الملكة الشابة، التي لم تتجاوز الثامنة عشر، بملابس بسيطة وحافية القدمين تجوب الكنائس وتوزع الصدقات، مما أثار تعاطف الجموع من الفقراء والمصابين بالجذام الذين احتشدوا أمام القصر مطالبين الملك بالرأفة وبالبعد عن أعدائه، وشُوهد وهو يتقدم نحو إليزابيث ليمسك بيدها، فساد صمتٌ مفاجئ، ثم سمعوه: **"سيدتي، أريد أن يعلم الجميع أنكِ لا تتركينني بسبب ذنبكِ، بل لأنني أعتقد أنني لا أستطيع أن أحظى بعلاقةٍ معكِ، وإذا كان هناك بارونٌ في مملكتي ترغبين في أن يكون سيدًا لكِ، فأخبريني، وستحصلين عليه مهما كلف الأمر! أجابت إليزابيث: سيدي حاشا لله أن يدخل رجل بشري إلى السرير الذي نمت فيه"**، وأمام هذا الضغط الشعبي والحوار العلني الذي دار بينهما تراجع فيليب عن قراره وأبقى عليها زوجة له بناءً على مشورة مستشاريه[١].

وعلى الرغم من الطابع العاطفي للمشهد، فإن التحليل السياسي يشير إلى دوافع نفعية بحتة تحكمت في قرار الملك، فالطلاق كان سيكلفه خسارة مقاطعة أرتوا التي كانت مهراً للزوجة، كما أن الإبقاء عليها كان مناورة سياسية بارعة لقطع الطريق على فيليب فلاندرز، ووسيلة للضغط على والدها بالدوين هينو لتغيير موقفه[٢]، وهو ما تحقق فعلياً لاحقاً بأساليب لا تخلو من الدهاء والمكر السياسي[٣]، فقد قام فيليب أغسطس خلال إحدى الهدنات، بإدراج اسم كونت هينو ضمن ضامني الاتفاقية دون علمه، مما زرع بذور الشك لدى كونت فلاندرز الذي عدّ ذلك خيانة صريحة من حليفه السابق، ورداً على ذلك شكّل تحالفاً واسعاً ضم بارونات لورين وألمانيا لشن هجوم مدمر على بالدوين هينو، ليقف وحيداً في مواجهة ذلك العدوان بعد أن تخلى الملك فيليب عن نجدته، محققاً بذلك هدفه الاستراتيجي بتمزيق التحالف بين بالدوين وفلاندرز[٤].

توجه كونت فلاندرز بكامل ثقله العسكري صوب مدينة أراس وذلك في عام ١١٨٥، مُستنفرًا أتباعه الذين لبّوا النداء بحماسةٍ عالية ورغبةٍ جامحة في خوض غمار الحرب، وفي سياق توثيق ذلك التحشيد الضخم، يورد المؤرخ تودبير لويس وصفًا دقيقًا، مشيرًا إلى أن بلدية غنت جهّزت عشرين ألف مقاتل بأسلحتهم على نفقتها الخاصة، ودفعت إيبرس بفيلقين، بينما سارعت أراس تلك المدينة العريقة والثريّة المعروفة بنهمها للربح، لتقديم الدعم بحماسة مضاعفة بصفتها عاصمة لفلاندرز، وفي خضم ذلك الصراع، لم تتخلف بروج عن الركب، إذ أمدت الكونت بآلاف الرجال الأشداء، وكذلك فعلت مدينة بام Bam ، التي عُرفت لاحقًا بكونها مكمن الخطر للسفن الفرنسية، إذ اسهمت بمواردها، إلى جانب سان أومير التي

(1) Georges Bourdonneuf, Philippe Auguste 1180-1223, père de Louis VIII, Éditions et Distribution Pygmalion, Paris, 1983, p. 25.
(2) Ibid, p. 25.
(3) Achille Locher, Op. Cit., p. 54.
(4) Rigord, Op. Cit., pp. 12-13; Gisleberti Montensis, Op. Cit., p. 374.

التزمت بقسم الولاء للكونت وأرسلت آلاف الشباب ذوي الشجاعة الفائقة، وصولًا إلى هيسدين الغنية التي هبّ مواطنوها لنصرة القضية ذاتها [١].

لقد شكّل ذلك الجيش مشهدًا مهيبًا، حيث تلاقت الحشود المزدانة بأروع الأسلحة والحلل الملونة، وتلألأت الخوذ والدروع تحت أشعة الشمس مضاعفة بريقها، بينما خفقت رايات الفرسان عاليًا، ومع تقدم تلك الأسراب بانتظام وسرعة، كان الغبار المتصاعد تحت وطأة أقدامهم يحجب ضوء النهار، وفي غمرة ذلك الزحف، تملّك الغرور الكونت الذي تخيل النصر حليفًا له قبل المعركة، مستشيطًا غضبًا وممنيًا النفس بمضاهاة الملك الغائب فيليب أغسطس، لا سيما بعد أن تعززت ثقته بنبأ طرد مدينة أميان لضباط الملك واستقبالها لرجال فلاندرز، وبناءً على تلك المعطيات، دشّن الكونت هجومه متوجهًا أولًا نحو كوربي Corbie، حيث تمكن بالقوة من اقتحام السور الذي يمثل خط الدفاع الأول، إلا أن نهر السوم الفاصل بين الأسوار حال دون إحكام الحصار وأفشل مساعيه في السيطرة الكاملة، مما دفع المواطنين إلى هدم الجسور بأنفسهم، مفضلين تحمل تلك الخسارة المادية لتجنيب مدينتهم دمارًا أكبر [٢].

وفر الصمود المستميت للسكان الوقت اللازم لفرسان ملك فرنسا لنجدة المحاصرين وتعزيز تحصينات القلعة وتزويدها بالعتاد والمؤن، وفي تلك الأثناء أبقى كونت فلاندرز جزءاً من جيشه أمام كوربي وعبر نهري السوم والوار ليشن هجوماً ضارياً على إيل دو فرانس- العاصمة باريس وضواحيها-، متبعاً سياسة الأرض المحروقة التي أحالت المنازل إلى رماد وتركت البلاد خراباً، إذ سُيقَ الأسرى مكبلين بالأغلال وانتشرت آثار الدمار في كل مكان، ولم يمنح ذلك الاجتياح المباغت البارونات الموالين للملك فرصة لتنظيم دفاعاتهم، لدرجة أن الكونت ألبريك Count Alberic، سيد دامارتان Mr. Damartin، بوغت وهو على مائدته ولم يتمكن من النجاة إلا بالفرار خلسة عبر ممر خلفي، لتلاقي قلعته والسهول الخصبة الغنية المحيطة بها مصيرها حرقاً وتدميراً على يد القوات الغازية، وهو النجاح السهل الذي ملأ كونت فلاندرز غروراً: **"صرخ الكونت، فخورًا جدًا بهذا النجاح السهل، لن يُنجز شيء بعد، إن لم أحطم أبواب باريس مع فرسان فلاندرز"** [٣].

جهز الملك الفرنسي في إطار استعداداته العسكرية، جيشاً مهيباً في كامبني، يؤكد المؤرخون أن عدده يقترب من ألفين فارس، وأربعة ألف من المشاة، وبناءً على ما أشار به البارونات، قام الملك فيليب أغسطس بحشد قواته في مقاطعة أميان، مما دفع الكونت فور علمه بذلك الزحف الجرار، إلى استنفاذ قواته للتصدي لسيده، وأقسم أنه سيدافع عن نفسه بكل ما أوتي من قوة، فتوجهوا الملك فيليب أغسطس إلى أميان، التي كان فيليب كونت فلاندرز قد عمل على تحصينها، فضلاً عن تعزيز القلاع المحيطة لتعقيد مساعي الصلح، وكان من أبرز تلك الحصون قلعة بوفس Boves التي تميزت بموقع استراتيجي وتحصينات هندسية منيعة

(1) Taudier Louis Vaussion, Op. Cit., P. 57.
(2) Ibid, p. 58.
(3) Taudier Louis Vaussion, Op. Cit.,p. 59-60.

من أبراج وأسوار وخنادق، فضلا عن وفرة المؤن وحامية قوية تحت قيادة الكونت بول **Paul** ، الذي تحالف بقسم ولاء مع كونت فلاندرز رافضاً الخضوع للملك[١].

عقد فيليب أغسطس العزم على إسقاط تلك القلعة، فأمر قواته من المشاة والفرسان بالاندفاع بحماسة نحو التحصينات، وبفضل ضغطهم المتواصل تهاوت الخنادق الدفاعية الأولى، وتمكن المحاربون الفرنسيون من اعتلاء حوافها، غير أنهم واجهوا مقاومة شرسة تمثلت بوابل كثيف من الحجارة والقذائف التي انهمرت عليهم من أعلى الأسوار كالمطر، مما ألحق خسائر بفرسان الملك[٢]، وأمام صعوبة اقتحام الموقع دون خطة محكمة، لجأ فيليب أغسطس إلى تكتيك الحصار الهندسي، فأمر بتشييد سواتر وحواجز خشبية متينة كآلات حماية لجنوده، مما أتاح لفرق الحفر والنجارين العمل بأمان تحت غطائها لتقويض أساسات الأسوار، وبينما كان الفرسان يشكلون دروعاً واقية، قام النقّابون (عمال الحفر) باختراق قواعد الجدران وتجويفها ودعمها بأخشاب قابلة للاشتعال، وعند اكتمال الحفر، أضرموا النيران في الدعامات وانسحبوا، وسرعان ما التهمت النيران الدعائم فانهار الجدار وسط سحب كثيفة من الغبار والدخان، استغل المهاجمون تلك الثغرة، فاقتحمت فرقة من الشباب المدججين بالسلاح الأنقاض وسط النيران، موقعين في صفوف العدو قتلى وأسرى، في حين تراجع من تبقى من المدافعين المنهكين، وفي تلك اللحظة الحاسمة، وصل كونت فلاندرز مع تعزيزاته، ونفخ في بوقه معلناً حضوره، ثم وجه نداءً للملك فيليب قائلاً: **"لقد جئت لمواجهتكم وحماية الرعية، فلتمنحوا المحاصرين الأمان، ولتجرؤوا على منازلة قواتي، إذ أيّ مجد يُرتجى من سحق حشد لقلة من الرجال؟ إن انتصاركم سيكون أعظم شأناً إذا تمكنتم من هزيمة جيشي بأكمله في السهل، فتعالوا لنخوض معركة حاسمة، وليكن السيف هو الحكم بضربة واحدة تنهي هذا النزاع"**[٣].

أقدم الكونت على نصب راية الحرب قبالة المعسكر الفرنسي في خطوةٍ اتسمت بالجرأة والتحدي، مندفعاً من خيمته بحماسٍ وهو يمتشق سلاحه، فيما تبعه فرسانه ملوحين برماحهم تأهباً للنزال، وقد اصطف الجيشان المتحفزان تحت راياتهما يواجه كلٌّ منهما الآخر بانتظار إشارة البدء، حيث خيم التوتر وبدا أن دماءً غزيرة توشك أن تُراق جراء غضب القائدين، وفي تلك اللحظات الحرجة تدخل وليم رئيس أساقفة ريمس، محاطاً بحشدٍ من البارونات ليمثل بين يدي ابن أخته الملك مخاطباً إياه بلغة العقل: **"أيها الملك الجليل، إن هذا الظرف لا يستقيم وعقد النزال، كما لا يليق بملكٍ مقدام أن يخوض غمار الحرب تحت أستار الظلام، فالحكمة تقتضي أولاً تعبئة السرايا وتنظيم صفوف القادة والفرسان ليعرف كل مقاتلٍ موقعه، فارفق بنفسك ولا توردها موارد الهلكة في مثل هذه المخاطر الجسيمة وسط هذه الفوضى العارمة"**، وعلى الرغم من أن الملك فيليب كان يستشيط غضباً ويعتمل الغيظ في صدره، إلا أن رئيس الأساقفة والبارونات تمكنوا بشق الأنفس من إقناعه بإرجاء الأمر

---

(1) Ibid, p. 61.
(2) Ibid, p. 61.
(3) Ibid, pp. 62-63.

والانتظار حتى بزوغ فجر اليوم التالي[١].

أثار التصعيد العسكري الفرنسي الهلع في نفس كونت فلاندرز، مما دفعه إلى إصدار أوامر عاجلة لجيشه بتقويض المعسكر والانسحاب نحو الضفة المقابلة للنهر، وعقب عقد مجلس استشاري، بادر الكونت تحت جنح الليل إلى إرسال وفد وساطة رفيع المستوى ضم كلاً من تيبو كونت شارتر، ورئيس أساقفة ريمس، ملتمساً التفاوض مع الملك للحصول على هدنة مدتها ثمانية أيام، وقد حمّلهم رسالة استعطاف راجيا أن ينقلوا للملك تلك الكلمات نيابة عنه: **"يارب، هدئ الغضب الذي يثيرك ضدي، تعال يا سيدي الملك، الأرض التي تطالب بها، وهي فيرماندوا وجميع القلاع والقرى التابعة لها، ستُسلم إليك سليمة، بحرية ودون تأخير، وإذا رغبت جلالتكم في منحي هذا الامتياز، فأرجو من كرمكم أن تمنحوني حق الانتفاع بمدينتي سانت كونتين Saint Quentin وبيرون Perone، كهدية ملكية، مع الاحتفاظ لك ولورثتك بحق استعادتهما بعد وفاتي دون أي نزاع"**[٢].

بعدما وصلت أخبار نوايا الكونت وتضرعه إلى مسامع الملك، قام باستدعاء الأساقفة والبارونات، الذين كانوا قد حضروا في الأصل لردع الكونت المتمرد، وطلب مشورتهم فيما يتعلق بمطالب الكونت، فأجمعوا على ضرورة تلبية تلك المطالب وقبول ما عُرض عليه، فوافق الملك على نصيحتهم، وبمجرد التوصل إلى اتفاق شامل، استُدعي الكونت في حضرة القساوسة والبارونات، وقام برد مقاطعة فرماندوا، وتعهد بإصلاح جميع الأضرار والخسائر التي لحقت بكونت هانوه وباقي أصدقاء الملك على الفور دون أي تأخير أو تسويف، وهكذا ساد السلام بين الملك والكونت مرة أخرى بطريقة تكاد تكون إعجازية، إذ تحققت دون تكبد أية خسائر أو إراقة دماء، ونتيجة لذلك تعزز الترابط بين أبناء الشعب بفضل ذلك السلام، فرفعوا حمدهم وشكرهم للرب الذي أنقذ أولئك الذين يعلقون كل آمالهم عليهم[٣].

لم تخرج تلك الحرب عن السياق العام للنزاعات العسكرية السائدة في تلك الحقبة، إذ اتسمت بطابعها المتقطع الذي كانت تفرضه سنوات الهدن المتعاقبة، وحلول فصل الشتاء، أو مواسم الأعياد الدينية، وغالباً ما كان مبعوثو البابا يتدخلون، محاطين بنخبة من الأساقفة ورؤساء الأديرة، للسعي نحو إقرار هدن مؤقتة بدوافع دينية وباسم السلام العام، ويُضاف إلى ذلك عجز المحاربين عن تحمل أعباء الحصار الطويل أو الحروب المستمرة، مما دفعهم إلى تجنب المواجهات المباشرة بين الجيوش الجرّارة، والاكتفاء بعمليات التخريب المنظم للحقول والقرى والمدن المفتوحة، لدرجة أن الملك فيليب أغسطس وفيليب كونت فلاندرز لم يتواجها بجيوشهما الكبيرة إلا في حالات نادرة جداً، دون أن تقع المعركة الفاصلة التي كانت متوقعة[٤]، وقد تُوجت تلك الأحداث بإبرام معاهدة بوف Boves في تموز عام ١١٨٥، في الموقع المسمى باسمها قرب قلعة أمينس ووادي السوم، واضعةً حداً لحالة الحرب المستمرة

(1)Taudier Louis Vaussion, Op. Cit.,p. 63.
(2) Guillaume de Nangis, Op. cit., pp. 355-56.
(3) Ibid, p. 356.
(4) Achille Locher, Op. Cit., p. 54.

منذ عام ١١٨١، وبموجب تلك الاتفاقية [١] استحوذ الملك الفرنسي على أرتوا التي كانت صداق لزوجته، فضلا عن خمسة وستين قصرًا في فرماندو[٢]، ليعود بعدها الملك إلى باريس مظفراً وسط ابتهاج شعبه الذي رأى في ذلك النصر السهل[٣] تأكيداً لمهابة مليكه الشاب، وقد شكل هذا الإنجاز تدشيناً فعلياً لحكم فيليب عبر كسره شوكة التحالف الإقطاعي وإذلال فلاندرز التي طالما فرض قادتها وصايتهم على ملوك آل كابيه.

وعلى الرغم من ذلك الانتصار، بقي هيو الثالث دوق بورغوندي - أحد أبرز البارونات المتمردين - بعيداً عن دائرة الخسارة في تلك الجولة، مما دفع فيليب أغسطس إلى توجيه أنظاره صوبه، لا سيما أن الدوق عُرف بإثارته الفوضى وتعديه على ممتلكات الكنيسة وراحة رجال الدين، وعلى الرغم من دعوات الملك له باحترام المقدسات، إلا أن الدوق هيو، الذي كان يرى في نفسه نداً للملك بالقوة، تجاهل تلك التحذيرات وشرع في تحصين قلاعه وتدعيم أسوارها بالحواجز الخشبية، واستحداث نوافذ ضيقة تتيح للرماة استهداف المهاجمين من مأمن، فضلاً عن تعميق الخنادق المحيطة لجعل اقتحامها أمراً مستحيلاً، غير أن تلك الاستعدادات لم تنطلِ على فيليب أغسطس الذي كان يستحضر موقف الدوق الداعم لكونت فلاندرز، فعزم على استعادة دوره كحامٍ للمملكة وسارع بالتدخل في النزاع الدائر بين الدوق وسيد فيرجي Vergi[٤]، ففي غضون أحداث عام ١١٨٥، حشد هيو الثالث قواته لفرض حصارٍ مُطبق على قلعة فيرجي الواقعة على تخوم أراضيه، عمد خلاله إلى تشييد أربعة حصونٍ أمامية لإحكام الطوق عليها من كافة الجهات، متذرعاً بامتناع سيد القلعة، وهو أحد أبرز إقطاعييه، عن تقديم فروض الولاء والطاعة المستحقة له، وإزاء الموقف المتأزم وإصرار الدوق على عدم رفع الحصار إلا بإسقاط القلعة، سارع سيدها المدعو جيس Guis إلى الاستنجاد بالملك فيليب أغسطس، عارضاً عليه في رسالة استغاثة تسليم القلعة لتصبح ملكاً خالصاً للتاج الفرنسي وورثته من بعده مقابل التدخل لإنقاذه، وقد استجاب الملك فيليب لذلك العرض الاستراتيجي فحرك جيوشه في مباغتة سريعة لم يتوقعها الدوق، وقام بتدمير التحصينات الأربعة التي شيّدها المحاصرون، ليفي بعدها سيد القلعة بتعهده ويسلم مفاتيحها للملك الذي بسط سيطرته المباشرة عليها ونشر حامية ملكية داخلها معاملًا إياها كجزء من أملاكه الخاصة، وفي أعقاب ذلك جدد جيس ولاءه للملك، الذي بادله الموقف بإعادة تسليمه إدارة القلعة وكافة ملحقاتها، مع احتفاظ التاج الفرنسي بحق السيادة العليا عليها ضماناً لتبعيتها الدائمة[٥].

شكلت تلك الخطوة ضربة موجعة لنفوذ الدوق هيو الثالث، الذي لم يرتدع بخسارته، بل واصل تجاوزاته السافرة التي استوجبت إخضاعه، هذا التمادي دفع القيادات الدينية في

---

(١) بوف: موقع رائع، ليس ببعيد عن أمنس بالقرب من وادي سوم Somme.

Achille Locher, Op. Cit., p. 54.

(2) Rigord, Op. Cit., pp. 13-14.

(3) Taudier Louis Vaussion, Op. Cit., P. 65.

(4) Guillaume de Nangis, Op. Cit., p. 59.

(5) Ibid, p. 60.

بورغوندي، من أساقفة ورؤساء أديرة، إلى إرسال وفود عاجلة للاستغاثة بفيليب أغسطس، بوصفه الملك المسيحي الأكبر، مناشدين إياه التدخل الحازم لوقف تعديات الدوق، وحماية العهود والمقدسات التي ورثوها عن الملوك السابقين بدافع الورع والتدين [١]، وفي هذا السياق، يوضح المؤرخ وليم دي نانجي: **"أن الملوك حين شيّدوا الكنائس وزوّدوها بالامتيازات، أرادوا لها أن تظل تحت وصايتهم المباشرة، ولم يكن في نيّتهم عند إقطاع الأراضي للبارونات أن يمنحوهم سلطة إدارة الكنائس الواقعة ضمن نفوذهم أو السماح لهم بانتهاك حرماتها، إلا أن الدوق خالف ذلك بفرضه ضرائب باهظة على المؤسسات الدينية"**[٢]، وعلى الرغم من تغاضي الملك فيليب عن شكاوى الدوق مرتين والعفو عنه، فإنه في المرة الثالثة أقسم أمام حاشيته برد الحقوق لأصحابها ومنع الدوق من تكرار فعلته، متوعداً إياه بالعقاب إن لم يرضخ، وأمام جديّة الملك وإيمانه الراسخ بضرورة إنصاف الكنائس، اضطرب دوق بورغوندي وغادر البلاط عائداً إلى ولايته، فأصدر الملك أمراً يلزمه بإعادة ثلاثين ألف ليرة باريسية كان قد انتزعها قسراً، ولما لجأ الدوق إلى المماطلة والتهرب، حشد فيليب أغسطس جيشة وتحرك عسكرياً لمواجهته وحسم الموقف[٣]، فبادر الملك فيليب أغسطس بالزحف السريع نحو أراضي دوقية بورغوندي، مما اضطر الدوق - الذي أدرك عجزه عن المواجهة العسكرية - إلى الفرار، تاركاً الملك يضرب حصاراً محكماً حول قلعة شاتيون سور سين[٤] Châtillon-sur-Seine إحدى أهم حواضر الدوقية، ولم يمضِ سوى خمسة عشر يوماً على الحصار حتى أمر الملك بنصب المجانيق وآلات القذف، مطوقاً الأسوار الشاسعة بجيش جرار أثار الرعب في نفوس المحاصرين الذين استيقظوا ليجدوا أنفسهم محاطين من كل جانب، وعلى الرغم من محاولات حامية الدوق سد الثغرات وتحصين البوابات، إلا أن الملك فيليب واصل ضغطه العسكري بلا هوادة ليلاً ونهاراً، حتى انهالت القذائف الصخرية لتهشم التحصينات الخشبية، وبالتزامن مع ذلك، تقدمت فرق المشاة تحت غطاء الدروع المتشابكة لردم الخنادق ونصب السلالم، مما أدى إلى اقتحام السياج الخارجي للقلعة والاستيلاء على ما فيه من مؤن، وعلى الرغم من لجوء الحامية إلى البرج الرئيس، إلا أن عمليات الحفر الهندسي –التنقيب- التي قام بها رجال الملك عجّلت بانهيار البرج، مما أجبر القائد أوديس Odyssey بن هيو على الاستسلام، ليحكم الملك سيطرته على القلعة ويضع فيها حامية من خيرة رجاله[٥].

وفي سياق المناورات السياسية، لجأ دوق بورغوندي إلى ألمانيا محاولاً التحالف مع هنري، ابن الإمبراطور فريدريك بربروسا، الذي كان قد تُوج مؤخراً على عرش ميلان، إلا

---

(1) Guillaume de Nangis, Op. Cit., p. 61.

(2) Ibid, p. 61.

(3) Ibid, p. 61.

(٤) شاتيون سور سين: قلعة تمتعت بحصانة وشهرة منذ عصر ملوك الغال، تقع شمال غربي بورغوندي.
E. Kay Harris, Châtillon-sur-Seine, Encyclopedia of Medieval France, Garland Publishers, New York 1995, p. 215.

(5) Guillaume de Nangis, Op. Cit., p. 61.

أن الإمبراطور تدخل لمنع ذلك التحالف، مؤكداً ضرورة خضوع الدوق لملكه الشرعي في فرنسا[١]، وأمام انسداد الأفق السياسي والعسكري وتيقن الدوق من عدم كفاءته لمقارعة الملك، آثر الخضوع والعودة طالباً الصفح بقلب منكسر، فقبل الملك فيليب - المعروف بحكمته ورحمته عند المقدرة -ذلك الاستسلام، مشترطاً تعهد الدوق بتعويض التاج عن خسائر الحرب، ورد المظالم والممتلكات للكنائس ورجال الدين على وفق رؤية الملك، ولضمان تنفيذ تلك التعهدات، احتفظ الملك بثلاثة قصور للدوق كرهن لحين سداد ما يقرب من ثلاثة آلاف جنيه باريسي للكنيسة، قبل أن يبادر الملك بوازع من طيب خاطره بالعفو عن الدوق وإعادة القلاع الثلاث إليه بعد إتمام التسوية [٢].

ب. التدخل الفرنسي في الأزمات الداخلية الإنكليزية وانعكاساتها السياسية:

استشعر الملك فيليب أغسطس منذ بزوغ عهده استحالة فرض السيادة المركزية المباشرة على كبار الإقطاعيين في فرنسا في ظل وطأة النفوذ الأنجوي، الذي كان يمثل قيداً خانقاً على طموحات الملكية الفرنسية وتهديداً وجودياً لها، لذا دأب فيليب على استنهاض كافة الوسائل المتاحة، سواء كانت مناورات سياسية أو تحركات عسكرية، لتقويض الوجود الإنكليزي في القارة الأوروبية [٣]، وعلى الرغم من إحساس فيليب أغسطس بضعف قواته العسكرية أمام قوة خصمه هنري الثاني، لكن ما خفف من صعوبة المهمة على ملك فرنسا هو الخلافات الدائمة بين أفراد عائلة أنجو، فحالهم ما بين التمرد على والدهم، وأحيانًا التمرد على أنفسهم وتقاتلهم فيما بينهم مرارًا وتكرارًا[٤].

---

(1)Annals of the Abbey of Anchen, Collection of Historians of Gaul and France (R.H.G.F), edited by Michel Bréal, Volume 18, Royal Press, Paris, 1822, p. 534.

(2) Guillaume de Nangis, Op. Cit., pp. 358-59.

(3) Joel Dorman Steele, Ph.D., F.G.S. & Esther Baker Steele, LIT.D., A brief history of France, New York, 1875, p. 47.

(٤) نسج المخيال الشعبي في العصر الوسيط أسطورة مظلمة لتفسير أصول صراع آل أنجو، فقد شاع الاعتقاد بأن جدة هنري الثاني، أو إحدى أسلافه، كانت كونتيسة فائقة الجمال تزوجها الكونت لفتنتها وحدها، كانت تلك الكونتيسة تنفر من الكنيسة، وهو أمر جلل في ذلك العصر، وإذا حضرت القداس، فإنها كانت تغادر على عجل قبل منتصفه، فأثار سلوكها ريبة زوجها الكونت، فأمر في أحد الأيام رجاله المسلحين بإجبارها على البقاء بالقوة في المكان المقدس حتى نهاية المراسم، وفي تلك اللحظة، خلعت المرأة الغامضة عباءتها، وحلّقت على مرأى من الجميع، لتطير من نافذة الكنيسة وتختفي إلى الأبد، والأدهى من ذلك، أن تلك الأسطورة القاتمة وجدت طريقها إلى قلوب أبناء الأسرة أنفسهم، حتى كادوا يصدقونها، ويُروى عن ريتشارد قلب الأسد قوله الشهير عند اعتلائه العرش، تعليقًا على الشقاق الأبدي في عائلته: **"لا عجب في أننا قلما نتفق! فمن الشيطان أتينا، وإلى الشيطان مآبنا"**، ويتجلى ذلك الإيمان بالقدر المشؤوم في حادثة وقعت عام ١١٨٣، حين كان جيفري، كونت بريتاني، في حالة حرب مع والده، محرضًا الثوار في آكيتاين. أرسل إليه الملك العجوز وفدًا من الوسطاء، كان من بينهم كاهن من نورماندي توسل إليه أن يحقن دماء المسيحيين وألا يقتدي بأبشالوم -ابن داود ملك إسرائيل- في تمرده على أبيه. فأجابه الكونت ببرود: **"أتريدني أن أتنازل عن ميراثي؟"**. فرد الكاهن: **"حاشا لله يا سيدي، لا أريد لك أي أذى"**. فأوضح جيفري مقصده قائلًا: **"إنك لا تفهم. ألا تعلم أنه قدرنا المحتوم في عائلتنا أن يكره بعضنا بعضًا؟"**. وهكذا، لم تكن **"لعنة آل أنجو"** مجرد أسطورة شعبية، بل قناعة راسخة وإرثًا مشؤومًا حمله الأبناء عن الآباء، فكانوا يقتتلون وكأنهم ينفذون قدرًا لا فكاك منه.

Achille Luchaire, Philippe Auguste, pp.32-33.

كان هذا الصراع والتنافس السلاح الذي كان دائما ما يحلو لملوك مملكة فرنسا استخدامه ضد خلفاء وليم الفاتح، حيث قام الملك فيليب بإغراء الابن هنري الشاب وزوج اخته مارجريت بترك والده الملك هنري الثاني، والمجئ إلى باريس، وذلك في كانون الثاني عام ١١٨٢ مما دفع الملك هنري الثاني إلى العبور إلى دوقية نورماندي، من أجل إخفاق تدابير الملك الفرنسي، الذي استطاع إيجاد العوائق أمام الملك الإنكليزي عن طريق نصائحه للابن هنري بدفعه إلى المطالبة بحقوقه في دوقية نورماندي وحقوقه في كثير من ممتلكاته في المملكة الإنكليزية، التي يستطيع هو وزوجته استخدامها كموطن لهما، غير أن الملك هنري الثاني، نجح في النهاية في إقناع ابنه هنري وزوجته بالعودة إلى المملكة، وأخذ منه القسم على احترام الحقوق الملكية لأبيه، واتفق الأب والابن دون اعتراض من الأخير، ودون المطالبة بأي نسبه أكثر مما حدده له - مائة جنيه من العملة الأنجوية وعشرة جنيهات لزوجته كنفقات يومية-، وتم الوفاق والسلام بين الابن والأب، الذي أعطى لابنه مائة من الفرسان لخدمته[١].

عند البحث في أسباب عجز الملك فيليب أغسطس عن محاكاة النجاح الذي حققه سلفه لويس السابع في استمالة الأمير هنري الشاب وتوجيهه ضد والده الملك هنري الثاني، نجد أن الإجابة تكمن في جملة من المتغيرات المعقدة التي حكمت المشهد السياسي آنذاك، إذ يُعزى ذلك التباين في النتائج بصفة أساسية إلى الفارق الشاسع في الخبرة السياسية، فبينما كان فيليب أغسطس في مقتبل عهده يفتقر إلى الحنكة والدهاء الدبلوماسي، كان خصمه هنري الثاني عاهلاً متمرساً يمتلك رصيداً ضخماً من الخبرة في إدارة المؤامرات وتفكيك التحالفات الإقطاعية، فضلاً عن عامل السن الذي لعب دوراً مزدوجاً، حيث افتقد فيليب - لحداثة سنه- الكاريزما والمصداقية اللازمتين للتأثير على الأمير الشاب مقارنة بسطوة لويس السابع، ومن منظور استراتيجي أدق، يبدو أن تردد فيليب لم يكن وليد ضعف بقدر ما كان نتاج حسابات سياسية حذرة، حيث خشي من أن يؤدي أي ضغط مفرط إلى تشكّل تحالف عكسي خطير يجمع هنري الثاني مع كبار الإقطاعيين الفرنسيين المتمردين، مما قد يهدد استقرار عرشه، وبالتالي فإن فشله في إشعال فتيل التمرد بين الابن وأبيه يُفهم في سياق تجنب المخاطر الوجودية لمملكته.

فى أواخر عام ١١٨٢ حدث تطور خطير، أذ توفى الابن هنري في قلعة تورين في مقاطعة جاسكونيGascony[٢] بعدما عاش ثمان وعشرين سنة وثلاثة أشهر[١]، إلا أن

---

(1) Roger of Hoveden, Annals of the History of England and Other Countries in Europe from 732 to 1901, Vol. 2, H. G. Bohn, York Street, Covent Garden, London, 1181, p. 14.

(٢) للخلاف بين أبناء الملك هنري جذور عميقة ترجع إلى ما قبل وفاة ابنه هنرى الشاب، وكان الملك نفسه إقام سلام دائم وثابت بين أبنائه الثلاثة، لذلك فقد تدخل عندما نشب صراع بين أبنه الأكبر هنري وابنه ريتشارد حول بعض القلاع، وأمر ابنه جيفري بأن يقسم يمين الولاء لأخيه الأكبر من أجل دوقية بريتاني، وجرى تنفيذ ذلك تحت وصاية الملك نفسه، إلا أن الدوق ريتشارد ما لبث أن قام بتحصين قلعة كليرفو Clairvaux وكان ذلك يتعارض مع أحقيته وسيطرة أخيه الأكبر هنري، مما أشعل الصراع بينهما مرة أخرى، إلا أن الملك هنري الثاني تدخل للمرة الثانية من أجل إخبار ريتشارد على القسم لأخيه على الولاء والتبعية، مما أشعل غضب ريتشارد، وأعلن التمرد. بدوره قام الأب هنري بحثّ أخيهم الثالث جيفري على الانضمام إلى الأخ الأكبر هنرى لتأديب ريتشارد،

الملك هنري الثاني ما لبث أن قام بإعادة توزيع أملاكه على أبنائه الذين ما زالوا على قيد الحياة، وهم ريتشارد دوق اكيتاين، وجيفري دوق بريتاني، وجون، فأعلن منح جون مقاطعاته في جنوبي فرنسا نكاية بأخيه ريتشارد، الذي توجس من سياسة أبيه إزاءه، لا سيما بعد تنامي نفوذ أخيه جون، إلا أن ذلك التوزيع خلق نوعاً من الصراع الداخلي بين الأخوة لاسيما ولداه ريتشارد وجيفري[٢]، إلا أن الملك هنري تدخل لإنهاء ذلك الصراع عندما قام باستدعاء كل من ريتشارد وجيفري إلى دوقية أنجو من أجل تسوية الخلافات بينهما، وفي النهاية نجح في عقد معاهدة سلام بينهما في قلعة ماربيل Mirabel إحدى قلاع دوقية أنجو وذلك في عام ١١٨٣[٣].

وما إن علم الملك فيليب أغسطس بوفاة الابن هنري، حتى قام على الفور بإرسال الرسل إلى الملك الإنكليزي يطلب إعادة كل صداق أخته الملكة مارجريت[٤] في إقليم فيكس وسيزورس، وبعض القلاع التي كان الملك لويس السابع قد منحها إلى الملك الشاب كصداق للعروس، وذلك في اللقاء الذي عقد بينهما بين جيسور وترير من قبل، إلا أن الملك هنري لم يكن في على استعداد للتخلي عنهما، ولتبرير احتفاظه بها، ابتكر حيلة أن أقنع مارجريت بالتنازل عن مهرها مقابل إيجار سنوي، وهو حصولها على مبلغ ألف وسبعمائة وخمسين جنيها أنجوياً كل سنة، تصل إلى باريس في مقابل سيادة الملك الإنكليزي على أراضيها طوال حياتها[٥]، ومن الجلي أن فيليب أغسطس لم يتمسك بإعادة القلعتين الخاصتين بصداق أخته مارجريت في إقليم فيكس، واكتفى بما عرضه الملك هنري من أموال وربما كان مرجع ذلك، إلى أن الملك الفرنسي مازال يشعر بالضعف أمام قوة الملك الإنكليزي، وأنه ربما لم

ومناصرة كل من يقع عليه ظلم الدوق ريتشارد، إلا أن وفاة هنرى الشاب، حصرت الصراع بين الأخوين ريتشارد وجيفري، وتدخل أخوهم الأصغر جون في الصراع من أجل بعض المقاطعات لاسيما بعدما أصبح ريتشارد وريثاً للمملكة بأسرها بعد وفاة أخيه هنرى. يراجع من التفاصيل: منير نصيف جاسم، المصدر السابق، ص ٣٠ – ٣١.

Ralph de Descito, « Images de l'Histoire », dans : Collection des Historiens de Gaule et de France (R.H.G.F), Vol. 12, H. Welter, Paris, 1904, pp. 627-628; W. L Warren, Op. Cit., pp. 596- 597; W. H. Margetson, Chassell's History of England from the Roman invasion to the wars of the Roses, Vol. I, London, 1909, p. 206.

(1) Zbigniew Dalewski, Ritual and Politics Writing the History of a Dynastic Conflict in Medieval Poland, Boston, 2008, p. 56.

(٢) سهيل زكار، الموسوعة الشامية، ج٣٠، ص ١٩٤؛

Roger of Hoveden, Op. Cit., Vol II, pp. 20-22; Goodrich Samuel, G., A pictorial history of England, Philadelphia ،1854, p. 92.

(3) John Milton, The History of England Cotinued to the Norman Conquest, Oxford, 1818, p.148; W. L Warren, Op. Cit., pp. 596- 97.

(٤) يذكر المؤرخ الإنكليزي وارن إن لملكة مارجريت، كانت قد أنجبت للملك هنرى الأصغر ولدا وذلك في تموز ١١٧٧ تحت اسم وليم William، لكنه مات قبل مضى ثلاثة أيام على ولادته، وهناك من يقول إنه مات قبل أن يولد أي مات سقطا. يراجع:

W. L Warren, Op Cit., p.596.

(5) James Esquire, G.B.R., The Life of Richard Cor, King of England, Vol. II, London 1874, pp. 82-83; Roger of Hoveden, Op. Cit., Vol. II, p. 28; W. L Warren, Op. Cit., p. 609.

يرد لنفسه فتح باب الصراع ضده، لاسيما أنه ما زال يصارع أسرة أمه في دوقية فلاندرز وبلوا وشارتر[١].

ومع حلول كانون الثاني من عام ١١٨٦ التقى الملك الفرنسي نظيره الإنكليزي الذي جاء إلى اللقاء من قلعة داما فرونت Damafront الواقعة في دوقية نورماندي - في قلعة جيسور- من أجل الحوار حول موقف خطبة أخت الملك الفرنسي (أليس) من ابن الملك الإنكليزي الدوق ريتشارد، تنفيذاً للوعد المبرم بينهما من قبل، فجاء الملك الفرنسي إلى هذا المكان بغية تنفيذ ذلك الوعد، فدارت المناقشات، إلا أنها لم تسفر في النهاية إلا عن حصول الملك الفرنسي على وعد من الملك هنري بإتمام ذلك الزواج، لكن من دون عزم لتحقيق ذلك الأمر، وانتهى اللقاء في شباط ١١٨٦[٢]، ويبدو أن الأمر برمته لم يكن سوى مناورة سياسية دبرها هنري الثاني للاحتفاظ بإقليم فيكسن كصداق للعروس الكابية، وهي مسألة بدت في العرف النورماندي حقاً أصيلاً لهم لا يقبل الجدل، وفي المقابل أدرك الملك الفرنسي أن اللجوء إلى الخيار العسكري لاسترداد صداق شقيقتيه مارجريت وأليس، ينطوي على مجازفة كبيرة قد تثير حفيظة الأطراف الأخرى وتدفعهم للحرب، مما أجبره على التزام الصبر، إلا أن تلك المعطيات رسخت قناعة الملك فيليب بسوء نوايا الملك هنري وأدت إلى انعدام الثقة في جديته لإتمام الزواج، الأمر الذي قاد بالتبعية إلى تفاقم التوتر وتدهور العلاقات الدبلوماسية بين المملكتين [٣].

وما إن انفضّ ذلك اللقاء حتى أخذت الأوضاع الداخلية في إنكلترا تشهد تحولاتٍ متسارعة، إذ سرعان ما دبّت الخلافات بين الإخوة، وتحديداً بين الدوق ريتشارد وأخيه جيفري، وقد اسهم ميل الملك هنري الثاني الواضح لمناصرة ريتشارد في تأجيج حدة النزاع، وكان قد وضع ريتشارد مكان هنري الشاب، مع جميع الألقاب الاسمية لكن دون أية سلطة، ورفع جون إلى مكان ريتشارد السابق، مع السلطة على أكيتاين، ومع ذلك رفض ريتشارد بعناد الموافقة على التبادل، وردًا على ذلك رفض هنري تحديد المزيد من شروط الخلافة، مع أن ريتشارد استمر في تولي منصب دوق اكيتاين خلال حياة والده، إلا أنه لم يكن متأكدًا أبدًا من أنه الوريث المباشر لأبيه[٤].

لقد دفع ما تقدم جيفري الذي كان يرى في نفسه الوريث المفترض للعرش، إلى المطالبة الطموحة بنصيبه من الإرث الأبوي وتحديداً كونتية أنجو، ليلجأ بعدها إلى الارتماء في أحضان الملك الفرنسي فيليب، مؤسساً بذلك تحالفاً استراتيجياً وتآمراً صريحاً ضد أبيه الملك هنري، وبموجب ذلك التقارب الجديد، نقض فيليب تحالفه السابق مع هنري الثاني، لتنشأ علاقة صداقة متينة بينه وبين الدوق جيفري الذي انتقل للإقامة في العاصمة الفرنسية، ناقلاً معه ولاء دوقية بريتاني ومقدراتها إلى التاج الفرنسي، وهو الأمر الذي دفع الملك فيليب

(1) Roger of Hoveden, Op. Cit., Vol II, p. 55.
(2) W. L Warren, Op. Cit., p. 611.
(3) W. L Warren, Op. Cit., pp. 611-612.
(4) Achille Luchaire, Op. Cit., pp. 35-36.

للمطالبة فوراً بتمكين حليفه جيفري من كونتية أنجو التي كانت قد ضُمت لصالح ريتشارد[١].

بيد أن الأقدار لم تمهل الملك الفرنسي لتحقيق أولى انتصاراته السياسية على نظيره الإنكليزي، إذ تعرض جيفري لحادث مأساوي في ساحات السباق، حيث سقط عن صهوته وتلقى إصابات بالغة تحت سنابك الخيل ليُسحب من الميدان مثخناً بجراح خطيرة، وعلى الرغم من مسارعة فيليب، الذي فُجع بالخبر، لاستدعاء أمهر أطباء باريس وتسخير كافة الإمكانات لإنقاذه، إلا أن المنية وافت الكونت بعد أيام قليلة في آب عام ١١٨٦[٢]، فأقام له الملك فيليب جنازة مهيبة في باريس، مُظهراً حزناً عميقاً ومؤثراً وصل حد التعبير عن رغبته باللحاق بصديقه إلى القبر[٣].

توج الملك الفرنسي جهوده الدبلوماسية بتحقيق نصر سياسي مهم تمثل في إبرام تحالف استراتيجي مع الإمبراطور الألماني فريدريك بربروسا، موجهاً بذلك ضربة قوية في صراعه ضد العرش الإنكليزي، وقد قضى ذلك الاتفاق بأن يقدم الملك الفرنسي الدعم لحليفه الإمبراطور لدرء الأخطار الداخلية التي تواجهه، مقابل أن يسانده الإمبراطور في مواجهته المفتوحة مع الملك الإنكليزي هنري الثاني[٤]، واستثماراً لذلك الوفاق، بادر الملك الفرنسي بطرح مطالبه على نظيره الإنكليزي، مشدداً على ضرورة تسليم دوقية بريتاني إلى ماتيلدا Matilda (١١٨٢ – ١٢٤١) ابنة الدوق جيفري، بوصفها الوريث الشرعي لأبيها، وهدف فيليب من ذلك فرض السيادة الإقطاعية الفرنسية على الدوقية، مستنداً إلى حجة مفادها أن هنري نفسه كان قد وضع الدوق الراحل وأسرته وبلاده تحت الحماية الفرنسية، ما دفع فيليب للمطالبة بحق حضانة الدوقة، في حين تمسك الملك هنري الثاني بحقه في الوصاية بصفته الجد والوصي الشرعي على حفيدته، بينما أصرت الأرملة كونستانس على أحقيتها في الوصاية على ابنها وحكم البلاد كونها ملكة بريتاني، وقد حسم مجلس أمراء البلاد ذلك النزاع بإقراره الحق لصالح والدة آرثر الأول Arthur I (١١٨٧-١٢٠٣)[٥].

---

(1) Achille Luchaire, Op. Cit., pp. 35-36.

(2) Ibid, pp. 35-36.

(3) Roger of Hoveden, Op. Cit., Vol II, p. 56.

(4) Gervas de Cantorbéry, « Chroniques des rois d'Angleterre », dans : Recueil des historiens de Gaule et de France (R.H.G.F), édité par : Michel Jean Joseph Bréal, Volume 17, Royal Press, Paris, 1818, p. 666 ; Moine anonyme de Léon, « Annales », dans : Recueil des historiens de Gaule et de France (R.H.G.F), édité par : Michel Jean Joseph Bréal, Volume 18, Royal Press, Paris, 1822, p. 707; Andre Maurois, A history of England, Translated from the French by Hamish Miles, London, 1917, p.110 – 111.

(٥) أعلنت كونستانس حملها ومنذ ذلك الحين، أصبحت حقوق إليانور في خلافة والدتها غير مؤكدة، وظل النقاش معلقًا بعض الوقت، فعلق البريتونيون آمالهم بأن كونستانس ستلد أميرًا يُحيي والده الذي أحبوه حبًا جمًا، لكن آمالهم لم تخيب؛ ففي ٤٠ نيسان ١١٨٧؛ أنجبت كونستانس ابنًا كان ينتظر مصيرًا مؤسفًا، نشر ميلاده بينهم فرحة وطنية عامة، وجاء ملك إنكلترا، الذي اختير مربياً له، إلى نانت وأراد أن يُطلق عليه اسمه. لكن البريتونيين، (إذ ظنوا أن هذا الطفل رمز لإحياء مجد أمتهم)، توسلوا إليه أن يُسميه آرثر، تخليدًا لذكرى آرثر الشهير، بطل أساطير ورفيق ملكهم هولي العظيم.

Toddy Louis Vaussion, Philippe August, 4e édition, Alfred Mamé et fils, Tours, Paris, 1869, p. 87.

لم يفضِ ذلك النزاع إلى اتفاق، إذ رفض الطرفان التنازل عن الدوقية، مما أدى إلى اندلاع الأعمال العدائية، حيث استدعى فيليب أتباعه إلى مدينة بورج، وعلى وفق رواية وليم البريتوني، فقد لبت الجموع النداء بحماس منقطع النظير، إذ اندفع الخدم والفرسان والنبلاء طواعية، مدفوعين بالولاء للملك والشجاعة الفطرية، دون حاجة لأوامر قسرية، بل كانت تحركهم الرغبة العارمة في صون شرف الملك، ومن بورج انطلق فيليب بجيشه بزحف سريع، مدمراً في طريقه الأرياف والمدن العامرة، وصولاً إلى شاتوروChateauroux ، التي كانت تعد من أحصن قلاع المنطقة، والتي أبدى أهلها مقاومة مستميتة مفضلين الموت على الاستسلام للملك فيليب أغسطس[١].

أتاح الصمود القوي للمدينة المحاصرة الوقت الكافي لوصول ملك إنكلترا، هنري الثاني، وابنه ريتشارد، اذ وصلوا على رأس جيش كبير من الفرسان ملأت راياتهم السهل، ونصبوا معسكرهم بالقرب من القوات الفرنسية، وعلى الفور هدرت الأبواق، ووصل مبعوثو هنري إلى الملك فيليب أغسطس حاملين رسالة تحدٍ واضحة: **"إما أن تتنازلوا لنا عن كامل ميراثنا وتنسحبوا فورًا مع قواتكم إلى أراضيكم، أو ستواجهون قوتنا في ميدان المعركة"**، بمعنى انه لا يوجد حل وسط، فإما القتال أو الانسحاب، لكن فيليب لم يتردد في قبول التحدي، فرفع الحصار ونظم جيشه في تشكيلات قتالية، حيث وُضعت كل سرية تحت إمره قائدها استعدادًا للمواجهة، كانت الجيوش على وشك الاصطدام والدخول في معركة دموية حاسمة بين الملكين، إذ لم يكن أمام أي من الطرفين سوى خيار النصر أو الهزيمة، هناك ساد صمت مطبق على الجميع في انتظار نفخ بوق المعركة، ولكن قبل بدء القتال، تدخل عدد من الأساقفة والنبلاء سعيًا منهم لتجنب تلك المذبحة، مع خشية هنري الثاني، الذي كان في أواخر أيامه، من عواقب المعركة، فأرسل ابنه ريتشارد إلى المعسكر الفرنسي للتفاوض، ويُقال إن ريتشارد كان على تواصل سري مع الملك فيليب، ويشاركه استياءه من والده بسبب حبس الأميرة أليس شقيقة فيليب وخطيبة ريتشارد[٢]، فأفضت المفاوضات التي قادها ريتشارد إلى طلب هدنة لمدة عامين، مقابل التنازل عن قلعة إيسودون Issoudun تعويضاً عن نفقات الحرب، كما أبدى هنري استعداده للخضوع لتحكيم محكمة النبلاء بشأن نزاع منطقة فيكسين، والموافقة على إتمام زواج ريتشارد من الأميرة أليس، واقترح عقد لقاء السلام في الموقع التقليدي للمفاوضات تحت شجرة الدردار بين تري Trie وجيزور النورمندية، وعلى الرغم من ميل فيليب للحسم العسكري، إلا أنه قبل الهدنة نزولاً عند رغبة الفرسان ورجال الدين في حقن الدماء، ليصبح ريتشارد بذلك الضامن الرسمي لتنفيذ بنود ذلك الاتفاق[٣].

برزت بؤرة نزاع جديدة في الجنوب الفرنسي في خضم الاضطرابات الإقطاعية التي شكلت المشهد السياسي الأوروبي خلال القرن الثاني عشر، أشعلت فتيل المواجهة بين الملك

---

(1) Toddy Louis Vaussion, Op. Cit., pp. 87-88.

(2) Achille Luchaire, Op. Cit., pp. 44- 46: Roger of Hoveden, Op. Cit., Vol. II, p. 61; W. L Warren, Op. Cit., pp. 513-514.

(3) Achille Luchaire, Op. Cit., pp. 44- 46: Roger of Hoveden, Op. Cit., Vol. II, p. 61; W. L Warren, Op. Cit., pp. 513-514.

هنري الثاني ونظيره الفرنسي، تمحور النزاع حول السيادة على دوقية تولوز، حين قاد ريتشارد كونت أكيتاين، حملة عسكرية استهدفت إقليم لانغدوك Languedoc وأفضت إلى سيطرته على مدينة مواساك Moissac بانتزاعها من كونت تولوز وضمها إدارياً إلى دوقية أكيتاين، وقد مارَس ريتشارد ضغوطاً متصاعدة على الدوق ريموند الخامس الذي كان يرفض الاعتراف بالتبعية المباشرة للملك هنري الثاني، مما دفع الأخير في أيلول عام ١١٨٦ إلى الاستعانة بسيدة الأعلى فيليب أغسطس، غير أن المساعي الدبلوماسية والشكاوى التي وجهها الملك الفرنسي لكل من ريتشارد ووالده باءت بالفشل، اذ تنصل هنري الثاني من المسؤولية متذرعاً بمحدودية سلطته على ابنه المتمرد، بينما برر ريتشارد تحركاته العسكرية بأنها ردٌ عقابي على تجاوزات كونت تولوز بحق تجار أكيتاين، وفي سياق ذلك التوتر، وثّق الشاعر والمحارب برتران دي بورن Bertrand de Bourne (١١٤٠- ١٢١٥) حالة التمرد الصريح، مشيراً إلى إنكار ريتشارد سيادة فيليب أغسطس بأسلوب مهين، بل واتخذ دي بورن من عجز الملك الفرنسي مادةً هجاء سياسي قائلًا: **"لم يُرَ قطّ (فيليب) يكسر رمحًا على درع، ولا أُصيب بجرح، فهو يحب السلام أكثر من الراهب، بينما يعشق ريتشارد الحرب أكثر من أيّ من فرسان المغامرات الأسطوريين"**[(١)].

عقد الملك فيليب العزم على شن حملة عسكرية سريعة بحلول آيار ١١٨٧، بهدف السيطرة على مواقع استراتيجية على الحدود وفرض سلطته على النبلاء الإقطاعيين المتمردين، قاد جيشه نحو مقاطعة بيري، حيث اشتبك مع قوات دوق اكيتاين وحقق انتصاراً حاسماً، استولى على إثره على قلعة فريتفال Fréteval، ثم قلعة إيسودون التي كان قائدها قد أقسم له يميناً كاذباً بالولاء، وتابع فيليب تقدمه بالاستيلاء على قلعة غراساي Gracay جنوب أورليان، قبل أن يفرض حصاراً على قلعة شاتورو الحيوية، فدفعت تلك الانتصارات السريعة الملك هنري الثاني إلى حشد فرسانه وقواته من كل مكان، متجهاً بجيشه ومعه ابناه ريتشارد وجون من بواتييه، بهدف نجدة القلاع المحاصرة والتصدي للتقدم الفرنسي[(٢)]، وقبيل اندلاع المعركة الحاسمة، سادت المشهدَ أجواءٌ مكثفة من المناورات السياسية والخداع المتبادل، مما شكّل اختباراً حقيقياً لصلابة الدوق ريتشارد في مواجهة سيده الإقطاعي الأعلى ملك فرنسا، وعلى الرغم من تصاعد التوتر، كانت الخشية من العواقب الوخيمة لحربٍ شاملة تسيطر على حسابات القيادتين الفرنسية والإنكليزية على حد سواء، وهو ما دفع الملك هنري الثاني للمبادرة بإرسال وفود دبلوماسية سعياً لاحتواء الموقف، غير أن تعثر المفاوضات أدى إلى اصطفاف الجيوش وجهاً لوجه في الحقول المحيطة بقلعة شاتورو، وتحديداً في الموقع المعروف باسم آريا Arya، ومع بدء المناوشات والمبارزات الفردية التي أنذرت بصدام وشيك، اتخذت الأحداث منعطفاً مفاجئاً نحو التهدئة بفضل وساطة فاعلة قادها رجال الدين، وعلى رأسهم الكاردينال أوكتافيان Octavianus، مبعوث البابا أوربان الثالث

(1)Castellano, Gaspar, Chronicle of the Crown of Aragon, Salvador Hermanos Printing House, Zaragoza, Spain, 1919, pp. 44-45.; James Esquire, Op. Cit, pp. 91-92.
(2)Rigord, Op. Cit., p. 23.

Urban III (١١٢٠- ١١٨٧) الذي كان يطمح لتوحيد القوى الأوروبية وتوجيهها نحو حملة صليبية، وكان يرافقه هيو دي نانت Hugh de Nunant، حيث كان المبعوثان في الأصل مكلفين بمهمة تتويج جون ابن الملك هنري في أيرلندا، إلا أن الملك أجّل التتويج واصطحب أبناءه معه لملاقاة الملك الفرنسي[١]، الذين نجحوا في إقناع الملكين بعقد صلح[٢].

وفي لحظة درامية، أعلن الملك هنري الثاني والدموع في عينيه أمام أمرائه: **"أيها الأصدقاء، إني رجل غارق في الذنوب، وأرغب في تطهير حياتي وإصلاح أخطائي ما دام لدي الوقت للتصالح مع الرب. إنني أدرك الآن قيمة الرجال والمال، وإذا شاء الرب وملك فرنسا، سأذهب لمحاربة المسلمين في الأراضي المقدسة. كل ما أحتاجه هو هدنة لمدة عامين"**، وحين استمع فيليب أغسطس إلى الخطاب، ابتسم بسخرية، هامساً لمن حوله: **"هل تصدقون ذلك؟"**، وعلى الرغم من تشككه، وافق فيليب على الهدنة لأنها كانت تخدم مصالحه السياسية، وهكذا نجح الطرفان في ٢٣ حزيران ١١٨٧ بعقد هدنة لمدة عامين عُرفت بـ معاهدة شاتورو بموجبها، تنازل هنري الثاني عن قلعتي إيسودون وفريتفال لفيليب أغسطس، وتبادل التعويضات المالية[٣].

تكشف بنود المعاهدة عن نضج سياسة فيليب أغسطس وقدرته على مجاراة حنكة هنري الثاني، فقد فضّل الملك الإنكليزي تجنب مواجهة عسكرية خاسرة، لاسيما أن جيشه كان منقسماً تحت ثلاث قيادات، بينما كان الجيش الفرنسي متحداً ومتحمساً تحت قيادة ملكه مباشرة، فكان انتصار فيليب يعني ضياع ممتلكات التاج الإنكليزي في فرنسا، في ظل تذبذب ولاء أبناء هنري وانعدام الثقة بينهم وبين أبيهم، كل تلك العوامل مجتمعة أجبرت هنري الثاني على قبول تلك المعاهدة، على الرغم من شروطها المجحفة بحقه، ويمكن القول إن المشهد السياسي بين المملكتين الإنكليزية والفرنسية شهد مناورات بارعة، حيث نجح الطرفان في توظيف استراتيجيات الحرب والدبلوماسية بمهارة فائقة، ففي الوقت الذي أعلن فيه الملك هنري الثاني، استجابةً للتوجيهات البابوية، إعلان حقوق التاج الإنكليزي في الأراضي المقدسة، كان الملك فيليب أغسطس يدبر خطة محكمة لاستمالة الدوق ريتشارد، ودفعه للتخلي عن ولائه لأبيه، لقد كان هدف فيليب واضحًا تمثل بإفساد العلاقة بين الأب والابن وإجبار ريتشارد على نقض عهوده، وتجلّت بوادر نجاح تلك الاستراتيجية مع وصول ريتشارد إلى باريس وتوطيد علاقته بالملك الفرنسي، وهي علاقة تم تصويرها على أنها حميمة بصورة استثنائية، لدرجة وصلت معها الأخبار إلى بلاط هنري الثاني أن ريتشارد وفيليب: **"يأكلان من طبق واحد وينامان في سرير واحد"**[٤].

---

(1)Roger of Hoveden, Op. Cit., Vol. II, p. 63.

(2)Achille Luchaire, Op. Cit, p. 41; Rigord, Op. Cit., p. 24; Raoul de Diceto, Op. Cit., pp. 629-30.

(3) Guillaume de Nangis, Op. Cit., p. 365; Roger of Hoveden, Op. Cit., Vol. II, p. 63; Achille Locher, Op. Cit., p. 56.

(4) W. L Warren, Op. Cit., pp. 616-17; Brentano, F., Op. Cit., p. 253.

وعلى الرغم من أن وصف تلك العلاقة قد يكون مبالغًا فيه، إلا أنه يعكس تقاطعًا واضحًا للمصالح، إذ وجد فيليب في ذلك التقارب فرصة لإضعاف خصمه اللدود هنري الثاني، بينما رأى ريتشارد فيه وسيلة للضغط على والده لتأمين حقه في وراثة العرش، لاسيما في ظل تفضيل هنري لابنه الأصغر جون، ويندرج ذلك التحالف، الذي قد يبدو للوهلة الأولى غريبًا بين خصمين، في سياق تاريخي وسياسي أوسع، فمنذ الفتح النورماندي، دأب المتنافسون على العرش الإنكليزي على طلب الدعم من العرش الفرنسي، والاعتراف بسيادته مقابل الحصول على مساندته في صراعاتهم الداخلية، كما أن طبيعة النظام الإقطاعي السائد آنذاك، مقترنة بطموحات ريتشارد المعروفة وتقلباته السياسية، تجعل من ذلك التقارب تكتيكًا سياسيًا مفهومًا ومنطقيًا في سبيل تحقيق غايته الأسمى اعتلاء عرش انكلترا[١].

وفي خضم الصراع المحتدم على النفوذ بين مملكتي فرنسا وانكلترا، برزت شخصية الدوق ريتشارد كورقة مساومة ونقطة ضعف في آن واحد ضمن استراتيجيات والده الملك هنري الثاني، وخصمه اللدود، الملك الفرنسي فيليب أغسطس، إذ كان من المعروف عن الدوق ريتشارد جرأته واستقلاليته، وهو ما وظّفه الملك فيليب أغسطس لصالحه، مقربًا إياه إليه ومثيرًا قلق والده، وفي محاولة استباقية لإعادة ابنه إلى كنفه، استدعاه هنري مرارًا من باريس إلى دوقية نورماندي، خوفًا من أن يقع بالكامل تحت تأثير الملك الفرنسي، وبعد تردد استجاب ريتشارد لنداء والده، مما أثار حفيظة فيليب أغسطس الذي خشي من تجدد التحالف بين الأب والابن وانقلابه ضده، وكرد فعل سريع، بادر فيليب أغسطس إلى تأمين جبهته الشرقية، حيث سارع في كانون الأول ١١٨٧ إلى تجديد اتفاقيته العسكرية مع الإمبراطور الألماني فريدريك بربروسا، عقب لقائهما في مقاطعة لاميز Lamiz شمالي فرنسا، إذ ضمن ذلك التحالف دعمًا ألمانيًا لفرنسا في أي صراع مستقبلي ضد التاج الإنكليزي[٢].

وعقب نجاح الملك الفرنسي في تحصين جبهته الخارجية بتجديد تحالفه الاستراتيجي مع الإمبراطورالألماني لمواجهة الملك الإنكليزي، تكلل استقراره السياسي بضمان ولاية العهد، حيث وضعت الملكة إليزابيث كونت هانوه في الخامس عشر من أيلول عام ١١٨٧ مولودها الذكر لويس، مما أنهى مخاوف الملك وحسم استمرار وراثة التاج الفرنسي[٣]، لذا قام مطلع عام ١١٨٨، بتجاهل معاهدة السلام المبرمة في شاتورو، التي كانت لا تزال سارية، وقاد جيشًا كبيرًا لفرض حصار على دوقية نورماندي، وكانت مطالبه واضحة: أن يعيد هنري الثاني المقاطعات المتنازع عليها إلى السيادة الفرنسية، وأن يتمم فورًا زواج الدوق ريتشارد من شقيقته الأميرة أليس، إذ كان تأخير ذلك الزواج، المرتبط بمعاهدات سلام، مصدر قلق دائم لفيليب، الذي رأى فيه تسويفًا متعمدًا من لدن الملك الإنكليزي، لاسيما مع سيطرة الأخير على مقاطعة جيسور الحيوية، لكن رد فعل هنري الثاني الباهت أثار تساؤلات حول الأسباب

(1) John T. Appleby, John king of England, New York, 1959, p. 37.
(2)Gisleberto Montensis, Op. Cit., p. 56.
(3)Raoul de Diceto, Op. Cit., p. 631; Guillaume de Nangis, Op. Cit., p. 366.

الحقيقية وراء ذلك الجمود[١]، ويطرح الموقف سؤالين جوهريين: لماذا أحجم الدوق ريتشارد، الشاب آنذاك، عن الزواج من الأميرة أليس؟ وما هو سر صمت والده، هنري الثاني، حيال ذلك؟ وكانت خطبة أليس جزءًا لا يتجزأ من اتفاقية السلام في فريتفال، وظلت الأميرة تحت رعاية الملك الإنكليزي لسنوات، وتشير الدلائل إلى أن ريتشارد نفسه كان الرافض الأساس لذلك الزواج، متمسكًا بعناده وصلابة رأيه المعهودين، ويبدو أن هنري الثاني تجنب الضغط على ابنه، ربما لشعوره بالمسؤولية أو لتجنب دفعه نحو تمرد مفتوح، ومما زاد الأمر تعقيدًا، أن هنري نفسه كان قد روّج عام ١١٨٤ لمشروع زواج ريتشارد من أميرة ألمانية، وهو ما قوبل بالرفض أيضًا من الدوق[٢]، ومع وصول الأمور إلى طريق مسدود، بدا أن الصدام العسكري هو الحل الوحيد، إلا أن حدثًا جللًا في الشرق الأقصى ألقى بظلاله على أوروبا، فقد وصل رئيس أساقفة صور إلى الغرب حاملًا أخبارًا كارثية، منها سقوط مملكة بيت المقدس الصليبية بيد صلاح الدين الأيوبي عام ١١٨٧، فكان لذلك النبأ وقع كالصاعقة في الأوساط الأوروبية، تجاوز تأثيره الخلافات القائمة، وبذلك نجحت أخبار الشرق في ما فشلت فيه الدبلوماسية، فأجّلت الصدام الوشيك بين المملكتين، ودفعت الخصوم، تحت وطأة الصدمة الدينية والسياسية، نحو سلام مؤقت وتوحيد الجهود لمواجهة الخطر الأكبر في الأراضي المقدسة [٣].

كما يبدو أن تهور الدوق ريتشارد قد أدى دورًا محوريًا في تصعيد التوتر بين المملكتين الفرنسية والإنكليزية، ويتجلى ذلك بوضوح في رد الفعل الغاضب للملك الفرنسي فيليب أغسطس، الذي أثاره هجوم الدوق ريتشارد على كونتية تولوز وأملاكها، بوصفها أراضٍ خاضعة لسيادة التاج الفرنسي، ورداً على ذلك الاعتداء، قاد الملك فيليب جيشًا كبيرًا جنوبًا، حيث استولى على قلعة شاتو رالف Chateau-Raoul في ١٦ حزيران ١١٨٨، وأخضع سكانها لسيادته، ولم يتوقف التوسع الفرنسي عند ذلك الحد، بل واصل الجيش تقدمه ليسيطر بسهولة على قلعة بيزانسون Besancon، ومنها إلى أرجنتان Argentan التي سقطت بعد حصار محكم، تبع ذلك سلسلة من الانتصارات الفرنسية بالاستيلاء على قلاع استراتيجية على الحدود بين كونتية بيري ونورماندي، منها: ليفر- روش Levroux، شاستيليز Chastelez، مونتريزور Montresor، بالوال Palluau، روش-غيلبو Roche-Guillebaut، وكيلون Culan، وكان ذلك التقدم العسكري بمثابة رد مباشر على هجوم الدوق ريتشارد، وأدى إلى انهيار الهدنة القائمة بين المملكتين، وفي غضون ذلك، عمد الملك فيليب إلى استمالة حامية القلاع الإنكليزية عبر تقديم الوعود لهم، وفور وصول تلك الأنباء إلى الملك هنري الثاني، عبر بجيش ضخم من انكلترا إلى دوقية نورماندي في ٢٦ تموز، بعد أن عهد الملك فيليب بقلعة شاتو رالف إلى قائده وليم دي بار William de Barres،

---

(1) Barlaw, F., The Feadal of England 1042-1216, New York, 1988, pp. 348-349.

(2) Pool Austin, L., From Domesday book to Magnacarta 1087-1216, Oxford, 1955, pp. 342-343; Roger of Hoveden, Op. Ct, Vol. II, p.78; W. L Warren, Op. Cit., pp. 611-612.

(3) Guillaume de Nangis, Op. Cit., pp. 366-367.

وعاد إلى باريس، فاستغل الدوق ريتشارد الفرصة لشن حملة تخريب واسعة في أراضي الأمراء والبارونات الموالين للملك فيليب، وأسر العديد منهم، وأمام ذلك التصعيد آثر الملك هنري الثاني عدم استفزاز الملك فيليب أكثر، وتجنب أي هجوم مباشر[١].

لكن الملك فيليب أغسطس بالمقابل لم يهدأ، بل تحرك نحو مدينة تروا Troya وأشعل فيها النيران، ونشر الخراب في الأراضي المحيطة بها، فدفع ذلك الانتقام الدوق ريتشارد إلى الرد الفوري بالاستيلاء على قلعتي لاروش La Roche وفوندوم Vendôme على الحدود بين بلوا ومين، حيث أسر خمسة وعشرين فارسًا، وأمام ذلك التشابك في الأحداث، ظل موقف الملك هنري الثاني غامضًا، ومع احتدام الصراع، سارع بإرسال وفد دبلوماسي إلى الملك الفرنسي ضم شخصيات رفيعة المستوى هم: والتر Walter، رئيس أساقفة روان، ويوحنا John، أسقف إيفرو، ووليم مارشال William Marshal، حاملين طلبًا للمصالحة بهدف وقف الأضرار التي لحقت بشعبي المملكتين، إلا أن الملك فيليب اشترط استعادة إقليم نورمان فيكسن وقلعة بري، لكن الملك هنري الثاني رفض ذلك الشرط رفضًا قاطعًا، وردّ بحشد جيشه استعدادًا للمواجهة، متوجهًا نحو مدينة مانت Mant حيث كان الملك الفرنسي متمركزًا، وقام في طريقه بالاستيلاء على عدد من القرى الصغيرة[٢]، وأمام تصاعد الصراع وازدياد حدته بين المملكتين كنتيجة مباشرة لدخول الدوق ريتشارد دائرة الصراع في ذلك التوقيت، لاسيما بعدما وعد الملكان بتوجيه جيوشهما إلى الشرق[٣]، وأمام ذلك التصعيد الخطير، تدخلت البابوية بصورة حاسمة، اذ بادر البابا كليمنت الثالث Clement III (١١٣٠-١١٩١) بإيفاد مبعوث خاص لحث الملكين على إنهاء حالة الحرب بينهما، وتذكيرهما بوعودهما الصليبية، وقد وجدت دعوة البابا صداها، ليس فقط لدوافع دينية، بل لعوامل سياسية وعسكرية ضاغطة على كلا الجانبين[٤].

كما واجه الملك فيليب أغسطس في الجبهة الفرنسية، معارضة داخلية متنامية لاستمرار الحرب ضد الإنكليز، إذ نادت أصوات مؤثرة، يُعتقد أنها كانت واقعة تحت تأثير رجال الدين، بضرورة حقن دماء المسيحيين والحفاظ على الموارد المالية والعسكرية للحملة الصليبية المرتقبة[٥]، وبفضل ما عُرف عنه من دهاء سياسي وبُعد نظر استراتيجي، أدرك فيليب أغسطس أن الاستجابة للضغوط البابوية وتيار المعارضة الداخلية، وفتح باب

---

(1) Guillaume de Nangis, Op. Cit., pp. 367-368; Roger Hoveden, Op. Cit., Vol. II, p. 87.

(٢) سعيد السيد علي فرغلي، وليم مارشال إيريل بمبروك ودوره السياسي في عصر آل بلانتاجنت ١١٦٧-١٢١٩، مجلة مركز الخدمة للإستشارات البحثية، كليّة الآداب، جامعة المنوفية، العدد ٥٦، مج ١٩، ٢٠١٧، ص ٧.

Roger of Hoveden, Op. Cit., Vol. II, pp. 87-88; Rigord, Op. Cit., p. 27.

(3) Franck Bright, M.A., A history of England, Mediaeval monarchy from the Departure of the Romans to Richard III. 449 –1485 ،London, 1877, p. 104 – 105.

(4)Rial, Michel Jean Joseph, Lettre du pape Clément III à Henri, comte de Champagne, Collection des historiens de Gaule et de France, Volume 19, Royal Press, Paris, 1833, p.333.

(5) Regard, Op. Cit., p. 27.

المفاوضات مع هنري الثاني، يخدم أهدافه على المدى البعيد، فقد أتاحت له تلك التهدئة فرصة ثمينة لإعادة تنظيم صفوفه والاستعداد بصورة أفضل لجولات الصراع القادمة[١].

أما في الجبهة الإنكليزية، فقد كان وضع الملك هنري الثاني لا يقل حرجاً، إذ بدأ يشعر بالضعف العسكري المتزايد أمام قوة فيليب أغسطس، فضلاً عن قلقه الدائم من غدر أبنائه الذين عُرف عنهم التهور والطموح، وهو ما استغله الملك الفرنسي بمهارة لزرع بذور الشقاق داخل الأسرة الحاكمة الإنكليزية، فضلاً عن الضغط البابوي، واحتمالية وجود تذمر مماثل داخل جيشه بسبب طول أمد الحرب، ودفع ذلك المزيج من الضغوط العسكرية والدبلوماسية والداخلية الملكين كليهما إلى الموافقة على عقد محادثات سلام، وقد تُوجت تلك المساعي بلقاء تاريخي عُقد في منطقة جيسور الحدودية في آب من عام ١١٨٨، استمر ثلاثة أيام،بيد أن أجواء التفاوض سرعان ما تلبدت بغيوم العداء، إذ تحولت الترتيبات البروتوكولية إلى شرارة أشعلت الموقف، ففي يومٍ قائظ، استأثر الملك الإنكليزي وحاشيته بظلال شجرة دردار الوارفة، تاركين الملك الفرنسي وفرسانه تحت وطأة الشمس الحارقة، في تصرفٍ تخللته ضحكات ساخرة فسرها الجانب الفرنسي على أنها إهانة متعمدة ومساس بهيبة التاج، ذلك السلوك الاستعلائي، مضافاً إليه الجمود السياسي، أدى إلى انهيار المحادثات واندلاع اشتباك مباغت شن فيه الفرسان الفرنسيون هجوماً عنيفاً أجبر القوات الإنكليزية على التقهقر[٢]، ولم يتوقف الرد الفرنسي عند حدود الانتصار الميداني، بل امتد ليطال الرمز المعنوي للغطرسة الإنكليزية، فقد تواترت الأنباء عن تباهي الملك هنري بتحصين جذع شجرة الدردار بأطواق من الحديد، رابطاً بقاء سلطته ببقائها ومتحدياً الفرنسيين بانتزاع أي شبر من أملاكه ما دامت قائمة، ورداً على ذلك التحدي السافر، أقدم فيليب أغسطس وجنوده على اقتلاع الشجرة وتحطيمها بالفؤوس غير عابئين بصلابتها، ليكون سقوطها إعلاناً مدوياً عن نهاية الهيمنة الرمزية الإنكليزية، وعلى إثر ذلك الفشل الذريع والانهيار الدبلوماسي، غادر هنري الثاني المنطقة محبطاً، وعمد في طريق عودته إلى حرق وتخريب القرى الفرنسية انتقاماً، ليُسدل الستار على ذلك الحدث بقطيعة تامة ودخول الصراع مرحلة جديدة خالية من أي رموز للسلام[٣].

بعد جهودٍ دبلوماسيةٍ حثيثة، تكللت الوساطة بالنجاح في إقناع الملكين، الإنكليزي هنري الثاني والفرنسي فيليب أغسطس، بالعودة إلى طاولة المفاوضات، فعُقد اللقاء في ١٧ تشرين الأول عام ١١٨٨ في إحدى قلاع مقاطعة إقليم إندر Indre[٤]، إلا أنه سرعان ما وصل إلى

---

(1) Rigord, Op.Cit., p.27.

(2)Franck Bright, M.A., Op. Cit., p.112; Achille Luchaire, Op. Cit., pp. 46-47; Roger of Hoveden, Op. Cit., Vol. II, pp. 88-89; Raoul de Diceto, Op. Cit., p. 631; W. L Warren, Op. Cit., p. 620.

(3)Roger of Hoveden, Op. Cit., Vol. II, pp. 88-89; Raoul de Diceto, Op. Cit., p. 631;W. L Warren, Op. Cit., p. 620.

(٤) اندر: إقليم فرنسي يشغل جزءاً كبيرا وسط فرنسا، وكان حتى عام ١٧٩٠ يشغل أجزاءً من برى وأورليان ومارش وتورين، وتقدر مساحته سنة ١٧٩٠ سبعمائة وسبعة وسبعين من ألف كيلو متراً مربعاً، ويبدأ من شاتروه حتى قرية اللوار.

طريق مسدود، بعد ان تشبث كل ملك بموقفه الذي أدى إلى انهيار المحادثات في المرة السابقة، وعلى الرغم من ذلك الجمود، أصرّت الوساطة على استمرار المساعي الدبلوماسية، وتمكنت من انتزاع اتفاق على عقد اجتماع آخر في ١٨ تشرين الثاني من العام ذاته في قلعة بونز مولين Bons Moulin، الواقعة على الحدود بين دوقية نورماندي والأراضي التابعة للتاج الفرنسي، لكن ذلك اللقاء، الذي كان يهدف إلى إنهاء الصراع القائم، شهد تحولاً في ميزان القوى[١]، ففي خطوة مفاجئة للملك هنري الثاني، وصل ابنه الدوق ريتشارد إلى مكان الاجتماع بصحبة الملك فيليب[٢]، فاستغل الملك الفرنسي الفرصة ليطرح شروطه، مقترحًا على هنري الثاني إعادة جميع القلاع التي استولى عليها منذ تعهده بالمشاركة في الحملة الصليبية، وإبقاء الوضع على ما كان عليه قبل النزاع لضمان سلام دائم، ولم يكتف فيليب بذلك، بل قام على الفور بتبني وتقديم مطالب الدوق ريتشارد لوالده، التي شملت الاعتراف بحق ريتشارد في دوقيات أنجو، وتورين، ومين، فضلا عن دوقية بواتو، والإسراع في إتمام زواجه من أليس، شقيقة الملك الفرنسي، والأهم من ذلك، إعلانه وريثًا شرعيًا للعرش الإنكليزي، فحاول هنري الثاني المناورة دبلوماسيًا لتهدئة ابنه واستمالته مجددًا، إلا أن ريتشارد، الذي عُرف باندفاعه، حسم الموقف بشكل جذري، ففي مشهد تاريخي أمام الحاضرين، جثا ريتشارد على ركبتيه وقدم يمين الولاء للملك فيليب أغسطس عن جميع ممتلكاته وأراضيه في القارة، طالبًا دعمه لنيل حقوقه[٣].

مثّل ذلك الاجتماع نجاحًا استراتيجيًا باهرًا للملك الفرنسي، الذي دخل المفاوضات ساعيًا للسلام وخرج منها متحالفًا مع وريث خصمه اللدود،فمن خلال ذلك الإعلان الرسمي، وضع ريتشارد جميع أراضيه الشاسعة تحت السيادة الإقطاعية لملك فرنسا، مما أضعف موقف والده هنري الثاني بصورة كبيرة ومنح فيليب تفوقًا حاسمًا في الصراع المقبل، وعلى الرغم من أن هنري الثاني كان قد خبر خيانات أبنائه من قبل، وتحالفهم مع ملك فرنسا السابق لويس السابع، إلا أن هذا التحالف الجديد بين وريثه المباشر وغريمه القوي فيليب أغسطس،

Moore, W.G., Op. Cit., p. 372.

(1) Raoul de Diceto, Op. Cit., p. 631; Achille Locher, Op. Cit., p. 57.

(2) W. L Warren, Op. Cit., p.622 Guillaume de Nangis, Op. Cit., p.368; Roger of Hoveden, Op. Cit., Vol. II, p.99; Raoul de Diceto, Op. Cit., p.631.

(٣) ذكرت المصادر إن صراعاً قام بين الملك هنري الثاني وابنه الدوق ريتشارد انحاز فيه الابن جون إلى الأب، مما دفع الأخير إلى إعطائه كثيراً من الأراضي أثارت غضب الدوق ريتشارد، لذلك ما لبث أن أعلن التمرد على أبيه وانضم إلى الملك الفرنسي وعندما وصله أعلن له قائلاً: **"مولاي أعلمك أن أبى يريد أن يحرمني حقى، ويضع التاج على رأس أخي الأصغر، أما أنا فتابعك وفصلك فأستحلفك بالرب أن تكون عونا لي في الحصول على حقوقي"** فأجاب الملك طلبه وعرض إتمام زواجه من الأميرة أليس، أو إعطاء وعد بذلك من أجل الحفاظ على سلطته، ويجب على أخيه جون حمل الصليب والخروج للحملة الصليبية، وعندئذ يستطيع ريتشارد استرداد أملاكه، وهو ما دفع الدوق إلى الإعلان بأنه لم يذهب إلى الأراضي المقدسة إلا بصبحة أخيه الأصغر، واستطاع الملك هنري الخروج من هذا الموقف بذكاء سياسي عندما عارض ذلك واقتراح زواج أليس من جون، لكن هذا الاقتراح قوبل بالرفض من الملك الفرنسي. يراجع: حسن حبشي، ذيل وليم الصوري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ١٧٩؛

W. L Warren, Op. Cit., p. 622.

شكّل ضربة قاصمة لنفوذه وهيمنته[١]، واجه الملك هنري الثاني موقفًا عصيبًا حينما باءت محاولاته لإثناء ابنه الدوق ريتشارد، عن عزمه إعلان العداء ضده، بالفشل الذريع[٢]، وقد تجسد ذلك الفشل في مشهد دراماتيكي حين غادر الدوق ريتشارد المجلس بصحبة الملك الفرنسي فيليب أغسطس، تاركًا والده الملك الإنكليزي وباروناته في حالة من الذهول، مثّل ذلك الانسحاب بداية لتحالف صريح بين ريتشارد والتاج الفرنسي، وهو التحالف الذي استمر قائمًا حتى وفاة هنري الثاني، ليُسدل الستار على لقاء كان يهدف إلى رأب الصدع، ولكنه انتهى بتعميقه بشكل غير متوقع[٣].

لم يغب ذلك التوتر المتصاعد في العلاقات الفرنسية الإنكليزية عن أعين السلطة الدينية، ممثلة في البابا، الذي سارع إلى إيفاد مبعوثه، يوحنا أف أنجني John of Anagni، في محاولة لاحتواء الموقف، كانت مهمة المبعوث البابوي واضحة، وهي إلزام الطرفين بهدنة كانت معقودة بينهما لمدة عامين، وحقن دماء المسيحيين المنضوين تحت لواء الحملات الصليبية، وقد ذكّر المبعوثين الملكيين بالقسم الذي كانا قد أدّياه بحمل الصليب أمام هيأة كنسية رفيعة، أسفرت تلك المساعي الدبلوماسية عن عقد مباحثات في لا فيرتيه- برنار La Ferté-Bernard، بالقرب من الحدود النورماندية الفرنسية، وذلك بعد عيد القديس هيلاري في آيار من عام ١١٨٩، ضمت المباحثات، التي جرت تحت إشراف المبعوث البابوي وأربعة من كبار الأساقفة من المملكتين، كلاً من الملك هنري الثاني، والملك فيليب أغسطس، والدوق ريتشارد، فضلا عن أنصار الملك الفرنسي من البريتون الذين انضموا إلى التحالف القائم بين فيليب وريتشارد[٤].

استهل الملك الفرنسي فيليب أغسطس المفاوضات بتقديم مطالب واضحة، تمثلت بإتمام زواج شقيقته أليس من الدوق ريتشارد، ومنح الدوق حقوقه في السلطة الملكية من لدن والده، كما تضمنت الشروط، في حال قرر ريتشارد الانطلاق في حملة صليبية إلى الأراضي المقدسة، أن يرافقه شقيقه الأصغر جون، التزامًا بالتقاليد المتبعة، جاء ذلك الشرط الأخير انعكاسًا لمخاوف ريتشارد العميقة وشعوره بأن والده يسعى إلى حرمانه من حقوقه لصالح شقيقه جون، إلا أن رد الملك هنري الثاني جاء بالرفض القاطع لذلك المطالب، وعاد ليطرح اقتراحه السابق، وهو تزويج ابنه جون من الأميرة الفرنسية أليس، مما أدى إلى انهيار المفاوضات مجددًا وتأجيج الصراع[٥].

---

(1) Creighton, M., Epochs of English History, London, 1896, pp. 170-171.

(2) Rigord, Op. Cit., p.27; Guillaume de Nangis, Op. Cit., p. 369.

(3) Guillaume de Nangis, Op. Cit., p. 369.

(4) Roger of Hoveden, Op. Cit., Vol. II, pp.105-107; Rigord, Op. Cit., p. 28; Raoul de Diceto, Op. Cit., pp.633-635; W. L Warren, Op. Cit., p.623.

حسن حبشي، المصدر السابق، ص ١٤٧.

(5) Roger of Hoveden, Op. Cit., Vol II, pp.105-107; Rigord, Op. Cit., p.28; Raoul de Diceto, Op. Cit., pp.633-35; Achille Locher, Op. Cit., p.97; W. L Warren, Op. Cit., p. 623.

حسن حبشي، المصدر السابق، ص ١٤٧.

وصلت المفاوضات بينهما إلى طريق مسدود، إذ رفض الملك هنري مقترحات نظيره الفرنسي، الذي قابل بدوره بالرفض اقتراح هنري بزواج ابنه جون من أليس، شقيقة فيليب، وقد دفع ذلك التأزم الحاد المندوب البابوي، يوحنا أف أنجني، إلى التدخل، حيث توجه إلى بلاط الملك فيليب مهددًا بفرض عقوبة الحرمان الكنسي على مملكة فرنسا وكل من يعارض الهدنة، إلا أن فيليب أغسطس، الذي كانت قوته تتعاظم، أبدى تحديًا واضحًا، معترضًا على ما اعدّه تدخلًا كنسيا غير مشروع، مؤكدًا أنه من غير المقبول معاقبة مملكة فرنسا بتلك القسوة في وقت تواجه فيه أعداءً كُثر[١].

على إثر ذلك الموقف، أطلق فيليب أغسطس في حزيران من عام ١١٨٩ حملة عسكرية خاطفة، انطلق من لا فيرتيه- برنار وهاجم حصن نوجان لو روترو Nujan Lo Rotro في قلب دوقية نورماندي واستولى عليه، وعندما علم بانسحاب الملك هنري ورجاله من لا فيرتيه-برنارد، عاد ليسيطر عليها، لم يتوقف زحف فيليب عند ذلك الحد، بل واصل تقدمه واستولى على سلسلة من القلاع الهامة في نورماندي، بما في ذلك ماليتابل Mallitable، ومونتفورت، Montfort وبومون Beaumont، وبالون Balloon ، كان الهدف التالي لفيليب هو مدينة لومان الاستراتيجية، حيث حشد جيشه وعزم على اقتحامها، كان الملك هنري الثاني قد تحصن داخل المدينة للدفاع عنها، ومع تدفق القوات الفرنسية، بدأ القلق يتسرب إلى صفوف الجيش الإنكليزي، وتفاقم الوضع بشكل كارثي عندما ارتكب ستيفن دي تورزStephen D. Torre ، قائد مقاطعة تور والمشرف على دوقية أنجو، خطأً فادحًا بإضرام النار في الضواحي المحيطة بالمدينة لمنع تقدم الفرنسيين، لكن الرياح غيرت اتجاهها بصورة غير متوقعة، لتلتهم النيران المدينة نفسها، مما تسبب في حالة من الفوضى العارمة، أدى ذلك الحريق إلى فرار بعض الجنود الإنكليز، الذين سرعان ما وقعوا في أسر القوات الفرنسية، وفي مواجهة ذلك الانهيار، تخلى الملك هنري الثاني عن وعده بالدفاع عن المدينة حتى النهاية، ولاذ بالفرار في ١٣ حزيران ١١٨٩، ومعه ستون فارسًا فقط من أصل سبعمائة كانوا يشكلون نواته الصلبة، طارده الملك فيليب وجيشه لمسافة ثلاثة أميال (٤ كيلو متر) حتى وصلا إلى نهر سارت She walked [٢] العميق وسريع الجريان، ليكتب ذلك الهروب نهاية مذلة لفصل من فصول الصراع بين الملكين[٣].

تخلى الملك هنري الثاني عن مدينة لومان، تاركاً إياها لمصيرها المحتوم أمام حصار الملك الفرنسي فيليب أغسطس، الذي كثف هجماته بالآلات الحربية لثلاثة أيام متتالية حتى أسقط قلعتها، وواصل فيليب زحفه مسيطراً على مناطق عدة حتى بات على تخوم مدينة

---

(1)Robert d'Auxerre, « Annales de Robert d'Auxerre », Collection des Historiens de Gaule et de France (R.H.G.F), tome 18, édité par Michel Bréal, Presses Royales, Paris, 1822, pp. 258-259; Roger of Hoveden, Op. Cit., Vol II, p.107.

[٢] نهر سارث في فرنسا طوله مائتان وخمسة وثمانون كيلو متراً ينبع من جبال بيرش Perch Hills متجها صوب الجنوب الغربي وجنوب النكولن ولامانس ليلحق بمايانى Mayenne:

Moore, W.G., Op. Cit., p. 698.

[٣]سهيل زكار ، الموسوعة الشامية ، ،ج٣٠، ص ٢١٢- ٢١٣.

تورس Tours متأهباً لاقتحامها، وفي ظل معاناة هنري الثاني من حمى شديدة أقعدته عن اتخاذ القرار أو الانسحاب إلى إنكلترا، استغل الملك الفرنسي انخفاض منسوب نهر اللوار ليحسم المعركة، فأسند السلالم إلى أسوار تورس واقتحمها جيشه، حيث أسروا المدافعين عنها، ليقوم فيليب لاحقاً بتسليم كافة الغنائم والمكاسب لحليفه الدوق ريتشارد [١].

تزامن ذلك التراجع العسكري الميداني مع انهيار نفسي وجسدي عميق عاشه الملك هنري، فقد أثقله الحزن على فقدان نجليه، الأمير هنري والدوق جيفري، اللذين غيبهما الموت في سن مبكرة، في حين كان ابنه الثالث ريتشارد يقود تمرداً ضده مصطفاً مع عدوه الفرنسي، فضلاً عن بعد بناته عنه في بلدان نائية، كما نال منه التعب بعد بلوغه الثالثة والخمسين من العمر، قضى منها ما لا يقل عن خمسة وثلاثين عاماً في غمار حروب لا تهدأ[٢]، وبعد تعافٍ طفيف، انتقل هنري إلى مدينة سامور Saumur، حيث استقبل في الثاني من تموز عام ١١٨٩ مبادرة للصلح قادها فيليب كونت فلاندرز ووليم هيوج دوق بورغوندي، بدافع توجسهم من طموحات الملك الفرنسي الشاب وانتصاراته المتتالية، لا سيما بعد إنذاره المسبق لهم بنيته مهاجمة هنري [٣].

غير أن الملك هنري الثاني وجد نفسه في مأزق استراتيجي بالغ الخطورة، إذ بات مهدداً من جهة الغرب باحتمالية هجوم من بريتاني، بالتزامن مع زحف الملك فيليب أغسطس والدوق ريتشارد عليه من الشرق، وأمام ذلك الواقع وعقب سقوط مدينة تورز وحصونها بيد الفرنسيين، أيقن هنري عبثية المقاومة العسكرية، فاستجاب لدعوة الملك الفرنسي لعقد لقاء في بلدة كولومبير Colombier[٤] المجاورة لتورز في وادي اللوار، وذلك في الرابع من شهر تموز١١٨٩، وقد خيمت أجواء المأساة على وصول الملك إلى مكان اللقاء، حيث كان يئن تحت وطأة تدهور صحي حاد إثر إصابته بحمى شديدة وداء الناسور اللذين استنزفا طاقته بالكامل، لدرجة أعجزته عن الوقوف واضطرته للاستناد المنهك إلى أحد جدران مقر فرسان الهيكل، وفي لحظة إنسانية قاسية، شكى هنري لقائده المخلص وليم مارشال من ألمٍ فتاك يسري في جسده من قدميه لينهش سائر أعضائه، وهو ما أثار حزن المارشال الذي شاهد تغير لون وجه سيده بين الحمرة والزرقة من شدة العذاب، فتوسل إليه أن يستلقي طلباً للراحة[١].

وعلى الرغم من تلك الحالة الصحية المزرية، تجرد الدوق ريتشارد من عاطفة الابن تجاه أبيه، فبمجرد وصول الملك فيليب واستفساره عن سبب عدم مثول هنري، سارع ريتشارد للادعاء بأن ما يعانيه والده ليس سوى مكيدة وحيلة سياسية، نافياً عنه حقيقة المرض، وتحت

Rigord, Op. Cit., p. 29; Roger of Hoveden, Op. Cit., Vol II, pp.107-108.

[١] سهيل زكار، الموسوعة الشامية،ج٣٠، ص ٢١٣ ؛ حسن حبشي، المصدر السابق، ص ١٧٩.

[2] Roger of Hoveden, Op. Cit., Vol II, pp.109-110; Achille Locher, Op. Cit., p. 58.

[٣] سهيل زكار، الموسوعة الشامية، ،ج٣٠، ص ٢١٣.

[4]Roger of Hoveden, Op. Cit., Vol II, pp.109-110; Achille Locher, Op. Cit., pp. 60-61.

وطأة الألم والضغوط المتوالية، أسرّ هنري للمارشال بنيته تقديم تنازلات كبيرة مهما كان الثمن لإنقاذ نفسه في تلك اللحظة، متوعداً في الوقت ذاته باستعادة أرضه وهيبته في ساحة المعركة إن أمد الله في عمره، وحين حانت لحظة المواجهة والتقى الملكان وجهاً لوجه، بدت أمارات الإعياء واضحة جلية على وجه هنري، لدرجة دفعت الملك فيليب لعرض مقعد عليه إشفاقاً لحاله واحتراماً لمقامه، إلا أن كبرياء هنري أبى إلا الرفض، وفضل أن يظل واقفاً فاجتمع عليه التعب الجسدي وحرارة الصيف، انتهى ذلك اللقاء القاسي بإبرام هدنة مذلة للملك الإنكليزي، نصت بنودها على خضوعه التام لسيطرة الملك فيليب أغسطس وتجديد الولاء له وتنفيذ أوامره دون اعتراض ، وشملت الاتفاقية التزام هنري بتسليم الأميرة أليس، شقيقة الملك فيليب، لنبيل يختاره الدوق ريتشارد، مع ضمان انتقال الولاء والتبعية من رجال هنري على ضفتي القنال إلى ريتشارد ، وأقرت الهدنة بقاء الفرسان والنبلاء الذين انشقوا عن هنري إلى جانب ريتشارد استعداداً للتوجه إلى الشرق، مع ضمان عدم ملاحقة رعايا التاج الإنكليزي في الأراضي الفرنسية قضائياً ما لم يرتكبوا جناية، واتفق الأطراف على جعل مدينة فيزلي Verelay نقطة تجمع وانطلاق مشتركة للحملة الصليبية الثالثة، ولضمان التزام الملك هنري الثاني بدفع غرامة مالية قدرها عشرون ألف مارك، استحوذ فيليب وريتشارد على عدد من قلاعه كضمانة حتى يتم السداد[٢].

وفي ختام اللقاء، تبادل هنري مع ابنه قبلة السلام، إلا أن ريتشارد همس متوعداً إياه بسلبه كل شيء قبل موته انتقاماً منه[٣]، وقع الملك هنري الثاني على تلك المعاهدة المهيئة وانسحب منكسراً، وأرسل أحد ضباطه إلى تورس حيث كان لايزال يقيم فيها الملك فيليب أغسطس ليسأل عمن خانه من رجاله وانضم إلى الأخير، فعاد الضابط إلى الملك هنري الثاني وتحدث بصعوبة قائلاً: **"أن أول من خانه هو ابنه الكونت جون"**، وعندها شعر الملك هنري الثاني بالهزيمة كلياً عندما علم أن أكثر من أحبه أتت منه الخيانة، ولم يدع الملك هنري الثاني الضابط ليكمل ذكر بقية أسماء الخونة، بل طلب منه أن يتوقف، ثم عاد إلى سريره وجسمه يرتعش ووجهه شاحباً مسوداً من الغضب، فسكب لعناته ساخطاً على أولاده حتى وهو على فراش الموت حتى أن بعض رجال الدين ممن كانوا ملتفين حول سريره قد ناشدوه سحب تلك اللعنات وأن يغفرلهم، فرضخ معترفاً في آخر الأمر بأنه قد أساء إلى ابنه الدوق ريتشارد أمام الحضور[٤].

---

(1) Raoul de Diceto, Op. Cit., pp. 634-36; Roger of Hoveden, Op. Cit., Vol II, pp. 110-111; Barlow, F., Op. Cit., p. 350.

(2) Raoul de Diceto, Op. Cit., pp.634-36; Roger of Hoveden, Op. Cit., Vol II, pp. 110-111; Barlow, F., Op. Cit., p. 350.

(٣) سهيل زكار، الموسوعة الشامية، ج٣٠، ص ٢١٤.

(٤) يذكر المؤرخ جيرالد الويلزي Gerald of Wales، أحد معاصري الملك هنري الثاني، واقعةً ذات دلالة عميقة تكشف عن حجم الصراع الذي عاشه الملك مع أبنائه، فقد كان في غرفة نوم الملك بقصره في وينشستر لوحةٌ تُجسّد نسراً كبيراً تحيط به أربعة فروخ، ثلاثة منها تنهش جسده بمخالبها ومناقيرها، بينما يجثم الرابع على رأسه، منتظراً اللحظة المناسبة لينقض على عينيه، وعندما سُئل الملك عن معنى تلك الصورة القاسية، أجاب بمرارة: **'هذا النسر هو أنا، وفراخه الأربعة هم أبنائي الذين لن يدخروا وسعاً في تمزيقي حتى آخر يوم في**

عاجل الموت الملك هنري الثاني في ٦ تموز عام ١١٨٩ في قلعة شينون في فرنسا، وعلى الفور، شهدت الغرفة الملكية مشهداً مأساوياً يجسد انهيار السلطة، فقد سارع الخدم إلى نهب الغرفة بأكملها، بل وانتزعوا كل شيء عن الملك المتوفى حتى تركوه عارياً إلا من قميصه، وعندما انتشر خبر وفاته، تقدم الفارس وليم مارشال لإنقاذ الموقف، فغطى جسد الملك بعباءته وأمر بوضعه في تابوت مخصص لذلك تمهيداً لدفنه [١].

من هنا يمكن القول أن وفاة الملك هنري الثاني، الذي كان أحد أعلام العصر الوسيط، الذي استطاع أن يجعل من انكلترا نداً قوياً لكل الممالك المحيطة بها، وفرض سيطرته على كبار الإقطاعيين، وخرج بمملكة انكلترا من العزلة التي عاشت فيها في الماضي، وأخرجها من نطاق السيادة الفرنسية، ولم يكتف بذلك، بل جعلها نداً لتلك المملكة، واستطاع من خلال تربيته الملكية فهم أساليب الحكم والإدارة، حيث رأى أن تركيب مملكة انكلترا كان يفضل سلطة التاج، وذلك النوع من السلطة، هو نفسه استخدمه من قبل بنجاح منقطع النظير حينما كان دوقاً لدوقية نورماندي واكيتاين و كونتا لكونتية أنجو، فكان من السهل عليه استخدامه في حكم مملكة انكلترا، إلا أنه قضى معظم سنوات حكمه في صراع ضد التاج الفرنسي[٢].

وبوفاة الملك هنري الثاني يُسدل الستار على فصل مهم من الصراع بين إنكلترا وفرنسا، تميز بالندية الشديدة، وكانت لإنكلترا اليد العليا في البداية بفضل قوة هنري الثاني في مواجهة الملك الفرنسي الشاب فيليب أغسطس، إلا أن الكفة رجحت لصالح فرنسا في النهاية، ويرجع ذلك إلى دهاء فيليب أغسطس الذي استغل ببراعة الخلافات داخل الأسرة الحاكمة الإنكليزية، مما أضعف سلطة هنري الثاني من الداخل، وبتلك النهاية تنتهي المرحلة الأولى من الصراع بين المملكتين في عهد الملك فيليب أغسطس، لتفتح باب جديداً أمام مرحلة من تلك المواجهة التاريخية، مرحلةٌ سيتصدرها من الجانب الإنكليزي الملك ريتشارد قلب الأسد، لتبدأ بذلك فصول الدور الثاني من تلك العلاقة المعقدة.

حياتي، والصغير الجاثم الذي ينتظر عينَي، هو أحبّهم إليّ، ولكنه سيكون أعظمهم ضرراً وإيذاءً لي". سهيل زكار، الموسوعة الشامية، ج ٣٠، ص ٣٨٦.

(1) Roger of Hoveden, Op. Cit., Vol II, pp. 110-11; Raoul de Diceto, Op. Cit., p. 636.

(2) W. L Warren, Op. Cit., p. 627.

ثانياً. سياسة الملك فيليب أغسطس تجاه الهرطقة الألبيجنسية (الكاثار) ١٢٠٩-١٢١٨ :

في مطلع القرن الثالث عشر، وقبل أن تتشكل المعالم الجيوسياسية لفرنسا ، كانت الأراضي الجنوبية تشهد صراعاً سياسياً ودينياً غير مسبوق، فقد تضافرت عوامل التشتت الإقطاعي، مع تراجع هيبة الكنيسة الكاثوليكية، لتخلق بيئة خصبة لظهور حركات دينية بديلة تحدت السلطة الروحية لروما،في ذلك السياق المعقد، برزت عقيدة الكاثار كقوة لا يُستهان بها في منطقة لانغدوك، مما استدعى لاحقاً تدخلاً حاسماً، تجلى في سياسات الملك فيليب أغسطس والحملات الصليبية الألبيجنسية بين عامي ١٢٠٩ و١٢١٨، والتي لم تكن مجرد حروب دينية لاقتلاع الهرطقة، بل كانت صراعاً جيوسياسياً لإعادة رسم خرائط النفوذ في أوروبا العصر الوسيط.

١. الوضع السياسي والديني في جنوب فرنسا مقاطقة (لانغدوك):

لم تكن المنطقة كيانًا سياسيًا متماسكًا، بل كانت أشبه بخليط غير متجانس من الإقطاعيات والكونتيات القوية التي وإن كانت تدين بالولاء اسميًا لملوك مختلفين، إلا أنها كانت تمارس استقلالًا سياسيًا شبه كامل على أرض الواقع[١]، فقد اتسمت منطقة لانغدوك بانعدام الوحدة السياسية والحدود الثابتة، إذ كانت تتمدد وتتقلص باستمرار تبعًا لموازين القوى العسكرية والتحالفات المتغيرة بين الأمراء المحليين، وإن انعكس ذلك التشتت في غياب اسم رسمي موحد للمنطقة، فقد أشار إليها المعاصرون بأسماء مثل منطقة الألبيجينية أوالأراضي البروفنسية، بينما يستخدم المؤرخون المحدثون مصطلحي "لانغدوك" أو أوكسيتانيا[٢]، وامتدت منطقة لانغدوك من غربي أكيتاين إلى جبال البرانس، وضمّت مدن السهول الكبرى مثل تولوز، قرقشونة، بيزييه، ناربون، مونبلييه، ونيم، وقد أعاقت التضاريس الجبلية

---

[١] ذلك أنه وجدت في جنوب فرنسا ثلاثة مراكز سياسية وحضارية كبرى هي دوقية اكيتاين وتولوز وكونتيه بروفانس. وكانت الاثنتان الأولتان ضمن نطاق الملكية الفرنسية، في حين ظلت كونتيه بروفانس لا ترتبط بملك فرنسا. يراجع: سعيد عبد الفتاح عاشور، أوربا في العصور الوسطى، ص ٢٠٨.

Laurence W. Marvin, The Occitan War: A Military and Political History of the Albigensian Crusade, 1209-1218, Cambridge University Press, Cambridge ,2008, pp. 5-9; Joseph R. Srayer, The Albigensian Crusades ,The Dial Press,New York 1971, pp. 1-5; Doussat, Yves, « Les Cathares et les Vaudois à la veille de la croisade des Albigeois », Journal d'histoire et de littérature du Languedoc, vol. II, Paris, 1945, p. 390-397 ; Doussat, Yves, « Le clergé dans le Sud à la veille de la croisade des Albigeois », Journal d'histoire et de littérature du Languedoc, vol. I, Paris, 1944, p. 263-278 ; Doussat, Yves, « Le comté de Toulouse et le féodalisme languedocien à la veille de la croisade des Albigeois », Journal du Tarn, vol. IX, Paris, 1943, p. 75-90 ; Doussat, Yves, « La société méridionale à la veille de la croisade des Albigeois », Journal d'histoire et de littérature du Languedoc, vol. I, Paris, 1945, p. 66-87.

[2] Strayer, Joseph R. The Albigensian Crusades, The Dial Press, New York, 1971, p. 10; Walter L. Wakefield, Heresy, Crusade, and Inquisition in Southern France, 1100-1250 University of California Press, Berkeley, CA: 1974, p. 50.

والوديان النهرية العميقة أي محاولة لفرض سلطة مركزية[١]، مما عزز من استقلالية المدن المحصنة المعروفة بـ كاسترا Castra ومجالسها المحلية القوية، على الرغم من أن معظم لانغدوك كانت اسميًا جزءًا من مملكة فرنسا، إلا أن سلطة الملك الفرنسي كانت محدودة للغاية، وحافظت المنطقة على هويتها الثقافية المميزة[٢]، وفي المقابل تنافست قوى إقليمية كبرى على بسط نفوذها،منها تاج أراغون[٣] Aragon ، فيما كانت كتالونيا اللاعب الأكثر نفوذًا، مستغلًة الروابط الثقافية والتجارية العريقة، فوسّع ملوك أراغون- كتالونيا هيمنتهم بصورة كبيرة خلال القرن الثاني عشر[٤]، فبعد توحيد برشلونة وأراغون بالزواج عام ١١٥٠، امتد نفوذهم ليشمل بروفانس وبيزييه[٥]، وكان دافعهم الأساس كبح جماح النفوذ المتنامي لملوك فرنسا، وليس تأسيس إمبراطورية موحدة عبر البرانس، كذلك سعى التاجان الإنكليزي والفرنسي كلاهما للسيطرة على كونتية تولوز، بوصفها أغنى وأقوى كيان في المنطقة، اذ بدأت بمحاولات الملك الفرنسي لويس السابع ثم الملك الإنكليزي هنري الثاني للسيطرة على تولوز (بعد زواج الأخير من إليانور أكيتاين) وإدت إلى أشعال حرب دامت أربعين عامًا بين تولوز المتحالفة مع فرنسا وانكلترا[٦].

لم تكن التهديدات خارجية فقط، بل عانت المنطقة من صراعات داخلية حادة فالخصومة بين تولوز وترينكافيل حيث كانت طموحات كونتات تولوز الأقوياء تصطدم بقوة عائلة ترينكافيل، التي سيطرت على بيزييه وقرقشونة، وقد نجحت عائلة ترينكافيل في تحويل ولائها من تولوز إلى أراغون، مما قسّم أراضي تولوز فعليًا وقلّص نفوذها إلى النصف، كذلك صعود سلطة المدن التي استغلت حالة الحرب المستمرة بين الأمراء لتنتزع استقلالًا ذاتيًا واسعًا[٧].

---

(1) Strayer, Op. Cit., pp. 11-13.

(2) Laurence W. Marvin, Op. Cit., pp. 5-9.

(٣) أراغون: اسم اشتق من نهر أراغون، الذي ينبع من وادى كانفران Canfranc، وينحدر من جبال البرانس، ويصب في نهر ابروا وقد سمى واديه الأعلى باسمه الذي سرى فيما بعد على الأراضي الفسيحة والولايات الكبيرة التي انضمت إلى هذا الوادي، وتألفت منها مملكة أراغون، وتقع أراغون في أقصى الشمال الشرقي من إسبانيا، وتمتد من جبال البرانس شمالاً إلى جبال قونقه Cuenca جنوبا، ومن قطالونيا شرقا إلى نافارا وقشتالة غربا، وهذا الموقع جعل أراغون الجسر الذي يربط أسبانيا بأوربا. يراجع: نادية مرسى السيد صالح، خايمي الأول ملك أراغون وعلاقاته بالممالك الإسلامية المجاورة ١٢١٣ - ١٢٧٦، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ١٩٨٦، ص ٢٥.

(4) Austin P. Evans, The Albigensian, Crusade, Setton, Vol. II, London, 1969, p. 27; Damian Smith, Crusade, Heresy and Inquisition in the Lands of the Crown of Aragon (C. 1167-1276) (Leiden: Brill, 2010), pp. 19-25.

(5) Thomas S. Beeson, The Crown of Aragon in the Middle Ages: A Short History, Clarendon Press, Oxford, 1986, p. 27.

(6) Beeson, Thomas S. The Crown of Aragon in the Middle Ages: A Short History, Clarendon Press, Oxford, 1986, pp. 37-38; Richard Benjamin, The Forty Years' War: Toulouse and the Plantagenets, 1156-1196, Institute of Historical Research, Vol. 61, No. 146, 1988, pp. 270-285.

(7) Ellen Graham-Leigh, The Southern French Nobility and the Crusade against the Cathars, Boydell Press, Suffolk, 2005, pp. 91-92; John Heine Mundy, Liberty and

أما الحاله الدينية فقد شهدت منطقة لانغدوك في العصر الوسيط تراجعاً ملموساً في سلطة الكنيسة الكاثوليكية، وهو ما خلق بيئة حاضنة لظهور وانتشار الحركة الكاثارية، لم يكن ذلك الانحسار في النفوذ الكنسي وليد الصدفة، بل كان نتاجاً لتشابك معقد من الصراعات السياسية والمالية، حيث سعى النبلاء المحليون للسيطرة على المناصب الكنسية الحيوية، كالأسقفيات، طمعاً في مواردها ونفوذها، وقد أدى ذلك التدخل العلماني إلى تحويل المؤسسات الدينية إلى ساحات لصراع السلطة، مما أفرز تفاوتات مالية وأضعف الدور الروحي لرجال الدين، وعلى الرغم من محاولات الإصلاح الغريغوري لكبح ذلك التغوّل، إلا أن النبلاء تمكنوا من استعادة هيمنتهم بحلول منتصف القرن الثاني عشر، مما قوض هيبة الكنيسة وفتح الباب أمام بدائل روحانية وجدت صدى واسعاً لدى السكان[١]، وفي ظل ندرة الوثائق التاريخية الموثوقة حول أصول الكاثار الحقيقية- نظراً لإتلاف الكنيسة لمعظم نصوصهم- يظل تاريخهم محاطاً بالغموض، مما أفسح المجال لظهور روايات بديلة وأساطير ترتبط بشخصيتي عيسى المسيح ومريم المجدلية[٢]، تبدأ تلك السرديات بلحظة مفصلية عقب رحيل المسيح، حيث تفرّق الرسل، وواجهت مريم المجدلية النفي عام ٤٤ ميلادية بتهمة التآمر، وتروي الأسطورة رحلة إبحار عجائبية لسفينة بلا شراع أو مجداف، حملت مريم المجدلية، ومريم العذراء، وآخرين إلى شواطئ جنوب فرنسا، وتحديداً في الموقع الذي يُعرف اليوم بـ سانت ماري دو لا مير Saintes-Maries-de-la-Mer، من تلك النقطة، تتشعب الروايات، فبينما تؤكد السردية الكاثوليكية أن المجدلية بشرت بالمسيحية في بروفانس واعتزلت للعبادة في كهف سانت بوم Saint Bomm حتى رفعتها الملائكة عند وفاتها، تقدم الرواية الكاثارية طرحاً مغايراً وجريئاً، فبحسب معتقداتهم، لم تكن مريم وحدها، بل رافقها المسيح الذي نجا من الصلب- وفق منظورهم- وسافرا معاً كزوجين إلى منطقة أوكسيتانيا Occitania، وتشير تلك الرواية إلى أنهما عاشا حياة عائلية بسيطة وأنجبا ثلاثة أطفال، قبل أن تضطرهما الشكوك المحيطة بهما إلى الافتراق، لترتحل مريم بأحد أبنائها شمالاً نحو لانغدوك، مؤسسة بذلك فصلاً جديداً من تلك الحكاية التي شكلت جزءاً من الهوية الروحية والقصصية للحركة الكاثارية في المنطقة[٣].

Political Authority in Toulouse, 1050-1230, Columbia University Press, New York, 1954, pp. 18-21.

[١] يراجع حول اصول الكاثار:

Charles Rivere, The Albigensian Crusade. The History and Legacy of the Catholic Campaign Against the Cathars in France, Rivere Publishing and Distribution, 2020, pp. 9-10.

[٢] يراجع حولة شخصية مريم المجدلية : موريس ميتير لينك، مريم المجدلية، ترجمة: مصطفى كامل خليفة، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٦؛

Bruce Chilton, Mary Magdalene: A Biography, Image Doubleday, New York, 2005; De Boer Esther, Mary Magdalene Beyond the Myth, translated by John Boden, SCM Publishing House, London, 1997.

[3] Michael Costin, The Cathars and the Cathar Crusade, Manchester University Press, New York, 1997, p. 80.

شكلت الأزمة المالية تحديًا وجوديًا للكنيسة في المنطقة إلى جانب الصراع السياسي، حيث كانت الإيرادات والممتلكات محور نزاع دائم بين الأساقفة واللوردات، وزاد الأمر تعقيدًا تداخل الحدود الإدارية للأبرشيات مع الإقطاعيات السياسية، مما خلق حالة من الفوضى في تحصيل العشور والضرائب، فعلى سبيل المثال، كان فولك راند Folk Rand (١١٧٩-١٢٠١) أسقف تولوز، يعاني من فقر مدقع لدرجة أنه لم يكن يملك المال الكافي للتنقل داخل أبرشيته، فاجبر ذلك الضعف المالي الأساقفة على التركيز المفرط على جمع الأموال، مما عرضهم لاتهامات العامة والبابوية على حد سواء، بالجشع والانشغال بالشؤون الدنيوية، إذ سخر البابا إنوسنت الثالث من ذلك الوضع، ووصف بعض الأساقفة، مثل بيرينجير Beringer رئيس أساقفة ناربون، بـ **"الكلاب الحمقاء التي ترفض النباح"** لفشلهم في مواجهة الهرطقة والتركيز على دورهم الرعوي[١].

في خضم حالة الفراغ الروحي والضعف الذي اعترى المؤسسة الكنسية في لانغدوك، وانغماس رجال الدين في الشؤون الدنيوية، وجد السكان في الكاثارية (أومذهب الأطهار)[٢]، ملاذًا روحيًا بديلًا يلبي توقهم إلى الحياة الرسولية القائمة على الزهد والتقشف، إذا قدمت تلك الحركة بنية لاهوتية ومجتمعية منظمة وجذابة، حيث قسّمت أتباعها إلى فئتين: "المُكمَّلون" الذين التزموا بحياة زهد صارمة، و"المؤمنون" الذين تمتعوا بحرية أكبر من القيود، ولم يقتصر سبب انتشار الكاثارية على الجانب الروحي فحسب، بل ساهمت عوامل اجتماعية واقتصادية في ذلك، فقد أبدت الحركة مرونة برغماتية تجاه قضايا حساسة، مثل السماح بزواج الأقارب للحفاظ على الثروات العائلية، والتسامح مع التعامل بالربا، مما جعلها قبلة للتجار والنبلاء وسكان المناطق الحضرية الذين وجدوا فيها نظامًا أخلاقيًا يتماشى مع واقعهم الاقتصادي، على نقيض تعقيدات الكنيسة الكاثوليكية[٣]، وقد تميزت الكاثارية بفتح آفاق واسعة للمرأة، متيحة لها مكانة دينية مرموقة غابت عن الكنيسة الكاثوليكية التي افتقرت حينها للأديرة النسائية في المنطقة، إذ سُمح للمرأة بالوصول إلى رتبة "مُكمَّلة"، وممارسة الوعظ، والمشاركة الفاعلة في نشر العقيدة عبر الشبكات الاجتماعية، وقد وثّق مؤرخون معاصرون، مثل وليم التطيلي وبيتر من فو دو سيرناي، ذلك الدور المحوري، مشيرين إلى أن النساء الكاثاريات أظهرن صلابةً وعنادًا في التمسك بمعتقداتهن تفوق ما أبداه الرجال، حتى في مواجهة أحكام الهرطقة والموت حرقًا [٤].

---

(1) William Poilioren, The Albigensian Crusade and Its Aftermath, Boydell Press, London, 2003, p. 22 .

(2)Malcolm Barber, Cathar Heretics and Dualists in High Medieval Languedoc, 2nd ed., Pearson Education Ltd., New York, 2000, pp. 10-11; Charles Rivere, Op. Cit., p. 11.

(3)James Cappelli, "A Compendium Against Hieraticus," in The Heresies of the High Middle Ages, trans. Walter L. Wakefield and Austin B. Evans, Columbia University Press, New York, 1969, pp. 302–306.

(4) Claire Taylor, Heresy in Medieval France: Dualism in Aquitaine and Aigena, Suffolk, Boydell Books, 2005, p. 160; Sean Martin, The Cathars: The Most Successful Heresy of the Middle Ages, Shelton, Aylesbury, Bucks Books, 2005, p. 75; Constance

وعلى الصعيد العقائدي، استندت الكاثارية إلى رؤية ثنائية متطرفة تفسر الوجود بصراع أبدي بين إلهين: إله الخير الذي خلق العالم السماوي والأرواح، وإله الشر (أو إله الظلام) الذي تفرد بخلق العالم المادي، ومن ذلك المنطلق اللاهوتي، تبرز فكرة "نجاسة المادة" كعقيدة مركزية ومحورية في فهم الفكر الكاثاري، فكل ما هو مادي أو جسدي يُعد دنسًا ورجسًا بطبيعته لأنه من صُنع الإله الشرير، وبحسب السردية الكاثارية، قام لوسيفر، ابن إله الظلام، بخداع الملائكة وسجن أرواحهم الطاهرة النورانية داخل أجساد بشرية مادية كثيفة، ولأن الروح الإلهية أصبحت أسيرة ذلك السجن الجسدي الدنس، برز إيمان الكاثار العميق بـ "تناسخ الأرواح"، إذ اعتقدوا أن الروح التي تفارق الجسد بالموت دون أن تبلغ مرتبة الطهارة التامة (رتبة المُكمَّلين)، لا تنال الخلاص، بل يُعاد تجسدها ونسخها في أجساد مادية أخرى، سواء كانت بشرية أو حيوانية[١]، ذلك التناسخ المستمر ليس إلا امتداداً للعذاب، حيث تُجبر الروح على مكابدة وطأة "نجاسة المادة" مراراً وتكراراً في دورة لا تنتهي إلا بالتطهر والزهد المطلق[٢].

بناءً على ذلك الربط الوثيق بين نجاسة العالم المادي وحتمية تناسخ الأرواح للنفوس غير المطهرة، صاغ الكاثار موقفهم الراديكالي الذي نسف أسس العقيدة الكاثوليكية، فقد نظروا إلى المسيح كمُخلص روحي بحت نزل لإرشاد الأرواح لطريق التحرر، رافضين بشدة فكرة تجسده في جسد مادي دنس، وأنكروا تبعاً لذلك الثالوث المقدس، كما رفضوا كافة الأسرار الكنسية المرتبطة بالعناصر المادية، كالتعميد بالماء وسر التناول (القربان المقدس)، ونبذوا تقديس الرموز كالصلبان والأيقونات، ولتجنب الإسهام في استمرار سجن الأرواح في دورة التناسخ، عارض الكاثار الزواج والإنجاب معارضة قاطعة، إذ رأوا في عملية التكاثر خضوعاً لشهوات الجسد وتوفيراً لسجون مادية جديدة (أجساد الأطفال) تأسر المزيد من الأرواح المعذبة، وامتد هذا الرفض للمادة ليشمل تحريم تناول اللحوم وكل ما ينتج عن التناسل الحيواني، فضلاً عن رفضهم لأداء القسم، لتشكل تلك المنظومة الفكرية المتماسكة والصارمة تحدياً وجودياً زلزل أركان سلطة الكنيسة وضرب صميم عقائدها الراسخة[٣].

B. Bouchard, Consanguineous and Aristotelian Marriage in the Tenth and Eleventh Centuries, Speculum, Vol. 56, No. 2, April 1981, p. 268.

(1) William of Tudela, The Song of the Cathar Wars: A History of the Albigensian Crusade, trans. Janet Shirley, Ashgate, New York, 1996, p. 23.

(2) William of Tudela, Op.Cit., p.23.

(3) Ibid, p.23.

٢. اندلاع الحرب الألبيجنسية ودور الملك فيليب أغسطس في توسيع النفوذ الملكي:

استهل البابا إينوسنت الثالث حراكه لمناهضة الهرطقة في إقليم لانغدوك [١]بانتهاج استراتيجية أولية تعتمد على إيفاد الوعاظ لإعادة الهراطقة إلى الحظيرة الكنسية أو نفيهم، مُعولاً في ذلك على دعم النبلاء المحليين [٢]،غير أن تلك المساعي اصطدمت بواقع سياسي واجتماعي معقد، حيث قوبلت البعثات البابوية باستجابة تراوحت بين الفتور والعداء السافر، نتيجة لشبكة المصالح المتداخلة التي ربطت الطبقة الحاكمة بالهراطقة، فضلاً عن التوترات التاريخية بين النبلاء والأساقفة، وقد تجسد ذلك التواطؤ في مواقف قادة بارزين، إذ سعى ريموند روجر ترينكافيل Raymond Roger Trencavel[٣] كونت بزييه Beziers، وقرقشونة على الرغم من كونه كاثوليكيًا ملتزمًا، إلى مهادنة الجميع بتوظيف هراطقة في إدارته، بينما أبدى ريموند السادس Raymond VI[٤]، كونت تولوز، Count of Toulouse رفضاً قاطعاً لمحاولات إبعاد المقربين منه من الهراطقة، مما جرد البعثات البابوية من الغطاء السياسي اللازم لردع المخالفين[٥].

لم يكن ذلك الإصرار البابوي نابعاً من فراغ، إذ رأت الكنيسة في تنامي الهرطقة تهديداً وجودياً يتجاوز مجرد تحدي سلطتها الزمنية ليصل إلى تقويض الخلاص الروحي ووحدة

---

(1)Caesarius of Histerpache, Dialogue of Miracles, in Heresy, Crusades, and the Inquisition, trans. Walter L. Wakefield, University of California Press, California, 1974, p. 96; Roger of Wendover, Flowers of History, in Crusades and Christianity, eds. Jessalyn Bird, Edward Peters, and James Powell, University of Pennsylvania Press, Philadelphia, 2013, pp. 68-69.

(2) Hamilton Bernard, The Crusade against the Cathars and Heresy, in The New Cambridge History of the Middle Ages, Part II, Cambridge University Press, Cambridge, 1999, pp. 165-166.

(٣) ريموند روجر ترينكافيل (١١٨٥- ١٢٠٩): روجر الثاني ترينكافيل وأديلايد دي تولوز، ابن أخ ريموند السادس ملك تولوز، كان يتصف بالشجاعة ولكن تنقصه الخبرة، شكلت أراضيه قطاعا عبر لانغدوك، محتوية في داخل حدودها المدن الهامة البي، وبزيية، وقرقشونة، والحصون في كباريه Cabaret وميترف Minerve في الشمال، وترم Termes جنوبا، ولافور Lavaur غربا، وفي وسط هذه المناطق يوجد كثير من معاقل الهراطقة.
Austin P. Evans, Op. Cit., p. 288.

(٤) ريموند السادس كونت تولوز (١١٥٦- ١٢٢٢): كان ريموند السادس، كونت تولوز، شخصية محورية في تاريخ منطقة لانغدوك بجنوب فرنسا، ورث عن والده ريموند الخامس ووالدته كونستانس شقيقة ملك فرنسا لويس السابع، إقطاعية واسعة ذات أهمية استراتيجية، تميز عهده بالتعقيد، لاسيما في علاقاته السياسية والدينية، فعلى الصعيد السياسي، وسّع نفوذه من خلال زيجات استراتيجية، أبرزها زواجه من إرميسيند التي ورث عنها مقاطعة ميلجيل، أما على الصعيد الديني، فكانت علاقته بالكنيسة الكاثوليكية متوترة، اتهمه البابا إينوسنت الثالث بالتساهل مع أتباع المذهب الكاثاري (الألبيجنسي) المنتشر في أراضيه، مما أدى إلى حرمانه كنسيًا، وعلى الرغم من ذلك، حافظ على علاقات ودية مع هيئات دينية أخرى مثل فرسان الإسبتارية والرهبان الفرنسيسكان، كان موقفه من الكاثار يميل إلى البراغماتية السياسية لحماية مصالحه، على الرغم من إعلانه اتباعه المذهب الكاثوليكي، أدت سياسته المترددة تجاه الكاثار إلى جعله هدفًا رئيساً للحملة الصليبية الألبيجنسية التي انطلقت سنة ١٢٠٩، دخل ريموند في صراع مرير مع قادة الحملة، مثل سيمون دي مونتفورت، وخسر الكثير من أراضيه، في نهاية المطاف، وعلى الرغم من استعادته لبعض ممتلكاته قبل وفاته، إلا أن عهد ريموند السادس شهد بداية النهاية نفوذ كونتات تولوز، ومهّد الطريق لسيطرة التاج الفرنسي المباشرة على جنوب فرنسا. يراجع:
Jean-Luc Dejean, Les Comtes de Toulouse 1050-1250, Fayard, 1988, pp. 251-330.

(5) Graham, Op. Cit., pp. 60-61.

العالم المسيحي، التي كان إينوسنت الثالث يعدّها شرطاً جوهرياً لمواجهة التهديدات الخارجية واستعادة الأراضي المقدسة، وقد انعكس ذلك القلق العميق في الخطاب الكنسي الذي وصم الهرطقة بـ**"المرض"** أو **"الطاعون"** الفتاك، فمن تحذيرات البابا من **"خدام الضلال"** الذين يسرقون الحياة الروحية، إلى توصيفات رجال الدين والمؤرخين أمثال قيصريوس من هيستريباخ وروجر من ويندوفر ووليم التطيلي، أُطرَت الهرطقة كعدوى سريعة الانتشار تهدد باجتياح أوروبا بأسرها وإفساد عقيدتها، مما رسخ قناعة لدى المؤسسة الكنسية باستحالة التعايش مع ذلك الخطر وضرورة استئصاله لضمان بقاء المسيحية[١].

استلهمت بعثات إينوسنت الثالث الوعظية نهجهاً من جهود سابقة، أبرزها حملة الراهب السيسترسي الشهير، برنارد من كليرفو، الذي جاب المنطقة في أربعينيات القرن الثاني عشر، اذ آمن برنارد بأن الحوار والمنطق، لا القوة، هما السبيل لمواجهة الهرطقة، إلا أن تقدمه في السن وتدهور صحته حالا دون تحقيق نجاح يذكر، لكن حملته أسست لفكرة حرمان الهراطقة من حقوقهم القانونية[٢]، وفي العام ١١٩٨، جدد إينوسنت الثالث مساعيه بإرسال المبعوثين رينيير وغي Rainier and Guy، اللذين سرعان ما تم استبدالهما في عام ١٢٠٦ بوفد من الرهبان السيسترسيين ضم شخصيات بارزة مثل أرنولد أمالريك Arnold Amalric رئيس دير سيتو، Abbot of Situ وبيتر من كاستيلنو Peter of Castelnau، ورالف من فونتفرويدRalf of Fontfreude. لكن مهمتهم كانت كارثية بكل المقاييس، فإلى جانب انعدام الدعم السياسي، قوبل الرهبان بسخرية السكان المحليين وازدرائهم، وسجل المؤرخ وليم التطيلي ذلك الموقف بمرارة، قائلًا إنه كلما زاد أرنولد أمالريك في وعظه، زاد **"ازدراء الناس له واصفين إياه بالأحمق"**، وفي حادثة أخرى، عندما كان أمالريك يَعِظُ برفقة فوكيه Fouquet من مرسيليا ضد الربا في أجينيه Agenia، كان الناس يرددون باحتقار: **"ها هي تلك النحلة تطنّ مرة أخرى!"**[٣]. إلا أن وصول دييغوDiego أسقف أوسما Osma ورفيقه دومينيك من غوزمان Dominic of Guzman، أشعل بصيص أمل جديد، لم يكن الرجلان مُكلّفَين بمهمة بابوية، بل توقفا للوعظ في لانغدوك أثناء عودتهما من روما، وبدافع من قلقهما مما رأيا، عزما على مواجهة الهراطقة وإصلاح رجال الدين الفاسدين[٤].

انتقد دييغو بحدة مظاهر البذخ التي أحاط بها المبعوثون البابويون أنفسهم، وحثهم على تبني التواضع والزهد، والسير على الأقدام، وتقليد بساطة الرسل، لقد أدرك دييغو أن جاذبية الهرطقة تكمن في تبني أتباعها لنمط الحياة الرسولي البسيط، وهو ما وصفه المؤرخ جوردان الساكسوني بـ **"القداسة الزائفة"** التي كانت **"نقيضًا صارخًا للعربات الفاخرة**

(1) Little, Lester K., Religious Poverty and the Economy of Profit in Medieval Europe, Cornell University Press, New York, 1978, p. 154.
(2) Beverley Kinsley, Cistercian Monks, Heresy and the Crusades in Occitania, 1145–1229, York Medieval Press, York, 2001, pp. 106–108.
(3) William of Tudela, Op. Cit., p. 32.
(4) Little, Lester K, Op. Cit., p.154.

والأثاث الباهظ"، الذي استعرضه المبعوثون، حقق دييغو ودومينيك نجاحًا محدودًا، لكنه كان ملموسًا، إذ نجحا في تحويل بلدة كاستروم سرفيان Castrum Servian ضد الهراطقة وتأسيس دار للنساء التائبات في بروي[١]، وبحلول عام ١٢٠٦، وصل المبعوثون البابويون إلى حالة من اليأس والإحباط، وأصبحوا على وشك العودة إلى ديارهم معلنين فشل مهمتهم بالكامل ثم جاءت القشة التي قصمت ظهر البعير، ففي صباح الرابع عشر من كانون الثاني ١٢٠٨، كان بيتر الكاستلناوي Peter the Castelnau على ضفاف نهر الرون شمال آرل Arle، يستعد لعبور النهر، وهو مندوب البابا إنوسنت الثالث إلى لانغدوك لاستئصال آفة الكاثارية، وبينما كان بيتر يستعد، ركض **"حارس شرير القلب"** نحو المندوب و**"طعن سيفه الحاد في عموده الفقري وقتله"**، وتزعم رواية أخرى أن القاتل طعن المندوب برمحه، وبينما كان المهاجم المجهول يهرب إلى أقاربه في بوكير Booker معقل البدعة، رفع بيتر المصاب بجروح قاتلة يديه، وطلب من الله أن يغفر لمهاجمه، ومع بزوغ الفجر، مات شهيدًا لإيمانه[٢].

وُجّهت أصابع الاتهام على الفور إلى ريموند السادس ملك تولوز، الذي كان قد دخل في جدال حاد مع بيتر في الليلة السابقة، وعلى الرغم من أن التحقيقات كانت تشير إلى أن ريموند لم يخطط للاغتيال، وأن المنفذ غالبًا ما كان فارسًا يسعى لنيل حظوة الكونت، إلا أن البابا إنوسنت ألقى باللوم كاملاً عليه، إذ أثارت الحادثة حفيظة البابا، فكتب بحماس معلنًا الانتقال إلى مرحلة جديدة: **"إلى الأمام يا جنود المسيح! تقدموا أيها المجندون الشجعان في الجيش المسيحي! دعوا صرخة الحزن العالمية للكنيسة المقدسة تثر حماستكم، للانتقام من هذه الجريمة الوحشية ضد إلهكم!"**، وبتلك الكلمات، انتهى عصر الوعظ، وبدأ عصر السيف[٣].

مثّل اغتيال بيتر الكاستلناوي الشرارة التي أذنت ببدء الحملة الصليبية على الكاثار، إلا أن ذلك الحدث لم يكن سوى تتويج لتوجه بابوي راسخ نحو اعتماد الخيار العسكري[٤]، وكانت محاولته الأولى مع ريمون السادس كونت تولوز الذي طالبه بتوفير القوة اللازمة لتنفيذ مخطط البابوية، إلا أن ريمون رفض إخضاع قواته للسيطرة البابوية المباشرة[٥].

أمام ذلك الرفض، توجه البابا إلى الملك الفرنسي فيليب أغسطس، وحثه في عدة رسائل على المساعدة، **"ليكن السيف العلماني رادعاً لأولئك الذين لم يفلح الانضباط الكنسي في**

---

(1)Ibid, p.155.

(2)Sean McGlynn, Kill Them All: Cathars and Massacres in the Anti-Catharian Crusade, History Publishing Ltd., 2015,pp.7-8; William Poilioren, Op.Cit., p.27.

(3)John W. Bauer, Conflict and Conscience: Ideological Warfare and the Cathar Crusade, M.A. Thesis, U.S. Army Command and General Staff College, New York,2006, P.46; Pierre de Vaux-de-Cernai: Hystoria Albigensis, Tome, I, Paris, 1926, pp. 24-27; Austin, P. Evans, Op. Cit., p. 283.

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور، أوربا في العصور الوسطى ، ص ٢٢٥.

(5)Gusyare Masson, B.A: Mediaeval France from the Reign of Hugues Capet to the Beginning of the Sixteenth Century, London, 1888, p. 78.

ثنيهم عن غيّهم، وليحل العقاب المادي بمن لا يخشون السيف الروحي لتماديهم في شرورهم"، وبلغ الأمر ذروته في خطاب مفتوح بتاريخ ١٢ تشرين الثاني ١٢٠٧، دعا فيه البابا الملك فيليب ورعاياه إلى حمل السلاح لاستئصال الهراطقة في لانغدوك، مانحًا إياهم الامتيازات المخصصة للمشاركين في الحملات الصليبية على الأراضي المقدسة ذاتها، مقترحًا مصادرة أراضي المخالفين[١].

جاء رد فيليب أغسطس[٢]، الذي نقله أودو Odo أسقف باريس، ليكشف عن حنكة سياسية فائقة، فهو لم يرفض الطلب رفضًا قاطعًا، بل وضع شروطًا دقيقة تهدف إلى خدمة مصالحه أولاً، تمثلت شروطه في التالي: **"لقد كان من المتعذر عليّ لوجستياً ومادياً تجهيز جيشين في آنٍ واحد، أحدهما لدرئ الخطر الإنكليزي والآخر لمحاربة الألبيجنسيين. لذا، يقع على عاتق البابا توفير الدعم المالي والعسكري اللازم، وإلزام الجانب الإنكليزي بالحفاظ على السلم. وبالتوازي مع ذلك، يتوجب على رجال الدين والنبلاء الإسهام بسخاء في نفقات الحرب ضد الهراطقة، مع تمسكي الكامل بحق استدعاء قواتي العسكرية فور حدوث أي نقض للمعاهدة التي أبرمها ملك إنكلترا"**[٣].

يكشف هذا الرد الدبلوماسي عن أهداف فيليب أغسطس الاستراتيجية، فقد أراد إضفاء الشرعية على صراعه مع انكلترا عبر وساطة بابوية، وفي الوقت ذاته، وضع الملك جون في مواجهة مباشرة مع البابا إن خرق الهدنة، كما أن مطالبته بتمويل رجال الدين للحملة كانت إشارة واضحة إلى أن البابوية تتزعم الحرب إعلاميًا دون تحمل مسؤولياتها المالية، والأهم من ذلك تأكيده على سيادته الكاملة على قواته كان رسالة لا لبس فيها بأن جيشه لن يخضع لأية سلطة أجنبية، حتى لو كانت سلطة البابا نفسه، وأمام تلك الشروط المدروسة، التي كان فيليب يعلم أن البابا لا يملك القدرة على ضمانها، تجمد مشروع الحملة الصليبية، ويُعزى موقفه المتردد هذا إما إلى رغبته في عدم انتهاك الأعراف الإقطاعية بمهاجمة بعض نبلائه، أو الأرجح، إلى حرصه على منع أي تدخل بابوي قد يُخضع مقاطعات فرنسية لنفوذ روما المباشر في عهد واحد من أقوى البابوات في التاريخ.

في ظل تصاعد التهديدات القادمة من الشمال، أظهر ريموند السادس، كونت تولوز، حنكة سياسية ومرونة استراتيجية عالية، فبعد فشل محاولته لتأمين جبهته الداخلية عبر تحالف دفاعي مع ابن أخيه ريموند روجر، أدرك الكونت أن الخيار الأسلم يكمن في الخضوع للسلطة البابوية لتجنب الحملة الصليبية أو كسب الوقت لتنظيم صفوفه، بدأ ريموند حراكه الدبلوماسي بتجاوز المندوب البابوي المتشدد أرنولد أموريArnaud Amalric (١١٦٠-١٢٢٥)، رئيس دير سيتو Abbot of Sito ، متوجهاً مباشرة إلى البابا إينوسنت الثالث ومبدياً استعداده الكامل للامتثال، وهو ما قابله البابا بإرسال مندوب جديد يُدعى ميلون

---

(1)Jonathan Sumption, La Croisade des Albigeois, édition Kindle, 1978, pp. 62-63.
(2)Laurence W. Marvin, Op. Cit., p. 44.
(3) Jacques Madoul, The Albigensian Crusade:A Historical Essay, trans. Barbara Wall, Fordham University Press, New York, 1967, p. 63.

Million لفتح قنوات اتصال إيجابية، أثمرت تلك الجهود عن استعادة ريموند لعلاقته مع الكنيسة بعد تقديمه تنازلات ملموسة، شملت التخلي عن سبع قلاع في منطقة الرون وإعادة قرية ميلجيل Milgil لسيطرة الكنيسة، متعهداً بمحاربة الفساد وحماية رجال الدين [١].

وقد تُوج ذلك المسار السياسي في التاسع عشر من حزيران عام ١٢٠٩، حين أصدر ريموند قراراً رسمياً بالخضوع، تلاه مشهد التكفير العلني أمام كنيسة سان جيل **"إذ سار الكونت عاري الصدر، وقد لُفّ حبل حول عنقه، إلى مدخل كنيسة سان جيل. وهناك، أمسك "ميلون" بطرفي الحبل، وجرّ ريموند التائب إلى فناء الكنيسة، بينما كان يضربه بالعصي رمزياً، ثم منحه الغفران"**، وبالتزامن مع ذلك التحول السياسي، وتحديداً في الرابع والعشرين من الشهر ذاته، كانت غالبية قطاعات الجيش الصليبي قد احتشدت في مدينة ليون شرقي فرنسا، لتبدأ زحفها جنوباً عبر نهر الرون تحت القيادة الروحية والعسكرية للمندوب البابوي أرنولد أموري،وقد تميز تلك الجيش بضخامته الاستثنائية بالنسبة للعصر الوسيط، حيث قدّر المؤرخ لورانس دبليو مارفن Lawrence W. Marvin تعداده بنحو ثلاثين ألف رجل، شكّل الحجاج الفقراء عموده الفقري، وهم الذين افتقروا للتدريب العسكري لكنهم سعوا لنيل الغفران، وبفضل تلك المناورة السياسية البارعة وانضمامه الرسمي لصفوف الحملة، نجح ريموند السادس في إنقاذ نفسه من أن يكون هدفاً لذلك الجيش الجرار، محولاً مسار الحرب ليضرب أراضي غريمه وابن أخيه ريموند روجر ترينكافيل، والتي كانت تُعد حينها معقلاً رئيسياً للهراطقة[٢]، وبتكليف من البابا إنوسنت الثالث، انطلقت حملة صليبية ضخمة، وُصفت بأنها من أكبر الجيوش التي حُشدت في العالم المسيحي حتى ذلك الحين، بهدف استئصال ما عدّته الكنيسة الكاثوليكية بدعة الكاثار في جنوبي فرنسا، وتولى قيادة تلك القوة العسكرية، التي تألفت بصورة أساسية من فرسان من شمالي فرنسا ووسطها، القائد سيمون دي مونتفورت Simon de Montfort إيرل ليستر الخامس[٣]، ورافقه عدد من كبار رجال

---

(1) François de Lannoy, La Croisade des Albigeois (La Bataille contre les Cathares), 2013, Editions de l'Ouest de France, Paris,2013, p.9; Rachel Louise Noah, The Military Aspects of the Albigensian Crusade, MA Thesis, Faculty of Arts, University of Glasgow, Department of Medieval History, 1999, pp. 34.

(2)Jean-Martin Chapeau, Le Chant de bataille de la première croisade des Albigeois, Le Chant de Guillaume de Tarteli, Paris, Héros de la Bibliothèque d'honneur, 1931, p. 279; Austin, P. Evans, Op. Cit., p. 287.

(٣) سيمون دي مونتفورت إيرل ليستر الخامس (١١٧٥- ١٢١٨): واحداً من أبرز النبلاء والقادة العسكريين الفرنسيين في مطلع القرن الثالث عشر، حيث جمع بين الدهاء العسكري والألقاب المتعددة، تجلى موقفه الأخلاقي في بداياته عندما انسحب من الحملة الصليبية الرابعة رافضاً المشاركة في مهاجمة مدينة زارا المسيحية ومخالفة أوامر البابا، إلا أن صورته التاريخية ارتبطت لاحقاً بالقسوة المتناهية والوحشية إبان قيادته للحملة الصليبية على الألبيجنسيين في جنوب فرنسا عام ١٢٠٩، ففي تلك الحملة، سحق معارضيه ونفذ إعدامات وعمليات تشويه مروعة، محققاً في الوقت ذاته انتصارات عسكرية حاسمة وسّعت نفوذه بدعم من الكنيسة والتاج الفرنسي، قبل أن تلقى طموحاته التوسعية نهايتها بمقتله بحجر منجنيق أثناء حصار مدينة تولوز عام ١٢١٨، ويظل من الضروري تاريخياً التمييز بينه كقائد صليبي اتسم بالبطش، وبين ابنه الذي يحمل الاسم ذاته (إيرل ليستر السادس)، والذي خُلّد كأحد أبرز مؤسسي الديمقراطية البرلمانية في التاريخ الإنكليزي. يراجع :

الدين والمندوبين البابويين، أبرزهم ميلون وأرنولد العموري، في ٢١ تموز ١٢٠٩[١]، انطلقت الشرارة الأولى للعمليات العسكرية الكبرى لتلك الحملة عندما ضرب سيمون دي مونتفورت حصارًا حول مدينة بيزييه الخاضعة لسيطرة ريموند روجيه ترينكافيل، الذي وجد نفسه معزولًا في مواجهة الخطر بعد أن خذله صهره الملك بيدرو الثاني ملك أراغون Peter II of Aragon (١١٧٨- ١٢١٣) ، إذ رفض الأخير، بصفته حاميًا للعقيدة الكاثوليكية، نجدة صهره، تاركًا إياه لمصيره المحتوم، ولم يصمد الحصار طويلًا، ففي الثاني والعشرين من تموز، اقتحمت القوات الصليبية المدينة مرتكبةً مجزرة مروعة لم تفرق بين الكاثوليك والكاثار، وهي المأساة التي تباينت حولها الروايات التاريخية، فبينما بالغ بعض المؤرخين مثل بيتر من فو دو سيرناي Peter ووليم التطيلي في وصف الوحشية وأعداد الضحايا مشيرين إلى مقتل الآلاف في كنيسة واحدة ونسب مقولة **"اقتلوهم جميعًا، فالرب سيعرف خاصته"** للراهب أرنولد أمالريك Arnold Amalric يرجح المؤرخ مارفن Marvin عدم دقة تلك السرديات، مستندًا إلى أدلة منطقية كصغر مساحة كنيسة لا مادلين La Madeleine واستمرار الحياة في بيزييه كمركز سكاني، مما ينفي فكرة الإبادة الكاملة[٢]، وعلى الرغم من نجاة ريموند روجيه بنفسه وفراره إلى مدينة قرقشونة الحصينة لاتخاذها معقلًا أخيرًا، إلا أن دي مونتفورت لم يمنحه فرصة لالتقاط الأنفاس، حيث لاحقته القوات الصليبية وضربت حصارًا خانقًا على المدينة في الأول من آب، أدى قطع المياه ونفاد المؤن خلال أسبوعين منه إلى استسلام المدينة ووقوع ترينكافيل في الأسر، لتفشل بعدها المحاولات الدبلوماسية المتأخرة التي قادها الملك بيدرو الثاني لإنقاذه أمام تعنت المندوبين

John Robert Maddicott, Simon de Montfort, Cambridge University Press, London,1994.pp.5-15.

(١) أدرك المندوبون حينها أنهم بحاجة ماسة إلى قائد علماني لإدارة الأراضي المحتلة واستئصال الهرطقة، لاسيما أن تورط رجال الدين المباشر في القتال كان يمثل إشكالية لاهوتية، كما أن الفرسان كانوا يفضلون تلقي الأوامر من نبيل مثلهم، ولم يكن العثور على قائد بالمهمة السهلة، فقد رفض كل من كونت سان بول Count of Saint-Paul، وكونت نيفير Count Nevers، ودوق بورغوندي المنصب، نظرًا للمخاطر الكبيرة التي ينطوي عليها حكم منطقة معادية تاريخيًا للسلطة الكنسية، وفي النهاية وقع الاختيار على سيمون دي مونتفورت، وهو نبيل من الطبقة الدنيا، لكنه كان يمثل جسرًا مثاليًا بين قيم الفروسية والمثل الدينية، وكان سيمون معروفًا بتقواه الشديدة، إذ سبق له أن تخلى عن الحملة الصليبية الرابعة بناءً على أمر البابا، وكان ملتزمًا بالإصلاح الديني. كما أن الحملة قدمت له فرصة لا تعوض لتوسيع نفوذه السياسي وأملاكه المحدودة. فقبل سيمون المنصب بشرط أن **"يقدم له الصليبيون المساعدة كلما دعاهم"**.

Lippiatt, Jim, Simon V of Montfort and Baronial Government 1195–1218, Oxford University Press, Oxford, 2017, p. 67; Russell, Frederick H. Just War in the Middle Ages, Cambridge University Press, New York, 1975, pp.252-256; Kinsley, Beverley. The Cistercian Monks, Heresy and the Crusades in Occitania, 1145–1229, York Medieval Press, York, 2001, pp. 136–137.

(2)Michael Taulier, The Albigensian Crusade: A Comparative Military Study 1209-1218, MA Thesis, American Public University System, 2010, p. 15; William of Tudela, Op. Cit., pp. 20 – 22; Laurence W. Marvin, Op. Cit., pp. 42- 45.

البابويين [١]، بقي ترينكافيل أسيرًا حتى وفاته بعد بضعة أشهر، وتشير الروايات إلى أن سبب الوفاة كان مرض الزحار (الدوسنتاريا)، وعلى أثر وفاة ترينكافيل وبمباركة بابوية، تم تجريده من جميع أملاكه لتمُنح للقائد الصليبي سيمون دي مونتفورت، مكافأة له على خدماته للكنيسة، ولتثبيت سيطرته على الأراضي التي انتزاعت[٢].

أثار تعيين مونتفورت حفيظة بيدرو الثاني ملك أراغون، بسبب تجاهل سلطته حاكماً أعلى لقرقشونة، كما أن ولاء مونتفورت للملك الفرنسي كان يهدد مصالح مملكة أراغون، وبعد تردد، اضطر بيدرو لقبول سيمون تابعًا له، مدفوعًا بحاجته إلى دعم البابا في حربه المقدسة ضد المسلمين في إسبانيا، وعلى الرغم من ذلك، استمر بيدرو في محاولاته للتوسط وإحلال السلام، لكن مفاوضاته لم تسفر عن نتيجة، لقد كان يسير على حبل مشدود، محاولًا الحفاظ على علاقات جيدة مع الصليبيين وخصومهم في آن واحد، لضمان استقرار حدوده الشمالية بينما كان يستعد لحملته الكبرى في إسبانيا، وكجزء من تلك الاستراتيجية الدبلوماسية، قام بترتيب زيجات سياسية معقدة، إذ زوج ابنه من ابنة سيمون دي مونتفورت، وأخته من ريموند السابع، وريث كونت تولوز، وعلى الرغم من أن الملك فيليب أغسطس بدا وكأنه يتجاهل الصراعات في جنوبي فرنسا، إلا أنه كان منخرطًا فيها بصورة غير مباشرة، لكن الملك كان مشغولًا بمواجهة عدوه الإنكليزي في منطقة الشمال (شارتر)، أو ربما كان يفضّل تجنب استنزاف جيشه في حرب قد لا تكون مثمرة، ومع ذلك كشفت الأحداث في مدينة شارتر عن تورط الملك في تلك الصراعات من زاوية مختلفة[٣].

ففي عام ١٢١٠ وتحديدًا في أحد أيام الآحاد[١] من شهر تشرين الأول، وبدافعٍ من كراهية قديمة، شهدت مدينة شارتر تمردًا عنيفًا، فبعد ساعة الغداء، انتفض حشدٌ غفيرٌ من العامة ضد الأسقف وليم دي موكون William De Mocoun وأهل بيته، وانتهكوا حرمة منزله الكائن داخل رحاب كاتدرائية نوتردام، أدى ذلك الهجوم إلى إصابة أحد خَدم العميد على يد أحد أقنان الكونتيسة كاترين دي كليرمون Catherine de Clermont(١١٧٠- ١٢١٢)، وعندما طالبت هيأة الكهنة ومناصرو الملك من مسؤولي الكونتيسة منهم المارشال والمأمور، اللذين كانا يتوليان قيادة المواطنين، بكبح جماح الحشود الهائجة أو صدهم عنها، لم يكتفوا بالرفض، بل عمدوا إلى تأجيج غضب العامة وتحريضهم، حتى إنهم أرسلوا مناديًا يجوب شوارع المدينة وساحاتها، داعيًا الجميع إلى حمل السلاح واقتحام منزل الأسقف وليم ونهبه[١]، واستجابةً لذلك، اندفع الغوغاء نحو المنزل، فأمطر بعضهم نوافذه بوابل من الحجارة، بينما شرع آخرون في تحطيم الباب ودعائمه بالفؤوس، وإذ رأى القس وليم هيجان

---

[1] Marcus Cooper and illustrations by Peter Dennis, Cathar Castles Forts of the Albigensian Crusade 1209–1300, Osprey Press, New York, 2006, pp. 17 - 20.

[2] Ibid, pp. 17 - 20.

[3] Damian J. Smith, Innocent III and the Crown of Aragon: The Limits of Papal Power, Routledge, London, 2017, pp. 82 & 94-95; Charles River, Op. Cit., p. 43.

الحشود يتفاقم، لاذ بالفرار إلى الكنيسة، أما من بقوا في منزله، فقد أوصدوا الأبواب بإحكام ودافعوا عن أنفسهم ببسالة، حيث ألقى بعضهم الحجارة والأخشاب من النوافذ، وصعد آخرون إلى السطح ليردوا المهاجمين بوابل متواصل من الحجارة، ونتيجة لذلك، سقط العديد من المهاجمين بين جريح وقتيل[٢].

ازداد جنون الحشد، فاستولوا على إحدى عربات الكاتدرائية، ودفعوها بقوة هائلة وسط صيحات صاخبة، واستخدموها كآلة صدم حطّموا بها المدخل، مما فتح الطريق أمامهم لاقتحام المنزل، فنهبوا المخزن بعد أن حطموا أبوابه ونوافذه الحديدية، وسرقوا كل ما طالته أيديهم، وعلى الرغم من محاولاتهم اليائسة، فشلوا في اقتحام القاعة الرئيسة والمصلى وغرفة نوم القس وليم، وقد انفضّ الجمع مع تقدم الليل، لتكتمل بذلك فصول تلك الجريمة التي بدأت في وضح النهار وانتهت تحت جنح الظلام[٣]، فأثارت تلك الحادثة غضب رجال الدين بشدة، ونتيجة لذلك، فُرض حظر كنسي شامل تم بموجبه اتخاذ الإجراءات التالية: توقف كافة الصلوات والطقوس الدينية في نوتردام والكنائس والأديرة المجاورة، والسماح فقط للقساوسة المحليين بإقامة القداس خلف أبواب مغلقة، وبصوت خافت، ومن دون ترانيم، بغية ضمان استمرار تقديم الأسرار المقدسة لمن يحتاجها من التائبين، أما بالنسبة لبقية الطقوس، فقد تم إيقافها، باستثناء تعميد الأطفال الذي كان يُجرى خارج أسوار الكنيسة[٤].

وعلى إثر تلك الأحداث، توجه كبير القساوسة وعموم رجال الدين إلى الملك فيليب أغسطس، حيث قدموا له شكوى مفصلة ضد قادة التمرد، فاستجاب الملك على الفور بعقد مجلس استشاري مغلق لبحث القضية، وبعد مشاورات، ردّ بلطف مؤكدًا ولاءه لعميد الكنيسة والقساوسة، لكنه أوضح رغبته في التحقق من حقيقة ما جرى أولًا، فمن واجبه كقاضٍ أن يُجري تحقيقًا قبل أن يتخذ صفة المنتقم، وبالفعل تم التحقيق، ففي الأسبوع التالي، زار الملك كنيسة شارتر بحجة أداء الحج، وهناك عاين آثار التخريب بنفسه، ومرّ في خشوع وتواضع تحت صندوق الذخائر المقدسة، وقدّم للكنيسة قطعة قماش حريرية فاخرة ومنح مائتي جنيه باريسي لإعادة بنائها، كما عاين منزل القس وليم ليرى بأم عينه أدلة الانتهاك، وحين رأى من على درجات الكنيسة واجهة المنزل وقد حطّم الفأس أجزاءً منها ونقرت الحجارة أجزاءً أخرى، أيقن أن هذا المنزل الذي انتُهكت حرمته قد تعرض للنهب أيضًا، لكنه لم يرغب الملك في إطالة إقامته، وغادر المدينة بعد ساعة واحدة فقط تجنبًا لمواجهة سكانها المتمردين، مع انه أبقى وراءه ثلاثة من فرسانه الموثوقين وذوي الحكمة، مكلفًا إياهم بإجراء تحقيق شامل، واستدعاء شهود من طرفي النزاع، وتدوين شهاداتهم الموقّعة وإرسالها إليه، كما حدد

---

(١) في أوروبا خلال العصر الوسيط (وفي الديانة المسيحية عموماً)، يُعد يوم الأحد "يوم الرب"، وهو يوم مخصص حصرياً للراحة والصلاة والذهاب إلى الكنيسة، ويُفترض أن يكون يوم سلام وطمأنينة. ووقوع تمرد في هذا اليوم يُعد خطيئة كبرى وتدنيساً للمقدسات. يراجع: ويل وايرل ديورانت، المصدر السابق، ص ٤٣- ٤٨.

(2) Reginaldus de Dammartin, Notre-Dame de Chartres, translated by Richard Barton, Center for Medieval Studies at Fordham University, 1998, p. 57.

(3) Ibid, p. 58.

(4) Ibid, p. 58.

الملك يومًا للطرفين في باريس لإصدار حكمه بناءً على تلك الشهادات[١].

بعد عودته إلى قصره في تشرين الأول عام ١٢١٠، أرسل الملك فيليب أغسطس رسالة إلى القس وليم، مؤكداً أنه تحقق شخصياً من حجم الإهانة التي لحقت بالكنيسة ورجالها، ووعده بالتوصل إلى تسوية عادلة[٢]، كما عقد الملك محكمة في باريس بحضور كبار رجال المملكة، وفيها نطق الملك فيليب بنفسه بالحكم علناً، وأمر بما يأتي: إلزام قادة التمرد بدفع غرامة مالية للقس في كاتدرائية شارتر تعويضاً عن انتهاك حرمة الكنيسة، وتقديم ضمانات نقدية أو عينية (من الذهب والفضة) لإصلاح جميع الأضرار وإعادة كافة الممتلكات التي نُهبت من منزل كبير القساوسة، شريطة تقديم أصحابها ما يثبت ملكيتهم لها، وتقديم تعويضات مماثلة لرجال الدين الآخرين الذين تعرضت منازلهم للنهب والتخريب، وقد عين الملك فيليب أحد فرسانه المخلصين للأشراف على تنفيذ قرارات المحكمة لضمان تنفيذ جميع بنود الحكم بدقة، وبعد مشاورة مع الأسقف العائد من الحج، فرض الملك عقوبات إضافية على المذنبين، ليس فقط لانتهاكهم حرمة الكنيسة، بل لازدرائهم بالسلطة الملكية أيضاً، فحكم عليهم بدفع غرامة إضافية قدرها ثلاثة آلاف جنيه باريسي، تم توزيعها على النحو التالي: ١٥٠٠ جنيه للقس، تعويضاً عن الإهانات الشخصية التي طالته (خُصم منها ٦٠ جنيهاً لكبير القساوسة)، ٥٠٠ جنيه للأسقف، ١٠٠٠ جنيه لخزانة المملكة[٣]، ولم تقتصر العقوبة على الغرامات، بل أمر الملك بإجبار المذنبين ومعاونيهم على المشاركة في موكب ديني عام وهم عراة الصدور، حاملين قضباناً في أيديهم، ليتم جلدهم رمزياً أمام المذبح كقربان تكفيري للرب والسيدة العذراء أمام جميع الناس، وتزامنت تلك الأحداث مع تطورات أخرى مهمة، ففي تلك المدة، دفعت الأوضاع المتأزمة في جنوبي فرنسا البابا إينوسنت الثالث إلى طلب المساعدة من الملك فيليب أغسطس، وتحت تأثير البابا وقرارات المجمع الكنسي، سمح الملك لابنه لويس[٤] بالمشاركة في الحملة الصليبية على الهراطقة الألبيجنسيين عام ١٢١٣، مما يوضح انشغال الملك بتأكيد سلطته الدينية والسياسية في آن واحد[٥].

أدرك الملك الفرنسي فيليب أغسطس أن دعوة البابا للتدخل في حرب الهراطقة الألبيجنسية لم تكن مجرد واجب ديني، بل فرصة استراتيجية سانحة لبسط نفوذ التاج الفرنسي على إقليم

---

(1)Reginaldus de Dammartin ,op. cit., pp.59-60.

(2) Léopold Delisle, Catalogue des actes de Philippe Auguste, Auguste Durand, Paris, 1856, p. 516.

(3)Reginaldus de Dammartin ,op. cit., pp.60-61.

(٤) الملك لويس الثامن (١١٨٧-١٢٢٦): الملقب بالأسد، عُد شخصية محورية في التاريخ الفرنسي، فعلى الرغم من أن حكمه كملك لفرنسا لم تتجاوز الثلاث سنوات (١٢٢٣-١٢٢٦)، إلا أن بصماته كانت واضحة وقوية، سواء أميرا أو وليا للعهد أو ملكا متوّجا. وقد امتدت طموحاته إلى ما وراء حدود فرنسا، حيث أعلن نفسه ملكًا على إنكلترا في مدة معينة، مما جعله لاعبًا رئيسًا على الساحة السياسية الأوروبية في أوائل القرن الثالث عشر. يراجع: فهيمة سعودي، السياسة الداخلية والخارجية للملك الفرنسي لويس التاسع ١٢٢٦- ١٢٧٠، أطروحة دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، ٢٠٢٠، ص ٣١- ٣٥؛

Yvan Gobry, Louis VIII, 1223-1226, fils de Philippe II, Pygmalion, Paris, 2009.

(5) Edmond Holmes: the Albigensiam or Catharist Heresy, A story and Astrud, London, 1925, pp. 7-14; Guillaume de Nangis, op. cit., p. 403.

لانغدوك وكونتياته، التي كانت تتمتع باستقلالية كبيرة، ولذلك اتبع فيليب سياسة التريث والانتظار، تاركاً العبء العسكري الأولي للحملة على القوات التي حشدها البابا، وذلك حتى تتضح موازين القوى وتستنزف الأطراف المتحاربة، كان ذلك التباطؤ مقصوداً أيضاً لمواجهة نفوذ الملك بيدرو الثاني ملك أراغون، الذي تدخل في الصراع بدعوى حماية صهره ريمون السادس كونت تولوز، ولكنه كان يطمح في الوقت ذاته إلى تعزيز سيطرته على الأراضي الواقعة شمال جبال البرانس والقريبة من ممتلكاته، وكيفما كان الأمر، فقد شهدت الحملة نقطة تحول حاسمة مع دخول الأمير لويس (ابن فيليب أغسطس) على رأس قوة عسكرية فرنسية، شجع ذلك الدعم القائد الصليبي سيمون دي مونتفورت على تكثيف هجماته على أراضي تولوز، مما دفع الملك بيدرو الثاني ملك أراغون إلى حشد جيش ضخم مع حلفائه من كونتات تولوز وفوا وكومينج Coming، بلغ الصراع ذروته في معركة موريت Muret في ١٢ أيلول عام ١٢١٣، التي انتهت بهزيمة ساحقة لقوات التحالف ومقتل الملك بيدرو الثاني[١]، وكانت تلك المعركة ذات أهمية استراتيجية بالغة، حيث أنها حررت سيمون دي مونتفورت من التهديد الأراغوني المباشر، كما وضعت حداً نهائياً لأطماع ملوك أراغون في التوسع شمال جبال البرانس[٢]، كما أنهت نفوذ مملكة أراغون التاريخي في جنوبي فرنسا[٣].

بعد معركة موريت، شعر سيمون دي مونتفورت بقوته الفعلية على الأرض وسعى للحصول على اعتراف بابوي رسمي بمكاسبه، في تلك الأثناء تجلت بصيرة الملك فيليب أغسطس السياسية، إذ استغل غياب المندوب البابوي الرئيس بطرس دي بنفنتو Peter di Benevento[٤] لعدة أشهر في أراغون، فأرسل فيليب قوة عسكرية لدعم سيمون تحت غطاء ديني، بقيادة شخصيات موالية للتاج الفرنسي مثل روبرت دي كوركون Robert de Corcon، الذي حمل صفة مندوب بابوي لفرنسا، وفي تموز ١٢١٤ قام ممثلو الملك في بتثبيت ملكية مونتفورت وورثته على كافة الأراضي التي تم انتزاعها من الهراطقة ومؤيديهم، وبتلك الخطوة الذكية، ضمن فيليب أغسطس أن تكون تلك الأراضي خاضعة في النهاية لسلطة التاج الفرنسي وليس السلطة المباشرة للبابا، ليمنع أي تدخل بابوي مستقبلي في الشؤون الداخلية للمملكة[٥].

---

[١] للمزيد حول أحداث معركة ميريه يراجع:
Pierre de Vaux-de-Cernai, Op. Cit., pp. 139-176; Guillaume de Nangis, Op. Cit., p. 403; Auguste Molinier, La Bataille de Muret d'aprés les Chroniques Contemporaines, H.G.L. Tome, VII, Toulouse, 1879, pp. 254-59; Charles Oman, History of the Art of War in the Middle Ages, Vol, I, London, 1924, pp. 453-467; Austin p. Evans, Op. Cit., pp. 300-303; Charles Rivere, Op. Cit., p. 43.

[2] Austin P. Evans, Op. Cit., p. 303.

[٣] نادية مرسى السيد صالح، المصدر السابق، ص ٥٨.

[٤] بطرس دي بنفنتو(- ١٢١٩): رجل دين، وفقيه قانوني، ودبلوماسي بابوي إيطالي عاش في أواخر القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر. يُعد من الشخصيات البارزة في حاشية البابا إينوسنت الثالث. يراجع :
Stefan Kuttner, Legal Reference (1140-1234), Vatican City, Rome, 1937, pp. 355-360.

[5] Austin P. Evans, Op. Cit., p. 304.

نم ذلك الموقف عن بعد نظر الملك فيليب أغسطس، اذ سمح للقوى الإقليمية، مثل (أراغون وكونتات الجنوب)، والبابوية باستنزاف بعضها البعض دون أن يتكبد جيشه خسائر تذكر، وعندما آتت الصراعات ثمارها، تدخل ليفرض سيطرته بوصفه ملكاً على فرنسا بأكملها، مع حرصه على عدم إظهار أي عداء للبابا، الذي بادر بدوره على وجه السرعة إلى عقد مصالحة مع ريمون كونت تولوز، وغيره من القادة، وهي التحركات التي تُوجت باجتماع مونبلييه في كانون الثاني ١٢١٥، حيث أقر المجلس، بحضور حشد كنسي كبير، تسليم أراضي تولوز والمناطق المستردة من الهراطقة إلى سيمون دي مونتفورت ليكون حاكمها الأوحد [١]، غير أن ذلك القرار بقي معلقًاً بانتظار مصادقة المجمع العام الذي دعا البابا إلى انعقاده، وقد استقبل مونتفورت ذلك القرار ببالغ التقدير والامتنان، لاسيما مع وصول الأمير لويس نجل الملك فيليب أغسطس، في نيسان من العام نفسه[٢]، ومما زاد من ترقبه، عدم إبداء المندوب البابوي (بطرس) دعمًا قاطعًا لقرار مونبلييه، إذ كان يرى أن القرارات الأخيرة المتعلقة بناربون وتولوز تفتقر إلى الحسم[٣]، ونتيجة لذلك، أولى كل من سيمون والمندوب البابوي أهمية قصوى لوصول الأمير لويس[٤] فسارع سيمون إلى لقائه في فيين Vienna، بينما استقبله بطرس في فالنس Valence، وعند لقائهما بالأمير أدرك كلاهما على الفور عدم وجود أية نية لدى الأمير لتغيير الأوضاع القائمة أو الاتفاقات المعمول بها[٥].

أظهر لويس، نجل الملك فيليب أغسطس، براعة عسكرية فائقة خلال حملته التي استمرت أكثر من أربعين يومًا في إقليم لانغدوك، تمكّن خلالها من بسط سيطرته على المنطقة الممتدة من نهر الرون إلى تولوز، واستولى على كافة الحصون الخاضعة لسلطة نائب البابا، مع ذلك أصدر لويس أوامر بتدمير أسوار مدينتي ناربون وتولوز، ما أثار استياء سكانهما الذين وجدوا أنفسهم بلا حماية عسكرية، فأثارت تلك الحملة الناجحة قلق سيمون دي مونتفورت، الذي رأى فيها تهديدًا لنفوذه، وسعيًا منه لتوطيد سلطته الفعلية على جنوبي فرنسا تحت غطاء الشرعية البابوية، ألحّ على البابا للحصول على دعم رسمي، فاستجاب البابا بإصدار تعليمات قضت بمنح مونتفورت حكم جميع أراضي الكونت ريمون[٦].

اتخذ مونتفورت بناءً على ذلك التفويض خطوات حاسمة لترسيخ مكانته، فطالب بلقب دوق ناربون، وفي شباط عام ١٢١٦، توجه بقواته إلى المدينة، مُبدياً استعداده لاستخدام القوة، فواجهه عند أبواب ناربون، رئيس الأساقفة أرنولد أموري Arnold Amore، إلا أن

---

(1)Pierre de Vaux-de-Cernai, Op. Cit., pp. 238-240; Austin P. Evans, Op. Cit., p. 305.
(2)Pierre de Vaux-de-Cernai, Op. Cit., pp. 238-240.
(3) Ibid, p. 246.
(4) Austin P. Evans, Op. Cit., p. 305.
(5) Gustave Masson, France in the Middle Ages from the Reign of Hugo Capet to the Beginning of the Sixteenth Century, Kissinger Publishing Company, London, 2005, pp. 84-85; Austin P. Evans, op. Cit., p. 305.
(6) Pierre de Vaux-de- Cernai, Op. Cit., II, pp. 260-263; Austin P. Evans, Op. Cit., p. 308.

سيمون أزاحه بازدراء، مما دفع رئيس الأساقفة إلى إعلان حرمانه كنسيًا، فلم يكترث مونتفورت للحرمان، ولجأ مباشرةً إلى الملك فيليب أغسطس الذي منحه اللقب رسميًا بعد شهرين، وهو اللقب الذي احتفظ بهِ حتى وفاته[١] .

يتبين اذن أن منح الملك فيليب أغسطس لقب دوق ناربون لسيمون دي مونتفورت كان خطوة مدروسة لتحقيق عدة أهداف أولها، بسط السلطة الملكية الفرنسية على جنوبي فرنسا، وثانيها، ضمان ولاء مونتفورت، الذي كان يمثل القوة العسكرية للبابوية في الإقليمن وأخيرًا، وبموجب الأعراف الإقطاعية السائدة، فإن منح اللقب لمونتفورت يعني أن جميع ممتلكات كونت تولوز، التي أقر مجمع لاتران منحها له، ستصبح خاضعة بصورة غير مباشرة لسلطة التاج الفرنسي، وبذلك دعم فيليب سلطة سيمون بوصفها وسيلة لتعزيز سلطته هو في نهاية المطاف.

ومهما يكن الغرض من منح فيليب أغسطس لقب دوق ناربون مونتفورت ، فيمكن اعتبار ذلك مساعدة صريحة من الأول لتدعيم سلطة الثاني، مما دفعه لتدمير حصون ومعاقل إقطاعية في الجنوب تحت شعار الخضوع لملك فرنسا بوصفه السيد الإقطاعي، لاسيما أنه أثناء تثبيت قبضة حازمة على أراضيه المكتسبة حديثا، بلغ مسامعه أنباء عن جهود الكونت ريمون السادس وابنه ريمون السابع في استعادة أملاكهما، تلك الجهود التي أسفرت عن استعادة ريمون السادس السيادة على تولوز[٢]، وبذلك أصبحت تلك المدينة مركزا لمقاومة الهراطقة، مما دفع مونتفورت وقواته لمهاجمتها في محاولة فاشلة، ورأى أنه لا سبيل إلا نجدة من الشمال لإنقاذ الموقف فاستنجد بالملك فيليب أغسطس، كما بعث على الفور للبابا هونوريوس الثالث Honorius III [٣] الذي بادر بإرسال عدة خطابات في أواخر كانون الأول عام ١٢١٧، وأوائل كانون الثاني عام ١٢١٨، أمر فيها كلاً من مدينة تولوز والمدن الثائرة، أن تكف عن العصيان بعد أن وجهه خطاب إلى جيمس الأول (١٢٠٨- ١٢٧٦) ملك أراغون يحثه على سحب المساعدة من الثوار، ثم أمر القساوسة في لانغدوك بضرورة تقديم جميع المساعدات الممكنة إلى مونتفورت وقواته، وكذلك قام بحث الملك فيليب أغسطس لتقديم المساعدة للصليبيين في الجنوب، ثم أشعل حماس القساوسة في شمالي فرنسا لبذل

---

(1) Austin P. Evans, Op. Cit., p. 307.

(2) Edmond Holmes, Op. Cit., pp. 53-67; Austin P. Evans, Op. Cit., pp. 310-311.

(٣) هونوريوس الثالث (١١٥٠- ١٢٢٧): وُلد تشينشيو سافيلي في روما حوالي عام ١١٥٠ لعائلة سافيلي الأرستقراطية، بدأ مسيرته الكنسية ككاهن في كنيسة القديسة مريم الكبرى (Basilica di Santa Maria Maggiore). وسرعان ما برزت كفاءته الإدارية، اذ تم تعيينه أمينًا للخزانة البابوية (Camerlengo) في عام ١١٨٨، وهو منصب رفيع أظهر فيه قدرة فائقة على التنظيم المالي، تدرج سافيلي في المناصب الكنسية، حيث عُيّن كاردينالًا شماسًا لسانتا لوتشيا في سيليس عام ١١٩٣، وفي عهد البابا إينوسنت الثالث، نال رتبة كاردينال كاهن لسانتي جيوفاني إي باولو عام ١٢٠٠، بعد وفاة البابا إينوسنت الثالث، انتُخب تشينشيو سافيلي للكرسي البابوي في ١٨ تموز ١٢١٦، وتم ترسيمه رسميًا في روما في ٢٤ تموز من العام نفسه، متخذًا اسم هونوريوس الثالث، استمرت حبريته حتى وفاته في ١٨ آذار ١٢٢٧في روما. يراجع:

Michael Ott, Honorius III, papae, the Catholic Encyclopedia, Tome, VII, London, 1910, pp. 457-459.

الجهد في تجنيد قوات للصليبيين[١]، أتت تلك المساعي البابوية أُكُلَها، حيث انضمت قوات من أمراء الجنوب إلى مونتفورت[٢]، فتقدم مونتفورت بقواته المعززة لشن هجوم ثانٍ على تولوز، ودارت معركة في ٢٥ حزيران ١٢١٨، انتهت بكارثة على القوات الصليبية، فقد قُتل سيمون دي مونتفورت نفسه، وجُرح أخوه غاي دي مونتفورت Guy de Montfort ، كونت بيغور Bigorre وابنه أموري دي مونتفورت Amaury de Montfort [٣]، وأُسر عدد كبير من جنودهم[٤].

يتبين مما سبق أن الملك فيليب أغسطس لم يستجب لحث البابا هونوريوس الثالث على نجدة الصليبيين في الجنوب، ويمكن تفسير ذلك التقاعس بأسباب عدة، فعلى الرغم من اعتراف سيمون بالتبعية الإقطاعية للملك، إلا أن فيليب كان مستاءً من سلوك دي مونتفورت الذي اتسم بالغطرسة والعنف تجاه إقطاعيي الجنوب، لاسيما عندما بدأ جمع الضرائب منهم دون الرجوع إلى الملك، لكن منعه بُعد نظره وحكمته السياسية من إعلان ذلك الاستياء، حتى لا يُفسَّر موقفه أنه تخلٍ عن الحملة الصليبية، مما قد يفتح الباب لصراع جديد مع السلطة البابوية، كان تباطؤ فيليب في إرسال النجدة بمثابة رفض ضمني لسلطة مونتفورت المتنامية، واستراتيجية تهدف إلى ترك قوات مونتفورت وقوات ريمون تستنزفان بعضهما البعض، كان الملك يخطط للتدخل في مرحلة لاحقة، بعد انهيار قوة الطرفين، مما يسهل عليه بسط نفوذه الملكي المطلق على المنطقة، وهو ما أثبتته الأحداث اللاحقة.

انتقلت القيادة بعد مقتل سيمون دي مونتفورت، قائد الحملة الصليبية على الألبيجنسيين، إلى ابنه أموري دي مونتفورت، الذي كافح دون جدوى للحفاظ على مكاسب والده في مواجهة المقاومة المتصاعدة في إقليم لانغدوك، وأمام ذلك العجز، حثّ البابا هونوريوس الثالث الملك الفرنسي فيليب أغسطس على التدخل لدعم المجهود الصليبي المتعثر في جنوب فرنسا[٥]، واستجابةً للضغوط البابوية، أذِن فيليب أغسطس بتجهيز حملة جديدة بقيادة ابنه لويس الثامن، فسلك في حملته الثانية على الجنوب، مساراً غربياً متأنياً عبر فيه نهر الجارون

---

(1) Achille Locher, Histoire de France, pp.166-167.

(2)Austin P. Evans, Op. Cit., p. 313.

(٣)سيمون دى مونتفورت (١٢٠٨- ١٢٦٥): عد سيمون دي مونتفورت، إيرل ليستر السادس وتشستر الأول، شخصية محورية في تاريخ إنكلترا الدستوري، وُلِد هذا النبيل الفرنسي-الإنكليزي عام ١٢٠٨، وبرز قائدا لتمرد البارونات ضد الملك هنري الثالث، فيما عُرف بـ"حرب البارونات الثانية"، بلغ دي مونتفورت أوج نفوذه حين أصبح الحاكم الفعلي لمملكة إنكلترا، وفي مدة حكمه القصيرة، أقدم على خطوة تاريخية غيّرت وجه السياسة الأوروبية، حين دعا إلى عقد أول برلمان منتخب بصورة مباشرة في تاريخ أوروبا خلال العصر الوسيط عام ١٢٦٥، الذي عُرف بـ "برلمان سيمون دي مونتفورت". هذا الإنجاز الاستثنائي رسّخ مكانته كأحد أبرز رواد الديمقراطية البرلمانية الحديثة، انتهت مسيرة دي مونتفورت الحافلة بعد عام واحد من الحكم، حيث لقي مصرعه في معركة إفشام عام ١٢٦٥ في مواجهة القوات الموالية للملك، لكن إرثه السياسي ظل حيًا وملهمًا لأجيال متعاقبة. يراجع: نجلاء حسين محمد توفيق، الحضانة الملكية في عهد هنري الثالث الإنكليزي (١٢٢٦ – ١٢٧٢) مجلة كلية الآداب، جامعة أسيوط، العدد٣٠، ٢٠٢٤، ص ٣٦١ – ٣٦٢؛

Maddicott, John Robert; Simon de Montfort, Cambridge University Press, Cambridge, 1994, p. 4.

(4)Pierre de Vaux-de- Cernai, Op. Cit., II, pp. 260-263.

(5) Achille Locher, Histoire de France,p.167.

وصولاً إلى تولوز التي فرض عليها حصاراً، إلا أن قواته لم تكن مجهزة لحصار طويل، مما اضطره إلى الانسحاب شمالاً، وأعطى ذلك التراجع زخماً جديداً لريمون السادس، كونت تولوز، وابنه ريمون السابع، اللذين حوّلا مقاومتهما إلى هجوم مضاد منظم، ونتيجة لذلك نجح ريمون السابع في استعادة مدينة قرقشونة عام ١٢٢٠، تبعهاً الاستيلاء على مونتريال Montreal ١٢٢١، وبهذا شكلت وفاة سيمون دي مونتفورت كانت نقطة تحول أدت إلى إضعاف القوة الصليبية في لانغدوك وبداية نهاية المرحلة الفعلية للحرب الألبيجنسية[١]،وأسدلت الستار على المرحلة الفعلية للحرب الألبيجنسية، وعلى الرغم من أنه ليس من أهداف هذا البحث تتبع مجريات حرب الهراطقة تفصيلياً، فإن النتيجة الأبرز لتلك الحرب تمثلت في كونها مكسباً استراتيجياً لفيليب أغسطس، إذ أتاحت له بسط سيادته على لانغدوك، لتصبح من أقوى المقاطعات التابعة للتاج الفرنسي [٢].

ومما سبق فأن موقف الملك فيليب أغسطس من الحركة الألبيجنسية اتسم في بدايتها بالسلبية الحذرة، فقد كانت أولوياته منصبّة على صراعاته العسكرية مع ملك إنكلترا، ومع ذلك، فإن الضغط المستمر من البابوية دفعه إلى مشاركة محسوبة في الحرب، بالقدر الذي يضمن له بسط سلطته الاسمية على جنوبي فرنسا، الذي كان، على الرغم من كونه ضمن حدود المملكة، خارج نفوذه الفعلي، حيث لم تجنِ الملكية الفرنسية الثمار الحقيقية للحملة الألبيجنسية إلا في عهد خلفاء فيليب أغسطس، حيث تم دمج إقليم لانغدوك سياسياً وإدارياً مع التاج الفرنسي، ولا يمكن إلقاء اللوم على فيليب أغسطس لتردده في بعض الأحيان، فقد عكست سياسته رؤية دبلوماسية ثاقبة، لقد تدخل عسكرياً عندما كان ذلك ضرورياً للحفاظ على هيبته وتوطيد أركان حكمه في تلك الأقاليم الجنوبية البعيدة، وتجنب التورط الكامل الذي قد يستنزف قواته، لقد وازن فيليب أغسطس ببراعة بين ضغوط البابوية ومتطلبات الحرب من جهة، وأهدافه السياسية طويلة الأمد من جهة أخرى، مستخدماً شعار الحرب الدينية أداة لتحقيق السيادة، والدبلوماسية وسيلة لتعزيز المكاسب، أظهر الملك في موقفه من تلك الحرب في نهاية المطاف، جدارة سياسية عالية، إذ ضمن من خلال مشاركته المحدودة تحقيق مكاسب استراتيجية كبرى – وهي إخضاع لانغدوك – فاقت بكثير حجم الجهود العسكرية المباشرة التي بذلها.

---

[١] انتهت الحرب الألبيجنسية بشكلها الرسمي بتوقيع معاهدة باريس (المعروفة أيضاً بصلح مو) عام ١٢٢٩ بين الملك لويس التاسع وريمون السابع، وبموجب تلك المعاهدة، خضعت أراضي لانغدوك الواسعة للنفوذ المباشر للتاج الفرنسي، وهو ما شكّل مكسباً استراتيجياً بالغ الأهمية للملكية الفرنسية.

Austin P. Evans: op. cit., p.316-24.

[2] Clifford R. Bachman, "The Crusades" and "The Albigensian Crusade," Medieval France: An Encyclopedia, ed. William W. Kibler and Grover A. Zinn, New York,2010 p. 22.

٣. وفاة الملك فيليب أغسطس ١٢٢٣:

بدأت صحة الملك فيليب أغسطس بالتدهور منذ صيف عام ١٢٢٢، إذ أصابته حمى خفيّة راحت تنهش قوته يومًا بعد يوم، وعلى الرغم من الجهود الحثيثة التي بذلها طبيباه الملازمان له، جيلون Gillon والراهب ريغورد Regord، مستخدمين كل ما لديهما من علم، لم يتمكنا من درء الخطر المحدق[١]، وعندما أدرك الملك خطورة حالته، خاصة مع نوبات القشعريرة المميتة التي كانت تعاوده بين الفينة والأخرى، أمر بنقله إلى قلعة سان جيرمان أون لاي، عازمًا على تدوين وصيته الأخيرة[٢].

تُعد تلك الوثيقة التاريخية الفريدة شاهدًا على حكمة هذا العاهل في إدارة شؤون مملكته، ودليلاً على النمو الذي شهدته الثروة العامة في عهده، وقد أوصى فيها بما يأتي: لمنفذي وصيته، وهم كل من غيران Gheran (أسقف سينليس)، وبارثولوميو من روا Bartholomew of Roa (حامي فرنسا)، والأخ إيمار Emar (أمين صندوق فرسان المعبد)، وترك لهم مبلغ خمسين ألف ليرة باريسية (ما يعادل ١,٣٥٠,٠٠٠ فرنك)، بهدف إصلاح أية مظالم قد تكون وقعت بتقديرهم، وقد خصص لعائلته وخدمه، عشرة آلاف ليرة لزوجته إنجبورج Ingeborg of Denmark (١١٧٤- ١٢٣٦)، وألفي ليرة لخدمه، كما أوصى لوريثه لويس مائة ألف ليرة، لاستخدامها إما في الدفاع عن مملكة فرنسا أو في الحج[٣]، كما خصص مبلغا ضخما قدره ١٥٧,٥٠٠ مارك فضي (ما يعادل ٨,٥٠٥,٠٠٠ فرنك) لجان دي بريين Jean de Brienne (١١٧٠- ١٢٣٧) ملك القدس، ولفرسان الهيكل والمستشفى، لتمويل ثلاثمائة فارس إضافي لخدمة الأرض المقدسة لمدة ثلاث سنوات، كذلك أوصى لأموري دي مونتفورت عشرون ألف ليرة باريسية، لدفع فدية زوجته وأبنائه، ودعمه في حملته ضد الهرطقة الألبيجنسية[٤].

أما مايخص للأعمال الخيرية، فقد خصص لها واحد وعشرون ألف ليرة لفقراء باريس وأراملها وأيتامها ومصابي الجذام بها، وخمسون ألف ليرة لإصلاح الكنائس المحتاجة في

---

(١) عانى الملك فيليب أغسطس من نوبات متكررة لما يُعرف بـ "الحمى الرُبْعِيّة"، وهي حالة مرضية كانت تتسبب له في قشعريرة شديدة تكاد تكون مميتة، وتتركه في حالة من الشلل الجزئي، وقد وثّق تلك الحالة الراهب والمؤرخ ريجورد، الذي كان أيضًا طبيبًا، وعدّ هو وغيره من الأطباء الملازمين للملك أن مرضه بلغ درجة عالية من الخطورة، وفي مواجهة ذلك التحدي الصحي الكبير؛ عكف أطباء الملك فيليب أغسطس ليل نهار على دراسة ومراجعة كتاب **"القانون في الطب"** للعالم الموسوعي ابن سينا، إذ شكّل ذلك المصنف الطبي المرجعي، الذي كان له أثر عميق في أوروبا خلال العصر الوسيط، الأساس الذي استند إليه الأطباء في محاولاتهم لتشخيص وفهم طبيعة المرض الذي ألمّ بالملك وتقديم العلاج المناسب له، وتُظهر تلك الواقعة التاريخية الأهمية الكبيرة التي حظيت بها أعمال ابن سينا الطبية في الأوساط العلمية الأوروبية في ذلك الوقت، حين كانت بمثابة الدليل والمرجع الأساس للأطباء في تعاملهم مع الحالات المرضية المعقدة، حتى على أعلى المستويات كعلاج الملوك، ولم يقتصر العلاج على الجانب المادي فقط، بل كان مصحوبًا بالصلوات وإقامة شعائر طرد الأرواح الشريرة، مما يعكس تمازج الطب والإيمان في تلك المدة من التاريخ. يراجع:

M. Cabejoub, Histoire de Philippe Auguste 1206-1223, vol. II, 3ed, Charpentier, Libraire et Éditeur, Paris, 1842, p. 328.

(2) Toddy Louis Vaussion, Op. Cit., p. 364.

(3) M. Cabejoub, Op. Cit., p. 328.

(4) Toddy Louis Vaussion, Op. Cit., P. 365.

فرنسا، وخصص أيضا لدير سان دوني جميع تيجانه الذهبية المرصعة بالجواهر، وصلبانه الذهبية، وأحجاره الكريمة، وحليّه النفيسة، على ان تؤول إلى الدير حيث سيدفن، على أن يقيم عشرون راهبًا قداسًا أبديًا يوميًا لراحة روحه، أما فقراء العاصمة باريس فقد خصص عشرون فلسًا (ما يعادل ٢٧ فرنكًا) يوميًا لدير القربان المقدس في باريس، تُجمع من رعايا المدينة وتُخصص لخدمة الفقراء، وبعد أن أتمّ تلك الترتيبات، استسلم لانتظار الموت الذي شعر بهِ يدنو منه مع كل ضعف يصيب جسده[١].

لكن أجل الملك لم يحن بعد، فقد قاوم المرض الذي كان يفتك بهِ لأكثر من عشرة أشهر تالية، وعُقد خلالها مجلس كنسي كبير في باريس برئاسة الكاردينال كونراد، لمناقشة شؤون الدين والسياسة وقضايا فلسطين والحملة الصليبية على الألبيجنسية، وعلى الرغم من أن المرض قد بلغ منه مبلغًا أقعده عن الحركة، فإن شغف الملك لحضور ذلك الجمع المهيب دفعه إلى أن يُحمل على على سريره في رحلته الأخيرة إلى العاصمة[٢]،غير أن تدهور صحته جراء القيظ الشديد حال دون بلوغه برج اللوفر الذي طالما تفاخر بهِ، مما اضطره لقطع رحلته والمكوث في مدينة مانت، وهناك لم تفلح دعوات الأهالي الخالصة، ولا مساعي الأطباء الحثيثة، ولا الرعاية التي أحاطته بها زوجته إنجبورج -بعد سنوات من الجفاء- إلى جانب بلانش القشتالية وأفراد عائلته، في رد قدره المحتوم، وقبيل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، حرص الملك على استدعاء ولي عهده لويس، مودعاً إياه وصية ملكية جامعة تضمنت أربعة أركان راسخة للحكم الرشيد، تجلت في جعل تقوى الله عماداً لملكه، والذود عن حياض الكنيسة وإعلاء شأنها، وبسط ميزان العدل بين كافة أطياف الرعية، والوقوف درعاً حصيناً للضعفاء والفقراء في وجه استبداد الأقوياء، وبعد أن أدى رسالته، أسلم فيليب أغسطس الروح في شهر تموز من عام ١٢٢٣، ليطوي صفحة حياة استمرت ثمانية وخمسين عاماً، قضى منها ثلاثة وأربعين عاماً متربعاً على عرش المملكة [٣].

فنُقل الجثمان إلى باريس في موكب مهيب، خيّم عليه حزن البلاط وعامة الشعب، بعد تحنيطه ووضعه في نعش فاخر، وتناوب رعيته على حمله على أكتافهم تكريمًا لمليكهم الذي لم يُقهر، حيث تقدم الموكب ببطئ وسط حشود غفيرة، وبعد مغادرة بوابة باريس وعلى مسافة تُقدر بثلاث رميات من قوس النشاب، وُضع النعش على الأرض، حيث تقرر أن يُنصب هناك صليب يحمل اسمه، وأن تُشيّد كنيسة تخليدًا لذكرى المنتصر في معركة بوفين[٤].

كان في مقدمة الموكب الأمير لويس، وقد ارتسم على وجهه حزن عميق ، وبجانبه أبناؤه الذين بلغوا سن المشي، وسار بقربه جان دي بريين ، ملك القدس الاسمي، وكونت بولوني الأمير فيليب هوربيل(١٢٠٠- ١٢٣٥)، تبعهما حشد من البارونات اللامعين، واثنان من

(1) M. Cabejoub, Op. Cit., pp. 328-329.
(2) Toddy Louis Vaussion, op. cit., P.66.
(3) Achille Locher, Histoire de France, P.168.
(4) Toddy Louis Vaussion, Op. Cit., P. 366.

كبار الأساقفة، وواحد وعشرون أسقفًا آخرا[١]، وقد ردد الحاضرون من رجال الدين الترانيم بصوت واحد، مما أضفى على المراسم جوًا من الرهبة والوقار، وفي مشهد جنائزي عظيم، أقام المندوب كونراد ووليم من ريمس القداس على مذبحين مختلفين في آن واحد، ورددت أصوات الأساقفة والرهبان الذين لا يحصى عددهم التراتيل في جوقة واحدة، بعدها، وُري جثمان فيليب الثرى في أقبية سان دوني، ليرقد بجوار الملك داجوبيرت العظيم Dagobert the Great (٦٠٠ – ٦٣٩)[٢]، وبانقضاء عهد فيليب أغسطس، تكون فرنسا قد ودّعت الحاكم الذي انتشلها من وهدة الضعف الإقطاعي، حيث ترك بصماته الخالدة في كل شبر من أراضي المملكة التي وسّعها، وفي كل جانب من جوانب الإدارة التي أصلحها، وفي العاصمة باريس التي حصّنها، لتنتهي بذلك حقبة أغسطس وتبدأ فرنسا عهداً جديداً وهي تقف على قاعدة صلبة من القوة والاستقرار[٣].

---

[1] Jean Nicolas Auguste, Histoire de France, Philippe Auguste, roi de France, Lefort, imprimeur-libraire, Lille, 1845, p. 284; Guillaume de Nangis, Op. Cit., p. 416.

[٢] في شهادةٍ لافِتة، زعمَ أحدُ رعايا سيجني المقيمين في البلاط البابوي أنه عاينَ في رؤيا سماويّة مشهدًا مهيبًا لصعود الملك فيليب أغسطس إلى مَرَاقِي السماء، وبحسبِ ما وردَ على لسانِهِ، فقد تجلّى له الملك الراحل محفوفًا بالقديس دوني، تحيطُ بهما كوكبةٌ من الملائكة المتشحين بالبياض، في موكبٍ سماويٍّ بهيّ. وأردف الشاهد أنه بعد تلك الرؤيا بمدةٍ وجيزة، بلغته الأنباء المؤكدة لوفاة الملك فيليب، مما أضفى على رؤياه بُعدًا من الغرابة والقدسيّة، وتُعد هذه الرواية، التي تجمع بين الإيمان الشخصي والحدث السياسي الجلل، نموذجًا للروايات التي كانت تتناقل في الأوساط الدينية والسياسية في العصر الوسيط، حيث كان للرؤى والأحلام مكانة خاصة في تفسير الأحداث وتخليد ذكرى العظماء.

Raymond Fourville, « L'image de Philippe Auguste dans les sources contemporaines », dans La France sous Philippe Auguste : une période de transformations (Actes du colloque), édité par Robert-Henri Potier, Paris : National Center Publications, 1982, p.127; Toddy Louis Vaussion, Op. Cit., P. 367.

[٣] يراجع: ملحق رقم ٨ .

ثالثاً. المنجزات السياسية والحضارية في عهد الملك فيليب أغسطس:

ارتقى الملك فيليب أوغسطس بحقبته إلى ذروة المجد التاريخي، مؤسساً لمرحلة مفصلية في تاريخ الملكية الفرنسية، فمن خلال مزيج استراتيجي متقن جمع بين الحنكة السياسية والدبلوماسية من جهة، والحزم العسكري والقوة المسلحة من جهة أخرى، نجح في انتشال الملكية من ضعفها السابق ليجعل منها السيادة المطلقة والسلطة المركزية المهيمنة على كامل التراب الفرنسي، ولم يتوقف طموحه عند حدود الداخل، بل دفع بفرنسا لتتبوأ مكانة الصدارة في المشهد الأوروبي، محولاً إياها إلى القوة العظمى التي يحسب لها ألف حساب في القارة، وإذا كنا قد شهدنا براعة ذلك العاهل كفاتح عظيم أعاد رسم الخرائط وتوسيع الرقعة الجغرافية للمملكة، فإن السياق التاريخي يقتضي الآن الانتقال إلى جانب آخر لا يقل أهمية عن الانتصارات الميدانية، وهو الغوص في عمق عبقريته الإدارية، وتحليل شخصيته كرجل دولة ورجل حكم من الطراز الأول، واستعراض كيف تمكن من ترجمة تلك الانتصارات العسكرية إلى منظومة إدارية راسخة، ومؤسسات حكم مستقرة تضمن استمرار قوة الدولة وهيبتها.

١. توسيع النطاق الملكي:

كان التوسع الهائل للملكية في عهد الملك فيليب أغسطس السمة الأبرز التي أذهلت معاصريه، إذ أجمع المؤرخون على حقيقة **"توسيع فيليب لحدود المملكة"**، وقد أطلق عليه الراهب ريغورد من سان دوني لقب **"أغسطس"**، مبررًا ذلك بأن القدماء منحوا ذلك اللقب للأباطرة الذين وسّعوا أراضي الدولة، فضلا عن أن مولد فيليب كان في شهر أغسطس[١]. ولم يكتفِ وليم البريتوني بوصف مليكه بـالعظيم أو ابن شارلمان، بل قارنه في قصيدته الفيليبيد[٢] Philippid بالإسكندر الأكبر ويوليوس قيصر، عادًا إياه متفوقًا عليهما، "فالمقدوني" برأيه لم ينتصر سوى اثني عشر عاماً، ويوليوس قيصر ثمانية عشر عامًا، بينما قضى فيليب اثنين وثلاثين عامًا في دحر أعدائه دون توقف، كما أشار إليه شاعر فرنسي في القرن الرابع عشر، في قصيدة مجّدت أعماله، بلقب فيليب الفاتح [٣].

تتجلى عظمة ذلك التحول بمقارنة بسيطة بين فرنسا في عهد لويس السابع، التي كانت مجرد منطقة صغيرة في شمال وسط فرنسا، معزولة عن البحر ومحاطة بإقطاعيات قوية،

---

(1) Rigord, Op. Cit., p. 3.

(٢) الفيليبيد: قصيدة ملحمية لاتينية مهمة مكونة من اثني عشر كتابًا بقلم وليم البريتوني (حوالي ١١٦٥-١٢٢٥)، كتبت للاحتفال بحكم وأعمال الملك الفرنسي فيليب أغسطس، كُتبت باللغة اللاتينية الكلاسيكية، وهو يفصّل الحملات العسكرية والصراعات مع البارونات، والأيديولوجية الملكية، ويمثل مصدرًا أساسيًا (رغم كونه مديحًا) للتاريخ الفرنسي في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، استنادًا إلى السجلات النثرية التي كتبها وليم أيضًا. يراجع.
Gregory P. Stringer, The First Book of "Philippedes" by William of Breton, PhD thesis, University of New Hampshire, Durham, 2010.

(3) François Delaborde, Works of Rigord and Guillaume Le Breton, Historians of Philippe Auguste, Renoir, Paris, 1882, pp. 63 and 118.

وفرنسا في عهد فيليب أغسطس، فقد أضاف إلى التراث الملكي الأصلي مجموعة واسعة من الأراضي والمقاطعات شملت: أرتوا، وأمينوا، وفالوا، وفيرماندوا، وأجزاء كبيرة من بوفيه، ونورماندي، وماين، وأنجو، وتورين، وأجزاء واسعة من بواتو وسانتونج، ونتيجة ذلك، ارتفع عدد الوكلاء الإداريين التابعين للملك مباشرة من ثمانية وثلاثين إلى أربعة وتسعين[١].

فلم يعد الملك في باريس مجرد سيد إقطاعي، بل أصبح القوة المهيمنة في شمالي فرنسا وسيدًا لمناطق شاسعة في أكيتاين، فبسط سيطرته على موانئ استراتيجية مثل دييب وروان، فضلا عن موانئ في بريتاني وسانتونج، مما حوّل الملكية الفرنسية إلى قوة تجارية وبحرية فاعلة، إذ إن تاريخ الدول نادرًا ما يشهد تحولًا بذلك الحجم وبتلك السرعة في موازين القوى[٢]، وإلى جانب الفتوحات العسكرية، اعتمد فيليب أغسطس على أدوات أكثر دهاءً لتعزيز سلطته وتوسيع نفوذه في الأراضي التي لم تكن خاضعة له مباشرة، فقد استخدم الحماية الملكية أداة لاختراق الإقطاعيات المعادية، فمن خلال منح الحماية لمدينة معينة أو دير أو تجمّع تجاري، كان التاج يكتسب موطئ قدم في مناطق معزولة، تحولت مع الوقت إلى مراكز ولاء تمهيدًا لضمها الفعلي، وقد لجأت العديد من الكيانات، لاسيما ممتلكات رجال الدين، إلى تلك الحماية هربًا من طغيان النبلاء المجاورين، مما خدم هدف الملك في بسط نفوذه[٣].

وشهد عهد فيليب تعاظمًا في استخدام عقود الباناج Panaj، وهي اتفاقيات شراكة في الحكم بين الملك وأحد اللوردات المحليين، بموجب تلك العقود، تقاسم الطرفان السلطة والعائدات في منطقة معينة، وعلى الرغم من أن الاتفاق كان يبدو متوازنًا، إلا أنه كان في الواقع وسيلة فاعلة لهيمنة الشريك الأقوى، فبمجرد دخول وكلاء الملك إلى المنطقة، لم يكن من الصعب على التاج أن يمد نفوذه تدريجيًا إلى كامل الإقطاعية، تمهيدًا لضمها النهائي[٤].

٢. سياسة الملك فيلب اغسطس تجاه الكنيسة ورجال الدين:

اتسمت علاقة الملك فيليب أغسطس بالمؤسسة الدينية بازدواجية لافتة، اذ نسج ببراعة روابط بين إيمانه المسيحي العميق وطموحه السياسي لترسيخ مِلكية مركزية قوية، فمن ناحية، قدّم نفسه كملك ورع وحامٍ للكنيسة، مدركًا أن صلوات رجال الدين تمثل دعامة روحية لملكه، ومن ناحية أخرى، كانت تقواه أداة مدروسة في خدمة الدولة، فلم تمنعه من إدارة ممتلكات التاج بحصافة وتجنب تبذير الموارد على الكنيسة، كان منهجه الأساس هو تثبيت التبرعات التي أقرها أسلافه، مما عكس حرصه على استمرارية التقاليد الملكية[٥].

إلا أن ذلك المنهج تحول إلى سخاء استراتيجي في الأقاليم التي خضعت حديثًا لسلطته أو كانت محل نزاع، مثل نورماندي واكيتاين ولانغدوك، وفي تلك المناطق كان منح الامتيازات

---

(1) Achille Locher, Op. Cit., p. 122.
(2)William holden hutton, William Holden Hatton, Philip Augustus, Macmillan & Co. Ltd., New York, 1896, p. 130.
(3) Georges Bourdonneuf, Op. Cit, P.196.
(4) Achille Locher, Op. Cit., p. 123.
(5) William holden hutton, Op. Cit., p.112.

والهبات للكنائس وسيلة فاعلة لضمان ولاء رجال الدين المحليين وتوطيد دعائم السلطة الملكية في أراضٍ كانت خاضعة لنفوذ إقطاعي منافس، فلم يكن فيليب بتلك السياسة يشتري الولاءات فحسب، بل كان يحيي التقليد الكارولنجي الذي يعدّ الملك الفرنسي الراعي الأعلى لجميع رجال الدين في المملكة، متجاوزًا بذلك الحواجز الإقطاعية[١].

وتُعد مبادراته الرمزية دليلاً قاطعًا على ذلك النهج، فعندما منح أسقف لوديف Lodève، في أقصى جنوبي المملكة، شرف رفع راية ال كابيه، كان ذلك إعلانًا واضحًا عن خضوع المنطقة للسيادة الملكية المباشرة، وكان تأكيده بالمثل، على الهبات التي قدمها الإمبراطور لويس الورع Louis the Pious (٧٧٨- ٨٤٠) لرهبان سارلا Sarla استحضارًا للتاريخ الإمبراطوري العريق وربطًا لشرعيته بالإرث الكارولنجي، ليثبت بذلك سمو سلطته على كافة القوى الإقطاعية[٢].

لم تكن سياسة فيليب في حماية الكنيسة مجرد واجب ديني، بل كانت في كثير من الأحيان أداة سياسية لتعزيز نفوذه، فقد اتخذ دور المدافع عن المؤسسات الدينية ضد تعديات اللوردات الإقطاعيين في مناسبات عدة، وقاد حملة تأديبية في بيري في عام ١١٨٠، كما تدخل في بورغوندي لكبح جماح النبلاء الذين اضطهدوا الكنيسة، وبلغ الأمر ذروته في حملته العسكرية عام ١١٨٦ التي أجبرت دوق بورغوندي المهزوم على إصلاح مظالمه، وتحركت قواته لإنقاذ أسقف كليرمون في عام ١٢١٠، ولم يكن ذلك التدخل لحماية الكنيسة فحسب، بل كان فرصة لإضعاف أحد كبار الإقطاعيين المناوئين له[٣]، ومع ذلك لم تكن حمايته مطلقة، بل كانت مشروطة بمصالحه السياسية، فعندما امتنعت كنائس منطقة ريمس عن تقديم الدعم المالي الذي طلبه عام ١٢٠١، قابل طلبهم للمساعدة العسكرية بالرفض قائلاً: **"لقد أعنتموني بصلواتكم فقط، وسأعينكم بمثلها"**، ولم يتدخل إلا بعد أن اشتد عليهم الاضطهاد وأقروا بخطئهم، فكان مجرد حشد قواته كافيًا لردع المعتدين، وعندما كان ينشأ خلاف بين الشعب ورجال الدين، وهما القوتان اللتان اعتمد عليهما، كان خياره يميل في العادة إلى دعم مصالح الكنيسة، مدركًا أهميتها كحليف استراتيجي[١].

وقد حظيت الكنيسة بحماية ملكية راسخة في مواجهة السلطة المتنامية للبلديات (الكومونات)، تجلى بوضوح في حادثة مدينة نويون Noyon عام ١٢٢٢، حين أدى اعتقال أحد خدم الكاتدرائية من قبل المتمردين اللذين هتفوا "كومونة! كومونة!" -دعوة للثورة والحكم الذاتي- واقتحم الكاتدرائية واعتدى على رجال الدين، وقد استدعى ذلك التمرد تدخل الملك شخصيًا، كان الحكم الملكي حاسمًا، فقد أُجبرت البلدية على تحمل كامل المسؤولية ودفع غرامة مالية، وتقديم تعويض رمزي، والأهم من ذلك، تم حظر هتاف "كومونة!" بوصفه شعارًا مثيرًا للفتنة، ولم تكن تلك الحادثة يتيمة، بل كانت حلقة في سلسلة نزاعات حسمها فيليب دائمًا لصالح الكنيسة، مقررًا أن جميع الخلافات المستقبلية يجب أن تُنظر أمام

---

(1) Achille Locher, Op. Cit., p. 127.
(2) William holden hutton, Op. Cit., p.113.
(3) Achille Locher, Op. Cit., p. 127.

محكمة الأسقفية[٢].

فكانت تلك سياسة ممنهجة طُبقت في مدن أخرى مثل سانس وبوفيه وسواسون، حيث أُجبرت البلديات على الخضوع للسلطة الكنسية، مما رسّخ دور فيليب كحامٍ للنظام التقليدي في وجه الطموحات السياسية للبورجوازية الناشئة[٣]، وعلى الرغم من أن السرديات التاريخية، مثل كتابات جان دي جوينفيل Jean de Joinville، ترسم صورة مثالية لفيليب كملك ورع يفضل التنازل عن حقوقه على الدخول في نزاع مع الكنيسة، إلا أن الواقع التاريخي يكشف سياسة مختلفة تمامًا وهي سياسة صراع مدروس وتأكيد للهيمنة[٤].

لقد استخدم فيليب كافة صلاحياته كملك إقطاعي لضمان أن تكون السلطة الدينية خادمة لأهداف الدولة، وقد تجلى ذلك عبر عدة إجراءات حاسمة، منها كسر فيليب حصانة رجال الدين القضائية، وأصر على أن المحكمة الملكية هي صاحبة الاختصاص في محاكمتهم في القضايا الزمنية، ولم يتردد في الاستيلاء على عائدات الأبرشيات الشاغرة وممتلكاتها بوصفها وسيلة للضغط والعقاب، مفعّلاً بصرامة الحق الملكي، واتخذ خطوات تشريعية للحد من نفوذ المحاكم الكنسية، لاسيما في النزاعات المتعلقة بالأراضي والعقود الإقطاعية، وكذلك فرض الضرائب، في تحدٍ للتقاليد، وإتاوات استثنائية على الكنائس والأديرة لتمويل حروبه، مثل عُشر صلاح الدين[٥]، وألزم رجال الدين بتقديم دعم مادي كبير، ومن خلال تلك السياسات، أرسى فيليب أغسطس مبدأً لا يقبل الجدال هو ان الملك يمثل السيد المطلق داخل مملكته، لذا لم تعد الكنيسة في فرنسا كيانًا مستقلاً، بل أصبحت خاضعة إداريًا وقضائيًا وماليًا لسلطان العرش[٦].

وقد شهد عهد فيليب أغسطس صراعًا منهجيًا لإخضاع القضاء الكنسي لسلطة الدولة، وتجلى ذلك في مواجهات مباشرة بين الملك وكبار الأساقفة الذين تحدوا اختصاص المحاكم الملكية، مثلما فعل أسقف أورليانز وأسقف باريس، وكان رد الملك دائمًا هو مصادرة

---

(1) Achille Locher, Op. Cit., p. 127.

(2) Ibid, pp. 127-128.

(3) Ibid, pp. 127-128.

(4) William holden hutton, Op. Cit., pp. 113- 115.

(٥) يدفع ضريبة عشر صلاح الدين كل شخص لا يشترك بالحملة الصليبية، وهي عشرة بالمائة على الدخول والمنقولات لمدة سنة فقط، ويستثنى من هذه الضريبة أسلحة وخيول وملابس الفرسان وخيول وكتب وملابس رجال الدين، وكل الأواني المقدسة الخاصة بالكهنة، وكل المجوهرات الخاصة برجال الدين والعمانيين، ويعفى من دفع هذه الضريبة رجال الدين والفرسان الذين سيشتركون في الحملة الصليبية، وتحصل الضريبة في أبرشية في حضور قس الأبرشية ونائب المطران، وأحد جماعة الداوية وأحد جماعة الأسبتارية وأحد أعضاء خاصة الملك، وكاتب الملك، وكاتب الأسقف، وتقرر أنه سيصدر قرار الحرمان ضد الذي يرفض دفع الضريبة، وأنه إذا دفع شخص أقل مما يجب أن يدفعه، يتم اختيار أربعة أو ستة رجال معترف بهم من أهل الأبرشية، ويقسموا أنهم سيقدرون المبلغ الذي كان يجب عليه أن يقدره بنفسه، وأن يدفع المبلغ الذي أنقصه وكان على القساوسة أن يكتبوا إلى كل أبرشيات أسقفياتهم في عيد القديس ستيفن في ٢٦ ديسمبر وعيد القديس حنا في ٢٤ يونيو أنه ينبغي على المكلفين بجمع عشر صلاح الدين أن يحضروا الضريبة في بيوتهم قبل عيد القديسة مريم في ٢ شباط ١١٨٩، وفي اليوم التالي يدفعون تلك الضريبة إلى الأشخاص الذين تم ذكرهم سابقاً وفي المكان الذي يتم استدعاءهم إليه. يراجع: أيوب الطيب، صلاح الدين والطوق الحجري من كليرمونت إلى حطين، يسطرون للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٧، ص ٣٩؛ احمد الشامي، صلاح الدين والصليبيون تاريخ الدولة الأيوبية، مكتبة النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩١، ص١٥٢؛ عطية حسين محمد، عشر صلاح الدين وأصوله التاريخية في غرب أوروبا ومملكة بيت المقدس، مجلة المؤرخ المصري، العدد ٦، ١٩٩١، ص ١١٥.

(6) William holden hutton, Op. Cit., pp. 113- 115.

الممتلكات لتأكيد سلطته، وفي الوقت نفسه، كانت المحاكم الكنسية توسع نفوذها بصورة كبيرة، لتمتد ولايتها إلى قضايا العلمانيين المتعلقة بالزواج والميراث والنذور، مما قلّص من اختصاص المحاكم الملكية والإقطاعية، وكان الرد الملكي حاسمًا، إذ سعى فيليب لرسم حدود واضحة بين ما هو دنيوي وما هو روحي[١].

لذا تُوّجت تلك الجهود بـ اتفاق ١٢٠٥- ١٢٠٦، وهو تشريع صارم طُبّق في نورماندي، تضمن منع القضاة الكنسيين من النظر في القضايا الإقطاعية، وقيّد حق اللجوء للكنائس[٢]، وسمح للقضاة الملكيين بمحاكمة رجال الدين في جرائم معينة، وكان ذلك القانون تعبيرًا واضحًا عن تحالف الملكية والإقطاع ضد التجاوزات الكنسية، وفي النهاية أظهر فيليب إرادة راسخة لا تتزعزع في ترسيخ هيمنة العدالة الملكية على جميع رعايا مملكته، وإخضاع القضاء الكنسي لسلطة الدولة نهائيا[٣].

٣. سياسة الملك فيلب اغسطس تجاه الفلاحين والاقنان:

على عكس الصورة التقليدية للملك الورع، يكشف التحليل الدقيق لسياسات فيليب أغسطس تجاه الفلاحين والأقنان عن حاكم براغماتي، كانت قراراته مدفوعة بالمصالح السياسية والاقتصادية للدولة الملكية أكثر من كونها نابعة من شفقة حقيقية تجاه الطبقات الكادحة، ففي حين انحرف عن نهج سلفه لويس السابع، نادرًا ما استخدم فيليب لغة التعاطف في مواثيقه الرسمية، مما يعكس رؤية استراتيجية تعتبر الفلاحين أداة لتعزيز السلطة والثروة[٤].

وخلافًا للصورة التي قد ترسمها بعض المواثيق الملكية النادرة، مثل وثيقة دير القديس إينيان دورليان Aignan d'Orléans التي تصف تحرير الإنسان من العبودية بأنه: **"عمل من أعمال التقوى"**، فإن سياسة الملك فيليب أغسطس تجاه الأقنان لم تكن مدفوعة بالتعاطف الإنساني، بل كانت أداة مالية وسياسية محكمة وموجهة لخدمة مصالحه العليا، فلم يكن ذلك **"العمل التقوي"** ممارسة شائعة، إذ من بين آلاف الوثائق الصادرة عن ديوانه، لا يوجد سوى ميثاقي تحرير مباشرين، وكلاهما كان مشروطًا ومقابل تحقيق مكاسب مادية للملك، فقد تم تحرير رجال بييرفوندز Pierrefonds ولا فيرت- ميلون Nor Vert-Millon مقابل زيادة كبيرة في الإيرادات السنوية، والأهم من ذلك أن ذلك التحرير كان جزئيًا، إذ أبقى الملك على كافة الالتزامات غير الإقطاعية كالضرائب والخدمة العسكرية، وفرض قيودًا صارمة على زواجهم لمنع انتقال ممتلكاتهم إلى خارج سيطرته، مما يؤكد أنهم ظلوا في نظره أصولًا اقتصادية تابعة للتاج[٥].

---

(1) Achille Locher, Op. Cit., p. 130.

(٢) في العصر الوسيط، كانت الكنائس والأديرة تُعتبر أماكن مقدسة تتمتع بحصانة تامة، كان العُرف والقانون الكنسي ينصان على أن أي شخص هارب من السلطات (سواء كان مجرماً، أو مديناً، أو هارباً من بطش إقطاعي) إذا تمكن من الدخول إلى الكنيسة، فإنه يحصل تلقائياً على الملاذ الآمن أو حق اللجوء. يراجع : ويل وايرل ديورانت، المصدر السابق، ص ٤٥- ٤٧؛

Karl Shoemaker, Sanctuary and Crime in the Middle Ages, 400-1500, Fordham University Press,2011,pp.14-17.

(3) Achille Locher, Op. Cit., p. 130.

(4)Ibid, p. 131.

(5) Achille Locher, Philippe Auguste et son époque,p.131.

وفي السياق نفسه، اتخذ فيليب أغسطس إجراءات صارمة للحفاظ على عدد أقنانه، إذ نصت المواثيق الممنوحة للمدن الجديدة على منع استقرارهم فيها، مع وجود قوانين واضحة لاستعادتهم فورًا حال دخولهم أية بلدية، مما يعكس نظرته إليهم كجزء لا يتجزأ من ممتلكاته الملكية، وعلى النقيض تمامًا، اتبع سياسة معاكسة تجاه أقنان خصومه من النبلاء ورجال الدين، إذ شجعهم على الهروب واللجوء إلى أراضيه بهدف إضعاف أسيادهم الأصليين وزيادة ثروته وقوته البشرية، وعندما كانت تلك الممارسات تدفع خصومه لتقديم الشكاوى، كان فيليب يبرم تسويات تبدو في ظاهرها قانونية، لكنها في جوهرها مصممة لخدمة مصالحه حصراً، وتبرز حادثة نزاعه مع أسقف مدينة نيفيرNever ، كدليل قاطع على استغلاله لتلك الأزمات، فبينما وافق شكلياً على إعادة الأقنان الهاربين إلى الأسقف، وضع شرطاً يضمن له الاستفادة وهو "حق الفداء"، بموجب ذلك الحق، سُمح للقن الهارب بدفع مبلغ مالي مقابل الاحتفاظ بحريته والبقاء داخل الأراضي الملكية، ليقوم الملك بالاستحواذ على نصف ذلك المبلغ، محولاً بذلك أزمة خصمه إلى مكسب مالي مباشر لخزينته، إلى جانب ذلك، وظف الملك فيليب أغسطس الثغرات القانونية ببراعة شديدة لتثبيت أقدام الأقنان الهاربين في أراضيه، حيث لم يتردد في استخدام ذرائع القانونية مثل **"سقوط القضية بالتقادم"** لرفض إعادة الأقنان الذين استقروا في مدنه لمدّة طويلة[١].

وتعتبر قضية فلاحي لاون المثال الأبرز على استغلاله للظروف لتحقيق أهدافه السياسية،فعندما استغاث بهِ هؤلاء الفلاحون من طغيان أسقفهم، لم يمنحهم الحرية الكاملة التي كانوا يطالبون بها، بل تدخل كوسيط فرض من خلاله سلطته على الأسقف، فقد حدد فيليب مقدار الضرائب التي يمكن للأسقف جبايتها، وعيّن مجلسًا من الفلاحين أنفسهم لتوزيع تلك الضرائب والفصل في النزاعات، مشترطًا أن تكون قراراتهم قابلة للاستئناف فقط أمام المحاكم الملكية، وبتلك وضع الأسقف والفلاحين معًا تحت سلطته المباشرة، وعلى الرغم من أنه منحهم لاحقًا بلدية اتحادية، إلا أنه ألغاها عندما أراد إرضاء رجال الدين قبل مغادرته إلى الحملة الصليبية، مما يثبت أن قراراته كانت تكتيكية بحتة[٢].

يتضح لنا أن سياسة فيليب أغسطس تجاه الفلاحين لم تكن نابعة من رغبة في الإصلاح الاجتماعي، بل كانت جزءًا من استراتيجية أوسع لتركيز السلطة، وزيادة الإيرادات، وإضعاف الخصوم الإقطاعيين، لقد احتفظ بكرمه وعطاياه للطبقة التي كانت قادرة على دعمه بفعالية في تحقيق طموحاته السياسية أما الفلاحون، فكانوا إما أصولاً يجب الحفاظ عليها أو بيادق يمكن استقطابها في لعبة صراع القوى الكبرى.

---

[١] يراجع حول الحياة الاجتماعية في عهد فيليب أغسطس:

Achille Locher, La France Sociale, pp. 405-406.

[2] Ibid, pp. 407-410.

٤. سياسة الملك فيلب اغسطس تجاه الطبقة البرجوازية:

يمثل عهد الملك فيليب نقطة تحول جوهرية في تاريخ فرنسا، حيث لم يكتفِ بتوسيع رقعة مملكته، بل أعاد هندسة بنية السلطة ذاتها، محولاً الطبقة البرجوازية، وخاصة في باريس، من مجرد قوة اقتصادية إلى شريك استراتيجي في بناء دولة مركزية قوية، حيث أدرك بعبقرية سياسية أن تمكين التجار والحرفيين وتنظيمهم هو السبيل الأمثل لتقوية سلطة التاج في مواجهة النفوذ التقليدي للإقطاعيين ورجال الدين[١].

بدأ فيليب برفع المكانة السياسية للبرجوازيين، فجعل حضورهم في المجالس والاحتفالات الكبرى أمرًا معتادًا إلى جانب كبار النبلاء، وعلى الرغم من أن دورهم كان شرفيًا في البداية، إلا أن ذلك الحضور بحد ذاته كان إعلانًا عن بزوغهم كقوة جديدة في المملكة، لكن الخطوة الأكثر دلالة على ثقته كانت قراره التاريخي عند رحيله إلى الحملة الصليبية عام ١١٩٠، حيث أسس مجلس وصاية لم يعهد بهِ للنبلاء وحدهم، بل منح ستة من أبرز برجوازيي باريس مسؤولية الإشراف المباشر على خزينة الدولة والختم الملكي، وهي سابقة ثورية وضعتهم في قلب الإدارة السيادية للمملكة وأثبتت أن ولاءهم وكفاءتهم أصبحت ركيزة أساسية للدولة، ولكي يضمن ولاء تلك الطبقة، عمل فيليب أغسطس على توفير بيئة تجارية آمنة ومزدهرة، فقد اتسمت سياسته بالحزم في إرساء الأمن الاقتصادي، حيث تصدى بصرامةٍ لنفوذ اللوردات الذين دأبوا على عرقلة حركة التجارة عبر فرض إتاواتٍ جائرة أو ممارسة أعمال النهب، متدخلاً بشكل مباشر لتقنين الرسوم الجمركية وإنهاء فوضى الجباية العشوائية[٢]، ولم تنحصر رؤيته في الشأن الداخلي، بل امتدت لتضع ركائز متقدمة للقانون التجاري الدولي، إذ كفل الحماية للتجار الأجانب حتى في أوقات النزاع مع دولهم، كما رسّخ المبدأ الثوري لـ"المسؤولية الشخصية" الذي يحظر مصادرة أموال التاجر سداداً لديون غيره، معتبراً أن أي مساسٍ بهؤلاء التجار يمثل تعدياً مباشراً على شخصه[٣].

وكانت درة تاج سياساته الاقتصادية، رعايته الاستثنائية للرابطة الهانزية لتجار باريس، فبينما لم يمنح العاصمة استقلالًا سياسيًا كاملًا، فقد أغدق على رابطتها التجارية امتيازات حصرية ضخمة، منحتها احتكارًا شبه كامل للملاحة والتجارة في نهر السين، فضلا عن سلطات تنظيمية وقضائية واسعة، ممّا حوّلها إلى قوة اقتصادية هائلة تدين بالولاء المطلق للملك، ولم يقتصر اهتمامه على كبار التجار، بل امتد ليشمل تنظيم الحرفيين والعمال، إذ منح امتيازات للعديد من المهن كالجزارين والنساجين والخبازين لضمان جودة الإنتاج واستقرار الأسواق الحضرية[٤].

وعمل على تحسين الوضع القانوني لسكان المدن عبر تعميم ميثاق لوريس Loris الذي يضمن حريات شخصية وقضائية أساسية، لكن ابتكاره الأهم كان منحه للبرجوازيين في

---

(1) Achille Locher, Philippe Auguste et son époque, p.133.
(2) Ibid, p.134.
(3) Ibid, p.134.
(4) Ibid, pp. 134-135.

بعض المدن الحق في انتخاب ممثلين عنهم لتوزيع وتحصيل الضرائب الملكية، وهي خطوة زرعت البذرة الأولى للحكم الذاتي المالي، وربطت الواجب الضريبي بالتمثيل المحلي، لتكون الشهادة النهائية على عمق ثقته في الطبقة البرجوازية كأساس متين ومستدام لمملكته المركزية القوية[١].

٥. سياسة الملك فيلب اغسطس الإدارية والقضائية:

شهد عهد الملك فيليب أغسطس منعطفًا تأسيسيًا في تاريخ فرنسا، حيث نجح بفضل رؤيته الإدارية الثاقبة في إرساء الأركان الثلاثة التي قامت عليها الدولة المركزية الحديثة (جهاز إداري فاعل، وموارد مالية مستقرة، وجيش قوي) فقبل عهده، كانت الملكية الفرنسية تعتمد كثيرا على الولاءات الإقطاعية المتقلبة، أما فيليب فقد أدرك أن السلطة الحقيقية تكمن في بناء مؤسسات قوية تدين بالولاء للتاج وحده[٢].

بدأ فيليب بإعادة هيكلة الحكومة المركزية، إذ حوّل المحكمة الملكية، التي كانت مجلسًا إقطاعيًا واسعًا يهيمن عليه كبار النبلاء ورجال الدين، إلى هيأة استشارية تابعة لإرادته، ومع تزايد قوته، قلّل من اعتماده على تلك المجالس الواسعة، ونقل مركز الثقل إلى مجلس خاص ومصغر يتألف من مستشارين متخصصين ورجال قانون محترفين، وغالبًا ما كانوا من طبقات اجتماعية أقل شأنًا، وكان هؤلاء **"رجال البلاط"** يدينون بصعودهم للملك وحده، فكان ولاؤهم مطلقًا، وشكلوا نواة بيروقراطية حديثة اعتمدت على الكفاءة لا على النفوذ الوراثي، وفي خطوة جريئة لتركيز السلطة في يده، عمل على تحييد كبار ضباط التاج الذين تحولت مناصبهم إلى إقطاعيات وراثية، فألغى منصب **"السينشال"** الخطير، وجمد صلاحيات **"المستشار"**، وأسند المناصب المتبقية لشخصيات مغمورة تضمن طاعتها الكاملة[٣].

وامتدت إصلاحاته لتشمل الجهاز القضائي، حيث عمل على توسيع نفوذ العدالة الملكية لتصبح السلطة العليا في البلاد، فأصبحت أحكام محاكمه تُنفذ بصرامة على الجميع، حتى على أقوى البارونات والأساقفة، وبدأت المحكمة الملكية تتدخل بصورة مباشرة في النزاعات داخل الإقطاعيات الكبرى، مما كان يعد انتهاكًا للسيادة الإقطاعية السابقة، كما توسع في استخدام إجراء **"التحقيق"**، الذي مكّن الملك من إرسال مفوضين لتقصي الحقائق في أي مكان، مما جعل سلطته القضائية حاضرة وملموسة في أبعد أقاليم المملكة[٤].

إلا أن الإنجاز الإداري الأبرز والأكثر ثورية في عهد فيليب أغسطس كان تأسيس نظام المحضرين Baillis، فإدراكًا منه لفساد السيطرة على الولاة القدامى وصعوبتها، فأنشأ فيليب طبقة جديدة من الموظفين المدنيين الحقيقيين، إذ لم يكن المحضرين إقطاعيين يستأجرون مناصبهم، بل كانوا موظفين يعيّنهم الملك، يتقاضون راتبًا ثابتًا، ويمكن نقلهم أو عزلهم في أي وقت، وقد مُنحوا صلاحيات قضائية وإدارية ومالية واسعة في مناطقهم، وأصبحوا

(1) Achille Locher, Philippe Auguste et son époque, p.136.
(2) Ibid, p. 136.
(3) Ibid, p. 139.
(4) Ibid, p. 140.

الذراع القوية للملك في الأقاليم، يفرضون النظام، ويراقبون النبلاء، ويضمنون وصول إيرادات الدولة إلى الخزينة الملكية، وقد ترسخ وضعهم رسميًا في مرسوم عام ١١٩٠ الذي ألزمهم بتقديم تقارير دورية في باريس، واتّبع سياسة أكثر مرونة في الأقاليم الجديدة التي استعادها من أعدائه، إذ احتفظ ببعض المناصب التقليدية مثل (السينشال) لكنه أسندها إلى نبلاء محليين موالين له، ليضمن انتقالًا سلسًا للسلطة دون إثارة الحساسيات المحلية[١]، ولم يكتفِ فيليب أغسطس بتوسيع حدود فرنسا الجغرافية بتلك الإصلاحات الجذرية، بل نجح في بناء هيكل إداري وقضائي مركزي، محولًا المملكة من مجموعة إقطاعيات متناثرة إلى دولة حقيقية تمتلك الأدوات اللازمة لفرض سلطتها، تاركاً صورة راسخة في الذاكرة الشعبية للملك العادل الذي أسس لحكم القانون والمؤسسات[٢].

٦. سياسة الملك فيليب اغسطس المالية:

أدرك الملك فيليب أغسطس بوعي عميق أن القوة الحقيقية للملكية لا تكمن في الألقاب الإقطاعية فحسب، بل في الثروة المادية التي تمكّنها من فرض سلطتها، وقد شهد عهده ثورة مالية حقيقية حوّلت التاج الفرنسي من مؤسسة متواضعة الموارد إلى قوة اقتصادية هائلة، وهو ما يتجلى بوضوح في المقارنة المذهلة بين نفقات والده المحدودة ودخله اليومي الضخم، فهذا التحول لم يكن صدفة، بل نتاج سياسة مالية ممنهجة وهادفة[٣].

وكانت عبقرية فيليب المالية تكمن في عدم اكتفائه بالإيرادات التقليدية القادمة من الأراضي الملكية، التي وعلى الرغم من نموها مع توسع المملكة، لم تكن كافية لتمويل طموحاته العسكرية والدبلوماسية والإدارية، لذا اتبع استراتيجية مزدوجة تمثلت في تحويل الالتزامات العينية والخدمية إلى ضرائب نقدية، واستحداث مصادر دخل استثنائية، وكان من أبرز تجليات تلك السياسة، استبدال الخدمة العسكرية الإلزامية المفروضة على المدن بضريبة نقدية، مما سمح له بجمع أموال طائلة استخدمها في تجنيد جيش من المرتزقة المحترفين، فكان تلك الإجراء ذا فائدة مزدوجة، ضمان تدفق الأموال إلى الخزانة، وبناء جيش أكثر كفاءة وولاءً من الجيوش الإقطاعية التقليدية[٤].

ولم يتردد فيليب في فرض سيادته المالية حتى على كبار أمراء المملكة، وفي خطوة جريئة أكدت سمو سلطته، فقد كان أول ملك يفرض ضريبة الإعفاء عند انتقال ملكيات الإقطاعيات الكبرى، وهي رسوم باهظة يُلزم بها الوريث الجديد مقابل نيل الاعتراف الملكي بسلطته وإعفائه من التزامات إقطاعية أخرى، مما شكل سابقة مهمة وإعلانًا واضحًا بأنه الحاكم الفعلي للمملكة بأسرها وليس مجرد سيد الأسياد بالاسم فقط، كما لجأ إلى استغلال منهجي للمجموعات التي تمتلك ثروات هائلة، فحَوّل العلاقة مع اليهود إلى مؤسسة مالية مربحة للدولة عبر نظام دقيق من الضرائب والرسوم، ولم يسلم رجال الدين من قبضته، اذ

(1) Achille Locher, Philippe Auguste et son temps,p.141.
(2) Ibid, p. 142.
(3) Ibid, p. 142.
(4)Ibid,p.143.

كان يرى أن على الكنيسة، بثرواتها الهائلة، أن تسهم في تمويل الدولة التي تحميها، فمارس بقسوة حقه في الاستيلاء على إيرادات الأبرشيات الشاغرة، وفرض ضرائب عامة على رجال الدين مثل عُشر صلاح الدين، مرسّخًا بذلك مبدأ خضوع الكنيسة للضرائب الملكية[١].

ولإدارة تلك الثروات المتنامية، اعتمد على بنية تحتية مالية متطورة، متخذًا من فرسان الهيكل صيارفة رسميين للمملكة، حيث كانت الأموال تودع في معبدهم في باريس، الذي أصبح بمثابة الخزانة المركزية للدولة، كما عمل على توحيد العملة وفرض سيادة العملة الملكية لتعزيز الوحدة الاقتصادية والسياسية للمملكة، ولقد برر فيليب سياسته المالية الصارمة بحاجة المملكة إلى القوة لتجنب مصير أسلافه الذين فقدوا أراضيهم بسبب فقرهم، ومن خلال إصلاحاته الجريئة، لم يقم فقط بملئ خزائن الدولة، بل أرسى الأسس المالية والإدارية الصلبة التي قامت عليها مملكة فرنسا المركزية[٢].

٧. سياسة الملك فيلب اغسطس العسكرية:

شهد عهد الملك فيليب أغسطس ثورة عسكرية حقيقية، حوّلت الجيش الفرنسي من مجرد حشود إقطاعية غير موثوقة إلى جيش شبه دائم ومحترف يدين بالولاء للتاج وحده، وهو ما كان أداة سياسية حاسمة مكنته من بناء الدولة الفرنسية الحديثة، فقد أدرك فيليب أن الجيش الإقطاعي التقليدي، القائم على التزامات الخدمة المؤقتة، كان بطيئًا وغير عملي لتحقيق طموحاته التوسعية، لذا تخلى عنه لصالح قوة مركزية مرنة ومنضبطة، تألفت من فرسان مأجورين يشكّلون النخبة الضاربة، وجنود مشاة وخيالة محترفين يُعرفون بـ الرقباء، فضلا عن وحدات هندسية متخصصة في فن الحصار، وكان يحتفظ بتلك القوة طالما توفرت الأموال لدفع رواتبها، مما منحها الاستقرار والتنظيم[٣].

تكونت القوة العسكرية الجديدة من طبقات متكاملة، فعلى رأسها كان فرسان الملك، الذين يخدمون تحت قيادة كبار الضباط ويتقاضون رواتب مجزية، وكافأهم الملك أيضًا بإقطاعيات عسكرية مؤقتة لضمان ولائهم المباشر له، أما العمود الفقري للجيش فكان **"الرقباء"**، وهم جنود محترفون يحصلون على أجورهم من الخزانة الملكية مباشرة أو يتم استقدامهم من الميليشيات المدربة في المدن التابعة للملك، وقد أظهر فيليب تقديره الكبير لهم عبر منحهم هدايا وحقوقًا اقتصادية، مدركًا أنهم أكثر من مجرد جنود، بل أداة لفرض السلطة الملكية في كل مكان، واكتملت تلك المنظومة بقوات المشاة الخفيفة المتخصصة في أسلحة الرمي، التي شهدت تحولًا تكنولوجيًا مهمًا بتبني القوس والنشاب الفتاك، وسلاح الهندسة الذي برع فيه فيليب شخصيًا، اذ كانت الحرب في عصره تتمحور حول السيطرة على القلاع، فطوّر آلات حصار متقدمة مثل المنجنيق وأبراج الحصار المتحركة[٤].

---

(1)Achille Locher, Philippe Auguste et son temps,p.145.

(2)Ibid,p. 146.

(3) Jean-François Vinot, Quelques aspects de l'art militaire sous le règne de Philippe Auguste, Gladius, Études archéologiques et militaires, vol. 6, 1967, p. 28.

(4) Philippe Contamine, War in the Middle Ages, translated by Michael Jones, Blackwell Publishing Limited, Oxford, UK, 1999, p. 103.

ولم تقتصر النهضة العسكرية في تلك الحقبة على تطوير هيكلية الجيش فحسب، بل شملت نقلة نوعية في فنون التحصين والهندسة الدفاعية بمساهمة شخصية ومباشرة من الملك، حيث شهد عهده تحولاً جذرياً في تصميم القلاع، لتنتقل من مجرد أبراج حجرية متناثرة إلى منظومات دفاعية بالغة التعقيد، تدمج بين الأسوار المتعددة والأبراج الدائرية والخنادق العميقة، ولعل تشييد السور الدفاعي الضخم حول العاصمة باريس عام ١١٩٠، قبيل توجهه للمشاركة في الحملة الصليبية، يمثل الشاهد الأبرز على رؤيته الاستراتيجية في تجسيد هيبة السلطة الملكية وترسيخها معمارياً[١].

٨. سياسة الملك فيلب الاجتماعية والثقافية:

غالباً ما يُسلط الضوء في دراسة التاريخ الأوروبي الوسيط على الفتوحات العسكرية والصراعات السياسية، إلا أن عهد الملك الفرنسي فيليب أغسطس مثّل استثناءً حضارياً ونقطة تحول مفصلية في مسار الدولة الفرنسية، فإلى جانب براعته في توحيد البلاد إدارياً وتوسيع رقعتها، قاد فيليب نهضة اجتماعية وفكرية شاملة أخرجت فرنسا من قوقعتها لتصبح المركز النابض لأوروبا الغربية، وحوّلت عاصمتها باريس إلى قِبلة العلماء ومهد التنوير المبكر.

أ. المستشفيات:

في سياق التحولات الحضارية الكبرى التي شهدتها فرنسا تحت حُكم الملك فيليب أغسطس، لم تقتصر إنجازاته على الفتوحات العسكرية والتنظيم الإداري للدولة، بل امتدت لتؤسس بنية تحتية اجتماعية متقدمة، كان من أبرز معالمها إنشاء مؤسسات رعائية متخصصة جسّدت روح العصر، ويُعد تأسيس المستشفيات والملاجئ الخيرية من ألمع الشواهد على ذلك التطور، ومن أبرز تلك المشاريع الرائدة، يبرز مستشفى الثالوث (Trinity Hospital)، الذي أُقيم في موقع استراتيجي على جانب شارع سان دوني، أحد الشرايين الحيوية لباريس آنذاك، ولم تقتصر وظيفة ذلك الصرح على تقديم الرعاية الطبية، بل كان بمثابة ملاذ آمن ومحطة استقبال للمسافرين والحجاج الوافدين إلى المدينة، مما يعكس الدور المزدوج لتلك المؤسسات كمركز للخدمة الاجتماعية والدينية، وأُسندت إدارته بحلول عام ١٢١٠، إلى أربعة رهبان من منظمة الإسبتارية، وهي منظمة فرسان دينية عُرفت بانضباطها الشديد وخبرتها الواسعة في إدارة المستشفيات ورعاية المرضى في جميع أنحاء أوروبا والأراضي المقدسة[٢].

وعلى النهج ذاته، شهد شارع سان دوني قيام صرح خيري آخر بأمر من الملك فيليب أغسطس، وهو مستشفى القديسة كاترين (Sainte Catherine)، اذ تأسست تلك المؤسسة عام ١١٨٤، وعُرفت في بداياتها باسم **"مستشفى فقراء القديسة أوبورتين"**، وكانت يديرها

---

(1) Edward Audoin, Essai sur l'armée royale au temps de Philippe Auguste, Librerie Ancienne Honoré Champion, Paris, 1913, p. 100.

(2) Jean Chaïmol, L'Hôpital de la Trinité de la rue Saint-Denis à Paris (1201-1790), Société Française de l'Histoire de Médecine, 1983, pp.159-160.

هي أيضا بكفاءة الرهبان الإسبتاريين، وقد اكتسبت المستشفى أهمية متزايدة ومكانة رفيعة، بلغت ذروتها باعتراف من أعلى سلطة دينية في العالم المسيحي، إذ أصدر البابا هونوريوس الثالث مرسوماً بابوياً في ١٧ كانون الثاني ١٢٢٢، يقضي بوضعها تحت الحماية المباشرة لمؤسسة **"بيت الرب - القديسة كاترين"** (La Maison Dieu-Sainte-Catherine)، وقد عزز ذلك القرار من قدرات المستشفى التشغيلية بانضمام راهبات متفانيات إلى جانب الرهبان الإسبتاريين لخدمة الفقراء والمرضى[١].

لا يكمن سر نجاح تلك المؤسسات واستمراريتها في تأسيسها فحسب، بل في المبادئ الإدارية الحكيمة التي قامت عليها، فقد تم تحصينها ضد الترهل الإداري والفساد المحتمل من خلال تطبيق سياسة صارمة تفرض حداً أعلى لعدد الموظفين، مما يضمن توجيه الموارد بصورة كاملة لخدمة الهدف الأسمى وهو رعاية المحتاجين، ولعل الركيزة الأساسية التي ضمنت ازدهار تلك المستشفيات كانت الثقة العميقة التي منحها لها الشعب، لقد ساد يقين مجتمعي راسخ بأن التبرعات والصدقات المقدمة ستصل مباشرة إلى مستحقيها من الفقراء والمرضى، ولن تُهدر لتمويل جهاز إداري متضخم أو غير منتج، تلك الثقة لم تكن مجرد شعور عاطفي، بل كانت بمثابة عقد اجتماعي متين، ضمن تدفقاً مستمراً للدعم المادي والمعنوي، وحوّل تلك المستشفيات إلى نماذج رائدة ومستدامة في العمل الخيري المنظم خلال العصر الوسيط.

ب. التعليم والأدب والمدارس:

شهد عهد الملك فيليب أغسطس بزوغ فجر نهضة فكرية وعلمية شاملة، أطلقت شرارة ازدهار غير مسبوق في الأنشطة الفنية والأدبية والفكرية، ولم تكن تلك الحركة، التي يُطلق عليها اصطلاحًا **"النهضة"**، حدثًا عابرًا، بل تحولًا عميقًا وجدت نواتها الصلبة في فرنسا، وتحديدًا في باريس ومحيطها[٢]، وفي قلب تلك النهضة، برزت فرنسا في عهد فيليب أغسطس، وبصورة خاصة العاصمة باريس، كقوة دافعة وحيوية، لم تكن باريس مجرد مركز سياسي، بل تحولت إلى بؤرة حيوية للأساليب الفنية المستحدثة، ومنطلقًا للتطورات الأدبية الكبرى، ومهدًا لحركة رهبانية متجددة تميزت بالإبداع في التنظيم، والكفاءة الإدارية، وعمق الحماس الروحي، وترسخت دعائم ذلك الحراك الفكري في المؤسسات التعليمية التي شهدت إحياءً واسعًا، وشملت مدارس باريس المركزية التي أصبحت النواة لجامعة باريس لاحقًا، والمدارس الرهبانية العريقة مثل دير بيس في نورماندي، ودير سان جيرمان دي بري، ودير سان فيكتور، والمدارس الكاتدرائية الملحقة بالكنائس الكبرى في مدن مثل باريس، ريمس، ليون، وأورليان، وربما شارتر، كذلك ازدهرت حركة نسخ المخطوطات وتأسيس المكتبات على أيدي المؤسسات الكنسية، مما ضمن انتشارًا واسعًا للمعرفة[٣]،

---

(1) Jean Chaïmol, Op. Cit., p.161.

(2) Elizabeth M. Hallam, Capetian France 987-1328, London and New York, 1980, p. 153.

(3) Ibid, pp. 154-155.

وكانت مدارس باريس وشمالي فرنسا المحور الذي دارت حوله الدراسات العليا، مع التركيز على الفنون الحرة التي انقسمت إلى مسارين رئيسين: التريفيوم (The Trivium) أو الثلاثية: وشملت النحو، والبلاغة، والمنطق الجدلي، وقد حظيت باهتمام بالغ، والكوادريفيوم (The Quadrivium) أو الرباعية: وضمّت الحساب، والموسيقى، والفلك، والهندسة، وكانت تُدرّس بدرجة أقل[١].

وقد شهد عصر الملك فيليب إحياءً لعلم المنطق وتطويرًا للمنهج الجدلي (الديالكتيكي)، وتطبيقه في مختلف حقول المعرفة، مما أسهم بشكل مباشر في نضج الفلسفة المدرسية (Scholasticism)، أما علم البلاغة، فقد تطور تدريجيًا من مجرد تحليل النصوص اللاتينية الكلاسيكية إلى فن تطبيقي يُعنى بكتابة الرسائل والمراسلات الرسمية (Ars Dictaminis)، وهو المجال الذي اشتهرت به مدرسة أورليان[٢].

وقد انعكس ذلك التطور الفكري على البلاط الملكي مباشرةً، إذ اكتسبت الوثائق والمعاهدات المكتوبة أهمية متزايدة، وشهدت تطورًا ملحوظًا في الأسلوب والصياغة، وبرز في ذلك السياق رهبان دير سان دوني تدريجيًا كمؤرخين رسميين للبلاط[٣]، كما شهدت تلك المرحلة انتشار دراسة القانون الروماني في شمالي فرنسا، بالتوازي مع التوسع في دراسة القانون الكنسي، الذي جاء نتيجة تزايد نفوذ السلطة البابوية وحاجتها إلى هيكل قانوني منظم، وقد ساعدت ترجمة النصوص الكلاسيكية القديمة واكتشافها مجددًا على إحداث طفرات موازية في مجالات العلوم والطب والفلسفة[٤].

وعلى الرغم من أن باريس ومحيطها كانت قلب تلك الحركة النابض، إلا أن مناطق أخرى في فرنسا أسهمت بصورة لافتة، فجنوبي فرنسا قدم إسهامات جليلة في إحياء الآداب والفنون ونشر الدراسات القانونية والعلمية، بينما كانت منطقة بورغونديا مركزًا للتجديد الرهباني وازدهار الفن الكنسي، ومع ذلك ظلت باريس المركز الأوحد الذي لا يضاهى، فقد ذاع صيت مدارسها في التعليم الكلاسيكي والفلسفة المدرسية، وازدهر فيها الشعر بنوعيه اللاتيني والعامي، وتطورت أساليبها الفنية، ونتيجة لذلك النشاط الفكري والثقافي المكثف، أصبحت فرنسا، لاسيما منطقة إيل دو فرانس، قِبلة العلماء والمفكرين في أوروبا الغربية، ونالت لقبها الشهير فرنسا اللطيفة Douce France، وتجلت مكانة مدارس باريس الرفيعة في السجلات والمؤلفات التاريخية التي كُتبت بأسلوب لاتيني راقٍ، لا سيما تلك التي أرّخت لعهد الملك فيليب أغسطس وإنجازاته[٥].

---

(1)Elizabeth M. Hallam, Op. Cit., pp. 154-155.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور، الجامعات الاوروبية في العصور الوسطى، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠٠٦، ص ٣٥.

(3) Jacques Bainville, Histoire de France, Rue Saint-Gothard, Paris, 1937, pp. 67-68.

(٤) يراجع من التفاصيل:

Achille Locher, Université de Paris sous la direction de Philippe Auguste, Bibliothèque Marisco-Ein, Paris, 1899, pp. 7-11.

(٥) جوزيف نسيم يوسف، تاريخ العصور الوسطى الأوروبية وحضارتها، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، ١٩٨٤، ص ٣١٦.

ت. جامعة باريس:

تزامناً مع التحولات الجذرية التي أرساها الملك فيليب أغسطس، انبثقت جامعة باريس كصرح فكري استثنائي أسهم في إعادة تشكيل مسار التاريخ الأوروبي، حيث لم تكن تلك المؤسسة مجرد امتداد تقليدي للمدارس الكنسية، بل تبلورت ككيان مبتكر ونموذج مستقل، فارضةً حضورها كقوة ثقافية وسياسية وازنة تصطف جنباً إلى جنب مع السلطتين البابوية والملكية، ويتطلب الاستيعاب الدقيق لطبيعة تلك المؤسسة تصحيحاً للمفهوم المعاصر لمصطلح الجامعة، إذ لم يكن يُقصد بهِ في العصر الوسيط أي حيز مكاني، بل كان يعبر عن كيان نقابي ورابطة قانونية توحّد الأساتذة لتصون حقوقهم المهنية وتضمن استقلاليتهم، متخذةً في ذلك مساراً تنظيمياً يشابه عمل نقابات الحرفيين والتجار في تلك الحقبة [١].

نشأت تلك النقابة الأكاديمية من رحم مدرسة كاتدرائية نوتردام، مما وضعها في صراع مباشر مع السلطة الكنسية المحلية المتمثلة في أمين الكاتدرائية، الذي كان يسعى للسيطرة على منح إجازات التدريس، فكان ذلك الصراع المحرك الذي دفع الأساتذة إلى التكتل واللجوء إلى حليف استراتيجي أقوى، وهو البابوية في روما، إذ رأى البابا إنوسنت الثالث في الجامعة الوليدة قوة فكرية يمكنها دعم نفوذه، فتدخل بمراسيم حدّت من سلطات أمين الكاتدرائية واعترفت بالجامعة كهيئة مستقلة، مما منح الأساتذة استقلالية حقيقية في إدارة شؤونهم[٢].

وإلى جانب صراعها مع السلطة الكنسية المحلية، كان لتدخل السلطة الملكية الدور الحاسم في ترسيخ وجودها القانوني، ففي عام ١٢٠٠ وبعد حادثة اعتداء على الطلاب، تدخل الملك فيليب أغسطس بحزم وأصدر ميثاقًا يُعدّ بمثابة شهادة ميلاد رسمية للجامعة، منح ذلك الميثاق مجتمع العلماء امتيازًا جوهريًا وهو الحصانة القضائية، التي نصت على أن أي طالب أو أستاذ يجب أن يُحاكم أمام المحاكم الكنسية وليس المدنية، ووضعهم تحت حمايته المباشرة، وبتلك أصبحت الجامعة كيانًا يتمتع بحماية مزدوجة من الملك والكنيسة، مما ضمن لها النمو والازدهار[٣].

وقد شهدت جامعة باريس في النصف الأول من القرن الثالث عشر تطورًا مؤسسيًا بارزًا تمثل في نشأة نظام الأروقة الجامعية، الذي اقتصر في تكوينه على أساتذة كلية الآداب، وقد انقسم هؤلاء الأساتذة إلى أربعة تجمعات رئيسة، عُرف كل منها باسم إحدى القوميات التي شكلت النواة الأولى للجامعة عند تأسيسها، وهي: الفرنسيون، والنورمان، والبيكارديون (أبناء الأراضي المنخفضة)، والإنكليز، ولم يقتصر الانتماء لتلك الأروقة على أبناء تلك

---

(1)Jean Fleury, Philippe Auguste, La Naissance de la monarchie, Editions Tallandier, Paris, 2015, p. 95; Jacques Les Gough, Les intellectuels au Moyen Âge, traduit du français par Teresa Lavender Fagan, Oxford, 1993, p. 66.

(2) Françoise Autrand, Nouvelle Collection D'Histoire Le Moyen Age, Bordas (paris-Montréal) 1971, p. 100;

سعيد عبد الفتاح عاشور، الجامعات الأوروبية، ص ٦٢ .

(3) Achille Locher, Université de Paris. P.12.

القوميات فحسب، بل تم توزيع الطلاب والأساتذة من باقي الأمم الأوروبية على رواقين رئيسين، حيث انضم أبناء الشعوب اللاتينية إلى رواق الفرنسيين، بينما التحق الألمان وأبناء مناطق شمال وشرق أوروبا برواق الإنكليز، وكان كل رواق رئيس يدير شؤونه الخاصة، وبحلول منتصف القرن الثالث عشر، تم استحداث منصب الرئيس العام الذي يشرف على الأروقة الأربعة مجتمعة، إلى جانب الرؤساء المحليين لكل رواق، وقد تعاظم نفوذ تلك الأروقة بصورة ملحوظة عندما أصبحت هيئاتها الممثلة هي المسؤولة عن انتخاب مدير الجامعة (الريكتور)، وكانت عملية الانتخاب تتم على وفق مراسم دقيقة وشروط محددة، في أجواء تسودها التقاليد الدينية الصارمة، وتلتزم بمواعيد نهائية محددة لاختيار المدير، ومن اللافت للنظر أن حق انتخاب مدير الجامعة انحصر في أروقة كلية الآداب، على الرغم من وجود ثلاث كليات أخرى في الجامعة آنذاك - اللاهوت، والقانون الكنسي، والطب - التي كانت تعدّ في مرتبة أكاديمية أعلى، فبينما كانت مهمة كلية الآداب تقتصر على إعداد الطلاب للالتحاق بالدراسات العليا في الكليات الثلاث الأخرى، إلا أنها كانت الأسبق في تنظيم شؤونها الإدارية وهيكلها التنظيمي، وذلك السبق التنظيمي منح كلية الآداب وأساتذتها نوعًا من الريادة والزعامة على سائر كليات الجامعة، وتجلى في أنه عند عقد اجتماعات عامة تضم كليات الجامعة الأربع، كانت رئاسة الاجتماع تُسند إلى عميد كلية الآداب، وعلى الرغم من أن تلك الاجتماعات المشتركة كانت غالبًا شكلية وتفتقر إلى المناقشات الجوهرية، إلا أنها عكست المكانة المتميزة التي حظيت بها كلية الآداب في هرم السلطة الإدارية والأكاديمية لجامعة باريس في تلك الحقبة[١].

فلم تكن الجامعة مجرد مركز للعلم، بل أصبحت حارسًا صارمًا للعقيدة المسيحية، ويتجلى ذلك بوضوح في قضية الأستاذ عموري دو بين Amouri Do Ben، الذي تبنى آراءً عدّت هرطقة، فتصدت له الجامعة بكامل قوتها وأجبرته على التراجع، وبعد وفاته، قامت بمحاكمة أتباعه وأمرت بإخراج جثمانه وأحراقه، في استعراض لقوتها الهائلة كسلطة فكرية ودينية قادرة على تحديد الإيمان الصحيح ومعاقبة الانحراف عنه[٢]، وهكذا لم تكن نشأة جامعة باريس مجرد حدث تعليمي بل كانت ولادة **"قوة ثالثة"** في المجتمع الأوروبي - قوة الفكر والمعرفة - التي أسست لتقليد أكاديمي لا يزال إرثه ممتدًا حتى اليوم.

---

(1) Achille Locher, Université de Paris. P.37;
سعيد عبد الفتاح عاشور، الجامعات الأوروبية، ص ٥٥.

(2) Achille Locher, Université de Paris. P.42.

الفصل الرابع

سياسة فرنسا الخارجية في عهد الملك فيليب أغسطس

١١٨٩ - ١٢١٧

أولاً. بداية الصراع بين الملك فيليب أغسطس والملك ريتشارد ملك انكلترا خلال الحملة الصليبية الثالثة ١١٨٩- ١١٩١:

١. أوضاع الشرق الإسلامي قبيل الحملة الصليبية الثالثة.

٢. أشتراك الملك فيليب أغسطس في الحملة الصليبية الثالثة ١١٨٩ -١١٩١.

٣. عودة الملك فيليب أغسطس إلى فرنسا وأثرة على مصير الحملة الصليبية الثالثة.

ثانياً. الصراع بين الملكين فيليب أغسطس والملك ريتشارد ١١٩٢- ١١٩٩:

١. أسر الملك ريتشارد وخسارة بعض أراضيه لصالح الملك فيليب أغسطس بين ١١٩٢- ١١٩٤.

٢. عودة ريتشارد وصراعه مع فيليب لأسترداد أملاكة ١١٩٤- ١١٩٩.

ثالثاً. الصراع السياسي والعسكري بين فرنسا وانكلترا من تولى جون العرش حتى معاهدة لامبيث ١١٩٩- ١٢١٧:

١. سياسة الملك فيليب أغسطس تجاه الملك جون من عام ١٩٩٩ – ١٢٠٥.

٢. محاولة الملك جون استرداد بعض أملاكه في فرنسا ١٢٠٦- ١٢١٤.

٣. الصراع الفرنسي الإنكليزي من معركة بوفين ١٢١٤ حتى معاهدة لامبيث ١٢١٧.

أ- انتصار الأمير لويس بن فيليب أغسطس على الملك جون في لاروش أو موان ١٢١٤:

ب- انتصار الملك فيليب أغسطس على الامبراطور الأماني أوتوا وحلفائه في معركة بوفين ١٢١٤:

ت-محاولات الملك فيليب أغسطس الاستيلاء على التاج الإنكليزي فيما بين ١٢١٥- ١٢١٧:

أولاً. بداية الصراع بين الملك فيليب أغسطس والملك ريتشارد ملك انكلترا خلال الحملة الصليبية الثالثة ١١٨٩- ١١٩١:

شكلت الحملة الصليبية الثالثة مسرحاً تجلت فيه أعقد التناقضات السياسية والشخصية بين عاهلين من أقوى ملوك أوروبا في العصر الوسيط، فيليب أغسطس ملك فرنسا، وريتشارد ملك إنكلترا، لم يكن الصراع الذي تفجر بينهما في خضم تلك الرحلة العسكرية وليد الصدفة أو مجرد إفراز لظروف الحملة الطارئة، بل كان امتداداً حتمياً لإرث ثقيل من التنافس الجيوسياسي والعداء المستحكم بين التاجين الفرنسي والإنكليزي، ففي جوهره، كان ذلك النزاع تأسيساً على التناقض الإقطاعي العميق؛ إذ كان ريتشارد، بصفته دوقاً لنورماندي وأكيتاين وكونتاً لأنجو، يسيطر على أراضٍ شاسعة داخل فرنسا تفوق مساحة التاج الفرنسي ذاته، وعلى الرغم من قوته العسكرية الجبارة وموارده الهائلة، كان من الناحية القانونية والعرفية تابعاً إقطاعياً لفيليب، ذلك الوضع الشاذ خلق حالة من التوجس الدائم، حيث كرس فيليب جهوده السياسية قبل انطلاق الحملة لتفكيك أو إضعاف الإمبراطورية الأنجوية، مستغلاً ببراعة الخلافات الأسرية العميقة بين ريتشارد ووالده الملك هنري الثاني لتأجيج الفتن الداخلية وإضعاف خصومه، ومع توارد الأنباء المفجعة بسقوط بيت المقدس عام ١١٨٧، وجد العاهلان نفسيهما مدفوعين بضغط البابوية والحراك الشعبي العارم لتعليق صراعاتهما وتوحيد جهودهما، إلا أن ذلك التحالف القسري كان يحمل في طياته بذور فنائه؛ فقد جمع بين شخصيتين متناقضتين تماماً في الرؤية والأهداف ففيليب، الملك الحذر والسياسي البراغماتي الذي يضع بناء الدولة المركزية ومصالح عرشه فوق كل اعتبار، وريتشارد الفارس المندفع والباحث عن المجد العسكري والمكانة الأسطورية كقائد للعالم المسيحي، وبذلك انطلقت الحملة الصليبية الثالثة وهي مثقلة برواسب الماضي وانعدام الثقة، لتتحول الأراضي المقدسة ومحطات الطريق إليها إلى ساحة لتصفية الحسابات القديمة، وميدان لاختبار توازن القوى بين طموح فرنسي يسعى للسيادة المطلقة، وغطرسة إنكليزية ترفض الإذعان، مما جعل الصدام بينهما حتمية تاريخية تنتظر شرارة الانطلاق لتعيد رسم ملامح العلاقة بين المملكتين.

١. أوضاع الشرق الإسلامي قبيل الحملة الصليبية الثالثة.

وجدت الممالك الصليبية في بلاد الشام نفسها تقف على حافة هاوية سحيقة، إذ عانت من تآكل سياسي وعسكري متسارع حوّل ساحتها الداخلية إلى بؤرة للصراعات المحتدمة التي قوضت أسسها الهشة وجعلتها فريسة سهلة لأعدائها [1]، وقد تجلت ملامح ذلك الانهيار في أشد صورها من خلال العداء المستحكم بين جاي لوزينيانGuy Lusignan(١١٥٠-

[1] Justin Lee Matthews, Great Men of Christianity: The Failure of the Third Crusade, MA Thesis, Western Kentucky University Top Scholar, Graduate School, USA, 2011, p. P9.

١١٩٢) ملك القدس، وريموند الثالث Raymond III (١١٤٠- ١١٨٧) كونت طرابلس ؛ وهو صراع تجاوز المنافسة الشخصية ليصبح تهديداً وجودياً لكيان المملكة، لاسيما بعد فشل الترتيبات السياسية التي وضعها الملك بلدوين الرابع Baldwin IV (الأبرص)(١١٦١- ١١٨٥) قبل وفاته، فعلى الرغم من محاولته تأمين استقرار المملكة بتعيين ابن أخته الطفل بلدوين الخامس Baldwin V (١١٧٨- ١١٨٦) وريثاً للعرش تحت وصاية ريموند الثالث، إلا أن وفاة الملك المجذوم عام ١١٨٥، ولحاق الوريث الطفل بهِ بعد عام ونصف في عكا، تسببا في حدوث فراغ سياسي خطير فتح أبواب الصراع على العرش على مصراعيها[١].

في موازاة ذلك التشرذم الداخلي، كانت الجبهات العسكرية تشهد انتكاسات كارثية، تُوّجت بالهزيمة الساحقة في معركة حطين عام ١١٨٧، لم تكن حطين مجرد خسارة لمعركة، بل كانت ضربة قاصمة أدت إلى حصار مدينة صور، آخر المعاقل الصليبية الكبرى، وفتحت الباب على مصراعيه لسقوط المملكة بأكملها في قبضة صلاح الدين[٢]، وفي ظل ذلك الواقع المتردي، وإذ بات الوجود المسيحي في الشرق على المحك، كان من الطبيعي أن تتجه أنظار من تبقى من الصليبيين في بلاد الشام إلى الغرب طالبين النجدة، حيث أصبحوا

---

[١] في ظل تلك الفوضى، انقسم البلاط الصليبي إلى معسكرين متناحرين: الأول يقوده ريموند الثالث الذي رأى في نفسه الأحق بالوصاية والعرش مدعوماً ببارونات فضلوا مهادنة صلاح الدين، والثاني تيار متشدد تزعمه جوسلين دي كورتناي الذي سارع لدعم الأميرة سيبيلا وزوجها الطموح جاي لوزينيان. وقد حُسم هذا الصراع بخطوة أثارت انقساماً عميقاً تمثلت في تتويج جاي لوزينيان ملكاً على بيت المقدس عام ١١٨٦، وهو ما اعتبره ريموند الثالث انقلاباً على الشرعية، فرفض الاعتراف بالملك الجديد وانسحب غاضباً إلى طبرية. ولم يقف الأمر عند حدود الرفض السياسي، بل تصاعدت الأزمة حينما عمد الملك جاي إلى تجريد ريموند من إقطاعاته، بما فيها مدينة بيروت، مما دفع الأخير لاتخاذ قرار صادم بالتحالف التكتيكي مع صلاح الدين الأيوبي طلباً للمساعدة العسكرية، في خطوة عُدت خيانة عظمى داخل الأوساط الصليبية، وحذا حذوه فيها بوهيموند الثالث أمير أنطاكية الذي جدد الهدنة مع المسلمين لتأمين إمارته.لقد كان لهذا الانشقاق الحاد في الصف الصليبي تداعيات استراتيجية كارثية على المملكة؛ إذ قدّم -من حيث لا يحتسب الفرقاء- هدية ثمينة لصلاح الدين الأيوبي، الذي استثمر ببراعة هذا التفكك الداخلي واختراق الجبهة الصليبية عبر حلفاء من داخل البيت الحاكم، مما كشف له مواطن الضعف في دفاعاتهم ومهد الطريق للمعركة الفاصلة التي كانت سبباً في تغيير وجه التاريخ في الشرق الأدنى. يراجع: محمد محمد مرسي الشيخ، المصدر السابق، ص ٣٥٥؛ أحمد الشامي، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٥٨، ص ١٢٠؛ محمد مؤنس عوض، الحروب الصليبية والعلاقات بين الشرق والغرب في القرنين ١٢ و ١٣، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٢٠٦.

[٢] أحدث انتصار صلاح الدين الأيوبي الساحق في معركة حطين زلزالاً عسكرياً قوض أركان الوجود الصليبي في المشرق، إذ تمكن في حملة خاطفة لم تتجاوز ثلاث سنوات من استعادة الغالبية العظمى من المدن والحصون التي استغرق بناؤها قرناً كاملاً، مما قلص نفوذ الإمارات الصليبية في طرابلس وأنطاكية بشكل كبير وحصر مملكة بيت المقدس فعلياً في مدينة صور التي تحولت إلى الملاذ الأخير للفلول المذعورة، وعلى الرغم من حالة الانهيار المعنوي، شكل وصول القائد المحنك كونراد دي مونتفرات إلى صور نقطة تحول حاسمة؛ إذ نجح في توحيد الصفوف وتنظيم الدفاعات مستغلاً جغرافية المدينة، فقام بمساندة التجار الأثرياء بابتكار تحصينات هندسية حولت المدينة إلى جزيرة معزولة عبر خنادق مائية، مما جعل اقتحامها أمراً شبه مستحيل. وقد أدت تلك المناعة، بالإضافة إلى الخسائر التي لحقت بالأسطول المصري، إلى إجبار صلاح الدين على رفع الحصار بعد أن كان قد أرجأه سابقاً لفتح القدس، ليُشكل صمود صور بذلك ركيزة استراتيجية حافظت على الوجود الصليبي ومهدت الطريق لوصول إمدادات الحملة الصليبية الثالثة. يراجع: المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢، تحقيق: محمد عبد القادر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧، ص ٩٥-٩٦ ؛ سباق نادية، العلاقات الخارجية للسلطنة الأيوبية مع الدول المجاورة عهد صلاح الدين الأيوبي ١١٧٤- ١١٩٣، رسالة ماجستير، جامعة ٨ ماي ١٩٤٥ قالمة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجزائر، ٢٠٢٢، ص ٦٤-٧٣.

يدركون تمامًا أن خلاصهم لن يأتِي من داخل ساحتهم السياسية المنقسمة والمستنزفة، بل من قوة خارجية موحدة وقادرة على إعادة النظام واستعادة الأراضي المفقودة؛ كان التوجه نحو ملوك أوروبا خيارًا منطقيًا لا مفر منه؛ فالملك في العصر الوسيط لم يكن مجرد قائد عسكري، بل كان رمزًا للسلطة والشرعية، يمتلك القدرة على حشد الجيوش والأساطيل الضخمة، وتوفير الموارد المالية الهائلة اللازمة لحملة بذلك الحجم، ومنح المشروع الصليبي هيبةً وشرعيةً لا تضاهى، وكما لخص أحد المؤرخين ذلك المأزق: **"بدون مساعدة الغرب، كانت فرصهم في السيطرة على صور ضئيلة، وفرصهم في استعادة الأراضي المفقودة معدومة"**[١]، إلا أن ذلك الاعتماد على المساعدة الخارجية كشف عن خلل جوهري في بنية الحركة الصليبية ذاتها، فلم يكن لدى الغالبية العظمى من القوات الأوروبية نية البقاء والاستيطان في الشرق، وكان دافعهم الأساس هو أداء فريضة الحج المسلح إلى القدس، وبمجرد أن تطأ أقدامهم المدينة المقدسة، كانوا يعتبرون أن نذرهم الصليبي قد تحقق، فيعودون أدراجهم إلى أراضيهم ومصالحهم في أوروبا، تاركين وراءهم فراغًا استراتيجيًا وعسكريًا سرعان ما يستغله أعداؤهم[٢].

سعى المؤرخون ورجال الدين المعاصرون في الأرض المقدسة في خضم تلك الأزمات، إلى فهم أسباب ذلك التدهور، وقد غلب على تفسيراتهم الطابع الروحي والأخلاقي، فمؤلف كتاب: **"رحلة الحجاج والملك ريكاردوس"** (Itinerarium Peregrinorum et Gesta Regis Ricardi) يعتقد أن **"العدو القديم"** - أي الشيطان- قد **"نشر روح الفساد على نطاق واسع"** في أوساط المسيحيين، مما دفع المسيح إلى **"رفض ميراثه"**، والسماح للأمم الأخرى بالسيطرة على أرضه، وردد مؤلف **"التتمة"**(The Continuation) صدى ذلك الرأي، مؤكدًا أن انتصار صلاح الدين كان نتيجة مباشرة لغضب الرب الشديد على الجيش المسيحي **"بسبب خطاياهم"**، لقد انتشر الفساد الأخلاقي في كل أرجاء المملكة، حتى إن صلواتهم لم تعد مقبولة، **"لأن رائحة الزنا والإسراف المقيت والخطيئة ضد الطبيعة لم تسمح لدعواتهم بالارتفاع إلى السماء"**، وقد عبّر بطريرك القدس، إراكليوس Heraclius (١١٢٨- ١١٩١) عن ذلك الشعور باليأس في رسالته إلى البابا أوربان الثالث، معلنًا أن **"غضب الرب قد حلّ علينا حقًا"** وأن أهواله قد **"أربكت الشعب"**[٣].

وإلى جانب ذلك التشخيص الروحي، كان هناك إدراك واضح للأسباب السياسية والدنيوية التي أدت إلى هذا المصير المأساوي، فالكبرياء والطموحات الشخصية الجامحة للطامحين إلى عرش القدس كانت سببًا رئيسًا في وصولهم إلى تلك الحالة المزرية، لقد طغت الخصومات الشخصية والغيرة العمياء في كثير من الأحيان على الحكمة الاستراتيجية والحاجة الماسة للوحدة في مواجهة الخطر المشترك، حتى قيل: إن **"المكائد الخفية"** التي

(1) Justin Lee Matthews, Op. Cit., pp. 8-9.
(2) Ibid, p. 9.
(3) Peter W. Edbury, The Conquest of Jerusalem and the Third Crusade, Ashgate, England, 1998, p. 47.

سادت في عهد الملك بلدوين الرابع كانت تمثّل تهديدًا داخليًا يفوق خطر صلاح الدين نفسه[١].

وهكذا كانت المناورات السياسية الضيقة في الممالك الصليبية في الشرق مجرد صورة مصغرة ومقدمة للمناورات أكثر تعقيدًا وأوسع نطاقًا والتي ستندلع بمجرد وصول ملوك أوروبا الكبار، وكما ستكشف أحداث الحملة الصليبية الثالثة لاحقًا، فإن إشراك هؤلاء الملوك، على الرغم من ضرورته، سيجلب معه أجنداته المتضاربة وتنافسه الشخصي، ليضيف طبقة أخرى من التعقيد والتحدي إلى قضية الدفاع عن الأرض المقدسة[٢].

٢. اشتراك الملك فيليب أغسطس في الحملة الصليبية الثالثة ١١٨٩ -١١٩١.

تحمس الملكان الإنكليزي والفرنسي للمشاركة في الحملة الصليبية الثالثة، فالملك ريتشارد يمثل النموذج الأمثل للفارس الصليبي في العصر الوسيط، لم تكن دوافعه سياسية بالدرجة الأولى بقدر ما كانت شخصية وشرفية، لقد كان فارسًا يدفعه حماس منقطع النظير، ويرى في ميادين القتال في الأراضي المقدسة فرصة لتحقيق المجد الشخصي وتخليد اسمه في التاريخ[٣]، أما الملك فيليب أغسطس كان مدفوعًا برغبة عميقة في محو وصمة العار التي لحقت بوالده الملك لويس السابع، إثر فشله الذريع في الحملة الصليبية الثانية، وكان يرى في نجاحه المحتمل تعويضًا ذلك الإخفاق[٤].

كانت عبقرية فيليب الحقيقية تجسدت في قدرته الفائقة على تحويل مشاركته في الحملة الصليبية الثالثة من مجرد واجب ديني أملته تداعيات سقوط بيت المقدس عام ١١٨٧، إلى مناورة استراتيجية شاملة أعادت تشكيل موازين القوى في أوروبا، فعلى الرغم من أن قراره لم يكن نابعاً من حماسة روحية خالصة، بل جاء استجابة لضغوط السلطة البابوية والحراك الشعبي الذي أججه رجال الدين وشعراء التروبادور، إلا أن فيليب نجح بذكاء في توظيف تلك الضرورة الشرعية لخدمة أهداف التاج الفرنسي؛ إذ اتخذ من الحملة أداة فعالة لتعزيز هيبة الملكية وإظهار نفسه قائداً للعالم المسيحي، متجاوزاً بذلك حدود مملكته ليفرض حضوره على الساحة الأوروبية[٥].

---

(1)Thomas Madden, The New Short History of the Crusades, Rooman and Littlefield, London, 2006, p. 71.

(2) Justin Lee Matthews, Op. Cit., p. 10.

(٣) مع وفاة هنري الثاني، انتقلت مقاليد حكم الإمبراطورية الأنجلو- فرنسية الشاسعة إلى قبضة ابنه ريتشارد بسلاسة وهدوء، إيذانًا ببدء عهد جديد، ففي العشرين من تموز لعام ١١٨٩، تم تتويجه في احتفالية مهيبة دوقًا على نورماندي في روان، وتلا ذلك تتويجه ملكًا على إنكلترا في لندن في الثالث من أيلول، وكان ريتشارد يمثل شخصية مختلفة كليًا عن أبيه، فقد تمتع بجرأة فذة وحضور لامع وسخاء منقطع النظير، وهي صفات افتقر إليها هنري الثاني، ذاع صيته في أرجاء العالم الإقطاعي ليس فقط كفارس أسطوري، بل أيضًا كشاعر جوال موهوب، وعلى الصعيد العسكري، تفوق على والده كخبير تكتيكي فذ، ومن الإجحاف اختزال صورته في مقاتل مندفع يزهو بقوته الجسدية ومهارته القتالية، فعلى الرغم من أنه كان أقل من فيليب أغسطس في التخطيط الاستراتيجي طويل الأمد والحسابات الدقيقة، إلا أنه امتلك قدرة ملحوظة على التفاوض، وطرح رؤى سياسية واضحة، والمثابرة على تحقيقها بعناد وإصرار.

Achille Locher, Philippe Auguste et son époque, p. 62.

(4)James Noss, The Capetian Kings of France and the Early Crusades, Manchester University Press, London, 2016, P. 123.

(٥) ميخائيل زابوروف، المصدر السابق، ص ١٩٨- ١٩٩؛

وفي الداخل الفرنسي، مثلت الحملة لفيليب فرصة ذهبية للهروب إلى الأمام وتحييد خطر النبلاء وكبار الكونتات الإقطاعيين الذين طالما خشي طموحاتهم الاستقلالية؛ فقد أدى خروجهم للشرق وموت بعضهم هناك أو استقرارهم بعيداً إلى إخلاء الساحة للملك لكي يبسط نفوذه، مما سمح بضم مساحات واسعة من إقطاعياتهم إلى التاج الفرنسي وتوطيد دعائم حكمه المركزي في غيابهم، ولم تكن تلك الحسابات الداخلية بمعزل عن الهاجس الجيوسياسي الخارجي المتمثل في التنافس المحتدم مع ريتشارد ، حيث كانت مرافقة فيليب لغريمه الإنكليزي ضرورة حتمية لمراقبة تحركاته عن كثب، وضمان عدم انفراده بالمجد العسكري أو استغلال غياب الملك الفرنسي لتوسيع نفوذه، وقد تعززت تلك الدوافع السياسية والعقائدية بنبوءة ظهرت في نهاية عام ١١٨٨ على لسان زاهد نصراني مبشرةً بحتمية استعادة المدينة المقدسة، وفي حقبة تاريخية تجذر فيها الإيمان بالمعجزات، لم تقتصر تلك النبوءة على كونها بشارة عابرة، بل تحولت إلى قوة معنوية هائلة سرت في أوصال البلاطات الأوروبية وبين الأوساط الشعبية، حيث عدّت إشارة إلهية بأن الرب يبارك تلك الحملة وأن النصر سيكون حليف الملوك الصليبيين، بالنسبة لفيليب أغسطس، لم تكن النبوءة مجرد وعد باستعادة الأراضي المقدسة، بل كانت أيضًا بمثابة تفويض سماوي لمساعيه، مما منحه مبررًا إضافيًا لحشد النبلاء والفرسان تحت رايته، وأضفى على طموحاته الشخصية هالة من القداسة وبذلك انطلق فيليب أغسطس إلى الشرق، لا كحاج متواضع أو جندي في سبيل الرب فحسب، بل كملك طموح يسعى لإعادة كتابة تاريخ عائلته، وتأكيد هيمنة مملكته، وتحقيق نبوءة بشرت بمجد موعود على أسوار مدينة القدس[١].

توحدت جهود الملكين الفرنسي فيليب أغسطس والإنكليزي ريتشارد عندما اجتمعا في جيزور وأصدرا مرسوماً باسمهما في الثلاثين من كانون الأول عام ١١٨٩ أعلنا فيه اشتراكهما في الحملة الصليبية والأهداف المرجوة منها، ووعد كل منهما الآخر بأن يعامله بما هو أهلاً له من احترام وإخلاص، وما تحتمه علاقة التابع بالمتبوع، كما تم التنبيه إلى إنزال عقوبة الحرمان على كل من يحاول أن يتخاذل عن اللحاق بالحملة، وعلى كل من يحاول الاعتداء على أراضي الملكين، هذا فضلا عن حماية أملاك كل صليبي شارك في الحملة أثناء غيابه في الشرق على يد رجال الدين والدولة وفقاً لقانون هدنة الرب، كما أعاد الملك فيليب أغسطس تشاتوروكس Chaturox وتورس Taurusولامانس Lamans إلى الملك الإنكليزي ريتشارد ولم يحتفظ سوى بجزء صغير من بيري Berry والسيادة المباشرة على فيرني Fernie، وقد توّج ذلك الاتفاق بقسم رسمي وعلني إذ أعلنا: **"سنُكمل معًا، بإرشاد الرب، الرحلة إلى القدس"**، ثم تعهد كل منهما للآخر، فقال فيليب: **"أنا، فيليب، ملك فرنسا، أعد ريتشارد، ملك إنكلترا، بالحفاظ على حسن النية والصداقة الطيبة، كصديق وفيّ"**، وردّ ريتشارد مؤكدًا التزامه وولاءه الإقطاعي: **"وأنا، ريتشارد، ملك إنكلترا، أتعهد بذلك لفيليب،**

René Grosset, L'épopée des croisades, Librerie Plon, Paris, 1936, p. 64.

[١] ستيفن رانسيمان، تاريخ الحملات الصليبية، ترجمة: نور الدين خليل، ج٣، ط٢، الإسكندرية، ١٩٩٨، ص ٢٨.

ملك فرنسا، بصفته سيدي وصديقي"[١].

واجهت انطلاقة الحملة الصليبية تعثراً ملحوظاً حال دون بدئها في الموعد المقرر، إذ تضافرت ظروف قاهرة أدت إلى إرباك المشهد السياسي والعسكري؛ بدأت بوفاة إليزابيث زوجة فيليب أغسطس أثناء ولادتها للأمير لويس الثامن في مارس ١١٨٩، مما أدخل الملك في دوامة من الحداد والتعقيدات الحسابية، وتلا ذلك نكسة استراتيجية كبرى تمثلت في وفاة وليم الثاني William II(١١٥٣- ١١٨٩)، ملك صقلية، الذي كان يُعول عليه كحليف استراتيجي وممول رئيسي للحملة بحكم مصاهرته للملك ريتشارد، فضلاً عن كون مملكته محطة لوجستية حيوية للتزود بالمؤن، ونتيجة لتلك المستجدات، اتفق الملكان على تأجيل التحرك إلى ما بعد الرابع والعشرين من حزيران، ليلتقيا في الثاني من تموز عام ١١٩٠ في مدينة فيزلاي، حيث أرسيا دعائم تحالفهما عبر اتفاقيات شملت المناصفة التامة في الغنائم، وتحديد مدينة ميسينا الصقلية نقطةً للالتقاء،مع القسم المغلظ بحماية أراضي بعضهما البعض أثناء الغياب تحت طائلة الحرمان الكنسي[٢]، وقد توجت تلك التفاهمات بقرار استراتيجي حاسم بتجنب الطريق البري التقليدي واعتماد المسار البحري، وهو خيار أملته قراءة عميقة للواقع ودروس الماضي القاسية؛ فمن جهة، كانت مأساة الحملة الألمانية وغرق إمبراطورها فريدريك بربروسا Frederick Barbarossa (١١٢٢- ١١٩٠) وتشتت جيشه شاهداً حياً على مخاطر الطريق البري، ومن جهة أخرى، فرض التحالف السياسي المقلق بين الإمبراطور البيزنطي إسحاق الثاني أنجيلوس Isaac II Angelos (١١٥٦- ١٢٠٤) والسلطان صلاح الدين تحدياً أمنياً جعل من عبور الأراضي البيزنطية مغامرة غير محسوبة العواقب، وعلاوة على ذلك، وفر الخيار البحري ميزات لوجستية ضمنت استدامة خطوط الإمداد والاتصال مع أوروبا، وساهمت بفاعلية في الحفاظ على الوحدة التنظيمية للجيوش، مانعةً التشتت والاحتكاكات الداخلية التي طالما استنزفت الحملات السابقة، مما ضمن وصول القوات إلى ساحة الصراع في بلاد الشام بكامل جاهزيتها القتالية [٣].

في تلك الأثناء أمر الملك فيليب أغسطس ريتشارد بإتمام الزواج من أخته الأميرة أليس قبل الذهاب في الحملة، وعندئذ تقدم الملك ريتشارد مخاطباً الملك فيليب: **"يا مولاي من المحتم علي أن أخبرك أنني فتى صغير السن، وقد توجت منذ قريب، وإنك تعرف أنني ماض مثلما أنت ماض إلى ما وراء البحار، لذا فإني التمس منك أن تؤجل زواجي حتى أعود من السفر، وسأكون ملتزماً لك بالعهد الذي عاهدتك وهو الزواج من أختك بعد أربعين يوماً من رجوعي، استجاب الملك فيليب أغسطس لطلب الملك ريتشارد ورضي أن يؤجل الزواج إلى**

---

(1)Achille Locher, Philippe Auguste et son époque, p. 63.

(٢) زينب عبد القوي، الانكليز والحروب الصليبية ١١٨٩ – ١٢٩١، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، القاهرة، ١٩٩٦، ص ١٢٢.

(٣) عادل عبد الحافظ حمزة، العلاقة السياسية بين الدولة الأيوبية والامبراطورية الرومانية المقدسة زمن الحروب الصليبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠١، ص ١٧٠؛ زينب عبد القوي، المصدر السابق، ص ١٢٣.

ما بعد العودة من الحملة، وبعدها اتفقا على تجهيز الحملة والالتقاء في فيزلاي للذهاب إلى القدس"[١].

بدأ الملك ريتشارد في الإعداد للحملة بجمع الأموال اللازمة، ففرض ضريبة العشور على جميع البضائع المنقولة في أرجاء إنكلترا، نظراً لأن ما تركه والده من أموال لا يكفي لإعداد جيش متكامل، كما قام بفصل العديد من موظفي الدولة ثم أعاد تعيينهم مقابل بعض المال نظير ما تقلدوه من مناصب، إلى جانب الحصول على أموال من رجال دين لم يرغبوا في مصاحبة الحملة، كما قام ببيع بعض المواقع الحيوية للملك الإسكتلندي وليم الأسد التي فقدها الأخير زمن الملك هنري الثاني في مقابل عشرة آلاف جنيه مايوازي ثلاثون ألف جنية باريسي، حتى أنه قال دون خجل بأنه من الممكن أن يبيع لندن إذا وجد لها مشتر، كذلك قام بمصادرة بعض السفن التي كانت راسية على شواطئ إنكلترا ليستخدمها في نقل قواته إلى سواحل الشام، ومن خلال تلك الإجراءات اكتمل أسطوله الذي بلغ مائة سفينة ليحمل جيشه البالغ عدده ثمانية آلاف رجل[٢]

أما عن الملك فيليب أغسطس فلم يكن أقل استعداداً للحملة، فقد تعسف في جمع الضرائب، وما يؤكد ذلك أن أحد رجال الدين الفرنسيين انتقل إلى إنكلترا، وهناك اشتكى له رجال الدين في لندن من قسوة ما فرض عليهم من ضرائب وصلابة الملك ريتشارد في جمعها، فردّ عليهم رجل الدين الفرنسي بأن ملكهم ريتشارد يعدّ قديساً مقارنة بملك فرنسا الذي ابتز أموال الكنائس لتمويل الحملة[٣].

وقبيل انطلاق الملك فيليب أغسطس إلى الحملة الصليبية الثالثة، وفي منعطف حاسم من تاريخ فرنسا؛ وضع الملك فيليب أغسطس وثيقة **"وصية عام ١١٩٠"** التي كانت بمثابة دستور مؤقت وتجسيد لرؤيته في بناء دولة مركزية قوية، فإدراكًا منه لمخاطر غيابه؛ لم يكتفِ بالتحصينات المادية كبناء سور باريس العظيم، بل أسس لنظام حكم صارم يضمن استمرارية سلطته، إذ قام بتعيين والدته الملكة أديل وخاله رئيس أساقفة ريمس كوصيين شرعيين، لكنه قيّد سلطاتهما بصورة شبه كاملة عبر مجلس رقابة مساعد مكوّن من رجال دين ومسؤولين وفرسان وبرجوازيين موالين له، ليحول دون أي استغلال للسلطة، ولضمان التحكم في مملكته عن بعد؛ فصّل فيليب السلطة السياسية عن المالية، إذ عهد بخزانة الدولة والختم الملكي إلى فرسان الهيكل ولجنة من الموالين، ومنع فرض أية ضرائب جديدة، كما فرض على الوصيين عقد جلسات قضائية دورية، وتلقي تقارير مباشرة منهم ومن كبار موظفيه ثلاث مرات سنويًا، مع حصر سلطة عزل المسؤولين بيده إلا في الجرائم الكبرى، وبعد إتمام تلك الترتيبات الإدارية الصارمة، توجه إلى كاتدرائية سان دوني مثوى الملوك الفرنسيين، ليتسلم على وفقً التقاليد عصا الحاج وحقيبته، وهي رموز رحلته المقدسة، هناك نال البركة من الآثار الثمينة التي يحتفظ بها الرهبان، ولكي يضمن حماية القديس دينس له

---

(١) حسن حبشي، المصدر السابق، ص١٨٠- ١٨٢.

(٢) محمود سعيد عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص ٢٥٥.

(3)Achille Locher, Social France, P. 243.

في رحلته؛ أهداه عباءتين فاخرتين من الحرير ولافتتين كبيرتين مزينتين بالصلبان والأهداب الذهبية، وبعد إتمام تلك الطقوس؛ انطلق فيليب أخيرًا في طريقه نحو الشرق، تاركًا وراءه مملكة محصنة وهيكلاً إداريًا يضمن بقاءه الحاكم الفعلي لها، وإن كان غائبًا بالجسد[١].

اصطحب الملك فيليب أغسطس في حملته بعض رجاله الإقطاعيين وعلى رأسهم فيليب كونت فلاندرز الذي أراد الاشتراك في الحملة كنوع من التعويض عن حملته الفاشلة التي قام بها عام ١١٧٧ أي قبل عشر سنوات، كما صحب الملك فيليب أغسطس كلاً من هنري الثاني كونت شمبانيا، **Henry II, Count of Champagne** (١١٦٦- ١١٩٧)، وثيوبولد الخامس كونت بلوا **Theobald V, Count of Blois** (١١٣٠- ١١٩١)، وهيو الثالث دوق بورغوندي **Hugh III, Duke of Burgundy** (١١٤٢- ١١٩٢) إلى جانب عدد من رجال الدين والفرسان وكبار رجال الدولة وقد سبقه بعضهم في الرحيل إلى الأراضي المقدسة[٢].

انطلق الموكبان الملكيان في مسيرة تاريخية، سالكين أودية نهري السون والرون الخصبة، حيث كانت الحملة الصليبية تشق طريقها جنوبًا، وعند وصولهم إلى مدينة ليون، عبرت الجيوش النهر فوق جسر قديم، الذي ما لبث أن انهار خلفهم في مشهد درامي، وكأنه يقطع عنهم طريق العودة ويؤكد على أن وجهتهم واحدة، وهي المضي قدمًا نحو الشرق، وعلى طول ضفاف النهرين، كانت المشاعر فياضة، فقد هرعت حشود غفيرة من سيدات وفتيات المناطق المجاورة لاستقبال طلائع الحملة، كن يتقدمن بخطى حثيثة، حاملاتٍ في أيديهن الأحواض المليئة بالماء البارد والسلال الزاخرة بأطيب الثمار والمأكولات، ليقدمنها للصليبيين كعربون للدعم والولاء، وقد ساد حماس منقطع النظير، وبدا أن ذلك الشغف الشعبي قد ألهب قلوب الملكين ومنحهما دفعة معنوية هائلة[٣].

لكن سرعان ما بدأت تلك الوحدة الظاهرية تتصدع أمام ضرورات الواقع واختلاف الخطط، فما إن تجاوزا ليون، حتى افترق الموكب الملكي، كان لكل ملك مساره اللوجستي الخاص، فبينما كانت سفن ريتشارد وأسطوله الضخم تنتظره في ميناء مرسيليا، كان على فيليب أن يدبر أمر نقله البحري بنفسه، فعقد اتفاقًا مع بحارة جنوه[٤] **Genova** لتجهيز سفنه، كان ذلك الافتراق بداية لشرخ أعمق[٥]، عند وصول فيليب إلى جنوه؛ ألمّ بهِ مرض مفاجئ أعاقه عن مواصلة المسير، وفي بادرة دبلوماسية، قام ريتشارد بزيارته للاطمئنان عليه

---

(1) Achille Locher, Philippe Auguste et son époque, pp. 63-64.

(٢) حسن حبشي، المصدر السابق، ص ١٨١.

(3) Geoffnry de Vinsant, Richard of holy trinity Transfited: A Classical Scholar, Cambridge, Medieval Latin Series, 2001, P. 99; Achille Locher, Philippe Auguste et son époque, p.64.

(٤) جنوه: مدينة إيطالية تجارية كونت فيما بعد مستعمرة لها في مدينة جبيل في إمارة طرابلس الصليبية بسبب نشاطها في الحروب الصليبية. يراجع: سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص ٣٨٣-٢٩٣.

(٥) ستيفن رينيسمان، المصدر السابق، ص ٧٥.

والتشاور معه، وعرض عليه بسخاء ثلاثًا من سفنه من نوع الشيني **Chinese**[١]لمساعدته، إلا أن فيليب، الذي كان يطمح في دعم أكبر، طلب خمس سفن كاملة، وحين لم تُلبَّ رغبته، استشاط غضبًا ورفض العرض برمته، في إشارة واضحة على امتعاضه وتزعزع الثقة بين الحليفين، لقد كان ذلك الخلاف البسيط حول عدد السفن نذير شؤم كشف هشاشة اتفاقهما منذ البداية[٢].

في أواخر شهر آب من عام ١١٩٠، أبحر الملك فيليب أغسطس تجاه مدينة مسينا **Messina**[٣] في جزيرة صقلية، إلا أن سوء الأحوال الجوية وهبوب العواصف قد أدى إلى عرقلة مسيره وتأخر وصوله ؛ وفي ذلك الصدد يذكر جيه جيه سي في كتابة تاريخ فيليب أغسطس: **"ما إن بلغ الأسطول الفرنسي مضيق مسينا، حتى تغير وجه السماء، وأطبقت الظلمة على الأفق في وضح النهار، هبت عاصفة هوجاء، لم تشهد لها سجلات البحارة المخضرمين مثيلًا، فهاجت أمواج البحر وتلاطمت بعنف، وكأنها وحوش كاسرة تسعى لابتلاع السفن ومن عليها، اهتزت هياكل السفن الخشبية بعنف تحت وطأة الرياح العاتية، وتعالت صرخات الرعب والهلع ممزوجةً بهدير الرعد وأزيز الرياح، فأُلقيت الخيول والمؤن ومعدات الحصار في البحر لإنقاذ الأرواح"**، وفي خضم يأس الجنود خلال ليلة مرعبة، وسط ذلك الجو المشحون بالخوف واليأس، أظهر الملك فيليب أغسطس رباطة جأشٍ وقوة عزيمةٍ تليق بملك، تقدم بين جنوده المذعورين، وبصوتٍ ثابتٍ وقوي، خاطبهم بكلماتٍ بعثت في نفوسهم الطمأنينة والإيمان: **"أيها الرجال، اطرحوا عنكم الخوف والجزع! إنها ليست النهاية، بل هي زيارةٌ من الله العلي القدير، يختبر بها إيماننا وثباتنا، انظروا فالعاصفة بدأت تنحسر، في هذه الساعة، ينهض إخوتنا في دير كليرفو لأداء صلاة الغروب، ويرفعون أكف الضراعة إلى السماء من أجلنا، إن القديسين، الذين لا يغفلون عنا، يتشفعون لنا عند المسيح، وإن الكاهن في صلاته، يصالحنا مع الله، وسوف ينجينا ببركته من هذا الخطر العظيم." وكان لكلمات الملك أثر السحر في نفوس الرجال، سرعان ما بدأت الرياح تهدأ، وتراجعت الأمواج الهادرة، وانقشعت الغيوم تدريجيًا لتكشف عن بزوغ فجرٍ جديدٍ يحمل معه الأمل والحياة، عاد الهدوء إلى المضيق، وساد الصمت إلا من أصوات صرير أخشاب السفن المبتلة، نجا الأسطول بأكمله، ولم تكن الخسائر سوى في المؤن والممتلكات التي أُلقيت في البحر، وهي خسارةٌ بدت تافهةً أمام نعمة النجاة، كانت**

---

[١] الشيني: والجمع الشواني، أكبر أنواع السفن الحربية وأكثرها استعمالاً، وهي من أهم قطع الأسطول، تنوعت مسمياتها بناء على وظيفتها مثل الغراب والطريدة والجفنة والحراقة، بنيت فيها الأبراج والقلاع للدفاع والهجوم، كان متوسط حمولتها مائة وخمسون رجلاً وتجذف بأكثر من مائة مجذف. يراجع: أنوار الرفاعي، الإسلام في حضارته ونظمه، دار الفكر، دمشق، ٢٠١٣، ص ٢٢٤؛ عبد اللطيف عبد الهادي السيد، رؤية جاك دي فاري الأسباب فشل المشروع الصليبي في بلاد الشام، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠١٣، ص ٢١٧.

[2] J. J. C. R. Dazercq, Histoire de Philippe Auguste, Lille. Léfort, Libraire, Paris, 1841, pp. 116-117.

[٣] مسينا: مدينة وميناء تعتبر من أكبر موالي البحر المتوسط وأكثرها حركة. عبد اللطيف عبد الغني مشرف، القوى البحرية في حوض البحر المتوسط من القرن السادس عشر حتى منتصف القرن السابع عشر، دار البشير للثقافة والعلوم، جدة، ٢٠٢٥، ص ٦٤.

هذه المحنة بمثابة اختبارٍ لإيمانهم، وتذكيرًا بقوة القيادة الحكيمة، ودليلًا على أن الأمل يمكن أن يولد من رحم اليأس"[١].

وصل الملك فيليب أغسطس إلى جزيرة صقلية في ١٤ أيلول فتوقف فيها بسبب فصل الشتاء للتزود بالمؤن، فاستقبله ملكها تانكريد[٢] **Tancred** مرحباً بهِ أعظم ترحيب، واستقبله بما يليق بهِ كملك لفرنسا، ووضع مملكة صقلية رهن إشارته، والتمس منه أن يمضي الشتاء في مملكته، وتقرر أن ينزل في القصر الملكي في مدينة مسينا ، ولما رأى الملك فيليب أوغسطس ما معه من السفن والتجهيزات ورأى ما تنطوي عليه نصيحة تانكريد من الحكمة والصواب استجاب له، وأمضى الشتاء في صقلية، لتجنب المخاطر التي تتعرض لها السفن في هذا الفصل من السنة[٣].

أما الملك ريتشارد فقد بدأ حملته بالاعتداء على اليهود وقتلهم على أراضيه سنة ١١٩٠، ثم أمر أسطوله أن يحمل الجيش ويبحر إلى صقلية، أما هو فقد فضل الرحيل برأ تفادياً لدوار البحر تصاحبه حاشية صغيرة سارت معه براً حتى سالرنو **Salerno** [٤] وهناك أرسل من تبقى من جيشه قبله إلى مسينا، بينما أكمل هو الطريق البري ولم يكن معه سوى تابع واحد حتى وصل إلى إقليم كلابريا **Calabria** في جنوبي إيطاليا، ومنه عبر المضيق إلى مسينا وهناك التقى بهِ رجاله حيث أقيم احتفال كبير في السادس عشر من أيلول عام ١١٩٠ لقدومه[٥]، وما إن علم الملك الفرنسي بوصل ريتشارد حتى قام بزيارته بعد يومين من وصوله إلى مسينا، وجاء ملك صقلية تانكريد إلى الملك ريتشارد ورحب بهِ، ودعاه للإقامة في القصر الملكي الفرنسي، فردّ ريتشارد بالشكر والاعتذار منه، وذلك بسبب إساءة تانكريد السابقة لاخته جوانا **Joan**[٦]، بعد وفاة زوجها وحرمانها من حقوقها[٧].

---

(1) J. J. C. R. Dazercq, Histoire de Philippe Auguste, Lille. Léfort, Libraire, Paris, 1841, pp. 116-117.

(٢) تانكريد(١١٣٨- ١١٩٤): كونت لينشي Lecce، ابن عم غير شرعي لملك صقلية الراحل وليم الثاني أي ابن غير شرعي للملك الصقلي روجر الأول Roger I استولى على الحكم بمساعدة البابوية بعد وليم الثاني في عام ١١٨٩ الذي لم يترك ورينا من زوجته جوانا شقيقة الملك ريتشارد، كان رجلاً ضئيل الجسم قبيح الخلقة، دخل في مشاكل مع أسرة الهوهنشتاوفن Hohenstaufen الألمانية التي كانت ترى أنها أحق بحكم صقلية بسبب زواج أحد أبنائها ويدعى هنري. لاحقاً هنري السادس من عمة الملك الراحل وليم الثاني وتدعى كونستانس. يراجع:
Ferdinand Chalandon, The Norman kingdom of Sicily. The Cambridge Medieval History, V. (Eng: University of Cambridge. 1979), pp. 200-201.

(٣) حسن حبشي، المصدر السابق، ص ١٨٢.

(٤) سالرنو: إمارة لمبادرية في إيطاليا تمتعت بالاستقلال ذاتي، سكانها مزيج من اللمبارديين والعنصر اللاتيني من أهل البلاد الأصليين. عادل زيتون، المصدر السابق، ص ١٥٧.

(٥) ستيفن رانيسمان، المصدر السابق، ص ٧٧.

(٦) جوانا (١١٦٥- ١١٩٩): ابنة الملك هنري الثاني وإليانور أكيتاين، كانت أميرة إنكليزية بارزة في الساحة السياسية الأوروبية، تزوجت في سن الحادية عشرة من وليم الثاني ملك صقلية، وبعد وفاته سُجنت على يد خليفته تانكريد، لكن شقيقها ريتشارد قلب الأسد أنقذها عام ١١٩٠ وهو في طريقه إلى الحملة الصليبية الثالثة، توفيت عن عمر ٣٣ عاماً بعد أن أصبحت راهبة، ودُفنت بجانب والدها وشقيقها ريتشارد. يراجع حول شخصية الملكة جوانا:
Susan Coventry, The King's Daughter, Henry Holt & Company, LLC, New York, 2010.

(٧) عند وفاة الملك النورماندي وليم الثاني "الطيب"، ملك صقلية في تشرين الثاني من عام ١١٨٩، دون أن يترك وريثاً مباشراً، دخلت المملكة في مدة من الاضطراب السياسي والصراع على السلطة، وكانت أرملته الشابة، الملكة جوان، ابنة الملك هنري الثاني ملك إنكلترا، أولى ضحايا هذا الصراع، كان الملك وليم الثاني قد خصص لزوجته جوان، التي ارتبط بها

لكنه قرر التحدث إلى تانكريد بناء على نصيحة الملك فيليب أغسطس حول تركة أخته الملكة جوانا والتي رفض تسليمها لها، وهي هبة كبيرة كان قد خلفها الملك وليم الثاني **William II**(١١٥٣- ١١٨٩) الراحل لصهره الملك هنري الثاني شملت أثاثاً صنع من الذهب، وخيمة منسوجة من الحرير وسفينتين مسلحتين، وعدد كبير من الأكياس الكبيرة المصنوعة من الصوف التي امتلأت بالمؤن، وهو ما يعد أمراً ذا أهمية نظراً لحاجة الملك ريتشارد للمال لدعم قوته وحملته الصليبية، لكن نظراً لموت الملك هنري الثاني رأى الملك تانكريد أن يحتفظ بها لنفسه، كما فرض على الملكة جوانا الإقامة الجبرية في دارها، لذا طالب تانكريد الأفراج عنها ورد أموالها إليها[١].

هنا لابد لنا من التساؤل هل كانت نصيحة الملك فيليب أغسطس للملك ريتشارد نابعة باهتمام ملك بأحد رجال إقطاعيته؟ أم من أجل الصداقة التي كانت بينهما والسارية حتى ذلك الوقت؟ أم نكاية من الملك فيليب أغسطس بالملك تانكريد من أجل إرضاء أسرة الهوهنشتاوفن **Hohenstaufen** التي تربطها علاقة طيبة مع ملوك فرنسا في محاولة الإيقاع بين الملك تانكريد والملك ريتشارد، وهذا ما يرجحه الباحث بسبب الأحداث التالية.

إذ انزعج الملك تانكريد مما سمعه، فأنزل الملك ريتشارد في أحد القصور الملكية خارج أسوار مسينا، ولعل ذلك كان بناء على رغبة الملك ريتشارد الذي فضل الابتعاد عن الملك فيليب أغسطس الذي نزل للإقامة في القصر الموجود في بالرمو **Palermo**[٢]، حتى لا يثقل على ملك فرنسا أو يتطفل عليه لعلمه أن الفرنسيين كانوا شديدي الكبرياء فيما كان الإنكليز سريعي الغضب، لذلك فضل ريتشارد أن يقيم في الجانب الآخر حتى لا يحدث أي نزاع بين الطرفين[٣].

قام الملك فيليب أغسطس بزيارة الملك ريتشارد في مقر إقامته عارضاً عليه مساعيه الودية للتوسط بين الجانبين، وفي أثناء ذلك قام الملك تانكريد برد الملكة جوانا لأخيها فوصلت بصحبة حرس ملكي، وما أن رأت الملك فيليب أغسطس حتى قدمت له كل التقدير والاحترام لما أظهره في استقبالها من المشاعر الودية ما جعل الجميع يتوقع سماع خبر

في عام ١١٧٧، مخصصات ضخمة وثروات طائلة تليق بمكانتها كملكة لصقلية، وشمل ذلك أراضٍ ذات أهمية استراتيجية، من ضمنها منطقة مونتي سانت أنجيلو، إلا أن وفاته المفاجئة فتحت الباب أمام ابن عمه تنكريد كونت ليتشي، للاستيلاء على العرش، متجاوزاً بذلك الحق الشرعي لعمة وليم، كونستانس، وزوجها الإمبراطور الروماني المقدس هنري السادس، وفور اعتلائه العرش؛ سارع تنكريد إلى تعزيز سلطته والتخلص من أي تهديد محتمل، ونظراً لدعم الملكة الأرملة جوان الصريح لأحقية كونستانس بالعرش، عدّها تنكريد خصماً سياسياً، وبناءً على ذلك، أقدم على تجريدها من جميع ممتلكاتها وأراضيها الشاسعة التي ورثتها عن زوجها الراحل، ووضعها قيد الإقامة الجبرية في قصر باليرمو، مانعاً إياها من مغادرة المملكة. يراجع:

Richard Davies, Records of the Crusades, George Bell & Sons, London 1892, pp. 14-15; Painter, S., The Third Crusade, New York, 1948, pp. 58-60.

[١] سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، الحملة الصليبية الثالثة، ج٣١، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٨، ص ٤٢ – ٤٣.

[٢] بالرمو: مدينة كنعانية أسسها الفينيقيون كمركز عمراني وتجاري لهم على الجزيرة، واسمها اليوناني "بالرموس"، وهي من أمهات المدن الكبرى في صقلية وأكثرها ازدهاراً ورفاهية بسبب ثروتها، وقد جرت العادة تتويج ملوك صقلية بها. مجلة الفيصلية، صقلية صور وحكايات، العدد ٢١٧، ١٩٩٤، ص ٩ – ١٠.

[٣] حسن حبشي، ذيل وليم الصوري، ص ١٨٤.

زواجهما إلا أن ذلك لم يحدث[١]، ولو أفترض جدلاً أنه حدث فلن يمنع الصدام بين الملكين لأن الخلاف أكبر منهما فهو خلاف بين بيتين لا شخصين والدليل على ذلك أن زواج الأميرة الفرنسية مارغريت السابق من الملك هنري الشاب لم يرأب الصدع ولم يحل النزاع القائم، لكن الملك تانكريد رفض ردّ أموالها إليها، وعندئذ غضب الملك ريتشارد وقام بالهجوم على جزيرة صغيرة في مسينا وطرد رهبان يونانيين منها وأحل عسكره مكانهم مما روع السكان اليونانيين، كما وقع شجار في ضاحية مسينا في نهاية شهر أيلول من عام ١١٩٠ بين طائفة من السكان والعسكر الإنكليز، وانتشرت شائعة مفادها أن الملك ريتشارد ينوي الاستيلاء على كامل صقلية، عندئذ قرر الملك تانكريد إغلاق أبواب مسينا في وجه رجال الملك ريتشارد حتى عجزوا عن اقتحام الميناء، فبادر الملك فيليب أغسطس لتهدئة الوضع ظاهرياً عندما استنجد بهِ سكان مسينا لإنقاذهم من الملك ريتشارد[٢]، وأثناء الاجتماع وصلت إلى مسامع الملك الإنكليزي ريتشارد الشتائم الموجهة ضده من أهل مدينة مسينا فاشتاط غضباً وغادر الاجتماع، وأمر عساكره بأن يقوموا بالهجوم مرة أخرى على مدينة مسينا، ونتيجة المفاجأة سقطت المدينة خلال ساعات، وتم رفع العلم الإنكليزي على مدينة مسينا، مما أدى إلى استياء الملك الفرنسي فيليب أغسطس وجنوده، فقام بإرسال رسله إلى الملك الإنكليزي ريتشارد من أجل رفع العلم الفرنسي بجانب الإنكليزي وفقًا لاتفاق فيزلاي، فوافق ريتشارد لإرضاء نظيره الفرنسي وإثبات حسن نواياه [٣].

وإمعاناً من الملك ريتشارد في تحديه للملك تانكريد قام ببناء قلعة ضخمة خارج المدينة أطلق عليها ميتاجريفون **Mategrifon** وكان يهدف من وراء إقامتها أن تكون ملجأً وملاذاً إذا ما دعت الحاجة إلى التماس موضع يحتمي بهِ لو ثار عليه أهالي مسينا وحملوا السلاح ضده[٤]، وللمرة الثانية أراد الملك الفرنسي فيليب أغسطس التدخل، لكن هذه المرة قام بإرسال هيو الثالث دوق بورغوندي إلى الملك تانكريد في كاتانيا **Catania**[٥] جنوبي مسينا ليحذره من نوايا الملك الإنكليزي ريتشارد، ويعرض عليه المساعدة إذا ما ازدادت الأحوال سوءاً[٦]، فرفض الملك تانكريد ما عرضه الملك فيليب أوغسطس من مساعدة، وفضل الدخول في مفاوضات مع ريتشارد، عارضا دفع عشرين ألف أوقية من الذهب عوضاً عن الهبة المخصصة للملك هنري الثاني، مع عشرين ألف أخرى لأخته جوانا، وذلك بمقتضى

---

[١] ستيفن رانسيمان، المصدر السابق، ص ٧٨.

[2]Ambroise, the Crusade of richard lion heart, Trans from the old franch by M. J. Hubert, With notes and documentation by john L. Lamonte, Calmbia, 1941, p. 55.

[٣] ستيفن را نسيمان، المصدر السابق، ص ٧٨.

[4]Richard de Devizes et Geoffroy de Vinsouf, Les Croisades, trad. Lord John Dee, Henry G. Bone, Lunders, 1848, p. 172.

[٥] كاتانيا: مدينة إيطالية عاصمة إقليم كاتانيا في صقلية تقع على خليج كانيا أما الآن فتقع جنوب جبل إتنا Etna وهي ميناء بحري فتحها الرومان في عام ٢٦٣ قبل الميلاد. يراجع:

Moore, W. G., Op. Cit., p. 160.

[٦] سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، صليبية رتشارد قلب الأسد، ج٣٢، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٨، ص ٩١- ٩٢.

التوقيع على معاهدة ١١ تشرين الثاني ١١٩٠التي أطلق عليها معاهدة فاتينا **Fatina**[١].

ويبدو أن السبب في ذلك يعود إلى حرج موقف الملك تانكريد، إذ علم أن ملك الألمان هنري السادس، الإمبراطور الروماني المقدس **Henry VI, Holy Roman Emperor** (١١٦٥- ١١٩٧) يوشك أن يغير على بلاده، وأدرك أن الملك فيليب أوغسطس ليس موضع ثقة لما تربطه من علاقات ودية بهنري السادس، على حين أن ريتشارد يعد أشد من يهدد تانكريد في ذلك الوقت، لكن كان معروفاً بكراهيتة للإلمان، لكن عندما رأى ريتشارد بريق ذهب تانكريد، قبل العرض باسمه، وبالنيابة عن أخته، ثم وافق بعد ذلك أن يخطب للأمير آرثر **Arthur** ابن أخيه دوق بريتاني، إحدى بنات تانكريد، مقابل أن يدفع عشرين ألف أوقية من الذهب مهرا لها[٢]، وكانت تلك المعاهدة نتيجة مباشرة لما قام بهِ الملك الفرنسي فيليب أغسطس من تآمر ضد الملك الإنكليزي ريتشارد، عندما بعث بمقترح للملك الصقلي تانكريد من شأنه أن يحثه على عدم التنازل عن حقوقه وعدم الإذعان لمطالب الملك الإنكليزي ريتشارد وأنه سوف لا يتعاون مع الملك الإنكليزي ضد تانكريد مؤكداً إخلاصه له، لكن الملك فيليب أغسطس أنكر تماماً ذلك الاتفاق واتهم الملك الصقلي بالكذب والتزوير[٣].

كانت تلك أولى حلقات الصدام بين الملكين فيليب أغسطس وريتشارد التي توضح أسلوب الملك السياسي المتمثل في فيليب أغسطس، والملك المحارب المتمثل في ريتشارد، إلا أن تلك الجولة انتهت لصالح ريتشارد الذي سكت عن الموضوع حتى أمضى الجميع فصل الشتاء في صقلية وكانوا في حالة سكون، وقد قام الملك ريتشارد بإهداء الملك فيليب أغسطس عدة سفن كانت وصلت من إنكلترا كعلامة على حسن نيته تجاهه، وعند اقتراب فصل الربيع تقابل الملكان في مسينا بداية شهر آذار عام ١١٩١ ليرسما خطة قيادة الحملة الصليبية وسن القواعد على الجميع، ومن أهمها أن يقتسم الملكان بالتساوي كل ما ينتج عن الانتصارات المقبلة[١].

فبدأ الملك ريتشارد في التعامل بحذر مع رفيق رحلته الملك فيليب أغسطس اذ كان جل اهتمامه هو الحملة الصليبية التي أراد أن تسير على ما خطط لها، إلا أن الملك فيليب أغسطس لاحظ تغير الملك ريتشارد واستنكره، وعندها قلب الأمر على الملك ريتشارد مطالباً إياه بنصف الغنائم التي حاز عليها منذ أن وطئت قدماه جزيرة صقلية، إلا أن الملك ريتشارد رفض ذلك بحجة أن الملك فيليب أغسطس لم يسهم معه في الأحداث السابقة، بل حاول أن يطعنه بظهره عندما حاول التحالف سراً مع تانكريد ملك صقلية، فما كان من الملك

---

[١] فاتينا: مدينة إيطالية عاصمة إقليم كاتانيا في صقلية تقع على خليج كلها أما الآن فتقع جنوب جبل بنا Etna وهي ميناء بحري فتحها الرومان في عام ٢٦٣ قبل الميلاد. يراجع:

Moore, W.G., Op. Cit., p.160.

[٢] مؤرخ مجهول، الحرب الصليبية الثالثة صلاح الدين وريتشارد، مجموعة أوراق جمعها: وليم ستابز، ترجمة: حسن حبشي، ج١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠، ص ٢١٩؛ ستيفن رانسيمان، المصدر السابق، ص ٧٩.

[٣] مؤرخ مجهول ، المصدر السابق، ص ٢١٧ – ٢١٨.

فيليب أغسطس إلا أن اتهم الملك ريتشارد بافتعال الشجار بينهما ليتهرب من قسمه بالزواج من أخته الأميرة أليس، وعندها فجر الملك ريتشارد سبب عدم رغبته بالزواج من الأميرة أليس للعلاقة المحرمة التي كانت بينها وبين أبيه التي نتج عنها إنجاب طفل، وكان ذلك الاتهام بمثابة قنبلة دبلوماسية، إذ أشار إلى علاقة غير شرعية بين خطيبة الابن ووالده، مما جعل الزواج مستحيلاً دينياً وأخلاقياً[٢]، وأمام تلك الفضيحة، لم يعد بإمكان فيليب الإصرار على إتمام الزواج، لكنه لم يغفر الإهانة، وبدلاً من المواجهة المباشرة، حلل الملك فيليب أغسطس الملك ريتشارد من قسم الزواج في مقابل أن يدفع الأخير عشرة آلاف مارك ومعها جيزور للملك فيليب أغسطس عند عودة الجميع[٣].

أقدم الملك فيليب أغسطس على تقديم تنازلٍ دبلوماسيٍ إضافي، تمثل في إقراره تبعية مقاطعة بريتاني - التي تعد إرثاً شرعياً لآرثر **Arthur** (١١٨٧- ١٢٠٣)ابن جيفري الثاني- للملك ريتشارد كإقطاعية أبدية، وبموجب ذلك التدبير؛ أصبح ريتشارد وخلفاؤه ملزمين بالولاء والمسؤولية عن تلك المقاطعة أمام التاج الفرنسي، وتتويجاً لذلك الاتفاق تبادل الملكانِ قسَم الالتزام بالسلام طوال مدة الحملة الصليبية، ليتأهبا بعدها لاستئناف مسيرهما، حيث سارع الملك فيليب أغسطس إلى مغادرة مسينا في الثلاثين من آذار عام ١١٩١، مدفوعاً برغبته في تجنب لحظة وصول عروس الملك ريتشارد، التي كانت في طريقها إلى صقلية بصحبة الملكة إليانور[٤].

غادر الملك ريتشارد ميناء مسينا متوجهًا إلى قبرص، وتزامنت مغادرته مع وصول والدته، الملكة إليانور، بصحبة الأميرة بيرنغاريا **Berengaria of Navarre** (١١٦٥- ١١٩٩) ابنة سانشو السادس **Sancho VI** (١١٣٢- ١١٩٤) ملك نافار **King of Navarre**، خطيبة الملك، إلى مسينا، وبعد أن علمت برحيل ابنها، مكثت الملكة إليانور أربعة أيام فقط قبل أن تعود إلى إنكلترا، تاركة الأميرة بيرنغاريا برعاية ابنتها الملكة جوانا الأرملة في صقلية، مع توصية بإتمام مراسم الزواج في أقرب فرصة[٥]، أما عن مسار الملك ريتشارد فقد توجه بداية إلى رودس [٦] **Rhodes** ومكث بها عدة أيام بسبب ما أصابه

---

[١] ستيفن رانسيمان، المصدر السابق، ص ٨٠.

[٢] المصدر نفسه، ص٨٠.

[3] Achille Locher, Philippe Auguste et son époque, p. 64.

[٤] وصل إلى الملكة إليانور خبر العهد الذي أعطاه الملك ريتشارد للملك فيليب أغسطس بالزواج من أخته الأميرة أليس فغضبت وكرهت أن يكون من ذرية ابنها الملك ريتشارد أحداً من سلالة طليقها الملك لويس السابع، فضلاً عن العلاقة التي جمعت الأميرة الفرنسية بالراحل الملك هنري الثاني، لذلك آلت على نفسها أن تفسد تلك المصاهرة، فتوجهت الملكة إليانور للشرق عبر شمون إيطاليا جالبة معها من نافار الأميرة ببرنغاريا Berengaria" لتكون زوجة لابنها الملك ريتشارد بدلاً من الأميرة أليس ويسرع بالزواج منها لإنجاب وريث ذكر يرث من بعده حكم إنكلترا. يراجع:

Helen L. Nicholson, A History of the Third Crusade, Routledge, London, 2019, pp.172- 173.

[5] Rachel A. Koestler-Graco., Op. Cit., p.106.

[٦] رودس: من أملاك الإمبراطورية البيزنطية تتمتع بموقع مناسب بين بحر إيجة وبين شرقي البحر المتوسط المعروف بالشامي آنذاك، والتي ستكون لاحقاً مركزاً لفرقة الاسبتارية. يراجع: حبيب غزالة، جزيرة رودس

من دوار البحر الذي عطل مسيرته، ثم أبحر إلى جزيرة قبرص، التي تأخر بها بسبب دخوله في نزاع مع ملكها إسحاق كومنينوس **Isaac Komnenos** (١١٥٥- ١١٩٦) حين رفض الأخير أن يزود الملك ريتشارد بالطعام والشراب من جزيرته، علاوة على أن دوار البحر كان قد أفسد مزاج الملك ريتشارد، فما كان منه إلا أن قام بالهجوم على الجزيرة فكانت الغلبة له، إذ هزم الملك إسحاق ووقع أسيراً هو وابنته في يد الملك ريتشارد الذي استولى على كامل جزيرة قبرص ليضيفها إلى انتصاراته[١]، ثم عاد إلى مسينا فعقد قرآنه في الثاني عشر من أيار عام ١١٩١ على الأميرة بيرنغاريا وأصدر تعليماته بأن تتجمع كل سفنه صغيرها وكبيرها استعداداً للسفر إلى عكا وحصارها بعد أن احتفل بزفافه على مدار ثلاثة أيام[٢]، وعلى الجانب الآخر، وصل الملك فيليب أغسطس إلى الساحل الشامي في العشرين من نيسان عام ١١٩١، حيث نزل في عكا ليجدها وقعت تحت حصار القوات الصليبية الساعية لاستردادها من الحامية الإسلامية، وكان يتولى قيادة ذلك الحصار آنذاك الماركيز كونراد دي مونفيرات **Conrad de Monferrat**[٣].

سادت حالة من الترقب واللهفة في صفوف الصليبيين بمدينة عكا انتظاراً لوصول الملك فيليب أغسطس، الذي حظي عند قدومه باستقبالٍ مهيبٍ عكس أقصى مظاهر التبجيل اللائقة بمكانته الرفيعة كملك لفرنسا، وقد شكّل وصوله نقطة تحولٍ محورية، إذ بثّ روح الشجاعة وشدّ من أزر المقاتلين، لا سيما بوجود أسطوله الضخم المحمّل بالمؤن والإمدادات[٤]، وعلى الرغم من أن فيليب لم يصطحب معه جيشاً جراراً من حيث العدد، إلا أن وجوده كقائدٍ عامٍ مقتدر، وما جلبه من آلاتٍ عسكريةٍ ضخمة، قد ألهب حماس الصليبيين ومنحهم زخماً معنوياً وقتالياً عالياً، مما مكنهم من تشديد الخناق على مدينة عكا ومواصلة الضغط العسكري عليها بفاعلية أكبر[٥].

جغرافيتها وتاريخها وآثارها، مؤسسة هنداوي، القاهرة، ٢٠١٧؛ فولففانغ فيز، القلاع أيام الحروب الصليبية، ترجمة: محمد وليد الجلاد، ط٢، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٤، ص ١٢٧- ١٢٩.

[١] وذلك أدراكاً الأهمية البالغة لتلك الجزيرة ذات الموقع المثالي، التي تمثل نقطة ارتكاز حيوية وقاعدة إمداد وتسليح ممتازة لعملياتهم المستقبلية في سوريا وفلسطين وأن الاستيلاء عليها والاحتفاظ بها يعني تأمين خطوط الإمداد البحرية للجيش الصليبي، وتوفير قاعدة آمنة ومستقلة بعيداً عن تقلبات سياسات حكام الممالك الصليبية المحلية، وبينما كان فيليب يركز على الهدف المباشر للحملة؛ كان ريتشارد يؤسس لمصالح استراتيجية طويلة الأمد لمملكته في شرق المتوسط.

يراجع:

Achille Locher, Philippe Auguste et son époque, p. 65.

[٢] سهيل زكار، صليبية رتشارد قلب الأسد، ص ١١٥-١٣٦.

[٣] كونراد دي مونتفرات (١١٤٦-١١٩٢): احد المشاركين الرئيسين في الحملة الصليبية الثالثة، ومنقذ مدينة صور حكم الأراضي المقدسة من عام ١١٩٠ الى ١١٩٢وتعد أسرته من العائلات النبيلة في شمال غربي ايطاليا ولها اتصالات ملحوظة بالشرق. يراجع: سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، الحملة الصليبية الثالثة، ج١٠، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٨، ص ٢٢٩ – ٢٣٥.

[٤] بلغت قوات الملك فيليب أغسطس حوالي ست شوان من السفن الكبيرة تحمل الجنود والفرسان، فضلا عن الإمدادات التموينية والمعدات العسكرية، يراجع لمزيد من التفاصيل حول حصار عكا: جلال حسني سلامة،عكا في أثناء الحملة الفرنجية – الصليبية الثالثة، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، ١٩٩٣، ص ٧٠ ؛ حسن حبشي، المصدر السابق، ص ١٩٢.

[٥] فراس البيطار، الموسوعة السياسية والعسكرية، ج٦، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠٠٣، ص ٢٣٨٣.

ما إن وصل فيليب حتى أمسك بزمام المبادرة الميدانية، شروعاً في هندسة الهجوم الحاسم، إذ قام بجولة استطلاعية حول أسوار المدينة لاستكشاف مكامن الضعف وتحديد أنسب المحاور للاقتحام، وتحت إشرافه المباشر؛ أعاد هيكلة القوات الفرنسية ومن ساندها من الصليبيين، مقسماً إياهم إلى جبهتين رئيستين: تولت الأولى مهمة الهجوم المزدوج براً وبحراً، بينما تفرغت الثانية لصد القوات الإسلامية سواء المتحصنة بالداخل أو المرابطة بالخارج، ولم يكتفِ بذلك بل عمد إلى تنظيم صفوفه في تشكيلات عسكرية متكاملة ضمت الفرسان والمشاة تعززهم فرق الرماة لتشكيل جدار دفاعي صلب، بالتزامن مع تجهيز القوافل اللوجستية ونصب أبراج الحصار المعدة لدك الأسوار، تحسباً لأي صدام محتمل مع قوات صلاح الدين [١].

عمد الصليبيون إلى إحكام طوق الحصار حول مدينة عكا وتصعيد ضغطهم العسكري عليها، مستعينين بآلات الحصار لكسر صمود المدينة، وقد تجلى ذلك التصعيد في نصب سبعة مجانيق حول الأسوار تميزت بتقنياتها الهندسية المتقدمة، حيث شملت تلك التجهيزات آلات نوعية مثل منجنيق "الجار السيء" و"القط"، فضلاً عن حشد الموارد لتمويل وبناء منجنيق ضخم أُطلق عليه اسم "مقلاع الرب" لتعزيز القوة التدميرية للحصار[٢]، ولم تقتصر العمليات على دكِّ الأسوار وقصفها بصفة مستمرة، بل تزامنت مع تغطية كثيفة من الرماة الذين شلّوا حركة الحامية الإسلامية وعزلوا المدافعين عن مواقعهم؛ وأمام ذلك المأزق وتفاقم المعاناة، بادر المحاصرون بمراسلة السلطان صلاح الدين الأيوبي شارحين له فداحة الوضع، إلا أن تلك الاستغاثات لم تُثمر عن أي تغيير ملموس في موازين القوى على أرض الواقع [٣].

كان الوضع داخل أسوارعكا يزداد سوءاً، فعلى الرغم من أن صلاح الدين نجح في صد الهجمات الصليبية مراراً، إلا أنه فشل في كسر طوق الحصار الذي يزداد إحكاماً، بدأت الإمدادات تشح، ومات المسلمون عطشاً، بينما كان المسيحيون خارج الأسوار يموتون جوعاً، حتى إن بعضهم اتُهم بأكل لحوم البشر، حيث أدرك المدافعون أن قواعد الحرب تقتضي أنه في حال سقوط المدينة عنوة، فإن مصيرهم سيكون الموت ومصادرة الممتلكات، بينما قد يمنحهم الاستسلام فرصة للنجاة[١]، وفي خضم تلك الأحداث، عكف النقابون الفرنسيون على حفر الأنفاق أسفل تحصينات المدينة ثم أضرموا فيها النيران، مما أدى إلى تصدع السور وانهياره، وقد سارعت مجموعات من القوات الفرنسية لمحاولة استغلال تلك الثغرة واقتحام المدينة، غير أن الحامية المسلمة تصدت لهم بصلابة وحالت دون تقدمهم،

---

(1) James Naus, The Construction of Monarchy: The Capetian Kings of France and the Early Crusades, Manchester University Press, London, 1988, p. 125.

(٢) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج١٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٨، ص ٣٣؛ ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج٢ ، مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة، ١٩٥٣، ص ٢٧٨.

Jim Bradbury, Op. Cit., p. 88.

(٣) يعقوب الفيتري ، تاريخ بيت المقدس ، ترجمة: سعيد البيشاوي ، دار الشروق للنشر والتوزيع ، الأردن ، ١٩٩٨، ص ١٦٤.

رادين المهاجمين على أعقابهم؛ وقد أسفرت تلك المواجهة الدامية عن مصرع عدد كبير من الفرسان الفرنسيين، مما خلّف أثراً بالغاً من الحزن والأسى لدى الملك فيليب أغسطس وجيشه جراء تلك الخسارة الجسيمة[٢]، ومع ذلك اشتد ضرب الآلات الفرنسية للأسوار بالحجارة ليلاً ونهاراً، حتى أثرت في الأسوار، وتحمل سكان المدينة وحاميتها وطأة القتال، الذي لم يكفوا عنه ليلاً ولا نهاراً، واستبد بهم التعب، وسرعان ما أعلن الملك فيليب أغسطس تأجيل القيام بمحاولة الاقتحام الأخيرة، ومهاجمة الأسوار، على الرغم من أنه كانت باستطاعته الاستيلاء على المدينة من خلال هجومه المتواصل عليها، وضعف الحامية الإسلامية، بسبب طول فترى القتال، ونقص المواد الغذائية لديها[٣].

أما عن الأسباب التي دفعت الملك فيليب أغسطس على اتخاذ ذلك القرار، فيذكر مؤلف كتاب ذيل وليم الصوري أنه كان في قدرة الملك فيليب أغسطس الاستيلاء يسر وسهولة على مدينة عكا، لو أنه بادر إلى ذلك؛ ولكنه ظل يترقب وصول الملك ريتشارد ؛ لأنهما سافرا معاً، وكان بينهما اتفاقية حين خروجهما إلى الشرق تنص على أن يكونا شريكين في جميع الغزوات التي يتحتم عليهما القيام بها، هذا إلى جانب أن الملك فيليب أغسطس كان يريد أن يشاركه الملك ريتشارد، فرحة الاستيلاء على المدينة[٤]، وقد يكون السبب محدودية القوات المرافقة للملك فيليب أغسطس، الامر الذي وضعه أمام تحدٍ عسكري صعب تمثل في ضرورة القتال على جبهتين متزامنتين، إذ تحتم عليه مواجهة الحامية الداخلية لمدينة عكا، والتصدي في الوقت ذاته للضغط الخارجي المتمثل في جيش صلاح الدين[٥]، ويبدو أن المؤرخ ابن شداد كان مصيباً حين علل سبب توقف الملك فيليب أغسطس عن مهاجمة مدينة عكا حتى قدوم الملك ريتشارد بأنه **"ذو رأي في الحرب مجرب"**، ولربما كان الملك فيليب اغسطس لا يرغب في حرب شاملة على المدينة لوحده خوفاً من خسائر بشرية ومادية كبيرتين[٦].

بينما كان فيليب ينتظر وصول ريتشارد، التزاماً بوعده بأن يقتحما المدينة معاً، لكن أسابيع مرت وريتشارد متأخر في قبرص، منشغل بغزوها وترتيب شؤونها السياسية، ما ادى لنفاد صبر فيليب الذي أرسل إليه رسائل توبيخ قاسية، اتهمه فيها: **"بإهمال الواجبات الأساسية، وتضييع وقته في أمور عبثية، واضطهاد المسيحيين الأبرياء بغطرسة"**[٧]، وهكذا عندما

---

(1)Georges Bourdonoff, Philippe Auguste le Conquérant, Pygmalion, Paris, 2009, p.40.

(٢) عماد الدين الاصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق: محمد محمود صبح، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، ١٩٦٥، ص ٢٥٩؛ ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية سيرة صلاح الدين، تحقيق: جمال الدين الشيال، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٤، ص ١٥٩- ١٦٠.

(٣) حسن حبشي، المصدر السابق، ص ١٩٤.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٩٤.

(٥) سهيل زكار، صليبية رتشارد قلب الأسد، ص ١٤٤.

(٦) ابن شداد، المصدر السابق،، ص ١٦١.

(٧) ارتكب ريتشارد في قبرص خطأً سياسياً فادحاً، فقد لجأ إليه غي دي لوزينيان، الذي شعر بالقلق من صعود نجم كونراد، طالباً الدعم. وبحماقة، منحه ريتشارد تأييده الكامل لحكم مملكة القدس، فلم يؤخر هذا القرار تحقيق الوحدة المطلوبة في المعسكر الصليبي فحسب؛ بل عمّق الانقسامات، حيث كان معظم البارونات المحليين يفضلون قيادة

وصل ريتشارد أخيراً في ٨ حزيران١١٩١؛ كانت الخلافات قد تجذرت، واستمر في سلوكه الاستفزازي الذي بدأه في صقلية، فعندما عرض فيليب راتباً قدره ثلاث قطع ذهبية للجندي، وهو أجر جيد آنذاك، سارع ريتشارد بعرض أربع قطع، مستهدفاً بشكل متعمد استقطاب جنود فيليب والتباهي بثروته، وكان مصمماً على التفوق على غريمه في كل شيء، ومع اكتمال الاستعدادات؛ قرر فيليب شن الهجوم دون انتظار ريتشارد الذي تباطأ ورفض المشاركة[١]، وفي الثالث من تموز كادت القوات الفرنسية أن تقتحم المدينة بمفردها، لولا استخدام المدافعين للنيران الإغريقية التي دمرت آلات الحصار الفرنسية[٢].

وفي خضم أجواء الحصار الخانقة واكتظاظ المعسكرات، تفشى وباءٌ غامضٌ عُرف في السجلات التاريخية باسم أرنالديا **Arnaldia** أو ليوناردیا **Leonardia**، طال أثره الملكين فيليب أغسطس ونظيره الإنكليزي ريتشارد، وقد تجرع كلاهما مرارة ذلك الداء الذي تمثلت أعراضه في حمى شديدة ووهن عام، وصل إلى حد تساقط الشعر والأظافر، وبينما بدأت الأعراض بالظهور على ريتشارد أولاً، إلا أن فيليب، الذي تماثل للشفاء قبله، سارع فور تعافيه إلى استعادة زمام المبادرة، فأعاد ترميم آلات الحصار، مفسحاً المجال لعمال المناجم الفرنسيين لإحداث ثغرة استراتيجية في أسوار المدينة، وقد مثلت تلك الثغرة فرصة سانحة لهجوم قاده القائد الفرنسي الجريء أوبري كليمنت **Aubrey Clement**، الذي أقسم قبيل انطلاقه قائلاً: **"إما أن أهلك اليوم، أو بإذن الله، سأدخل عكا"**،غير أن الأقدار لم تحالف طموحه؛ إذ انكسر السلم الذي كان يعتليه، ليجد نفسه محاصراً وحيداً فوق السور، حيث قاتل ببسالة حتى لقي حتفه [٣] .

ترتب على تلك الاوضاع ان راسل اهالي مدينة عكا الملك فيليب اغسطس لكي يكف عن الهجوم وان يعطيهم الامان حتى يأتونا اليه للتفاوض، فتوقف عن هجماته وأعطاهم الأمان، ونزل لنصيحة اصحابه الذين تشاور معهم في ذلك الأمر، وأعطى أهل البلد الأمان الذي ينشدونه، فتم انتخاب الأمير سيف الدين بن المشطوب للقيام بتلك المهمة؛ لما يتمتع بهِ من مكانه بوصفه أمير المسلمين بمدينة عكا[٤].

ويبدو أن اختيار حامية عكا لمراسلة الملك فيليب أغسطس حسب ما يذكر ابن شداد **"أنه**

كونراد الحازمة على شخصية غي النبيلة والضعيفة، ونتيجة لذلك، انضم كونراد رسمياً إلى دائرة فيليب كمستشار مقرب، مما رسّخ وجود فصيلين متنافسين في قلب الحملة. يراجع: ستيفن رانسيمان، المصدر السابق، ص٨٣.

[١] رفض الملك ريتشارد السماح لرجاله وأسطوله الاسهام في ذلك الهجوم، ولعل السر في ذلك يعود إلى أن ريتشارد لم يستكمل استرداد عافيته، حتى يستطيع أن يشترك بنفسه في الهجوم، ولأن بعض قواته لا تزال غائبة لم تستطع الوصول إلى مدينة صور بسبب سوء الاحوال الجوية، وإن كان لايزال يأمل في وصول الأسطول قريباً جداً، جالباً معه المعدات اللازمة لبناء آلات الحصار، وخشي تبعاً لذلك أن يفقد ما يجلبه النصر من غنائم وزاد من تعقيد الأمور، أن هجوم الملك فيليب أغسطس لم يصادف نجاحاً، وما لاقاه الفرنسيون من عناء ومشقة في رد هجوم السلطان صلاح الدين. يراجع: سهيل زكار، الحملة الصليبية الثالثة، ص ٧٥.

[2] Jim Bradbury , Op. Cit., p. 91.

[3] Ibid, p. 92.

[٤] يراجع حول المفاوضات بين الامير سيف الدين والملك فيليب أغسطس: فوزي خالد الطواهية، الأمير سيف الدين علي المشطوب الهكاري ودوره العسكري في الدولة الأيوبية (٥٦٤/ ٥٨٨هـ / ١١٦٨-١١٩٢)، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، مج ١٤، العدد ٣ ، ٢٠٢٠، ص ١٢٤.

كان مقدم الجماعة في المرتبة"[١]، أو ربما يعود ذلك إلى ما كان يتمتع بهِ فيليب أغسطس من مكانة ممتازة لدى الصليبيين، بوصفه السيد الأعلى لمعظم الأسرات التي انحدر منها معظم الصليبيين في الشرق، كما أن الصليبيين الذين ترددوا على بلاد الشام كان أغلبهم أتباعاً له بشكل مباشر أو غير مباشر[٢].

خرج الامير سيف الدين بن المشطوب إلى الملك فيليب أغسطس بأمان، وقال له: **"إنا قد أخذنا منكم بلاداً عدة، وكنا نهدم البلد، وندخل فيه، ومع هذا إذا سألونا الأمان أعطيناهم، وحملناهم إلى مأمنهم، وأكرمناهم، ونحن نسلم البلد وتعطينا الأمان على أنفسنا"**[٣]، لم تكلل المفاوضات الجارية آنذاك بالنجاح، وتُعزي المصادر الإسلامية أسباب ذلك التعثر إلى الموقف المتعنت للملك فيليب الذي قابل طلب المسلمين بالرفض القاطع؛ مستنداً في ذلك إلى قناعته بأن المدينة بمن فيها قد أصبحت عملياً تحت قبضته، معتبراً أن استسلامهم لا يعدو كونه منحةً منه لحقن دمائهم، وخاطب الوفد بنبرة استعلائية واصفاً إياهم بـ **"المماليك والعبيد"**[٤].

وقد استدعى ذلك الرد موقفاً حازماً من الأمير سيف الدين بن المشطوب، الذي لمس في حديث الملك فيليب غروراً يتنافى مع المروءة، فرد عليه بلهجة شديدة مؤكداً أن الحامية لن تسلم إلا بعد قتال مستميت يُفضي إلى مقتلهم جميعاً، ولن يسقط منهم مقاتل إلا وقد أودى بحياة خمسين من كبار قادة الصليبيين[٥]، وفي خضم تلك التجاذبات الدبلوماسية، ظهر تباين واضح في مواقف المعسكر الصليبي؛ فبينما أبدى الملك فيليب موافقته المبدئية على مقترحات الوفد المفاوض، أصر الملك ريتشارد على رفضها، موجهاً اتهامات لفيليب بإبرام اتفاقات سرية مع المسلمين، حيث كان ريتشارد يرفض فكرة دخول مدينة خاوية بعد عناء الحصار الطويل [٦].

وبينما كان الأمير سيف الدين المشطوب يتفاوض مع الملك فيليب أغسطس؛ إذا بالملك ريتشارد يهاجم المدينة، مدفوعاً بغضبه من انفراد الملك فيليب باتخاذ القرارات دون مشورته، فلما رأى الامير سيف الدين بن المشطوب ما يجري من الهجوم على مدينة عكا؛ غضب اشد الغضب، وقال للملك فيليب أغسطس: **"لقد جئناك يا مولانا معتمدين على عهد أمانك الذي زودتنا به ونحن مطمئنون إليه متمسكون به لنا ولأهالينا من هم في المدينة حتى نعود إليها؛ ولكن ها أنت ذا ترى ملك إنكلترا يؤذي أهل البلد، إيذاء بليغاً، والآن فإنا**

---

(١) ابن شداد، المصدر السابق، ص ١٦٨.

(٢) ليلى عبد الجواد إسماعيل، أضواء على الأكراد الهكارية في عصر صلاح الدين الأيوبي، مجلة كلية الآداب، العدد ٦١، ١٩٩٤، ص ١٤٩-١٩٤.

(٣) ابو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج٤، تحقيق: محمد حلمي محمد، القاهرة، ١٩٥٦، ص٢٥٧؛ عماد الدين الاصفهاني، المصدر السابق، ص ٥٠٥؛ ابن واصل، المصدر السابق، ص٣٥٧.

(٤) فوزي خالد الطواهية ، المصدر السابق ، ص ١٢٤.

(٥)المصدر نفسه ، ص ١٢٤.

(6) Groussetr, Histoire de Croisades et du royaum fran Jerusalem, tom, 3 .Paris, 1943., p. 54.

نسألك أن تأذن لنا بالرحيل ما دمت لا تملك من السلطة ما يمنع هذا الهجوم"[١]، أمام ذلك الموقف المحرج، أذن الملك فيليب للوفد بالعودة تحت حراسة مشددة لضمان سلامتهم، وكاد الأمر يتطور إلى صدام مسلح بين الملكين الصليبيين لولا تدخل الوسطاء لتهدئة غضب فيليب وتوحيد الصف الصليبي، وعقب عودة الوفد، استبسل المسلمون في الدفاع عن مدينتهم وكبدوا قوات ريتشارد خسائر فادحة أضرت بسمعته العسكرية[٢] إلا أن عودة الوئام بين الملكين وتنسيق الهجوم الكاسح وضع المدينة في موقف حرج، مما دفع الأميرين سيف الدين المشطوب وبهاء الدين قراقوش للخروج في الثاني عشر من تموز عام ١١٩١ لطلب الأمان وحقن دماء من تبقى، وتم الاتفاق على تسليم المدينة مقابل دفع مبلغ من الذهب للمركيز كونراد دي مونفيرات، وإطلاق سراح ألف وخمسمائة أسير مسيحي، بالإضافة إلى مئة أسير من ذوي الرتب الرفيعة [٣].

وهكذا كانت النتيجة الوحيدة للتعاون المشوب بالخلافات بين الجيوش الصليبية هو سقوط مدينة عكا والذي كان بداية النهاية للحملة الصليبية الثالثة حيث بدأت الخلافات بين قادة الحملة، مما سيترتب عليها تأثير كبير على مستقبل الحملة[٤]، وقد ترتب على تنفيذ شروط سقوط مدينة عكا أن خرج المسلمون من المدينة تحرك إلى داخلها الصليبيون، ودخل كونراد دي مونتفرات، ونصب أربعة أعلام لملوك أوروبا، أولها على القلعة، وثانيها على مئذنة الجامع، وثالثها على برج الداوية ورابعها على برج القتال[٥].

وفور دخول المدينة، تجلت الخلافات بصورة صارخة، ففي حين سارع فيليب لإحكام قبضته على القصر الملكي، اتخذ ريتشارد من مقر فرسان الهيكل مركزاً لقيادته، ولم تقتصر فجوة الشقاق على ذلك التباين، بل اتسعت رقعتها إثر غطرسة ريتشارد وتعاليه؛ إذ كان ينظر إلى الدوق ليوبولد دوق النمسا Leopold Duke of Austria (١١٥٧- ١١٩٤) نظرة دونية انطلاقاً من التفاوت في الألقاب بين مكانة الملك ومكانة الدوق، وتصاعدت حدة التوتر عندما اعتبر ريتشارد رفع راية النمسا جنباً إلى جنب مع راية إنكلترا تطاولاً سياسياً صريحاً، مما دفعه إلى توجيه إهانة سياسية بالغة للدوق عبر إلقاء رايته في الوحل وسحقها تحت قدميه، وقد أسفر ذلك التصرف المتعجرف عن زرع بذور عداوة تاريخية مريرة بين الرجلين، وانتهى باتخاذ ليوبولد قراراً حاسماً بالانسحاب ومغادرة الأراضي الشامية [٦].

حينذاك أرسل الملك فيليب أغسطس إلى الملك ريتشارد وإلى غيره من البارونات يدعوهم

---

[١] حسن حبشي، المصدر السابق، ص ٢٠٧.

[٢] المصدر نفسه، ص ٢٠٧.

[٣] يراجع حول شروط الاستسلام: هاني مهدي راتب، دوافع مذبحة الرهائن المسلمين في تل العياضية قبالة عكا في آب ١١٩١، دراسة تاريخية مقارنة بين المصادر الإسلامية والصليبية والسريانية، مجلة كلية الآداب بالوادي الجديد، العدد ١٧، ٢٠٢٣، ص ٤٦- ٤٧.

[٤] حسن حبشي، المصدر السابق، ص ٢٠٨.

[٥] ابن واصل، المصدر السابق، ص٣٦٠.

[٦] يراجع حول دور ليوبولد: علي أحمد السيد، دور ليوبولد الخامس دوق أوستريا (النمسا) في الحملة الصليبية الثالثة وتداعياتها (١١٨٩-١١٩٤/ ٥٨٥-٥٩٠هـ)، مجلة الإنسانيات، كلية الآداب فرع دمنهور، جامعة الإسكندرية، العدد ٢١، ٢٠٠٥، ص ١٦.

للحضور والتشاور في طريقة حكم المدينة، ثم عرض وجهة نظره في المسألة، فقال: **"والرأي عندي أنه مادام الله قد مكننا من فتح هذا البلد فليس من الحق حرمان أهل البلد من أملاكهم، وسلبها من أيديهم، هذا رأيي وأرجو أن توافقوني عليه** ..."، وافق الملك ريتشارد والبارونات على رأي الملك فيليب أغسطس، واتفقوا على رد الممتلكات إلى أصحابها، وإرجاع كل دار إلى صاحبها إن ظهر أنه مالكها بناء على ما يقدمه من الإثباتات، مقابل أن يترك أصحاب تلك الدور الفرسان والبارونات النازلين بها طوال مدة مكوثهم في البلد[١].

لم تلبث مشكلة النزاع على تاج مملكة بيت المقدس الأسمى بين الملك جاي لوزينيان والمركيز كونراد دي مونتفرات، أن ظهرت من جديد، إذ قدم إلى عكا كونراد دي مونتفرات الذي اتخذ لنفسه منذ أيار ١١٩١ لقب ملك بيت المقدس وذلك للدفاع عن حقه أمام الملك ريتشارد، وكان الملك فيليب يرى أن حامل ذلك اللقب كونراد دي مونتفرات نظراً لأن كونراد كان زوجاً لوريثة مملكة بيت المقدس، ولما اشتهر بهِ من نشاط وقدرة عسكرية وإدارية والمساندة معظم بارونات المملكة له، فقد كان الملك فيليب أغسطس يؤيد كونراد كل التأييد، ويقف إلى جانبه وقوفاً أفضى إلى عزمه على منحه كل نصيبه في مدينة عكا، وتمكينه من جميع ما يحصل عليه هو نفسه مستقبلاً، و في رأي الملك ريتشارد أن الملك جاي لوزينيان أحق بهِ من كونراد دي مونتفرات[٢]، فتم الاتفاق على عقد مجلس لمناقشة ذلك الأمر، وأقسم كل من كونراد دي مونتفرات وجاي لوزينيان اليمين بقبولهما قرارات المجلس الذي يعقد لمناقشة هذا الأمر في يومي ٢٧ و ٢٨ تموز ١١٩١، وبعد المناقشة تم التوصل إلى حل وسط، يرضي جميع الأطراف، فتقرر أن يبقى جاي لوزينيان ملكاً طوال حياته، ثم ينتقل الملك بعد وفاته إلى كونراد دي مونتفرات وإيزابيلا وسلالتهما، وفي أثناء حكم جاي لوزينيان يصبح كونراد دي مونتفرات سيداً على مدن صور وبيروت وصيدا، مع ملاحظة أن المدينتين الأخيرتين كانتا بيد المسلمين، ويقتسم مع الملك جاي لوزينيان موارد المملكة، أما إذا مات كل من جاي لوزينيان وكونراد وزوجته، وكان الملك ريتشارد في الشرق؛ فله الحق في أن يقرر مصير المملكة حسبما يراه[٣].

ولم ينته الأمر عند ذلك الحد؛ فقد طالب فيليب بنصف جزيرة قبرص التي احتلها ريتشارد، استناداً إلى اتفاق سابق بتقاسم كل الفتوحات، فرفض ريتشارد، ورد بمطالبة مضادة لا أساس لها بنصف مقاطعة فلاندرز، وهكذا تحولت ساحة النصر في عكا إلى مسرح جديد لترسيخ عداء قديم بين ملكين، عداءٌ ستلقي بظلالها على مستقبل الحملة الصليبية وممالك أوروبا على حد سواء[٤].

---

[١] ستيفن رانسيمان، المصدر السابق، ص ٨٩-٩٠.

[٢] حسن حبشي، المصدر السابق، ص ٢١٠.

[٣] حيدر خضير مراد اليساري، غي دي لوزينيان ودوره في الحروب الصليبية في الشرق الإسلامي (١١٨٠ – ١١٩٤)، مجلة الباحث، كلية التربية، جامعة كربلاء، مج ٤٣، العدد٢، ج١، ٢٠٢٤، ص ٣٣٩.

[٤] سهيل زكار، المصدر السابق، ص ٣١٩.

٣. عودة الملك فيليب أغسطس إلى فرنسا وأثرة في مصير الحملة الصليبية الثالثة.

شكل سقوط مدينة عكا إنجازاً عسكرياً مفصلياً، إلا أنه كان أيضاً اللحظة التي اتخذ فيها الملك فيليب أغسطس قراره الحاسم والمثير للجدل بالعودة إلى فرنسا؛ وهو قرار لم يكن وليد الصدفة، بل نتاج تضافر معقد بين تدهور حالته الصحية والضغوط النفسية والمصالح السياسية العليا، فمن الناحية الصحية، عانى الملك من نكسة شديدة جراء إصابته بمرض ليوناردي، وهي وعكة شكك المؤرخ أمبرواز **Ambroise** أن**"هذا المرض مجرد ذريعة"**، بينما دافع مؤرخ البلاط وليم البريتوني **William of Breton** (١١٦٥-١٢٢٥) عن حقيقة مرض الملك، مؤكداً أن الأعراض كانت عنيفة لدرجة أثارت المخاوف من احتمالية تعرضه للتسمم، مما يضفي مصداقية على كونه كان يمر بأزمة صحية حرجة[١]، وفي خضم تلك المعاناة الجسدية، وجد فيليب نفسه محاصراً بحرب نفسية وتوترات أمنية متصاعدة مع حليفه ومنافسه الملك ريتشارد؛ إذ سادت معسكر الصليبيين شائعات مقلقة تفيد بتورط ريتشارد في مؤامرة لاغتيال فيليب عبر الاستعانة بجماعة الحشاشين وزعيمهم شيخ الجبل راشد الدين سنان (١١٣٠- ١١٩٣)، لاسيما بعد نجاحهم في اغتيال كونراد دي مونتفرات، ولحسم تلك الهواجس أرسل فيليب وفداً دبلوماسياً في مهمة محفوفة بالمخاطر إلى قلاع الحشاشين، ليعود الوفد برسالة حاسمة تنفي أي صلة لريتشارد بمخططات الاغتيال، مما بدد شكوك الملك الفرنسي وكشف له زيف تلك الادعاءات التي كادت تعصف بالتحالف الصليبي[٢].

بيد أن القلق على حياته لم يكن الهاجس الوحيد؛ فقد عاش فيليب ضغطاً نفسياً هائلاً خشيةً على مستقبل سلالته، لا سيما مع مرض وريثه الوحيد لويس في باريس، وهو القلق الذي استغله ريتشارد ببراعة خبيثة حين زعم قائلاً: **"أتراك مستريح البال مطمئن الخاطر على ولدك لويس"فسألة الملك فيليب" وماذا عن ولدي لويس حتى تسألني أن كنت مطمئن البال علية؟ فقال له "لقد جئتك معزياً فقد مات"**[٣] وهنا برز دور مستشاري فيليب، وتحديداً هيو الثالث دوق بورغوندي ، الذي دحض تلك الافتراءات مؤكداً **"أنه لم تصل منذ وقت وصولك لحصار عكا أية سفينة من وراء البحار حتى تحمل مثل هذا الخبر، وما أرى أن ملك إنكلترا قد قص عليك ما قص إلا بدافع مما انطوت عليه نفسه من الشر لك والحقد عليك، لأنه ظن أن في مثل هذا الافتراء الذي ألقاه على مسامعك ما يزيد في علتك، ويضاعف سقمك الذي تكابده، راجيا من وراء ذلك ألا تشفى، وتكون نهايتك فيما قال"**[٤].

وعلى الرغم من ثقل الأسباب الصحية والنفسية، يبقى الدافع السياسي هو المحرك الأكثر عقلانية وبرغماتية لعودة فيليب؛ فقد شكلت وفاة كونت فلاندرز في الأول من حزيران

---

(1) Jim Bradbury, Op. Cit., pp. 92-93.
(2) Ibid, pp. 92-93.

(٣) حسن حبشي، المصدر السابق، ص٢١٤.

(٤) محمد دسوقي حسن، هيو الثالث دوق برجنديا ودوره في الحملة الصليبية الثالثة ١١٨٩- ١١٩٢، مجلة وقائع تاريخية، مركز البحوث والدراسات التاريخية، جامعة القاهرة، كلية الآداب، العدد ٢٦، ٢٠١٧، ص ١٢٢؛ حسن حبشي، المصدر السابق، ص٢١٤.

١١٩١ فرصة ذهبية لا تعوض لفرنسا، حيث أدرك فيليب أن تأمين مصالحه الحيوية في "أرتوا" **Artoi** و"فيرماندوا" وتنفيذ مطالباته الإقليمية يتطلب تواجده الفوري في مملكته، مما جعل العودة ضرورة استراتيجية ملحة تفوقت على اعتبارات البقاء في الشرق، ليعود الملك إلى بلاده مدفوعاً بمزيج من الحذر الأمني والطموح السياسي لتعزيز ركائز ملكه [١].

بدأ الملك فيليب أغسطس يعد العدة للعودة إلى فرنسا، وحين علم الفرنسيون بعزم مليكهم الأكيد على العودة؛ أعلنوا سخطهم وشجبهم واستياءهم من ذلك القرار، إلا أنه طمأنهم بأنه سوف يترك الجزء الأكبر من قواته تحت إمرة الملك الإنكليزي كدليل على حسن نواياه، وبالفعل وضع قوة عسكرية قوامها عشرة آلاف جندي فرنسي وستمائة فارس تحت قيادة هيو الثالث دوق بورغوندي، وأصدر أوامره الصريحة لتلك القوات بطاعة ملك إنكلترا في كل ما يأمر بهِ، وفي الوقت نفسه؛ سلّم لهذا الدوق مبالغ مالية ضخمة تكفي لإعالة تلك القوات لمدة ثلاث سنوات، ثم ودّع جميع القادة والأمراء، وانطلق مع حاشيته المقربة على متن ثلاثة عشر شراعاً أعدّها له الأدميرال روفينوس فولتا في ميناء جيس[٢].

لم يكن لرحيل فيليب أغسطس عن مسرح الحملة الصليبية إلا أن يخلف وراءه موجة من الاضطراب والشكوك في صفوف القوات المسيحية، فمن جهة اهتزت هيبة الملك الفرنسي بصورة ملحوظة، حتى إن بعض الشعراء المتجولين شرعوا في تأليف **"أغانٍ مسيئة"** تسخر من قراره، ومن جهة أخرى، ألقى ذلك الرحيل بظلال كثيفة من القلق والريبة في نفس غريمه ريتشارد، فقد باتت الهواجس تؤرقه من أن يستغل فيليب غيابه ليشن هجوماً على ممتلكاته القارية الشاسعة في نورماندي أو بواتو، ضارباً عرض الحائط التشريعات الكنسية التي تحمي الصليبيين وممتلكاتهم، متنكراً للعهود السابقة التي قطعها الملكان على نفسيهما[٣].

وازدادت مخاوف ريتشارد عمقاً مع احتمال قيام فيليب بالتواصل مع شقيقه الطامع جون، الذي علم ريتشارد من والدته إليانور بنيته الاستيلاء على عرش مملكة إنكلترا، دفع ذلك القلق المحموم بريتشارد إلى السعي لتأمين موقفه بصورة عاجلة، فطالب فيليب بتجديد التزاماته من خلال ميثاق عدم اعتداء جديد، يكون ساري المفعول طالما بقي هو في الأراضي المقدسة[٤]، وقد حفظ لنا المؤرخ أمبرواز، الذي عاين تلك الأحداث، تفاصيل ذلك اللقاء الحاسم، حيث يروي أن ريتشارد طلب من فيليب أن يقسم على الآثار المقدسة قسماً مغلظاً بأنه لن يهاجم أراضيه أو يلحق بهِ أي ضرر طوال مدة حجه، ونص القسم أيضاً على أنه حتى بعد عودة ريتشارد، يلتزم ملك فرنسا بعدم شن أي حرب أو عمل عدائي ضده قبل أن يوجه إليه إنذاراً رسمياً عبر رسالة تسبق الهجوم بأربعين يوماً كاملة، كما تعهد أن يراعى كل ما تم الاتفاق عليه مراعاة صادقة، وأعطى الرهائن المسلمين تأكيداً على

---

(1) Jean Fleury, Op. Cit., P. 44.

(٢) حسن حبشي، المصدر السابق، ص ٢١٥.

(3) Jean Fleury, Op. Cit., P .44.

(4) Ibid, P. 45.

محافظته على صدق كلمته، ولكي يضفي على ذلك العهد ثقلاً لا يمكن إنكاره، قدّم الملك فيليب ضمانات شخصية من أرفع القادة مكانةً، على رأسهم دوق بورغوندي والكونت هنري دوق شمبانيا وشخصيات أخرى مرموقة، ليكونوا شهوداً وضامنين لكلمته وشرفه[١].

غادر الملك فيليب أغسطس مدينة عكا في ٣١ تموز ١١٩١ قاصداً مدينة صور، بصحبة المركيز كونراد دي مونتفرات الذي أعلن ان صحبته ملك فيليب مجرد زيارة لمدينة صور، الا انه في الواقع يرفض أن يخدم في جيش يخضع لقيادة الملك ريتشارد، بعد أن علم أن مخططاته للحصول على تاج مملكة بيت المقدس، لم تلق استحساناً من الملك ريتشارد، فبدأ يرعى مصالحه في مدينة صور، ويفاوض السلطان صلاح الدين منفرداً[٢].

كما استصحب الملك فيليب معه الأمير بهاء الدين قراقوش، وجميع الرهائن المسلمين الذين كانوا من نصيبه، وأصر على أن يتسلم مبلغاً قدره مائة ألف دينار، فدية لهم لسد نفقات الفرنسيين أثناء إقامتهم في الشرق[٣]، وفي مدينة صور استقبل الملك فيليب أغسطس سفارة السلطان صلاح الدين، مبدياً قدراً عالياً من الحكمة والاعتدال والتعقل التي ميزته بوضوح عن سائر القادة الصليبيين، وقد تجلى ذلك التميز في شهادة الجانب الإسلامي له؛ إذ اعتبره القاضي ابن شداد، المُقرب من السلطان صلاح الدين وكاتب سيرته، واحداً من أعظم حكام القارة الأوروبية قاطبة [٤].

غادر الملك فيليب أغسطس بعد ثلاثة أيام من مدينة صور في ٣ آب ١١٩١، ومعه رجاله حتى وصلوا خليج ساتاليا **Satalia** جنوب مدينة ميسينا في صقلية، وما إن لبثوا هناك حتى هبت عليهم ريح عاتية أعاقتهم عن الإبحار يوم وليلة، وعندما هدأت تلك الريح؛ أبحروا إلى مدينة برنديزي **Brindisi** ، ومنها إلى مدينة روما، التي دخلها متخفياً في زي الحجاج المتواضعين بصحبة عدد قليل من المرافقين، وعلى الرغم من رغبته الأكيدة في زيارة أضرحة الرسل القديسين دون أن يُعرف أمره؛ فإن البابا سلستين الثالث أصر على إعداد استقبال مهيب له، وعامله بكل حفاوة بصفته الابن الأكبر للكنيسة، وقد منحه البابا البركة الرسولية في احتفال رسمي، ونزع عنه الصليب الذي ظل يحمله منذ أن نذر نذره، ووضع حول عنقه صليباً آخر كشهادة على إتمام مهمته، كما أعطاه غصن نخيل ليكون بمثابة إكليل غار يرمز إلى النصر الذي أحرزه الأمراء المسيحيون على من وصفوا بالكفار[١].

خلال الأيام الثمانية التي قضاها في روما؛ حضر الملك مجلساً كنسياً، قدم خلاله عرضاً موجزاً لرحلته، ولم يتورع خلال حديثه عن ذكر ملك إنكلترا بكثير من الانتقاد وعدم التقدير، وهو أمر بدا مستهجناً للغاية، لاسيما أن ذلك الملك كان لا يزال يخوض غمار

---

[١] مؤرخ مجهول، الحرب الصليبية الثالثة صلاح الدين وريتشارد، مجموعة أوراق جمعها: وليم ستابز، ترجمة: حسن حبشي، ج٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٤٥.

[٢] المصدر نفسه، ص ٤٦.

[٣] غسان محمود وشاح وجمال أجمد أبو ريدة، الأمير بهاء الدين قراقوش ودوره في تثبيت أركان حكم السلطان صلاح الدين الأيوبي ١١١٦- ١٢٠١، مجلة دراسات في التاريخ والآثار، العدد ٦٦، ٢٠١٨، ص ٥٤١؛ سهيل زكار، صليبية رتشارد قلب الأسد، ص ٣٣٥.

[٤] حسن حبشي، المصدر السابق، ص ٢١٥-٢١٦.

الحرب ضد أعداء الدين، بعد ذلك، واصل فيليب رحلته براً، فعبر الأراضي الإيطالية بأكملها، ووصل إلى فرنسا مطلع شهر كانون الأول، فاحتفل بأعياد الميلاد في فونتينبلو، ثم توجه إلى كنيسة الشهداء القديسين في سان دوني ليشكر الله على نجاح رحلته وسلامة عودته، وهناك قدم عباءته الملكية قرباناً، جرياً على عادة أسلافه المتبعة بعد كل حملة عسكرية كبرى، وأخيراً وبعد أن أقام لبضعة أيام في سان جيرمان أونلي، وصل إلى باريس لقضاء فصل الشتاء، مختتماً بذلك رحلة طويلة محفوفة بالسياسة والمرض والمجد[٢].

---

[١] المصدر نفسه، ص ٢١٥-٢١٦.

[٢] سيد علي الحريري، الأخبار السنية في الحروب الصليبية، ط٢، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ١٩٥٨، ص ٢٥٧- ٢٥٨.

ثانياً. الصراع بين الملكين فيليب أغسطس والملك ريتشارد ١١٩٢- ١١٩٩:

شكلت المدة الممتدة بين عامي ١١٩٢ و١١٩٩ حقبة مفصلية في تاريخ النزاع الفرنسي الإنكليزي حيث تحولت التحالفات الهشة التي فرضتها مقتضيات الحملة الصليبية الثالثة إلى عداء مفتوح ومواجهة شاملة بين العاهلين؛ فيليب أغسطس ملك فرنسا، وريتشارد الأول ملك إنكلترا، إذ لم يكن ذلك النزاع مجرد صدام تقليدي طارئ على مقاطعات حدودية، بل كان تجسيداً لصراع إرادات ومواجهة إستراتيجية عميقة بين رؤيتين متناقضتين، طموح التاج الفرنسي الساعي بحزم نحو المركزية وبسط السيادة، وتفكيك النفوذ الإقطاعي الواسع لسلالة بلانتاجانت داخل الأراضي الفرنسية، في مقابل استماتة التاج الإنكليزي في الدفاع عن إمبراطوريته القارية المترامية الأطراف ومكتسباتها، حيث تداخلت في ذلك الصراع المعقد أبعادٌ سياسية وعسكرية وقانونية، تقاطعت بشدة مع أعراف الإقطاع المستقرة، وتوازنات القوى في الإمبراطورية الرومانية المقدسة، ومواقف المؤسسة الكنسية التي كانت لاعباً حاضراً في توجيه دفة الأحداث، لتبدأ فصول تلك المواجهة باصطياد سياسي محكم استغل فيه الملك الفرنسي التبعات القانونية والسياسية لغياب الملك الصليبي، لتنتهي بحرب استنزاف ضروس ومعارك دبلوماسية أعادت تشكيل التوازنات السياسية في الغرب الأوروبي، ومهدت الطريق لتحولات كبرى في بنية الملكيات الأوروبية خلال العصر الوسيط.

١. أسر الملك ريتشارد وخسارة بعض أراضيه لصالح الملك فيليب أغسطس بين ١١٩٢-١١٩٤

سارع الملك فيليب أغسطس بُعيد عودته من الحملة الصليبية إلى توظيف كل الظروف لصالحه في صراعه المحتدم مع منافسه اللدود ريتشارد ملك إنكلترا، إذ ما لبث في أواخر عام ١١٩٢ أن دعا إلى عقد اجتماع كبير في دوقية نورماندیا حضره الشيوخ والنبلاء وكبار البارونات في الدوقية، وعندما اجتمع الحضور خطب فيهم مطالباً إياهم بتنفيذ الوعود التي قطعها له ريتشارد في ميسينا بصقلية، وثانيًا، وهو الأهم، طالب بعودة شقيقته أليس، التي كانت خطيبة ريتشارد المهجورة والمحتجزة فعليًا في قلعة روان بنورماندیا وخاضعة لحراسة خاصة، اذ لم تكن المطالبة بأليس مجرد قضية شرف عائلي؛ بل مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بمطالب إقليمية حيوية[1]، وفي خطوة محسوبة ولكي يضفى على مطالبه الصفة الشرعية؛ قام بعرض مخطوطة لمعاهدة ميسينا كدليل يدعم شرعية مطالبه، إلا أن المجتمعين وفي مقدمتهم السينشال وليم فيتز رالف **William FitzRalph** (١١٤٠- ١٢٠٠) رفضوا تلك المطالب متذرعين بأنه لا يمكنهم اتخاذ قرار بهذا الحجم دون إذن صريح من ريتشارد

[1] هي استرداد أراضي مهرها الشاسعة، التي شملت قلعة جيزور الاستراتيجية ومقاطعتي أوكونتيتي أوتش Auch وأومارل Aumarle بنورماندیا على اعتبار أنها كانت صداق أخته في حالة إتمام زواجها من الملك الإنكليزي.

Mary McAuliffe, Clash of the Crowns, Roman & Littlefield Ltd., United Kingdom, 2012, p.109.

نفسه[١]، وعلى الرغم مّما أثاره مؤرخو البلاط الأنجوي من اتهامات لفيليب بتقديم نسخة مزورة من المعاهدة، إلا أن التحليل التاريخي المعمق يفند الحاجة لمثل ذلك التزييف؛ إذ كانت قضية فيليب ترتكز على أساس قانوني صلب يتمثل في نكث ريتشارد لوعود الزواج من الأميرة أليس، فبموجب الأعراف الإقطاعية المستقرة، كان لزاماً إعادة الأميرة المرفوضة إلى ذويها مصحوبة بكامل أراضي مهرها، ولم تكن حصانة الصليبيين التي يتمتع بها ريتشارد لتشكل غطاءً قانونياً أو أخلاقياً يبرر استمرار احتجاز الأميرة لدى آل بلانتاجانت، وهو ما جعل من التحرك الفرنسي لاستعادة منطقة فيكسين وقلعة جيزور عملاً مشروعاً من المنظور الفرنسي لا عدواناً، وفق ما أكده المؤرخ المعاصر ريغورد الذي اعتبر الوجود النورماندي هناك **"اغتصاباً غير قانوني"**، ومن هنا، تبرز معاهدة ميسينا في القراءات التاريخية الحديثة بوصفها إسفيناً سياسياً دُق ببراعة لتمكين التدخلات الفرنسية المستقبيلة، حيث لم تكن مناورة فيليب مجرد صراع على أقاليم حدودية، بل كانت فصلاً استراتيجياً طويل الأمد صُمم بعناية لتقويض أركان الإمبراطورية الأنجوية وبسط سلطة التاج الفرنسي[٢].

وعلى الرغم من ذلك الموقف القانوني القوي، إلا أن رفض المطالب الفرنسية أشعل فتيل غضب الملك فيليب، ودفعه لاتخاذ مسار تصعيدي، حيث تجسد غضبه في رد فعل انتقامي صارم وسريع، تمثل في تعبئة قوات عسكرية ضخمة اجتاح بها حدود دوقية نورمانديا، بيد أن ذلك التصعيد العسكري اصطدم بتحذيرات صارمة من طبقة النبلاء ورجال الدين، الذين ناشدوه التريث وعدم خرق الأعراف والتقاليد المستقرة في الغرب الأوروبي، والتي كانت تمنح حصانة مطلقة لأملاك الفرسان المحاربين تحت راية الصليب وتضعها تحت الحماية المباشرة للبابوية، مما وضع الطموح السياسي الفرنسي في مواجهة مباشرة مع القيود الروحية والاجتماعية للعصر الإقطاعي[٣]، وكنتيجة مباشرة لنجاحات الملك فيليب في إثارة شقيق ريتشارد الطامع جون كونت مورتاني بعد أن وعده بمساعدته في الاستيلاء على العرش[٤]، لذلك قام جون بالاستيلاء على عدد من القلاع التي لا تقع داخل نطاق ميراثه، فضلا عن طرده المستشار المعين من الملك، وقد وصلت أخبار ذلك إلى الملك ريتشارد في الشرق، ونتيجة لذلك عاد الملك ريتشارد إلى انكلترا بعد ما عقد صلح الرملة[٥] في أيلول

---

(1)Mary McAuliffe, Op. Cit., p.110; Richard Griffin, Criticisms of Historians in the Reign of King Richard I of England (1189-1199), Master's Thesis, University of Guelph, Canada, 2019, p. 21; Justin Lee Matthews, Op. Cit., p.49.

(2)Mary McAuliffe, Op. Cit., p.110 .

(3) Roger of Hoveden, Op. Cit., Vol. II, pp. 269-271.

(4)Ibid, pp. 265 – 271.

(٥) يراجع حول صلح الرملة: صفاء محمد صديق خليل، صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد ما بين الحرب ودبلوماسية السلام ٥٨٧-٥٨٨هـ/١١٩١-١١٩٢م، مجلة كلية الآداب، قسم التاريخ، جامعة سوهاج، مج٧٢، العدد٧٢، ٢٠٢٤، ص٤٣٥-٤٤٠؛ عبد المنعم ماجد، الدولة الايوبية في تاريخ مصر الإسلامية، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٧، ص ١١٥.

١١٩٢ مع السلطان صلاح الدين الأيوبي[١].

أبحر الملك مغادراً الشرق[٢]، مستودعاً البحر آماله في الوصول السريع، إلا أن القدر كان له رأي آخر؛ إذ انقضّت عليه عاصفة هوجاء حطمت مسار رحلته، وألقت بهِ في صراع مرير مع أمواج متلاطمة استمر شهراً كاملاً، قبل أن تجد سفينته المنهكة ملاذاً أخيراً على شواطئ جزيرة كورفو **Corfo** اليونانية التي تقع ضمن أملاك الإمبراطورية البيزنطية، التي كان في عداء معها باستيلائه على جزيرة قبرص قبل التوجه إلى الأراضي المقدسة، لذا خشي أن يقع أسيراً في يد دوق النمسا ليوبولد الخامس، وإدراكاً منه بأن المصير قد يخبئ له الموت أو الأسر، أحاط ريتشارد نفسه بنخبة من فرسان الهيكل، الذين كانت بسالتهم في القتال وحمايتهم الشرسة للحجاج قد أكسبتهم احتراماً ورهبة في كل الأراضي التي سيعبرها، ولم يكتفِ بذلك؛ بل عمد ومرافقوه العلمانيون إلى التنكر بارتداء معاطف الهيكل البيضاء الشهيرة، المزدانة بالصليب الأحمر، فاجتاز بهم إقليم سلافونيا **Slavonia** حتى دخل أملاك ليوبولد الخامس الذي قام بالقبض عليه في ٢٠ كانون الأول ١١٩٢ في مدينة فيينا[٣]، وما

---

(١) سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، ورود التاريخ، ج٣٩، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٠، ص ٣٩٣.

(٢) غالبته الدموع التي لم يَقْوَ على حبسها، وفيما رمق الشاطئ بنظرة وداعٍ أخيرة، هتف بصوتٍ متهدج: **"أيتها الأرض المقدسة، أستودعكِ رعاية العليّ، سائلاً إياه أن يَمُدَّ في عمري لأعودَ وأنتزعكِ من أغلال الكافرين".**
Toddy Louis Vaussion, Op. Cit., P.183.

(٣) بدأت رحلتهم البرية الشاقة نحو كونتية جوريتز في النمسا، حيث كان لا بد من الحصول على إذن مرور من حاكم المقاطعة، مايناردMaynard، الذي كان في لمسة قدرية ساخرة- ابن شقيق كونراد دي مونفيرات، المركيز الذي اغتيل في صور- أرسل ريتشارد أحد رجاله، حاملاً ياقوتة بديعة كان قد ابتاعها من تجار في فلسطين، كهدية لتليين قلب الحاكم، وقف الرسول أمام مايناردّ، وقدم طلبه قائلاً: **"إن بودوين دي بيتون وهيوز المركيز، عائدان من حجهما في القدس، يطلبان ممراً آمناً ويهديانكم هذا الخاتم"**، تفرّس مايناردّ في الجوهرة الثمينة التي لمعت في يده، وساده صمت عميق وهو يتأملها باهتمام، ثم رفع عينيه فجأة بنظرة ثاقبة واخترقت الرسول قائلاً: **"أنت تكذب! ليس هذا بهيوز، بل هو الملك ريتشارد. ولكن، بما أنه شرّفني بهديته دون أن يعرفني، فلن أكون سبباً في أسره، أعد له هديته، وأخبره أن له حرية المرور!"**، وبعد أن أُلقي ستار السرية، وفُضح أمره؛ أدرك ريتشارد أن الخطر يحيق به من كل جانب، فما كان منه إلا أن امتطى ورجاله صهوات جيادهم واختفوا في ظلام الليل، وعلى الرغم من أن مايناردّ لم يسعَ لعرقلة طريقه، إلا أنه أرسل على الفور رسولاً إلى أخيه، سيد المقاطعة المجاورة، محذراً إياه بأن ريتشارد ملك إنكلترا يعبر أراضيه، كان لدى هذا الأخ فارس نورماندي في خدمته يُدعى روجر، أمره سيده بتفتيش كل نُزل في المدينة والقبض على ريتشارد، وبعد أيام من البحث، عثر روجر على الملك، ولكن بدلاً من خيانة سيده السابق، انهمرت الدموع من عيني الفارس الوفي، وحذر ريتشارد من الخطر المحدق به، وتوسل إليه أن يفر، وقدّم له أفضل خيوله، استجاب الملك لنصيحة هذا الخادم المخلص، وانطلق فوراً برفقة صديقه المقرب، وليم دي تانغ، وغلام يجيد لغة البلاد؛ أما من تبقى من رفاقه، وعلى رأسهم بالدوين دي بيتون، فقد وقعوا في الأسر، وهكذا، بدأت مطاردة يائسة، لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ، قطع الملك ورفيقاه القلائل أراضٍ ألمانية مجهولة، دون طعام أو راحة، والجوع والتعب ينهشان أجسادهم، وصلوا أخيراً إلى ضواحي فيينا، على نهر الدانوب، مقر إقامة عدوه اللدود، ليوبولد دوق النمسا، الذي كان ريتشارد قد أهانه أشد الإهانة في الأراضي المقدسة، أرسل الملك الغلام إلى السوق لشراء بعض المؤن، لكن هيأته الأجنبية، وعرضه لعملات "البيزنط" الذهبية، وسلوكه الواثق الذي لا يليق بخادم، أثارت فضول وشكوك التجار، ألقى المواطنون القبض عليه وقدموه إلى القاضي، وبذكاء ادعى الغلام أنه خادم لتاجر ثري سيصل بعد ثلاثة أيام، فتم إطلاق سراحه، و عاد مسرعاً إلى الملك، وأخبره بما جرى، وحثه على الرحيل، لكن ريتشارد، الذي أنهكه التعب والمرض، كان أضعف من أن يواصل المسير، فقرر البقاء لبضعة أيام، فكانت هذه هي غلطته القاتلة، فقد وصلت الأخبار إلى ليوبولد، الذي أمر جواسيسه ورجاله المسلحين بتمشيط المنطقة، عاد الغلام مرة أخرى إلى السوق، مرتدياً قفازات مطرزة فاخرة لا تليق بخادم، هذه المرة، لم يكن هناك مفر، فقبض عليه رجال الدوق، وتحت وطأة

لبث أن سلّمه للإمبراطور هنري السادس في ٢٨ من آذار ١١٩٣ مقابل ستين ألف جنيه من الفضة[١]، فسجنه في قلعة تسمى تريفل **Trifels**[٢]، وكان هذا بحاجة للمال لتجهيز جيش للمطالبة بحقوقه في جنوبي إيطاليا، فاحتجز الملك ريتشارد كي يحصل على فدية، مما دفع البابا سلستين الثالث إلى إصدار قرار الحرمان الكنسي ضد هنري السادس لفعله غير المشروع[٣]، ويعلق أحد المؤرخين على أسر ريتشارد بأنه تجاوز الصدفة والمكائد السياسية، فقد رأى فيه تدبيراً من الحكمة الإلهية، وعقاباً سماوياً على ما اقترفه ريتشارد في شبابه من خطايا ضد أبيه وشعبه، حين انساق خلف تحريض الملك الفرنسي، فكان السجن، في نظرهم، فرصة للتكفير والتوبة، وعودة الملك الضال إلى صوابه[٤].

أودع الملك ريتشارد في قلعة تريفل القائمة على حدود ألمانيا، وهي قلعة حصينة تقع فوق قمة جبل مرتفع بنيت لتكون سجناً للأعداء المشهورين بالخطورة وسوء السمعة، حيث وضع ريتشارد تحت المراقبة المشددة اذ كان يحيط بهِ الحراس بسيوفهم المسلولة، ففرض عليه حصارًا مُطبقا، حين صدرت الأوامر الإمبراطورية القاطعة بمنع أي تواصل بشري عنه، فحُرّمت الزيارات منعاً باتاً، ضمانا لعزلة نفسية تامة بهدف تدميره معنوياً، ولم تكن تلك العزلة الأداة الوحيدة للتعذيب، فقد أوكل الإمبراطور إلى حراسه مهمة كسر شوكة الملك، مطلقاً أيديهم في ممارسة شتى صنوف الإذلال والتنكيل الممنهج، فكانت التعليمات واضحة، بإخضاعه لأسوأ ضروب المعاملة المهينة التي يمكن أن تطال كبرياء ملك[١]، وإلى جانب ذلك؛ بدأت حرب التجويع، فلم يُمنح من الطعام سوى ما يسد الرمق، محسوبا بدقة لتبقيه على قيد الحياة بالكاد، دون أن تمنحه أية قوة، وكان الهدف هو إضعاف جسده على أمل

التعذيب، انهار الغلام وكشف عن اسم الملك ومخبئه، على الفور، هرع ليوبولد على رأس جنوده وطوقوا المنزل، فحاول قلب الأسد الدفاع عن نفسه عبثاً، لكن في مواجهة قوة غاشمة؛ لم يجد مفرًا من التسليم، في لحظة من الإذلال التاريخي، خفض الملك الفخور كبرياءه وقدم سيفه لعدوه اللدود، لتنتهي بذلك رحلة هروبه الملحمية، وتبدأ فصول أسره الطويلة.

Toddy Louis Vaussion, Op. Cit., PP.184-185.

[١] على الرغم من إظهار ريتشارد الاحترام الظاهري لليوبولد، دوق النمسا، إلا أن الدوق، الذي لم يكن من النبل بحيث يتجاوز الإهانة السابقة التي لحقت به؛ أمر بإلقاء الملك الإنكليزي في سجن منيع ومجهول، وهناك، وُضع تحت حراسة مشددة من نخبة الجنود الذين تناوبوا على مراقبته ليل نهار، وقد جُرّد من حريته ومكانته، ولم يلبث خبر سجن ريتشارد طويلًا في طي الكتمان؛ بل انتشر كالنار في الهشيم في جميع أنحاء ألمانيا ومنها إلى كافة أرجاء أوروبا، مثيرًا صدمة ودهشة في الأوساط الحاكمة، فوجد دوق النمسا نفسه في موقف حرج، فعلى الرغم من رغبته الشديدة في الاحتفاظ بأسيره الثمين الذي كان يطمح من خلاله إلى الحصول على فدية ضخمة مقابل حريته؛ لم يعد بإمكانه إخفاء الأمر عن سيده الأعلى الإمبراطور هنري السادس، الذي كان يخوض حربًا شرسة ضد النورمان في بوليا وصقلية، ولم ينسَ قط التحالف الذي عقده ريتشارد مع تانكريد، عدو الإمبراطورية اللدود. وبدافع من هذا العداء القديم والجشع الذي استبد به؛ استدعى الإمبراطور تابعه ليوبولد وأمره بتسليم الأسير الملكي، وهكذا نُقل ريتشارد الذي كان محتجزًا في إحدى قلاع تيرول، إلى مدينة ماينز ثم إلى فورمس، حيث عامله الإمبراطور الجشع بقسوة وعدائية، لا تليق بمكانة ملك. يراجع:

Toddy Louis Vaussion, Op. Cit., P. 186.

[٢] سهيل زكار، الموسوعة الشامية، ج ٣٩، ص ٣٩٨.

[٣] جميس رستون، مقاتلون في سبيل الله صلاح الدين الايوبي وريتشارد قلب الاسد والحملة الصليبية الثالثة، ترجمة: رضوان السيد،مكتبة العبيكان، الرياض، ٢٠٠٢ ، ص ٤٦٣- ٤٦٤.

[٤] سهيل زكار ، تواريخ أسرة بلانتغنت ، ج٣٠ ، ص ٢٥٢.

أن يتبعه انهيار روحه[٢].

وصلت رسالة من الإمبراطور هنري السادس إلى الملك فيليب أغسطس في الثامن والعشرين من كانون الأول لعام ١١٩٢، جاء فيها **"هنري، بنعمة الله إمبراطور الرومان، إلى صديقه العزيز فيليب، ملك الفرنسيين المجيد، نلفت انتباهك، من خلال هذه الرسالة، إلى أن عدو إمبراطوريتنا ومزعج مملكتك، أي ملك إنكلترا، أثناء عبوره البحر للعودة إلى بلاده، دفعته الرياح نحو إستريا، تحطمت سفينة هذا الملك هناك وتمكن من الفرار مع بعض قومه، قام قريبنا العزيز، دوق ليوبولد النمساوي، بمراقبة الطرق بوضع حراس في كل مكان، وتمكن بذلك من أسر الملك بالقرب من فيينا، في منزل مشترك في الضواحي، هذا الملك الآن في قبضتنا، ونظرًا لأنه سعى دائمًا إلى التسبب لك في المتاعب والإزعاج، فإننا نحرص على إبلاغ جلالتك بما سبق، مع العلم أن هذا الخبر سيكون سارًا لك وسيجلب لك أعظم الفرح"**[٣].

تلقى الملك فيليب أغسطس نبأ وقوع رفيق سلاحه وخصمه اللدود ريتشارد في الأسر بحماسٍ مفرط عكس انتهازية سياسية واضحة، ومتجردًا من كافة الوازع الأخلاقية والأعراف الفروسية التي تفرض توقيرالحاج الأسير، ولم يقف الأمر عند حدود الحفاوة الدبلوماسية برسل الإمبراطور الألماني، بل سارع فيليب لتحويل ذلك الحدث إلى خيانة عملية عبر استدراج جون كونت مورتاني إلى طاولة التآمر، مستغلاً طموحات الأخير المتهورة في اعتلاء العرش[١].

وفي لقاءٍ حدوديٍ حاسم عند تخوم دوقية نورماندیا، أغوى الملك الفرنسي جون بوعودٍ براقة تضمنت ترسيمه ملكاً على إنكلترا ودعمه عسكرياً وتثبيته في حكم الأراضي الفرنسية التابعة للتاج الإنكليزي، مقابل زواجه من أليس أخت فيليب، وقد تبلور ذلك التحالف المشبوه سريعاً في معاهدة سرية لم تكن مجرد صلح سياسي، بل صفقة خيانية صريحة استهدفت تفكيك الإمبراطورية الأنجوية وتقويض أركانها من الداخل، فتعهد جون بالتنازل لفيليب عن أجزاء استراتيجية حيوية من نورماندي، وتحديداً **"كل جزء... على هذا الجانب من نهر السين"** (باتجاه باريس)، وهو ما يمنحه موطئ قدم هائل في قلب دوقية ريتشارد، مع استثناء وحيد لمدينة روان ومحيطها المباشر، فضلا عن ذلك، سيحصل فيليب على سيطرة كاملة في تورين، بما في ذلك مدينة تورز وقلاعها الحصينة (مونس، لوكوب، وشاتيون)، كما تعهد بتقديم الولاء (التبعية الإقطاعية) للملك فيليب مقابل الأجزاء المتبقية من نورماندي، أنجو، بواتو، وماين **Mine** التي ستبقى في حوزته، وبذلك، يتحول جون فعلياً من أمير مستقل إلى تابع للملك الفرنسي، وكان أهم بند في المعاهد السرية هو قسم الكونت **"بعدم عقد سلام مع ريتشارد شقيقه أبدًا دون موافقة سيده فيليب"**، وفي المقابل قدم فيليب ضماناً ماكراً: تعهد

---

(1) J. J. C. R. Dazercq , Op. Cit., p. 121.

(2) Rees, Simon "King Richard I of England Versus King Philip II Augustus". Military History Magazine. 2006, p. 2.

(3) Jean Fleury, Op. Cit., P. 48.

"دائمًا بإشراك كونت مورتاني في المعاهدات التي يمكنه إبرامها مع ريتشارد"، ليسمح ذلك البند بضمان السيطرة الكاملة على أية مفاوضات مستقبلية، ويمنع الأخوين من التصالح بصورة مستقلة، ويجعل من جون أداة دائمة في يد الملك الفرنسي(٢).

ومن ناحية أخرى نجحت مفاوضات الملك الفرنسي فيليب أغسطس مع كونت فلاندرز بلدوين الثامن **Baldwin Vill** (١١٥٠- ١١٩٥) وكذلك مفاوضاته مع كبار بارونات بواتيه وسامتونج **Samtong** على حدود نورمنديا شمال نهر السين، كذلك تفاوض مع جون وعقد معه اتفاقية في عام ١١٩٣ في باريس بمقتضاها حصل فيليب أغسطس على فيكسن وجيزور وفرنويل وتورز والعديد من القلاع، وتعهد جون بتقديم ولائه لملك فرنسا فيليب أغسطس على إقطاعياته في تلك المنطقة، لكن الحكومة الموكلة في إنكلترا التي ترأسها الملكة إليانور ويشترك معها في رئاستها كل من هربرت والتر **Hubert Walter** رئيس أساقفة كانتربري (١١٦٠-١٢٠٥) وولتر أوف كونتانسيس **Walter of Coutances** رئيس أساقفة روان اكتشفت تحالف جون مع الملك الفرنسي فيليب أغسطس فأعلنت أن الدوق جون عاق وبالتالي بطلان اتفاقيته(٣).

وبعد أن أصغى جون لنصائح الملك الفرنسي فيليب أغسطس انطلق مسرعاً إلى دوقية نورماندیا، وهناك دعا لعقد لقاء مع كبار البارونات الذين يدينون بالولاء للملك ريتشارد في قلعة لنكولن، وذلك لمناقشة أمر أسر سيدهم محاولاً إقناعهم بفرض سيادته على المملكة، وعندما اجتمع بهم خطب فيهم قائلاً: **"لو أنكم أقررتموني السيادة عليكم، وأقسمتم على الطاعة لي، فإني أعدكم بأن نقف جميعاً ضد الملك الفرنسي، وعلى العكس من ذلك لو رفضتم طاعتي"** إلا أن خطابه لم يلق قبولاً من النبلاء ورفضوا الطاعة داعين جميعاً أن عناية الله ستنقذ ملكهم، وأمام ذلك الصد؛ لم يتردد جون، بل حوّل وجهته نحو باريس، ليرتمي في أحضان الملك فيليب المنافس اللدود لسلالة بلانتاجانت، تصرف جون في البلاط الفرنسي كملك متوّج، مقدماً نفسه بجرأة ليس فقط كدوق لنورماندي وأكيتاين؛ بل وكمَلك لإنكلترا، ولإثبات جديته في ذلك التحالف؛ قدم تنازلاً استراتيجياً خطيراً، مؤكداً تخليه عن منطقة فيكسن المتنازع عليها لصالح التاج الفرنسي، ولم تتوقف خطواته التصعيدية عند ذلك الحد، ففي خطوة رمزية قاطعة، أقدم على تطليق زوجته، ساعياً للارتباط بأليس الفرنسية شقيقة فيليب أغسطس، بهدف توطيد تحالفه الجديد، كان هدفه واضحاً، حشد جيش من المرتزقة، أو الجنود المأجورين، والعودة إلى إنكلترا لانتزاع ما يعدّه مملكته الشرعية بقوة السلاح(٤).

في المقابل أظهرت الملكة الأم إليانور، دهائها السياسي وحنكتها التي لا تُضاهى، فبدلاً

---

(1) Radulphus de Diceto, Op. Cit., pp. 645-646.
(2)Ibid, pp. 645-646.
(3)Rigord,« Les exploits de Philippe Auguste, roi des Francs », Collection des historiens de Gaule et de France (R.H.G.F), Volume 17, édité par Michel Jean Joseph Bréal, Royal Press, Paris, 1818, pp.39-40; Radulphus de Diceto, Op. Cit., pp. 645-646.
(4) Rachel A.Koestler, Op. Cit., P. 116.

من المواجهة المباشرة لسلوك ابنها المتهور، اختارت أن تتفوق عليه ذكاءً وتخطيطاً استراتيجياً، اذ حشدت جيشاً متنوعاً قوامه الفرسان الموالين والنبلاء والحراس، وحتى العامة المخلصين للملك ريتشارد، وأصدرت أوامرها بنشر تلك القوات على امتداد الساحل الإنكليزي لقطع الطريق أمام أي غزو محتمل، فكانت خطتها استباقية وفاعلة، فبمجرد وصول طلائع مرتزقة جون إلى الشاطئ؛ تم اعتراضهم وإلقاء القبض على الغالبية العظمى منهم، مما وجّه ضربة قاصمة لمساعي جون الأولية، ومع ذلك تمكن جون ومجموعة صغيرة من مرافقيه من الإفلات والوصول إلى إنكلترا بأمان، وبإصرار عنيد، سارع بتجنيد مجموعة أخرى من المرتزقة، ونجح في الاستيلاء على قلاع ملكية مهمة، أبرزها وندسور ووالينغفورد، محولاً إياها إلى معاقل لتمرده، غير أن رجال الملكة إليانور كانوا له بالمرصاد، حيث فرضوا حصاراً فورياً ومحكماً على جون داخل وندسور ومعاقله الأخرى، كما دخلت البلاد في حالة من الجمود الخطير، فعلى الرغم من أن جون كان لا يزال يمتلك فرصة نظرية لاعتلاء العرش يوماً ما؛ إلا أن تمرده العنيف وضع مملكته على شفا حرب أهلية، وفي تلك اللحظة الحرجة، بات أمن إنكلترا واستقرارها يعتمد كلياً على عودة ريتشارد الملك الشرعي بسرعة وأمان [1].

أمام ذلك الاضطراب السياسي في إنكلترا؛ نجح الملك الفرنسي فيليب أغسطس دون قتال مستخدماً سلاح الخداع والمال في الاستيلاء على العديد من القلاع، التي كان من أهمها فرنويل وجيزور وبنفيل، وحاول جاهداً الاستيلاء على مدينة روان بعدما غادرها جون، إلا أنه واجه مقاومة غير متوقعة، حيث كانت حامية المدينة تحت قيادة روبرت دي بومون **Robert de Beaumont**، إيرل ليستر، الذي لم يكن قائداً عادياً؛ بل كان نبيلاً شاباً اكتسب شهرة عسكرية واسعة في حملات الأرض المقدسة، وبصفته سليل عائلة بومون العريقة، التي امتدت ممتلكاتها بين إنكلترا ونورماندي منذ عصر (الفاتح)، وكانت لروبرت مصلحة شخصية عميقة في الدفاع عن الدوقية، حيث تضمنت أراضيه قلاعاً حدودية حيوية مثل باسي (على نهر أور) وبريتويل، وأمام جيش فيليب الجرار، المجهز بأربع وعشرين آلة حصار متقدمة؛ أظهر روبرت ثقة تامة بالنفس تصل حد التحدي، وعندما طالبه الملك الفرنسي بتسليم المدينة، جاء رد الإيرل بارداً ومحسوباً:**"أن البوابات مفتوحة، ويمكنه الدخول متى شاء"**،هناك أدرك فيليب، بدهائه الاستراتيجي، أن ذلك ليس غباءً؛ بل فخاً نفسياً، لقد فهم الخطر الكامن في ذلك العرض، فالدخول إلى مدينة معادية بدعوة من قائدها يعني المخاطرة بالوقوع في كمين محكم، والأخطر من ذلك، لو تم أسره، لكان رجال ريتشارد قد حصلوا على ورقة المساومة القصوى، وهي مبادلة ملك فرنسا الأسير بملك إنكلترا الأسير، وكان ذلك الانعكاس الاستراتيجي المحتمل كارثياً، وبصورة فورية؛ قرر فيليب أن المخاطرة تفوق المكسب، فانسحب يجر أذيال الخيبة، محولاً غضبه نحو أهداف أسهل، ففي طريقه للعودة؛ انتقم بالاستيلاء على قلعة باسي **Basi** التابعة لروبرت نفسه،

---

[1] Ibid,pp.116-117.

فضلا عن قلعة إيفري الاستراتيجية، ليضمن على الأقل مكاسب ملموسة من حملته التي أُحبطت جزئياً، وتجدر الإشارة إلى أن الإمبراطور هنري لم يتنازل ويستقبل الملك ريتشارد في بلاطة ولا حتى يتحدث معه وجهاً لوجه وذلك بسبب شدة غضبه وحقده، إلا بعد أن توسط عدد كبير من الشخصيات المقربة له، فوافق الإمبراطور على لقاء الملك ريتشارد من خلال اجتماع عقد في ورمز **Worms** جنوب غربي ألمانيا في ٥ تموز ١١٩٣، حضره أساقفة ودوقات وفرسان إمبراطوريته[١].

وفى الاجتماع كال الإمبراطور هنري تهما عديدة للملك ريتشارد، أولها أن الإمبراطور فقد مملكة صقلية التي كان يعد نفسه صاحب الحق الشرعي في حكمها، وذلك بعدما استولى عليها ريتشارد بتحالفه مع تانكريد ملك صقلية، والاتهام الثاني حدث عندما حارب الملك ريتشارد ملك قبرص - اسحق دوقاس كومنين - واستولى منه على قبرص، وتم القبض على اسحق دوقاس وإيداعه السجن، على الرغم من علم الملك ريتشارد بصلة القرابة القائمة بين حاكم قبرص والإمبراطور هنري، أما الاتهام الثالث فكان تدبير مقتل المركيز كونراد دي مونتفرات صاحب صور بالاتفاق مع جماعة الحشاشين، وكان ذلك كله بجانب الإهانة التي وجهها الملك ريتشارد إلى ليوبولد دوق النمسا، حين أمر جنوده بإلقاء أعلام الدوق ورياته في المياه القذرة إلى جانب شدة منازعاته مع الملك فيليب أغسطس، ما أدى إلى تأخر تقدم الحملة الصليبية بسرعة وعدم تحقيق أهدافها، كما اتهم ريتشارد بأنه أهان الكثير من الجنود الألمان المشاركين في الحملة الصليبية الثالثة، وأخيرا اتهمه بانهاء الحملة بما لا يصح، عندما عقد هدنة مع السلطان صلاح الدين[٢].

لكن ريتشارد واجه تلك التهم بشموخ وغضب ملكي، اذ رفض الاتهامات جملةً وتفصيلاً، وألقى دفاعًا ناريًا مزج فيه بين فروسية المحارب ودهاء الساسة، وبدلاً من الاكتفاء بالإنكار؛ صعد الموقف بالمطالبة بتطبيق القانون الإقطاعي الصارم المتعلق بالشرف، متحدياً خصومه علانية **"ليتقدم من يتهمني بالخيانة"**، عبر **"النزال القضائي"**، مؤكداً استعداده لمواجهة أي متهِم وجهاً لوجه في حلبة القتال، وثقته التامة في عدالة قضيته وبراعة سيفه التي لم تخنه قط، ولم يقف دفاعه عند حدود التحدي الجسدي؛ بل انتقل ببراعة لتفنيد الجوانب السياسية للأزمة، حيث أوضح بلهجة حازمة أن تحركاته في صقلية لم تكن تمرداً على السلطة الإمبراطورية، بل كانت واجباً أخلاقياً وعائلياً للدفاع عن حقوق شقيقته جوان واسترداد مكانتها المستلبة، وهو ما تكلل بالنجاح بعد استجابة الملك تانكريد لمطالبه، وفيما يخص اغتيال كونراد دي مونتفرات، فقد قطع ريتشارد الطريق أمام المشككين بنفيٍ قاطع لأية صلة له بالواقعة، مجدداً تمسكه بمنطق القانون والعدالة، معلناً بترفّع أنه إذا لم ينصفه الحق، فإنه لن يتنازل بكلمة واحدة ليرجو بها نجاةً أو يدفع بها موتاً[٣]، وبعد ذلك الدفاع الشكلي، تحولت

---

[١] سهيل زكار، تواريخ أسرة بلانتغنت ، ج ٣٠ ، ص ٢٥٤.

[٢] سهيل زكار، ورود التاريخ ، ج٣٩، ص ٣٩٨؛ جيمس رستون، المصدر السابق، ص ٤٧٢-٤٧٩.

[٣] إثبت براءته من قتل كونراد دي مونتفرات؛ اذ أرسل ريتشارد قلب الأسد مبعوثيه إلى رشيد الدين سنان زعيم الحشاشين وطلب منه أن يكتب لمعتقليه وقائع قتل كونراد دي مونتفرات، وبالفعل أرسل شيخ الجبل إلى الدوق

مرافعته إلى مناشدة سياسية واستراتيجية ذكية، **"طالبًا الرحمة ليس لنفسه فقط، بل لوطنه، الذي يمزقه أخي (الأمير جون) بتحريض خبيث من أبناء فرنسا، فبينما أنا أسير هنا، يُهدم الملك فيليب قلاعي ويدمر مدنِي كما يشاء"**، هنا قدم ريتشارد عرضه البارع للإمبراطور مباشرة: **"أنت يا سيدي الإمبراطور، لم يمضِ على اعتلائك العرش إلا مدة قصيرة، والحروب تهددك من كل جانب، ولا بد أنك بحاجة إلى مبالغ طائلة، إذا كنت ترغب في الانتصار على أعدائك المتربصين، فسأقدم لك مئة ألف مارك من الفضة، وسأعلن نفسي تابعًا لك، إن أسري لا يفيدك شيئًا؛ فلا فخر في تحقيق نصر على ملك أعزل، اسمح لي بالذهاب لإنقاذ مملكتي"**[١].

كان لذلك الدفاع الممزوج بأنفة الفارس والحنكة السياسية؛ أثر عميق في أُعجاب الأمراء والفرسان الألمان الذين شكلوا المجلس بشجاعة ريتشارد ومنطقه، حتى الإمبراطور هنري بدا متأثرًا، ومنذ تلك اللحظة؛ بدأ يعامل سجينه بالاحترام اللائق، وعلى الرغم من ذلك، تردد هنري في إطلاق سراحه، خشية انتقام ملك جُرحت كبرياؤه بعمق، إلا أن نبلاء الإمبراطورية، الذين انبهروا بريتشارد، رفضوا ذلك التردد وجددوا توسلاتهم للإمبراطور، الذي وجد نفسه مضطرًا للدخول في مفاوضات جدية، أثمرت عن اتفاق هاجيناو **Hagenau** المُكلف والمهين لريتشارد، الذي حُددت بموجبه شروط إطلاق سراحه[٢]، حيث نصّت الاتفاق على دفع مبلغ ضخم قدره مئة وخمسون ألف مارك من الفضة؛ التزام ريتشارد بكسر قيود إسحاق كومنينوس (الذي كان ريتشارد قد أسره في قبرص)، الخضوع الإمبراطوري (التبعية)، الشرط الأكثر إذلالًا، وهو أن يعترف ريتشارد بنفسه تابعًا

ليوبولد الخامس دوق النمسا رسالة قيل أنها جاءت من قائد الطائفة الإسلامية التي لا تعرف الرحمة والتي تدعى الحشاشين، وفيها أنهم هم الذين يتحملون مسؤولية قتله وليس الملك الإنكليزي ريتشارد وهدفها تبرئة الملك الإنكليزي من الحادث وحوت الكلمات التالية:**"إلى ليوبولد الخامس دوق النمسا يبعث شيخ الجبل بتحياته، بما أن عدداً كبيراً من الملوك والأمراء فيما وراء البحار يلومون السيد ريتشارد قلب الأسد ملك إنكلترا من أجل وفاة المركيز كونراد دي مونتفرات، إنني أقسم بالله الذي يحكم إلى الأبد وبالشريعة التي تؤمن بها، أنه لا ذنب له في ذلك الموت، والسبب الذي أدى إلى موت المركيز هو أنه كان واحد من أخوتنا عائد إلى مناطقنا من ساتاليا Satalia (أضاليا)، لكن الريح دفعته إلى صور حيث أمر المركيز بأخذه وقتله وسلب منه كثيراً من المال، وبعثنا إليه برسلنا نخبره أن يعيد مال أخينا إلينا وأن يتفق معنا حول التعويض عن موته، لكنه لم يرغب بشيء من هذا أبداً، وزيادة على ذلك أبدى ازدراء نحو رسلنا، لابل حتى إنه اتهم اللورد رينالد جرينيه Reginald Garenier صاحب صيدا بأنه من قتله، علماً بأننا نعرف من رفاق لنا أنه هو نفسه الذي قتله وسلبه وليس رينالد جرينير صاحب صيدا، ثم بعثنا إليه برسول آخر اسمه إدريس فأراد إغراقه، لكن رفاقنا ساعدوا الرسول للنجاة من صور، وعندها بادر إدريس مسرعاً إلينا وأخبرنا بالذي حدث، وأردنا من تلك الساعة أن نقتل المركيز كونراد دي مونتفرات وبناء عليه بعثنا باثنين من إخواننا إلى صور، فقتلوه بشكل مكشوف وأمام شعب المدينة كله تقريباً، فكان هذا السبب في قتل المركيز كونراد دي مونتفرات، ويمكننا أن نخبركم بصدق بأن ريتشارد قلب الأسد ملك إنكلترا ليس مذنباً في موت المركيز كونراد دى مونتفرات، وأي إنسان يحاول أن يؤذيه بسبب هذه القضية يقترف بذلك عملاً ظالماً، وأعلم بشكل مؤكد أننا لم نقتل أي إنسان في هذا العالم مقابل أجر أو مال أو أي شيء، مالم يكن سبب لنا أولاً ضررا".** يراجع: أسامة زكي زيد، الصليبيون وإسماعيلية الشام في عصر الحروب الصليبية، الهيئة العامة المصرية للكتاب، الإسكندرية، ١٩٨٠، ص ٢٣٣-٢٣٥؛ سهيل زكار، تواريخ أسرة بلانتغنت ، ج ٣٠، ص ٢٦٥.

(1) Toddy Louis Vaussion, Op. Cit., P. 192.

(2)Ibid, p.193.

للإمبراطور، وأن تصبح مملكة إنكلترا إقطاعية تابعة للإمبراطورية الرومانية المقدسة، مع الالتزام بدفع جزية سنوية قدرها ٣,٠٠٠ جنيه إسترليني[١].

كان ذلك الاعتراف بالتبعية بمثابة انتصار سياسي هائل لهنري السادس، حيث أشبع غروره ومطالبه الإمبراطورية بإحياء السيطرة الشاملة لقياصرة روما، نُفذت مراسم الخضوع بحضور كبار اللوردات والأساقفة، يصف المؤرخ الإنكليزي روجر دي هوفيدن المشهد قائلًا: **"تنازل الملك ريتشارد عن مملكته وسلمها للإمبراطور، بصفته السيد الأعلى للجميع، ومنحه حق التنصيب عليها؛ فأعادها إليه الإمبراطور على الفور ليحتفظ بها كإقطاعية، ومنحه راية التنصيب المتمثلة في صليب ذهبي مزدوج"**، بعد ذلك، أقسم جميع الأساقفة واللوردات الألمان اليمين بأن ريتشارد سيُطلق سراحه حالما يتم دفع المئة والخمسين ألف مارك كاملة، وفي المقابل؛ قدم هنري وعودًا لريتشارد، إذ تعهّد بمساعدته ضد جميع أعدائه، ومنحه تنصيبًا اسميًا (وإن كان بلا سلطة فعلية) على مملكة آرل وفيينا وليون ومقاطعات ومدن أخرى مثل ناربون، وهي أراضٍ لم يكن لأباطرة ألمانيا عليها سوى مطالبات تاريخية متنازع عليها[٢].

وعقب إبرام معاهدة هاجيناو المُذلة؛ لم تنتهِ محنة ريتشارد، بل تحولت من محاكمة سياسية إلى عملية احتجاز طويلة بانتظار سداد فدية فلكية، أُودع الملك الأسير السجن مجددًا، لتبدأ خمسة أشهر أخرى من الانتظار المرير، في حين كانت الضغوط تتصاعد من كل حدب وصوب، وكان ريتشارد نفسه يوجه رسائل لاذعة مليئة بالشكاوى المريرة، ليس فقط ضد آسريه، ولكن أيضًا تجاه ضباط مملكته وأصدقائه الذين بدا له أنهم تباطأوا في إنقاذه[٣]، وفي إنكلترا كانت والدته، الملكة إليانور اكيتاين، تقود جهودًا دبلوماسية ومالية حثيثة لجمع المبلغ[٤]، وبالتوازي مارست الكنيسة ضغوطها، حيث صبّ البابا غضبه على الإمبراطور هنري السادس ودوق النمسا، مُدينًا ذلك الاحتجاز التعسفي لملك صليبي عائد من الأراضي

---

(1)Toddy Louis Vaussion, Op. Cit., p.193.

(2)Ibid, p.193.

(٣) في أحدى نوبات الحزن والاكتئاب كتب قصيدة بعنوان: **"للأصدقاء المزيفين" "مازالت الشكوى سلوى الحزين لدى الكثير من الأصدقاء، والوعود غزيرة ولكن الخزي لهم إذا لم تدفع فديتي في غضون شتاءين وظللت حبيس أغلال الطاغية اللوردات والنبلاء جميعهم يعلمون علم اليقين في إنكلترا، ونورمانديا وغاسقونيا وبواتو إنني لم أتجاهل يوماً نداء أكثر تابعي فقراً ولكن كل من يملك المال الذى يستطيع فك أغلالي انسحبوا أنا لا أتكلم بلهجة اللوم، ولا من أجل لغو لا فائدة منه ولكني وحدي أحمل الأغلال وما من شفوق ولا رحيم".**
يراجع : جيمس رستون، المصدر السابق، ص ٤٧٦- ٤٧٧.

(٤) تدخلت الملكة إليانور لإنقاذ الموقف وأقنعت المجلس بالاستيلاء على جميع أراضي جون في إنكلترا، كما حافظت نورماندي على ولائها للملك، وبحلول تشرين الأول ١١٩٣، جمعت الملكة إليانور ١٠٠ ألف مارك فضي، كان الملك ريتشارد حذرًا، وهو أمر مفهوم، لم يُرِد أن يحدث أي ضرر عند تسليم أموال الفدية، طلب من الملكة إليانور مرافقة الفضة شخصيًا إلى ألمانيا، في كانون الأول، أبحرت الملكة إليانور حاملةً المال، كان أسطولها مُسلحًا بمئات الجنود، تحسبًا لأية محاولة من القراصنة للاستيلاء على الشحنة الثمينة، عبرت الملكة إليانور بحر الشمال بسلام، ثم سافرت برًا، ثم استقلت قاربًا عبر نهر الراين إلى شباير، وكان من المفترض أن تلتقي الملكة إليانور بابنها في السادس من كانون الثاني، لكن الإمبراطور هنري قرر تأجيل إطلاق سراح الملك ريتشارد.

Rachel A. Koestler, Op. Cit., pp. 118-119.

المقدسة[١]، كانت عملية جمع الفدية الهائلة التي فرضت عبئًا ضريبيًا ساحقًا على إنكلترا، تسير ببطء، لم يكن السبب الوحيد هو ضخامة المبلغ، بل تفاقمت الأزمة بسبب الفساد الداخلي، حيث أدى الاحتيال والنهب المخجل من بعض الموظفين المكلفين بالتحصيل إلى ضياع جزء من الأموال، كذلك كان الأمير جون جاداً في عرقلة جمع الفدية، أملًا في أن يطول أسر أخيه بما يكفي لتمكينه من إحكام سيطرته على العرش الإنكليزي[٢].

وعندما وصلت أنباء الاتفاق وشروط الإفراج الوشيك إلى باريس، أصيب فيليب أغسطس والكونت جون بالذعر، في محاولة يائسة لإبقاء ريتشارد قيد الأسر، فقدما للإمبراطور هنري السادس عرضًا مضادًا مغريًا للغاية، اذ أرسلا له رسائل تحذيرية صريحة:**"احذر، لا تطلق سراح ريتشارد، لأنك ستندم على ذلك. ألا تعلم أنه يهددنا جميعًا؟"**، ولم تكن تلك مجرد تحذيرات؛ بل كانت مصحوبة برشوة سياسية ضخمة، إذ عرض الحليفان على الإمبراطور خمسين ألف مارك من الفضة من ملك فرنسا وثلاثين ألف مارك من الكونت جون، بشرط أن يُبقي ملك إنكلترا أسيرًا حتى عيد القديس ميخائيل أي لسنة واحدة إضافية فقط، بل وذهبا إلى أبعد من ذلك، حيث عرضا مبلغًا، أو إذا رغب الإمبراطور، يُعطيه ملك فرنسا مئة ألف مارك من الفضة والكونت جون خمسين ألف مارك من الفضة، شرط أن يُسلمهم ملك إنكلترا، أو على الأقل، يُبقيه أسيرًا مدة سنة من ذلك التاريخ[٣].

أثار الاقتراح جشع الإمبراطور، الذي بدأ يتردد جديًا ويفكر في الإخلال بوعوده، لكن ذلك التردد اصطدم بمعارضة قوية من الأمراء الألمان، الذين كانوا ضامنين للمعاهدة، وخوفهم من إثارة غضب البابوية وفقدان شرفهم السياسي، أصروا على هنري بضرورة الوفاء بالاتفاق المُبرم، وفي خضم تلك المفاوضات الخطيرة[٤]، تمكنت الملكة إليانور أخيرًا من

---

(1) Toddy Louis Vaussion, Op. Cit., P. 193.

(2) Ibid., P. 193.

(٣) اصل تلك الرواية انكليزي وتحديداً من قبل المؤرخ الإنكليزي روجر دي هوفيدن ومن المحتمل أن يكون له مصلحة واضحة في تشويه سمعة الخصم اللدود لملكه، وهو الملك الفرنسي فيليب أغسطس، يجب أن توضع موضع تساؤل، فالتحيزات الوطنية والسياسية كثيراً ما تدفع إلى تضخيم الأحداث أو حتى اختلاقها لخدمة أغراض سياسية، ولكن من الحقائق التي لا جدال فيها أنه أثناء أسر ملك إنكلترا، أُرسل أسقف بوفيه، فيليب من درو، إلى ألمانيا من قِبل ملك فرنسا للتفاوض مع الإمبراطور، وبعد مقابلته مع هنري السادس، وجد الأسير الملكي نفسه يُعامل بقسوةٍ أكبر من ذي قبل.

Jean Fleury, Op. Cit., P. 49; Achille Locher, Philippe Auguste, p. 77.

(٤) جرت محاولة من جانب الإمبراطور الألماني هنري السادس لحل الصراع بين المملكتين إنكلترا وفرنسا عن طريق عقد اتفاق بين الملك الإنكليزي الأسير ريتشارد والملك الفرنسي فيليب أغسطس برعاية ألمانية، إلا أن الملك ريتشارد طالب بعدة شروط من أجل قبول المصالحة مع الملك الفرنسي، التي كان منها أن يقوم الملك الفرنسي فيليب أغسطس برد كل الأراضي التي أخذها منذ عودته من الشرق إلى حوزة التاج الإنكليزي سواء التي استولى عليها بنفسه أو عن طريق أحد تابعيه، وأن يقوم الإيرل جون بالموافقة على هذه الشروط، فضلا عن بعض القلاع والأراضي التي سيناقش أمرها الطرفان إذا ما تم بينهما لقاء بعد عودته من الأسر، ومن المرجح أن وساطة الإمبراطور الألماني هنري السادس ومحاولته عقد سلام بين المملكتين لم يصبها النجاح الذي تمناه، وذلك لأسباب منها عناد الملك ريتشارد قلب الأسد وصلابة رأيه، فضلا عن أن نواياه التي لم تتجه لمصالحة الملك الفرنسي فيليب أغسطس لما قام به هذا الملك من إثارة المشاكل ضده، التي توشك على أن تفقده عرشه، وذلك من خلال سعيه المستمر للقضاء على مملكة إنكلترا والاستيلاء على أملاكها جنوب القنال الإنكليزي وفي مقدمتها دوقية نورماندیا من أجل هذا كان اللقاء في تلك المدة ضرباً من ضروب التمني، سعى إليه الإمبراطور الألماني وحلم به جنود المملكتين، لذا بدأت الآمال تتلاشى في الوصول إلى مصالحة في تلك المدة، ويبدو أن الملك الفرنسي فيليب أغسطس رفض الشروط التي وضعها الملك الإنكليزي ريتشارد من أجل المصالحة، لذلك تمسك بتطبيق شروط

جمع الدفعة الأولى الحاسمة البالغة سبعين ألف مارك، كما لم تتردد الملكة الأم، في السفر بنفسها إلى ألمانيا، مصطحبة معها غوتييه والترئيس أساقفة روان، لتقدم المبلغ إلى هنري السادس، الذي وافق على قبول رهائن رفيعي المستوى كضمان لسداد المبلغ المتبقي من الفدية[١]، وفي بداية شباط وبعد أربعة عشر شهرًا مريرًا في السجن؛ نال ملك إنكلترا حريته أخيرًا، وكان ريتشارد مفعمًا بالغضب والاستياء العميق تجاه فيليب أغسطس وشقيقه جون، أما الإمبراطور هنري، ففي خطوة تنم عن الخبث أو ربما لتبرير موقفه أمام حلفائه الذين خذلهم؛ أرسل إلى جون وفيليب رسالته الشهيرة المقتضبة والمليئة بالتهديد: **"كونوا على حذر، فقد تحرر الشيطان"**، وأضاف ما معناه: **"لقد كان بإمكاني فعل غير ذلك"**، في إشارة واضحة إلى أنه اختار الوفاء بكلمته على الرغم من إغراءاتهم[٢].

أخيرًا تحرر الملك ريتشارد في ٤ شباط ١١٩٤، ومع حلول شهر آذار، أبحرت الأم وابنها في رحلة العودة إلى الديار، إلا أن نسمات الحرية لم تعنِ زوال الخطر تماماً؛ فبينما كان ريتشارد يسترد أنفاسه كملك حر، كان خصمه اللدود ملك فرنسا يحيك شباكه في الخفاء، مصدراً أوامره الصارمة لجواسيسه ومبعوثيه باعتراض طريق منافسه والقبض عليه قبل أن تطأ قدماه أرض إنكلترا [٣].

ومما تقدم يتبين لنا أن أسر الملك ريتشارد إبان عودته من الحملة الصليبية قد مثّل فرصة سياسية سانحة لخصومه، وفي مقدمتهم الملك الفرنسي فيليب أغسطس الذي سارع لاستغلال ذلك الغياب بهدف تقويض الإمبراطورية الأنجوية واسترداد أقاليم حيوية متذرعاً بحقوق شقيقته أليس، وقد تعمقت أزمة ريتشارد بخيانة شقيقه الأمير جون، الذي ارتمى في أحضان التاج الفرنسي مقدماً تنازلات جغرافية وسياسية خطيرة طمعاً في اغتصاب عرش إنكلترا، وفي غضون ذلك، كابد ريتشارد ظروف احتجاز مهينة ومحاكمة سياسية قاسية أمام الإمبراطور الروماني المقدس هنري السادس، وعلى الرغم من دفاعه البطولي عن نفسه وبراءته من التهم المنسوبة إليه، أُجبر على قبول شروط مجحفة لفك أسره تضمنت إعلان التبعية للإمبراطور ودفع فدية مالية باهظة، ولولا الدهاء السياسي والمساعي الجبارة التي قادتها والدته الملكة إليانور لجمع الفدية وإحباط تمرد جون، إضافة إلى تصديها لمساعي التحالف (فيليب وجون) الرامية لإبقائه سجيناً عبر رشوة الإمبراطور، لما تمكن من نيل حريته، وقد تُوّج ذلك الصراع المرير بإطلاق سراح ريتشارد في مطلع عام ١١٩٤، ليعود

التصالح القائم بينه وبين الإمبراطور هنري السادس، وفي مقدمتها عدم إطلاق سراح الملك ريتشارد بسرعة وذلك لعدة اعتبارات منها مصلحة الإمبراطور الألماني هنري السادس نفسه في إذلال عدوه المتحالف مع أعداء الإمبراطورية والخارجين عليها، وفي الوقت نفسه يعطي الفرصة لنفسه لتحقيق أهدافه ضد الأنجويين في مملكة إنكلترا، مما سيعود بالنفع على البلدين فرنسا وألمانيا. يراجع:

Peter Zindes, Heinrich VI, The Scientific Book Society, Berlin, 1993, p. 128; Odilo Engels, Al Stauffer, 7th ed., Kohlhammer Verlag, Stuttgart, 1998, p. 133.

(1) Toddy Louis Vaussion, op. cit., P.193.

(2)Ibid, p.194.

(3) Ibid, P.194; Rachel A. Koestler, Op. Cit., p. 120.

إلى دياره غاضباً ومستعداً لمواجهة تداعيات الخيانة والتآمر، وسط ترقب وقلق بالغ من الملك الفرنسي الذي أيقن أن غريمه قد تحرر وعاد لينتقم.

٢. عودة ريتشارد وصراعه مع فيليب لأسترداد أملاكة ١١٩٤- ١١٩٩.

أبحر الملك ريتشارد والملكة إليانور إلى ميناء ساندويتش **sandwich** بإنكلترا في تمام الساعة التاسعة صباحًا في يوم ١٣ آذار ١١٩٤، وعلى وفق المؤرخ وليم مارشال، الذي وصف مشهد استقبال الملك في لندن ١٦ آذار: **"لم يكن ليتقدم فاستقبله حشد غفير من الناس أظهروا فرحهم بالرقص والدوران، لدرجة أنه لا يمكن رمي تفاحة دون أن تسقط على أحدهم قبل أن تلامس الأرض"**، فيما كانت الأجراس تدق في كل مكان، وكان الكبار والصغار يصطفون مرددين: **"لقد جاء الله بقوته، سيرحل ملك فرنسا قريبًا!"**[١]، وعلى الرغم من ذلك، فعندما وصل إلى مدينة لندن تحرك إلى مقاطعة نوتنجهام **Nottingham** حيث احتفل فيها بعيد الفصح ومنها إلى مدينة وينشيستر حيث تسلم تاج المملكة للمرة الثانية في ٧ نيسان ١١٩٤ من رئيس أساقفة كانتربري هيوبرت - فتز - والتر، وكان تتويجه للمرة الثانية أمراً ضرورياً لاستعادة هيبته بعد الإذلال الذي عانى منه بوقوعه أسيراً في يد الإمبراطور الألماني هنري السادس[٢].

وبعد الاحتفال بالتتويج اتجه الملك ريتشارد إلى دوقية نورماندیا لتأخذ العلاقات الفرنسية الإنكليزية أبعاداً جديدة بإشعال الملك الإنكليزي الصراع ضد الملك الفرنسي فيليب أغسطس الذي ما إن علم بإطلاق سراح الملك الإنكليزي ريتشارد حتى شن هجوماً كاسحاً على نورماندي، ووجه قوته الضاربة نحو قلعة فيرنويل الاستراتيجية، مُطبقاً عليها حصاراً مُحكماً، لم يكن ذلك حصاراً تقليدياً، بل كان استعراضاً للقوة العسكرية المتقدمة التي امتلكها التاج الفرنسي في ذلك العصر، استخدم فيليب جميع فنون الحصار المعروفة؛ حيث نصب آلات ضخمة (كالمناجيق) لقذف الصخور الهائلة على الأسوار، وأمر فرقه المتخصصة (النّقابين) بالعمل على تقويض أساسات الجدران من الأسفل، بينما فرض طوقاً خانقاً لمنع أي إمدادات عن الحامية المحاصرة[٣].

وما إن دخل الملك الإنكليزي ريتشارد دوقية نورماندیا في ١١ أيار ١١٩٤ حتى اتجه

---

(1) Georges Bourdonoff , Op. Cit., P. 45.

(٢) نجح ريتشارد أثناء سجنه، في إقامة علاقات مع أتباع هنري السادس الذين قد يكونون مفيدين ضد فيليب، بمن فيهم دوقات شوابيا ولوفان وليمبورغ، وكونتات هولندا ومونفيرات، فقام برحلة هادئة على طول نهر الراين، برفقة والدته، محوّلًا عددًا من الاتصالات إلى تحالفات إيجابية، مدعومة بوعود مالية. ويظهر موقف بعض هؤلاء اللوردات في كولونيا، حيث ألقى رئيس الأساقفة عظة، بحضور إليانور، حول النص التالي: **"أرسل الرب ملاكه لينقذني من يد هيرودس"**، كان هذا التشبيه إعلاناً واضحاً، يضع ريتشارد في موضع الضحية المظلومة التي أنقذتها العناية الإلهية، ويضع سجّانه (الإمبراطور) في موضع "هيرودس" الغاشم، مما أضفى شرعية دينية وسياسية على قضية ريتشارد وحلفائه، وتحولت هذه الاتصالات إلى كتلة من الحلفاء في شمال غربي أوروبا، بما في ذلك بعض الأساقفة الألمان، والعديد من أمراء منطقة الراين، وبرابانت، وهولندا، واستكملت فيما بعد بالشخصية الأكثر أهمية، كونت فلاندرز.

Jean Nicolas Auguste, Op. Cit., P. 115.

(3)William holden hutton, Op. Cit., pp. 57-58.

صوب إيفرو **Evro** التي منحت من الملك الفرنسي فيليب أغسطس لجون، لقد كانت تلك القلعة تمثل المعقل الرئيسي لشقيقه المتمرد وأنصاره، ضرب الملك ريتشارد وجيشه حصاراً محكماً حول أسوار نوتنغهام، لم يدم الصمود طويلاً؛ فبمجرد أن أدرك الفرسان المحاصرون داخل القلعة أن القائد الذي يهاجمهم ليس مجرد مبعوث ملكي، بل هو الملك ريتشارد نفسه، ببطولته الأسطورية وهيبته التي تسبقه، حتى دبّ الرعب في قلوبهم وانهارت معنوياتهم، لم يجدوا خياراً سوى إلقاء السلاح وإعلان الاستسلام الفوري، وعقب استعادة القلعة، وجه ريتشارد إنذاراً ملكياً صارماً وضع فيه شقيقه أمام خيارين لا ثالث لهما: إما المثول طوعاً في غضون أربعين يوماً، أو الفقدان الأبدي لأي حق في وراثة العرش الإنكليزي[١].

أدرك الأمير جون حينها أن لحظة الحساب قد حانت، وأن مراهنته على الملك الفرنسي لم تكن سوى مقامرة خاسرة، فقرر الانقلاب على حلفائه القدامى بخطوة دموية بشعة لإثبات ولائه المتجدد لشقيقه؛ حيث قام بذبح الحامية الفرنسية في إيفرو وقدم المدينة للملك ريتشارد كقربان مصالحة ملطخ بالدماء؛ وفي مدينة ليزيو، ووسط أجواء مشحونة بالقلق والترقب، جرى اللقاء التاريخي في منزل جان دالنسون رئيس شمامسة ليزيو، وعلى الرغم من مرارة الخيانة، تجلت حكمة ريتشارد السياسية في احتواء الموقف؛ فبدلاً من معاقبة جون، اختار الملك أن يمنحه مخرجاً يحفظ كرامته، ملقياً باللوم على المستشارين والمحرضين الذين استغلوا **"طيشه"**، واصفاً إياه بأنه كان كـ **"الطفل"** الذي تم التلاعب بهِ[٢].

وعندما جثا جون عند قدمي أخيه منكسراً تملكه الرعب، رفعه ريتشارد بلطف مدهش قائلاً كلماته الشهيرة:**"انهض يا جون ولا تخف.. لقد تم خداعك"**، معلناً بذلك عفواً ملكياً كاملاً طوى صفحة التمرد، وبعد أن تبدد التوتر، تحول المشهد السياسي الدرامي إلى لحظة إنسانية بسيطة، التفت جون إلى مضيفه دالنسون وسأل: **"ماذا يوجد للأكل؟"** وكأن القدر أراد أن يبارك تلك المصالحة، فقد تم في تلك اللحظة إهداء سمكة سلمون طازجة للملك، الذي أمر على الفور بطهيها لأخيه، لقد كان ذلك العشاء المشترك بمثابة الختم الرمزي للسلام وعودة العلاقات الأسرية إلى مجراها[٣].

وعلى الجبهة العسكرية، لم يكد ريتشارد يتحرك بجيشه لفك حصار فرنويل حتى آثر الملك فيليب أغسطس الانسحاب، متجهاً نحو إيفرو في ٢٩ أيار ١١٩٤ التي استطاع الاستيلاء عليها بسهولة وطرد منها النورمان ودمر كثيراً من عمارة المدينة، مما سهل عليه الاستيلاء على قلعتها بما فيها الأمتعة والغنائم[٤]، وترك حامية هناك وتوجه صوب قلعة

---

(1)Achille Lochear, Philippe Auguste et son temps (1137-1226), Éditions Tallandier, Paris, 1980, p.69.

(2)Ibid, p.69.

(3)Achille Lochear, Philippe Auguste et son temps, p.69.

(٤) يقدم المؤرخ وليم البريتوني رواية تُحمّل فيليب مسؤولية تدمير المدينة، فعلى وفق تلك المصدر، حاول فيليب التغطية على عار انسحابه بعمل وحشي "منحرف"، ففي نوبة غضبه،- أمر بتدمير مدينة إيفرو، التي كان قد نهبها بالفعل في وقت سابق، لم يقتصر الأمر على ذلك، بل يُزعم أن أمره شمل تدمير كنيسة القديس تورين، أشهر وأهم صرح ديني في تلك المنطقة. وتضيف الرواية تفصيلاً مثيراً، وهو أن جنود فيليب النظاميين رفضوا الامتثال لهذا

لوتشي **Loche** الواقعة جنوب أمبواز -التي كانت له من قبل ضماناً لعدم خرق الاتفاقية بينه وبين جون أثناء أسر الملك الإنكليزي ريتشارد التي أعلنت التمرد عليه-، إلا أنها لم تلبث أن سقطت عنوة بعد حصار قليل، ومنها اتجه إلى قلعة فونتين **Fontaine** ذات الينابيع الكثيرة الواقعة غربي لوتشي فتسلمها دون قتال[١]، وعلى ما يبدو أن ذلك كان بداية الحرب الضارية بين الملك الفرنسي فيليب أغسطس والملك الإنكليزي ريتشارد، التي أعقبها الملك ريتشارد بضرب حصار حول قلعة لوتشي التي أخذها عنوة بعد أيام قلائل، وتسلمها وهي مليئة بالإمدادات التي كان يحرسها خمسة عشر فارساً[٢].

قام الملك الإنكليزي ريتشارد بطرد رهبان كنيسة القديس مارتن دي تور **Saint Martin de tors** وطرد معهم كل من يتّبعهم، وأصبحت الكنيسة خالية منهم، وفوق كل ذلك هدم ودمر الكنائس هناك وفرض كثيرا من الضرائب وجمع الكنوز من عدة مناطق[٣]، وذلك عندما دخل الملك الفرنسي فيليب أغسطس أراضي تورز وأقام معسكره بالقرب من فيندوم **Vendome** وأسرع جواسيسه بإخباره بأن الملك الإنكليزي يزحف باتجاهه، لذلك أسرع فيليب إلى فريتفال، في ٣ تموز ١١٩٤ حيث جاءت الضربة الأقسى والأكثر إذلالاً قرب غابتها، في مفاجأة من ريتشارد فبفضل تكتيكاته العسكرية الجريئة؛ ألحق بالجيش الفرنسي هزيمة نكراء، فلم تكن مجرد خسارة عسكرية؛ بل كانت كارثة شخصية ووطنية لملك فرنسا، حيث فقد فيليب كامل قافلة أمتعته، التي تحتوي على الإمدادات والمعدات، والأهم من ذلك؛ استولى ريتشارد على جزء كبير من كنوز التاج الفرنسي وخزانته التي كانت ترافق الملك في حملاته، فيما الخسارة التي لا تعوض كانت وقوع الأرشيف الملكي الفرنسي بأيدي الإنكليز، والذي تضمن سجلات مالية ووثائق إقطاعية ومراسلات دبلوماسية سرية ومعاهدات، ومثّل ضياع الأرشيف بمثابة ضربة قاصمة للإدارة المركزية الناشئة في فرنسا، وأجبر فيليب على البدء من الصفر في بناء ذاكرة الدولة المكتوبة، وكانت هزيمة فريتفال إذلالاً عميقاً لفيليب، وكشفت عن تفوق ريتشارد ليس فقط كقائد عسكري؛ بل أيضاً كاستراتيجي قادر على توجيه ضربات دقيقة ومؤثرة، فلم يقتصر تفوق ريتشارد على ساحة المعركة، بل امتد ليشمل الساحة الدبلوماسية الأوروبية، بفضل علاقاته وشبكة تحالفاته، ضمّن لنفسه اليد العليا، دعمهم الكامل لقضية ملك إنكلترا ضد فرنسا، ولم يكن ذلك الدعم مجرد كلام؛ بل اقترن بتهديدات مباشرة وجهها هنري السادس إلى فيليب، حيث أعلن عن نيته الاستيلاء على الضفة اليمنى لنهر الرون، بل وتحدث بجرأة عن طموحه لتوسيع السيادة الإمبراطورية لتشمل مملكة فرنسا بأكملها، وبذلك وجد فيليب أغسطس نفسه محاصرًا ليس

الأمر المدنّس، مما اضطره، كما يُقال، إلى الاستعانة بمرتزقته (الذين يُطلق عليهم "الأرواح الضالة" أو "Routiers")، ودخل هو نفسه المكان المقدس وأشعل فيه النار.

William holden hutton, Op. Cit., pp. 57-58.

[١] محمد دسوقي محمد، المصدر السابق، ص ١٩٨- ١٩٩.

Toby Purser, Medieval England 1042-1228 (illustrated ed.), Heinemann, 2004, p. 161.

[2] Roger of Wendover. Op. Cit., V. II, p.136.

[3] Rigord, Op. Cit., p. 41.

فقط من لدن ريتشارد في الغرب، بل أيضاً تحت تهديد مباشر من الإمبراطورية القوية في الشرق، مما عزز عزلة فرنسا وقوة موقف ريتشارد[١].

بعث الملك فيليب أغسطس في تلك الأثناء بأربعة رسل إلى الملك ريتشارد بغرض أن يحسم الصراع بينهما عن طريق تنظيم نزال حتى الموت بين خمسة رجال من الجانبين كليهما، وذلك حقناً لدماء الشعبين اللذين خوت خزائنهما من الذهب والفضة بسبب الحرب وللإبقاء على النبلاء في كلا الجانبين ممن يموتون في المعارك، وعلى قادة المملكتين انتظار نتيجة ذلك النزال الذي بموجبه سيعطون كل ملك ما يستحق، وسرّ ملك الإنكليز بذلك العرض سروراً بالغاً، مفترضاً أن يكون ملك فرنسا نفسه هو الخامس بين رجاله ويكون هو على الجانب الآخر الخامس من جانبه، فعارض اللوردات الفرنسيون ذلك، زاعمين أن ملك فرنسا لا ينبغي أن يقاتل مع تابعه، وبعد ذلك توصل الجانبان إلى هدنة في تموز عام ١١٩٤، عرفت بمعاهدة تريز **Tillières** وتم الاتفاق فيها أن يلتزم الملك فيليب أغسطس والملك ريتشارد بحدودهم الحالية[٢]، ومما سبق تتجلى براعة الملك فيليب أغسطس في قراءة المتغيرات السياسية والعسكرية، فبعد عودة الملك ريتشارد من الأسر بشخصية أكثر صلابة وعناداً جراء ما كابده من محن، وأدرك فيليب أن موازين القوى قد اختلفت تماماً عما كانت عليه، حيث لم تكن هزيمته المريرة في فريتفال مجرد انكسار عسكري عابر؛ بل مثّلت نقطة تحول قاسية أجبرته على إعادة تقييم خصمه الذي استخف بهِ سابقاً ظناً منه أن تجربة الأسر قد وهنت من عزيمته، وأمام ذلك الواقع المستجد، أملت عليه الحنكة السياسية والذكاء الاستراتيجي ضرورة الانحناء للعاصفة عبر عقد تلك الاتفاقية، كخطوة تكتيكية تمنحه الوقت اللازم لإعادة ترتيب صفوفه وتعبئة قواته بما يتناسب مع ضراوة الخصم ومستوى التحدي المفروض عليه[٣].

بلغ الصراع المحتدم بين فيليب أغسطس ملك فرنسا وريتشارد ملك إنكلترا ودوق نورماندي، ذروة جديدة في أواخر عام ١١٩٥، فكانت جيوشهما تقف وجهاً لوجه، على شفا اشتباك حاسم تحت أسوار مدينة إيسودون **Isodun** في منطقة بيري بفرنسا، لكن في خضم تلك التوترات العسكرية، ترددت في أنحاء العالم المسيحي أصداء تهديد وجودي قادم من الجنوب[٤]، وكانت الأنباء قد وصلت بأن قوات الدولة الموحدية (١١٢١- ١٢٦٩) القادمة من شمالي أفريقيا قد حققت نصراً ساحقاً على ممالك إسبانيا المسيحية في معركة الأرك تموز ١١٩٥، مما فتح الباب أمام خطر حقيقي يهدد شبه الجزيرة الأيبيرية بأكملها، وأمام ذلك الخطر الخارجي؛ تحركت السلطة الدينية العليا في أوروبا، حيث مارس البابا سلستين الثالث،مدعوماً بجهود الأساقفة والرهبان، ضغوطاً دبلوماسية مكثفة على الملكين

---

(1) Achille Lochear, Philippe Auguste et son temps, p. 69; Rigord, Op. Cit., p.41; James EsQ, G.P.R., Op. Cit., V.II, p. 444.

(2)Rigord, Op. Cit.,pp. 42-43; james, ESQ. GPR, V. II, p. 449.

(٣) سهيل زكار، ورود التاريخ ، ج٣٩، ص ٤١٠ – ٤١١.

Green, J.R., Henry The Second, London, 1889, pp. 218-220.

(4) Achille Lochear, Philippe Auguste et son temps, p. 70.

المتحاربين، لحثهما على نبذ خلافاتهما وتوجيه أنظارهما نحو التهديد الأكبر الذي يواجه المسيحية، وقد استجاب الطرفين لتلك الدعوات، وفي كانون الأول ١١٩٥، تم تحويل ساحة المعركة الوشيكة إلى طاولة مفاوضات، وبدلاً من إراقة الدماء، وقّع فيليب وريتشارد هدنة مؤقتة عُرفت بـ هدنة إيسودون، سرعان ما تطورت إلى مفاوضات سلام أكثر رسمية[١].

أسفرت تلك المفاوضات عن إبرام معاهدة جايون **Treaty of Gaillon** في شهر كانون الثاني من عام ١١٩٦، لتشكل تسوية سياسية معقدة تعكس تذبذب موازين القوى بين الطرفين، وبموجب تلك المعاهدة، أقر الملك ريتشارد بالسيادة الفرنسية لصالح الملك فيليب على مواقع استراتيجية حيوية كان الأخير قد سيطر عليها، أبرزها قلعة جيزور، ومنطقة فيكسين النورماندية، إلى جانب نونانكور وباسي سور أور، مع الاعتراف بسيادته أيضاً على مقاطعة أوفيرني، وفي المقابل تراجع فيليب عن بعض فتوحاته ليعيد إلى ريتشارد أراضي مهمة في إقليم اكيتاين، شملت إيسودون وغراسيه وأجزاء من بيري، وعلى الرغم من التوافق الذي فرضته الوساطة الكنسية والظروف السياسية، إلا أن تلك التسوية بقيت قاصرة عن إرضاء طموحات العاهلين؛ إذ رأى فيها فيليب مجرد خطوة متواضعة ضمن مشروعه الأكبر الرامي إلى تقويض الإمبراطورية الأنجوية المترامية الأطراف في فرنسا، بينما اعتبر ريتشارد تخليه عن فيكسين النورماندية إهانة قاسية وانتقاصاً من سيادته،ونتيجة لذلك، ولّدت معاهدة جايون سلاماً هشاً لم يعالج الجذور العميقة للنزاع، وما إن تبددت التهديدات المباشرة في إسبانيا حتى سرعان ما استعرت نار العداوة الكامنة بين الملكين من جديد [٢].

لم تلبث تلك الاتفاقية التي عُقدت بين الملك ريتشارد ونظيره الفرنسي فيليب أغسطس أن انهارت بعد مرور أشهر قليلة على إبرامها؛ ففي حزيران من عام ١١٩٦، بادر الملك ريتشارد بنقض المعاهدة التي كان يُؤمل لها الاستدامة، متعمدًا استفزاز الملك الفرنسي وإشعال فتيل الحرب، انطلقت شرارة الصراع حينما حشد ريتشارد قواته في منطقة بيري، وشن هجوماً عنيفاً أفضى إلى إخضاع قصر فيرزون **Vierzon** جنوبي باريس، ضارباً بعهوده ومواثيقه السابقة عرض الحائط، ومع إدراك الملك فيليب لانهيار مساعي السلام وتعرّض جنوده للتنكيل، واصل ريتشارد زحفه نحو نونانكورت **Nonancourt** في نورماندیا مستولياً على قصرها بالقوة، وأعقب ذلك بإصدار أوامره بمصادرة كافة الممتلكات والبضائع الواقعة في الأراضي التابعة للتاج الفرنسي، ورداً على تلك التحركات، قاد الملك فيليب أغسطس حملة في تموز من العام ذاته لضرب حصار على قلعة أومال **Aumale**، إلا أن استبسال حاميتها في الدفاع وتوجيهها ضربات قاصمة للقوات المهاجمة أجبر الفرنسيين في النهاية على التقهقر، لتدخل المنطقة في دوامة من الصراع المستمر المتمثل في تبادل كلا الملكين الإنكليزي والفرنسي الاستيلاء على القلاع[٣].

---

(1)Achille Lochear, Philippe Auguste et son temps, p.70; Guillaume de nangis, Op. Cit., pp. 381-382.

(2)Ibid, p.70; Ibid, pp. 381-382.

(3) Rigord, Op. Cit., p. 46; Roger of Wendover, Op. Cit., V. II, pp. 167-168.

وسرعان ما أدرك الملك ريتشارد أن نورمنديا هي مسرح العمليات العسكرية وهدف الملك فيليب أغسطس في ذلك الوقت؛ لذا عمل الملك الإنكليزي على حمايتها وتحصينها ضد هجمات الملك الفرنسي، فقام ريتشارد بداية عام ١١٩٧ ببناء حصن على حدود دوقية نورماندیا واختار موقعا مميزا لبناء قلعة في المكان الذي ينحدر فيه نهر السين بالقرب من جايلون **Gaillon**، حيث يتقاطع وادى أنديلس **Andelis** مع انحدارات الهضاب في شمالي فرنسا، فتم تشييد قلعة جايلارد **Gaillard** على بعد أكثر من مائة متر جهة نهر السين على ربوة معزولة، وتم إعدادها بصورة رائعة لتكون حصناً للدفاع، وتمنع إغارة الفرنسيين على نورمنديا[١].

لم يكتف الملك ريتشارد بتحصين أملاكه في فرنسا والانتقام من رجال الملك الفرنسي فيليب أغسطس، بل حاول استخدامهم سلاحا آخر ليشهره ضد الملك الفرنسي، وذلك بتأليب أفصاله عليه، فأخذ ريتشارد يتفاوض مع الطبقة الإقطاعية واستمال لجانبه بالدوين التاسع **Baldwin IX** (١١٧٢- ١٢٠٥)، الكونت الجديد لفلاندرز[٢] ورينو دي دامارتان **Renaud de Damartin** (١١٦٥- ١٢٢٧) كونت بولوني **Count of Boulogne**، فضلا عن لويس كونت بلوا **Louis, Count of Blois** (١١٧٢- ١٢٠٥) وريموند السادس **Raymond VI** (١١٥٦- ١٢٢٢) كونت تولوز **Count of Toulouse**، والمفارقة أن بعض هؤلاء الأمراء، مثل كونت فلاندرز وبولوني، كانوا لا يزالون في حزيران ١١٩٦ في بلاط فيليب أغسطس في كومبين، حيث أقسموا له يمين الولاء كأتباع مخلصين، ولكن في غضون عام واحد فقط، انقلب ذلك الولاء إلى عداء صريح، مما كشف عمق التحولات الإستراتيجية[٣].

فوجد ذلك التحالف الإقطاعي، الذي تشكل في عام ١١٩٧، دفعة هائلة على الساحة الأوروبية بوفاة الإمبراطور هنري السادس، فقد انقسمت الإمبراطورية الرومانية المقدسة بين متنافسين على العرش، وهم أوتو الرابع (١١٧٥- ١٢١٨) من برونزويك الذي حصل على دعم قوي من الغويلفيين، ورؤساء أساقفة حوض الراين، والبابا إنوسنت الثالث،

---

(1)Georges Bourdonoff, Op. Cit., P. 46; Guillaume Le Breton « Les œuvres de Philippe Auguste », Collection des historiens de Gaule et de France (R.H.G.F), édité par M. J. J. Bréal, Volume 17, Royal Press, Paris, 1818, p. 180.; Ernest Lavisse, Op. Cit., Tome, III, pp. 115-116.

(٢) كانت لدى كونت فلاندرز، على وجه الخصوص، دوافع قوية للانضمام إلى ريتشارد، فمظالم التاج الفرنسي كانت متعددة الأوجه، حيث كان الفلمنكيون ناقمين بشدة على سياسة فيليب التوسعية، التي أدت إلى انتزاع منطقتي أرتوا وفيرماندوا من سيطرتهم، مما قوض بشكل كبير هيمنة سلفه، فيليب الألزاسي، كانت فلاندرز قوة تجارية وصناعية كبرى، واقتصادها يعتمد بصورة حيوية على استيراد الصوف الإنكليزي لصناعة المنسوجات الفاخرة. وبالتالي، كان التحالف الوثيق مع إنكلترا ضرورة اقتصادية تتقدم على الولاء الإقطاعي لملك فرنسا، كذلك لم يغفر بالدوين الشاب لفيليب أغسطس إجباره على دفع "ضريبة إعفاء" باهظة للموافقة على توليه حكم المقاطعة، وفوق ذلك، نكث فيليب بوعده بإعادة جزء من مدينة تورناي إليه.

Achille Lochear, Philippe Auguste et son temps, pp.70-71

(3)Achille Lochear, Philippe Auguste et son temps,pp. 70-71; Rigord, Op. Cit., pp. 46-47.

وبطبيعة الحال، من خاله ملك إنكلترا، وفي المقابل برز فيليب من سوابيا شقيق الإمبراطور الراحل، الذي سارع فيليب أغسطس، ملك فرنسا، إلى توقيع معاهدة تحالف معه، في محاولة يائسة لمواجهة النفوذ الإنكليزي المتصاعد، لكن بصعود أوتو إلى العرش الإمبراطوري، اكتملت حلقة الحصار حول فيليب أغسطس، إذ أصبح ملك فرنسا حينها في مواجهة جبهة معادية تمتد من إنكلترا ونورماندي في الغرب، إلى فلاندرز والإمبراطورية في الشرق والشمال، فضلا عن الأمراء المتمردين في الداخل، فقد تحول الصراع من مجرد نزاع حدودي إلى حرب أوروبية كبرى، أصبحت فيها مملكة فرنسا نفسها على المحك[١].

وبينما كانت نيران التحالف الكبير تشتعل حوله؛ وجد الملك فيليب أغسطس نفسه في موقف عسكري حرج للغاية، فكان مهدداً بالوقوع بين فكي كماشة هجوم إنكليزي بقيادة ريتشارد من جهة نورماندي، وغزو شامل من الشمال بقيادة الكونت الطموح بالدوين التاسع، الذي أشعل حرباً في فلاندرز بهدف استعادة الأراضي التي استولى عليها التاج الفرنسي سابقاً[٢]، اذ بدأ بالدوين هجومه الكاسح مستهدفاً استعادة منطقتي أرتوا وفرمندوا **Vermandois** فتقدمت قواته بسرعة وسيطرت على سلسلة من المدن المهمة مثل دواي **Douai**، بابوم **Baboom**، بيرون، **Perun** وروي**Roy** ، ولم يكتفِ بذلك؛ بل توغل عميقاً لضرب حصار على مدينة أراس **Arras** التي تقع بأرتوا في شمالي فرنسا، وأجبر ذلك التقدم السريع فيليب أغسطس على التحرك بنفسه لإنقاذ الموقف، حيث جمع جيشه وهرع شمالاً لمواجهة الكونت المتمرد، الذي لجأ بدوره إلى خدعة عسكرية ماكرة، فبمجرد وصول الجيش الفرنسي؛ تظاهرت قواته بالانسحاب والفرار شمالاً، ليغري فيليب وجيشه المتعطش للنصر بمطاردتهم، فكانت تلك المطاردة فخاً متقناً، حيث تم استدراج الجيش الفرنسي إلى الأراضي المنخفضة والمستنقعات الموحلة المحيطة بمدينة إيبرس **Ebers**، وفي لحظة حاسمة؛ أمر بالدوين بفتح جميع السدود والأقفال المائية في المنطقة، لتغمر المياه الأراضي وتحولها إلى مستنقع لزج يعيق حركة الفرسان والمشاة الفرنسيين، حينها وجد الملك فيليب نفسه محاصراً، ضائعاً في تضاريس غادرة، وجيشه الثقيل يغوص في الوحل، على وشك الوقوع في الأسر أو الإبادة الكاملة[٣].

وفي تلك اللحظة الحرجة، وبدلاً من إلحاق هزيمة ساحقة بالملك؛ وافق الفلمنكيون على منحه ما يشبه "الاستسلام المشروط"، مما سمح له بالخروج بجيشه من ذلك المأزق المميت، ولكن بمجرد أن عاد فيليب إلى باريس وأصبح في مأمن؛ سارع إلى إعلان بطلان ذلك الاتفاق، متذرعاً بحجة قانونية إقطاعية مفادها أن **"التابع المتمرد لا يملك الحق في فرض شروطه على سيده الملك"**، إلا أن ذلك التنصل من الاتفاق لم يغير من الواقع المرير على الأرض، فقد واصل بالدوين التاسع، الذي أثبت تفوقه التكتيكي، مسيرته المنتصرة، اذا استولى على مدينة آير سور لا ليس **Aire-sur-la-Lys** دون قتال، ثم فرض حصاراً قوياً

(1) Jean Fleury, Op. Cit., PP. 56-57.
(2) Jim Bradbury, Op. Cit., p. 123.
(3) Jean Fleury, Op. Cit., PP. 58.

على مدينة سانت أومير **Saint-Omer** الساحلية الهامة، التي سقطت بيده بعد شهر من المقاومة في ٨ تشرين الأول ١١٩٧[١].

ويبدو أن ذكاء الملك الإنكليزي ريتشارد دفعه لإحكام القبضة على الملك الفرنسي فيليب أغسطس، ففي ٢٨ أيلول ١١٩٨ جمع الملك الإنكليزي ريتشارد كل قواته واتجه صوب فيكسن واستولى على سورسيلز **Courcelles** وبوري **Boury**، وفي ذلك الوقت اتجه الملك الفرنسي فيليب أغسطس ناحية جيزور ليستعين بها في حربه ضد الملك الإنكليزي ومعه أربعمائة فارس، وعلم ريتشارد بذلك عن طريق جواسيسه فجاء في الاتجاه المضاد لملاقاة فيليب أغسطس، الذي لم يستطع التصدي لمواجهة ريتشارد المفاجئة، ففرّ مع رفاقه إلى قلعة جيروز، وانهارت الجسور بالعدد الهائل من الفارين من المعركة حتى أن فيليب نفسه وقع بجواده ودرعه في نهر إبت **Epte** مع عدد لا حصر له من الفرنسيين، وقام رجل الدين وليم دي ميلو **Guillaume de Mello** وآخرين بمعاونة الملك فيليب للخروج، وإنقاذه من الموت بأعجوبة بعد انتشاله من الماء، وفى ذلك الوقت قامت مجموعة مختارة من القوات الفرنسية بتأمين هروب الملك الفرنسي حتى لا يقع في أسر الملك الإنكليزي ريتشارد الذي كان يطارده، لكن ريتشارد قابلهم ودارت معركة حامية بين الجانبين ثانية في فيكسن، وكانت السيوف كالرعد وهي تسقط على الخوذات وتساقط الجنود من الجانبين هنا وهناك، ولم يهدأ غضب الجنود الإنكليز حتى تمكن الملك ريتشارد من أسر الفرقة التي قاومته بكاملها[٢]، وكانوا مائة فارس، كما استولى الملك ريتشارد على مائتي حصان مغطاة بالدروع وأسر عدد هائل من المشاة، وبعد ذلك النصر الكبير أرسل ريتشارد المنتصر خطابات إلى كل أصدقائه في إنكلترا، مثل كبار الأساقفة وموظفي الكنيسة والبارونات وحكام الأقاليم، راجياً إياهم أن ينضموا إليه في صلاته للتمجيد والشكر على ذلك النصر الذي أحرزه على أعدائه[٣].

ومن تفاصيل تلك الواقعة نستنتج أن الملك فيليب أغسطس ربما تعرض لتلك الهزيمة بسبب قلة جنوده، إذ صمتت المصادر عن ذكر سبب اصطحابه لتلك العدد القليل من الفرسان، هل كان لعدم تقدير مخاطر تلك المنطقة جهلاً بجغرافيتها أم استهانة منه بقوة الملك ريتشارد، وربما كان السبب ترك قوات على حدود فلاندرز خوفاً من هجوم مباشر ومباغت من بلدوين التاسع كونت فلاندرز والملك الإنكليزي ريتشارد، وبالتالي وقع فيليب بين شقي الرحى، ووجد الملك الفرنسي نفسه في أواخر عام ١١٩٨، في موقف استراتيجي حرج للغاية، قارب حد اليأس، وكانت تلك الأزمة نتاجاً مباشراً للضغط العسكري والسياسي الخانق الذي مارسه خصمه العنيد ريتشارد، من خلال حملاته العنيفة وتحالفاته الماهرة، في محاصرة فيليب فعلياً، بحيث **"أمسكه بعنف شديد حتى أنه لم يعرف كيف يدير ظهره"**، في

---

(1) Achilles Lochair, Philippe Auguste , PP. 80

(2) Roger of Wendover, Op. Cit., V. II, pp. 168-175; James, ESQ, Op. Cit., V. II, p. 459.

(3) Roger of Wendover, Op. Cit., V. II, p. 175.

إشارة واضحة إلى فقدان فيليب زمام المبادرة والقدرة على المناورة، وكانت وطأة ذلك الضغط هائلة، فبدأت تظهر تداعياته بوضوح في تآكل ولاء النبلاء الفرنسيين، فقد أدى العجز الظاهر لملك فرنسا، مقروناً بقوة ريتشارد العسكرية، إلى موجة من الاستسلام والانشقاق، حيث **"استسلم الكثيرون للملك ريتشارد، مما أثار استياء ملك فرنسا الشديد"**، ودفع ذلك التفكك في قاعدة دعمه الداخلية بفيليب إلى حافة الهاوية[١]، وإدراكاً منه لاستحالة تحقيق نصر عسكري أو الخروج من المأزق بالوسائل التقليدية؛ اضطر فيليب أغسطس إلى اتخاذ إجراءات استثنائية، فاستدعى سرًا بارونـاته لطلب المشورة فأشاروا عليه: **"إذا لم تتفاوض عبر بلاط روما، فلن تخرج من هنا"**، بعبارة أخرى السبيل الوحيد المتبقي هو اللجوء إلى السلطة الأعلى في العالم المسيحي، أي البابوية في روما، لطلب وساطة أو تدخل ينهي ذلك الصراع المدمر[٢].

أرسل الملك فيليب أغسطس سراً أحد رجال الدين الموثوقين بداية عام ١١٩٩، إلى البابا إنوسنت الثالث مُحمّلاً إياه بالرفات [٣] اللازمة ليخبره برغبته في عقد اتفاق مع إنكلترا لعقد هدنة لوقف القتال لزمن معين، فاستجاب البابا على الرغم من قلة تعاطفه المعروفة مع الملك الفرنسي، وأوفد الكاردينال بيتر من كابوا، ولم يكن اختيار المبعوث بريئًا؛ فقد وُصف الكاردينال بأنه: **"رجل ماكر ومخادع، بارع في لغته"**، وأنه تخرج من **"مدرسة تعلم فيها كيفية قلب الأمور"**، مما يجعله الأداة المثالية لمهمة دبلوماسية معقدة وشائكة، كان الكاردينال مكلفاً بمهمة مزدوجة، فرض إرادة البابوية بوقف القتال، والتوسط في محادثات سلام نيابة عن ملك فرنسا[٤]، الذي استقبل بدوره المبعوث البابوي بحفاوة بالغة، وشرح له مأزق الوضع العسكري، واتفقا أن الحل الوحيد الممكن هو فرض هدنة؛ من جانبه لم يستطع ريتشارد، على الرغم من ضغينته العميقة تجاه البلاط الروماني (الذي تخلى عنه أثناء أسره)، أن يرفض استقبال مبعوث البابا، بدأ الكاردينال، **"المليء بالمكر والالتواءات"**، مهمته بالتظاهر بالنوايا الحسنة وتقديم التحيات باسم الله وبلاط روما، لكن الحوار الذي دار بينه وبين ريتشارد كشف عن هوة سحيقة بين الموقفين، اذ كان مطلب ريتشارد واضحاً كالشمس، وهولن يكون هناك سلام دائم حتى يستعيد كامل أراضيه الموروثة التي استولى عليها فيليب، وأعلن أنه في حال حدوث ذلك، فإنه مستعد للتنازل عن حقه في التعويضات وإعفاء فيليب من قسمه الذي نكثه، فرد المندوب بأن مجلس فيليب لن يوافق أبدًا على إعادة كل ما تم الاستيلاء عليه، هنا تصلب موقف ريتشارد، مهددًا بمواصلة الحرب حتى الموت، فحاول الكاردينال اللعب على وتر **"الأرض المقدسة"** ومعاناة القدس، محاولاً تحميل

---

(1) Achille Lochear, Philippe Auguste et son temps, p.72.

(2) Ibid, p. 72.

(٣) يتهم المؤرخ وليم مارشال في كشف الطبيعة الحقيقية لهذه "الرفات"، في إشارة ساخرة ومبطنة إلى الرشاوى والهدايا الثمينة التي لا غنى عنها لـ "مسح النخيل" في البلاط الروماني، ففي تلك الحقبة، كانت الدبلوماسية البابوية، على وفق المؤرخ، تعمل بمنطق **"من لا يملك هذا النوع من الآثار يصعب عليه المرور من أبوابهم"**، مما جعل القوانين وآراء الفقهاء بلا قيمة تذكر أمام بريق الذهب.

(4) Georges Bourdonoff, Op. Cit., p. 46.

ريتشارد مسؤولية ضياع المسيحية، فكان ذلك التلميح كافياً لإثارة غضب ريتشارد، الذي ردّ بمرارة، مذكرًا إياه بأن خيانة فيليب وتآمره لسجنه هما السبب المباشر وراء اضطراره لمغادرة الأراضي المقدسة وفشل الحملة الصليبية[١].

ثم جاء الاقتراح الذي أشعل غضب ريتشارد الحقيقي وهي هدنة يحتفظ بموجبها كل طرف بما يملكه حاليًا، انفجر ريتشارد رافضاً ذلك المنطق، واصفاً إياه بأنه محاولة **"لبيعه الغزال"** (أي خداعه) وتُشرعن سرقة أراضيه، وفي محاولة أخيرة لإظهار حسن النية، قدم ريتشارد عرضًا مضادًا هدنة لخمس سنوات، بشرط أن تُضمن له قلاعه، وألا يحتفظ فيليب **"بقدم واحدة"** من ميراثه بعد انتهاء الهدنة[٢].

وبينما بدا أن الاتفاق وشيكا على أساس ذلك العرض، ارتكب الكاردينال خطأً دبلوماسيًا فادحًا، فبعد قبول ريتشارد المبدئي، طالب المبعوث بالإفراج عن أحد رجال الكنيسة الذي يحتجزه ريتشارد هو أسقف بوفيه، وكان ذلك الطلب هو القشة التي قصمت ظهر البعير، حيث أدى إلى انفجار غضب الملك ريتشارد، واصفاً الأسقف بأنه **"مسيحي مزيف"** و**"طاغية"** و**"مشعل حرائق"**، وأوضح ريتشارد بحدة أنه لم يأسر الأسقف كرجل دين، بل **"كفارسٍ مُسلّحٍ بالكامل، مُشَبَّكٍ بخوذته"**، ثم صبّ جام غضبه على الكاردينال نفسه، متهماً إياه بالخيانة والكذب والخداع، وطرده من حضرته بوابل من الشتائم، مهددًا إياه جسديًا إذا رآه مرة أخرى[٣]، ففر المبعوث مذعورًا وهو يخشى على سلامته، وركض بجواده دون توقف حتى وصل إلى بلاط فيليب أغسطس، وعندما روى ما حدث وجسده لا يزال يرتجف من هول الرعب الذي أصابه؛ قوبلت قصته بضحكات رجال البلاط الفرنسي وسخريتهم، معترفين في الوقت ذاته بقوة شخصية ريتشارد الذي **"لا يخاف بسهولة"**[٤].

تدخل في تلك اللحظة، المستشار الحكيم وليم مارشال، ناصحاً الملك بالنظر إلى ما هو أبعد من الغضب اللحظي، مؤكداً أنه قد **"ربح كل شيء"**، فقد كشف طلب فيليب للسلام أو الهدنة عن ضعفه الحقيقي ويأسه، كما قدم المارشال استراتيجية بارعة تتضمن الموافقة على الهدنة، والسماح لفيليب بالاحتفاظ بالقلاع (كضمان) مؤقت، بينما يستعيد ريتشارد الأراضي المنتجة والمزارع، وبتلك الطريقة، يُجبر فيليب على تحمل التكاليف الباهظة لصيانة القلاع التي لا تدر عليه أي دخل، وهو عبء، فكما قال المارشال: **"سيبدو عليه الأمر صعبًا كحرب"**[٥].

أثبتت رؤية المارشال صحتها، إذ اقتنع بارونات فيليب بجدوى ذلك الترتيب المنطقي، وأسفرت المفاوضات اللاحقة، التي تمت هذه المرة عبر وسطاء آخرين؛ عن شروط قاسية لفيليب أوغسطس، فبموجب معاهدة بيرون **Byron** عام ١١٩٩، لم يحتفظ فيليب بممتلكات

---

(1)Ibid, p.46.
(2) Ibid, p. 47.
(3)Richerio Egusdem, "Annals of the Monastery of Senon in Vossagoe", Collective of Historians of Gaul and France, Vol. 18, Paris, 1878, p. 686.
(4) Georges Bourdonoff, Op. Cit., p. 47.
(5)Ibid, p. 47.

في نورماندي سوى بجيزور، كما أُجبر على التنازل عن إير **Air** وبيثون **Bethune** ودواي **Douay** وسان أومير **Saint-Omer** ، وحقوقه في كونتية جينيس **Guinness** وتعهد بتزويج ابنه (لويس الثامن مستقبلاً) من بلانش القشتالية **Blanche of Castile** (١١٨٨- ١٢٥٢) ابنة أخت ريتشارد[١].

ومن نصوص تلك الاتفاقية يتضح مدى الضعف الذي حل بالملك الفرنسي فيليب أغسطس، مما أرغمه على تقبل ذلك الوضع بعد سعيه للبابوية للتدخل لعقد هدنة، ووضع حد لانتصارات الملك الإنكليزي ريتشارد عليه، وإن كان الموقف ينم عن دهاء الملك الفرنسي عند لجوئه للبابا للتدخل لأنه كان السلطة الوحيدة التي يمكنها إجبار ريتشارد على السلام بحجة الحروب الصليبية، ومن ناحية أخرى أدرك فيليب أغسطس ضرورة التظاهر بالضعف وعدم القدرة على التصدي نتيجة هزيمتين متتاليتين أثبتنا له أن الملك ريتشارد قوة لا يستهان بها، وأن الحكمة كانت تحتم على فيليب مهادنة ريتشارد والاحتفاظ بما حصل عليه من أملاك في منطقة بواتييه بعد حروبه مع الملك هنري الثاني؛ لأن ذلك الاتفاق أفقد فيليب أغسطس ما أجهد نفسه وماله وجيشه فيه منذ عدة سنوات، وكان الموقف يتطلب منه مصالحة بارونات بلاده وتأمين جبهته الداخلية قبل الخروج لمحاربة الملك الإنكليزي بعد عودته من الأسر، وما تردد في الأوساط من مناشدة فيليب أغسطس للإمبراطور الألماني هنري السادس باستمرار أسر الملك ريتشارد، الذي بدوره أطلق سراحه حينما أدرك ازدياد تطلعات الملك الفرنسي فيليب أغسطس وتوسعاته في الأملاك الإنكليزية الفرنسية، وذلك للحد من نفوذ الملك فيليب أغسطس خوفاً من إزدياد سلطاته بوصفه عدواً لا يمكن مجاورته بعد ذلك[٢]، وكيفما كان الأمر كان لابد من مهادنة الملك الفرنسي للملك الإنكليزي حتى يمكنه التفرغ لمشاكله الداخلية من بارونات فرنسا لاسيما كونت فلاندرز بلدوين التاسع الذي بادر بمخالفته وعقد معاهدة بينهما تم توقيعها في بيرون في شمالي فرنسا احتفظ الملك فيليب أغسطس من خلالها بعدد من المدن والقلاع[٣].

وبمجرد أن هادن بلدوين التاسع كونت فلاندرز؛ لجأ الملك الفرنسي فيليب أغسطس لتأمين جبهته تجاه دوق بورغوندي أودو الثالث **Odo III, Duke of Burgundy** (١١٦٦- ١٢١٨)، وأخذ عليه عهداً بأن لا يتضامن مع الملك الإنكليزي ريتشارد في أي وقت، مقابل ذلك يتنازل له الملك الفرنسي فيليب أغسطس عن كل حقوقه في دير فلافيجني **Flavigne** الذي يقع في جنوب شرقي فرنسا، وهكذا أخذ الملك فيليب أغسطس يدعم جبهته لبدء الإعداد لمواجهة جديدة مع ريتشارد ربما يستطيع من خلالها رد ما سلب منه، لكن سرعان ما توفي الملك ريتشارد في سنة ١١٩٩، وكان ذلك نهاية الصراع بينهما[٤].

---

(1)Ibid, p. 47.

(2)Georges Bourdonoff, Op. Cit., p.47.

(3) Rigord, Op. Cit., p. 50.

(٤) كان ريتشارد في مساء ٢٥ آذار ١١٩٩يتجول حول محيط قلعة تشالوس Chalus في دوقية اكيتاين بدون ارتداء درعه، حيث كان يتفقد جنوده المتواجدين فوق جدران القلعة، ويقضي وقتاً ممتعاً وهو ينظر إلى أحد الجنود الذي كان يحمل القوس والنشاب بيد واحدة، صوّب هذا الجندي القوس تجاه ريتشارد ولاقى هذا الفعل استحسان

ثالثاً.الصراع السياسي والعسكري بين فرنسا وانكلترا من تولى جون العرش حتى معاهدة لامبيث (١١٩٩- ١٢١٧):

يُمثل مطلع القرن الثالث عشر حقبة تاريخية مفصلية أعادت تشكيل الخريطة الجيوسياسية للغرب الأوروبي بشكل جذري، حيث شهدت تلك المدة صراعاً مصيرياً واستراتيجياً بين التاجين الفرنسي والإنكليزي، فمنذ اللحظة التي ارتقى فيها الملك جون عرش الإمبراطورية الأنجوية المترامية الأطراف، انطلقت شرارة مواجهة شاملة لم تقتصر على النزاعات الحدودية التقليدية، بل تحولت إلى صراع وجودي على النفوذ والشرعية السياسية، إذ تميزت تلك المرحلة بصدام الإرادات بين الدهاء الدبلوماسي والحنكة العسكرية التي تمتع بها التاج الفرنسي الساعي لتوحيد أراضيه وبسط سيادته المركزية، وبين التخبط السياسي والأزمات الداخلية التي عصفت بالعرش الإنكليزي، ولم يكن ذلك النزاع معزولاً عن التعقيدات القارية؛ إذ تداخلت فيه طموحات النبلاء، وتوازنات القوى الإمبراطورية في أوروبا، وتأثيرات السلطة الدينية العليا المتمثلة في البابوية التي لعبت دوراً محورياً في توجيه دفة الأحداث، وقد أسفرت تلك السلسلة المتلاحقة من المعارك العسكرية والمناورات السياسية عن انهيار الهيمنة الإنكليزية في القارة الأوروبية، وانكفاء إنكلترا نحو الداخل لتبدأ مخاضاً دستورياً عسيراً، في حين خرجت المملكة الفرنسية كقوة عظمى مهيمنة، لتطوي بذلك صفحة معقدة من التداخل الإقطاعي وتبدأ فصلاً جديداً من تاريخ أوروبا الوسيط.

١. سياسة الملك فيليب تجاه الملك جون من عام ١٩٩٩ – ١٢٠٥.

انغمست الإمبراطورية الأنجوية الواسعة عند وفاة ريتشارد عام ١١٩٩، في فراغ سياسي حاد وأزمة خلافة فورية، حيث لم يكن العرش الإنكليزي، في تلك المرحلة، يخضع لقواعد وراثة صارمة لا تقبل الجدال، مما فتح الباب أمام مطالب متنافسة هددت بتمزيق الممتلكات التي تمتد من اسكتلندا إلى جبال البرانس، كان هناك مرشحان رئيسيان للعرش

الملك، إلا أن رجلا آخر رمى الملك بسهم ضرب كتفه الأيسر بالقرب من عنقه، فأدخل الملك خيمته وقام الجراح الذي وصفه البعض بالجزار بخلع السهم بطريقة غير احترافية على الإطلاق، مما أدى إلى إصابة الجرح بشكل سريع بغرغرينة، ويقال أن ريتشارد طلب إحضار قاتله إليه الذي يدعى بيير وقال البعض أن اسمه جون وعندما وقف بين يدي ريتشارد، واتضح له وفقاً لبعض المصادر وليس جميعها أنه مجرد صبي ادّعى أن ريتشارد قتل أباه وأخويه؛ فأراد قتل ريتشارد انتقاماً لذلك. اعتقد الصبي أنه سيتعرض للإعدام، لكن ريتشارد أراد أن يكون رحيماً وهو على وشك توديع الحياة، فسامح الصبي على فعلته وقال له: **"أكمل حياتك، وبفضلي سترى نور الغد"**، وقبل إطلاق سراح الصبي أمر بإعطائه ١٠٠ شلن، وفي يوم الثلاثاء ٦ نيسان ١١٩٩ توفي ريتشارد في أحضان والدته التي وصفت الوفاة بقولها: **"الأسد الذي قتلته النملة"** بسبب طريقة قتله، ويقول أحد المؤرخين، أثبت ريتشارد في آخر أعماله أن الشهامة كانت غير مثمرة خلال العصر الوسيط، إذ قام ميركادير Mercadier أشهر المحاربين وكان في خدمة الملك الإنكليزي ريتشارد بسلخ جلد بيير قاتل الملك ريتشارد وتعليقه على القلعة فور وفاة الملك ريتشارد، ودفن قلب ريتشارد في روان في نورماندي، ودفنت أحشاؤه في تشالوس (المكان الذي توفي فيه)، أما باقي جسده فدفن في كنيسة فونتفرولت Fontevrault في أنجو بجانب أبيه، وهكذا توفي الملك ريتشارد بعد أن حكم تسع سنين وستة أشهر وتسعة عشر يوما و دفن في فونتفرولت عند قدمي أبيه هنري الثاني.

Flori, Jean, Richard Coeur de Lion. le roi-chevalier, Paris, 1999, p. 235; Comptes d'Alfonse de Poitiers, in Archives historiques du Poitou, vol. 4, Poitiers, 1872, p. 21.

وهما جون شقيق ريتشارد الأصغر والابن الوحيد الباقي على قيد الحياة لهنري الثاني، كان يتمتع بحضور سياسي وخبرة عسكرية (على الرغم من تقلبها)، وكان يمثل مبدأ **"قربى الدم"** المباشرة، أما المرشح الثاني فهو آرثر دوق بريتاني ابن جيفري، شقيق جون الأكبر المتوفى، كان آرثر يبلغ من العمر اثني عشر عامًا، ويمثل مبدأ البكورة أو حق التمثيل ، حيث يرث الابن حقوق أبيه الأكبر، كان ذلك الانقسام في الشرعية ذا طابع جغرافي واضح، فبينما كانت إنكلترا تميل نحو جون؛ وجدت مطالب آرثر صدى قويًا في الممتلكات القارية، (نبلاء أنجوو وماين وتورين)، فضلا عن بريتاني (التي كان دوقها بحكم منصب والدته)، الذين أعلنوا ولاءهم الفوري لآرثر بوصفه الوريث الشرعي وفقًا لأعرافهم[١].

لم يكن مبدأ الخلافة الوراثية البكورية في إنكلترا تحديدًا، قد تبلور ليصبح قانونًا راسخًا، وذلك الغموض الدستوري حوّل عملية الخلافة من مجرد انتقال آلي للسلطة إلى عملية تتطلب دعمًا سياسيًا فاعلاً، هنا برز دور اثنين من أكثر رجال الدولة نفوذًا وتأثيرًا في المملكة الأول هيوبرت والتر رئيس أساقفة كانتربري، الذي يمتلك سلطة دينية هائلة ونفوذًا سياسيًا كبيرًا، والثاني هو وليم مارشال أحد أبرز الفرسان والمستشارين، الذي تمتع بثقة مطلقة من هنري الثاني وريتشارد، ويمثل المؤسسة العسكرية والأرستقراطية، تصادف وجود الرجلين في مدينة فودروي **Vaudreuil** النورمندية لحظة وفاة الملك ريتشارد [١].

وما إن طرق الرسل باب وليم مارشال لتبلغه برحيل الملك؛ كان الرجل يتأهب لنيل قسط من الراحة، إلا أن جسامة النبأ دفعته لاستعادة كامل هيئته والمضي مسرعاً صوب دير نوتردام دو بري، حيث كان رئيس الأساقفة يُقيم، وعندما أبلغ مارشال رئيس الأساقفة بالنبأ، كان رد فعل والتر **"آه، مات الملك! ما أملنا الآن؟ ... سيجتاحنا الفرنسيون"**، ولم يكن ذلك مجرد رثاء؛ بل كان تقييمًا جيوسياسيًا دقيقًا للخطر المحدق بالإمبراطورية في غياب قائد، فأعاد مارشال، برباطة جأش عملية، تركيز الحوار على الحل الفوري **"علينا الإسراع في انتخاب خليفته"**، استخدام مصطلح انتخاب **Election** هنا يحمل دلالة عميقة، فهو يؤكد أن الخلافة، حتى في ذلك التاريخ المتأخر، لم تكن مجرد إجراء شكلي، بل كانت لا تزال تحتفظ ببعض سمات ويتيناجموت **Witenagemot** الأنجلوسكسوني القديم، حيث يؤدي كبار رجال المملكة دورًا في اختيار (أو على الأقل إقرار) الملك، فطرح رئيس الأساقفة اسم آرثر كخيار أول، ربما تمسكًا بالشرعية الوراثية الصاعدة، لكن اعتراض وليم مارشال كان حاسمًا وعمليًا: **"يا سيدي، سيكون هذا اختيارًا سيئًا... لدى آرثر بعض المستشارين السيئين، وهو متكبر ومليء بالكبرياء... لا يحب الإنكليز"**، فلم يكن اعتراض مارشال قانونيًا بقدر ما كان سياسيًا، لقد قدم تقييمًا للمخاطر، تنصيب صبي محاط بمستشارين مناوئين سيؤدي إلى الفوضى، في المقابل قدم مارشال حجة مزدوجة لصالح جون، الحجة

---

[١] يراجع من التفاصيل حول الصراع الانكليزي الفرنسي في عهد الملك جون: محمد حليم سالم، الصراع الانكليزي-الفرنسي في عهد الملك جون الأول (١١٩٩-١٢١٦م)، رسالة ماجستير، كلية التربية للعلوم الإنسانية، جامعة واسط، ٢٠١٦، ص ٦٧.

القانونية -القربى- **"إنه أقرب وريث لأبيه وأخيه."**، وحجة الميراث –الأحقية- **"الابن أقرب إلى أرض أبيه من ابن أخيه"**، وأمام ذلك المنطق العملي؛ رضخ رئيس الأساقفة، على الرغم من تردده الواضح الذي لخصه في تحذيره لمارشال: **"يجب أن يكون الأمر كما تريد، لكنني أقول لك أنك سوف تشعر بالأسف لهذا أكثر من أي شيء فعلته في حياتك."**[٢].

بمجرد إرساء دعائم ذلك التحالف الحاسم، تبلورت خطة تأمين العرش عبر مسارين متوازيين ومدروسين، فعلى الصعيد السياسي في إنكلترا، أُوفد كل من والتر ومارشال على وجه السرعة للالتحاق بجيفري فيتزبيتر، إيرل إسكس وكبير قضاة الملك الراحل ريتشارد، لتأسيس مجلس ثلاثي يتولى إدارة شؤون البلاد، حيث تركزت مهام تلك القيادة في حفظ الأمن، وضمان ولاء طبقة النبلاء، والتمهيد الشامل لمراسم تتويج جون، وفي الوقت ذاته، قاد جون شخصياً المسار الاستراتيجي في القارة بتحركات سريعة وحاسمة للسيطرة على الموارد الحيوية؛ حيث توجه في الرابع عشر من نيسان إلى قلعة شينون **Chinon**، واستلم خزائن الملك الراحل من حارسها جون تورنهام **John Tournham**، فور وصوله، ولإدراكه العميق بضرورة استقطاب المؤسسة العسكرية والإدارية التي خدمت أخيه، فضمّ جون إليه أفراد أسرة ريتشارد، وقبلوا بهِ خليفةً شرعيًا، ولتوطيد ذلك الدعم؛ أقسم جون يمينًا رسميًا بأنه سينفذ وصية أخيه بأمانة ويحافظ على جميع العادات والقوانين الشرعية للشعوب والأراضي التي سيحكمها، وهكذا فمن خلال مزيج من التحرك العسكري السريع، والدعم الاستراتيجي الحاسم من رجالات الدولة الرئيسين، واستغلال الغموض القانوني المحيط بحق البكورة، نجح جون في تأمين عرش إنكلترا، على الرغم من المطالب القوية لمنافسه الشاب[٣].

أدرك جون أن الدعم العسكري وحده لا يكفي لترسيخ سلطته، فكان بحاجة ماسة إلى غطاء أخلاقي وديني، وسعى للحصول عليه من القديس هيو من آفالون **Hugh from Avalon** (١١٤٠- ١٢٠٠)، أسقف لينكولن **Bishop of Lincoln**، وأحد المستشارين القلائل الذين حظوا بثقة هنري الثاني المطلقة واحترامه، عند وجوده في فونتيفراو **Fontefrau** لحضور جنازة ريتشارد، إذ بادر جون، في مشهد اتسم بالمبالغة المسرحية، إلى تحفيز جواده متجاوزاً حاشيته ليسبقهم في تحية رجل الدين، مظهراً قدراً مفتعلاً من التبجيل[١].

لم يكن توسل جون لمرافقة الأسقف هيو في رحلة العودة إلى إنكلترا نابعاً من رغبة في الرفقة الروحية، بل كان مناورة سياسية مكشوفة؛ إذ كان يطمح لاستغلال سمعة القديس كأداة دعائية تبعث برسالة طمأنة للنبلاء الإنكليز المتشككين في أهليته للحكم، لكن هيو، الذي كان يزدري شخصية جون، رفض العرض بلباقة، كاشفاً عن إدراكه لدوافع جون، وعلى الرغم

---

(1) John T. Appleby, John, King of England, Alfred A. Knopf, New York, 1959, pp.79-80.
(2)Ibid, p.80.
(3)John T. Appleby, Op. Cit.,p.80.

من الرفض، لم تتوقف مساعي جون المحمومة لاصطناع مظاهر التقوى؛ فأصرّ على زيارة قبري والده وأخيه بصحبة الأسقف في مشهد أراده أن يكون مهيباً ومؤثراً، إلا أن مسعاه تحطم عند أبواب دير فونتيفرو **Fontevraud** حين منعته الراهبات من الدخول، موجهات له إهانة علنية، وحين حاول جون تدارك الموقف وتجميل صورته عبر تقديم "هدايا سخية" للدير طالباً وساطة هيو، جاء رد الأسقف قاسياً وكاشفاً حين وبخه قائلاً: **"أنت تعلم أنني أمقت الكذب كله"**، معرياً بذلك حقيقة أن تقوى جون لم تكن سوى صفقة تجارية خالية من الإيمان، وتعمق ذلك الصدام حين أظهر جون للأسقف تميمة خرافية زعم أنها تضمن له ممتلكاته، وعندما حاول هيو تحذيره أخلاقياً بمنحوتات الملوك الملعونين، سارع جون بالإشارة إلى الملوك المُخلصين في محاولة مراوغة لتجنب الاعتراف بالذنب، وبلغ ذلك التكلف والزيف ذروته وسقط القناع تماماً خلال قداس عيد الفصح؛ ففي لحظة التقدمة(الصدقات)، وقف جون أمام المذبح ممسكاً بقطع الذهب، لكنه تردد وفكر بصوت مسموع في الاحتفاظ بالمال لنفسه بدلاً من التصدق بهِ، مما فجر غضب الأسقف هيو الذي رفض استلام التقدمة وأمر جون بالانسحاب فوراً[٢].

لم يكتفِ جون بذلك القدر من الإساءة، بل أظهر استخفافاً تاماً بقدسية الطقوس حين أرسل مرافقيه ثلاث مرات لمقاطعة عظة الأسقف ومطالبته بإنهائها ليتسنى للملك تناول العشاء؛ وهو تصرف أرعن أكد للمؤرخين وكاتب سيرة القديس هيو أن جون كان يفتقر لأي احترام حقيقي للمؤسسة الدينية، بل إنه لم يتناول القربان المقدس قط منذ بلوغه سن الرشد، مما جعل محاولاته لنيل الغطاء الديني مجرد استعراض هزلي باء بالفشل[٣]، وبمجرد مغادرة هيو؛ تخلى جون عن مسرحية التقوى وعاد إلى لغة القوة، وكان التحدي المباشر هو أن الممتلكات القارية (أنجو، ماين، تورين) رفضته، وأعلنت ولاءها لآرثر دوق بريتاني، ابن شقيقه الأكبر جيفري، تطبيقاً لمبدأ **"حق التمثيل"** الوراثي، فضلاً عن المساندة التي لاقاها من وليم دي روتش **William des Roches** سينيشال أنجو[٤]، وفي المقابل فضلت إنكلترا ونورماندي مبدأ **"قربى الدم"** (الأخ المباشر) الذي دافع عنه وليم مارشال، فاستغل الملك الفرنسي فيليب أغسطس[٥] ذلك الانقسام فوراً، معلناً نفسه حامياً لآرثر (بصفته سيده الإقطاعي) واستولى على الأراضي المتنازع عليها، فكان رد جون وحشياً، بمعاونة والدته

---

(1)John T. Appleby, Op. Cit.,p.81.

(2)Ibid, p.81.

(3)Ibid, p.81.

(٤) وليم دي روتش(١١٥٠- ١٢٢٢): يُعد غيوم دي روش (Guillaume des Roches)، الذي يُشار إليه خطأً أحيانًا بـ "وليم الصخور"، شخصية محورية في الصراع الذي دار رحاه في مطلع القرن الثالث عشر بين فيليب أوغسطس، ملك فرنسا، وملوك إنكلترا الأنجويين. لم يكن دي روش مجرد تابع إقطاعي؛ بل كان قطبًا سياسيًا وعسكريًا بارزًا، استطاع بفضل مهاراته أن يمارس نشاطا حاسمًا في إعادة رسم خريطة القوى في غربي فرنسا، ليصبح لاحقًا الأداة الاستراتيجية الأهم في يد فيليب أوغسطس لتحقيق فتوحاته. يراجع:

Ernest Lavisse, Op. Cit., Tome III, pp. 123-124.

(5) Roger of Wendover, Op. Cit., Vol. II, pp. 178; Roger of Hoveden, Op. Cit., Vol. II, pp.456-459.

إليانور وقائد المرتزقة ميركاديه **Mercade**، اذ هاجم جون مدينة لومان التي دعمت آرثر، ولمعاقبتها أمر بهدم أسوار المدينة وتدمير قلعتها وجميع المنازل الحجرية، فلم يكن ذلك عملاً حربياً، بل **"تأديباً"** دموياً يهدف إلى بث الرعب في نفوس أي معارضينمحتملين[١].

توجه جون إلى روان بعد تأمين لومان، وهناك تم في ٢٥ نيسان تنصيبه دوقاً لنورماندي، فأقسم جون اليمين التقليدي، متعهداً بالحفاظ على الكنيسة وتطبيق العدالة، لكن حتى في تلك اللحظة الرسمية؛ لم يستطع جون السيطرة على طبيعته النزقة، فكان يضحك طوال المراسم ويتهامس مع رفاقه، وعندما سلمه رئيس الأساقفة الرمح الاحتفالي (الذي يحمل راية الدوقية)، استدار جون ليتبادل النكات مع أصدقائه، فأسقط الرمح أرضاً، في زمن مليء بالرموز، فلم يمر ذلك الحادث مرور الكرام؛ بل اعُدّ نذير شؤم واضح، وتلميحاً إلى أن الدوق الذي لا يستطيع حمل رمزه، لن يستطيع حمل دوقيته[٢]، وما أن نجح هربرت والتر رئيس أساقفة كانتربري ووليم مارشال في الحفاظ على الأمن وتنظيم الأمور داخل المملكة حتى قاما بدعوة جون للحضور، وبناءً على ذلك؛ تحرك جون بسرعة حاسمة، فكان وصوله إلى لندن في اليوم التالي ٢٦ أيار وتحدد موعد التتويج في ٢٧ أيار١١٩٩، والذي وافق عيد الصعود، فكان اختياراً رمزياً يضفي بعداً دينياً على الحدث، وفي كنيسة كبير الحواريين (بطرس) وبحضور الأساقفة ورؤسائهم والبارونات؛ قام هيربرت والتر رئيس أساقفة كانتربري بوضع تاج المملكة على رأس جون[٣] ونودي بهِ ملكاً[٤].

استغل الملك الفرنسي فيليب أغسطس حالة الارتباك السياسي التي تلت وفاة الملك ريتشارد واعتلاء الملك جون عرش إنكلترا، ليشن هجوماً استراتيجياً متعدد المحاور بدأ باختراق نورماندي والسيطرة على كونش**Kunesh**، و إقليم ماين، ولم يكن ذلك التحرك عسكرياً بحتاً، بل استند إلى تحالف سياسي ذكي بضمه لآرثر، دوق بريتاني والوريث المنافس، لإضفاء شرعية على غزواته، حيث تعزز ذلك التحالف بتقديم آرثر الولاء لفيليب ومنحه الأخير دوقيتي أنجو وماين، ومقاطعة تورز، بالإضافة إلى قلعة تورناي **Tournay** المجاورة، وتزامناً مع ذلك، لجأت والدته الكونتيسة كونستانس **Constance** للملك الفرنسي طلباً لحماية ولدها الصغير، وهو ما لم يتردد فيليب في الاستجابة له فوراً؛ إذ عدّ

---

(1)John T. Appleby, Op. Cit., p. 81.

(2)Ibid, p.81.

(٣) كان جوهر الحفل هو **"اليمين الثلاثي المعتاد"** الذي أقسمه جون، وهذا القسم لم يكن مجرد إجراء شكليا؛ بل كان عقداً ملزماً بين الملك ومملكته، تعهد بموجبه: **"أن يحب الكنيسة المقدسة... ويحافظ عليها"**، و**"أن يلغي القوانين السيئة ويستبدلها بالقوانين الجيدة"**، و**"وأن يرى العدالة تُدار بشكل صحيح في جميع أنحاء إنكلترا"**، وكانت اللحظة الأكثر دراماتيكية في الحفل التي تكشف عن التوترات الكامنة، كانت تدخل رئيس الأساقفة "هيوبرت والتر" غير المعتاد. فبدلاً من الاكتفاء بالقسم، **"حذره والتر من قبول التاج ما لم يكن ينوي الوفاء بالقسم تماماً"**، وكان ذلك تحذيراً علنياً، يعكس الشكوك العميقة حول شخصية جون وسمعته السابقة. فكان رد جون: **"أنه بمساعدة الله سيحافظ على القسم بكل حسن نية"**، ضرورياً لاستكمال الطقوس، لكنه قيل تحت ضغط واضح.

John T. Appleby, Op. Cit., p. 81.

(4) Roger of Wendover, Op. Cit., Vol. II, pp. 178-182; Radulphus de Diceto, Op. Cit., p. 659.

آرثر أحد أعضاء دير القديس مارتن في تور الذي يرأسه بنفسه، ثم اصطحبه ووضعه تحت رعايته الشخصية في باريس ليتربى ويتلقى تعليمه مع ابنه لويس، وقد عبرت المصادر الإنكليزية عن تلك الخطوة بأنها وفرت الحماية للطفل من آثار كراهية وأطماع الملك جون، الأمر الذي منح الملك الفرنسي حرية مطلقة للتصرف سياسياً وعسكرياً كيفما يشاء باسم الدوق الشاب وأعوانه، متوجاً ذلك بوعده لآرثر بمساعدته في استعادة أملاكه[١].

توجت تلك التحركات بدعم حيوي من وليم دي روش الذي قاد القوى الإقطاعية في المنطقة وانضم لصف آرثر، ليشكل ذلك الثلاثي (فيليب، آرثر، دي روش) جبهة صمود متماسكة فاقت قدرات الملك جون الدفاعية، وأمام ذلك الزحف، حاول جون القيام بمناورة يائسة للدفاع عن لومان عاصمة إقليم ماين، إلا أن تفوق القوات المتحالفة أجبره على الانسحاب المهين من المدينة في الثاني والعشرين من أيلول عام ١١٩٩، ذلك التراجع لم يكن مجرد خسارة عسكرية، بل مثل لحظة فارقة بدت فيها سيطرة سلالة البلانتاجانت على إقليمي ماين و أنجو في طريقها للزوال النهائي لصالح التاج الفرنسي[٢].

لكن حدث ما لا يمكن تفسيره ظاهرياً بعد ذلك النصر الحاسم، وفي الوقت الذي كان فيه الملك الفرنسي فيليب أغسطس يتربع على قمة انتصاره، متمتعاً بزخم المعركة وروح المبادرة والشجاعة العالية، اتخذ قراراً مفاجئاً بالتوقف التام عن الزحف، وبدلاً من استثمار مكاسبه الميدانية ومواصلة تضييق الخناق على الملك جون، قرر فيليب بشكل صادم التخلي عن إقليم ماين والانسحاب بقواته عائداً إلى فرنسا، كان ذلك الانسحاب إيذاناً بالانهيار الشامل والعميق للتحالف المنتصر، ففي تحول مذهل، قام وليم دي روش، الذي كان قبل أيام يطرد جون من لومان، بتسليم المدينة **"الملك إنكلترا"** الذي **"عاد بقوات كبيرة"**، والأكثر من ذلك، أجبر دي روش حليفه الاسمي، كونت بريتاني آرثر، على عقد سلام مع عمه جون[٣].

إن تفسير ذلك التراجع المفاجئ لا يكمن في ساحة المعركة؛ بل في "خطوة خرقاء" كشفت النوايا الحقيقية لفيليب أغسطس، كانت الحادثة المحورية هي الاستيلاء على قلعة بالون، **Balloon** فبمجرد السيطرة عليها؛ أصدر فيليب أوامره بتفكيكها وهدمها، فأثار ذلك الإجراء حفيظة وليم دي روش، فمن وجهة نظره، كان يقاتل لتأمين **"ممتلكات كونت بريتاني"** وليس لتمكين فيليب من ضمها وتدميرها، لقد رأى دي روش في ذلك الأمر **"مبالغة في استغلال"** أراضي حليفه[٤]، فعاتب دي روش الملك الفرنسي بحدة، متهماً إياه بـ **"معاملة ماين كدولة محتلة"** وليس كإقطاعية محررة لآرثر، وقال بوضوح: **"لم نتفق على هذا في المعاهدة المبرمة بينك وبين اللورد آرثر"**، وجاء رد فيليب متعجرفاً، وكان بمثابة سوء تقدير سياسي فادح، فبدلاً من طمأنة حليفه أجاب **"بحق قديسي فرنسا، لن**

---

(1)Roger of Hoveden, Op. Cit., Vol. II, p.455.
(2)Achille Lochear, Philippe Auguste et son temps , p.75.
(3) Ibid, p. 75.
(4) Ibid, p. 76.

يمنعني آرثر أبدًا من تنفيذ وصيتي على الأراضي التي أملكها"، فكانت تلك الكلمة غير حكيمة، ليس لأنها **"فُهمت على نحو خاطئ"**، بل لأنها فُهمت تماماً، لقد كشف فيليب أنه لا يعدّ آرثر سيداً مستقلاً، بل مجرد دمية، وأن الأراضي هي "ملكه" (أي ملك فرنسا) ليفعل بها ما يشاء، فأدرك وليم دي روش في تلك اللحظة أنه استُخدم كأداة بيد الملك الفرنسي، وأن مصير سادته المحليين (آل بلانتاجانت، سواء آرثر أو جون) أفضل من الخضوع المباشر لفيليب، فكان ذلك الخطأ الدبلوماسي كافياً لقلب موازين الحرب بأكملها[١].

سارع وليم دى روش إلى حصن بورج لو روا -**Bourg-le Roi** لعقد سلام مع الملك الإنكليزي جون، الذي استغل ذلك الانشقاق في جبهة الملك الفرنسي، فبدلاً من الاكتفاء بقبول ولاء وليم دي روش؛ سارع جون إلى مكافأته بسخاء لضمان تثبيت ذلك التحالف الحاسم، ولم تكن المكافأة مجرد تأكيد لمنصبه الرفيع كسينيشال؛ بل الأهم من ذلك، منحه جون صفة الوراثة لذلك المنصب، محولاً إياه من مجرد وظيفة إدارية إلى إقطاعية عائلية راسخة، ولتأكيد ثقته (أو ربما لضمان تبعيته)، أضاف جون مكافأة استراتيجية بالغة الأهمية، اذ عهد إليه بإدارة قلعة شينون، التي لم تكن مجرد قلعة؛ بل كانت واحدة من أهم معاقل الأنجويين، ومركزاً لخزينتهم وموقعاً رمزياً لسلطتهم في قلب أراضيهم الفرنسية، فجاء ذلك التعيين على حساب الكونت إمري السابع **Aimery VII** (١١٥٢- ١٢٢٦) كونت ثوارس **Thouars** الذي أصبحت ولاءاته موضع شك في نظر جون، مما يوضح سياسة جون المتمثلة في الاستبدال السريع لأي دعم مشكوك فيه بدعم جديد ومضمون، وإن كان مكلفاً[٢].

خدمت تلك السياسة القائمة على شراء الولاءات وتكديسها، مصالح وليم دي روش بشكل ممتاز، حيث وجد نفسه في موقع قوة غير مسبوق، ومع ذلك فإن ذلك التقارب السريع بين جون وسينيشال أنجو أثار قلقاً عميقاً لدى المنافس الرئيس على العرش، الكونت الشاب آرثر دوق بريتاني، الذي أدرك أن مكاسب جون تعني بالضرورة خسارة لنفوذه، وأن بقاءه في محيط عمه جون يضعه تحت رحمة مباشرة ويهدد طموحاته وحياته، ورداً على ذلك التطور الخطير، اتخذ إمري السابع كونت ثوارس الانفراد بالدوق آرثر وأمه وأقنعهم أن الملك جون يضمر لهم السوء، وأنه ينوى سجن الدوق آرثر، مما دفعهم إلى الفرار جميعاً تحت جنح الظلام حتى وصلوا إلى مقاطعة أنجيرس **Angers** - عاصمة أنجو- على نهر اللوار جنوب غربي باريس، غير أن الملك جون لم يتكبد مشقة الخروج للحاق بهم وعاد إلى دوقية نورماندیا بصحبة وليم دى روش، وما إن وصل الملك جون إلى هناك حتى وصلت إليه رسل البابا إنوسنت الثالث لتقنعه بعقد لقاء مع الملك الفرنسي فيليب أغسطس، ولم تكن تلك هي المرة الأولى التي تسعى فيها البابوية لعقد مصالحة بين الملكين، وأخيراً نجحت الوساطة في عقد لقاء بينهما في لي جوليه **Le Goulet** في ٢٢ أيار ١٢٠٠، وتم الاتفاق على عقد معاهدة بين الطرفين عرفت باسم المكان الذي تم فيه اللقاء، نصت على قيام الملك الإنكليزي

---

(1)Achille Lochear, Philippe Auguste et son temps , p.75.

(2) Roger of Hoveden, Op. Cit., Vol. II, pp.463-464; Guillaume de Nangis, Op. Cit., p. 387,

جون بالتنازل عن كونتية إيفرو وتخلى له عن غراتس وإيسودون، فضلاً عن سيادته على بيري وأوفرن، مما عزز السلطة المباشرة للتاج الفرنسي، فضلاً عن عدم تقديم العون إلى بلدوين التاسع كونت فلاندرز ورينالد **Reginald** كونت بولونيا **Boulogne** والإمبراطور الألماني أوتو الرابع وحلفائه إلا بموافقة الملك الفرنسي فيليب أغسطس، وزاد على ذلك قيام الملك الإنكليزي جون بدفع مبلغ ثلاثين ألف مارك[١]، وإعلان التبعية لسيده الإقطاعي الملك الفرنسي فيليب أغسطس فيما يخص أملاكه جنوب القنال الإنكليزي، وفي مقابل تلك المكاسب الجوهرية؛ كانت تنازلات فيليب أغسطس محسوبة، إذ تُوجت باتفاق على مصاهرة سياسية استراتيجية، تمثلت في تزويج ابنه الأمير لويس من بلانش القشتالية، ابنة الملك ألفونسو الثامن وابنة أخت الملك الإنكليزي جون، لترسيخ الروابط بين العروش الثلاثة، وفي المقابل يمنح الأمير بعض الأراضي وبعض القلاع الصغيرة في نورماندیا كهبة من الملك الإنكليزي جون، وفضلاً عن تعهد الملك الفرنسي فيليب أغسطس بعدم المطالبة بكل حقوق آرثر دوق بريتاني في العرش الإنكليزي[٢].

وحين النظر إلى ما تضمنته تلك المعاهدة يتضح إلى أي مدى أصبحت الأمور في العلاقات الفرنسية والإنكليزية تسير في صالح الملك الفرنسي فيليب أغسطس، بعدما خسر الكثير في أواخر عهد الملك الإنكليزي ريتشارد، إلا أن ذلك لا يرجع إلى قوة ملكها إنما مرجعه ضعف السياسة الإنكليزية منذ اعتلاء الملك الإنكليزي جون عرشها، ومن الواضح كان الأمير البريتوني الشاب هو الضحية الحقيقية لذلك التقارب الدبلوماسي؛ لقد تمت التضحية بهِ كبيدق سياسي لضمان المصالحة بين الملكين العظيمين، أما البند المدرج في المعاهدة، والذي نصّ نظرياً على حماية حقوق آرثر في بريتاني، مشترطاً أن لا تُنتقص تلك الحقوق إلا بقرار من "المحكمة الإنكليزية" (أي محكمة خصمه المباشر جون)، فلم يكن في جوهره سوى غطاء قانوني هش وضمانة شكلية تفتقر إلى أية جدية أو فاعلية حقيقية[٣].

وبمجرد وصول الملك جون إلى مملكته بعد التوقيع على تلك المعاهدة ما لبث أن قام

---

(١) انتهج الملك جون سياسة مالية توسعية أثقلت كاهل الرعية؛ حيث فرض في سنواته الأخيرة ضريبة استثنائية بلغت ثلاثة شلنات على كل وحدة زراعية (محراث). ولم تقتصر مطامعه على الأراضي الزراعية؛ بل امتدت لتشمل الأديرة التي كانت تتمتع بإعفاءات ضريبية تاريخية، مما أدى إلى نشوب صراع حاد مع رجال الدين والمنظمات الرهبانية. علاوة على ذلك؛ استغل الملك منح الألقاب وسيلةً لجمع الأموال، ورفع قيمة ضريبة **"البدل العسكري"** (Scutage)، وهي الرسوم التي يدفعها الفرسان مقابل إعفائهم من الخدمة الميدانية . يراجع:
Radulphi Coggeshalae « Histoire anglaise », Collection des historiens de Gaule et de France (R.H.G.F), édité par Michel Bréal, Volume 17, Royal Press, Paris, 1818, pp. 88-89.

(2)Gilles de Bary (Egidios de Parisi), « Carolinus : Un poème sur les exploits de Charlemagne », Collection des historiens de Gaule et de France (R.H.G.F), édité par Michel Bréal, Vol. 17, Royal Press, Paris, 1818, p. 292; Brain Pullan, Sources for the History of Medievel Europe Fther The mid-eighth to the mid-Bhirteenth century, Oxford, 1971, p. 245.

(3)Anonyme, « Fragments des œuvres du pape Innocent III », Collection des historiens de Gaule et de France (R.H.G.F), édité par Michel Jean Joseph Bréal et al., Volume 19, Imprimerie royale, Paris, 1833, pp. 343-345.

بإرسال أمه الملكة إليانور إلى مملكة قشتالة من أجل إعداد الأميرة بلانش للزواج من الأمير لويس، وفي الوقت نفسه وصل اوكتافيا **Octave** أسقف أوست **Oiste** مبعوث البابا إلى بلاط الملك الفرنسي لإنهاء الخلاف بين البابوية والمملكة[١].

وتعود جذور ذلك الخلاف إلى عام ١١٩٣، بعد ما توفيت الملكة اليزابيث دى هانوه بثلاثة أعوام، وزواج الملك فيليب من انجبورج **Ingeburge** أخت الملك كينوت السادس **Kenut VI** (١١٦٣- ١٢٠٢) ملك الدنمرك راغبا في استخدام قوى الأسطول الدنمركي في صراعه ضد مملكة إنكلترا، وعندما رفض الملك الدنمركي ذلك، طالبه الملك الفرنسي بمبلغ عشرة ألاف مارك من الفضة كصداق لذلك الزواج، وعلى ما يبدو أن الملك فيليب نفر منها منذ الاحتفال بالزواج، فجمع إليه بارونات وأساقفة المملكة وحصل منهم على موافقة كتابية على الطلاق بسبب درجة قرابة بعيدة تربطها باليزابيث دى هانوه، فردت انجبورج بأن ذلك القرار جائر، واستنجدت بالبابوية في روما، إلا أنها أودعت في السجن في كنيسة دير سيزوانج **Cisanig** بين فالنسيان **Valenciennes** و دوييه، وما لبثت البابوية أن استجابت لنداء كل من إنجبورج والملك كينوت، ورفضت ذلك الطلاق، ولم يستجب الملك فيليب لذلك القرار، بل قام بحبس مندوب البابا في كليرفو **Clairvaux** ولجعل ذلك الزواج غير شرعي، قرر الملك الفرنسي الزواج مرة أخرى من أميرة تسمى أجنيس دي ميران **Agnes de Miran** (١١٧٥- ١٢٠١) ابنة أحد كبار السادة البافاريين، وتم نقل انجبورج من سجنها إلى ديرسواسون، إلا أن البابا سلستين الثالث **Celestine III** (١١٠٥- ١١٩٨) لم يستطع احتواء ذلك الموقف، أما البابا إنوسنت الثالث فكان على العكس فأعلن اقتصاره لانجبورج، وألغى مرسوم الطلاق، وحاكم الأساقفة الذين وافقوا على الطلاق، وأرغم فيليب على الأنفصال عن محظيته أجنيس، وأجباره على العودة إلى انجبورج، أما إذا ما رفض فسيتم وضع مملكته ضمن الأماكن المحرومة كنسيا، وأعلن ذلك في عام ١١٩٨ على يد نائبه بطرس دي كابوه، وأمام ذلك الضغط ومع حلول عام ١٢٠٠ أعلن الملك فيليب عودة زوجته انجبورج التي تصرف معها بقسوة دون مراعاة للكنيسة المقدسة؛ لذا تم رفع عقوبة الحرمان الكنسي عن المملكة في نهاية شهر أيار ١٢٠٠، عند حضور مندوب الباب أوكتافيا[٢].

بالتزامن مع تلك الاضطرابات في فرنسا، كان المشهد في إنكلترا يشهد تحولات جذرية؛ حيث شرع الملك جون فور اعتلائه العرش بتأمين ممتلكاته القارية وتوطيد دعائم حكمه

---

(1)Anonyme, « Fragments des œuvres du pape Innocent III », Collection des historiens de Gaule et de France (R.H.G.F), édité par Michel Jean Joseph Bréal et al., Volume 19, Imprimerie royale, Paris, 1833, pp. 343-345.

[٢] يراجع من التفاصيل حول قضية انجبورج.

Bréal, Michel, Collection des Historiens de Gaule et de France, Vol. 19, « Lettre d'Innocent III au cardinal Pierre le Capucin », Royal Press, Paris, 1833, pp. 380-381; Bouquet, Martin (et autres), Lettre d'Octave, évêque d'Ostie, au pape Innocent III, septembre 1200, Collection des historiens de Gaule et de France, vol. 19, Royal Press, Paris, 1833, pp. 392-394.

بالقضاء على حركات التمرد، وعلى رأسهم هيو دي لوزيجنان **Hugh de Lusignan, known as the Brown** المعروف بالبنّي، أحد نبلاء دوقية اكيتاين، وهو الذي تزوج جون من خطيبته، ومن أجل ذلك قاد جيشاً كبيرا في الثامن من حزيران ١٢٠٠ دخل بهِ مقاطعة ماين، واستقر بها أياماً ثم انطلق إلى مقاطعة انجيرس التي أعلنت الثورة تحت قيادة كونتها الذى أخذ أسيرًا عند وصول الملك جون إليها وقدمها صداقاً لزوجته ايزابيلا، وقد دفعه ذلك النصر إلى الاستيلاء على العديد من القصور والقلاع، وبتلك التحركات، بدت ضفاف نهر اللوار، الشريان الحيوي للمنطقة، وكأنها قد رضخت بالكامل لسيطرة ملك لندن، مؤكدةً هيمنته على الجانب الغربي من القناة(١).

عاد جون إلى إنكلترا بعد ذلك الاستعراض للقوة وتثبيت النفوذ، حيث أمضى مدة هدوء نسبي تجاوزت الستة أشهر، وكنتيجة للهدوء الذي تمتعت بهِ العلاقات الفرنسية الإنكليزية في تلك المرحلة استقبلت مملكة فرنسا الملك الإنكليزي في أوائل شهر تموز عام ١٢٠١ عندما قام بزيارة إلى مدينة باريس، حيث استقبل بكل حفاوة وحصل على مكانه من التشريف من القساوسة في دير القديس دونيس، عندما استقبل وسط الترانيم والأناشيد الدينية، ولم تقتصر مظاهر الحفاوة على الجانب الديني والرمزي؛ فعند وصوله إلى باريس، استقبله سكان المدينة بحفاوة بالغة، وأُعيد إلى قصر الملك الفرنسي نفسه ليقيم فيه، وهناك أمر فيليب بتوفير كل متطلبات الراحة والبذخ لجون وفرسانه، حيث فُتحت الأقبية الملكية لتقديم أفخر أنواع النبيذ على مائدته، كما أغدق عليه هدايا جزيلة شملت الذهب، والفضة، والأقمشة الفاخرة، والخيول الإسبانية الأصيلة، ومجموعة من النفائس الأخرى، في استعراض واضح للبذخ والثروة والسخاء الملكي، وعندئذ استأذن الملك الإنكليزي بالرحيل، فأذن له الملك الفرنسي في أوآخر تموز ١٢٠١، وقد بدا مفتونًا ومنخدعًا بتلك المظاهر المبالغ فيها من الود والتفاهم(٢).

لقد نجح فيليب في نسج **"تعويذة"** دبلوماسية من الأبهة والكرم، وأعطت انطباعًا زائفًا بالسلام، لكن ذلك الوئام المصطنع لم يكن سوى ستارًا هشًا يخفي تحفزًا للصراع، فبعد مرور عام واحد فقط، تبددت تلك **"التعويذة"**، وانهارت بنود **"معاهدة لي جوليه "**، التي كانت أساس ذلك السلام المؤقت، وكأنها لم تُبرم قط، لقد كانت تلك الضيافة الباريسية الفخمة مجرد فصل قصير يسبق العاصفة، حيث استُأنفت الحرب من جديد، لكنها هذه المرة كانت المواجهة الحاسمة التي ستغير موازين القوى بشكل دائم(١).

شهد مطلع عام ١٢٠٢ تصعيداً عسكرياً وسياسياً خطيراً قاده الملك جون ضد نفوذ عائلة

---

(1)Radulphi Coggeshalae, Op.Cit., p.95; Guillaume Le Breton, Op. Cit., p.185; Ernest Lavisse, Op.Cit., Tome III, p.126.

(2) Rigord, Op. Cit., p. 53; Guillaume de Nangis, Op. Cit., p.388; Duby, G., France in the middle Ages 987-1460, from Hugh Capet to Joan of Arc, Trans by Juliet Vole, Oxford, 1996, p.218.

لوزينيان القوية في بواتو، حيث استهل تحركاته بتقويض مصالحهم الإقليمية عبر الاستيلاء على قلعة مونكونتور **Moncontour** ولم يقف عند ذلك الحد، بل تعمد استهداف رأس العائلة، هيو التاسع كونت لا مارش **Hugh IX of Lusignan** (١١٥١- ١٢١٩)، من خلال تجريد شقيقه راؤول دي لوزينيان **Raoul I of Lusignan**(١١٦٩- ١٢١٩)، من ممتلكاته في نوفشاتيل- أون- بري **Neufchâtel-en-Brie**، في تجاوزٍ صريح للأعراف الإقطاعية، إلا أن الشرارة التي حولت ذلك التوتر إلى صراع مفتوح كانت ذات طابع شخصي، تمثلت في إقدام الملك جون على تطليق زوجته الأولى إيزابيلا أوف جلوكسستر التي كان قد تزوجها بموافقة بابوية واستفاد من مقاطعاتها متذرعاً بصلة القرابة، ليتزوج بعدها من إيزابيلا أنجوليم، ابنة الكونت أيمر، متجاهلاً كونها مخطوبة لخصمه هيو لوزينيان[٢].

لم تمر تلك الخطوة دون عواقب وخيمة؛ فقد أثارت حفيظة البابا إنوسنت الثالث ومجلس الكرادلة، وأججت غضب البارونات في إنكلترا وبواتو بسبب انتهاكه للقوانين والشرائع، وفي ظل ذلك الاحتقان، واصل جون سياساته العدائية بإعلان الحرب على أملاك راؤول دي لوزينيان كونت "ايو" في نورماندي، مما دفع الأخير إلى اللجوء لسيده الإقطاعي الأعلى، الملك الفرنسي، لتقديم شكوى رسمية باعتبار أن دوقية نورماندي إقطاعية تابعة للتاج الفرنسي وتخضع لسيادته، وهو ما فتح الباب لتدخل فرنسي مباشر في النزاع[٣].

وعلى أثر ذلك قام الملك فيليب بتوجيه أوامره إلى الملك جون من أجل أن يمتنع عن إثارة رجاله، وأن يعقد معهم تسويات سلمية، وما كان من الملك الإنكليزي إلا أن تجاهل تلك الأوامر، فقام الملك الفرنسي على الفور بعرض الأمر على المحكمة الفرنسية، التي ما لبثت أن استدعت ملك إنكلترا للمثول أمامها بوصفه كونتا لاكيتاين وأنجو ونورماندي فضلاً عن كونه فصلاً إقطاعياً للملك الفرنسي، كان عليه الخضوع لحكمهم والإجابة على كل ما يوجه إليه من تساؤلات، ويتعامل مع القانون حسبما يقرر رفاقه في المراتب الإقطاعية، إلا أن رده جاء عنيفاً، بأنه كدوق لنورماندي فليس مرغماً بأي حال من الأحوال على الحضور إلى البلاط الفرنسي من أجل المثول أمام المحكمة، وإن كان حتميًا اللقاء مع الملك الفرنسي فليكن من أجل الحديث حول الحدود بين مملكة فرنسا ودوقية نورماندي لأن ذلك متفق عليه بين الدوق والملك منذ زمن بعيد، مؤكد بالوثائق الأصلية، واستمر النقاش طويلاً ولم يستجب الملك القرار المحكمة، وحلت المشاعر العدوانية محل السلام وامتزجت العلاقات الفرنسية الإنكليزية من جديد بالتهديد والوعيد[٤].

---

(1) Rigord, Op. Cit., p. 53; Guillaume de Nangis, Op. Cit., p.388; Duby, G., France in the middle Ages 987-1460, from Hugh Capet to Joan of Arc, Trans by Juliet Vole, Oxford, 1996, p.218.

(2)Brain pullan, Op. Cit., p.246; Allan, H., England in the Thirteenth Century, Cambridge University Press, London, 1997, p.265.

(3)Allan, H. , Op. Cit., p. 265.

(4)Achille Lochear, Philippe Auguste et son temps, p.77.

وتتويجاً لذلك التصعيد، أصدرت محكمة الأقران الفرنسية في أواخر نيسان من عام ١٢٠٢ حكماً تاريخياً حاسماً، نص على التجريد الكامل لملك إنكلترا من كافة الأراضي والممتلكات التي حازها هو وأسلافه كأتباع لملك فرنسا، استندت المحكمة في قرارها إلى حيثيات قانونية صارمة، أبرزها الإخلال الفادح بالالتزامات الإقطاعية تجاه السيد الأعلى، والتمرد السافر على أوامره، لتتم إدانة الملك جون بارتكاب "الخيانة الإقطاعية العظمى"، وعلى الرغم من أن العرف الإقطاعي نادراً ما كان يلجأ لتطبيق عقوبة المصادرة الشاملة للإقطاعيات وحرمان الورثة مفضلاً فرض الغرامات أو التسويات، إلا أن تلك الإجراءات القضائية كانت في حقيقتها غطاءً سياسياً متقناً، فقد شكّل ذلك المسار القانوني أداة استراتيجية وظفها الملك فيليب أغسطس ببراعة لإضفاء الشرعية على حرب شاملة سعى لشنها، بهدف حسم الصراع الوجودي بين العرشين، وتفكيك الإمبراطورية الأنجوية، وإنهاء هيمنة آل بلانتاجنت على الأراضي الفرنسية بشكل جذري[١].

وتنفيذاً لقرارات المحكمة قام الملك الفرنسي بجمع جيش كبير، واتجه بهِ صوب أملاك الملك الإنكليزي، دخل أراضي دوقية نورماندي، حيث تولى قيادة العمليات بنفسه، وفي الوقت ذاته، أُسندت مهمة اختراق قلب ممتلكات البلانتاجانت في أنجو وبواتو إلى حليفه الشاب، آرثردوق بريتاني، وقد صُممت تلك الخطة لتكون بمثابة حركة كماشة فعالة، تتزامن فيها العمليات العسكرية في الشمال على محور نهر السين مع هجوم متزامن في الجنوب على طول وادي نهر اللوار[٢].

كانت قلعة بوتفانت **Boutavant** التي بناها الملك ريتشارد من قبل على حدود الدوقية مع مملكة فرنسا أولى القلاع التي اجتاحها الجيش الفرنسي وسواها بالأرض، واستمر في زحفه متجها صوب أملاك هيو دى جورناى **Hugh de Gourney** التابع للملك الإنكليزي والممثلة في مدينة ايجى **Augi** وقلعة لونس فضلا عن مجموعة من القلاع الصغيرة، وما إن تم له الاستيلاء عليها حتى واصل زحفه تجاه قلعة أوميل وفرض عليها حصارًا ويبدو أن أخبار ما فعله في بوتفانت قد وصلت إليها فقامت حامية المدينة بتسليم القلعة، ومنها اتجه إلى كونتية أيو **Ayo** في الشمال وجميع الأراضي المحيطة بها ولم يجد أى صعوبة في الاستيلاء عليها، ودخل من هناك إلى قلعة أركيوس **Arques**، ولم يواجه أى مقاومة تذكر حتى تلك اللحظة سواء من الملك الإنكليزي أو أنصاره فقرر الاستيلاء على قلعة راديبونت **Radepunt** الواقعة إلى الجنوب من بولونيا وفرض عليها حصاراً لمدة ثمانية أيام، إلا أنه اضطر إلى رفع الحصار عندما علم بقدوم الملك جون بجيشه، وعاد بعد ما أقر الأمور إلى عاصمته باريس، وفى تلك الأثناء أعلن عن خطبة ابنته ماري، البالغة من العمر اثني عشر عامًا لآرثر، الذي كان يبلغ حينها الخامسة عشرة، ولم يكتفِ فيليب بذلك؛ بل قام شخصيًا بتقليد آرثر رتبة الفارس، وهو إجراء رمزي يضعه تحت حمايته المباشرة

(1)Roger of Hoveden, Op. Cit., Vol. II, pp. 520- 21; Ernest Lavisse, Op. Cit., Tome. III, pp.127-128.

(2) Achille Lochear, Philippe Auguste et son temps, pp. 77-78.

ويُعلي من شأنه، والأهم من ذلك، قبل فيليب أوغسطس الولاء مجددًا من آرثر، ليس فقط عن دوقية بريتاني، بل وعن أراضي اكيتاين وأنجو الحيوية، مما شكّل تحديًا قانونيًا وسياسيًا مباشرًا لسيادة الملك جون على تلك الإقطاعيات، وبناءً على نصيحة صهره أعلن آرثر الثورة على عمه، وانطلق على رأس قوة ضاربة تتألف من مائتي فارس من النخبة، انضمت تلك القوة إلى الكتائب الإقطاعية المتحالفة معه في بيري وبورغوندي، ونجحت في تحقيق اختراق كبير بالاستيلاء على قلعة ميرابو، التي تُعد أحد المفاتيح العسكرية الحيوية للسيطرة على بواتييه، وبينما هم في الطريق جاءت أخبار تفيد بأن الملكة إليانور تقيم في قلعة ميرابو ومعها حامية صغيرة، فاتفق الجميع على محاصرة تلك القلعة وأسر الملكة، وصدق حدثهم فكانت أضعف من أن تقاومهم، فاستسلمت لهم ما عدا البرج الذي احتمت فيه الملكة وحرسها الخاص، وذلك في ٣١ تموز١٢٠٢[١].

أظهر الملك جون في مواجهة ذلك الهجوم المزدوج الذي هدد بانهيار ممتلكاته القارية، مرونة تكتيكية ملحوظة، مدركًا لصعوبة صد تقدم فيليب أغسطس المباشر في الشمال، حيث راهن جون على قدرة المدن النورماندية الكبرى وحصونها على الصمود والمقاومة لمدة طويلة، وبناءً على ذلك الحساب الاستراتيجي، قرر تركيزه على الأزمة الأكثر إلحاحًا، وهي إنقاذ والدته، الملكة إليانور من الأسر، وكسر شوكة هجوم آرثر قبل أن يترسخ، في تلك اللحظة الحاسمة، حدث تحول جذري في التحالفات، حيث دخل وليم دي روش، فكان دافعه مركبًا ومعقدًا، فهو نابع من الخوف المتزايد من طموحات التوسع الفرنسي وهيمنة الكابيتيين، فضلا عن رغبة سياسية في انتزاع آرثر من النفوذ المطلق لفيليب أغسطس، وإعادته كحاكم اسمي لبريتاني وأنجو تحت المظلة الأنجوية بدلاً من أن يكون أداة في يد الملك الفرنسي[٢].

دفع ذلك التحليل البراغماتي وليم دي روش إلى الانحياز للملك جون، إذ سعى دي روش للقاء جون في لومان، وقدم له عرضًا بالدعم العسكري الحاسم له ولحلفائه، غير أن ذلك الدعم لم يكن مجانيًا؛ بل كان مشروطًا بضمانات صارمة، عندما اشترط دي روش على جون أن يقدم قسمًا مُلزمًا يتعهد فيه باحترام حياة جميع الأسرى الذين سيقعون في قبضته، والأهم من ذلك كله، التزامه بمعاملة ابن أخيه آرثر معاملة كريمة ولائقة، وصولًا إلى الالتزام الرسمي بإعادة إرثه الشرعي إليه[٣].

وأمام تصاعد الأحداث في قلعة ميرابو؛ ما لبثت الملكة إليانور أن استغاثت بابنها الملك جون، الذي هبّ مسرعا من أجل نجدة الملكة مع جزء كبير من جيشه، ففي ٣٠ تموز، حشد جون قواته، مدعومة بجيش وليم دي روش، وغادر لومان في مسيرة سريعة، وبحلول ٣١ تموز، كان ذلك الجيش قد طوّق ميرابو، محققاً عنصر المفاجأة التام، وعلى الجانب الآخر

---

(1)Roger of Wendover, Op. Cit., Vol. II, p. 204; Un groupe d'auteurs, Histoire de France, Volume 1, Éditions Larousse, Paris, 1986, pp. 75-80.
(2) Achille Lochear, Philippe Auguste et son temps, pp. 77-78.
(3)Achille Lochear, Philippe Auguste et son temps, pp.77-78.

كان جيش آرثر قد دخل القلعة ولم يستطع الاستيلاء على البرج، فقام أولا بالاهتمام بغلق كل أبواب المدينة بالتراب، باستثناء باب واحد انتظارا لقدوم الملك الإنكليزي، الذي وصل إلى القلعة في الأول من آب من العام نفسه، واشتبك الطرفان في قتال عنيف عند باب القلعة انتهى بانتصار الملك الإنكليزي وأسر الدوق آرثر وحلفائه جميعا[١]، أما الملك الفرنسي فقد انتهز فرصة انشغال الملك جون بمحاولة إنقاذ أمه الملكة إليانور، وعاد وفرض حصاراً على قلعة أركيوس التي انسحب من أمامها من قبل، وحاول جاهدًا اقتحام أسوارها، إلا أن حامية المدينة قاومت ببسالة، ونجحت في إجباره على الانسحاب، لاسيما بعدما وصلته أخبار أسر الدوق آرثر وحلفائه، وعاد غضباناً لسوء الحظ الذي أحل بحلفائه، وعرج إلى إقليم اللوار بسرعة شديدة، وقام بإحراق كل شيء في طريقه حتى الأديرة ومن هناك اتجه صوب مدينة تور التي تدخل ضمن أملاكه، وما لبث أن تركها وعاد إلى العاصمة باريس[٢].

بدا أن ذلك التحرك كان اندفاعياً أكثر منه استراتيجياً، فإما بسبب خشيته من خوض غمار حملة خريفية قاسية، أو بسبب قلقه من التوغل عميقاً في أراضٍ معادية دون خطوط إمداد آمنة، لذا قرر فيليب عدم انتظار وصول الملك جون لعرض القتال، وبدلاً من تثبيت سيطرته، آثر الانسحاب المتسرع عائداً إلى باريس، استغل الإنكليز ذلك الفراغ على الفور، فاستعادوا مدينة تور دون مقاومة تذكر، ولم يكتفوا باستعادتها، بل أضرموا النار في الأجزاء التي نجت من هجوم فيليب، مما أدى إلى تدمير القصر الملكي بالكامل، في تلك المرحلة برزت السمة الأخطر في شخصية جون وهو غدره السياسي، فمع خصم مثل جون، كان خصومه بحاجة إلى الانتظار فقط، إذ كان من المؤكد أنه سينكث بعهوده، وذلك ما حدث بالفعل؛ حيث تنكر جون لجميع الوعود التي قطعها لوليم دي روش، الرجل الذي هندس له انتصار ميرابو [٣].

بدأ جون بتطبيق سياسة قاسية ضد الأسرى، فبينما أُرسل بعضهم إلى إنكلترا كسجناء، أُلقي بالبعض الآخر في غياهب السجون وتُركوا ليموتوا جوعاً، في انتهاك صارخ لأعراف الفروسية، أما آرثر نفسه؛ فقد اقتاده جون شخصياً ليحبسه في قلعة فاليز **Falaise**، وقد عقد العزم على أن لا يطلق سراح ذلك السجين الذي يمثل تهديداً وجودياً لسلطته، وعندما جاء وليم دي روش وبارونات بريتاني، مذكّرين جون بتعهده، وطالبوه رسمياً بالإفراج عن الأمير الشاب؛ جاء رده بالرفض القاطع، كما أثار تدخلهم حنق جون، الذي بدأ يرى في وليم دي روش وإيميري دي ثوار **Aimery de Thouars** حلفاء مزعجين يشكلون خطراً على سلطته المطلقة، فقرر التخلص منهما، إلا أنهم فروا هاربين[٤]، وأثناء تتبعهم قام الملك

---

(1) Rigord, Op. Cit., pp. 54-55; Radulphi Coggeshalae, Op. Cit., pp. 96-97.

(2) Roger of Wendover, Op. Cit., Vol. II, pp.204-205; Guillaume de Nangis, Op. Cit., p. 391.

(3) Ernest Lavisse, Op. Cit., Tome. III, p. 130.

(٤) بعد أن تلقى الرجلان تحذيراً سرياً بنوايا الملك، فرا إلى حصونهما لتدبير أمرهما. وكانت ردة فعل جون سريعة وحاسمة؛ حيث جردهما من مناصبهما الحيوية، فسحب منهما حراسة قلعة أنجيرس (Angers) الاستراتيجية، وعزلهما من منصب "سينشال" (Seneschal) أنجو وتورين، ولضمان عدم تركز القوة مجدداً؛

بإحراق مدينة لامينز ورأى المقربون أن تلك الفتن تأتي من أتباع الدوق آرثر، لذا وجب عليه التخلص منه[١].

لم تكن فكرة التخلص من آرثر وليدة لحظتها؛ بل كانت هاجساً قديماً يتجدد في بلاط الملك، وأخيراً بينما كان الأمير قابعاً في سجنه؛ تبلورت تلك الفكرة الخبيثة إلى مؤامرة رسمية، إذ نجح المقربون من الملك بإقناعه أن الوقت حان لحلٍ جذري، وهو إصدار الأمر بتشويه الأمير الشاب وسمل عينيه، وهو ما يُعد موتاً سياسياً وجسدياً، فكُلّف ثلاثة من الرقباء الملكيين بتنفيذ ذلك القرار الشنيع، لكن هول المهمة كان كفيلاً بزعزعة أقوى الرجال، فاثنان منهم اختارا الهروب بجلدهما على أن يحملا عار ذلك الفعل، أما الرقيب الثالث، فمضى في طريقه حتى وصل إلى القلعة، حيث كان آرثر يخضع لحراسة مشددة من مسؤول إنكليزي رفيع المستوى، هو هوبير دي بورج **Hubert de burrgh**، وعند وصول مبعوث الملك جون -الذي جاء على الأرجح للإشراف على التنفيذ-، وقع ما لم يكن في الحسبان، فانقضّ الأمير الأسير، الذي وُصف بـ "الطفل"، على المبعوث في هجوم يائس ينم عن رعب عميق أو شجاعة مطلقة، فهرع الجنود لفض ذلك الاشتباك العنيف، في مشهد كشف عن التوتر البالغ الذي يخيّم على المكان، وهنا وجد هوبير دي بورج نفسه في موقف لا يُحسد عليه، فتأثر الحارس المخضرم إما بتوسلات الأمير اليائسة، أو الأرجح، أنه أدرك فجأة الثقل الهائل لتلك المسؤولية التاريخية وتبعاتها السياسية الوخيمة، وفي محاولة لتبرير عصيانه المستقبلي، افترض دي بورج أن هذا الأمر القاسي قد صدر في **"لحظة غضب"** ملكية غير محسوبة، وبشجاعة تحفّها الخطورة؛ اتخذ هوبير قراراً فردياً بتعليق تنفيذ الحكم، لكن تعليق الأمر لم يكن كافياً، لحماية نفسه وحماية الأمير، فلجأ دي بورج إلى خدعة جريئة، فلقد أشاع أن الأمر قد نُفّذ بالفعل، وأن الأمير آرثر قد مات متأثراً بجراحه البالغة نتيجة التشويه، وكانت الخدعة متقنة وفاعلة بشكل مرعب، فانطلقت آلية الحداد الرسمية، وأقيمت الصلوات في كل مكان لراحة روح الأمير، ووُزّعت ملابسه كتبرعات على المستشفيات، بل وتم تدبير جنازة ودفن جثمان رمزي في دير القديس أندرو، وساد الاعتقاد لمدة أسبوعين، في الأوساط الفرنسية والإنكليزية على حد سواء أن قضية آرثر قد أُغلقت إلى الأبد[٢].

غير أن ذلك التضليل الإعلامي، الذي كان يهدف إلى إنهاء المشكلة؛ سرعان ما فجّر أزمة أكبر، عندما وصلت تلك الأنباء الكاذبة إلى موطن الأمير، فأثارت حفيظة البريتونيين وأشعلت فيهم عاصفة من الغضب، محوّلة حزنهم إلى سخط سياسي، وهكذا انقلب السحر على الساحر، لتهدئة الثورة المشتعلة في بريتاني، ووجد المسؤولون الإنكليز أنفسهم

عمد جون إلى تقسيم هذه المسؤوليات الجسيمة بين إداريين جدد يدينون له بالولاء المطلق، كانت عواقب ذلك الغدر وخيمة، فقد أدت سياسات جون إلى تنفير بارونات بواتو بشكل دائم، ودفعت بارونات بريتاني إلى ثورة مفتوحة احتجاجاً على سجن دوقهم، أما النتيجة الأهم، فكانت تحول وليم دي روش، مهندس النصر الأكبر، إلى عدو لدود، يخطط للانتقام من الملك الذي خانه.

Achille Lochear, Philippe Auguste et son temps,p78.

(1)Radulphi Coggeshalae, Op. Cit., p. 97; Ernest Lavisse, Op. Cit., Tome. III, p.130.

(2) Achille Lochear, Philippe Auguste et son temps, pp. 79-80.

مضطرين لإثبات أن الأمير، الذي أعلنوا موته رسمياً ودفنوه، لا يزال على قيد الحياة، لقد نجحت خدعة هوبير دي بورج في إنقاذ حياة آرثر مؤقتاً، لكنها أدخلت الجميع في دوامة جديدة من التعقيدات والصعوبات التي بدأت للتو[١].

أظهر الملك فيليب أغسطس براعة سياسية فذة في استغلال الأزمة المتصاعدة (المرتبطة بآرثر دوق بريتاني)، فبدلاً من الانتظار؛ قضى شتاء ١٢٠٢-١٢٠٣ في مفاوضات دبلوماسية مكثفة، مُعداً الأرضية لحملة ربيعية حاسمة، وجاءت الضربة القاصمة الأولى بتجدد المفاوضات مع وليم دي روش، التي تُوّجت بمعاهدة ٢٣ آذار ١٢٠٣، التي لم تكن مجرد معاهدة؛ بل كانت إعلاناً بانتقال ولاء دي روش بشكل أبدي إلى التاج الفرنسي، وكان الأثر المباشر لذلك التحول مدمراً للطرف الأنجيفيني؛ فوليم دي روش لم يأتِ بمفرده، بل قاد انشقاقاً جماعياً لأقوى بارونات أنجو وبواتو، وشملت تلك القائمة أسماء مثل موريس دي كراون **Maurice de Crowne**، وبرنارد دي لا فيرتيه **Bernard de la Verté**، وجويل دي ماين **Joel de Mayne**، وكونت فاندوم **Count Vendôme**، وجوفروي دي لوزينيان، **Geoffroy de Lusignan** وإيميري دي ثوار، بل لم يكن ذلك ولاءً أعمى؛ فقد بايع البارونات فيليب وتعهدوا بالولاء له، لكنهم ربطوا ذلك التعهد بشرط واضح: **"حتى تحرير آرثر"**، مما أضفى على تمردهم طابعاً شرعياً، وتعاظم ذلك الانهيار الدبلوماسي بإعلان روبرت، كونت ألينغون **Robert, Count of Alingon** انضمامه هو ايضا للمعسكر الفرنسي، إذ لم يكن الأخير مجرد انشقاق إضافي؛ بل كان نصراً استراتيجياً حاسماً، إذ منح فيليب حرية الوصول المباشر إلى نورماندي العليا، والأهم من ذلك، أنه فتح الشريان الحيوي الرابط بين روان (عاصمة نورماندي) وأنجيرس (قلب الأراضي الأنجيفية)، ممهداً الطريق لغزو شامل[٢].

نقل الدوق آرثرمن سجنه في قلعة فالى على الجانب الآخر إلى مدينة روان حيث تم إيداعه داخل قلعتها تحت حراسة أميرها روبرت دى فوكسبونت **Robert de Vieuxpont** وانقطعت بذلك أخباره، فما لبث الملك فيليب أغسطس وحلفاؤه من البريتانيين والمؤيدين للدوق آرثر أن طالبوا الملك الإنكليزي بإطلاق سراح الدوق وتسليمه إليهم، وأعدّوا في مقابل ذلك عدداً كبيراً من الرهائن، فضلا عن التهديدات القاسية، وجاء رده على ذلك بالرفض، مما دفع الملك الفرنسي بالقيام بهجوم قوى على القلاع الواقعة على نهر اللوار، وكانت قلعة سومير أولى القلاع التي استولى عليها ثم تلتها جزيرة لاس أندلاس مع قلعتها الحصينة، وفى الوقت نفسه قام وليم لاروش حليف الملك الفرنسي بهجوم على قلاع بيفورت وسير شارته وماين واستولى عليهم دون عناء، أما على ضفاف نهر اللوار فقد استطاع الملك الفرنسي الاستيلاء على قلعة فودرويل **Vaudreuil** التي كان يتمركز فيها للدفاع عنها عدد كبير من الفرسان الإنكليز على رأسهم روبرت فتز - والتر مع فرسانه

---

(1) Guillaum Le Breton Armorico, Philippidis, p.194 .

(2) Rigord, Op. Cit., pp. 55-56; Radulph Coggeshalae, Op. Cit., p. 98; Guillaum le Breton -Armorico, Philippidis, p.189.

وسير دي كونسى **Saer de Quincy** مع فرسانه أيضا، وعلى الرغم من ذلك لم يستطع الفرسان الإنكليز التصدي لحماسة الملك الفرنسي فقاموا بتسليم أنفسهم وقلعتهم له، مما دفعه للعزم على الإغارة على مدينة روان، إلا أن قلعة جيلارد كانت ستعترض طريقه فقرر الاستيلاء عليها، حيث تبنى استراتيجية حصار وعزل ممنهجة، قبل أن يوجه أنظاره إلى القلعة نفسها، وشرع في تطهير المنطقة المحيطة بها لقطع الإمدادات عنها وعزلها تماماً، فسقطت في يده تباعاً القلاع والحاميات المحيطة، فودروي **Foudroy**، ورادبون **Radebon**، وإيل **Aeel**، وبلدة أنديلي **Andéle** الواقعة عند سفح القلعة، ومن أجل تحقيق ذلك المشروع قام بالانقضاض على مدينة تور في تشرين الأول ١٢٠٣ وأقام هناك محمية كبيرة من أجل تأمين قيامه بذلك العمل والذي بمقتضاه أصبحت قلعة جيلارد ومن ورائها دوقية نورماندي في موقف صعب يزداد خطورة يوما بعد يوم[١].

إلا أن قوة البابوية التي أساءها ازدياد قوة الملك الفرنسي لاسيما بعد لقاء رسل البابا إنوسنت الثالث مع الملك الفرنسي في ٢٢ آب ١٢٠٣ عندما التقيا سويا في كلير مونت بفرنسا، في لقاء حضره كبار الإقطاعيين والبارونات ورؤساء الأساقفة، وفيه أعلن الملك الفرنسي موقفه التاريخي بقسم غليظ، محدداً بدقة خطوط السيادة: **"في الأمور الإقطاعية البحتة، وتحديداً فيما يتعلق بعلاقات الملك مع أتباعه، فإنه لا يتلقى أوامر من البابا ولا يخضع لسلطته القضائية"**، وكانت رسالة فيليب واضحة الخلاف بينه وبين جون، وهو خلاف**"دنيوي"** ذو طبيعة إقطاعية، وبالتالي، يقع حصراً ضمن نطاق سلطة التاج الفرنسي، ولا علاقة لبلاط روما بهِ، وعندما وصل ذلك الكلام إلى البابا إنوسنت العنيد لم يلبث أن ردّ على الملك الفرنسي بقوله: **"إلى فيليب ملك فرنسا، الذي يسعى عبثاً لتقويض النفوذ البابوي: يبدو أن الذاكرة قد خانتكم، فتناسيتم عظيم الدعم والخدمات التي قدمتها البابوية لكم ولأسلافكم من قبل. اعلم أن رسالة القديسين منذ فجر المسيحية لم تكن سوى إرساء دعائم السلام في قلوب البشر؛ وإذا كنتم تزعمون أنه ليس للبابا حق التدخل المباشر في الشؤون الإقطاعية الصرفة، فلا ريب أن له كامل الحق في التدخل عندما يتعلق الأمر بالخطيئة ومخالفة الشرع الإلهي، فتلك ولاية لا تسقط، وحسابها عند الرب عسير"**[٢].

لقد اتضح أن البابوية أساءها توغل الملك الفرنسي في الأملاك الإنكليزية وتوتر العلاقات فيما بينهما، فقام البابا إنوسنت بالتدخل من أجل عقد الصلح بين الطرفين وأرسل من أجل ذلك الكثير من الرسل التي تحمل من الخطابات ما يحث على وقف القتال وعقد الصلح وتوجيه قوى الغرب المسيحي ضد المشرق الإسلامي، إلا أن الملك فيليب أغسطس رفض ذلك معارضاً تدخل البابوية، لكن البابا إنوسنت الثالث صاحب فكرة هيمنة البابوية على الأعمال العلمانية؛ لم يكن لينهزم أمامه وعلى ما يبدو أنه شدد الضربات عليه[٣]، حتى أن

(1) Rigord, Op. Cit., p.56; Radulph Coggeshalae, Op. Cit., pp. 98-99.
(2) Guillaume de Nangis, Op. Cit., p.391; Duby, G., Op. Cit., pp. 218-19.
(3) Guillaume de Nangis, Op. Cit., p. 391.

الملك الفرنسي، ما لبث أن طالب كبار الإقطاعيين الذين يحيطونه بكتابة تعهد مختوم يتعهدون فيه بدعمه ومساعدته على مقاومة البابا، في حال حاول الأخير إجباره بالقوة على عقد سلام مع ملك إنكلترا، إذ يعد ذلك الإجراء أول مثال معروف في تاريخ فرنسا لملك يطلب الدعم الرسمي والتعاقدي من **"الهيئة الإقطاعية"** (النبلاء) للوقوف ضد سلطة بلاط روما، لقد كانت تلك سابقة تاريخية مهمة، أرست الأساس لمواجهات مستقبلية بين التاج الفرنسي والبابوية[١].

وبلك النتائج أنهى الملك الفرنسي اجتماعه مع باروناته وما لبث أن قاد جيشه متجها صوب قلعة جيلارد، وفرض عليها حصارًا، مستغلاً الحماسة التي انتشرت بين أفراد الجيش الفرنسي وحلفائه، لاسيما بعدما انتشر خبر مقتل الدوق آرثر على يد الملك جون في نهر مولينوه **Maulineaux**[٢] وكان حصار قلعة جيلارد قد بدأ مع أوائل شهر تشرين الأول ١٢٠٣ واستمر حتى آذار ١٢٠٤ واستمرت خلال ذلك الحصار المناوشات، التي كانت تزيد الجيش الفرنسي إصرارا، وزاد على ذلك قيام الملك الفرنسي بتأمين جيشه بالاستيلاء على كل القلاع والجزر التي تؤمن له محاصرة القلعة الحصينة، أما قلعة جيلارد فكان يدافع عنها مجموعة كبيرة من الفرسان تحت قيادة روجر دى لاس **Roger de Lacy** فضلاً عن المشاة، واستطاع روجر التصدى للقوات الفرنسية لوقت طويل، ونتيجة للإحباط الذي انتاب المحاصرين من عدم قيام الملك جون الموجود في إنكلترا بمد يد العون لهم والمعاناة التي لاقتها حامية المدينة من شدة الجوع، فضلا عن قيام الجيش المحاصر باستخدام سلاح المنجنيق في ضرب الأسوار مما أدى في النهاية إلى سقوط القلعة في ٦ آذار ١٢٠٤، بعد حصار دام ستة أشهر، وأسر قائد الحامية ومعه أربعمائة فارس نقلوا جميعا إلى مدينة باريس[٣].

وهكذا تعرضت مملكة إنكلترا لهزة عنيفة بسقوط قلعة جيلارد، فضلا عن وفاة الملكة إليانور في ٣١ آذار ١٢٠٤ فبوفاتها فقد الملك جون مؤيدا وناصحًا كبيراً، إلا أنه ما لبث أن انتهى من أحزانه وأخذ يفكر في حال علاقة مملكته مع المملكة الفرنسية والتي باتت في توتر

---

(1) Ernest Lavisse, Op. Cit., Tome. III, pp. 131-2.

(٢) أعاد وليم البريتوني، بناء مشهد الجريمة كما لو أنه رآها: **"استدعى جون سرًا أكثر خدمه خيانةً له، وحرضهم، ووعدهم بعطايا كثيرة، على البحث عن وسيلة لإهلاك ابن أخيه، فرفض الجميع القيام بمثل هذه الجريمة العظيمة، ثم غادر بلاطه وأتباعه فجأة، وغاب ثلاثة أيام، ثم انسحب إلى وادٍ مشجر حيث تقع قرية مولينو الصغيرة، من هناك، عندما حلت الليلة الرابعة، صعد جون، وسط الظلام، إلى قارب صغير وعبر النهر رسا في روان، أمام البوابة الخلفية المؤدية إلى البرج الكبير، على الميناء الذي يفيض فيه نهر السين مرتين يوميًا بالمستنقعات. ووقف على سطح القارب، وأمر بإحضار ابن أخيه إليه بواسطة خادم: ثم أخذه معه في القارب، وابتعد قليلاً، ثم ابتعد تمامًا عن الشاطئ. المؤسف... أدرك الطفل أن ساعته الأخيرة قد حانت، فاندفع عند ركبتي الملك صارخًا: "يا عمي، ارحم ابن أخيك الصغير، يا عمي، يا عمي الصالح، ارحمني، ارحم ابن أخيك، ارحم دمك، ارحم ابن أخيك!". رثاءٌ باطل! أمسكه الطاغية من شعره، وغرز رمحه في بطنه حتى المقبض، ثم سحبه وهو لا يزال مبللاً بهذا الدم الثمين، وغرزه مرة أخرى في رأسه وطعن صدغيه بعد أن اكتملت جريمته، ابتعد وألقى بهذه الجثة هامدة في الأمواج المتلاطمة أمامه.**

Guillaume Le Breton, Op. Cit.,pp.194-195.

(3) Roger of Wendover, Op. Cit., Vol. II, p. 213; Rigord, Op. Cit., p.57.

شديد فجمع مجلسه للتداول، وقرر إرسال سفارة مختارة بعناية إلى الملك الفرنسي، تكونت من رئيس أساقفة كانتربري، وأسقف نورفولك وأسقف إيلاى فضلا عن الإيرل مارشال وإيرل لستر، وأعطى إليهم من التعليمات، ما يحسهم على معرفة نوايا الملك الفرنسي، من أجل إمكانية عقد معاهدة سلام معه، وما أن وصلت الرسل، والتقت بالملك الفرنسي حتى أعلن موافقته على السلام بشرط واحد، وهو أن يقوم الملك الإنكليزي بإطلاق سراح الدوق آرثر حياً، وبذلك الشرط تمنى الملك فيليب أغسطس إنه إذا ما اكتشف أن آرثر كان ميتًا، وقتها يمكنه أن يتزوج من أخته، وبذلك الزواج يحصل على ممتلكاتها في القارة الأوروبية[١] وعليه لم يكن الملك الفرنسي راغبا في عقد معاهدة سلام لأنه كان واثقًا في أنه سيتمكن بعد قليل من تملك جميع أراضي الملك الإنكليزي[٢].

مما سبق يتضح أن الملك جون قد تعرض لصدمة عنيفة بوفاة أمه الملكة إليانور جعلته مكتوف الأيدى أمام توغل الملك الفرنسي في دوقية نورماندي، حتى استطاع الأخير الاستيلاء على قلعة جيلارد التي أعطى سقوطها له من القوة ما أحيا بداخله كل آماله في الاستيلاء على الأملاك الإنكليزية جنوب القنال الإنكليزي، ولم يكن سقوط القلعة وحدة سببًا في ذلك، بل إن فشل سياسة الملك الإنكليزي ذاته تجاه باروناته وكبار الإقطاعيين التابعين له، والتي خلقت نوعاً من العداء بينهما، كانت سببًا آخر جعل الملك الفرنسي يفتح ذراعيه لاحتضان هؤلاء واستطاعت المصالح السياسية أن تجمع بين السيد الإقطاعي والفصل، مما أدى إلى تجميع قوة عسكرية كبيرة، كان هدفها القضاء على قوة الملك الإنكليزي، وزادت من أطماع الملك الفرنسي مما جعله يضع العراقيل أمام رسل نظيره الإنكليزي الذي يسعى لعقد هدنة، فكان دوما ما يقترح شيئا غير ممكن، وكان ذلك دوما محل خلاف في المحادثات و أنه أراد إلحاق العار والذل بالملك جون.

غير أن الملك فيليب أغسطس عندما أيقن بوفاة الدوق آرثر، أقسم على أنه لن يتوقف عن إثارة الحرب ضد الملك جون حتى يحرمه من ممتلكاته، أما البريتون فما أن علموا بوفاة دوقهم، حتى وافقوا على زواج أم الدوق من أحد النبلاء ويدعى جي أف ثوارس **Guy of Thouars**، واختاروه حاكما عليهم، أما البارونات النورمان فانضموا إلى الملك الفرنسي الذي استطاع استغلال ذلك الأمر في حشد جيش كبير وتحرك به في ٢ أيار ١٢٠٤ متجها صوب قلعة فالى التي سقطت بين يديه دون عناء، فواصل سيره حتى وصل إلى كين[٣]، وهناك التقى مع جيش البريتون تحت قيادة جي أف ثوارس، القادم من الغرب وقام بإحراق ديرسانت ميشل ونهبوا مدينتي أفرانش وبونتورسون **Pontorson** الموجودتين في الجنوب

---

[١] حتى عام ١٢٠٤ لم يكن للملك جون وريث ذكر أو أنثى، فإذا ما توفى فسوف ترث أخت - إليانور- الدوق آرثر أراضيه.

Dutaillis, P., The Feudal Monarchy in France and England From the X to the XIII Century, Trans. by Hunt E. D., London, 1996, p. 222.

[2] Radulphi Coggeshalae, Op. Cit., p. 99; Duby, G., Op. Cit., pp. 219-20.

[٣] كين: مدينة فرنسية، تقع في دوقية نورماندي على نهر اورن

Moore, W.G., Op. Cit., p.139.

الغربي من دوقية نورماندي وعندما التقى الجيشان تحت أسوار كين تسلما المدينة من سكانها تحت راية السلام، وهنا أحس الملك الفرنسي بأن في مقدوره الاستيلاء على دوقية نورماندي، وبات الأمل قريباً، ولم تكن تلك هي نهاية طموحات الملك الفرنسي، بل كانت البداية لمشروعه في إحياء أمجاد أسرة هيوكابيه[١].

ذلك عن الملك فيليب أغسطس ومملكة فرنسا؛ أما عن الملك جون ومملكة إنكلترا وموقفها تجاه تلك الأحداث، فقد كان موقف الملك جون سلبيًا فقد اكتفى بدور المتفرج من موقعه داخل إنكلترا ذلك أنه كان يشك في إخلاص رجاله من الإنكليز حتى بدأ في الخشية على نفسه من غدرهم، ولم يزد اهتمامه بتلك الهجمات الدائرة حوله عن قيامه بإرسال مجموعة من الجنود المرتزقة إلى الأماكن الرئيسة بنورماندي تحت قيادة أحد فرسانهم يدعى بسكار **Pascaire**، أحد أتباع القائد المرتزق الشهير ميركادير **Mercader**، كانت النتيجة كارثية، حيث أن هؤلاء المرتزقة، والذين لا يدينون بالولاء إلا لمن يدفع، سارعوا بتسليم كل شيء إلى فيليب أغسطس، اذا انتقلوا ببساطة من خدمة الملك جون إلى خدمة ملك فرنسا، الذي أثبت أنه رب عمل أكثر موثوقية، يدفع الأجور بانتظام[٢].

وعندما نجح الملك الفرنسي في ذلك أصبح جيشه في زيادة مستمرة، لذلك ما إن استلم مفاتيح كين؛ حتى قاد جيشه مصطحباً معه حلفاءه، واتجهوا صوب روان وبسهولة ودون عناء؛ تم لهم الاستيلاء على كل القلاع الصغيرة التي تقع على الطريق فيما بين كين وروان، أهمها، بارفليور **Barfleur**[٣]، وشير بورج **Sher Burg**، ودامفرونت **Damfront**. وعندما وصل إلى روان فرض عليها حصارًا قوياً، وفي المقابل دافع سكان روان عن أنفسهم ليس من أجل الشرف فحسب، بل من أجل المال أيضاً، اذ شكلوا اتحاداً دفاعياً مع معاقل فيرنويل وأرك، وصمدوا ببسالة مدة أربعين يوماً ؛ وعندما استنفدت قواهم طلب قائدها بطرس بروه **Peter de preaux** التقدم صوب المعسكر الفرنسي للقاء الملك فيليب، وعندما التقى بهِ طلب منه هدنة أربعين يوماً أخرى حتى يكون بإمكانهم إرسال رسل إلى سيّدهم الملك الإنكليزي لمعرفة قراره تجاههم، حتى إذا كان غير قادر على رفع الحصار، أو غير راغب في ذلك، عندها يمكنهم الاستسلام إلى الملك الفرنسي دون قتال، من أجل ذلك أرسل بطرس سفارة إلى الملك جون، تحمل من الأخبار السيئة عما يحدث في دوقية نورماندي، طالبين منه سرعة إنقاذهم، ومهما كانت الأمور فالنتيجة متوقعة، فقد بات الملك جون يشك في إخلاص تابعيه، لذا لم يستجب لهم **"من المستحيل أن أساعدكم في الوقت المطلوب ابذلوا قصارى جهدكم"**، والأكثر دلالة، كما تروي المصادر، أنه بعد أن

---

(1)Guillaume Le Breton, Op. Cit.,p. 210; Radulphi Coggeshalae, Op. Cit., p. 99; Orton, Priviti-Orton, Charles William, A History of Europe from 1198 to 1378, Volume 3, Methon House, London, 1938,pp.108-109.

(2) Roger of Wendover, Op. Cit., Vol. II, pp. 209-13.

(٣) بارفليور: مدينة فرنسية وميناء بحري على بحر المانش على بعد ستة وعشرين كيلو متراً إلى الشرق من شير بورج. وكانت من النقاط الهامة المملكة إنكلترا في العصر الوسيط.

Moore, W.G., Op. Cit., p. 81.

صرف المبعوثين النورمانديين، استأنف ببساطة لعبة شطرنج كان يلعبها، فكان ذلك المشهد هو الإعلان الرمزي عن تخليه الكامل عن دوقيته[١].

عادت السفارة تحمل من خيبة الأمل الكثير، وبذكاء من الملك الفرنسي الذي كان يعرف قيمة سلاح المال؛ نجح في كسب كثير من فرسان القلعة وعلى رأسهم قائدها، مما أدى إلى سقوط المدينة قبل انتهاء الهدنة في ٢٤ حزيران ١٢٠٤ استسلمت قلعتا فيرنول وآركوى[٢]. وبسقوط مدينة روان وقلعتها أكبر مدن دوقية نورماندي وأنجو وبريتاني، ومين، وتور، في أيدى الملك الفرنسي، وكان أحد الأسباب الرئيسة في سقوط ذلك الكم الهائل من الأملاك الإنكليزية يرجع إلى اعتماد الملك الفرنسي على حلفائه من الكونتات، وعلى رأس هؤلاء، وليم دى روش الذى كان في أنجو، وعموري دي نورس في بواتييه، فضلاً عن العديد من البارونات ذوى الشأن الرفيع مثل هيلى **Helie** كونت بريجوند **Périgond**، وجيوفرى - مارتل **Geoffrai - Martel**، ورالف دى اكسدون، وجاء ذلك كله متوافقاً مع ما قيل من نبوءات بأن السيف سيفترق عن الصولجان أي نورماندي عن مملكة إنكلترا حيث مكث ملوك إنكلترا دوقات لنورماندي مدة مائة وتسع وثلاثين سنة منذ أيام الملك وليم الفاتح حتى الملك جون الذي فقد تلك الدوقية مع كثير من أراضي ما وراء القنال الإنكليزي[٣].

ومع أن الملك فيليب أغسطس نجح في تحقيق ما أمل فيه منذ زمن بعيد وأصبح له من القوة والسيطرة ما يجعله مهيمنا على سير العلاقات الفرنسية الإنكليزية؛ إلا أنه واجه صعوبة كبيرة في الاستيلاء على قلعة لاروشيل نتيجة عاملين أساسيين: أولهما حلول شتاء عام ١٢٠٥ وثانيهما صمود حامية المدينة أمام الجيش الفرنسي، غير أن فشل الملك الفرنسي في الاستيلاء عليها دفعه إلى محاولة التعويض بالاستيلاء على قلعة شيئون Chion التي كانت من الحصانة، بحيث فشلت أمامها قوة الجيش الفرنسي، لأن حاميتها دافعت عنها ببسالة تحت قيادة هيوبرت دى برج **Hubert de Burgh** الذي ما لبث أن وقع في الأسر، وعلى الرغم من ذلك فشلت قوة الجيش الفرنسي في اقتحامها، ولم يكتف الملك الفرنسي بذلك بل زحف بجيشه صوب قلعة لوشي وفرض حصارًا عليها، واستطاع جيرارد دي أثى **Gerard de Athee** المقاومة لوقت طويل، إلا أنه سقط أسيرًا في أيدى الملك فيليب[٤]

---

[١] يُعد سقوط نورماندي السريع في عهد الملك جون نتيجة حتمية لسلسلة معقدة من الإخفاقات العسكرية والسياسية والاقتصادية والدبلوماسية، وليس مجرد **"تهاون"** ملكي. فمن الناحية السياسية، أصبح بقاء جون في الدوقية مستحيلاً أمنياً، إذ واجه خطر الخيانة حتى من بارونات الذين هددوا بتسليمه لعدوه فيليب أغسطس، وقد زاد من تآكل سلطته مقتل ابن أخيه آرثر والصدمة النفسية لسقوط قلعة غايار المنيعة. بالتوازي مع ذلك، عانت نورماندي من انهيار اقتصادي تام بحلول عام ١٢٠٤، حين استُنزفت مواردها بالكامل بسبب فدية ريتشارد وحروبه، وأصبحت عاجزة عن تمويل دفاعها وتعتمد كلياً على المال الإنكليزي. وأخيراً، وجد جون نفسه في عزلة دبلوماسية تامة بينما بنى فيليب أغسطس تحالفات واسعة وهدد بغزو إنكلترا، مما أجبر جون على التخلي عن أراضيه القارية التي لا يمكن الدفاع عنها لحماية عرشه.

Achille Lochear, Philippe Auguste et son temps,p. 82.

[2] Guillaume de Nangis, Op. Cit., pp.391-392; Radulphi Coggeshalae, Op. Cit., p. 99.

[3] Radulphi Coggeshalae, Op. Cit., p.99; Guillaume de Nangis, Op. Cit., pp. 392; Ernest Lavisse, Op. Cit., Tome. III, p. 137.

[4] Guillaume de Nangis, Op. Cit., p. 392; Radulphi Coggeshalae, Op. Cit., p. 99.

وبشجاعة استطاعت تلك القلاع الثلاث أن تؤخر عودة الملك الفرنسي منتصرًا إلى عاصمته باريس حتى أغسطس من عام١٢٠٥[١].

يتبين مما سبق أن فشل الملك الفرنسي، وجيشه في اقتحام القلاع الثلاث يرجع إلى أسباب منها، حالة الإجهاد والملل التي أصابت الجيش الفرنسي من طول مدة القتال التي استمرت منذ خروجه في أيار ١٢٠٤ حتى تلك اللحظة التي فرض فيها الحصار على تلك القلاع، فضلا عن حلول فصل شتاء عام ١٢٠٤/ ١٢٠٥ وما يواجه الجنود من صعوبة في التحرك خلال ذلك الفصل، نتيجة لما هو معروف عن صعوبة طقس الغرب الأوروبي حينها، وهو ما أدى إلى صعوبة استيلاء الملك الفرنسي على تلك القلاع.

كان لانتصار الملك فيليب أغسطس واستيلائه على دوقية نورماندي ردود أفعال قوية داخل البلاط البابوي، فجاءت المحاولة الوحيدة، والأكثر جدية، لإنقاذ ما تبقى من ممتلكات ملك إنكلترا القارية، أو على الأقل كبح جماح الفاتح الفرنسي، من البابا إنوسنت الثالث، ففي اللحظة الحاسمة التي سقطت فيها قلعة جيلارد؛ أرسل مبعوثين هما رئيس أساقفة يورجيز **Yorgis** ورئيس دير كازاماري **Casamari** مهمتهما إجراء تحقيق كنسي وقانوني شامل، وكان الهدف المعلن لذلك التحقيق **"تحديد ما إذا كانت المظالم التي رفعها جون ضد فيليب مشروعة"** من الناحية القانونية والكنسية، غير أنهما لم يستطيعا إقناع الملك الفرنسي بالعدول عن رأيه، إلا أن فيليب أوغسطس، الذي كان يرى في تلك اللحظة فرصة تاريخية لتوحيد فرنسا تحت سلطته وطرد الإنكليز من معاقلهم القارية، لم يتأثر مطلقاً بتلك التحرك الدبلوماسي، حيث بدا واضحاً أن الملك الفرنسي كان يمتلك اليد العليا عسكرياً، فواصل غزوه المنهجي للأراضي الأنجلو- نورماندية دون توقف[٢].

وعندما اكتمل الغزو عملياً وأصبحت نورماندي تحت سيطرة فيليب، حاول المبعوث البابوي ممارسة آخر أوراقه، إذ دعا الأخير إلى عقد مجلس كنسي في ميو **Mi** [٣] في ٧ آب ١٢٠٤ وجهت فيه الدعوة إلى المتحاربين للاجتماع وجها لوجه لإنهاء حالة الصراع والحرب الطاحنة من أجل مصلحة الصليب، إلا أن الملك جون أدرك تماماً عدم جدوى ذلك الإجراءات الدبلوماسية في مواجهة الحقائق العسكرية على الأرض، فبعد خسارته الميدانية، لم يكلف جون نفسه عناء إرسال محامٍ أو ممثل قانوني للدفاع عن قضيته الخاسرة في المجلس، وفي المقابل قام الملك الفرنسي بإرسال مجموعة من الأساقفة مندوبين عنه، وأوصاهم بمحاولة إقناع نائب البابا بأنهم يحاربون من أجل قضية عادلة، واستطاع القساوسة تحقيق نجاح باهر لم يتوقعه الملك الفرنسي نفسه[٤].

أمام ذلك الانسداد التام وتحدي سلطته المباشر، لم يجد المبعوث البابوي بداً من استئناف

---

(1) Ernest Lavisse, Op. Cit., Tome. III, p. 139.

(2) Achille Lochear, Philippe Auguste et son temps, p. 83.

(٣) ميو: مدينة فرنسية تقع على نهر مارين وقناة أوركيو Oureq على بعد تسعة وثلاثين كيلو متراً شرق وشمال شرق باريس.

Moore, W.G., Op. Cit., p.503.

(4) Gestis Innocentii III Papae, p. 347; Rigord, Op. Cit., p. 59.

القضية برمتها إلى البابا في روما، وهو ما يعني فعلياً تجميد التحقيق إلى أجل غير مسمى واعترافاً ضمنياً بالفشل، في النهاية وجد البابا إنوسنت الثالث، على الرغم من نفوذه الهائل، نفسه مضطراً للاعتراف بالواقع المريرحيث تحطمت الدبلوماسية البابوية وآليات التحكيم الكنسي أمام القوة العسكرية الصارخة، لقد ثبت أن **"الفرسان والرماة وآلات الحرب"** هم من كانوا **"الحكام الحقيقيين للمناظرة"**، وهم من حسموا مصير دوقية نورماندي على أرض المعركة، وليس في قاعات المجالس الكنسية[١].

وكنتيجة لاقتناع البابوية بوجهة النظر الفرنسية والتي كان يعول عليها الملك الإنكليزي كثيرا؛ وجد نفسه مضطرا للتحرك من أجل استرداد الأراضي المفقودة، وفي ظل قلق دائم وحزن وأسى جمع الملك الإنكليزي حوله من نبلاء بواتو فضلاً عن سكان مقاطعة جاسكوني عندما نجح في ضم موريف **Moreve** حاكم المقاطعة، مقابل مبلغ تسعة وعشرين ألف مارك ألزمت الأخير القدوم إلى الملك الإنكليزي عند طلبه، فضلاً عن كثير من النبلاء وذلك من خلال وعود سرية، ونتيجة التحريضات التي تلقاها الملك من بعض النبلاء في دوقية نورماندي من الذين فقدوا سلطتهم في ظل الحكم الجديد، واشتكوا بحرقة من طغيان الملك الفرنسي عليهم؛ عقد جون مجلساً استشاريا بعد الاحتفال بعيد الفصح عام ١٢٠٥ في مقاطعة نورثهامبتون **Northampton**، فعبر الملك القنال الإنكليزي في نهايته على رأس جيش كبير ومنظم، ولحق بهِ الأسطول الإنكليزي، وعندما نزل على الشاطئ المقابل، وإذا برئيس أساقفة كانتربري، ووليم مارشال قد عادا من رحلة استطلاع في الأملاك الإنكليزية جنوب القنال الإنكليزي، وذهبا إلى الملك في محاولة إقناعه بالتخلى عن تلك الحملة[٢].

هناك واجهت رئيس الأساقفة ووليم مارشال صعوبة في إقناع الملك جون، فقاما بوضع مخاطر كثيرة يمكن أن تنجم عن نزوله إلى الأراضي التي سقطت في أيدي الملك الفرنسي، فأوضحا له قائلين بأن هناك مخاطر كثيرة وأول تلك المخاطر، أنه سيكون من الخطر إنزال القوات الإنكليزية بين الأعداء، دون تأمين قاعدة يمكن الرجوع إليها، لأنه في تلك اللحظة سيكون بإمكان الملك الفرنسي محاصرة الجيش الإنكليزي، ويستطيع غزو البلاد كلها، فضلا عن أنه سيكون من الخطر الاعتماد على سكان مقاطعة بواتو المرائين والمتقلبين الذين اعتادوا دومًا التخطيط للمؤامرات ضد أمرائهم، فضلاً عن ذلك سيكون بإمكان كونت بولونيا مع حلفائه غزو مملكة إنكلترا بسهولة، إذا ما سمع أنها فارغة من قادتها وجيشها، لذا سيكون هناك خوف شديد من خسارة ما بأيدينا من الأراضي ونحن نحاول استرداد ما فقدناه، لاسيما أن ملكنا لم يترك خلفه وريثاً واضحاً للمملكة[٣] يمكنه تسلمها، إذا ما حدث مكروه لملكنا في بلاد ما وراء البحر، ومع أن الملك جون سمع كل تلك الحجج وغيرها، فلم يكن من الممكن إقناعه بالتخلى عن مخططه بالذهاب إلى دوقية نورماندي، مما دفع رئيس الأساقفة والإيرل

---

(1) Achille Lochear, Philippe Auguste et son temps, p. 83.

(2) Radulphi Coggeshalae, Op. Cit., pp.99-100.

(٣) كانت مملكة إنكلترا في ذلك الوقت تفقد الوريث الشرعي للتاج الملكي، حيث أن أسرة الملك جون لم يبق منها على قيد الحياة بعد مقتل آرثرسوى شقيقته إليانور، وقد أخذت أسيرة من قبل الملك يو حنا.

بالإمساك بركبتيه وتعلقا بهما خشية أن يتخلص منهما، وأصرا على أنه إذا لم يصغ لما طرحاه ويأخذ به، فسوف يمنعانه بالقوة، خشية أن تقع المملكة في الفوضى بسبب مغادرته، وفي النهاية نجحا في منعه والتخلى عن مخططه واكتفى بمحاولة استعادة بعض القلاع الصغيرة القريبة من الشاطيء[١].

٢.محاولة الملك جون استرداد بعض أملاكه في فرنسا ١٢٠٦- ١٢١٤.

وجدت دوقية بريتاني نفسها على شفا الانهيار السياسي في مطلع القرن الثالث عشر، غارقة في فراغ قيادي حاد، فمع وفاة كل من الدوقة كونستانس ووريثها الشاب آرثر، وفقدان إليانور شقيقة آرثر والوريثة الشرعية التي أصبحت رهينة في قبضة الملك جون ملك إنكلترا، فباتت الدوقية بلا قيادة شرعية موحدة، فكان جي أف ثوارس، أرمل كونستانس القادم من بواتو، شخصية دخيلة تفتقر إلى الدعم الشعبي والارستقراطي داخل بريتاني، كما كان حليفًا متقلبًا لا يمكن لملك فرنسا الركون إليه، رأى فيليب أوغسطس في تلك الهشاشة السياسية فرصة استراتيجية لا تُعوّض، فلم يعد يطمح فقط لضمان ولاء بريتاني كإقطاعية تابعة، بل أراد أن يفرض نفسه **"ملكًا فعليًا للبريتونيين"**، محولًا جي أف ثوارس إلى مجرد مسؤول تابع لسلطته المباشرة[٢].

ولتنفيذ ذلك المخطط؛ أطلق الملك فيليب أغسطس حملة عسكرية مُحكمة في ربيع عام ١٢٠٦، فانطلق مصطحبًا معه ولي عهده الأمير لويس والسينشال وليم لاروش مع جيش كبير، وعبر بهِ إلى أنجيه وشانتوس، مستهدفًا مصبات نهر اللوار، قلب بريتاني الاستراتيجي، واستطاع الاستيلاء على انجيرس، أما قلعة نانت فلم تنتظر الإغارة عليها واستسلمت، وقامت حاميتها بتسليم مفاتيحها إلى الملك فيليب أغسطس، وعقب استقرار الأوضاع الميدانية، شرع فيليب أغسطس في ترسيخ نفوذه عبر توزيع أراضي الإقليم على كبار قادته، فكانت جرناش **Granache** وبورمل **Ploermel** من نصيب موريس دى كرون، ومُنحت جيورندا **Guéranda** لأندريه دي فيتري **André de Vitre**، في حين آلت منطقتا كورنوال وفان **Vannes** إلى جي أف ثوارس، وقد مثّلت تلك التحركات لحظة تاريخية فارقة، إذ كانت المرة الأولى منذ تأسيس الأسرة المالكة التي يفرض فيها ملك فرنسي سلطته المباشرة ويتصرف كسيادة عليا عند حدود المحيط الأطلسي في بلاد البريتون ، وكان الدليل الأقوى على تلك السيادة الجديدة سك عملات معدنية باسم فيليب أغسطس في المراكز الحضرية الرئيسة نانت **Nantes** ، رين **Rennes** ، وغانغان **Guingamp**، وحملت تلك العملات دلالة سياسية لا لبس فيها، فبينما نُقش على وجهها فيليبوس ريكس (الملك فيليب)، حمل ظهرها لقب دوكس بريتاني (دوق بريتاني)، في إعلان واضح على

Ernest Laviss, Op. Cit., Tome. III, p. 140.

(1)Radulphus Cogshall, "Historia Anglica", Collectio Historicorum Galliae et Franciae, Vol. 17, edidit Michael Bréal, Typographia Regia, Lutetiae, 1818, p. 100.

(2) Achille Lochear, Philippe Auguste et son temps,p84.

دمج السلطتين الملكية والدوقية في شخصه [١].

على الرغم من النجاحات العسكرية والسياسية التي حققها الملك الفرنسي، والتي رسخت تفوقه الواضح على نظيره الإنكليزي، إلا أن ذلك لم يحل دون اندلاع اضطرابات داخلية مناوئة للحكم الفرنسي، وقد تجلى أخطر تلك التحديات في مطلع عام ١٢٠٦، حين قاد الحليف السابق للملك وحاكم بواتو، إيميري دي ثوار، تمرداً واسعاً لم يكن فيه منفرداً، بل حظي بإسناد عسكري من القائد البارزسافاري دي موليون **Safari de Moullion**، فكانت تداعيات ذلك التمرد سريعة ومدمرة، وسرعان ما انتشرت الانتفاضة كالنار في الهشيم في جميع أنحاء بلاد بواتفين **Poitevin** وسان تونج **San Tong**، مهددةً بانهيار كامل للنفوذ الفرنسي في غرب أكيتاين، وفي الوقت نفسه وصل الملك الإنكليزي إلى قلعة لاروشيل، بعدما استعاد جزءًا من مقاطعة بواتييه فتحرك بجيشه من لاروشيل إلى أنجيرس وفرض عليها حصارًا، غير أن الملك الفرنسي بالتعاون مع حليفه وليم لاروش، سرعان ما أحكم قبضته بحصار قوي على انجيرس مما دفع الملك الإنكليزي إلى الانسحاب والتحصن في قلعة ثورس المجاورة لها، فقام الجيش الفرنسي بفرض حصار على تلك القلعة التي قاومت بشدة، غير أن الملك جون أحس بضغط الملك الفرنسي وجيشه الشديد، فقام بإرسال رسل إليه مطالبين بعقد هدنة لمدة عامين[٢]، في مقابل ذلك يقوم الملك الإنكليزي بالإقرار على عدم المطالبة بأية حقوق له تجاه دوقية نورماندي ومناطق ماين وبريتاني ونورناي وأنجو، وهي الأراضي التي تُشكّل بمجملها الجزء الغربي من فرنسا الواقع شمال نهر اللوار، وعقب الموافقة على تلك البنود، تم الاتفاق في السادس والعشرين من تشرين الأول عام ١٢٠٦ على عقد الهدنة ؛ وبذلك بدا الملك جون وكأنه يعترف ضمنياً بشرعية الفتوحات العسكرية للملك فيليب أوغسطس، مما حوّل القوة العسكرية إلى انتصار سياسي وقانوني راسخ [٣].

ويبدو أن الملك جون بعدما نزل جنوب القنال الإنكليزي، وحاول إقامة قواعد تكون له درعاً واقياً إذا ما فكر في استعادة الأملاك الإنكليزية جنوب تلك القناة، وعندما نجح في الاستيلاء على لاروشيل دفعه ذلك إلى التقدم، إلا أنه وقع تحت وطأة حصار شديد فرضه عليه الملك الفرنسي مما دفعه إلى التوقيع على هدنة، وجد فيها فرصة من أجل إعادة النظر في سياسته، وتنظيم قواته، لعله يستطيع يوما ما مواجهة الملك الفرنسي، أما الملك فيليب فلم يكن مضطرا لعقد تلك الهدنة، غير أنه عندما رأى أنها تحقق له ما سعى اليه، فضلا عن أنه

---

(1)Radulphi Coggeshalae, Op. Cit., p. 100.

(٢) لم يكن موقف جون ضعيفاً في الشمال فقط؛ فمن بين حلفاء ملك فرنسا الذين شملتهم الهدنة، كان هناك اسم بارز: ألفونسو الثامن، ملك قشتالة، الذي كان يشن في الوقت نفسه حربه الخاصة ضد جون، حيث تنازع معه على السيطرة على جاسكوني، بل وصلت به الجرأة إلى "حصار بوردو" نفسها، فوجد الملك جون نفسه في وضع مستحيل، **"محاصر في الشمال والجنوب"**، بين عدوين (فيليب وألفونسو) يعملان **"على اتفاق"** وتنسيق مشترك، لم يعد بإمكانه الصمود في القارة، وبمجرد توقيع الهدنة التي ضمنت له الخروج الآمن، **"سارع بالعودة إلى إنكلترا"**، تاركاً وراءه إمبراطوريته القارية تنهار فعلياً.

Achille Lochear, Philippe Auguste et son temps, p85.

(3)Guillaume de Nangis, Op. Cit., p. 393.

وجدها فرصة للتفرغ للقضاء على الثوار في بواتييه لاسيما الأخوين ثوارس جاي **Thuras Jay** وعموري **Amouri** ومحاولا شراء ولاء كثير من البارونات من أجل فرض السيطرة الكاملة على مملكته، وعندما يتحقق ذلك يستطيع التفرغ للقضاء على الملك الإنكليزي[١].

وبدأت تلك الهدنة مع بداية تشرين الثاني ١٢٠٦ ولم يمر سوى سبعة أشهر على عقدها؛ حتى قام الملك فيليب أغسطس بخرقها، عندما قاد جيشه في أيار ١٢٠٧ متجها صوب إقليم اللوار، الذي كان يُعدّ حداً جغرافياً وسياسياً ذا أهمية كبرى، ولم يكن ذلك العبور مجرد مناورة عسكرية، بل كان إعلاناً صريحاً عن نيته في بسط السيادة آل كابيه المباشرة على أراضي بواتو، التي كانت لا تزال تحت نفوذ النبلاء الموالين لآل بلانتاجانت، فاستهدف الهجوم بشكل مباشر ممتلكات ثوارس، وتم له الاستيلاء على قلعة برتناي **Partenai** التابعة للملك الإنكليزي فضلاً عن قلاع أخرى داخل ذلك الإقليم منها ما أخذ عنوة، ومنها ما أخذ بعد حصار وتدمير، فقام على الفور بترتيب الوضع فيها فترك المعدات الحربية وحامية كبيرة من الرجال تحت إمارة حليفة وليم لاروش وعاد إلى عاصمة مملكته[٢].

أما الملك جون فلم يحرك ساكنا تجاه تلك الأحداث التي قام بها الملك الفرنسي، وربما مرجع ذلك دخول الملك في صراع مع البابوية، عندما رفض التصديق بالموافقة على اختيار ستيفن لانجتون **Stephen lengton** (١١٥٠- ١٢٢٨) رئيسا لأساقفة كانتربري، الذي رسم في كنيسة روما في ١٧ حزيران ١٢٠٧ والواضح أن ذلك الأمر أثار البابا ضده، فقام الأخير بتحريض الملك فيليب عدو المملكة على غزوها، فضلا عن تذبذب الوضع السياسي للمملكة في تلك المدة[٣].

ومن الجلي أن مسار العلاقات الفرنسية الإنكليزية كان لصالح الجبهة الفرنسية، ذلك أن الملك جون كان يفتقر إلى الخبرة السياسية، عكس ما كان يتمتع بهِ خصمه من مقدرة سياسية عالية، فنجد أنه في الوقت الذى كان يتعرض للهزائم المتلاحقة من خصمه العنيد الملك فيليب، قام بإثارة الجبهة الداخلية ضده فضلا عن إعلانه العداء مع البابوية، ممثلة في البابا إنوسنت الثالث، فكان الأجدى بهِ أن ينحني أمام ضغط رجال الدين على اعتبار أنهم المحرك الرئيس لحاسية الشعب الإنكليزي، ويوافق على انتخاب ستيفن لانجتون رئيسا لأساقفة كانتربري، ويستجيب لمطالب البابا، غير أنه بدا كأنه أراد لنفسه فشلاً سياسيا فسعى جاهدًا عكس أي ملك انكليزى آخر - في كسب الأعداء-، فنتج عن ذلك خسارته كثير من أملاكه فضلا عن كيانه كملك، ويبدو أن الوضع في المملكتين صار في اتجاه واحد، فظل الملك الفرنسي منشغلاً بمحاولته القضاء على الثورات، فضلا عن دخوله في صراع مع البابوية بخصوص التاج الألماني[٤]، أما الملك الإنكليزي فقد استمر في صراع مع البابوية، وزاد

---

(1)Guillaume de Nangis, Op. Cit., pp. 393-394.

(2)Guillaume Le Breton, Op. Cit., p. 201.

(٣) محمود سعيد عمران، الحملة الصليبية الخامسة، حملة جان دى بريين على مصر ١٢١٨ - ١٢٢١م/ ٦١٥ - ٦١٨ هـ، الإسكندرية، ١٩٨٥، ص ١٢٢.

(٤) كما اتضح سلفًا أن الملك فيليب أغسطس قد تدخل في الصراع حول العرش الألماني منذ عام ١١٩٨ مؤيداً لفيليب دوق سوابيا، واستمر هذا الصراع حتى تأييد البابوية للإمبراطور أوتو الرابع و الذي أعلنه البابا أنوسنت

على ذلك أن خلق لنفسه صراعًا جديدا مع البارونات الإنكليز بسبب سوء معاملته وابتزازه الطبقة النبلاء داخل المملكة، وكل ذلك فرض هدنة لم يكن مرتباً لها، ولم يتم التعهد عليها[١].

شهد شهر أيار من عام ١٢١٠ نهاية الهدنة التي فرضتها الظروف السياسية بين المملكتين، ليدشن الملك فيليب أغسطس مرحلة جديدة من التصعيد العسكري تهدف إلى غزو إنكلترا، وهو القرار الذي تبلور رسمياً خلال اجتماعه ببارونات والأساقفة في مدينة سواسون، حيث تعهد الجميع بدعم تلك الحملة، ولم تكن فكرة الإنزال العسكري في الأراضي الإنكليزية مجرد نزوة عابرة أو وليدة اللحظة، بل كانت طموحاً استراتيجياً متجذراً لدى الملك الفرنسي منذ بدايات صراعه مع خصمه اللدود ريتشارد، إلا أن ذلك الطموح اكتسب زخماً واقعياً وقابلة للتنفيذ عقب الانتصارات الحاسمة في نورماندي وبريتاني؛ إذ لم تؤدِ تلك الفتوحات إلى توسيع نفوذ التاج الفرنسي فحسب، بل وفرت أيضاً قواعد انطلاق بحرية حيوية كانت ضرورية لأي عملية غزو مستقبلية [٢]، وفي سياق ذلك التحول التاريخي، يُضفي مؤرخ فرنسي من منطقة أرتوا بعداً درامياً وإنسانياً على لحظة اتخاذ القرار، واصفاً كيف سيطرت الفكرة على كيان الملك؛ فبينما كان فيليب أغسطس منشغلاً بالتخطيط لتلك الحملة نهاراً، تجسدت له الرؤيا الحاسمة ليلاً، **"حدث أن الملك فيليب**

في عام ١٢٠١ بمقتضى هذا التأييد أصبح البابا هو حامى الإمبراطور مستخدمًا قوة ونفوذ البابوية في الغرب الأوروبي، إلا أن هذا التأييد وضع فيليب دوق سوابيا وأنصاره تحت طائلة الحرمان الكنسي غير أنهم استعدوا لخوض غمار الحرب. أما موقف الملك الفرنسي فلم يوافق على الاعتراف بأوتو إمبراطورا على العرش الألماني نظراً للصلة التي تربطه بالتاج الإنكليزي؛ وهذا من شأنه وقوع أملاكه بين عدوين كبيرين، مما يضر بمصالحه، فلهذا أرسل رسولاً من قبله يدعى نولفين Nolevin أسقف سواسون ليتقابل مع فيليب دوق سوابيا في مقاطعة ورمز Worms ، وفي هذا اللقاء تم الاتفاق على معاهدة تعاهد فيها الطرفان على محاربة أعدائهما وهما الملك جون والإمبراطور أوتو الرابع وكونت فلاندرز، ورئيس أساقفة كولونيا المتحمس لحزب الجلفيين وقام الملك الفرنسي بإرسال خطاب إلى البابا يطلب منه استبعاد ترشيح أوتو عدو المملكة، وعدّ نفسه شاهدًا على المشاعر الطيبة التي يحملها دوق سوابيا للبلاط البابوي في روما إلا أن قرار البابا جاء مخيبا لأمال الملك فيليب. لذلك ما لبث أن بدأ بشكواه مهددًا بأنه وقع عليه ظلم من شخص البابا نفسه يقصد بذلك قضية زواجه من انجبورج وتحملت دون أن أتفوه بأي كلمة. لكن تحيزكم الواضح تجاه أوتو كان غرضه تجاهل التاج الفرنسي والإضرار بمصالحه بصورة كبيرة وهذا مالا أستطيع غفرانه مطلقا، وإذا ما صممتم على قراركم، فسنكون مجبرين على التصرف وفقا للزمان والمكان وسندافع من أجل حقوقنا. ورد البابا برسالة سريعة: **"كيف لنا أن نغفل حق مملكة فرنسا وهي الأقرب إلى قلوبنا، إلا أن اختيارنا لأوتو لم يكن عن رغبة منا، وإنما هي رغبة الأمراء ولا نملك سوى الموافقة عليها، أما الدوق فيليب فلم يكن سوى سليل أسرة خلقت لنفسها عداء مع الكنيسة الرومانية، فالنصيحة أن تعقد تحالفا مع الإمبراطور الألماني، ودعك من هذا المدعو فيليب ولا تثق في نسل الهو هنشتاوفن ولا تحاول إثارة النمور"**، واستمر الوضع على ما هو عليه حتى مقتل فيليب دوق سوابيا في ٥ حزيران ١٢٠٨ في مدينة بامبرى Bambery. فقام الملك فيليب أغسطس بمساندة المرشح هنرى دوق أف برابنت Henry douk of Brabant، وقدم له إعانة مالية. ولم ينته هذا لصالح الملك الفرنسي، مما دفعه للدخول في صراع مباشر مع الإمبراطور أوتو. يراجع لمزيد من التفاصيل:

Achille Lochear, Philippe Auguste et son temps,pp. 91-94; Guillaume Le Breton, Op. Cit., pp.229-235.

ويراجع عن الخطابات المتبادلة بين البابا والملك فيليب:

Bouquet Martin Op. Cit., p. 407; Bouquet Martin, Op. Cit., pp. 408-412 .

(1) Roger of Wendover, Op. Cit., Vol. II, pp. 257-258; Warren, W. L., King John, London, 1978, pp. 161-165.

(2)Achille Lochear, Philippe Auguste et son temps, p95.

ملك فرنسا كان نائماً ذات ليلة في فراشه، وفجأةً، كما لو كان تحت تأثير انفعال جارف، قفز من سريره ووثب على الأرض وهو يصيح: 'يا إلهي! ما الذي أنتظر لأذهب وأغزو إنكلترا'"، مما أثار دهشة الحُجّاب والمرافقين، غير أن هيبة الملك ألجمت ألسنتهم، وسرعان ما تحول ذلك**"الحلم الليلي"** إلى أوامر تنفيذية صارمة، حيث استدعى الملك دائرته المقربة ومجلسه الحربي، وعلى رأسهم الأخ غيران Brother Guérin الإسبتاري عضو في تنظيم فرسان المستشفى ومستشاره الأول، والعقل المدبر لسياساته، وبارتيليمي دي روي Barthélemy de Roye أحد أخلص فرسانه وقادته الميدانيين، وهنري كليمنت **Henry Clement** (١١٧٠ – ١٢١٤)، مارشال فرنسا، المسؤول الأعلى عن تنظيم الجيش، كانت الأوامر التي صدرت لهم قاطعة ومحددة، وتكشف عن حجم الاستعدادات المطلوبة، إرسال المراسيم إلى جميع موانئ المملكة الفرنسية؛ الاحتفاظ بجميع السفن التجارية وسفن الصيد المتاحة وتجهيزها للحرب؛ إطلاق ورش عمل ضخمة لبناء سفن جديدة بكميات كبيرة[١]، حيث كان الهدف واضحاً لا لبس فيه، كما أعلنه الملك بنفسه: **"لقد عقدت العزم على الذهاب إلى إنكلترا وغزو المملكة هناك"**، إذ حول فيليب أوغسطس حلماً ليلياً إلى آلة حرب لوجستية هائلة، مدفوعاً بمزيج من الطموح الشخصي والحسابات الاستراتيجية الدقيق [٢]، وفي ذلك السياق المشحون، وصل أحد أبرز وأقوى نبلاء حاشية جون، روبرت فيتزغوتييه (**Robert FitzWalter**)، إلى البلاط الفرنسي، وكان قد تعرض لاضطهادات من قبل الملك جون، مما أدى إلى نفيه من إنكلترا، ففر إلى البلاط الفرنسي، لم يكن استقبال فيليب أغسطس له عادياً، بل كان استجواباً دقيقاً؛ حيّاه الملك بحرارة، مستفسراً ببراعة عن الحاجة التي قادته إلى فرنسا، جاء رد فيتزغوتييه ليمثل شهادة حية على طبيعة حكم الملك جون الاستبدادية، حيث لخص قضيته كحاجة ماسة، موضحاً أن الملك جون طرده وصادر جميع أراضيه، وعندما ضغط فيليب لمعرفة السبب المباشر، كشف فيتزغوتييه عن مظلمة تمس الشرف والأسرة، والتي غالباً ما كانت المحرك لمثل تلك الصراعات:**"لقد أراد أن يأخذ ابنتي التي تزوجها جيفري من ماندفيل، ولأنني لم أتحمله، دمرني"**، لم تكن تلك مجرد شكوى شخصية، بل كانت ترمز إلى نمط أوسع من تجاوزات جون ضد حقوق البارونات الإقطاعية، أنهى فيتزغوتييه حديثه بمناشدة مباشرة:**"أدعوك، بالله عليك، أن ترحمني، كما ترحم رجلاً حُرم ظلماً من ميراثه"**[٣].

وجد فيليب أوغسطس في قصة فيتزغوتييه الذريعة المثالية واللحظة الحاسمة التي كان ينتظرها، لقد رأى في ذلك النبيل المنفي ليس مجرد لاجئ، بل مفتاحاً لشرعنة تدخله العسكري، حيث كان تعليق فيليب**"بحق القديس يعقوب، لقد أصابك هذا البلاء في الوقت المناسب"**، كشف فيليب عن خطته التي كانت قيد الإعداد لغزو إنكلترا، مقدماً لوصول فيتزغوتييه غطاءً إضافياً، لم يعد الغزو مجرد صراع ملكي، بل أصبح، ظاهرياً على الأقل،

---

(1)Achille Lochear, Philippe Auguste et son temps, p. 95.
(2)Ibid, p. 95.
(3) Ibid, p. 97.

حملة لاستعادة "الحقوق المسلوبة" للنبلاء الإنكليز، ووعده بالتعويض خيرًا إذا ما نجحت الحملة[١].

أظهر فيتزغوتييه، مدفوعاً بالرغبة في الانتقام واستعادة أراضيه، حماسة تكتيكية، مقترحاً أن يقود قوة طليعية مكونة من ٤٠٠ إلى ٥٠٠ فارس، زعم أنه قادر على اختراق دفاعات جون وتأمين رأس جسر لمدة شهر، معتمداً على نسبه (أي شبكة علاقاته الأسرية والتحالفات البارونية الداخلية) لضمان الدعم، لكن فيليب الذي كان قائداً عسكرياً حذراً وسياسياً لا يثق بسهولة، رفض العرض بشكل قاطع: **"بحق القديس دوني، لن يعبر أحدٌ من فرساني هناك قبلي"**، كان ذلك القرار يعكس رغبة فيليب في السيطرة المطلقة على الحملة؛ لم يكن مستعداً للسماح لغزوه بالتحول إلى مجرد دعم لتمرد باروني قد لا يمكن السيطرة عليه لاحقاً؛ فامتثل فيتز-غوتييه منتظراً العبور مع الجيش الفرنسي[٢].

قاد الملك فيليب أغسطس جيشه في ٨ أيار ١٢١٠ متوجهاً صوب الأملاك الإنكليزية وأرسل أسطوله عبر الساحل، فتم له بسهولة الاستيلاء على قلاع كاسيل **Cassel**[٣] وابرس **Press** وبروج **Bruges**[٤] وضرب حصارًا على قلعة جاند **Gand** التي تقع على الساحل الشمالي الغربي لدوقية فلاندرز، بينما استقر أسطوله عند دام **Dam**، ولم يجد الملك الفرنسي صعوبة في الاستيلاء على تلك القلاع، وحتى إذا ما أراد الاستيلاء على فلاندرز لم يستغرق الامر معه إلا أياماً قليلة، مما أدى إلى تراجع كونت فلاندرز فيران **Feiran** ودفعه لعقد مقابلة مع الملك الفرنسي في قلعة إبرس، وطلب منه الصفح، وأجابه الملك الفرنسي لطلبه بعد أن نفذ كل ما طلبه منه، وبينما هم كذلك تعرض الأسطول الفرنسي للتدمير في دام من لدن الملك الإنكليزي[٥]،مما دفع الملك لإنهاء اجتماعه بالكونت والتحول فوراً نحو بولونيا لتأديب الكونت رينو أف دامارتين **Renault of Dammartin**، الذي غدر بهِ وباع ولاءه للإنكليز مقابل إقطاعات مالية، فكان قرار طرده في ٨ أيار ١٢١٠ تمهيداً لجعل بولونيا نقطة تجمع لما تبقى من القوات تمهيداً لغزو إنكلترا في الثاني والعشرين من أيار مستغلاً في ذلك ذروة الصراع بين التاج الإنكليزي والبابوية ، ومع اقتراب ساعة الصفر، تلاشت خطط الغزو حينما وردت أنباء عن تسوية وشيكة بين إنكلترا والكرسي الرسولي، مما اضطر فيليب أغسطس لإلغاء حملته [٦]، وتغيير استراتيجيته نحو استرضاء البابوية، مستفيداً من فجوة الخلاف التي نشبت بين البابا والإمبراطور أوتو، وفي خطوة سياسية

---

(1)Achille Lochear, Philippe Auguste et son temps, p. 97.

(2)Ibid, p. 97.

(٣) كاسيل: مدينة ألمانية تقع على نهر فولدا Fulda. تبعد مائة وثمانية وأربعين كيلو متراً إلى الشمال والشمال الشرقي من مدينة فرانكفورت.

Moore, W.G., Op. Cit., p. 409.

(٤) بروج: عاصمة الإقليم الغربي من دوقية فلاندرز، تبعد أربعين كيلو متراً إلى الغرب والشمال الغربي من مدينة جنت Ghent.

Moore, W.G., Op. Cit., p. 128.

(5)Guillaume Le Breton, Op. Cit.,pp. 87-89.

(6) Guillaume de Nangis, Op. Cit., p. 400; Roger of Wendover, Op. Cit., Vol. II, p. 256.

بارعة لترسيخ ذلك التقارب، أعلن الملك عودته إلى زوجته إنجبورج عام ١٢١٣، وإعادة تتويجها ملكة، وهي المبادرة التي لم تحقق له الرضا البابوي فحسب، بل مهدت الطريق لتحالف استراتيجي مع ملك الدنمارك، مما عزز موقفه في الصراع المستمر ضد المملكة الإنكليزية[١].

وكان من قبل وتحديدا في ١٩ تشرين الثاني ١٢١٢ قد نجح في عقد لقاء بين ابنه الأمير لويس وفردريك الثاني **Frederick II**(١١٩٤- ١٢٥٠) بعدما وصل الأخير إلى اللورين، وعقدت معاهدة صداقة أطلق فيها على فردريك الإمبراطور المنتخب ذو المجد الدائم، وأطلق على ملك فرنسا شقيقي العزيز الملك فيليب، وفيها تعهد فردريك أن لا يعقد سلامًا مع الإمبراطور أوتو أو الملك جون عدوي الملك الفرنسي دون موافقته، وتم انتخاب فردريك في وجود رسل الملك الذي اعترف بهِ في ٥ كانون الأول ١٢١٢[٢]، ذلك حال مملكة فرنسا حتى بدايات عام ١٢١٣ قبل الموقعة الحاسمة بوفين **Bouvines**.

أما مملكة إنكلترا فبات قلب مليكها مضطربًا، لأنه كما قيل بات بلا سلطة، لاسيما بعد أن اجتمع بارونات المملكة من أجل التآمر ضده، وانتشرت في كثير من المناطق حكايات تحدثت عن رسائل تحرر البارونات من طاعة الملك جون، وقيل بوجوب انتخاب ملك آخر، وطرد الملك جون من المملكة، وعن ذلك ظهرت نبوءات أكدت ذلك، وكان أشهرها نبوءة بطرس أوف وكفيلد **Peter of Wakefield**، الذي بشّر بأن حكم الملك جون لن يستمر أبعد من عيد الصعود المقبل ١٢١٣ مدعياً أن مدة حكمه لن تتجاوز أربعة عشر عامًا، وقد أثارت تلك النبوءة مخاوف الملك واستيائه، ليأمر على اثرها باعتقال بطرس وإعدامه على اعتبار أنه مجنون، في خطوة عكست بوضوح حجم التردي السياسي والمؤسسي الذي بلغته البلاد، ولم ينته الأمر عند ذلك الحد؛ إذ زاد الشقاق بين الملك ورؤساء الأساقفة الذين تم نفيهم إلى مملكة فرنسا، وبعثوا شكواهم إلى البابا باسم الكنيسة الإنكليزية، فما كان منه إلا أن تجاوب معهم، وقرر وضع حد لشرور الملك الإنكليزي، فكتب إلى ملك فرنسا وكل الأمراء،

---

[١] شهد مطلع القرن الثالث عشر تلاقي المصالح بين البابا إينوسنت الثالث والملك الفرنسي فيليب أوغسطس، حيث استغل الملك دعوة البابا لشن حملة عسكرية ضد إنكلترا كفرصة ذهبية لتحقيق أطماعه التوسعية. استجاب فيليب بحماس للنداء البابوي، حاشداً قواته البحرية والبرية وكبار نبلائه في "بولونيا" استعداداً لغزو الأراضي الإنكليزية. وفي خضم تلك التحضيرات العسكرية، فاجأ الملك الفرنسي الجميع بقرار سياسي حاسم؛ إذ أعلن رسمياً تراجعه عن موقفه المتعنت تجاه زوجته المنبوذة، إنجبورج أميرة الدنمارك. وتعهد أمام الملأ باستعادتها كزوجة شرعية وملكة لفرنسا، واعداً بمصالحة صادقة تعيد إليها كامل حقوقها المسلوبة، في خطوة لم تكن مجرد مسرحية سياسية عابرة كتلك التي شهدتها مدينة "سواسون" قبل اثني عشر عاماً، بل كانت بداية لطيّ صفحة الخلاف بشكل نهائي، حيث حافظ الملك بالفعل على علاقة طيبة معها طوال ما تبقى من حياته. لذا، كان الرضوخ لمطلب البابا المزمن باستعادة إنجبورج هو المفتاح لكسر عزلته، حيث ضمن له ذلك الرضا البابوي اللازم لتشريع طموحه في الاستيلاء على العرش الإنكليزي، كما ساهم في توحيد الجبهة الداخلية بفضل تعاطف الشعب مع الملكة، وربما ساعد في تحييد القوة الدنماركية. وبذلك، خرجت إنجبورج من عزلة السجون والأديرة لتقضي سنواتها الأخيرة في سلام داخل البلاط الملكي، مكرسة حياتها للعبادة وأعمال الخير حتى وفاتها . يراجع :

Hercules Gerod, Ingeborg de Danemark, reine de France 1193-1236, Bibliothèque de l'École des cartes, Paris, 1845, pp. 114-117.

[2]Guillaume Le Breton, Op. Cit.,pp. 83-85; Guillaume de Nangis, Op. Cit., pp. 397-398, 400.

بأنه إذا ما لم يستسلم ملك إنكلترا؛ فعليهم القيام بتحرير إنكلترا من حكمه بجيش قوي، ولم يعد هناك أدنى حاجة لرجاءات مطولة وأعذار وانذارات، لأن الملك فيليب والأمراء كانوا ميالين لذلك النهج من العمل منذ زمن طويل[١].

ما لبث الملك الفرنسي أن أعلن الحرب على الملك الإنكليزي بناء على رغبة البابوية التي تفاقم الصراع بينها وبين الملك جون، وبدأت الجموع تأتي للملك الفرنسي الذي استغل تلك الإشارة التي حصل عليها من البابوية وأعطته الفرصة لتنفيذ قرار العزل فكانت حماسته شديدة، وبلغت ثقته في النجاح مداها، لذلك عقد مجمعا في مدينة سواسون في ٨ نيسان ١٢١٣ تم فيه وضع تصوّر للخطة المستقبلية من أجل تنفيذ قرار البابوية وإعلان تتويج الأمير لويس بن الملك فيليب ملكاً على إنكلترا[٢]، ولم يكتفِ فيليب بالتخطيط العسكري، بل حرص بحنكته المعهودة على تحصين جبهته الداخلية وضمان تبعية ولده؛ ففرض على لويس قسماً صارماً أمام النبلاء يلزمه بالاكتفاء بالعرش الإنكليزي دون المطالبة بأي حق في فرنسا أثناء حياة والده، مع اشتراط أن تؤول غنائم الحرب بما في ذلك شخص الملك جون وثرواته في حال أسره إلى تصرف فيليب المطلق، مما يعني معادلة سياسية واضحة، يقود الابن العمليات العسكرية ويرتدي التاج، بينما يحتفظ الأب بالسلطة الفعلية والمكاسب المادية[٣].

وعلى الصعيد الميداني، حشد الملك الفرنسي أسطولاً ضخماً قوامه ١٥٠٠ سفينة وجيشاً يضم خمسة عشر ألف مقاتل، مما استدعى استنفاراً مقابلاً من الجانب الإنكليزي؛ حيث جمع الملك جون أسطوله تحت قيادة وليم مالسبري **William Malsbury**، ولجأ إلى تحرير الأقنان وتسليحهم للدفاع عن المملكة، متمركزاً قرب قلعة دوفر، وعلى الرغم من ذلك التحشيدات، دبّ الرعب في نفوس الإنكليز أمام سطوة الجيش الفرنسي وحلفائه، حتى قيل إن شجاعتهم تبخرت بفعل الخوف، ومن المفارقات التاريخية التي يشير إليها الباحثون، أن البابا إينوسنت الثالث لم يكن يهدف فعلياً لتمكين فيليب من ضم إنكلترا خشية توحيد المملكتين وتعاظم النفوذ الفرنسي على حساب الكنيسة، بل أراد استخدام الحشود الفرنسية كأداة ضغط نفسي لإخضاع الملك جون لسلطة البابوية، وهو ما يفسر إرساله مبعوثه الخاص نيكولاس أسقف تسكاليوم **Nicholas of Tusculom** لإبلاغ الملك الإنكليزي بقرب الغزو لزيادة حدة الترهيب [٤].

وفيما كان الملك جون يقيم في قلعة دوفر بجيشه استعداداً لمواجهة الجيش الفرنسي وحلفائه؛ جاء ما غيّر من مسير الأحداث كثيراً، وهو وصول رسل الملك جون الموفدين إلى البابا، ومعهم مندوب البابا باندولف **Pandulph** في ١٥ أيار ١٢١٣، وفي اليوم التالي عقد

---

[١] سهيل زكار، المصدر السابق، ج٣٠، ص ٣٢٧؛ نورمان أن كانتور، التاريخ الوسيط ، قصة حضارة البداية والنهاية ، ترجمة: قاسم عبده قاسم ،ج٢، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، القاهرة ، ١٩٩٧ ، ص ٢٦٦ - ٢٦٧.

[2] Achille Lochear, Philippe Auguste et son temps,p. 98.

[٣] سهيل زكار، تواريخ أسرة بلانتغنت ، ج٣٠، ص ٣٣٠.

[٤] زينب عبد المجيد، المصدر السابق، ص ٧٣.

لقاء بين الملك ومبعوث البابا أعلن فيه الأخير أن على الملك أن يحدد أربعة من أكثر الرجال أهمية في المملكة، ليقسموا نيابة عنه في حضوره، وذلك قبل الأول من حزيران من العام نفسه، على أنه إذا ما قام البابا بإرسال رسالة اتفاق موقعة منه إلى الملك، يرد الملك بالشيء نفسه في رسائله، وعلى الملك أن ينهى صراعه مع الأساقفة ورؤسائهم، ويبرم معهم سلاماً دائماً، وإلا فإن زمن أقصى العقوبات وأشدّها لم يأت بعد، فلم يتردد الملك جون في القبول، وعلى الفور تم اختيار أربعة رجال من أجل القسم المشار إليه، وهم رينو كونت أف بولون، **Renault Count Ave Bolognese** ووليم إيرل وارنى **William Earl Warney**، ووليم إيرل فيرير **William Earl Ferrer**، ووليم إيرل سالسبري **William Earl Salisbury**، وعندما تم التوقيع على الاتفاق؛ قام الملك بمبادرة منه بالإعلان عن أنه ينبغي خضوع مملكته كلها أي إنكلترا وإيرلندا للرب وللحواريين المقدسين بطرس وبولس وعن رغبة منه وطواعية من أجل أن يتم الاتفاق، وأن يدفع هو وورثته ألف مارك سنويا إلى البابوات كرمز لخضوعهم موزعة كالتالى: سبعمائة مارك عن مملكة إنكلترا، وثلاثمائة عن أيرلندا، وأقسم في الوقت نفسه يمين الولاء والتبعية للبابا إنوسنت الثالث وخلفائه من بعده وتم الإعلان عن ذلك كله أمام الشعب على شكل رسائل معتمدة نشرت على صورة مواثيق، الامر الذي يوضح أن ذلك التصرف من الملك جون زاد من هيبة البابوية، وأضاع على الملك الفرنسي فرصة القيام بعمل عسكري ضد إنكلترا لتحقيق أطماعه[١].

بدأت الأمور تتحسن على أثر خضوع الملك جون، إذ أخذ يُعدل في ميزان العلاقات الفرنسية الإنكليزية الذي صار في صالحه، بعد أن أصبح حليفًا للبابوية، فقام بالتوقيع على معاهدة ثلاثية مع الإمبراطور الألماني أوتو الرابع و فيران كونت فلاندرز، هدفها القضاء على الملك الفرنسي الذي قام في الوقت نفسه بتوجيه أسطوله إلى ميناء دام للقضاء على قوة كونت فلاندرز الذي ما لبث أن طلب مساعدة وليم أف سالسبري **William F. Salisbury** قائد الأسطول الإنكليزي، ورينو كونت بولونيا حليفه، واستطاع الأسطول الإنكليزي إحراق أربعمائة سفينة فرنسية، وأغرق كثيرا من بحارتها، وعندما علم الملك الفرنسي استشاط غضبا بذلك، وخرج من قلعة جاند مسرعاً، وكان قد استولى عليها في صراعه مع كونت فلاندرز، وانقض على المهاجمين في دام وقتل عدداً كبيراً منهم وأسر الكثير، مما دفع كونت فلاندرز إلى الهرب مع رينودي بولونيا، وإكمالاً لانتقامه عمد الملك الفرنسي في الثلاثين من أيار عام ١٢١٣ إلى اتباع سياسة الأرض المحروقة، فأضرم النيران في قلعة دام والسفن التي لم يتمكن من الاحتفاظ بها، قبل أن يعود أدراجه إلى باريس[٢].

---

(1) Roger of Wendover, Op. Cit., Vol II, pp. 264-71; Allan, H., Op. Cit., p. 266.

(2) Anonyme (Moines du monastère de Mortimer), « Histoire du monastère de Mortimer (1113-1235 ap. J.-C.) », Collection des historiens de Gaule et de France (R.H.G.F),

وفي قراءة تحليلية لدوافع فيليب أغسطس لتدمير ما تبقى من أصوله البحرية، يقدم المؤرخ وليم البريتوني تفسيراً يستند إلى خطاب وجهه الملك لمستشاريه، يكشف عن مزيج من الواقعية السياسية والضرورة العسكرية؛ فقد انتفت الذريعة الدينية والسياسية لغزو إنكلترا بعد مصالحة الملك جون مع الكنيسة وتعويضه لرجال الدين، وأمام ذلك الواقع، تحول الاحتفاظ بالأسطول إلى عبء لوجستي باهظ التكلفة، لا سيما في ظل السيادة البحرية الإنكليزية وافتقار البحارة الفرنسيين للخبرة، مما جعل السفن المتبقية صيداً سهلاً وعرضة للتدمير، وبناءً على ذلك، أعاد فيليب صياغة استراتيجيته متخلياً عن طموح غزو إنكلترا، ليُركز مجهوده الحربي نحو هدف أكثر واقعية وقابلية للتحقيق وهو إخضاع فلاندرز، وقد تم تأطيرذلك الانسحاب التكتيكي بخطاب انتقامي ضد الكونت فيران، مع السعي لتحقيق مكاسب مادية ضخمة تمثلت في فدية قُدرت بـ ١٢٠ ألف مارك فضة من مدينتي بروج وإيبريس، ليحول بذلك الهزيمة البحرية إلى مكسب استراتيجي ومالي على الجبهة البرية[١].

شهدت عام ١٢١٣ انقسام الغرب الأوروبي إلى معسكرين متحاربين، ضم الأول منهما الملك الفرنسي فيليب أغسطس، والإمبراطور فردريك المتنازع على العرش الألماني، فضلا عن العديد من كبار الإقطاعيين المؤيدين للملك الفرنسي، أما الثاني فضم الملك الإنكليزي، والإمبراطور الألماني أوتو وكونت فلاندرز وكونت بولونيا، فضلا عن العديد من الكونتات المعارضين السياسة الملك الفرنسي في الأراضي المنخفضة والحوض الأدنى والأوسط لنهر الراين، وكان انتصار أحد المعسكرين في الجولة القادمة يعني أشياء كثيرة في سير العلاقات بينهما، فبالنسبة للمعسكر الأول فيعني تأمين سيطرة الملك الفرنسي على إقليم نورماندي ومستقبل مشرق للطموحات الملكية لأسرته، وبالنسبة لفردريك فالنصر يعنى أنه سيحكم عندئذ ألمانيا كإمبراطور روماني مقدس، أما إذا ما خسرها فعليه أن يقنع نفسه بأملاكه في صقلية، أما المعسكر الثاني فكان النصر للملك جون يعنى استرداد كل الدوقيات التي خرجت من تحت سلطته، وبالنسبة للإمبراطور الألماني فالنصر يعني أنه سيكون آمناً على عرشه في ألمانيا، أما إذا ما خسرها فذلك يعنى النسيان، أما بالنسبة للكونتات فالنصر يعنى تأمين سلطتهم على أملاكهم والعكس إذا ما خسروا تلك الحرب[١].

لم تكن الآمال قريبة لدى الطرفين في القضاء على الآخر، لذا سعى كل منهما إلى التخطيط لذلك جيداً، من أجل ذلك قام الملك جون في أواخر تموز من عام ١٢١٣ بإرسال وفد إلى الإمبراطور الألماني من أجل إعداد خطة حربية، لتنظيم تحركات الجيوش، هدفت إلى وضع الملك الفرنسي بين شقى الرحي، بأن يقوموا جميعاً بغزو مملكة فرنسا في وقت واحد بحيث يقوم الإمبراطور ومن معه من الحلفاء الفلمنكيين بغزو فرنسا من الشمال، في الوقت الذى يقوم فيه كونت فلاندرز وجيشه بغزو فرنسا من عند موقع دوقيته من الشمال

édité par Michel Jean Joseph Bréal, Volume 18, Royal Press, Paris, 1822, p.355; Roger of Wendover, Op. Cit., Vol. II, pp. 271-272; .

[1]Hutton, H.W., Philip Augustus, London, 1896, pp. 106-107.

الغربي على أن يتقابل مع جيش الملك جون القادم من الجنوب الغربي من بواتيه وأنجو واكيتاين وبذلك يستطيع جيش الحلفاء القضاء على قوة الملك الفرنسى، وتنفيذا لتلك المخطط، بدأ الملك الإنكليزي بالهجوم من خلال منطقة اللوار متجها صوب العاصمة الفرنسية، من أجل إعادة السيادة الإنكليزية على تلك المنطقة، في حين كان الملك الفرنسي يسيطر سيطرة كاملة على تلك المنطقة من خلال قلعتى لوشي وشينون، مما سهل مهمة تابعى الملك الفرنسي، وليم لاروش و عمورى دى كراون **Amori De Crown**، اللذين قاما بالدفاع عن قلاع تورين، وماين، وأنجو، في الوقت الذى قام فيه الملك الفرنسي بتأمين الطريق المؤدى إلى باريس، وحماية مدينة انجيرس ببناء قلعة لاروش - أو - موان - **La Roche - aux Moines** على الضفة اليمنى لنهر اللوار، واستمرت المناوشات خلال شتاء عامي ١٢١٣- ١٢١٤ دون معارك واسعة النطاق[٢].

٣. الصراع الفرنسي الإنكليزي من معركة بوفين ١٢١٤ حتى معاهدة لامبيث ١٢١٧.

تُعد الفترة الممتدة بين عامي ١٢١٤ و١٢١٧ مرحلة حاسمة غيّرت موازين القوى في أوروبا إثر بلوغ الصراع بين التاجين الفرنسي والإنكليزي ذروته، فقد تركزت مساعي الملك الفرنسي فيليب أغسطس على إنهاء نفوذ أسرة البلانتاجنت واستعادة المقاطعات الفرنسية الكبرى، مما دفع الملك الإنكليزي جون إلى الرد بتشكيل تحالف أوروبي قوي ضم الإمبراطور الروماني أوتو الرابع وأمراء آخرين، واعتمد ذلك التحالف استراتيجية عسكرية تقوم على هجوم مزدوج (فكي كماشة) لضرب فرنسا وتشتيت جيشها من الجنوب الغربي والشمال في آنٍ واحد، إلا أن تلك المواجهات العسكرية المصيرية، وما تبعها من محاولات تدخل في الشأن الإنكليزي، أدت في النهاية إلى إعادة رسم الخارطة السياسية للمنطقة، وتُوجت بإنهاء الصراع عبر توقيع معاهدة لامبيث عام ١٢١٧.

أ. انتصارالأمير لويس بن فيليب على الملك جون في لاروش أوموان ١٢١٤ .

بينما كان الأمير لويس يأخذ قسطاً من الراحة في باريس في أوائل شباط من عام ١٢١٤، بعيداً عن ضوضاء الحملات العسكرية، وصلته الأنباء التي ستغير مسار التاريخ الفرنسي، وهي نزول الملك الإنكليزي جون في ميناء لاروشيل في الخامس عشر من الشهر ذاته، مدعوماً بجيش كبيراً تَشكّل قوامه الأساس من المرتزقة[٣]، اذ كانت لاروشيل بوابة رئيسة لمقاطعة اكيتاين، المعقل التقليدي لسلطة البلانتاجنت في الجنوب الغربي، والتي ظلت إلى حد كبير موالية له، وفور وصوله حول جون المدينة إلى مركز قيادة متقدم، ومن تلك القاعدة، أطلق حملة خاطفة ومكثفة، محاولاً استعادة بواتييه وأنجو وليموزين لجمع كثير من

---

(1) Jalliffier, R. & Vast, H., Histoire de L'Europe et Particuliément de la France De 395 å 1270, Paris, 1898, pp. 614-615; Dutaillis, P., Op. Cit., pp. 224-225.

(2)Guillaume Le Breton, Op. Cit., p.92; Ernest Lavisse, Op. Cit., Tome. III, p. 178.

(٣) اختفى الجيش الإقطاعي أوست Ost في عهد الملك جون، وهو الجيش الذي يستوجب فيه على الأتباع الخدمة العسكرية حيال أميرهم للدفاع عن البلد، فضلا عن اختفاء جيش الفيرد Alfred وهو الجيش الموكل له الدفاع عن الكونتية، وخدمة الفيرد لا يمكن أن تطلب إلا في حدود الكونتية وللدفاع عنها، وكل هذا كان نتيجة سياسة الملك

الأتباع[١]، غير أن الملك الفرنسي لم يترك نظيره الإنكليزي يواصل رحلته في إقليم اللوار[٢].

استجاب الملك فيليب أغسطس وولده لويس لذلك التحدي بحزم، حيث استدعيا كافة المدينين لهما بالخدمة العسكرية، وبدأت القوات بالتحرك جنوباً نحو الغرب لمواجهة الغزو الإنكليزي، وفي خضم ذلك التحرك؛ نزلت الأخبار الكارثية كالصاعقة، إذ كان الشق الآخر من التحالف المعادي المكون من الإمبراطور أوتو، والكونت فيران، والكونت رينو كان يحشد جيوشه الجرارة في الشمال، فوجدت فرنسا نفسها فجأة محاصرة بين فكي كماشة، مهددة بالسحق التام من الجنوب والشمال في آنٍ واحد[٣]، في تلك اللحظة الحرجة برزت ميزة استراتيجية لفيليب لم يمتلكها خصومه، تمثلت بوجود وريث راشد ومؤهل عسكرياً، فاتخذ فيليب قراراً مصيرياً بتقسيم الجيش الفرنسي، فتولى هو قيادة القوات المتجهة شمالاً لصد الإمبراطور وحلفائه، بينما أوكل لابنه لويس مهمة قيادة الجبهة الجنوبية ضد الملك جون[٤]، وقد اتسم ذلك التقسيم بطابعٍ جيلي لافت ؛ فقد اصطحب لويس معه رفاقه من جيل الشباب، بينما سار الآباء وكبار القادة، مثل كونت درو وكونت سانت بول، تحت راية الملك الأب فيليب، ولضمان التوازن بين حماس الشباب والخبرة العسكرية، كان إلى جانب لويس مرشد حكيم، هو المارشال هنري كليمنت، الذي أشرف على تدريب الأمير منذ نعومة أظفاره، ليكون له عوناً في إدارة المعارك[٥].

وعلى الجبهة الأخرى، كان الملك جون يمارس دهاءه السياسي لتعزيز موقفه، فنجح في عقد تحالف خطير مع هيو التاسع دي لوزينيان، أحد أقوى نبلاء بواتو، وكانت المفارقة تكمن في أن هيو كان عدواً لدوداً لجون لسنوات، والسبب يعود لزواج جون من إيزابيل أنجوليم التي كانت خطيبة هيو سابقاً، ولإصلاح ذلك الشرخ التاريخي وكسب ولاء آل لوزينيان؛ لجأ جون إلى دبلوماسية المصاهرة، فعرض ابنته جوان (من زوجته إيزابيل) للزواج من ابن هيو، وتمت الخطبة رسمياً في ٢٥ أيار ١٢١٤، وعلى الرغم من الفارق العمري الكبير (كان العريس في منتصف العشرينات والعروس طفلة في الرابعة)، إلا أن الصفقة السياسية نجحت، وانضم هيو ومعه نبلاء بواتو إلى تحالف جون ضد التاج

جون واعتماده على الجند المرتزقة. يراجع: نور الدين حاطوم، تاريخ العصر الوسيط في اوروبا من القرن الثاني عشر إلى القرن الخامس عشر ، ج ٢، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٩٣، ص ٦١.

[١] بعد أيام من وصل الملك جون إلى لاروشيل وانضم اليه بارونات بواتو وقدموا اليه قسم الولاء والتبعية. سهيل زكار، ورود التاريخ ، ج٣٩، ص ٦٢٦.

[٢] جوزيف داهموس، سبع معارك فاصلة في القرون الوسطى، ترجمة: محمد فتحي الشاعر، ط٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،١٩٩٢، ص ١٢٧؛

Guillaume Le Breton, Op. Cit., p. 93; Pool, A. L., From The Book of Doomsday to the Magna Carta 1087-1216, 2nd ed., Clarendon Press, Oxford,1955,pp. 465-466.

[3] Catherine Hanley, Louis le prince qui a conquis l'Angleterre, Pasteur Cornwall, London, 2016, p. 94.

[4]Ibid, p.53.

[5]Ibid, p.53.

الفرنسي[١].

تحرك جون نحو مدينة نانت الاستراتيجية المحصنة على نهر اللوار، مهدداً إياها بغية إخضاع دوق بريتاني الجديد، وكانت دوقية بريتاني تعيش تعقيدات وراثية شائكة بعد وفاة آرثر ومأساة إليانور المسجونة، فانتقلت الدوقية إلى أليكس، التي تزوجت حديثاً من بيتر دي درو **Peter de Druid** (١١٨٧- ١٢٥٠)، ولسوء حظ الملك جون؛ كان الدوق الجديد بيتر ابن عم فيليب أغسطس ورفيق طفوله الأمير لويس[٢].

رفض بيتر بصلابة تسليم نانت، على الرغم من الضغوط الهائلة التي مارسها جون، فيما كان روبرت، الشقيق الأكبر لبيتر، أسيراً لدى جون بعد أسره في مناوشة سابقة، مما جعله ورقة مساومة قوية، وعلى الرغم من أن العرف السائد في القرن الثالث عشر كان يقضي بمعاملة النبلاء الأسرى كرهائن ذوي قيمة مالية (فدية) وحمايتهم؛ إلا أن سمعة جون كانت ملطخة بالدماء، فقد سبق وشنق ٢٨ رهينة ويلزية، بينهم أطفال، ومع ذلك غامر بيتر بحياة أخيه وأمن زوجته الشابة، وفضّل الولاء لفيليب وفرنسا[٣].

غير جون وجهته، أمام صمود بيتر، وتجنباً لحصار طويل لنانت، وتحرك بمحاذاة نهر اللوار، فأسقط أنسينيس **Ancines** و أنجيرس ثم صبّ جام غضبه العسكري على حصن لاروش أو موين، في محاولة مستميتة لإسقاطه، وكانت تلك القلعة التي شيدها وليم دي روش، عقبة رئيسة تحمي الطريق إلى لومان، فوصل جون إلى القلعة في ١٩ حزيران ١٢١٤، حيث شهد الحصار تصعيداً عسكرياً عنيفاً، إذ لم تتوقف آلات الحصار والمنجنيقات عن دك أسوار القلعة، بينما أمطرت فرق الرماة الإنكليزية الأسوار بوابل لا ينقطع من سهام الأقواس والنشاب، في المقابل أبدى المحاصرون استبسالاً منقطع النظير، فردوا الهجوم بأشرس منه، ملقين من أعالي أبراجهم كل ما طالت أيديهم من قذائف، وكتل خشبية، وحتى عوارض منازلهم وأسقفها، غير عابئين بالدمار الذي يلحق بممتلكاتهم الشخصية في سبيل صد العدوان[٤].

برز في صفوف الجيش الإنكليزي المهاجم مقاتلٌ أثار الرعب في النفوس، عملاقٌ فارع الطول يدعى إنجويران **Inguiran** ذلك المرتزق الذي يعتاش على السلب والنهب، وكان

---

(1)Ibid, p.53.

(٢) تجمع بيتر دي درو بالملك الفرنسي فيليب أغسطس رابطة دموية وثيقة تتجاوز مجرد التحالفات السياسية التقليدية، إذ يعد بيتر أميراً من البيت الكابي المالك وليس مجرد نبيل عادي. يلتقي الطرفان عند جدهما المشترك الملك لويس السادس؛ فبينما ينحدر الملك فيليب مباشرة من الملك لويس السابع، ينحدر بيتر من شقيق لويس السابع (روبرت الأول كونت درو)، وبحكم ذلك التسلسل، يُعتبر الملك فيليب ابن عمٍ مباشر لوالد بيتر، مما يجعله بالنسبة لبيتر في مقام "ابن عم الأب"، وهي قرابة لصيقة جداً في المعايير الملكية. لم تكن أهمية هذا النسب ترفاً تاريخياً، بل كانت الأداة الاستراتيجية التي استخدمها الملك فيليب أوغسطس لاحتواء دوقية "بريتاني" المستقلة والمتمردة؛ حيث استثمر الملك هذا الرابط العائلي المتين لتنصيب قريبه بيتر حاكماً فعلياً على بريتاني عبر تزويجه من وريثتها، ضامناً بذلك ولاء الدوقية للتاج الفرنسي عبر ذراع موثوقة يجري في عروقها الدم الملكي ذاته. يراجع :
Marjolaine Lemillat, Les œuvres de Pierre de Dreux, duc de Bretagne (1213-1237), mémoire de master, Université médiévale de Bretagne, Bretagne, 2013, p. 13-40 .

(3)Gérard Sèverie, Louis le Lion, Fayard, Paris, 1995, p. 53.

(4) Taudier Louis Vaussion, Op. Cit., p. 313.

مولعاً بالعنف، وقد اكتسب لقبه الشهير "بريس موتييه" (**Brise-Moutier**) أي "محطم الكنائس" أو "مدمر الأديرة"، نظراً لتجرؤه المتكرر على اقتحام المعالم المقدسة وخلع أبوابها لنهبها، وكان إنجويران حينها يتقدم الهجوم محتمياً خلف ترسٍ ضخم يحمله خادمه (سائس)، وهو ترس منيع صُنع من جلد الثور المطوي سبع طبقات، مما مكنه من إلحاق خسائر فادحة بالمدافعين وهو في مأمن، وأمام ذلك التهديد؛ تفتق ذهن أحد المدافعين ويدعى بونس **Pons** عن حيلة عسكرية بارعة، فقام بجدل خيط كتاني دقيق للغاية لكنه فائق المتانة، وربطه بسهم مخصص، وبذراع قوية، سدد السهم نحو الترس الضخم ليغرز فيه بعمق، وفي لحظة مدروسة، سحب بونس الخيط بقوة مفاجئة ومهارة فائقة، مما أدى إلى انتزاع الترس من يد السائس وكشف جسد إنجويران الضخم لثوانٍ معدودة، فكانت تلك اللحظة كافية، إذ عاجله المدافعون بوابل من الضربات، قبل أن يسقط صريعاً بسهم قاتل من قوس ونشاب اخترق جسده[١].

ومع سقوط ذلك الخصم الرهيب، أطلق بونس صرخة نصر تردد صداها بين رفاقه الذين استعادوا حماسهم، ومن أعلى الأسوار، كما وجه خطاباً مهيناً ومباشراً للملك جون، صائحاً بتحدٍ:**"أيها الملك، ارحل من هنا واتركنا بسلام، وإلا فإن مصيراً مشابهاً لمصير هذا العملاق سيكون بانتظارك!"**، فلم يتقبل الملك جون مقتل أحد أبرز قادته إنجويران ولا صمود حامية لاروش أو موين ؛ بل تملّكه غضب عارِم ممزوج برغبة في الانتقام، فلجأ إلى الحرب النفسية، ناصباً المشانق حول الأسوار ومُهدداً المدافعين بالإبادة إن لم يستسلموا فوراً، واستمر الحصار الخانق واحداً وعشرين يوماً، إلا أن تلك التهديديات لم تزد الحامية إلا ثباتاً وعزماً، رافضين الخنوع لترهيب الملك الإنكليزي[٢].

ولما وصلت أنباء الحصار إلى لويس وهو على الحدود البريتونية، صار أمام أصعب الخيارات العسكرية، بين ان يهاجم والدخول في معركة فاصلة، ام ينتظر ويراقب الزحف في محاولة لاحتواء جون ومنعه من التمدد، دون المخاطرة بالجيش، فقد كانت المعارك الفاصلة في العصر الوسيط نادرة ومحفوفة بالمخاطر الهائلة، لذا يضع القائد كل شيء جيشه، حياته، ومصير مملكته في رمية نرد واحدة قد تقلبها الصدفة أو الطقس، وحتى أجداد لويس، (فيليب الأول أو لويس السادس)، نادراً ما خاضوا معارك كبرى، وفضلوا الحروب القائمة على الحصار والمناوشات[٣]، عليه بقي الأمير لويس حائراً، فإذا غامر وخسر، قد تنتهي الحملة بكارثة، وفي المقابل إذا بقي ساكناً، فقد تسقط لاروش أو موين، وسيكتسب جون زخماً لا يمكن إيقافه، مسيطراً على المعاقل الرئيسة واحداً تلو الآخر، وأمام تلك الخيارات الصعبة كان لويس يقف عند مفترق طرق تاريخي، وعليه أن يتخذ قراراً قد يحدد مصير فرنسا لقرون قادمة، كان لويس، مدفوعاً بطبيعته القتالية وروحه الوثّابة، يرى في المواجهة المباشرة الخيار الأمثل، فأرسل رسالة مقتضبة حملت تحدياً صريحاً لفروسية

(1)Taudier Louis Vaussion, Op. Cit., p. 314.
(2)Ibid, p. 314.
(3) Ibid, p. 313.

الملك الإنكليزي: **"إما أن تستعد للنزال، أو ترفع الحصار وترحل"**، رد جون بغطرسة ظاهرية: **"إذا ثبتُّم في مواقعكم فستجدوننا جاهزين؛ وكلما عجلتم بالوصول، عجلتم بالندم"**، وبدعم استشاري من هنري كليمنت، اتخذ قراره الحاسم بمهاجمة قوات الملك جون دون إبطاء، فأصدر لويس أوامره بالتحرك الفوري، منطلقاً بجيشه **"بسرعة البرق"**، كما وصفها المؤرخ وليم البريتوني، ولم يكتفِ لويس بإصدار الأوامر، بل قاد الهجوم بنفسه وسار في طليعة سرايا الفرسان، حيث كان استعجاله للقتال يجعل كل ساعة تمر قبل الالتحام تبدو وكأنها دهر من الانتظار[١].

وصلت الأنباء للملك جون في معسكره بحصن لاروش أو موين، بتقدم القوات الفرنسية نحوه، وأبدى حماسة للمواجهة في بادئ الأمر، مستنداً إلى تفوقه العددي الكاسح، إذ تشير تقديرات وليم البريتوني إلى أن جيش جون كان يفوق جيش لويس بثلاثة أضعاف، لكن ذلك التفوق الظاهري كان يخفي ضعفاً جوهرياً في بنية الجيش، فقد كان قوامه الأساس يعتمد على فئتين غير موثوقتين، هم المرتزقة الذين يحركهم المال لا الولاء، وكانوا يفضلون حصار القلاع الآمن نسبياً، على المخاطرة بحياتهم في معارك ميدانية مفتوحة، ونبلاء بواتو الذين كانوا قد انشقوا سابقاً عن جون، فهؤلاء النبلاء وجدوا أن التحالف مع الإنكليز مقبولاً طالما كان التهديد الفرنسي بعيداً، ولكن عندما حانت لحظة الحقيقة وصار لزاماً عليهم رفع السلاح في وجه ولي العهد الفرنسي لويس، تملكتهم الريبة وبدت المخاطرة السياسية والشخصية أكبر من أن تُحتمل، ما أدى إلى تذبذب ولائهم[٢].

أمام ذلك الواقع المتأزم؛ وجد الملك جون نفسه محاصراً بالشكوك حول ولاء جيشه، وبالخوف التكتيكي من الوقوع بين فكي كماشة، جيش لويس المندفع نحوه من جهة، واحتمالية خروج حامية القلعة للهجوم عليه من الخلف من جهة أخرى، هنا اتخذ جون قراراً مفاجئاً بفك الحصار والانسحاب، والذي لم يكن انسحاباً تكتيكياً منظماً؛ بل هروباً يسيطر عليه الذعر، وتشير المصادر التاريخية إلى تباين في وصف حالته، فبينما يذكر روجر يندوفر: أن جون انسحب وهو يشعر **"بانزعاج شديد"**، يؤكد وليم البريتوني: **"عندما رأى جون رايات الأمير لويس تلوح في الأفق، وشعر بتخاذل حلفائه، تملكته حالة من الذعر المفاجئ. وفي تصرف لا يليق بملك؛ تخلى عن قيادته، وألقى سلاحه، واستقل قارباً ليعبر نهر اللوار هارباً بجلده قبل أن يبدأ القتال الفعلي"**[٣]، أدى هروبه إلى انهيار جيشه بالكامل، وتشتت جنود بواتو عندما حاولوا اللحاق بملكهم عبر النهر، لكن النتيجة كانت مأساوية، فبسبب ثقل دروعهم؛ غرق الآلاف في مياه اللوار الهائجة، ليستغل الفرنسيون الفوضى، وينقضّوا على الفلول الهاربة بالسيوف والرماح والهراوات، محولين الانسحاب إلى مذبحة طالت حتى أولئك الذين حاولوا الاختباء في الكهوف والأحراش[٤]، فحقق لويس مكاسب

(1) Catherine Hanley, Op. Cit., p. 313.
(2) Taudier Louis Vaussion, Op. Cit., p. 313.
(3)Catherine Hanley, Op. Cit., pp. 97-98.
(4) Ibid, p. 98.

مادية هائلة، مستولياً على غنائم المعسكر المتروك، التي ضمّت كميات كبيرة من الدروع، والأسلحة، والبضائع الثمينة التي تخلى عنها الإنكليز نتيجة ذعرهم[١].

ومن الجلي أن انتصار الأمير لويس في لاروش أو موان كان أحد العوامل الرئيسة في إنهاء دور الملك الإنكليزي في موقعة بوفين، حيث أن انتصار الملك جون في تلك المعركة كان يعنى أن يقع الملك فيليب بين شقى الرحى، عندما يقوم الإمبراطور الألماني وكونت فلاندرز وكونت بولونيا بالهجوم من الشمال، والملك الإنكليزي من الجنوب، وهو ما من شأنه القضاء على هيمنة التاج الفرنسي، غير أن انتصار الأمير لويس أبعد الملك جون من ساحة القتال وخلق له صراعاً داخلياً مع بارونـاته، الذين رفضوا إمداده بالمؤن خلال ذلك الصراع، ومن المتوقع أن يكون قد خلق نوعاً من التأثير السلبى على القوات التي تحارب في الشمال، وعلى العكس من ذلك فقد أعطى دفعة قوية للجيش الفرنسي، مما جعله يقاتل، لاسيما أن تلك المعركة قد وقعت قبل معركة بوفين باثنتى عشر يوماً طبقاً لتحديد المؤرخين.

ب. انتصار الملك فيليب على الامبراطور الألماني أوتو وحلفائه في معركة بوفين ١٢١٤

على الرغم من انتصار الأمير لويس في الجنوب في موقعة لاروش أو موان، إلا أن المعركة في الشمال لم تبدأ بعد، وفي ذلك الوقت وصل الإمبراطور أوتو الرابع إلى قلعة فالنسينس **Valenciennes** الواقعة إلى الشمال من فرماندوا وإلى الجنوب الغربي من هينولت **Henault**، وكان قد استعد استعدادًا قويا لهذا مصطحباً معه حلفاءه كونت فلاندرز وكونت بولونيا، وقائد الأسطول الإنكليزي وليم أف سالسبري وعديداً من الفرسان ذوي المكانة الرفيعة[٢].

أما القوة المواجهة الممثلة في الملك الفرنسي، فقد استقرت في قلعة بيرون إحدى مدن مقاطعة فرماندوا وأصبح يفصل بين الجيشين[٣] اثنا عشر كيلومتر فقط، ففي الوقت الذي

---

(1) Ivan Jobry, Histoire des rois de France: Louis VIII, files de Philippe II, 1223-1226, Pygmalion, Paris, 2009, p. 26.

(2) Georges Bourdonneuf , Op. Cit., P. 81.

(٣)اختلف المؤرخون فيما يحويه الجيشان من عدد وعده، فقد ذكر المؤرخ الفرنسي جون فرانس John France إن الجيش الفرنسي كان يتكون من ألف وأربعمائة من الفرسان وستة آلاف من المشاة، أما جيش الحلفاء فكان يتكون من عدد الفرسان نفسه تقريبا، وربما سبعة آلاف وخمسمائة من المشاة، أما المؤرخ جوزيف داهموس فقد عرض أراء كثير من المؤرخين في هذا المضمار، فقد ذكر إن المؤرخ الإنكليزي أومان Oman المتخصص في فن الحرب، قد ذكر أن الملك فيليب كان يملك حوالي ألفين وخمسمائة من الفرسان ثقيلة العدة، وخمسة وعشرين ألفاً من المشاة وأربعة آلاف من الفرسان خفيفة العدة، أما بالنسبة لجيش الحلفاء فخصص لهم ألف وثلثمائة فارس وأربعين ألفاً من المشاة، أما المؤرخ الألماني ديلبروك Delbruok فقد ذكر إن عدد قوات الملك فيليب من الفرسان قد زاد بحوالي ألف وخمسمائة فارس عن عدد فرسان أوتو، في الوقت الذي خفض فيه عدد المشاة في كل من الجانبين بحجة أنهم لم يؤدوا دوراً مهنا في المعركة، أما المؤرخ الأمريكي بيلر Beeler فيرى أن الجيش الفرنسي كان يتكون من ألف ومانتين من الفرسان تقيلى العدة وثلاثة آلاف من الفرسان خفيفى العدة وربما عشرة آلاف من المشاة، ونظرا لأن فيليب كان قد عين ابنه لويس قائدا على حوالي عشر آلاف من قواته التي تحت قيادته، وذهبت تلك القوات للتصدي ليوحنا ملك إنكلترا، لهذا استنتج بيلر أن القوات التي بقيت تحت قيادته والتي خاضت معركة بوفين كانت أقل من عدد قوات أوتو، أما المؤرخ الفرنسي فرديناند لوت Fredinand Lot، فيرى أن جيش الحلفاء كان أكثر عددًا من جيش الملك الفرنسي بعض الشيء، ويعتقد أنه كان ألف ومائة من الفرسان ثقيلى العدة وعشرة آلاف من المشاة. وعلى الرغم من كل ذلك لا يجرؤ أحد على إغفال أهمية دور الفرسان في

استقر فيه جيش الحلفاء في قلعة فالنسنيس **Valensnes** كان الملك الفرنسي وجيشه في قلعة بيرون، وما لبث أن غادرها في ٢٣ تموز ١٢١٤ لمواجهة جيش الحلفاء، فاتجه من بيرون إلى دوية **Duya** ومنها وصل إلى تورينو **Torino** في شمال فرماندوا في ٢٦ من الشهر نفسه عابرًا جسر مارك **Marcq** في مقاطعة بوفيه، وفى الوقت نفسه تحرك جيش الحلفاء من فالنسينس إلى مورتجن **Mortgen** التي تقع بين قلعتي سيكارب **Scarpe** وإسكوت **Escaut**، وعلى ما يبدو أن ذلك الموقع كان يصعب اقتحامه، لأنه يتحكم في الطريق المؤدى من قلعة بافيا **Bavia** إلى تورناي **Tournay**، ففي حالة الهجوم عليه يسهل القضاء على الجيش الفرنسي، لذا كان من الصعب عليه مواصلة الإغارة على مورتان، وأيضاً لم يكن في مقدروهم البقاء في تورينو، لذا أصبح الموقف أشد خطورة مهما كان القرار الذي سيتخذ(١).

وفي المقابل حينما علم جيش الحلفاء بموقف الجيش الفرنسي الموجود في تورينو؛ شعروا أن النصر أصبح قريباً منهم، حتى أن الإمبراطور قام بجمع حرسه الخاص وكونت فلاندرز وكونت بولونيا، وكبار قادته، وأعلن لهم أن فيليب مهزوم قبل الدخول في المعركة وحينما يتم القضاء عليه بقتله، سيكون نصيب كونت بولونيا بيرون وفرماندوا، وكونت فلاندرز مدينة باريس، أما هيو دى بوفيس **Hugh de Bovis** فسيحصل على مقاطعة برفي **Barfi**، أما القائد الإنكليزي وليم أف سالزبري فسيحصل على مدينة درو **Drew** وكونراد دي دورة نيد **Conrad de Ned course** سيحصل على مونت وفيكسن، أما جيرارد دي راندراس **Gerard de Randerath** فسيحصل على قلعة لاندون **Landon** وجاتينوه **Gatinais**، أما القائد هرفي دي دونزي **Hervé de Donzi** فسيأخذ قلعتى مورتان وسينس، وسوف يتم القضاء على كل أتباع الملك الفرنسي(١).

يتضح مما سبق أن جيش الحلفاء قد أصابته نشوة الانتصار على الملك الفرنسي وفرحاً توزيع الغنائم وذلك قبل الدخول في المعركة، وعلى ما يبدو أن الثقة الزائدة لدى جيش الحلفاء قابلها خوف وحذر ورغبة في الخروج من ذلك المأزق عند الجيش الفرنسي، مما سيكون له أثر كبير في تحديد نتيجة الجولة القادمة بين الطرفين، كما أنه سيحدد المتحكم بعد ذلك في سير العلاقات الدولية لاسيما بين الطرفين الفرنسي والإنكليزي.

فكّر الملك فيليب أغسطس نتيجة لصعوبة موقف جيشه؛ بالزحف نحو معسكر جيش الحلفاء في مورتان والاعتماد على نصرة الرب، غير أن أحد قادته و هو هنري دوق برا بانت أخبره بما دار في معسكر الحلفاء وأوضح له الكثير عن الطبيعة الجغرافية للمنطقة

تحديد مصير المعارك. نقلان عن : حسنين عبد الكاظم عجه ومحمد حليم سالم، معركة بوفين أسبابها وقائعها ونتائجها، مجلة كلية التربية، جامعة واسط، العدد ٢٨، مج ١، ٢٠١٧، ص ٢٥٤- ٢٥٥.

France, J., Western War Fare in the Age of The Crusades 1000-1300, Paris, 1999, p. 235.

جوزيف داهموس، المصدر السابق، ص ١١٣٩.

(1) Ernest Lavisse, Op. Cit., Tome. III, p. 186.

وأنها لا تصلح لسير الخيول والعربات، هنا قرر الملك الاجتماع بالبارونات لدراسة الموقف، فأسفر الاجتماع عن رأي بوجوب السيطرة على مقاطعة ليل **Lille**[٢] حيث السهول المكشوفة والمفضلة لدى الفرسان الفرنسيين، لذا زحف الجيش الفرنسي مسافة أربعين كيلو متراً حتى وصل إلى هناك، حيث أصبحوا على بعد اثنين إلى ثلاثة كيلو مترات من حافة بوفين[٣].

أصبح الجيشان وجها لوجه في أفضل تنظيم منذ صباح ٢٧ تموز ١٢١٤، غير أن إشارة البدء كانت تتوقف على حدوث شيء مفاجئ، وكان اختيار توقيت المعركة في صالح الجيش الفرنسي، حيث إن موقع الشمس كان له عامل كبير في المعركة ، إذ كانت تواجه جيش الحلفاء، في الوقت الذى كانت تطل بوجهها في ظهر الفرنسيين، وبدأت المعركة على ذلك الوضع، فبعد وقت قليل من بدايتها تمكنت ميمنة الجيش الفرنسي التي تخضع لقيادة الأسقف جيران أن تحقق نصرا على الفلمنكيين، وأسر كونت فلاندرز وكان ذلك النصر دفعة معنوية كبيرة للجيش الفرنسي، الذي ما لبث أن تعرض لهجوم جيش الحلفاء، وكاد معه الملك فيليب أن يقع أسيرًا بعدما سقط من فوق جواده، غير أن الفارس بيير ترستان **Pierre Tristan**، استطاع حماية الملك الفرنسي، وبعد برهة تعرض الإمبراطور الألماني لموقف مماثل، إلا أنه استطاع النجاة بمساعدة أحد فرسانه ويدعى برينهارد آف هو ستسمار **Bernhard of Hostsmar**، ومع ذلك استطاع الجيش الفرنسي أن يأسر الكثير من قادة جيش الحلفاء، وينتصر انتصارًا رائعا في تلك المعركة[٤].

يتضح مما سبق أن معركة بوفين دفعت إلى انتصار السيادة الملكية على الأفصال الإقطاعيين، وأظهرت ارتفاع شأن الملكية الفرنسية على الأفصال مهما كانت قوتهم، فقد أعطى انتصار الأمير لويس على الملك الإنكليزي في موقعة لاروش أو موان، الملك الفرنسي القدرة على سحق أعدائه في الشمال في تلك الموقعة، ولو حدث عكس ذلك لاستطاع الغزو الشمالي والجنوبي القضاء على الملك الفرنسي وتشتيت قواه، لكن وجود وريثه وقدرته العسكرية أتاحت للملك فرصة التفرع للخطر الأكبر في الشمال، ولعل انتصار الملك فيليب ضد الحلف الإنكليزي الألماني والتصدي لأطماعه، والذي تبعته فرحة شملت أرجاء المملكة ككل ولم يكن لها مثيل من قبل، ويعد ذلك النصر هو أول مظهر حقيقي

---

(1)Anonyme, « Histoire des rois francs du peuple jusqu'en 1214 », Collection des historiens de Gaule et de France, volume 17, édité par Michel Jean-Joseph Bréal, Royal Press, Paris, 1818, p. 427; Guillaume Le Breton, Op. Cit., p. 96.

[٢] ليل: مدينة فرنسية. تقع على نهر كانليند ديول Canalized Deule يوجد بها أشهر المتاحف للفن وبها جامعة. Moore, W.G., Op. Cit., pp. 456-457.

[٣] جمال فاروق الوكيل، دور فرنسا فى مواجهة التحالف الانكليزي الألماني في معركة بوفين ١٢١٤م، المجلة العلمية بكلية الآداب، جامعة قناة السويس، العدد ٥٢، ٢٠٢٣، ص ١١٥٣؛

Guillaume Le Breton, Op. Cit., pp.96-98.

[٤] يراجع لمزيد من التفاصيل عن معركة بوفين:

Guillaume de Nangis, Op. Cit., pp. 409-414; Guillaume Le Breton, Op. Cit.,pp. 98-105; Brentano, F., Op. Cit., pp. 279-283.

ويراجع ايضاً ملحق رقم ٧ .

للمشاعر الوطنية[١].

وما إن تم للملك الفرنسي انتصاره على جيش الحلفاء في بوفين، وأسر الكثير من قادتهم؛ حتى عاد على الفور إلى مدينة باريس ، في غضون ذلك، أسفرت هزيمة الملك الإنكليزي في معركة لاروش أو موان عن تداعيات استراتيجية صبت في صالح الجيش الفرنسي؛ فقد وجد الملك جون نفسه معزولاً إثر تخلي البارونات الإنكليز عنه، مما أضعف موقفه العسكري وحال دون قدرته على الدخول في مواجهة مباشرة جديدة، ليلجأ عوضاً عن ذلك إلى تكتيك حرب المناوشات، وما إن عاد الملك فيليب مظفراً إلى معسكره حتى تبدلت موازين القوى، إذ سارع البارونات الإنكليز إلى مراسلته وبذلوا قصارى جهدهم لعقد مصالحة معه، غير أن الملك الفرنسي قابل مساعيهم بالرفض القاطع، عاقداً العزم على سحقهم عقاباً على تمردهم وتحالفهم مع خصومه. وتنفيذاً لغايته، زحف فيليب على رأس جيش جرار مخترقاً دوقية بواتييه حيث يعسكر الملك جون، ولدى بلوغه قلعة لوديون **Loudun** المنيعة، وفد إلى معسكره رسلٌ من كونت ثوار دوق آكيتاين يلتمسون الهدنة، وبفضل وساطة قادها كونت بريتاني بيرون **Perron**، وافق الملك الفرنسي على إبرام الهدنة شريطة أن يتخلوا تماماً عن دعم ومناصرة الملك الإنكليزي[٢].

أما الملك الإنكليزي الذى كان يبعد خمسة عشر ميلاً (٢٤ كيلوا متر) عن المعسكر الفرنسي، وجد نفسه محاصراً لا محالة، وأنه يصعب عليه في ظل تدهور حالة جيشه أن يدخل في معركة ضد ذلك الجيش، لذا عقد اجتماعاً مع كبار قادته، وخرج الجميع بقرار يحتم على الملك مراسلة الملك الفرنسي من أجل عقد هدنة، مستعينين في ذلك بنائب البابا روبرت جيرزو **Robert Gurzo** الذى جاء موفدًا من البابا إنوسنت الثالث لإقناع الملكين المتنازعين بعقد هدنة وتوجيه جهودهم لمحاربة المسلمين[٣]، مصطحباً معه عدداً من النبلاء الإنكليز، وعندما وصل أعضاء السفارة إلى معسكر الملك الفرنسي، اجتمعوا معه والتمسوا منه الموافقة على عقد هدنة، ولأسباب صمتت عنها المصادر؛ وافق الملك الفرنسي على إبرام هدنة أمدها خمس سنوات تبدأ في ١٨ أيلول ١٢١٤ حتى عيد القيامة لعام ١٢٢٠ عرفت بهدنة شينون نسبة إلى المكان الذي عقدت فيه، وفي مقابل تلك الهدنة يقوم الملك الإنكليزي بدفع مبلغ ستين ألف مارك للملك الفرنسي فضلاً عن تسليم دوقية أنجو وبريتاني

---

(1)Reinhard, Marcel, Histoire de France, Volume I, Éditions Larousse, Paris, 1954, pp. 75-76.

(2)(2) Guillaume de Nangis, Op. Cit., p. 414; Duby, G., Op. Cit., p. 226.

(٣) إين كان يقف البابا أنوسنت الثالث في هذا الصراع؟ سؤال طرح قبل تلك المعركة وأثنائها، فمن حسن حظه أنه لم يكن لديه إلا الصلوات والدعاء، إذ كان يرى أن على المسيحيين أن يحاربوا المسلمين الذين استردوا بيت المقدس، لا أن يحارب بعضهم البعض، فمن جهة كان هناك فريدريك الثاني سليل آل هوهنشتاوفن، ومن جهة أخرى غريمه أوتو الرابع الذي لم يقل عنه طموحاً وشراسة، وقد شكل كلاهما مصدر قلق عميق للبابوية، إذ وجد إينوسنت الثالث صعوبة بالغة في تحديد أيهما يشكل الخطر الوجودي الأكبر على نفوذ الكنيسة واستقلاليتها، فكلاهما كان يمثل تهديداً كامناً إذا ما انفرد بالسلطة المطلقة ، وكان الأمر كذلك بالنسبة للملكين فيليب وجون، إذ نال الأول الحظوة من جديد بعدما رد زوجته إنجبورج إلى عصمته، أما الآخر فلم يعد عدوا كذلك. يراجع من التفاصيل عن موقف البابا أنوسنت: جوزيف داهموس، المصدر السابق، ص ١٣٦ – ١٣٧.

وجزء كبير من بواتو[١].

تُظهر المعطيات السابقة تحولاً جذرياً في موازين القوى السياسية، حيث بات الملك فيليب أغسطس المتحكم الفعلي في مسار العلاقات الفرنسية الإنكليزية، إذ جاء قبوله للهدنة بمرونة نابعة من موقفه القوي عقب انتصاره الحاسم في موقعة بوفين، فلقد شكلت المعركة منعطفاً تاريخياً هو الأبرز في العصر الوسيط، حيث بددت نهائياً طموحات الملك الإنكليزي في استعادة إرث والده هنري الثاني داخل الأراضي الفرنسية، وتسببت تداعيات الهزيمة في اندلاع الاضطرابات الداخلية في إنكلترا وتمرد البارونات ضد الملك، وعلى النقيض، مكنت المعركة فرنسا من إحكام سيطرتها على دوقيتي فلاندرز وبولونيا شمالاً، وتثبيت سيادتها المطلقة على نورماندي وأنجو وكافة الأقاليم الواقعة شمال نهر اللوار،أما على الصعيد الألماني، فقد قضت الهزيمة على مستقبل الإمبراطور أوتو الرابع الذي واجه تداعي سلطته حتى وفاته عام ١٢١٨ في قلعة هارتس بورج **Harzburg** التي تقع في برونسويك **Brunswick**[٢]،فاسحةً المجال لصعود فريدريك الثاني واعتلاء أسرة الهوهنشتاوفن العرش؛ مما يجعل فريدريك مديناً بعرشه بصورة غير مباشرة لانتصار فيليب أغسطس الذي نجح في إزاحة الثقل الألماني لتنصيب فرنسا كقوة مهيمنة وفاعلة في الغرب الأوروبي[٣].

ونتيجة للإخفاق الذى منى بهِ الملك الإنكليزي أمام الملك الفرنسي في بوفين؛ حظي عهده بأهمية خاصة في التاريخ السياسي الإنكليزي، فقد شهدت السنوات الأخيرة من حكمه إخفاقه التام في إمكانية امتصاص غضب البارونات، الذين ثاروا ضده اعتراضا على الضرائب التي يجمعها للدخول في حروب لا جدوى منها، لذا أصروا على تأكيد حقوقهم التي أقرها القانون الإقطاعي منذ عهد الملك هنري الأول، وجاءت الرغبة لهؤلاء الثائرين باستعادة تلك الحريات بمثابة السبب الحقيقي للصراع، وذلك عندما طالبهم الملك بتعويض البدلية العسكرية، إلا أنهم رفضوا دفعها، كما رفضوا إتّباعه إلى بواتو معللين ذلك بأنه لا يتوجب عليهم اتباع الملك إلى خارج البلاد في مقابل الأراضي التي في حوزتهم منه في داخل إنكلترا، كما لا ينبغي عليهم مساعدته في البدلية العسكرية، ومن جانب آخر قام الملك بالمطالبة بالمساعدة التي أعطيت للتاج منذ عهد أبيه وأخيه، والتي كان من الممكن استمرار دفعها لولا تدخل القاصد الرسولى[٤]، وازدياداً للصراع قام البارونات بإحضار ميثاق يمنحهم كثيراً من الصلاحيات، كانت قد منحت لهم من قبل منذ عهد هنري الأول، مطالبين

---

(1) Guillaume de Nangis, Op. Cit., pp. 414-415; Pool, A. L., Op. Cit., p. 467.

(٢) برونسويك دوقية في شمالي ألمانيا، تبلغ مساحتها الإجمالية حوالي ٣,٦٧٢ كيلومتراً مربعاً،وتشمل ثلاث مقاطعات كبيرة وست مقاطعات صغيرة، أهم المقاطعات هي هانوفر Hanover وسكسونيا Saxony:
Moore, W.G., Op. Cit., p.129.

(٣) حول تلك الفقرة يراجع: جوزيف داهموس، المصدر السابق، ص ١٤٤ ١٤٥؛ محمود سعيد عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص ٢١٩، ٢٥٩- ١٢٦٠؛
France, J. Op. Cit., p.241.

(٤) سهيل زكار، تواريخ أسرة بلانتغنت ،ج٣٠ ، ص ٣٣٨.

الملك بتأكيدها لهم[١].

وبذلك اتضح كيف ألقت العلاقات الفرنسية الإنكليزية بظلالها على مملكة إنكلترا والآثار السلبية التي تركتها، ما جعل سنة ١٢١٥ تشهد اشتعال الصراع بين الملك والبارونات الذين قاموا بتعيين روبرت فيتز والتر **Robert - Fitz Walter** قائدًا عامًا للمعارضة البارونية وجيش الرب، كما أطلق عليه في مقاطعة اسكس، وفي محاولة منه لاحتواء ذلك التصعيد، لجأ الملك إلى المناورة السياسية؛ فأوهم خصومه باعتزامه تلبية مطالبهم في نيسان من العام ذاته، بينما كان يسابق الزمن لتعزيز موقفه دولياً وعسكرياً، فقد سارع بمراسلة البابا شاكياً من أن تمرد البارونات يعيق خططه للانخراط في الحروب الصليبية والتوجه نحو الشرق، وهو التزام أكده رمزياً بتلقيه الصليب من أسقف لندن، وحث أتباعه على حمله متخذين من الصليب الأبيض شعاراً لهم [٢]، وبالتوازي مع تلك التحركات الدبلوماسية، شرع الملك في التحضير العسكري عبر حشد الجنود المرتزقة من دوقية فلاندرز، وعندما رأى البارونات ذلك، اجتمعوا مع بعضهم ولم ينتظروا السادس والعشرين من نيسان، وزحفوا إلى نورثهامبتون دون القيام بأي عمل عدواني، وانضم إليهم جايل **Giles** أسقف هيرفورد، وجيوفري دي ماندفيل وكثير من المعارضين لسياسية الملك الذي حاول جاهدًا أن يسترضيهم، لكنه فشل، فقام البارونات بعقد مؤتمر في بريكلي (**Brackley**)[٣] الذي أعلنوا فيه تحدى الملك والتخلى عن ولائه وطاعته، وتم الهجوم على مدينة لندن التي سقطت في أيديهم في ١٧ أيار ١٢١٥، وعندما رأى الملك ذلك بعث إليهم برئيس الأساقفة، يسألهم إقامة سلام ووعدهم بتنفيذ كافة مطالبهم، مقترحاً خضوع الأمر للجنة تحكيم مكونة من ثمانية أعضاء، أربعة من كل جانب، فضلاً عن البابا بوصفه سيدا أعلى، ولحين تشكيل تلك اللجنة؛ منحهم الملك رسميًا ما أرادوه، مؤكدا ذلك في مرسوم عرف بمرسوم الحريات غير المعروف **Unknown Harter of Liberties** [٤]، وتخلى الملك عن كل القلاع التي كان قد استولى عليها وهي ماونت سورال **Mount Sorrel** وروكنجهام **Rockingham** وكولشستر **Colchester** وتم الإعلان عن سلام عام[٥].

---

[١] ابتسام سلمان سعيد، المعارضة في انكلترا من العهد الأعظم حتى عهد الإصلاح الديني ١٢١٥- ١٥٠٩، مجلة إكليل للدراسات الإنسانية، كلية التربية للبنات، جامعة بغداد، العدد ١٥، ٢٠٢٣، ص ٤٩٥.

[2] Guest, G., Asocial History of England, London, 1921, pp. 45-55; Warren, W. L., King John, p. 215.

[٣] بريكلي: مدينة إنكليزية تقع في مقاطعة نورثمبتون شير - على بعد ثلاثة عشر كيلو متراً شرق وجنوب شرق مدينة بالبري Banbury تطل بوجهها على نهر أويس Ouse:

Moore, W.G., Op. Cit., p. 118.

[٤] اتخذ المرسوم تلك التسمية، لأنه لم يتم العثور عليه إلا في العام ١٨٦٧، في الأرشيف الملكي الفرنسي، ولم تعرفه إنكلترا نفسها إلا بعد ذلك بثلاثين عاما، ولم يكن أكثر من مسودة مقترحات تعكس الفكر الملكي في تلك المرحلة من المفاوضات بين الملك والبارونات، ويتضمن المرسوم اثنا عشر بندا كلها في صالح البارونات. يراجع لمزيد من التفاصيل: يراجع: زينب عبد المجيد، المصدر السابق، ص ٧٨- ٧٩.

Warren, W. L., Op. Cit., pp. 215-217.

[٥] سهيل زكار، تواريخ أسرة بلانتغنت ، ج٣٠، ص ٣٤٠، ٣٤٣؛

Pool, A. L., Op. Cit., p. 417; Guest, G., Op. Cit., pp. 55-56.

فكانت تلك الظروف والمواقف الإنكليزية دافعا للفرنسيين لمزيد من التطلع للهيمنة على الأراضي والممتلكات الخاضعة لجون، بل أصبح التاج الإنكليزي نفسه مطمحاً فرنسيًا عمل فيليب للهيمنة عليه.

ت. محاولات الملك فيليب الاستيلاء على التاج الإنكليزي فيما بين ١٢١٥- ١٢١٧:

لم يرض السلام المبرم في إنكلترا كل البارونات، ويؤكد ذلك؛ قيام مجموعة منهم بالإعلان عن رفضهم التسوية بحجة أنهم لم يكونوا حاضرينً ساعة إبرامها، بل وأرسلوا إلى الملك فيليب يستنجدون بهِ ضد الطاغية على حد تعبيرهم، والذي وجد قبولاً في نفس الملك الفرنسي، فلم يتردد في الإجابة لهم ضد الملك الإنكليزي الذى استاء منهم بدوره، لذا أرسل إلى البابا يعرض قضيته أمام مجمع اللاتيران **Lateran Council** الرابع ١٢١٥ الذي يوشك على الانعقاد، وعندما أيقن بأن كثيراً من النبلاء كانوا يتآمرون لخلعه؛ حاول بوعود كثيرة أن يكسب الملك الفرنسي، لكنه فشل في ذلك، لأن الآخرين كانوا قد حصلوا منه على وعود بالمساعدة منذ وقت قصير، وعندما رأى جون سوء موقفه ما لبث أن بدأ المفاوضات مرة أخرى بوساطة ستيفن لانجتون، ووليم مارشال إيرل بمبروك، اللذين استطاعا تحديد موعد للقاء الملك بالبارونات، في قلعة رونيميد **Runnymed** على ضفاف نهر التايمز، استمرت المناقشات من ٨ - ١٤ حزيران ١٢١٥[١].

وفى اليوم التالي الخامس عشر من حزيران وقّع الملك جون بختمه على ما اصطلح على تسميته وثيقة العهد الأعظم **Magna Carta** في احتفال رسمي، التي صيغت عباراتها خلال عدة أيام، وعدّت أشهر وثيقة في التاريخ الإنكليزي بأكمله[٢] وأول القيود التي كبّلت السلطة الملكية المطلقة، وإقرار مبدأ ضرورة احترام الملك للقانون الإقطاعي الذي يعتبر كل من الملك والبارونات كيانين متعاقدين في إطار حقوق وواجبات إقطاعية متبادلة، وبها استسلم الملك جون الاستسلام الثاني[١]، وسرعان ما تحقق للجميع أن ما حدث في رونيميد كان مجرد سلام أجوف لم يستمر أكثر من شهرين، فعندما أعلن البابا إنوسنت الثالث ضرورة القيام بحملة صليبية إلى الأراضي المقدسة وذلك في مجمع اللاتيران، وكان الملك الإنكليزي قد أعلن من قبل رغبته في القيام بحملة صليبية، فقام البابا بإعلان تأييده الكامل لتابعه الملك جون ضد البارونات، لذا ما لبث الملك أن أعلن أنه قد ذهب بعيدًا في استجابته لمطالب البارونات معتمدًا على تأييد البابا الذي أمدّه بمرسوم أعلن فيه إلغاء وثيقة العهد الأعظم، وذلك في آب ١٢١٥ على اعتبار انها غير عادلة وغير قانونية لأنها انتزعت بالقوة، فردّ البارونات على ذلك بخلع الملك جون والبحث في مسألة انتخاب ملك جديد، ودعوا إلى

---

[١] زينب عبد المجيد، ماهية البرلمان الإنكليزي، ص ٤٨ – ٤٩.

[٢] حول بنود الماجنا كارتا وتفسيرها يراجع:

Magna Carta of King John, AD 1215, Translated into English, From an original in the British Museum, by Cotton MS. London, 1629, pp. 5-28; Warren, W. L., Op. Cit., pp. 236, 266-277.

محمود سعيد عمران، المصدر السابق، ص ٢٦٠ – ٢٦١.

اجتماع حاسم من أجل الوصول إلى قرار يخص المملكة[٢].

وعلى الرغم من كثرتهم؛ إلا أنهم افتقروا إلى الثقة، وإلى القيادة الداخلية، لذلك التفوا حول الملك فيليب أغسطس عدو المملكة، وانتخبوا أكبر أولاده الأمير لويس ملكا عليهم، ورجوه القدوم إلى المملكة مع قوة عسكرية كبيرة، بغية تحريرهم من يد الطاغية الذي يتولى حكمهم، وبعدما أتموا ذلك الاتفاق من خلال الوسطاء، ما لبثوا أن قاموا بحصار قلعة نورثهامبتون بمساعدة فرسان فرنسيين بارعين في إنشاء آلات الحصار، وفي الوقت نفسه فرضوا حصاراً على قلعة اكسفورد في الوقت الذى كان فيه الملك جون مقيماً في قلعة دوفر، حيث توافدت لنجدته أعداد غفيرة من المرتزقة والقوات من دوقيات بواتو وجاسكوني وبرابانت وفلاندرز، وعندما تجمعت لديه القوات بدأ يرسلهم إلى القلاع المحاصرة لرفع الحصار، بينما اتجه هو بقوة صغيرة لاحتلال مدينة روكستر في مقاطعة كنت[٣].

ومع تعاظم النفوذ الفرنسي في الساحة الإنكليزية؛ استشعر البارونات الخطر نتيجة افتقارهم لقيادة موحدة، ما دفعهم إلى إيفاد ساهر **Saher** إيرل ونشستر مع وفد من النبلاء لاستعجال قدوم الأمير لويس، وسعياً منهم لتبديد شكوك العاهل الفرنسي وضمان ثقته؛ أقسموا سراً بفك ارتباطهم الإقطاعي بالملك جون، نافين حيازتهم الأراضي منه بصفة دائمة، وبالتزامن مع تلك التحركات؛ وصل المبعوث البابوي جوالو **Gualo** لتقديم الدعم الكامل للملك الإنكليزي، كاشفاً خيوط الاتفاق السري بين فرنسا والبارونات والذرائع التي استند إليها الملك الفرنسي للمطالبة بالعرش لابنه لويس، وتمثلت في حق زوجته بلانش حفيدة هنري الثاني، وتفويض البارونات له، فضلاً عن اتهام الملك جون بقتل ابن أخيه الدوق آرثر، وعلى الرغم من تصدي المبعوث البابوي لتلك التحركات بإشهار سلاح الحرمان الكنسي ضد كل من يدعم الغزو الفرنسي؛ تجاهل الملك الفرنسي تلك العقوبات كعادته وبادر بإرسال قائد عسكري رفيع مع قوة مسلحة إلى لندن لتمهيد الطريق لوصول الأمير لويس المرتقب[٤].

ومن سير الأحداث يتضح أن محاولات البابوية لم تثن الملك فيليب عن عزمه إرسال ابنه الأمير، حتى أن سوء الأحوال الجوية والطقس السيء لم يثنياه عن مسعاه، فوصل إلى جزيرة ثانت **Thanet** في ١٤ أيار ١٢١٦، فنجح في الاستيلاء على الشاطئ الإنكليزي دون مقاومة من الملك أو جيشه من المرتزقة الذي نجح الأمير لويس في جذبهم إليه فأصبح الأمر بالنسبة للملك الإنكليزي حرجاً وبدت عليه آثار الحزن والأسى، أما الأمير فكان على العكس؛ اذ نزل إلى الشاطئ واتجه صوب كانتربري، وهناك ذاع خبر وصوله فتجمع لديه الكثير من الفرنسيين والإنكليز فاصطحب الجميع واتجه صوب مدينة لندن فوصلها يوم

---

(١) للمزيد حول مواد العهد الأعظم. يراجع: ربيع حيدر طاهر الموسوي، مواد العهد الأعظم (ماجنا كارتا) لسنة ١٢١٥م دراسة تاريخية تحليلية، مجلة أورك للعلوم الإنسانية، جامعة الكوفة، كلية الآداب، العدد٣، مج٥، ٢٠١٢.

(2) Guest, G., Op. Cit., pp. 56-59.

(٣) سهيل زكار، تواريخ أسرة بلانتغنت ،ج٣٠ ، ص ٣٤٧- ٣٤٨.

(٤) المصدر نفسه، ج٣٠، ص ٣٤٧ – ٣٤٨.

Brentano, F., Op. Cit., pp. 285-6.

الخميس السابق لعيد الشعانين[١]، وهناك أخذ يمين التبعية من البارونات الإنكليز، مما دفع مبعوث البابا إلى عقد اجتماع حضره الأساقفة وزعماء الكنيسة، وطالبهم بتقديم العون إلى ملكهم، وأنزل عقوبة الحرمان بالأمير لويس أسميًا، وبجنوده ومؤيديه، وذلك في ١٩ أيار ١٢١٦ وشمل ذلك الحرمان مدينة لندن هي أيضا[٢].

لكن قرار الحرمان لم يثن عزم الأمير لويس، فقام بمطاردة الملك الإنكليزي، حتى تم له الاستيلاء على مدينة وينشستر وكل القلاع المحيطة بها، وتم تسليم ذلك كله إلى كونت أف نفرس **Count of Nevers** الذى كان مصاحبًا له طيلة حملته، ومن ثم بدأ يتحرك صوب قلعتي دوفر ووندسور في وقت واحد، ونتيجة لانتصاراته تدفقت عليه جموع مؤيديه من أنحاء المملكة الذين كانوا يحيطون بالملك الإنكليزي، فضلاً عن وفاة البابا إنوسنت الثالث في ١٦ تموز ١٢١٦، كل تلك العوامل أضعفت موقف الملك جون الذي كان معسكرًا في قلعة نورفولك **Norfolk** [٣]، وعندما علم الأمير بذلك أرسل قوة تطارده، مما اضطره إلى الانتقال إلى قلعة أكسولم **Axholme**، ومنها إلى لندسي **Lindsey** إلى الشمال من لنكولن، ونظرًا لاستمرار ملاحقة الجيش الفرنسي له، تحرك صوب لنكولن وعاث فسادًا وتخريبًا بالسيف والنار في طريقه، وهناك أصيب بمرض الزحار، فاستقر بهِ المقام في إحدى قلاع لنكولن تسمى سليفورد **Sleford**، وعندما زاد عليه المرض نقل إلى قلعة نيوارك **Newark**[٤] التي لفظ أنفاسه الأخيرة بها في ١٩ تشرين الأول ١٢١٦ بعد حكم للمملكة دام سبع عشرة سنة ونصف[٥].

هنا تنتهى حلقة أخرى من حلقات الصراع الفرنسي الإنكليزي بوفاة الملك جون الذي مات وهو مكروه من شعبه، فعلى الرغم من أنه كان لطيفًا وكريمًا مع الغرباء؛ إلا أنه كان سالبًا وناهبًا لشعبه، يثق بالأجانب ويفضلهم على رعيته، لذا تعرض لكثير من الاضطرابات طيلة عهده، حتى دفع بعض المؤرخين إلى القول أنه بموته قد تحرر من آلام التفكير وحياة مليئة بالاضطرابات وكثير من الجهد الضائع[٦]، ولا شك أن موته غير المتوقع قد أبقى مملكة إنكلترا لأسرة بلانتاجنت، لأن وريثه الصغير هنري المعروف بالثالث **Henry III**

---

[١] يعود أصل تسمية "شعانين" إلى اللفظة العبري "هوشيعة-نا"، وهي صرخة استغاثة ورجاء تعني "يا رب خلص"، وقد تُرجمت في العهد الجديد باللفظة اليونانية "أوصنا"، وهي الهتاف الذي دوت به حناجر الجموع عند خروجهم لاستقبال موكب السيد المسيح متوجهاً إلى أورشليم، ويُطلق على هذا اليوم أيضاً "أحد السعف" أو "عيد الزيتونة"، استلهاماً من المشهد الإنجيلي حيث فرشت الجموع الطريق بسعف النخل وأغصان الزيتون، وتخليداً لهذا الحدث، تحتفل الكنيسة بحمل الأغصان والشموع، مرتلة "أوصنا" لاستقبال المسيح. يراجع:
Lady Calcott, Palm Sunday, W. Birch High Street, London, 1840.

[٢] سهيل زكار، تواريخ أسرة بلانتغنت، ج ٣٠، ص ٣٥١- ٣٥٢.

[٣] نورفولك: مقاطعة إنكليزية تقع في شرق إنكلترا يحدها من الشمال والشرق بحر الشمال، ومن الشمال الغربي ويلز Wales تبلغ مساحتها ٥,٣٧١ كيلومترا مربعاً.
Moore, W.G., Op. Cit., p. 564.

[٤] نيوارك: مدينة انكليزية، تقع في مقاطعة نوتنجهام شير على نهر دفون عند التقائه برافد نهر ترانت على بعد ستة وعشرين كيلومترا شمال شرق نوتنجهام.
Moore, W.G., Op. Cit., pp. 598-9.

[٥] سهيل زكار، تواريخ أسرة بلانتغنت ، ج ٣٠، ص ٣٥٢ - ٣٥٤.

[6] Groess, A History of England and Greater Britain, New York, 1921, pp. 145-146.

(١٢٠٧- ١٢٧٢) الذي كان مجرد طفل في التاسعة من عمره، لم يكن له أعداء شخصيين، فسرعان ما نال الحماية والمساعدة من أكثر البارونات فروسية، وتحت وصاية البابا هونوريوس الثالث **Honorius III**[١]، هناء بدأ التأييد للأمير الفرنسي يتلاشى تدريجيا لأن الثوار الإنكليز توصلوا إلى قناعة بأنه أنفع لهم أن يكونوا خاضعين لسلطة طفل ضعيف بدلاً من الملك الفرنسي المنتظر الذي له من القوة والكفاءة ما يحرمهم من حقوقهم[٢].

وعشية وفاة الملك جون سعت البابوية إلى تتويج ابنه المدعو هنري والملقب بالثالث، وبعد أقل من أسبوعين تقابل المندوب البابوي جوالو **Jawalo** مع كثير من بارونات المملكة، وتم الاتفاق على إعلان الابن هنري أكبر أبناء الملك جون ملكًا لمملكة إنكلترا تحت وصاية وليم مارشال إيرل بمبروك وبمساعدة المندوب البابوي، وذلك لتأكيد أهمية السلطة البابوية في مساندة التاج الإنكليزي، فحاول كل من وليم مارشال ومندوب البابا كسب البارونات وأصحاب النفوذ داخل المملكة، فأسرعا بإقرار العهد الأعظم الذي أقره الملك جون من قبل ثم ما لبث أن تنكر له، وبذلك تم اعتلاء هنري الثالث عرش المملكة في ٢٨ تشرين الأول ١٢١٦، بترسيم من المندوب البابوي، والتزم الملك الطفل بالقسم على الولاء والطاعة للبابا وذلك تجديدًا لخضوع والده من قبل، وبذلك الحدث أصبح موقف الأمير لويس صعبًا، لذلك بادر بالعودة إلى باريس للحصول على المزيد من العون[٣].

ومن الواضح أن الأمير لويس سعى للقضاء على الملك هنري الثالث من أجل أحقيته في التاج الإنكليزي ومن أجل ذلك اصطحب قواته من الفرسان فضلاً عن أسطول كبير، واستقر بهِ المقام في قلعة لنكولن، أما اسطوله فاستقر في دوفر، ولم يكن البابا هونريوس بالبابا الذي يرضخ ويسلم مملكة إنكلترا للملك الفرنسي، لذا أسرع بإرسال خطابات إلى الملك الفرنسي فيليب أغسطس وابنه الأمير لويس يطالبهما بالتوقف عن إلحاق الأضرار بمملكة إنكلترا التي أصبح تاجها تحت حماية السلطة الدينية العليا، وعلى الجانب الآخر سعى من خلال مندوبه جوالو إلى الانتقام من كل الذين ساندوا الأمير في غزوه المملكة سواء كانوا علمانيين أو رجال دين، لذلك تم عزل ونفي الكثير منهم، لكنهم قاموا جميعًا بدفع مبالغ مالية كبيرة للتكفير عن إساءاتهم للمندوب البابوي الذي تملكته الدهشة نتيجة الثروة التي تدفقت عليه بتلك

---

[١] هونوريوس الثالث(١١٥٠- ١٢٢٧): ولد في مدينة روما، وتاريخ ميلاده غير معروف، اختير بابا لكنيسة روما في ١٨ تموز ١٢١٦ عندما كان كاردينالاً لسان جيوفاني إي بابلو San Giorani e Pablo، وكان رجلاً نبيلاً ذا أصل طيب وشخصية قوية، وسبق لعائلته أن قدمت اثنين قبله لهذا المنصب وتم انتخابه بابا في مدينة براغ Perugia. لكنه كان كهلاً غير قادر على مجاراة نشاط وعبقرية سلفه، ولقد كانت أولى أفكاره متعلقة بالحملة الصليبية الخامسة التي تم إقرارها في مجلس اللاتيران؛ لذا طالب الإمبراطور فريدريك الثاني بالوفاء بالتزاماته، لاسيما أن الإعداد للحملة قد انتهى وكان الإمبراطور يؤجل، وأكد ذلك عند قيامه بتويج الإمبراطور فريدريك وزوجته كونستناس Constance في ٢ من تشرين الثاني عام ١٢٢٠، وتوفى في روما في ١٨ أيار ١٢٢٧. يراجع عن هذا البابا:

Michael Ott, Honorius III Fapae, The Catholic Encyclopedia, Tome VII, London, 1910, pp. 457-459; Koehner, H., Encyclopedia of the Papacy, Peter Owen House, London, 1959.

[٢] سهيل زكار، الحملة الصليبية الثالثة ، ج ٣١، ص ٣٥٥.

Brentano, F., Op. Cit., p. 286.

[٣] محمود سعيد عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص ٢٦٣ – ١٢٦٤.

Duby, G., Op. Cit., p. 221.

الطريقة[١]، وعندما تم للمبعوث البابوي ذلك النصر الداخلي، ما لبث أن أعدّ جيشاً كبيراً، أوكل قيادته إلى الوصي على العرش وليم مارشال وفيكوت دى بريبوت **Fauquet de Breaute** تحت إشراف البابوية، وتحرك ذلك الجيش صوب قلعة لنكولن حيث يتحصن الأمير لويس وجيشه، فاستطاع الجيش الإنكليزي بعد حصار قصير للقلعة الدخول والانتصار على الجيش الفرنسي وأسر الأمير لويس، وعلى الجانب الآخر استطاع الأسطول الإنكليزي تدمير الأسطول الفرنسي في دوفر في ٢٤ آب ١٢١٧ إلا أن الأمير لويس استطاع افتداء نفسه بدفع مائة ألف مارك والعودة إلى بلاده، وتم ذلك طبقا لمعاهدة لامبيث **Lambeth** نسبة إلى المكان الذي عقدت فيه في ١١ أيلول ١٢١٧[٢].

يتبين من خلال ما تقدم أن تلك كانت آخر محاولات الملك الفرنسي فيليب أغسطس للاستيلاء على أملاك مملكة إنكلترا والقضاء على حكم أسرة البلانتاجنت فيها، لأن المصادر صمتت عن ذكر أية محاولة لإثارة الموقف لدى الطرفين فيما بين عامى ١٢١٧ حتى وفاة الملك فيليب في ١٤ تموز ١٢٢٣، ربما بسبب تقدم الملك فيليب أغسطس في السن، وانشغاله بالصراع القائم في الجنوب للقضاء على حركة الهراطقة الألبيجنسية، فضلاً عن حماية البابوية للتاج الإنكليزي في تلك الحقبة، وصعوبة قيام الملك الفرنسي بالدخول في صراع معها أو أن يتجاهل قراراتها وكل تلك الأسباب فرضت الاستقرار داخل المملكتين.

---

(1)Bouquet Martin, Op. Cit.,pp. 629-631.

(2) Duby, G., Op. Cit., pp. 223-227; Brentano, F., Op. Cit., p. 286.

الخاتمة

الخاتمة

تمثل سياسة فرنسا في عهد أسرة آل كابية للمدة (١١٣٧- ١٢٢٣) أهمية بالغة واستثنائية في تاريخ الغرب الأوروبي، لما لها من تداعيات ذات اتجاهات متعددة على بنية الدولة الفرنسية الناشئة وسياستها الداخلية والخارجية وتوجهاتها نحو المركزية، سواء أكانت تلك التداعيات متعلقة بالصراع المرير لفرض السيادة على الأمراء الإقطاعيين أم في مواجهة التحدي الأنجلو- نورماندي (البلانتاجنت)، ومثل فيها ملوك تلك الحقبة الدور الرئيس في توجيه مسار الأحداث داخلياً عبر تطوير الجهاز الإداري وتوسيع النطاق الملكي، وخارجياً في رسم الخارطة الجيوسياسية الجديدة لفرنسا، كما أن تلك السياسة وتطبيقاتها غيّرت الكثير من المعادلات على الساحة السياسية والعسكرية في أوروبا، وأسست للانتقال من الملكية الإقطاعية إلى الملكية السيادية، فقد خلص الباحث إلى جملة من النتائج والاستنتاجات التي وجب توضيحها في الآتي:

- تركزت سياسة ال كابيه على حصر السلطة في يد التاج وتوسيع ممتلكاته الملكية، وعملت على تقليص نفوذ الأمراء والدوقات من خلال نسج تحالفات ذكية مع الكنيسة والمدن الناشئة.
- حرص ملوك ال كابيه على تأمين الاستقرار السياسي والمؤسسي للعرش، وذلك عبر إرساء تقليد حذر يتمثل في تتويج الابن الأكبر وإعلانه وريثاً شرعياً للحكم في أثناء حياة والده، مما يدرأ أي نزاعات مستقبلية على السلطة.
- شكّلت الزيجات السياسية ركيزة أساسية في أدوات الدبلوماسية الكابية لبناء الدولة الفرنسية وبسط نفوذها، ففي ظل نظام إقطاعي تنتقل فيه الأراضي والمقاطعات عبر الإرث والمصاهرة بقدر ما تنتقل بالحروب، أيقن ال كابيه أن إبرام تحالفات زواج مدروسة يوازي في نتائجه تحقيق انتصارات عسكرية حاسمة ولكن دون إراقة دماء. وقد وُظفت هذه الاستراتيجية المزدوجة داخلياً لترويض وإخضاع النبلاء، وخارجياً لنسج علاقات دولية متينة.
- نظر ال كابيه بخطورة بالغة إلى استحواذ ملوك إنكلترا على إقطاعيات شاسعة داخل الأراضي الفرنسية (مثل نورماندي، أكيتاين، وأنجو)، والتي كانت تفوق في مساحتها ممتلكات التاج الفرنسي ذاته، وبناءً على ذلك، تبنت الأسرة سياسة حازمة وثابتة تهدف إلى إضعاف ذلك الوجود الإنكليزي وتفكيكه بشتى الوسائل المتاحة.
- اتسمت طبيعة السياسة الفرنسية تجاه إنكلترا بالتعقيد الشديد، نظراً للتداخل العميق بين مفاهيم السيادة والتبعية، ففي حين كان العاهل الإنكليزي يتمتع بالاستقلالية المطلقة كملك في بلاده، فإنه كان يُعد في الوقت عينه تابعاً إقطاعياً يخضع لسيادة ملك فرنسا فيما يخص المقاطعات والأراضي التي يحكمها داخل الحدود الفرنسية.
- أثبتت الدراسة أن التنشئة الرهبانية الأولى للويس السابع في دير سانت دينيس، قد طبعت شخصيته بطابع ديني زاهد، مما جعله يُلقب بالملك الراهب، وقد انعكس ذلك

التكوين النفسي على قراراته السياسية، حيث كانت تقواه في كثير من الأحيان سبباً في تردده العسكري، ولكنها في المقابل منحته هالة من القداسة عززت شرعية التاج الفرنسي.

- برز الأب سوجر كشخصية محورية ورجل دولة من الطراز الأول، إذ شكل صمام الأمان للمملكة، سواء كوصي على العرش أثناء الحملة الصليبية أو كمستشار سياسي كبح جماح تهور الملك الشاب في سنوات حكمه الأولى.
- شكل زواج لويس السابع من اليانور دوقة اكيتاين ذروة النجاح السياسي لآل كابيه بضم الجنوب الفرنسي سلمياً، إلا أن التباين الصارخ بين شخصية لويس الزاهدة وشخصية اليانور المتحررة والمحبة للحياة، حال دون استمرار هذا التحالف، مما أدى إلى شرخ عميق في العلاقة الزوجية والسياسية.
- شكلت حادثة حرق كنيسة فيتري ومقتل المئات فيها نقطة تحول مفصلية في حياة لويس السابع، عاش عقدة ذنب ولازمته الكوابيس، مما دفعه لاتخاذ قرار المشاركة في الحملة الصليبية الثانية كنوع من التكفير والتوبة، وليس بناءً على استراتيجية عسكرية مدروسة.
- أوضحت الدراسة أن الحملة الصليبية الثانية كانت كارثية على سمعة لويس السابع العسكرية، افتقر للخبرة القيادية، وتجاهل النصائح البيزنطية، وفشل في تحقيق أي نصر ملموس (سواء في الرها أو دمشق)، مما أدى إلى اهتزاز صورته أمام باروناته.
- كشفت الأحداث أن الطلاق الذي وقع بين لويس واليانور عام ١١٥٢، على الرغم من مبرراته الشرعية (قرابة الدم) والسياسية (عدم إنجاب وريث ذكر)، كان أكبر خطأ استراتيجي في عهده، إذ نقل دوقية أكيتاين الضخمة إلى خصمه هنري الثاني، مما أدى لظهور الإمبراطورية الأنجوية التي حاصرت فرنسا.
- لجأ لويس السابع أمام القوة العسكرية الهائلة لهنري الثاني إلى سياسة الصبر الاستراتيجي، والدبلوماسية بدلاً من المواجهة العسكرية المفتوحة التي لم يكن مستعداً لها، معتمداً على إثارة القلاقل داخل البيت الأنجوي.
- أظهر لويس دهاءً سياسياً في استغلال تمرد أبناء هنري الثاني وزوجته إليانور ضده، وفر لهم الملجأ والدعم، مما اسهم في استنزاف قوة هنري الثاني ومنعه من التفرغ للقضاء على الملكية الفرنسية.
- نجح لويس السابع في توظيف الصراع بين هنري الثاني وتوماس بيكيت لصالحه، حيث قدم نفسه كحامٍ للكنيسة والمضطهدين، مما أحرج هنري الثاني دولياً وعزله بابوياً، وعزز من مكانة ملك فرنسا كأكثر الملوك مسيحية.
- شهد عهد لويس السابع بداية الاعتماد على أصحاب الخبرة والدراية ورجال الدين والطبقة البرجوازية في البلاط الملكي بدلاً من الاعتماد الحصري على كبار الإقطاعيين، مما مهد لظهور قضاء ملكي أكثر احترافية ومركزية.

- عمل لويس على ترسيخ مبدأ أن الملك هو قاضي القضاة وملاذ المظلومين، مما شجع المدن والكنائس والنبلاء الصغار على اللجوء إليه لفض النزاعات، وهو ما وسع نفوذ الملكية المعنوي خارج حدود الدومين الملكي الضيق.
- تميزت سياسة لويس السابع تجاه اليهود بتسامح نسبي وحماية قانونية (مثل مرسوم إيتامبس)، مدفوعاً باعتبارات اقتصادية وإنسانية، مما سمح بازدهارهم الاقتصادي في عهده، وهو موقف خالف فيه التشدد الكنسي السائد آنذاك.
- ارتبط عهد لويس السابع بظهور وانتشار الفن القوطي، لا سيما من خلال رعاية الوزير سوجر لإعادة بناء دير سانت دينيس، مما جعل العمارة وسيلة للتعبير عن عظمة الملكية الفرنسية وارتباطها بالإلهيات.
- شهدت باريس في عهده حراكاً فكرياً غير مسبوق، وتحولت مدارس الأديرة والكاتدرائيات إلى مراكز جذب للطلاب من أنحاء أوروبا، مما وضع اللبنات الأولى لتأسيس جامعة باريس لاحقاً.
- انتهج لويس سياسة ذكية بمنح امتيازات للمدن (الكومونات) وتشجيع تحرر الأقنان في الدومين الملكي (كما حدث في أورليان)، مما أضعف سلطة الإقطاعيين المحليين وخلق طبقة موالية للتاج.
- ظل هاجس إنجاب "الوريث الذكر" المحرك الأساسي لكثير من قرارات لويس السابع الزوجية والسياسية، وهو ما تحقق متأخراً بولادة فيليب أغسطس، مما ضمن استمرار السلالة الكابيتية وتجنب حرب وراثة محتملة.
- حاول لويس السابع الحفاظ على توازن القوى من خلال التحالفات والمصاهرات السياسية المتعددة (مع قشتالة، وشامبانيا، وبلوا)، مما ساعده على الصمود أمام التوسع الأنجوي.
- على الرغم من أخطائه السياسية، أظهرت المصادر التاريخية جوانب إنسانية في شخصية لويس، مثل عفوه عن المتمردين في بعض الحالات، وحزنه العميق على ضحايا الحروب، مما جعله محبوباً لدى قطاعات واسعة من شعبه مقارنة بخصومه.
- نجح لويس في ربط التاج الفرنسي بمفاهيم العدالة والتقوى، مما جعل منصب الملك يسمو فوق مجرد كونه "سيداً إقطاعياً"، ليصبح رمزاً لوحدة الأمة وحامي الدين.
- رغم أن لويس السابع لم يكن قائداً عسكرياً فذاً، ولم يوسع المملكة بالحرب، إلا أنه نجح في "الحفاظ" على المملكة وسط عواصف عاتية، وسلم لابنه فيليب أغسطس دولة مستقرة إدارياً، ومتمتعة بشرعية دينية وقانونية راسخة، مهدت الطريق للانتصارات الكبرى لفرنسا لاحقاً.
- أبرزت الدراسة الصراع بين نموذجين للحكم، نموذج هنري الثاني القائم على القوة العسكرية والكفاءة الإدارية الصارمة والدهاء، ونموذج لويس السابع القائم على الصبر، والغطاء الأخلاقي، والتحالف الوثيق مع الكنيسة.

- أثبت لويس السابع، خلافاً للصورة النمطية عنه كشخص ضعيف، أنه يمتلك مرونة سياسية وقدرة على التكيف مع الهزائم، استطاع تحويل خسائره العسكرية إلى مكاسب دبلوماسية عبر الزمن.
- جسّد الملك فيليب أغسطس مفهوم رجل الدولة في أبهى صوره، حيث تجاوزت شخصيته المفهوم التقليدي للملك المحارب المعتمد على الفروسية، لتترسخ كشخصية سياسية تعتمد الواقعية البرجماتية وتغليب المصلحة العليا للدولة على العواطف والروابط الأسرية، مما مكنه من تحويل فرنسا من نظام حكم الأشخاص القائم على الولاءات الشخصية إلى حكم المؤسسات المستند إلى إدارة مركزية.
- استهل الملك فيليب أغسطس حكمه بضربات استباقية حاسمة لتثبيت دعائم حكمه، بدءاً من تحييد نفوذ أخواله من "بيت شامباني" عبر زواجه الاستراتيجي من إيزابيث دي هينو، وصولاً إلى تفكيك التحالفات الإقطاعية الكبرى التي هددت العرش في بدايات حكمه (فلاندرز، بورغندي، شامباني)، محولاً التهديدات الوجودية إلى فرص لضم مقاطعات حيوية مثل أرتوا وفرماندوا عبر معاهدة بوف.
- أدرك الملك فيليب أغسطس بذكاء حاد أن بقاء الدولة الفرنسية وتوسعها مرهون بتحطيم الإمبراطورية الأنجوية التي كانت تخنق مملكته من الغرب والشمال، فانتهج استراتيجية تقوم على استغلال الخلافات الأسرية داخل البيت الأنجوي، حيث نجح في تحريض الأبناء (ريتشارد وجيفري) ضد أبيهم الملك هنري الثاني، مما عجل بانهيار سلطة الأب وهزيمته السياسية.
- اتسمت سياسته فيليب أغسطس تجاه ريتشارد بالندّية والمناورة المستمرة، فبينما تفوق ريتشارد عسكرياً، تفوق فيليب دبلوماسياً وسياسياً، مستغلاً مدة أسر ريتشارد في ألمانيا (١١٩٢-١١٩٤) للتآمر مع شقيقه جون وانتزاع مكاسب أرضية، متحللاً من التزاماته الأخلاقية والقانونية تجاه حليفه الصليبي السابق.
- شكّل سقوط نورماندي عام ١٢٠٤ والاستيلاء على قلعة جيلارد نقطة تحول جيوسياسية كبرى لصالح الملك فيليب أغسطس، إذ لم يكتفِ بطرد الإنكليز من الشمال، بل واصل الزحف لضم أنجو، ماين، وتورين، مما قلص الوجود الإنكليزي في فرنسا إلى جيوب ضئيلة في الجنوب، ومنح فرنسا واجهة بحرية استراتيجية وموارد اقتصادية هائلة.
- شكل تولي جون العرش الإنكليزي فرصة ذهبية لفيليب، الذي استثمر ببراعة الأخطاء القاتلة لخصمه (مثل زواجه المثير للجدل ومقتل آرثر دوق بريتاني) ليضفي شرعية قانونية إقطاعية على حملاته العسكرية، موظفاً "محكمة الأقران" لتجريد جون من أملاكه قانونياً قبل انتزاعها عسكرياً.
- تُوج فليب اغسطس انتصاراته العسكرية بمعركة بوفين عام ١٢١٤، التي لم تكن مجرد نصر عسكري بل لحظة ميلاد فرنسا القوة العظمى، حيث سحق تحالفاً أوروبياً

ضخماً (إنكلترا، الإمبراطورية المقدسة، فلاندرز)، مما أدى لانهيار سلطة الإمبراطور أوتو الرابع وإجبار الملك جون على توقيع الوثيقة العظمى .

- أحدث الملك فيليب أغسطس ثورة إدارية شاملة نقلت الملكية من إدارة الأشخاص إلى إدارة المؤسسات، عبر استحداث مناصب المحضرين في الشمال والسينشال في الجنوب، وهم موظفون ملكيون يتقاضون رواتب لمراقبة الإدارة المحلية، القضاء، وجباية الضرائب، مما حجم نفوذ الإقطاعيين المحليين.
- عمل الملك فيليب أغسطس على مأسسة الذاكرة السياسية للدولة بتأسيس خزانة المواثيق في باريس بعد فقدان أرشيفه في معركة فريتفال، لتصبح المستودع الدائم للمعاهدات والوثائق، مما يعكس إدراكه لأهمية التوثيق كأداة قانونية وإدارية لترسيخ الحقوق الملكية.
- حول الملك فيليب أغسطس باريس من مجرد مقر إقامة إلى عاصمة مركزية بمفهومها الحديث، عبر مشاريع عمرانية ضخمة شملت رصف الشوارع، بناء الأسوار الدفاعية، وتشييد حصن اللوفر، مع منح امتيازات تجارية للطبقة البرجوازية لضمان ولائها وتدفق الأموال.
- منح الملك فيليب أغسطس جامعة باريس ميثاقها الملكي عام ١٢٠٠، محولاً العاصمة إلى مركز إشعاع فكري وثقافي لأوروبا، وخلق قوة ثالثة (أكاديمية) توازي سلطة الملك والكنيسة، مما عزز من هيبة الدولة الفرنسية الناعمة بجانب قوتها العسكرية.
- اتسمت علاقة الملك فيليب أغسطس بالكنيسة والبابوية بالتعقيد والازدواجية النفعية، فقد قاوم ضغوط البابا إنوسنت الثالث القوية (خاصة في قضية طلاقه من إنجبورج)، لكنه عرف كيف يلعب دور "حامي الكنيسة" عندما تلاقت المصالح، كما حدث في توظيفه لأساقفة المدن لتقويض سلطة الأمراء العلمانيين المنافسين.
- تعامل الملك فيليب أغسطس بحذر ودهاء مع الحملة الألبيجنسية في الجنوب، فرفض التورط العسكري المباشر في البداية تاركاً النبلاء يستنزفون بعضهم، ثم تدخل في اللحظة الحاسمة (عبر ابنه لويس) لقطف الثمار وضم لانغدوك للتاج، ممهداً الطريق لوحدة فرنسا الجغرافية (الشمال والجنوب).
- أسس فيليب أغسطس جيشاً ملكياً محترفاً يعتمد على المرتزقة والتقنيات الهندسية المتطورة (كما ظهر في حصار عكا)، متجاوزاً بذلك الاعتماد التقليدي على الجيوش الإقطاعية المحكومة بفترات خدمة قصيرة (٤٠ يوماً)، مما منحه مرونة وقدرة على خوض حروب طويلة الأمد.
- طور الملك فيليب أغسطس النظام المالي للدولة عبر تنويع مصادر الدخل (الضرائب المباشرة، العشور، الغرامات القضائية، رسوم الحماية)، ونجح في ملء الخزينة الملكية التي مكنته من تمويل مشاريعه العسكرية والعمرانية، تاركاً لوريثه فائضاً مالياً ضخماً ضمن استقرار الحكم.
- انتهج الملك فيليب أغسطس سياسة اقتصادية نفعية تجاه اليهود، تراوحت بين الطرد

والمصادرة (١١٨٢) لكسب الشعبية والمال، ثم السماح بالعودة (١١٩٨) لفرض ضرائب جديدة، مما يعكس تغليب الاعتبارات المالية والسياسية البحتة على أي اعتبارات دينية أو أخلاقية.

- كانت مشاركت الملك فيليب أغسطس في الحملة الصليبية الثالثة محسوبة بدقة، حيث أدى الواجب الديني والبروتوكولي، لكنه عاد سريعاً إلى فرنسا (١١٩١) بحجة المرض ليتفرغ لترتيب بيته الداخلي واستغلال غياب منافسه ريتشارد لتعزيز نفوذه في أوروبا.
- ألغى الملك فيليب أغسطس التقليد الكابيتي القديم بتتويج الابن في حياة الأب، لضمان العرش، حيث وصل بالدولة إلى درجة من الاستقرار المؤسسي والشرعية الوراثية التي جعلت انتقال السلطة إلى ابنه لويس الثامن أمراً تلقائياً ومسلماً بهِ دون الحاجة لإجراءات استثنائية.
- دعم الملك فيليب أغسطس الطبقة البرجوازية الصاعدة وسكان المدن (الكومونات) عبر منح مواثيق الحريات والامتيازات التجارية، خالقاً تحالفاً استراتيجياً معهم ليكونوا ظهيراً للملكية ضد نفوذ كبار البارونات والإقطاعيين، ومصدراً دائماً للتمويل.
- أظهر الملك فيليب أغسطس طموحاً لا محدوداً وصل حد التخطيط لغزو إنكلترا نفسها (١٢١٣) وإرسال ابنه لويس (١٢١٦) لدعم التمرد ضد الملك جون، وعلى الرغم من عدم اكتمال المشروع، إلا أنه أثبت هشاشة الحكم الإنكليزي ومدى التوسع في النفوذ الفرنسي الذي وصل إلى قلب لندن.
- مارس الملك فيليب اغسطس الصبر الاستراتيجي كفضيلة سياسية، فكان يجيد الانتظار والترقب لسنوات طويلة (كما فعل مع ملف الميراث الأنجوي) قبل أن ينقض في اللحظة التي يكون فيها خصمه في أضعف حالاته، مبتعداً عن المغامرات العسكرية غير المحسوبة.
- رسخ الملك فيليب أغسطس مبدأ العدالة الملكية بجعل البلاط الملكي محكمة استئناف عليا، مما سمح للمواطنين والنبلاء الصغار برفع شكاواهم ضد كبار السادة الإقطاعيين مباشرة إلى الملك، وهو ما عزز مركزية الدولة وأضعف القضاء الإقطاعي الخاص.
- تميز الملك فيليب أغسطس بالقدرة على الفصل التام بين "الرجل" و"الملك"، ففي وصاياه الأخيرة أظهر تقوى وورعاً (التبرع للفقراء والكنيسة) لضمان خلاص روحه، بينما كان طوال حياته شحيحاً ومقتّراً في الإنفاق الشخصي، مسخراً كل مورد لخدمة الدولة.
- نجح الملك فيليب أغسطس دبلوماسياً في عزل خصومه دولياً قبل محاربتهم، كما فعل في تحييد الإمبراطورية الألمانية في فترات معينة، ثم التحالف لاحقاً مع فريدريك الثاني (الذي وصل للعرش بدعم فرنسي) ضد أوتو الرابع، مما ضمن له أمان الجبهة

الشرقية أثناء صراعه مع الإنجليز.

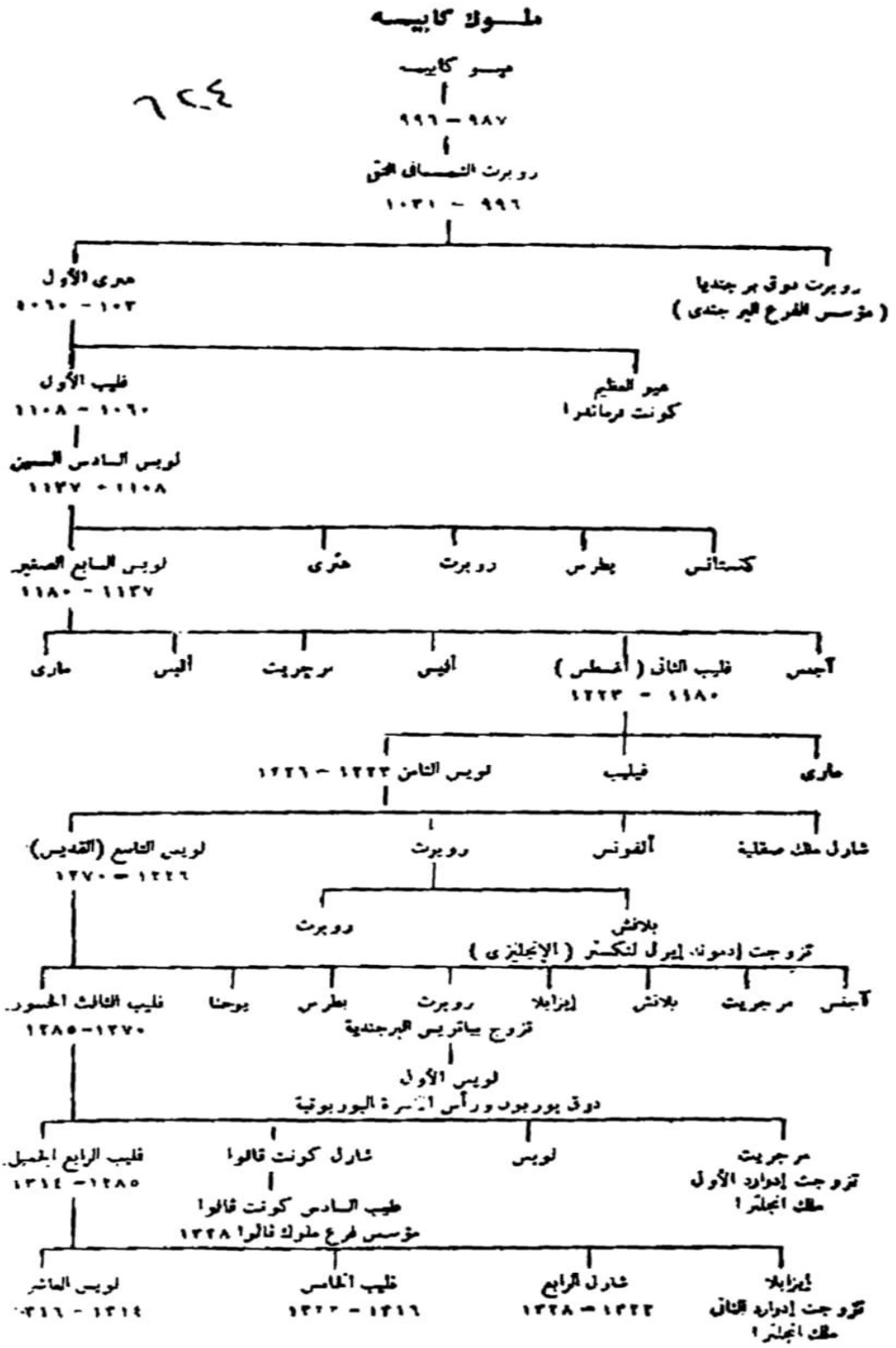
- أدرك الملك فيليب أغسطس أهمية الدعاية السياسية وتدوين التاريخ، فحرص على رعاية رهبان "سان دوني" لتدوين وقائع حكمه وتخليد صورته كملك باني وموحد، مما ساهم في صياغة السردية التاريخية التي رفعته إلى مصاف الملوك العظماء (أغسطس).
- وسع الملك فيليب أغسطس النطاق الجغرافي للمملكة بشكل غير مسبوق، فتسلم دولة صغيرة محصورة العاصمة باريس وضواحيها وتركها مملكة مترامية الأطراف تطل على المحيط الأطلسي، وتسيطر فعلياً على أقاليم الشمال والوسط، مع نفوذ متزايد في الجنوب.
- اتسمت معاهداته الملك فيليب أغسطس (مثل لي جولي) بالدقة القانونية التي تكبل خصومه بالالتزامات، حيث أجبر الملك جون على الاعتراف بتبعيته الإقطاعية لفرنسا، مما جعل أي تحرك عسكري إنكليزي لاحقاً بمثابة "تمرد" وخيانة للسيد الأعلى، مما يبرر قانونياً نزع الملكية.
- ترك الملك فيليب أغسطس، أرثاً دستورياً غير مباشر في إنكلترا، فانتصاره الساحق في بوفين هو العامل الخارجي الرئيسي الذي أضعف الملك جون وأجبره على الخضوع لباروناته وتوقيع الماغنا كارتا، ليكون فيليب أغسطس بذلك شريكاً غير مقصود في صناعة التاريخ الدستوري الإنكليزي.

ثبت الملاحق

ثبت الملاحق

ملحق رقم (١)

ملوك آل كابيه[١]



[١] وليم لانجر ، المصدر السابق ، ص ٦٢٤ .

ملحق رقم (٢)

حلم لويس السابع بفيليب أغسطس وهو يُقدّم كأس دمٍ لباروناته[١]



ملحق رقم (٣)

اجتماع في مدينة إيتامبس الفرنسية في يوم الاحد ١٦ شباط إلى ١٨ شباط عام ١١٤٧ ، بدعوة من الملك لويس السابع.يظهر القديس برنارد هنا وهو يعظ بالحملة الصليبية الثانية، بحضور الملك لويس السابع[٢]



(1)John w. baldwin, the government of philip augustus, P.300.
(2)Rachel A.Koestler,op,cit.,p.37.

ملحق رقم (٤)

رسالة من البابا يوجين إلى الملك لويس السابع يدعوه فيها للمشاركة في الحملة الصليبية الثانية[1]:

من الأسقف يوجين، خادم خدام الله، إلى ولده الحبيب الملك الجليل لويس، ملك الفرنجة، وإلى أبنائه الأمراء وعموم المؤمنين في سائر أرجاء بلاد الغال، تحية مباركة رسولية.

إننا نستحضر ببالغ التقدير ما حفظته لنا ذاكرة التاريخ وسير القدماء من جهود جبارة بذلها أسلافنا، باباوات روما، في سبيل نصرة الكنيسة الشرقية. لقد كان لسلفنا السعيد الذكر، البابا أوربان الثاني، الفضل في إطلاق نفير الحشد، داعياً أبناء الكنيسة الرومانية من شتى البقاع لتحرير الشرق. وقد لبى نداءه فرسان الفرنجة الشجعان وأهل إيطاليا، مدفوعين بحماسة إيمانية صادقة، فتمكنوا بعون الله، وبعد تضحيات جسيمة ودماء زكية، من تحرير مدينة القدس المقدسة التي شهدت آلام المسيح وتضم قبره المجيد، فضلاً عن استعادة مدن عديدة ظلت حتى عهد قريب في حوزة المسيحيين بفضل بسالة آبائكم الذين دافعوا عنها ونشروا راية الإيمان في تلك الأصقاع.

إلا أننا اليوم، وبقلوب يعتصرها الألم والأسى، ننعى إليكم ما آلت إليه الأمور بسبب ذنوبنا؛ فقد سقطت مدينة الرها (روهايس) -التي صمدت طويلاً كحصن للمسيحية وسط الشرق- في أيدي أعداء الصليب. ولم يكتفِ المعتدون باحتلال القلاع، بل أقدموا على قتل رئيس الأساقفة ورجال الدين، ودنسوا المقدسات ورفات القديسين. إن هذا المصاب الجلل يمثل خطراً داهماً يتهدد الكنيسة والمسيحية برمتها، وهو ما لا يخفى على حكمتكم.

وعليه، فإننا نهيب بكم، يا أبناء أولئك الأبطال، أن تهبوا للدفاع عن ميراث آبائكم، فليس من المروءة أن يضيع الأبناء ما شيده الآباء بدمائهم. نناشدكم بالله، ونعدكم بغفران الخطايا، أن يحمل الأقوياء والنبلاء السلاح لكسر شوكة المعتدين الذين يشمكون بنا، ولتحرير الكنيسة الشرقية وإنقاذ الأسرى، حفاظاً على هيبة الاسم المسيحي ومجدكم التليد. ولتتخذوا من "متاتيا" قدوة لكم، إذ لم يتردد في المخاطرة بنفسه وببنيه وبكل ما يملك ذوداً عن شريعة آبائه، حتى نال النصر المؤزر.

وانطلاقاً من مسؤوليتنا الأبوية وحرصنا على عدم ترك هذه الكنيسة وحيدة، فإننا -وبالسلطة الممنوحة لنا من الله- نقر ونؤكد لمن يعزم بإخلاص على خوض هذه المهمة المقدسة نيل غفران الخطايا، تماماً كما سنّه سلفنا البابا أوربان. كما نضع زوجاتهم وأبناءهم وممتلكاتهم تحت الحماية المباشرة للكنيسة المقدسة ورعاتها، ونحظر إقامة أي دعاوى قضائية تمس ممتلكاتهم منذ لحظة حملهم الصليب وحتى تيقن عودتهم أو استشهادهم.

ختاماً، إن من ينذر نفسه لهذا الجهاد المقدس يجب ألا ينشغل بمظاهر الترف الدنيوي، كالملابس الفاخرة أو التباهي بالخيول والصقور وكلاب الصيد؛ بل ندعوكم إلى التحلي بالوقار والجدية، والتركيز على جوهر المهمة السامية التي انتدبتم أنفسكم لها.

صادر بتاريخ ١ كانون الأول ١١٤٥.

---

(1) W. L. North, Letter No. 48 from Pope Eugene III to King Louis VII of France (December 1, 1145), J. B. Meijn Edition, 180, Paris, 1855, pp. 1064-1066.

ملحق رقم (٥)

توج فيليب أوغسطس في كاتدرائية ريمس، في تشرين الثاني عام ١١٧٩[١]



ملحق رقم (٦)

الملك فيليب أغسطس يقوم بطرد اليهود في آذار عام ١١٨٠[٢]

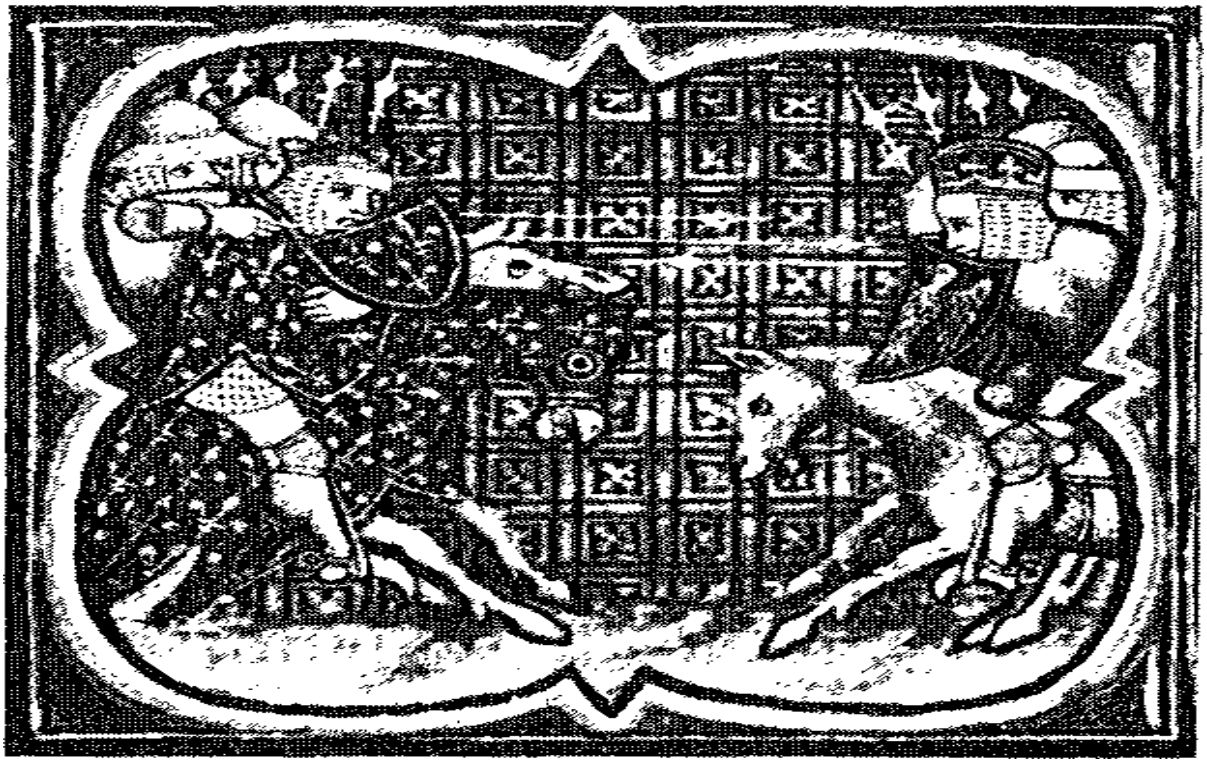


(1)Georges Bourdonneuf, op,cit.,p.903.

(2) Rigord,Op.Cit.,p.73.

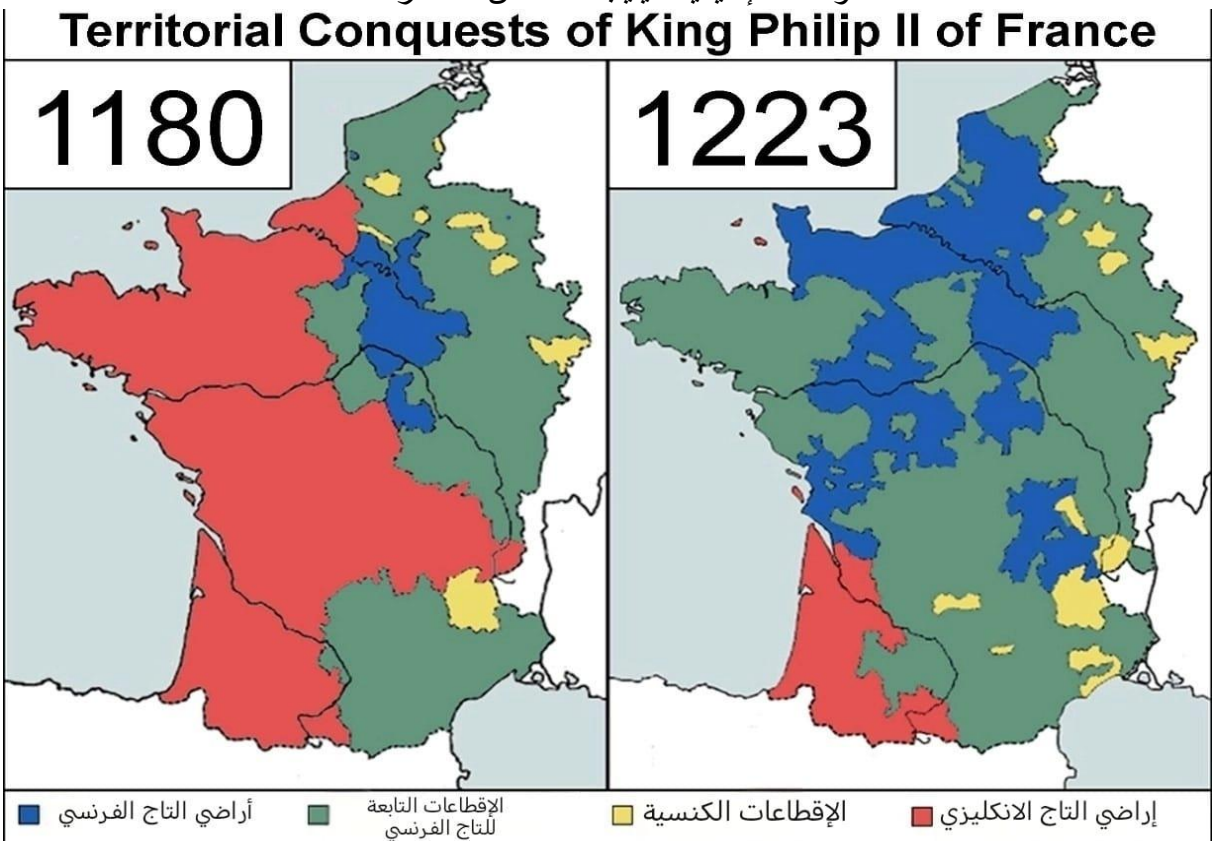
ملحق رقم (٧)

فيليب أوغسطس ضد الإمبراطور أوتو في معركة بوفين ٢٧ تموز ١٢١٤[١]



ملحق رقم (٨)

الفتوحات الإقليمية لفيليب أغسطس ملك فرنسا[٢]



(1) John w. baldwin, the government of philip augustus, P.301.

(2) https://en.wikipedia.org/wiki/Philip_II_of_France#/media/File:Territorial_Conquests_of_Philip_II_of_France.png.

ثبت المصادر والمراجع

ثبت المصادر والمراجع

أولاً ـ السجلات الوثائقية باللغتين الفرنسية واللاتينية:

1- Abou de Fleury, « Recueil de lois dédiées à Hugues et Robert » (Recueil des Historiens des Gaules et de la France), tome 10, Paris, 1760.
2- Albéric de Trois-Fontaine, « Annales d'Albéric », Collection des Historiens de Gaule et de France (R.H.G.F), Volume 18, édité par Michel J. Bréal, Royal Press, Paris, 1822.
3- Annals of the Abbey of Anchen, Collection of Historians of Gaul and France (R.H.G.F), edited by Michel Bréal, Volume 18, Royal Press, Paris, 1822.
4- Anonyme (Moines du monastère de Mortimer), « Histoire du monastère de Mortimer (1113-1235 ap. J.-C.) », Collection des historiens de Gaule et de France (R.H.G.F), édité par Michel Jean Joseph Bréal, Volume 18, Royal Press, Paris, 1822.
5- Anonyme, « Fragments des œuvres du pape Innocent III », Collection des historiens de Gaule et de France (R.H.G.F), édité par Michel Jean Joseph Bréal et al., Volume 19, Imprimerie royale, Paris, 1833.
6- Anonyme, « Histoire des rois francs du peuple jusqu'en 1214 », Collection des historiens de Gaule et de France, volume 17, édité par Michel Jean-Joseph Bréal, Royal Press, Paris, 1818.
7- Anonymus, "Excerptum ex Brevi Historia Franciae," in: Collectione Historicorum Galliae et Franciae (R.H.G.F.), edidit Dom Martinus Bouquet, Vol. 10, Lutetiae, 1760.
8- Auteur anonyme, « La vie de Simon le Bienheureux, comte de Crêpe », Collection des historiens de Gaule et de France, éditée par Michel Jean-Joseph Bréal, vol. 14, Paris : Imperial Press, 1806.
9- Bernardus (Abbas Claraevallensis), "Epistula ad Iocelynum, Episcopum Suessionensem," Collectio Historicorum Galliae et Franciae (R.H.G.F.), Vol. 15, Editio Victoris Balmy, Lutetiae, 1878.
10- Bouquet Martin (et autres), « Lettre à Octave, évêque d'Ostie » (1200), Collection des historiens de Gaule et de France (R.H.G.F), Vol. 19, Royal Press, Paris, 1833.
11- Bouquet, Martin (et al.), Lettre de saint Bernard, abbé de Clairvaux, à Louis, roi des Francs, Recueil des historiens de Gaule et de France, vol. 15, Imprimerie Impériale, Paris, 1808.
12- Bouquet, Martin et Associés, Collection des Historiens de Gaule et de France (Recueil des Historiens des Gaules et de la France), Tome X, Presses Delattre, Paris, 1760.
13- Bouquet, Martin, « Supplément à la Chronique de Saint-Denis », Collection des Historiens de Gaule et de France (R.H.G.F.). Volume X, Victor Balmy, Paris, 1874.
14- Bouquet, Martin, Glatt, moine de Saint-Maxent : extraits historiques, comtes de Poitou et ducs d'Aquitaine, Recueil des historiens de Gaule et de France,

vol. 11, Imprimerie Royale, Paris, 1767.

15- Clarius Monachus, "Annales Monasterii Sancti Petri Viventis Senonum," Collectio Historicorum Galliae et Franciae (R.H.G.F.), compilata et edita a: Dom Martino Bouquet, Volumen 12, Sayant & Nyon, Lutetiae, 1781.

16- David Douglas, English Historical Documents, Volume II, Eyre and Spottiswood, London, 1953 .

17- David M. Nicholas, Philippe, comte d'Alsace (1144-1191), Encyclopédie de la France médiévale, éd. William W. Kepler et Grover A. Zinn, Garland Publishers, New York, 1995.

18- Dom Martin Bouquet (and others), Collection of Historians of Gaul and France (R.H.G.F.), Volume XI, Text of "Chronicle of Reims", Press de la Tour, Paris, 1767.

19- Dom Martin Bouquet et al., « Le complexe de l'abbaye de Saint-Bazoul », Collection des historiens de Gaule et de France (R.H.G.F.), Volume X, Édition Victor Balmey, Paris, 1874.

20- Dom Martin Bouquet, Chronicon Regum Francorum, R.H.G.F., Tomus X, Lutetiae Parisiorum, 1760.

21- Edmond Martin, "The Acts of the Bishops of Trier," in: Collection of Historians of Gaul and France, edited by Michel Bréal, vol. 18, Royal Press, Paris, 1822.

22- Epistola Lotharii Imperatoris de Leonem IV papam, R.H.G.F., Tome, VII, paris, 1870.

23- Frédéric Suennet, Catalogue des contrats/documents d'Henri Ier, roi de France 1031-1060, Bibliothèque Honoré Champion, Paris, 1907.

24- Gervas de Cantorbéry, « Chroniques des rois d'Angleterre », dans : Recueil des historiens de Gaule et de France (R.H.G.F), édité par : Michel Jean Joseph Bréal, Volume 17, Royal Press, Paris, 1818.

25- Gilles de Bary (Egidios de Parisi), « Carolinus : Un poème sur les exploits de Charlemagne », Collection des historiens de Gaule et de France (R.H.G.F), édité par Michel Bréal, Vol. 17, Royal Press, Paris, 1818.

26- Gisleberto Montensis, "History of Hainaut," in: Collection of Historians of Gaul and France, edited by Michel Bréal, Volume 18, Royal Press, Paris, 1822

27- Guillaume de Nangis, Actes de Philippe Auguste, Extraits des Chroniques de la Grande France (Saint-Denis), Collection des Historiens de Gaule et de France (R.H.G.F.), édité par Michel Jean-Joseph Bréal, Volume XVII, Royal Press, Paris, 1818 .

28- Guillaume Le Breton « Les œuvres de Philippe Auguste », Collection des historiens de Gaule et de France (R.H.G.F), édité par M. J. J. Bréal, Volume 17, Royal Press, Paris, 1818.

29- Guillelmus de Nanges, Collectio Historicorum Galliae et Franciae RH.G.F, edidit: Dom Martinus Bouquet, Tomus X, Typographia Regia, Lutetiae,

1760 .

30- Gulielmus de Guimeugue, "Historia Normannorum," Collectio Historicorum Galliae et Franciae (R.H.G.F.), Volumen XI, Typographia Regia, Lutetiae, 1767.

31- Gulielmus Godel, Historia sive Annales Galliae et Franciae 992-1060,R.H.G.F., Tomus X, Victor Balmey, Lutetiae, 1874.

32- Helgaud de Fleury, Epitoma Vitae Roberti Regis, in: Recueil des Historiens des Gaules et de la France (R.H.G.F.), Tome X, ed. Dom Martin Bouquet et al., Paris, 1760.

33- Hepidannus, Ex Hepidanni Monachi S. Galli brevibus Annalibus, in: Collection des Historiens de Gaule et de France (R.H.G.F.), ed. Martin Bouquet, vol. X, Parisiis, 1760 .

34- Hildebert de Lavarden, « Lettre au pape Honorius II », Collection des historiens de Gaule et de France (RHGF), Volume XV, édité par Michel Jean Joseph Bréal, Victor Balmy, Paris, 1878.

35- Hugo de Flavini, "Annales Verdunenses," in Collectione Historicorum Galliae et Franciae (R.H.G.F.), ediderunt Dom Martinus Bouquet, Vol. 10, Lutetiae, 1760

36- Hugo Floriacensis, "Pars Historiae Fratris Hugonis," in Collectione Historicorum Galliae et Franciae, R.H.G.F., Vol. 10, edidit Martinus Bouquet et Victor Balme, Lutetiae Parisiorum, 1760.

37- Hugonem Candidum: Narratio Candidos, Hugo. « Un roman sur la restauration de l'évêché de Lecteur » Recueil des Historiens des Gaules et de la France, Vol. 14, édité par Michel Bréal, Presses Impériales, Paris, 1806.

38- Iberius Johannes, "Historia Sancti Bertieni," Collectio Historicorum Galliae et Franciae (R.H.G.F.), edidit Michael Bréal, Volumen XVIII, Typographia Regia, Lutetiae 1822 .

39- Jean (Abbé) « Extraits des Vies des Saints, sur Luther, roi de Lutheringia, Collection des Historiens de Gaule et de France, éditée par Martin Bouquet, Volume 7, Paris, 1749.

40- Laurentius Leodiensis, "Historia Episcoporum Verdunensis," Collectio Historicorum Galliae et Franciae (R.H.G.F.), a Martino Bouquet et aliis composita, Tomus X, Typographia Regia, 1760.

41- Le Chanteur d'Alphonse de Poitiers » (anonyme), « Extrait d'une brève histoire de France », dans : Collection des historiens de Gaule et de France, édité par Michel Jean-Joseph Bréal, Volume 17, Royal Press, Paris, 1818 .

42- Le moine inconnu du Lao, « Annales du moine du Lao », dans : Recueil d'historiens de la Gaule et de la France, édité par : Dom Brial, vol. 18, Royal Press, Paris, 1822.

43- Martin Bouquet (et alii), Recueil des Historiens des Gaules et de la France, tomus X, Victor Balmy, Paris, 1874 .

44- Martin Bouquet, Recueil d'historiens de Gaule et de France, Vol. 11, L.F.

Delattre Press, Paris, 1767.

45- Moine anonyme de Léon, « Annales », dans : Recueil des historiens de Gaule et de France (R.H.G.F), édité par : Michel Jean Joseph Bréal, Volume 18, Royal Press, Paris, 1822.

46- Monachii ignoti (Autissiodorensis) "Annales Autissiodorensis", Collectio Historicorum Galliae et Galliae R.H.G.F., edited by Martin Bouquet, Tomus X, Paris, 1760.

47- Petrus Betheau, "Fragmenta Historiae Francicae", Collectio Historicorum Galliae et Franciae, Tomus XII, Lutetiae, 1877.

48- Pictures of History," Collection of Historians of Gaul and France (R.H.G.F), Volume XIII, edited by Michel Bréal, Victor Balmet edition, Paris, 1878.

49- Radulphi Coggeshalae « Histoire anglaise », Collection des historiens de Gaule et de France (R.H.G.F), édité par Michel Bréal, Volume 17, Royal Press, Paris, 1818

50- Radulphus de Diceto, Imaginibus Historiarum, Collectio Historicorum Galliae et Franciae, Volumen XII, Victor Balmey, Lutetiae, 1904.

51- Ralph de Descito, « Images de l'Histoire », dans : Collection des Historiens de Gaule et de France (R.H.G.F), Vol. 12, H. Welter, Paris, 1904.

52- Ralph de Descito, « Images de l'Histoire », Historiens de Gaule et de France (R.H.G.F.), édité par Michel Jean Joseph Bréal, Volume 17, Victor Balmy, Paris, 1878.

53- Recueil des historiens de la Gaule et de la France. Édité par Dom Martin Bouquet et al., Volume X, (Section : Diplomatie du roi Robert et de la France), Victor Balmet, Paris, 1874.

54- Rial, Michel Jean Joseph, Lettre du pape Clément III à Henri, comte de Champagne, Collection des historiens de Gaule et de France, Volume 19, Royal Press, Paris, 1833.

55- Rigord, « Les exploits de Philippe Auguste, roi des Francs », Collection des historiens de Gaule et de France (R.H.G.F), Volume 17, édité par Michel Jean Joseph Bréal, Royal Press, Paris, 1818.

56- Rigord, Gesta Philippi Augusti, Christianissimi Francorum Regis, R.H.G.F., Tome, XVII, Paris, 1888.

57- Robert d'Auxerre, « Annales de Robert d'Auxerre », Collection des Historiens de Gaule et de France (R.H.G.F), tome 18, édité par Michel Bréal, Presses Royales, Paris, 1822.

58- Robert de Mont, "The History of Robert and its Supplement," in: Collection of Historians of Gaul and France, edited by Michel Bréal, vol. 18, Royal Press, Paris, 1822.

59- Thomas Reimer, Treaties, Agreements and Letters, Volume 1, London, 1745.

60- Vitalis, Orderick, Histoire ecclésiastique, Collection des historiens de Gaule et de France (R.H.G.F), Volume 9, Victor Balmey, Paris, 1874.

61- Yves (Episcopus Carnotensis), "Epistula ad Reginaldum, Archiepiscopum

Remensem," Collectio Historicorum Galliae et Franciae (R.H.G.F.), edidit Michel Jean-Joseph Bréal, Tomus 15, Typographia Imperialis, Lutetiae, 1808.

62- Yves Chartres, "Epistula ad Urbanum II, Papam", citata in Collectione Historicorum Galliae et Franciae (R.H.G.F), edidit Dom Bréal, Volumen 15, Domum Editoriam Victoris Balmy, Lutetiae, 1878.

ثانياً ـ الاطاريح والرسائل الاجنبية:

أ - اطاريح دكتوراه باللغة الفرنسية واللغات الأجنبية الأخرى:

1- Dana Cushing, The Jewish Exile Community in the Christian World under Philip Augustus 1198–1215, BA thesis in Medieval Studies, University of Toronto, 1995.

2- Gideo John Brough,Medieval diplomatic history france and The welsh(1163-1417) Thesis is being submitted in partial fulfilment of The requirements for The degree of doctor of philosophy in history,cardiff University,2012.

3- Gregory P. Stringer, The First Book of "Philippedes" by William of Breton, PhD thesis, University of New Hampshire, Durham, 2010.

ب - رسائل الماجستير باللغة الفرنسية واللغات الأجنبية الأخرى:

1- Hugh Clifton Griffith,The second and Third Crusades:Their Justification and goals as seen by The clergy,athesis submitted to the faculty of the Graduate college in partial fulfillment of the requirements for the degree of master of Arts,university Kalamazoo michigan,1980.

2- John W. Bauer, Conflict and Conscience: Ideological Warfare and the Cathar Crusade, M.A. Thesis, U.S. Army Command and General Staff College, New York,2006.

3- Justin Lee Matthews, Great Men of Christianity: The Failure of the Third Crusade, MA Thesis, Western Kentucky University Top Scholar, Graduate School, USA, 2011.

4- Marjolaine Lemillat, Les œuvres de Pierre de Dreux, duc de Bretagne (1213-1237), mémoire de master, Université médiévale de Bretagne, Bretagne, 2013.

5- Michael Taulier, The Albigensian Crusade: A Comparative Military Study 1209-1218, MA Thesis, American Public University System, 2010.

6- Rachel Louise Noah, The Military Aspects of the Albigensian Crusade, MA Thesis, Faculty of Arts, University of Glasgow, Department of Medieval History, 1999.

ثالثاً- الرسائل والاطاريح باللغة العربية:

أ- الرسائل باللغة العربية :

١- احمد جمعة ظاهر، علاقة مؤسسة العرش الإنكليزي برؤساء أساقفة كانتربري ١٠٦٦ – ١١٠٠ ، رسالة ماجستير ، جامعة واسط ، كلية التربية للعلوم الانسانية ، ٢٠٢٢ .

٢- ام الساعد عاشور، الصراع الأندلسي النورماندي في عصر الإمارة والخلافة ٧٥٦ – ١٠٣١، رسالة ماجستير، جامعة محمد خيضر بسكرة، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، ٢٠١٩.

٣- باأحمد فاطمة الزهرة، أثر الشعر الأندلسي في شعر التروبادور، رسالة ماجستير، جامعة عبد الحميد بن باديس – مستغانم، كلية الأدب العربي والفنون، ٢٠٢٤ .

٤- جلال حسني سلامة، عكا في أثناء الحملة الفرنجية – الصليبية الثالثة، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، ١٩٩٣.

٥- حيدر جابر حسين الزرفي، علاقة رؤساء أساقفة الكَنيسَة الإنكليزية بملوك إنكلترا ١١٠٠ – ١٢٢٨ ، اطروحة دكتوراه، جامعة واسط ، كلية التربية للعلوم الانسانية، ٢٠٢٥.

٦- سباق نادية، العلاقات الخارجية للسلطنة الأيوبية مع الدول المجاورة عهد صلاح الدين الأيوبي ١١٧٤-١١٩٣، رسالة ماجستير، جامعة ٨ ماي ١٩٤٥ قالمة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجزائر، ٢٠٢٢.

٧- سعاد علاوي خميس، اليانور دوقة اكيتاين حياتها ونشاطها السياسي والعسكري ١١٢٤ – ١٢٠٤ ، رسالة ماجستير ، كلية التربية للعلوم الانسانية، جامعة واسط ، ٢٠٢٣.

٨- عباس فخري حمزه، هنري الثاني والتطورات الداخلية في انكلترا ١١٥٤ – ١١٨٩ ، رسالة ماجستير ، جامعة بابل، كلية التربية للعلوم الانسانية ، ٢٠١٥.

٩- عبد اللطيف عبد الهادي، السياسة الخارجية المملكة بيت المقدس الصليبية في عهد الملك بلدوين الثالث ١١٤٦- ١١٦٣، رسالة ماجستير، كلية الآداب ،جامعة عين شمس، ١٩٩٠.

١٠- عمر عبد المنعم ابراهيم، الفايكنج والامبراطورية الكارولنجية، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ٢٠٠٩.

١١- ليلة ازرار، المملكة اللاتينية في بيت المقدس عهد بلدون الاول ١١٠٠- ١١١٨، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، ٢٠٠٩ .

١٢- محمد حليم سالم، الصراع الانكليزي-الفرنسي في عهد الملك جون الأول (١١٩٩-١٢١٦م)، رسالة ماجستير، كلية التربية للعلوم الإنسانية، جامعة واسط، ٢٠١٦.

١٣- مفيدة زدادرة ، الحملة الصليبية الثانية ١١٤٨، رسالة ماجستير، جامعة ماي ١٩٤٥، كلية التربية للعلوم الانسانية ، قسم التاريخ والآثار، الجزائر، ٢٠١٣.

١٤- منير نصيف جاسم ، ريتشارد الاول ملك انكلترا ونشاطه السياسي والعسكري حتى ١٩٩٩ ، رسالة ماجستير ، جامعة واسط ، كلية التربية للعلوم الإنسانية ، ٢٠٢٠ .

١٥- موج سلام قلم ، المؤامرات والتمردات المضادة لعرش إنكلترا ١٠٦٧- ١٢٦٧، رسالة ماجستير، جامعة واسط ، كلية التربية للعلوم الإنسانية، ٢٠٢٤.

١٦- نادية مرسى السيد صالح، خايمي الأول ملك أراغون وعلاقاته بالممالك الإسلامية المجاورة ١٢١٣ - ١٢٧٦، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ١٩٨٦.

ب - الاطاريح باللغة العربية:

١- فهيمة سعودي، السياسة الداخلية والخارجية للملك الفرنسي لويس التاسع ١٢٢٦- ١٢٧٠، أطروحة دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، ٢٠٢٠.

٢- محمد أحمد عطية الشيشي، الحماية الجنائية للأديان، أطروحة دكتوراه، جامعة عين شمس، كلية الحقوق قسم القانون الجنائي، ٢٠١٧.

٣- محمود عبد الواحد محمود حبيب القيسي العلاقات الخارجية للدولة الكاورلنجية في عهد شارلمان (٧٦٨ - ٨١٤)، أطروحة دكتوراه ، جامعة بغداد، كلية الآداب، ٢٠٠٣.

٤- منير نصيف جاسم، سياستا انكلترا الداخلية والخارجية في عهد وليام الأحمر ١٠٨٧-١١٠٠ ، اطروحه

دكتوراه، جامعة واسط، كلية التربية للعلوم الإنسانية، ٢٠٢٤.

رابعاً -الكتب باللغات الأجنبية:

أ- الكتب باللغة الفرنسية:

1- A. Giry et E. Lavisse: Documenta sur les relations la royaute avec les villes in France de 1180 a1314, Paris: Picard, 1885.
2- Achille Locher, Histoire de France, Tome III, Partie I, Louis VII, Philippe Auguste, Louis VIII, Paris, 1911.
3- Achille Locher, Philippe Auguste et son temps (1137-1226), Éditions Tallandier, Paris, 1980.
4- Achille Locher, Philippe Auguste, Bibliothèque Hachette & Cie., Saint-Germain, 1884.
5- Achille Locher, Social France under Philippe Auguste, translated by Edward Benjamin Cribial, Henry Holt Company, New York, 1912 .
6- Achille Locher, Université de Paris sous la direction de Philippe Auguste, Bibliothèque Marisco-Ein, Paris, 1899.
7- Alain Rey, Dictionnaire historique de la langue française, Dictionnaires Le Robert, Paris, 1998.
8- Ambera Tolbert,Merovingian and Carolingian Empires: An Analysis of Their Strengths and Weaknesses,Student Theses, Papers and Projects (History), Western Oregon University,2005.
9- Andrew W. Lewis , the expected heir bond in early Capetian France , American historical revisionvolume 83, No. 4 (October 1978).
10- Anselm de Gibor, Histoire relative et chronologique de la famille royale française, Volume 1 (3e édition), Compagnie des Bibliothèques, Paris, 1726.
11- aurent Mazuy (sous la direction de), Orléans 1000 fois plus belle, le patrimoine au cœur de la ville, Éditions du Jeu de l'Oie, 2019.
12- Baldwin, J. W The Government of Philip Augustus Foundations of French Royal power in the Middle Ages, Berkeley and Los Angeles; University of California Pres, 1986 .
13- Bouchet, Jean, les annals d'Aquitaine, poitiers, 1644.
14- Bréal, Michel, Collection des Historiens de Gaule et de France, Vol. 19, « Lettre d'Innocent III au cardinal Pierre le Capucin », Royal Press, Paris, 1833.
15- Caesarius of Histerpache, Dialogue of Miracles, in Heresy, Crusades, and the Inquisition, trans. Walter L. Wakefield, University of California Press, California, 1974.
16- Cambridge. Medieval. History, 8 Vols. London, 1928.
17- Catherine Hanley, Louis le prince qui a conquis l'Angleterre, Pasteur Cornwall, London, 2016.
18- Catlaus, Brian A. Infidel Kings and Unclean Warriors: Faith, Power and Violence in the Age of the Crusades and Jihad. Farrar, Strauss and Giroux. 2014.
19- Chisholm, Hugh, éd., Luther King de France, Encyclopædia Britannica,

(11e éd.), Cambridge University Press, 1911.
20- Christian Settepani, Préhistoire des Capétiens, éd. Patrick Van Kerbrooke, 1993.
21- CL.Perroud,Des origines Du premier Duche D,Aquitaine,France,1881.
22- Collectif, La métropole sénonaise : la première cathédrale gothique dans son contexte (actes de colloque international, Sens, 10 - 11 - 12 octobre 2014 en l'honneur du 850e anniversaire de la consécration de la cathédrale Saint-Étienne de Sens.), Paris, Picard, 2017.
23- Comptes d'Alfonse de Poitiers, in Archives historiques du Poitou, vol. 4, Poitiers, 1872.
24- Conor O'Brien, Les origines de l'onction royale Études d'histoire de l'Église : Églises et rites de passage, volume 59, Oxford University Press, juin 2023 .
25- Constance Brittany Bouchard, la couronne et la paix. Nobles et ogelez-Burgoyne, 980-1198 .Forme. Ithaque-Londres: Presses universitaires Cornell, 1987 .
26- Contenu (P) ,Guerre, État et société à la fin du Moyen Âge : études sur les armées : voirdes rois de France, Paris, 1972.
27- De Fleury, Helgood, dans du Roy Robert Le Beau, traduit par : Franck Ermaux-Guizot, Brulé, Paris, 1993.
28- Douglas Boyd,April Queen Eleanor of Aquitaine,France,2012 .
29- Dutaillis, P., The Feudal Monarchy in France and England From the X to the XIII Century, Trans. by Hunt E. D., London, 1996.
30- Edmond Holmes: the Albigensiam or Catharist Heresy, A story and Astrud, London, 1925 .
31- Edward Audoin, Essai sur l'armée royale au temps de Philippe Auguste, Librerie Ancienne Honoré Champion, Paris, 1913.
32- Ellen Graham-Leigh, The Southern French Nobility and the Crusade against the Cathars, Boydell Press, Suffolk, 2005.
33- Ernest Lavisse, « Louis VII - Philippe Auguste - Louis VIII (1137-1226), Histoire de France, Volume III, Partie I, Paris, 1901.
34- Et Ruth E. Harvey, "les épouses du premier troubadour duc Guillaume IX d'Aquitaine" , dans le Journal d'Histoire médiévale, Volume 19, 1993.
35- Fleisch Augustine, Le règne de Philippe Ier, roi de France (1060-1108), Association française de l'imprimerie et de la librairie, Paris, 1912.
36- Flori, Jean, Richard Coeur de Lion. le roi-chevalier, Paris, 1999.
37- France, J., Western War Fare in the Age of The Crusades 1000-1300, Paris, 1999.
38- Francis E. Gigo, "The Jewish Calendar," Catholic Encyclopedia, Volume III, Robert Appleton Company, New York, 1908.
39- François Armand Gervase, Histoire du sucre, Volume III, Imprimerie François Barois, Paris 1721.
40- François de Lannoy, La Croisade des Albigeois (La Bataille contre les Cathares), 2013, Editions de l'Ouest de France, Paris,2013.

41- François Delaborde, Works of Rigord and Guillaume Le Breton, Historians of Philippe Auguste, Renoir, Paris, 1882.
42- Françoise Autrand, Nouvelle Collection D'Histoire Le Moyen Age, Bordas (paris- Montréal) 1971.
43- Georges Bourdonneuf, Philippe Auguste 1180-1223, père de Louis VIII, Éditions et Distribution Pygmalion, Paris, 1983.
44- Georges Bourdonoff, Philippe Auguste le Conquérant, Pygmalion, Paris, 2009.
45- Gérard Sèverie, Louis le Lion, Fayard, Paris, 1995.
46- Giselbert de Mons, Histoire du Hainaut, traduit par Laura Nabran, Maison d'édition Boidel, Paris, 2005.
47- Gisleberto Montensis, "History of Hainaut," in: Collection of Historians of Gaul and France, edited by Michel Bréal, Volume 18, Royal Press, Paris, 1822 .
48- Grousset (R.): Histoire des croisades et du Royaume Franc de Jérusalem 3 Lome. (Paris, 1936).
49- Groussetr, Histoire de Croisades et du royaum fran Jerusalem, tom, 3. Paris, 1943.
50- Guilhem Pépin, Les couronnements et les investitures des ducs d'Aquitaine (XIe–XIIe sie`cle), France,2009 .
51- Guillaume de Nanges, "Opera Philippi Augusti: Excerpta ex Chronica Magnae Franciae (Saint-Denis)," Collectio Historicorum Galliae et Franciae, Volumen XVII, edidit Michel Jean-Joseph Bréal, Typographia Regia, Lutetiae, 1818.
52- Hamilton Bernard, The Crusade against the Cathars and Heresy, in The New Cambridge History of the Middle Ages, Part II, Cambridge University Press, Cambridge, 1999.
53- Heer, Friedrich, The Medieval world. London, 1961.
54- Henry Martin, Histoire de France depuis les temps les plus reculés jusqu'en 1789, Volume 3, Fourne Publishers, Paris, 1855.
55- Herbert Thurston, Fêtes de notre terre, les principales fêtes de la Sainte Vierge, de l'Assomption, de l'Annonciation et de la Nativité, Encyclopédie catholique, Tome III, Londres, 1908.
56- Hercules Gerod, Ingeborg de Danemark, reine de France 1193-1236, Bibliothèque de l'École des cartes, Paris, 1845.
57- Hervé Banseff, Robert le pieux roi de l'an 1000, Perrin, Paris, 2006 .
58- Ivan Gobry, Louis VI 1108-1137, Père de Louis VII, Pygmalion, Paris, 2007.
59- Ivan Gobry, Louis VII (1137-1180), Éditions Pygmalion, Paris, 2010.
60- Ivan Jobry, Histoire des rois de France: Louis VIII, files de Philippe II, 1223-1226, Pygmalion, Paris, 2009.
61- J. J. C. R. Dazercq, Histoire de Philippe Auguste, Lille. Léfort, Libraire, Paris, 1841.
62- Jacques Bainville, Histoire de France, Rue Saint-Gothard, Paris, 1937.

63- Jacques Les Gough, Les intellectuels au Moyen Âge, traduit du français par Teresa Lavender Fagan, Oxford, 1993.
64- Jacques Levron, Philippe Auguste ou Fédération France, Bibliothèque Académique Perrin, 1976.
65- Jalliffier, R. & Vast, H., Histoire de L'Europe et Particuliément de la France De 395 å 1270, Paris, 1898.
66- James M. Ludlow, D.D: The Age of The Crusades, Eras of The Christian Church. Edinburgh, 1897 .
67- Jean Chaïmol, L'Hôpital de la Trinité de la rue Saint-Denis à Paris (1201-1790), Société Française de l'Histoire de Médecine, 1983.
68- Jean Fleury, Philippe Auguste, La Naissance de la monarchie, Editions Tallandier, Paris, 2015.
69- Jean Nicolas Auguste, Histoire de France, Philippe Auguste, roi de France, Lefort, imprimeur-libraire, Lille, 1845 .
70- Jean-Luc Dejean, Les Comtes de Toulouse 1050-1250, Fayard, 1988.
71- Jean-Martin Chapeau, Le Chant de bataille de la première croisade des Albigeois, Le Chant de Guillaume de Tarteli, Paris, Héros de la Bibliothèque d'honneur, 1931.
72- Jean-Mathieu Rozay, Ils ont régné sur la France, Maison d'édition Marabou, Belgique, 1987.
73- Johannes Geiger, La vie monastique au Moyen Âge : un portrait culturel de l'apogée de l'ordre cistercien, Bibliothèques Veritat, Würzburg, Allemagne, 1903.
74- John W. Baldwin, Chrétien dans l'histoire, éd. Norris J. Lacey et Joan Tasker Grimbert, D.S. Brewer, Londres, 2005.
75- John w. baldwin, the government of philip augustus: the foundations of medieval french royal power, university of california press ltd., oxford, england, 1991.
76- Joubry, Ivan, Louis VII 1137-1180, Pygmalion, Paris, 2002.
77- L lazard: Essai sur la condition des juifs dans le domaine royal au XIII, Siècle, Paris, 1887.
78- Langres, La Naissance de la cathédrale : les archevêques de Reims et leur Église aux XIe et XIIe siècles, Éditions Dominique Geniot, 2005. Pierre Desportes, Reims et les Rémois au XIIIe et XIVe siècles, Éditions Picard, 1979.
79- Léopold Delisle, Catalogue des actes de Philippe Auguste, Auguste Durand, Paris, 1856.
80- Louis Halphen: France Louis VI and Louis VII (1108-1180), The Cambridge Medievel History, V.5, Cambridge, 1926.
81- Lucien Bély, The History of France (J.P. Gisserot, Paris, 2001.(
82- M. Cabejoub, Histoire de Philippe Auguste 1206-1223, vol. II, 3ed, Charpentier, Libraire et Éditeur, Paris, 1842.
83- Maddicott, John Robert; Simon de Montfort, Cambridge University Press, Cambridge, 1994.

84- Mary Erler, Maryanne Kowaleski, Women and Power in the Middle Ages, Athens, (GA: University of Georgia Press, 1988).
85- Mary McAuliffe, Clash of the Crowns, Roman & Littlefield Ltd., United Kingdom, 2012.
86- Michaux, Joseph François, History of the Crusades, Volume I, 6th Edition, Verne & Co., Paris, 1841.
87- Michel Rouche, Gerbert face au mariage incestueux: le cas de Robert le Pieux, (in French) in acts of the study days of Aurillac, Gerbert, Moine, Évêque et Pape, Aurillac, ed. Association cantalienne pour la commémoration du pape Gerbert, 2000.
88- Natalie de Waly, Histoires du ministre de Reims au XIIIe siècle, Bibliothèque de Reingard, Paris, 1876.
89- Olivier Guillot et al., Pouvoirs et institutions dans la France médiévale, vol. 1, Armand Colin, Paris, 2003.
90- Philippe Delorme, Aliénor d'Aquitaine Epouse de Louis VII,Merede Richard Coeur de lion,pygmalion,paris,2013.
91- Philippe Laure, Robert Ier et Raoul, duc de Bourgogne, rois de France (923-936), Bibliothèque Honoré Champion, Paris, 1910.
92- Philippe Plagnieux, La basilique de Saint-Denis : Seine-Saint-Denis, Éditions du Patrimoine, 1998.
93- Pierre Champion, Histoire De France, Moyen Age et Renaissance, Flammarion, 1934 .
94- Pierre de Vaux-de-Cernai: Hystoria Albigensis, Tome, I, Paris, 1926 .
95- Pierre Riché, Gerbert d'Aurillac, Le pape de l'an mil (in French). Fayard, Paris 1987.
96- Pierre Riché, The Carolingians; A Family who Forged Europe, Trans. Michael Idomir Allen (University of Pennsylvania Press, Philadelphia, 1993).
97- Privitt Orton, C.W., Les origines de la Maison de Savoie, Cambridge University Press, London,, 1912.
98- R. Roques, Structures théologiques de la gnose à Richard de Saint-Victor. Essais et analyses critiques, Paris, Bibl. EPHE, Section sciences religieuses t. 1962.
99- Radulphus Cogshall, "Historia Anglica", Collectio Historicorum Galliae et Franciae, Vol. 17, edidit Michael Bréal, Typographia Regia, Lutetiae, 1818.
100- Raymond Fourville, « L'image de Philippe Auguste dans les sources contemporaines », dans La France sous Philippe Auguste : une période de transformations (Actes du colloque), édité par Robert-Henri Potier, Paris : National Center Publications, 1982.
101- Reinhard, Marcel, Histoire de France, Volume I, Éditions Larousse, Paris, 1954.
102- René Biémont, Orléans, H. Herluison, 1880 (réimpr. 1991).
103- René Grosset, L'épopée des croisades, Librerie Plon, Paris, 1936.
104- René Grousset, Histoire des croisades et du royaume franc de Jérusalem, tome II, Éditions Plon, Paris, 193 .

105- René Poupardin, « Louis le Pieux », Histoire du monde médiéval, Volume II (Expansion islamique et naissance de l'Europe féodale), traduit et publié par Garzanti, Milan, Italie, 1979.

106- René Poupardin, I regni carolingi (840—918), in «Storia del mondo medievale», vol. II, 1999.

107- Richard Griffin, Criticisms of Historians in the Reign of King Richard I of England (1189-1199), Master's Thesis, University of Guelph, Canada, 2019.

108- Richard W. Kauper, Chivalry in the Middle Ages. Cambridge University Press, 2016 .

109- Richard, Alfred, Histoire des comtes de Poitou, 778-1204. 2 Vols, Paris, 1903.

110- Richerio Egusdem, "Annals of the Monastery of Senon in Vossagoe", Collective of Historians of Gaul and France, Vol. 18, Paris, 1878.

111- Robert Brunner, Burg Cathedral and its place in Gothic architecture, Architectural History Foundation, University of Michigan, 2007.

112- Robert Lafont, François Mignano, Histoire et Dictionnaire 987-1328, Éditions Adnis, Paris, 1999, p. 40.

113- Roger Baron, Science et Sagesse in Hugues de Saint-Victor, Paris, 1957.

114- Roger of Wendover, Flowers of History, in Crusades and Christianity, eds. Jessalyn Bird, Edward Peters, and James Powell, University of Pennsylvania Press, Philadelphia, 2013.

115- Salmon, A., Ed. Recueil des chroniques de touraine ed, (tours, 1874) .

116- Suger, The Fat Louis, translated by Richard Cusimano and John Moorhead, Catholic University of America Press, Washington, D.C., 1992.

117- Taudier Louis Vaussion, Philippe Auguste, 4e éd, Alfred Mamé et Fils, Tours, France, 1874 .

118- Toddy Louis Vaussion, Philippe August, 4e édition, Alfred Mamé et fils, Tours, Paris, 1869.

119- Un groupe d'auteurs, Histoire de France, Volume 1, Éditions Larousse, Paris, 1986.

120- Viollet-le-Duc, Eugène, Dictionnaire d'architecture française du XIe au XVIe siècle, Volume II, A. Morel, Paris, 1875.

121- William holden hutton, philip augustus macmillan and co, ltd, new york, 1896 .

122- Yvan Gobry, Louis VIII, 1223-1226, fils de Philippe II, Pygmalion, Paris, 2009.

123- Yves Sassier: Hugues Capet: Naissance d'une dynastie, Fayard, coll. "Biographies historiques", 14 January 1987.

124- Yves, yasassier ,LouisVII,librairie Ar theme Fayard,Framce,1991.

ب - الكتب باللغة الإنكليزية:

1- A. E. Bland, The Normans in England 1066- 1154 , London. ,1914.
2- A. F. Pollard, M.A., Litt.d., The History of England, London, 1912.
3- A.F.Pollard , the history of England A. study in political evolution, 1971.
4- Abrams (L): Early Normandy, Paris, 1981, vol 2.
5- Adams, George Burton, A History of England from the Norman Conquest to the Death of John (1066-1216), Vol. 2, Longmans, Green & Co., London, 1905.
6- Agnes Strickland, Lives of The Bachelor Kings of England, London,1861
7- Alexander Kazdan, The Oxford Dictionary of Byzantium, Vol. 2, Oxford University Press, New York, 1991.
8- Alexander Kazdan, The Oxford Dictionary of Byzantium, Volume III, Oxford University Press, New York, 1991.
9- Alfred Nietmint, La Vie de Suger, Bibliothèque du Piccolo, Paris, 1842.
10- Alison Weir, Eleanor of Aquitaine: Queen of England by Divine Decree, Jonathan Cape, London, 1999.
11- Allan, H., England in the Thirteenth Century, Cambridge University Press, London, 1997.
12- Allen C. Thomas, A.M., A History of England, Boston, 1913.
13- Ambroise, the Crusade of richard lion heart, Trans from the old franch by M. J. Hubert, With notes and documentation by john L. Lamonte, Calmbia, 1941.
14- Amy Kelly, Eleanor of Aquitaine and her courts of Love, speculum, Vol. 12, No. 1 (Jan, 1937).
15- Andre Maurois ,A history of England , London , the badly head , second edition , 1962,p.96; Edith Thompson, History of England, New York, 1873.
16- Andre Maurois, A history of England, Translated from the French by Hamish Miles, London, 1917.
17- Andrew W. Lewis, Royal Succession in Capetian France: Studies on Familial Order and the State (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1981).
18- Anthony Guggenberger. A General History of the Christian Era: The papacy and the empire. B. Herder, 1909.
19- Arabella B. Buckley & W. J. Robertson, history of England, Toronto,1891 .
20- Archer (T.A.): The crusades, London, 1894.
21- Arthur Hassall, A History of British Foreign Policy from the Earliest Times to 1912, William Blackwood & Sons, London, 1912.
22- Arthur Hassall, M.A., Arthur Hassall, The History of British Foreign policy, London, 1912 .
23- Aryeh, G., The Illustrated Encyclopedia of Medieval Civilization, London, 1980.
24- Auguste Molinier, La Bataille de Muret d'aprés les Chroniques

Contemporaines, H.G.L. Tome, VII, Toulouse, 1879.
25- Augustin Thierry, history of the Conquest of England by the Norman, Vol. I, London,1847.
26- Austin P. Evans, The Albigensian, Crusade, Setton, Vol. II, London, 1969 .
27- Baldwin, John., The Government of Philip Augustus: Foundations of French Royal Power in the Middle Ages. Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 1986.
28- Barlaw, F., The Feadal of England 1042-1216, New York, 1988.
29- Barry Dobson, "Canterbury in the Late Middle Ages, 1220–1540," in A History of Canterbury Cathedral, Oxford University Press, 1995.
30- Barry, The Papal Monarchy, New York, 1903.
31- Beaumont Charles Gascony, Encyclopædia Britannica, Volume 11 (Eleventh Edition), 1911 .
32- Beeson, Thomas S. The Crown of Aragon in the Middle Ages: A Short History, Clarendon Press, Oxford, 1986.
33- Bell, K., Mediaeval Europe 1095−1254, (Oxford 1932).
34- Benedicit of Peterborough,The chronicle of the reigns of Henryll and Richard. 1. 2vols. London, 1857.
35- Benedict Peterborough, The Works of King Henry II, 2 vols., ed. William Stubbs, Rolles Series, London, 1867 .
36- Bercowver, Robert F., Power and Accountability in Medieval France, University of Pennsylvania Press, Washington, 2004.
37- Bertholdus Constance, "Opera Gregorii VII Papae", Historici Galliae et Franciae, ediderunt Michel Jean Joseph Bréal, Tomus 14, Typographia Imperialis, Lutetiae, 1806 .
38- Beverley Kinsley, Cistercian Monks, Heresy and the Crusades in Occitania, 1145–1229, York Medieval Press, York, 2001.
39- Boissonnade, P., Life and Work in Medieval Europe, London, 1973 .
40- Bouchard Constance, The Origins of Noble Families in Medieval France, University of Pennsylvania Press, New York, 2001 .
41- Bouchard, Constance , Those of My Blood: Creating Noble Families in Medieval Francia. University of Pennsylvania Press ,2001.
42- Boyle, J. R., Church Garments: Their Origin and Significance, A. Brown and Sons, London, 1896.
43- Brain Pullan, Sources for the History of Medievel Europe Fther The mid-eighth to the mid-Bhirteenth century, Oxford, 1971.
44- Brentano, F.F.R., The Middle Ages, London, 1922.
45- Brooke, Zachary Nugent, A History of Europe from 911 to 1198, Methon Publishing House, London, 1938.
46- Bruce Chilton, Mary Magdalene: A Biography, Image Doubleday, New York, 2005.
47- Brundage (J.A.): The crusades A Documentary survey. (The Marquette University press, 1976.(

48- Bruno Scott James, The Letters of Saint Bernard of Clairaux , Chicago, 1953 .
49- C. Warren Hollister & Amanda Clark Frost, Charles Warren, 1930.
50- Chalandon, Essai Sur Le Regne D'Alexis 1er Comnene (1081−1118), (Paris 1900.(
51- Charles G. Herbermann,The Catholic Encyclopedia, Vol.1, New Avent , 2005.
52- Charles M. Andrews, A History of England Revised and Enlarged, Boston, 1903 .
53- Charles Oman, History of the Art of War in the Middle Ages, Vol, I, London, 1924 .
54- Charles Rivere, The Albigensian Crusade. The History and Legacy of the Catholic Campaign Against the Cathars in France, Rivere Publishing and Distribution, 2020.
55- Chisholm, Hugh"Odo, king of the Franks". Encyclopædia Britannica. Vol. 20 (11th ed.). Cambridge University Press .
56- Christopher Harper Bill & Nicholas Vincent, Henry II, Woodbridge, 2007.
57- Christopher HarperBell and Nicholas Vincent, Henry II: New Interpretations, Boedell Press, Woodbridge, London, 2007.
58- Claire Taylor, Heresy in Medieval France: Dualism in Aquitaine and Aigena, Suffolk, Boydell Books, 2005.
59- Clare, John D. Knights and Armor in the Middle Ages, The Bodley Head, London, 1992.
60- Clifford R. Bachman, "The Crusades" and "The Albigensian Crusade," Medieval France: An Encyclopedia, ed. William W. Kibler and Grover A. Zinn, New York,2010.
61- Condi B. Palin, The Catholic Encyclopedia, Volume 13, Robert Appleton Company, 1912.
62- Constance B. Bouchard: Burgundy, France in the Middle Ages, Garland Publishers, New York, 1995 .
63- Cortland Canby, Encyclopedia of Historic Places, Facts on File, New York, 1984.
64- Cowdry, H. E. J., Lanfrank: Scientist, Monk and Archbishop, Oxford, Oxford University Press, United Kingdom, 2003.
65- Creighton, M., Epochs of English History, London, 1896.
66- Crosby, Everett U. The King's Bishops: The Politics of Welfare in England and Normandy, 1066-1216. New York: Palgrave Macmillan, 2013.
67- Cyril E. Robinson, A history of England early and Middle Ages to1485 , London,1920.
68- Damian J. Smith, Innocent III and the Crown of Aragon: The Limits of Papal Power, Routledge, London, 2017.
69- Damian Smith, Crusade, Heresy and Inquisition in the Lands of the Crown of Aragon (C. 1167-1276) (Leiden: Brill, 2010.(

70- DAN Jones,The plantagenets:The kings who made England, London,2013.
71- Danbabin, Jean, Henry II and Louis VII in Harper-Bell, Christopher; Vincent, Nicholas (eds.). Henry II: New Interpretations. Woodbridge, England: Boydell Press. 2007.
72- David Bates and Anne Curry, England and Normandy in the Middle Ages,The Hambledon Press, London,1994.
73- David C. Douglas,The Norman Impact upon England, University of California Press,USA,1964 .
74- David Edwards May, Inland Waterways of France. St Ives, Cambridgeshire, UK, Emrai, 2010.
75- David Moyn, King Henry II and the Conflict of 1173-1174 A study of the many aspects, presented in fulfillment of the requirements for the MA in History University of Oslo,2018.
76- David Nicholas, Flanders in the Middle Ages, Longman, New York, 1992.
77- David Nicholas: Medieval Flanders, London and New York, 1996.
78- David, C.W., Robert Curthose of Normandy, Cambridge, 1920.
79- Davis, R.H.C. , King Stephen, 1135-1154. University of California Press, 1967.
80- De Boer Esther, Mary Magdalene Beyond the Myth, translated by John Boden, SCM Publishing House, London, 1997.
81- Dermott McCulloch, A History of Christianity, Penguin Books, London, 2010.
82- Desmond Seward, Eleanor of Aquitaine The MotherQueen of The MiddLe Ages,Pegasus books ,London,1978 .
83- Duby, G., France in the middle Ages 987-1460, from Hugh Capet to Joan of Arc, Trans by Juliet Vole, Oxford, 1996 .
84- E. Kay Harris, Châtillon-sur-Seine, Encyclopedia of Medieval France, Garland Publishers, New York 1995.
85- E. Wyatt Davies, M.A., A History of England, New York, 1916.
86- Edith Samuel R. Gardiner, A Students History of England From the Earliest Times to the Death of King Edward VII, Vol. I., London, 1916 .
87- Edith Thopson, History of England, New York,1873.
88- Editorial Board, Encyclopæ dia Britannica, Encyclopædia Britannica Company, 15th Edition, Chicago, USA, 1974.
89- Editorial Board, Encyclopædia Britannica, Encyclopædia Britannica Company, Chicago, USA, 2006.
90- Edmund King, King Stephen, New Haven, 2010.
91- Edward A. Freeman, The Reign of William Rufus and the Accession of Henry the first, Vol. II, Clarendon Press, London, 1882.
92- Eginhard, Vie de Charlemagne, Trad par/ L. Halphen, paris, 1923.
93- Einar Göransson, Dangeld in France, Augustana Publishing House, USA, 1923.

94- Elizabeth Brown, Woman and Her Chapters in Lord and Mrs Ed, Parsons and Wheeler, Palgrave Macmillan, New York, 2002.
95- Elizabeth M Hallam, Capetian France 987-1328, London and New York, 1980 .
96- Elizabeth m.sewell,Popular History of france from The ear Liest period to The death of Louis XIV,London,1876.
97- Elliot. M. M, The Middle Ages in Britan, Cambridge,1930.
98- Elodie Leschot,The Abbey of saint-Denis and The coronation of The King of france ,Arts Magazine, Switzerland,111,9,2020 .
99- Eljas Oksanen, Flanders and the Anglo-Norman World, 1066–1216, Cambridge University Press,2012.
100- Eyre Evens Crowe, France, Vol. I, London, 1830.
101- F .M . Stenton ,Anglo- Saxon England, The Oxford History of England, Great Britain, 1950.
102- Ferdinand Chalandon, The Norman kingdom of Sicily. The Cambridge Medieval History, V. (Eng: University of Cambridge. 1979.(
103- Ferdinand Lott, Les derniers Carolingiens, Hugues Cabet et Charles de Lorraine, Paris, 1891.
104- Fiona Swabey, Eleanor of Aquitaine: Platonic Love and the Troubadour, London, 2004 .
105- Fontenelle de Vaudore,Histoire Rois ET Des Dugs D,Aquitaine Et Des countes de poitou,france,1842.
106- Foord,EdwardAndHome,Gordon,TheInvasionsofEngland,London,1915.
107- Francis Palgrave,The History Of Normandy And England, Vol, I, London, 1864.
108- Franck Bright, M.A., A history of England, Mediaeval monarchy from the Departure of the Romans to Richard III. 449 –1485, London, 1877.
109- Franck Bright.M.A, A history of England , period I ,meddeval monarohy from the departure of the Romans to Richard III 4491485,waterloo place ,London, 1875.
110- François Neveux & Claire Ruelle. A brief history of the Normans: the conquests that changed the face of Europe. Robinson, 2008.
111- Frank Barlow, The Feudal Kingdom of England 1042-1216, Harlow, UK, 1999.
112- Frank mclynn,Lion heart,Lack Land:king Richard king John and The wars of conquest,London,2007.
113- Franz Funke Brentano, The Middle Ages, translated by Elizabeth O'Neill, William Heinemann Press, London, 1922.
114- Frederic G. Bacshawe , the history of the royal family of England ,vol ,I , London , 1912.
115- Fripp, Robert, Power of a Woman Memoirs of a turbulent life Eleanor of Aquitaine. (Canada: shillingstone press 78 sullivan street, toronto, 2010.(
116- From The Book of Doomsday to the Magna Carta 1087-1216, 2nd ed., Clarendon Press, Oxford, 1955.

117- Fulcher of Chartres, A History of The Expedition to Jerusalem , Trans . Frances Rita Ryan (Sisters of St. Joseph), Tennessee 1969. Robert The Monk , in E. Peters The First Crusade, The Chronicle of Fulcher of Chartres and other Source materials , Philadelphia 1971.
118- G. N. D. Kelley, The Oxford Dictionary of Popes, Oxford University Press, New York, 1988.
119- GABRIELE, M., An Empire of Memory (The Legend of Charlemagne, the Franks, and Jerusale before the First Crusade). Oxford University press, New york, 2011.
120- Gallois La Champagne et Les derniers Carolingiens: Lutte des derniers Carolingiens et des premiers Capétiens, paris, 1853.
121- Gautier Map, Contes pour les gens de cour, Brepols, 1993.
122- Geoffnry de Vinsant, Richard of holy trinity Transfited: A Classical Scholar, Cambridge, Medieval Latin Series, 2001
123- George Schweiger, Honorius II, Papal Encyclopedia, Volume 2, Agents of Gaius. Routledge. 2002.
124- George Townsend Warner, M.A: Landmarks In English Industrial History, London, 1930 .
125- George William Greenaway, English Hitorical Documents Edited by David G. Douglas and George Gremanaway. Vol, 2, London: Eyre and spottis woode, 1953.
126- Gerald Irving Anthony Dare Draper. Reflections on Law and Armed Conflicts: The Selected Works on the Laws of War. Martinus Nijhoff Publishers, 1998.
127- Gervase of Canterbury, opera Historica, history of the reigns of Stephen, Henry II and Richard I Vol., 1, Cambridge University Press, 2014.
128- Gesta Regis Henrici Secundi (The chronicle of the reigns of Henry II and Richard 1 A.D 1169-1192, vol. l, ed. W Stubbs, (London 1867)
129- Gleber (Dr – P – H): Papst Eugen III (1145 – 1153) (Jena 1936.(
130- Goetz, Philip, The New Encyclopædia Britannica, 15th ed., vol. 6, Chicago, USA, 2010.
131- Goodrich Samuel, G., A pictorial history of England, Philadelphia, 1854.
132- Gordons.Wakefield, The Scm Dictionary of Christian Spirituality ,Vol.1,London,1988.
133- Green, J.R., Henry The Second, London, 1889.
134- Groess, A History of England and Greater Britain, New York, 1921.
135- Grumel (V.) "Au seuil de la 11 croisade deux lettres de Manuel comnene au pape", Revue des Etudes Byzantines, Tom. 3, (Paris, 1945).
136- Guest, G., Asocial History of England, London, 1921 .
137- Gustave Masson, France in the Middle Ages from the Reign of Hugo Capet to the Beginning of the Sixteenth Century, Kissinger Publishing Company, London, 2005 .
138- Gusyare Masson, B.A: Mediaeval France from the Reign of Hugues Capet to the Beginning of the Sixteenth Century, London, 1888.

139- Hamilton, Bernard, Medieval Women, ed. Derek Baker; Women in the Crusades: The Queens of Jerusalem. Oxford, Church Historical Society, 1978 .
140- Haskins, C.H, The Norrmans in European History, Cambridge, 1915 .
141- Heather J. Tanner, Brielden, Families, Friends and Allies, Boulogne and Politics in Northern France and England 879-1160, Brielden, Boston, 2004.
142- Heinemann, John Bell, Encyclopedia of France in the Ages, ed. William W., Garland Publishers, New York, 1995.
143- Heinrich Fichtenau, Patrick J. Geary, Living in the Tenth Century: Mentalities and Social Orders ,1991.
144- Helen L. Nicholson, A History of the Third Crusade, Routledge, London, 2019.
145- Henry Hallam,History of Europe during the Middle Ages,Vol.I,The Colonial Press,New York,1900.
146- Henry Leclercq, "Lateran Councils," The Catholic Encyclopedia, ed. Charles Herberman et al., Vol. 9, Robert Appleton Company, New York, 1910 .
147- Henry of Huntingdon, The Chronicle of Henry of Huntingdon comprising the History of England from the invasion of Julius Caesar to the accession of Henry II,Trans by Thomas Forester, London, 1853.
148- Herbert Thurston: Feasts of our Land, the principal Festivals of Blessed Virgin, The Assumption, Annuciation, and Nativity, the Catholic Encyclopedia, Tome, III, London, 1908.
149- Hill, Boyd H. Monarchy in the Middle Ages: The German Empire from Henry I to Henry IV, Volume 21, Routledge Library Series, London,2020.
150- Hill: A History of European Diplomacy, V.I, New York, 1905.
151- Hodgson, Natasha, Women, the Crusades and the Holy Land in Historical Narrative, Boedell Press, England, 2007.
152- Horace K. Mann: Leo IX, Saint pope (1049-54), The Catholic Encyclopedia, Tome. IX, London, 1910.
153- Horace K. Mann: Sergius IV, pope, The Catholic Encyclopedia, Tome, XIII, London, 1913.
154- Houghden, Roger Dee (and Benedict of Peterborough), The Works of King Henry II, ed. William Stubbs, Vol. 1, Longmans, Green, Reader, and Dyer, London, 1867.
155- Hourly History, ELEANOR OF AQUITAINE A Life From Beginning to End,London,2018 .
156- Hubert Burke, Historical Portraits of the Tudor Dynasty and the Reformation Period. vol. 3. London, 1883.
157- Hutton, H.W., Philip Augustus, London, 1896.
158- Hunt Janin & Ursula Carlson, Mercenaries in Medieval and Renaissance Europe, McFarland & Company,2013.
159- J. P. Carr, Feudal Strength, Henry II and the Struggle for Royal Control in England, (Eastern Michigan University 2007).
160- J. Seymour Lucas, Cassell's History of England from the Roman

invasion to the wars of the Roses, Vol. I, London,1909.
161- J.P.Kirsch,John XV, The Catholic Encyclopedia, Tome, VIII, London, 1910 .
162- J.S. Smith, A Chronological History of Canterbury Cathedral (H.S. Clares, 1883).
163- Jacob Abbott, Makers of History William the conqueror, London, 1902.
164- Jacques Madoul, The Albigensian Crusade:A Historical Essay, trans. Barbara Wall, Fordham University Press, New York, 1967.
165- James Cappelli, "A Compendium Against Hieraticus," in The Heresies of the High Middle Ages, trans. Walter L. Wakefield and Austin B. Evans, Columbia University Press, New York, 1969 .
166- James Esquire, G.B.R., The Life of Richard Cor, King of England, Vol. II, London 1874.
167- James m.Ludlow, The Age of The Crusades New york ,1896.
168- James Naus, The Construction of Monarchy: The Capetian Kings of France and the Early Crusades, Manchester University Press, London, 1988.
169- James Noss, The Capetian Kings of France and the Early Crusades, Manchester University Press, London, 2016.
170- James Taylor, The Pictorial History of Scotland, Vol. II, London,1859 .
171- Jaritz, Gerhard; Szende, Katalin, eds,Medieval East Central Europe in a Comparative Perspective. Routledge,2016 .
172- Jarvis Canterbury, The Historical Works of Jarvis Canterbury, edited by William Stubbs, Volume 1, Longman Press, London, 1879.
173- Jason Glenn, Politics and History in the Tenth Century: The Work and World of Richer of Reims ,2004.
174- Jean Mathieu Rosay, They Who Ruled France, Marabou Publishing House, Belgium, 1997.
175- Jervassey of Canterbury, The Historical Works of Jervassey of Canterbury, Vol. 1, ed. William Stubbs, Longman, London, 1878.
176- Jim Bradbury, Philip Augustus, King of France 1180–1223, Routledge Taylor & Ratze Group, London, 1998.
177- Jim Bradbury. The Capetians: Kings of France 987-1328. Bloomsbury Publishing, 2007 .
178- Joel Dorman Steele, Ph.D., F.G.S. & Esther Baker Steele, LIT.D., A brief history of France, New York, 1875 .
179- John D. Hosler, Henry II Amedieval Soldier at War 1147 – 1189, Boston, 2007.
180- John Heine Mundy, Liberty and Political Authority in Toulouse, 1050-1230, Columbia University Press, New York, 1954.
181- John Hill, Strayer, Joseph (ed.). Dictionary of The Crusades. New York: American Council of Learned Studies,1987.
182- John Milton, History of England, John Allisteri, London, 1670. Sharon Turner , F.S.A,R.A.S.L, history of England during the middle ages,vol I , London, 1853.

183- John Milton, The History of England Cotinued to the Norman Conquest, Oxford, 1818.
184- John T. Appleby, John, King of England, Alfred A. Knopf, New York, 1959.
185- John Robert Maddicott, Simon de Montfort, Cambridge University Press, London,1994.
186- John Witte Jr, From Sacrament to Contract: Marriage, Religion, and Law in the Western Tradition, Westminster John Knox Press,2012.
187- Jonathan Sumption, La Croisade des Albigeois, édition Kindle, 1978 .
188- Joseph Adler, The Jewish Encyclopedia: A Descriptive Record of the History, Religion, Literature, and Customs of the Jewish People from the Earliest Times to the Present Day, Funk & Wagnalls, London, 1986.
189- Joseph R. Srayer, The Albigensian Crusades ,The Dial Press,New York 1971.
190- Kazdon (A.B.), The Oxford Dictionary of Byzantines, Volume 1, Oxford, UK, 1994.
191- Karl Shoemaker, Sanctuary and Crime in the Middle Ages, 400-1500, Fordham University Press,2011.
192- Kelly, The Oxford Dicitionary of popes (Oxford 1988).
193- Kinsley, Beverley. The Cistercian Monks, Heresy and the Crusades in Occitania, 1145–1229, York Medieval Press, York, 2001.
194- Kirsch, Ioannes Petrus. "Papa Ioannes XV," Encyclopaedia Catholica, Vol. 8. Novi Eboraci: Robert Appleton Company, 2017.
195- Koehner, H., Encyclopedia of the Papacy, Peter Owen House, London, 1959.
196- L. F. Salzmann, Henry II, New York, 1914, p.122.
197- Lady Calcott, Palm Sunday, W. Birch High Street, London, 1840.
198- Lamonte, j., the world of the middle ages.appleton century crofts, new york, 1949.
199- Lane – Poole , "Germany, 1125 – 1152" in Camb. Med. Hist. Vol., V, London, 1980.
200- Laurence W. Marvin, The Occitan War: A Military and Political History of the Albigensian Crusade, 1209-1218, Cambridge University Press, Cambridge ,2008.
201- Lavisse, Ernest, Histoire De France, 3 vol. (Paris, 1901).
202- Lippiatt, Jim, Simon V of Montfort and Baronial Government 1195–1218, Oxford University Press, Oxford, 2017.
203- Little, Lester K., Religious Poverty and the Economy of Profit in Medieval Europe, Cornell University Press, New York, 1978.
204- Louis Halphen, Charlemagne et L'empire Carolingien, paris, 1968.
205- Magna Carta of King John, AD 1215, Translated into English, From an original in the British Museum, by Cotton MS. London, 1629.
206- Malcolm Barber, Cathar Heretics and Dualists in High Medieval Languedoc, 2nd ed., Pearson Education Ltd., New York, 2000.

207- Marcus Cooper and illustrations by Peter Dennis, Cathar Castles Forts of the Albigensian Crusade 1209–1300, Osprey Press, New York, 2006.
208- Mark M. Epstein, "Clothing, Judaism," in Medieval France, eds. William Keppler and Grover Zinn, Garland Publishers, New York, 1995
209- Maurice Keen, The Laws of War in the Late Middle Ages, Routledge & Kegan Paul, London ,1965.
210- McGowen, Tom, William the Conqueror Last Invader of England, Enslow Publishers, United State of America ,2008.
211- meade, marion, Eleanor of Aquitaine, A biography (U.S.A, 1991).
212- Merriam-Webster Staff, Webester "New Geographical Dictionary, 1998.
213- Michael Costin, The Cathars and the Cathar Crusade, Manchester University Press, New York, 1997.
214- Michael ott: Innocent III, Pope, The Catholic Encyclopedia, Tome. VIII, London, 1910.
215- Moore, W.G., The Penguin Encyclopedia of places, New York, 1978.
216- Mullany: Innocent III, American Catholic Quarterly Review, Tome, XXXII, Philadelphia, 1907.
217- Nicetas, Chonitas, Historia in corpus scriptorium Historiae, Byzantinae Bonne, 1835 1835.
218- Nicholas, David, Flanders in the Middle Ages, Routledge, 1992.
219- Norman F, Cantor, Civilization of the Middle eags, Harper, 1993.
220- Norris Herbert, Church Garments: Their Origin and Development, J. M. Dent, London, 1949.
221- Odilo Engels, Al Stauffer, 7th ed., Kohlhammer Verlag, Stuttgart, 1998.
222- Odo of Deuil, De Profectione ludovici VII in Orientem, the Journey of Louis VII to the east trans (by) Berry (Virginia, G) (New York, 1947).
223- Oman, c, the dark ages,harvard college library, london, 1901.
224- Oscar Cullmann, Peter Disciple Apostle, Martyr, Westminster, 1962.
225- Owen, D.D.R, Eleanor of Aquitaine: Queen and Legend. (Oxford, uk: Blackwell, 1993 .(
226- Painter, S., The Rise of the Foudal Monarchies, New York, 1954.
227- Painter, S., The Third Crusade, New York, 1948.
228- Penelope Ann Adair, "Constance of Arles: A Study in Duty and Frustration," in Capetian Women, ed. Kathleen Nolan ,New York: Palgrave Macmillan, 2003 .
229- Penelope Ann Adair, "Constance of Arles: A study in Duty and Frustration". In Nolan, Kathleen (ed.). Capetian Women. Palgrave Macmillan,2003.
230- Percy Van D. S., English and French in England1066 - 1100 , Philadelphia,1921.
231- Pernaud, R., Eleanor of Aquitaine, Coward McCann, New York, 1968.
232- Pernoud, Regine, Eleanor Of Aquitaine, translated by wiles, (NewYork:Coward- McCann, 1987.(
233- Perry (V.G.): "The second crusade", in setton: History of the crusade,

vol. II. (Philadlphia, 1955.(
234- Peter Rex,William The Conqueror The Bastard Of Normandy, Amberley Publishing plc,UK,2011.
235- Peter W. Edbury, The Conquest of Jerusalem and the Third Crusade, Ashgate, England, 1998.
236- Peter Zindes, Heinrich VI, The Scientific Book Society, Berlin, 1993.
237- Philip (B), Life and Work in Medieval Europe, London, 1942.
238- Philip Schaff; David Schaff, History of the Christian Church, Charles Scribner & Sons, New York, 1885.
239- Philippe Contamine, War in the Middle Ages, translated by Michael Jones, Blackwell Publishing Limited, Oxford, UK, 1999.
240- Pierre champion, Histoire De France, Moyen Age er Renaissance, Flammarion, 1934 .
241- Pierre de Vaux-Cernay, Historia Albigensiensis, traduit par Pascal Jobin et Ernest Léon, Tome II, Paris, 1926-1939 .
242- Plaidy, Jean, The courts of Love: The story of Eleanor of Aquitaine, (New York: Three Rivers Press, 2006) .
243- Pool Austin, L., From Domesday book to Magnacarta 1087-1216, Oxford, 1955.
244- Potter, Robert Henry, et al., Royal Politics in the Eleventh and Old Ages: A Critical Study of Documentation, Institute for Slave Studies, London, 1958.
245- Priviti-Orton, Charles William, A History of Europe from 1198 to 1378, Volume 3, Methon House, London, 1938.
246- Privitt Orton C.W., Concise History of the Middle Ages, Cambridge University Press, 1929.
247- Quoted in: Elisabeth Van Houts ,The Normans in Europe, Manchester University Press ,New York,2000.
248- Quoted in: H.W.C,Davis , England Under The Norman And Angevins 1066 - 1272, Mathuen & Co, Ltd, London, 1949 .
249- R. Tanner et al., The Cambridge History of the Middle Ages, Vol. 3, Cambridge University Press, London, 1922.
250- R.thomas McDonald/ William W.Clark: Dreux, Medieval France an Encyclopedia, par william w. kibler, New York and London, 1995.
251- Rachel A. Koestler-Graco, Eleanor Aquitaine, the heroine of the Middle Ages, Chelsea Publishing House, London , 1973.
252- Ralph Johannes Lilly, Byzantium and the Crusades 1096-1204, translated by J. C. Morris and J. E. Readings, Clarendon Press, London 1999 .
253- Rees, Simon "King Richard I of England Versus King Philip II Augustus". Military History Magazine. 2006.
254- Reginaldus de Dammartin, Notre-Dame de Chartres, translated by Richard Barton, Center for Medieval Studies at Fordham University, 1998.
255- Rev. Cooper, A History of England from Ancient Times to the Present, E. Newberry, London, 1788 .
256- Richard Davies, Records of the Crusades, George Bell & Sons, London

1892.
257- Richard de Devizes et Geoffroy de Vinsouf, Les Croisades, trad. Lord John Dee, Henry G. Bone, Lunders, 1848.
258- Richard Freeman Johnson, St. Michael the Archangel in Medieval English Mythology, Boydell Press, 2005
259- Richard K. Emerson, Key Figures in Medieval Europe, New York Encyclopedia, Routledge, 2006.
260- Riley-Smith, Jonathan, The First Crusaders, 1095–1131, Cambridge University Press, London, 1997 .
261- Robert of Torigni, Records of the Reigns of Stephen, Henry II and Richard I, edited by Richard Howlett, Rawls Series, Volume IV, Longman, London, 1889.
262- Robert Southey, LL.D,the early naval history of England,Philadelphia: Carey,Lea ,and Blanchard, 1835.
263- Robert, Hoyt Stanley chodorow, Europe in the Middle Ages, United States of America, 1976.
264- Roger Collins, Charlemagne, Macmillan, London, 1998.
265- Roger of Hoveden, Annals of the History of England and Other Countries in Europe from 732 to 1901, Vol. 1, H. G. Bohn, York Street, Covent Garden, London, 1181.
266- Roger of Hoveden, Annals of the History of England and Other Countries in Europe from 732 to 1901, Vol. 2, H. G. Bohn, York Street, Covent Garden, London, 1181.
267- Roger of Wendover, The Flowers of History, Volume 1, translated from the Latin by J. A. Giles and Henry G. Boone, London, 1849 .
268- Rowe (I.G.) The papacy and the Greeks (1122-1153)", Church history 28, (Rome, 1959.(
269- Russell, Frederick H. Just War in the Middle Ages, Cambridge University Press, New York, 1975.
270- S. G. Goodrich, A pictorial history of England, Philadelphia,1854 .
271- Saidney Painter, Ahistory of the Middle Ages, 284-1500, New York, 1954.
272- Samuel Rawson Gardiner, A Student's History of England, Vol. I, New York, 1916.
273- Sara Cockerill, Eleanor of Aquitaine Queen of France and England,Mother of Empires,London,2019.
274- Sarah Orne Jewett, The story of the Normans told chiefly in relation to their conquest of England, New York,1895.
275- Schutz, h., the carolingians in central europe, their history, arts and architecture: (cultural history of central europe, 750-900).brill leiden, boston, 2004.
276- Sean Martin, The Cathars: The Most Successful Heresy of the Middle Ages, Shelton, Aylesbury, Bucks Books, 2005.
277- Sean McGlynn, Kill Them All: Cathars and Massacres in the Anti-

Catharian Crusade, History Publishing Ltd., 2015.
278- Seward, Eleanor of Aquitaine, Queen Mother, Newton Abbott, Eng.: David and Charles, 1978.
279- Simpson, Jacqueline; Rod Stephen, A Dictionary of English Folklore, Oxford, New York: Oxford University Press, 2001.
280- Slocombe, George, William the Conqueror, G. P. Putnam's Sons, New York,1961.
281- Smith, William, A New Classical Dictionary of Greek and Roman Biographies, Mythology and Geography, John Murray, London, 1850 .
282- Smollett, M. D., A Complete history of England from the descent of Julius Caesar to the treaty of Aix la Chapelle, 1748, Vol. III, London, 1758.
283- Stefan Kuttner, Legal Reference (1140-1234), Vatican City, Rome, 1937.
284- Strayer, Joseph R. The Albigensian Crusades, The Dial Press, New York, 1971.
285- Susan Coventry, The King's Daughter, Henry Holt & Company, LLC, New York, 2010.
286- Swaby, F., Eleanor of Aquitaine: Platonic Love, and the Troubadour, Greenwood's Guides to Medieval Historical Events, Greenwood Press, London, 2004 .
287- Swards Kelly, Makers of World History, 2nd ed., St. Martin's Press, New York, 1995.
288- T.F. Tout: The Empire and the papacy, London, 1924.
289- The Arnold Harris Mathew life and times of Hildebrand, Pope Gregory VII, London, 1910.
290- The Journals of Roger de Hoffden, edited by William Stubbs, Vol. 1, Longmans, London, 1868.
291- Theodore Andrea Cook,The Story of Rouen, J.M. Dent & Co., London,1899.
292- Thierry,Augustin,History of the Conquest of England by the Normans its Causes and its Consequences, in England, Scotland, Ireland, & on the Continent, Vol. I, London,1847 .
293- Thomas Madden, The New Short History of the Crusades, Rooman and Littlefield, London, 2006.
294- Thomas Oestreich: Gregory VII, Saint pope, The Catholic Encyclopedia, Tome, VI, London, 1919.
295- Thomas Pownall Boultbee, A history of the Church of England Pre-Reformation Period, London, 1879.
296- Thomas S. Beeson, The Crown of Aragon in the Middle Ages: A Short History, Clarendon Press, Oxford, 1986.
297- Toby Purser, Medieval England 1042-1228 (illustrated ed.), Heinemann, 2004.
298- Turner, Sharon, A History of England from the Earliest Times to the Death of Elizabeth, Volume 4, Longman, London, 1839 .

299- W. H. Margetson, Chassell's History of England from the Roman invasion to the wars of the Roses, Vol. I, London, 1909.
300- W. L Warren, Henry II, (London: Eyre Methuen, 1973.
301- W. L. North, Letter No. 48 from Pope Eugene III to King Louis VII of France (December 1, 1145), J. B. Meijn Edition, 180, Paris, 1855.
302- W. Scott Jesse, Robert of Burgundy and Counts of Anjou, c. 1025-1098, Catholic University of America Press, Washington, 2000.
303- W.L. North, Letter XLVIII of Pope Eugenius III to King Louis VII of France (1 December 1145), paris: the edition of J-P. Migne, 180, 1855 .
304- Wace ,His Chronicle of the Norman Conquest from Roman De Rou ,translated by: Edgar Taylor, London,1837.
305- Walter L. Wakefield, Heresy, Crusade, and Inquisition in Southern France, 1100-1250 University of California Press, Berkeley, CA: 1974.
306- Warren, W. L., King John, London, 1978.
307- Washington & Mark Wilks, The Three Archbishops Lanfranc – Anselm –A'Becket, London, 1859.
308- White Kennett and Oters, A Complete history of England with the lives Kings and Queeens from the earliest account of time to the death of His late Majesty King William III, Vol. I, London, 1706.
309- William (F) , the Carolingians: A Family Who Forged Europe, London, 1972 .
310- William Chester Jorda, The French Monarchy and the Jews from Philip Augustus to the Last Capetians, University of Pennsylvania Press, All rights reserved Printed in the United States of America ,1989.
311- William Grimshau, History of England from the First Invasion by Julius Gaesar to the Accession of Victoria, philadephia,1847.
312- William Grimshaw, A History of England from the First Invasion of Julius Caesar until 1850, Philadelphia, USA, 1851 .
313- William Grimshaw, History of England from the first invasion by Julius Cesar to the Year Eighteen Hundred and Fifty prizing every political event worthy of Remembrance a progressive view, Philadelphia,1851.
314- William holden hutton, William Holden Hatton, Philip Augustus, Macmillan & Co. Ltd., New York, 1896.
315- William Hunt, The English Church in the middle ages, London, 1888 .
316- William M. Aird, Robert Curthose, Duke of Normandy: C. 1050-1134, (The Boydell Press, 2008.)
317- William of Newburgh, The Church Historians of England, Vol IV, Part II, Trans. by Joseph Stevenson, (London Seeley's 1861.(
318- William of Newburgh, The history of English Affairs, Edited with translation and commentary by P.G. Walsh and M.J. Kennedy. Book 1 (warminster, 1988 .(
319- William of Tudela, The Song of the Cathar Wars: A History of the Albigensian Crusade, trans. Janet Shirley, Ashgate, New York, 1996.
320- William Poilioren, The Albigensian Crusade and Its Aftermath, Boydell

Press, London, 2003 .
321- William W, Clark Medieval Cathedrals. Greenwood Publishing, 2006 .
322- William W. Clark: Leon, Medieval France an Encyclopedia, par/ william w. kibler, london, 1995.
323- Williams, George L. Papal Genealogy: The Families and Descendants of the Popes. McFarland & Co., 1998.
324- Wlater Map, De Nugis Curialium (Courtiers' Trifles). Edited and translated by Frederick Tupper and M.B. Ogle (London, 1961).
325- Z. N. Brooke, M. A, Gregory VII and the first contest between Empire and Papacy, The Cambridge Medieval History, V.5, Cambridge, 1926.
326- Zbigniew Dalewski, Ritual and Politics Writing the History of a Dynastic Conflict in Medieval Poland, Boston, 2008.
327- Zinn, Grover A. "Evo of Chartres" in Medieval France, Medieval France: An Encyclopedia, eds. William W. Kepler and Grover A. Zinn, Garland Publishers, New York, 1995 .

ج- الكتب باللغة الاسبانية

1- Castellano, Gaspar, Chronicle of the Crown of Aragon, Salvador Hermanos Printing House, Zaragoza, Spain, 1919.

خامساً ـ الكتب العربية والمعربة:

١- التوراة
٢- ابن الأثير ، الكامل في التاريخ، ج ٩،ج١٠،ج١٢، دار الكتب العلمية، بيروت ، ٢٠٠٨ .
٣- --------- ، التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية بالموصل ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، د.ت .
٤- ابن الجوزي ، مرآة الومان في تاريخ الأعيان ، ج٨ ، حيدر آباد ، ١٩٥١.
٥- ابن العبري، تاريخ مختصر الدول ، ط٢، دار الرائد اللبناني، بيروت ١٩٩٤.
٦- ابن العديم، زبدة الحلب من تاريخ حلب ،ج٢ ، دار الكتاب العربي ، دمشق ، ١٩٩٧،
٧- ابن القاضي شهبة، الكواكب الدرية في السيرة النورية ، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة: سهيل زكار، ج٢٣، دار الفكر، دمشق ، ٢٠٠٠.
٨- ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت ، ١٩٠٨.
٩- ---------- ، تاريخ دمشق ، دار حسان، دمشق ، ١٩٨٣.
١٠- ابن جبير، رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، د.ت، ص ٢٤٩.
١١- ابن حوقل ، صورة الأرض، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٩٢ .
١٢- ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ،ج٥ ، دار الكتب العلمية، بيروت ، ٢٠١٠.
١٣- ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية سيرة صلاح الدين، تحقيق: جمال الدين الشيال، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٤.
١٤- ابن عساكر ، تراجم من تاريخ دمشق ، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، ج ١١ ، ترجمة: سهيل زكار، دار الفكر، دمشق ، ٢٠٠٠.
١٥- ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية في السيرة النبوية تاريخ السلطان نور الدين محمود بن زنكي ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، ١٩٧١ .
١٦- ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٢ ، دار الحديث ، القاهرة ٢٠٠٦.
١٧- ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج٢ ، مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة، ١٩٥٣.

١٨- ابو شامة ، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، ج٢، ج٤، تحقيق: محمد حلمي محمد ، القاهرة ، ١٩٥٦.
١٩- ابوعبيدة البكرى، جغرافيا الأندلس وأوربا من كتاب المسالك والممالك، تحقيق: عبد الرحمن على الحجي، دار الارشاد للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت، ١٩٦٨ .
٢٠- أحمد الشامي، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٥٨.
٢١- ---------- ، صلاح الدين والصليبيون تاريخ الدولة الأيوبية، مكتبة النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩١.
٢٢- احمد بن علي الحريري، الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين، تحقيق : سهيل زكار، مكتبة الملاح ، دمشق ، ١٩٨١.
٢٣- احمد صالح عبوش ، قادة الاصلاح والتشريع في العالم عبر التاريخ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ٢٠١٩.
٢٤- احمد علي اسماعيل ، دراسات في جغرافية المدن ، دار الثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٥.
٢٥- أحمد بن عبد الله الزغيبي، العنصرية اليهودية وآثارها في المجتمع الإسلامي والموقف منها،ج٢، مكتبة العبيكان، الرياض ، ١٩٩٨ .
٢٦- اديب مصلح، مختارات مريمية، منشورات المكتبة البولسيه، بيروت، ٢٠٠٩.
٢٧- ارنست باركر، الحروب الصليبية، ترجمة: السيد الباز العريني، ط٢، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ، ١٩٩٧.
٢٨- أسامة زكي زيد، الصليبيون وإسماعيلية الشام في عصر الحروب الصليبية، الهيئة العامة المصرية للكتاب، الإسكندرية، ١٩٨٠.
٢٩- إسحاق عبيد ، روما وبيزنطة من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتيني لمدينة قسطنطين ٨٦٩ – ١٢٠٤ ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ١٩٧٠.
٣٠- اسحق تاوضروس عبيد ، روما وبيزنطة من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتيني لمدينة قنسطنطين ٨٦٩ – ١٢٠٤ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٠.
٣١- اسماعيل سرهنك ، حقائق الاخبار عن دول البحار، ج٣ ، المطبعة الاميرية ببولاق مصر، القاهرة ، ١٨٩٨.
٣٢- أسمت غنيم، العلاقات البيزنطية الألمانية أثناء الحملة الصليبية الثانية في ضوء وثائق كينا، الفنية لطباعة والنشر، دمشق ، ١٩٨٧.
٣٣- امام الشافعي محمد حمودي ، أشرف صالح محمد سيد، الانحراف الجنسي في عصر الحروب الصليبية ١٠٩٥ – ١٢٩١، دار البشير للثقافة والعلوم ، الاردن، ٢٠١٨ .
٣٤- أميريكو كاسترو ، حضارة الإسلام في إسبانيا، ترجمة : سليمان العطار، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٣
٣٥- أنوار الرفاعي، الإسلام في حضارته ونظمه، دار الفكر، دمشق، ٢٠١٣ .
٣٦- انور محمود زناتي، قاموس المصطلحات التاريخية (اسلامي – وسيط – حديث ومعاصر) ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ٢٠٠٧ .
٣٧- أودو أوف دويل، رحلة لويس السابع إلى الشرق، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ،ج٧ ، ترجمة : سهيل زكار ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٩٥
٣٨- اينهارد ، سيرة شالرلمان ، ترجمة : عادل زيتون ، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٨٩.
٣٩- أيوب الطيب، صلاح الدين والطوق الحجري من كليرمونت إلى حطين، يسطرون للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٧.
٤٠- البابا شنوده الثالث، تأملات في عيد الصعود، ط٤، سلسلة نبذات للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٣.
٤١- السيد الباز العريني ، تاريخ اوربا في العصور الوسطي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع ،القاهرة ، ١٩٨٩.

٤٢- بيار باكو مارسيل، بيارميوت جاك راينال رنيه، موسوعة تاريخ أوروبا العام، ج١، ترجمة : أنطوان الهاشم، منشورات عويدات، بيروت، ١٩٩٥.
٤٣- تاكيتوس ، الشعوب الجرمانية، ترجمة : ابراهيم طرخان ، دار الضياء ، القاهرة ، ١٩٥٩. محمد مرسي الشيخ، الممالك الجرمانية في اوروبا العصور الوسطى ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٧٥ .
٤٤- تيسير بن موسى ، نظرة عربية على غزوات الإفرنج من بداية الحروب الصليبية حتى وفاة نور الدين ، الدار العربية للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٣.
٤٥- جابر محمد ، دراسات في التاريخ الروماني ، دار التعليم الجامعي ، الاسكندرية ، ٢٠٢٣.
٤٦- جر يصائي ، عادات الحفلات والهدايا في عيد الميلاد ، ورأس السنه ، والغطاس ، مجلة الآثار ، بيروت ، ج١ ، ١٩١١.
٤٧- جميس رستون، مقاتلون في سبيل الله صلاح الدين الايوبي وريتشارد قلب الاسد والحملة الصليبية الثالثة، ترجمة: رضوان السيد،مكتبة العبيكان، الرياض، ٢٠٠٢.
٤٨- جوزيف داهموس، سبع معارك فاصلة في القرون الوسطى، ترجمة: محمد فتحي الشاعر، ط٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،١٩٩٢.
٤٩- جوزيف نسيم يوسف، تاريخ العصور الوسطى الأوروبية وحضارتها، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، ١٩٨٤.
٥٠- جون لوريمر، تاريخ الكنيسة، ترجمة: عزرا مرجان، ج٤، دار الثقافة القاهرة، ١٩٨٨.
٥١- جيمس رستون الابن ، مقاتلون في سبيل الله ،صلاح الدين الايوبي وريتشارد قلب الاسد والحملة الصليبية الثانية، ترجمة: رضوان السيد، مكتبة العبيكان، الرياض، ٢٠٠٢.
٥٢- حبيب غزالة، جزيرة رودس جغرافيتها وتاريخها وآثارها، مؤسسة هنداوي، القاهرة، ٢٠١٧.
٥٣- حسام الدين ابراهيم عثمان ، موسوعة مدن العالم ، دار العلوم للنشر والتوزيع ، الاردن ، ٢٠١٤
٥٤- حسن حبشي، ذيل وليم الصوري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٢.
٥٥- حسن فهد حماد ، موسوعة الآثار التاريخية ، دار أسامة للنشر، عمان ، ٢٠٠٣.
٥٦- حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام ، الزهراء للإعلام العربي ، القاهرة ، ١٩٨٧.
٥٧- خليل احمد خليل، ملحق موسوعة السياسة، دار الفارس للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠٠٤.
٥٨- دينس مونيقورس، تاريخ ملوك فرنسا من مبدأ ملكهم إلى الملك لويز فيليب ، ترجمة : حسن قاسم، مدرسة الألسن، د.ت .
٥٩- رأفت عبد الحميد ، قضايا من تاريخ الحروب الصليبية ، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية ، القاهرة ، ١٩٩٨.
٦٠- روجر أوف ويندوفر ، ورود التاريخ، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ، ج٣٩ ، ترجمة: سهيل زكار ، دار الفكر ، دمشق ، ٢٠٠٠.
٦١- روزنتال، ب . يودين، الموسوعة الفلسفية، ترجمة: سمير كرم ، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، د.ت.
٦٢- ريتشارد سليفان، ورثة الامبراطورية الرومانية (الغرب الجرماني – العالم الإسلامي – الدولة البيزنطية) ترجمة : جوزيف نسيم يوسف ، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع ، الاسكندرية ، ١٩٨٥.
٦٣- زبيدة عطا ، بلاد الترك في العصور الوسطى ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، د . ت .
٦٤- زيدان جرجى زيدان، رحلة جرجي زيدان إلى أوروبا ١٩١٢، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، ٢٠١٠.
٦٥- زينب عبد القوي، الانكليز والحروب الصليبية ١١٨٩ – ١٢٩١، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، القاهرة، ١٩٩٦.
٦٦- سامي بن عبدالله المغلوث، أطلس الحملات الصليبية على المشرق الإسلامي في العصور الوسطى، شركة العبيكان للأبحاث والتطوير، الرياض ،٢٠٠٩.

٦٧- ستيفن رانسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج١، ترجمة : السيد الباز العريني ، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، عمان ، ١٩٩٧.
٦٨- ستيفن رانسيمان، تاريخ الحملات الصليبية ، ترجمة: نور الدين خليل ، ط٢، الاسكندرية ، ١٩٩٨ ، ص٢٩٥-٢٩٧ .
٦٩- ستيفن رانسيمان، تاريخ الحملات الصليبية، ترجمة: نور الدين خليل،ج٢، ج٣، ط٢، الإسكندرية، ١٩٩٨.
٧٠- ستيفن هوراث ، فرسان الهيكل القصة الأساسية ، ترجمة : إبراهيم محمد إبراهيم ، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ، ٢٠١٣ .
٧١- سعد خليل الشعيبات، مصادر تمويل الحملات الصليبية ٤٨٨-٦٤٨ هـ/١٠٩٥-١٢٥٠م، الناشر: الآن ناشرون وموزعون، عمان، ٢٠٢١
٧٢- سعيد احمد برجاوي، الحروب الصليبية في المشرق ، دار الافاق الجديدة ، بيروت ، ١٩٨٤ .
٧٣- سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ج٢، المكتبة الانجلو مصرية ، القاهرة ، ٢٠٠٩.
٧٤- ---------- ، موسوعة الثقافة التاريخية والأثار الحضارية ، حضارة أوروبا في العصور الوسطى، ج ٢، دار الفكر العربي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ، ٢٠٠٦.
٧٥- ---------- ، الجامعات الاوروبية في العصور الوسطى، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠٠٦.
٧٦- سعيد عبد الفتاح عاشور، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٦.
٧٧- سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ، تواريخ أسرة بلانتغنت ،ج٣٠ ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٩٨.
٧٨- سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، ج٣،ج١٠، ج٣١،ج٣٢، ج٣٩ ، دار الفكر ، دمشق، ١٩٩٥.
٧٩- السوري ميخائيل، روايات ميخائيل السوري الكبير، الموسوعة الشامية، ج٥،ترجمة: سهيل زكار، دمشق، ١١٩٥.
٨٠- سيد علي الحريري، الاخبار السنية في الحروب الصليبية ، ط٢،الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ١٩٨٥.
٨١- شارل حلو وآخرون، موسوعة أعلام الفلسفة العرب والأجانب، ج١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢.
٨٢- شهاب الدين النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، ج٢٧ ، تحقيق: مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د.ت.
٨٣- شوقي ابو خليل ، بلاط الشهداء بواتييه بقيادة عبد الرحمن الخافقي ،ط٢، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٩٨٠.
٨٤- طالب محيبس حسن الوائلي، العاهل والبارون ملامح الحياة البرلمانية في بريطانيا ١٠٦٦ – ١٩٤٩، رند للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠١١.
٨٥- عادل زيتون ، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، ج١ ، دار دمشق، ١٩٨٠ .
٨٦- عادل زيتون، تاريخ العصور الوسطى الأوروبية، ط٤، مطبعة الروض ، دمشق، ١٩٨٢ .
٨٧- عادل عبد الحافظ حمزة، العلاقة السياسية بين الدولة الأيوبية والامبراطورية الرومانية المقدسة زمن الحروب الصليبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠١ .
٨٨- عادل عبد الحافظ عثمان شحاته، العلاقات السياسية بين الإمبراطورية الرومانية المقدسة والشرق الإسلامي ١١٥٢ – ١٢٥٠ ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ١٩٨٩.
٨٩- عادل عبد السلام ، جغرافية سورية العامة ، جامعة دمشق ، دمشق ، ١٩٩٦.
٩٠- عبد العزيز عبد الرحمن المسلم ، مدائن الريح رحلات في العالم ، دار السويدي للنشر والتوزيع،

ابو ظبي، ٢٠١١ .
٩١- عبد العظيم رمضان، الصراع بين العرب وأوربا من ظهور الإسلام إلى انتهاء الحروب الصليبية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٣.
٩٢- عبد القادر احمد اليوسف ، العصور الوسطى الاوروبية ٤٧٦ – ١٥٠٠ ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٩٦٧.
٩٣- عبد اللطيف عبد الهادي السيد، رؤية جاك دي فاري الأسباب فشل المشروع الصليبي في بلاد الشام، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠١٣.
٩٤- عبد المنعم ماجد، الدولة الايوبية في تاريخ مصر الإسلامية، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٧.
٩٥- عزيز سوريال عطية، الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب ، ترجمة : فيليب صابر سيف، دار الثقافة، القاهرة، د.ت .
٩٦- عزيزة فوال بابتي ، موسوعة الإعلام العرب والمسلمين والعالميين ، ج٣ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠٠٩.
٩٧- علي رمضان فاضل ، ريتشارد قلب الأسد فارس أوروبا الأول، الدار العالمية ، الجيزة، ٢٠١١.
٩٨- علي محمد الصلابي ، القائد المجاهد نور الدين محمود زنكي شخصيته وعصره ، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة ، ٢٠٠٧.
٩٩- ---------- ، السلطان الشهيد عماد الدين الزنكي شخصيته وعصرة، مؤسسة أقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، ٢٠٠٧.
١٠٠- ---------- ، صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس، دار المعرفة، بيروت ، ٢٠٠٨.
١٠١- ---------- ، الدولة الزنكية، المكتبة العصرية ، دمشق ، ٢٠٠٧.
١٠٢- علية الجنزوري ، موسوعة الثقافة التاريخية والأثار الحضارية ، البابوية والإمبراطورية الرومانية ، ج٤ ، دار الفكر العربي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ، ٢٠٠٦ .
١٠٣- علية عبد السميع الجنزوري، إمارة الرها الصليبية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، ٢٠٠١ .
١٠٤- عماد الدين الاصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق: محمد محمود صبح، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، ١٩٦٥.
١٠٥- غريمال بيار وآخرون، موسوعة تاريخ أوروبا العام ، ترجمة : أنطوان الهاشم ، ط١، منشورات عويدات ، بيروت ، د . ت.
١٠٦- فاروق عمر فوزي، محسن محمد حسين، تاريخ فلسطين في العصر الاسلامي الوسيط ٦٣٤ – ١٥١٧، دار الشروق، الاردن، ١٩٩٩.
١٠٧- فاضل محمد الحسيني ، آفاق الحضارة العربية الإسلامية ، دار الشروق للنشر والتوزيع ، الاردن ، ٢٠٠٦.
١٠٨- فراس البيطار، الموسوعة السياسية والعسكرية، ج٦، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠٠٣.
١٠٩- فولففانغ فيز، القلاع أيام الحروب الصليبية، ترجمة: محمد وليد الجلاد، ط٢، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٤.
١١٠- قاسم عبد قاسم، الحملة الصليبية الأولى نصوص ووثائق، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، القاهرة ، ٢٠٠١.
١١١- قتيبة الشهابي ، صمود دمشق أمام الحملات الصليبية ، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٨.
١١٢- القس أثناسيوس المقاري، الزمن الطقسي بين عيدي النيروز والصليب ، دير القديس أنبا مقار الكبير ببرية شيهيت، القاهرة ، ٢٠٠٩ .
١١٣- كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة: نبيه أمين فارس، ط٥، دار العلم للملايين،

بيروت، ١٩٦٨
١١٤-كينيا موس يوحنا ، أعمال يوحنا ومانويل كومنيوس ، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، ج٢٨ ، ترجمة: سهيل زكار ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٩٧ ، ص ٢٦ .
١١٥-لودولف فون سوخم ، وصف الأرض المقدسة ، ج٣٧ ، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة : سهيل زكار ، دار الفكر العربي للطباعة والنشر ، دمشق ، ١٩٩٩.
١١٦-مجموعة من المؤلفين ، الموسوعة العربية العالمية ، ج١٠ ، ج٢٧، ط٢ ، مؤسسة اعمال للنشر والتوزيع ، الرياض ، ١٩٩٩
١١٧-مجموعة من المؤلفين ، كتاب المعرفة، مدن ومدنيات، شركة تراد كسيم ، جنيف، ١٩٨٧.
١١٨-محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، ج٢ ، دار صادر، بيروت ، ١٩٩٩.
١١٩- محمد جمال مبارك ، دور الشعوب الجرمانية في حضارة الغرب بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية ، مجلة كلية الآداب ، جامعة بور سعيد ، العدد ٢٧ ، ٢٠٢١ .
١٢٠-محمد حمزة حسن، لبنى رياض عبد المجيد، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار غيداء للنشر والتوزيع، الاردن ، ٢٠١٥.
١٢١-محمد سهيل طقوش، تاريخ الحروب الصليبية (حروب الفرنجة في المشرق ١٠٩٦ - ١٢٩١)، دار النفائس، ٢٠١١.
١٢٢-محمد صادق الكرباسي، دائرة المعارف الحسينية معجم المشاريع الحسينية ، ج٢ ، المركز الحسيني للدراسات ، لندن ، ٢٠١٥ .
١٢٣-محمد عبد النعيم ، تاريخ اوروبا في العصور الوسطى ، دار الثقافة العربية ، القاهرة ، ٢٠٠٦ .
١٢٤-محمد محمد مرسى الشيخ ، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، الدار العربية للنشر والتوزيع ، القاهرة، ٢٠٠٠.
١٢٥-محمد مؤنس عوض، معجم اعلام عصر الحروب الصليبية في الشرق والغرب ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ٢٠٢٣ .
١٢٦- ---------- ، الحروب الصليبية والعلاقات بين الشرق والغرب في القرنين ١٢ و ١٣، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠٠.
١٢٧-محمود سعيد عمران ، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في عهد الإمبراطور مانويل الأول ١١٤٣ – ١١٨٠ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٥.
١٢٨- ---------- ، تاريخ الحروب الصليبية ١٠٩٥ – ١٢٩١ ، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، القاهرة، ٢٠٠٠.
١٢٩- ---------- ، الحملة الصليبية الخامسة، حملة جان دى بريين على مصر ١٢١٨ - ١٢٢١م/ ٦١٥ -٦١٨ هـ، الإسكندرية، ١٩٨٥.
١٣٠-محمود سعيد عمران، معالم تاريخ أوربا في العصور الوسطى ، القاهرة، ١٩٨٦.
١٣١-ماثيو كار، الدين والدم إبادة شعب الأندلس، ترجمة : مصطفى قاسم، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة ، أبو ظبي ، ٢٠١٣ .
١٣٢-مريم محمد هاشم البغدادي ، شعراء التروبادور، دار تهامة للنشر والتوزيع ، جدة ، المملكة العربية السعودية ، ١٩٨١.
١٣٣-مسعود جبيران، المعجم الرائد، ط٧ ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٩٢.
١٣٤-مصعب حمادي نجم ، الصليبيون في بلاد الشام ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ، ٢٠١٣.
١٣٥-مفيد الزيدي ، موسوعة الحروب الصليبية (الاسباب – الحملات – الآثار)، دار اسامة ، الاردن ، ٢٠٠١.
١٣٦- ---------- ، موسوعة تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ٤٧٦ – ١٥٠٠، ج١،ط٣، دار أسامة للنشر والتوزيع، الاردن، ٢٠٠٩.
١٣٧-المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢، تحقيق: محمد عبد القادر، دار الكتب العلمية،

بيروت، ١٩٩٧.
١٣٨-مكسيموس مونروند ، تاريخ الحروب المقدسة ، ج٢، ترجمة : مكسيموس مظلوم ، القدس ، ١٨٦٥.
١٣٩-مؤرخ مجهول، الحرب الصليبية الثالثة صلاح الدين وريتشارد، مجموعة أوراق جمعها: وليم ستابز، ترجمة: حسن حبشي، ج١، ج٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠.
١٤٠-موريس بيشوب ، تاريخ اوربا في العصور الوسطى ، ترجمة : علي السيد علي ، المجلس الاعلى للثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٥ .
١٤١-موريس ميتير لينك، مريم المجدلية، ترجمة: مصطفى كامل خليفة، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٦.
١٤٢-موسى محمد آل طويرش،التطورات الديمقراطية في بريطانيا ١٠٦٦- ١٩٠١ ، دار المعتز للنشر والتوزيع ، عمان ، ٢٠١٦.
١٤٣-مونيقورس، تاريخ ملوك فرنسا من مبدا ملكهم الى الملك لويز فيليب، ترجمة :حسن قاسم ، مطبعة بولاق، القاهرة، د . ت.
١٤٤- ميخائيل السوري الكبير ، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، ج٥، ترجمة: سهيل زكار، دار الفكر، دمشق ، ٢٠٠٠.
١٤٥- ميخائيل زابوروف ، الصليبيون في الشرق ، ترجمة : إلياس شاهين ، دار التقدم، موسكو ، ١٩٨٦.
١٤٦-ناظم عبد الواحد الجاسور، موسوعة علم السياسة، دار مجدلاوي، عمان، ٢٠٠٩.
١٤٧-نظير حسان سعداوي ، تاريخ انكلترا وحضارتها في العصور القديمة والوسطى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٨ .
١٤٨- نعيم فرح، تاريخ اوروبا السياسي في العصور الوسطى،ط٣، منشورات جامعة دمشق، دمشق، ٢٠٠١ .
١٤٩-نور الدين حاطوم ، تاريخ العصر الوسيط في اوروبا من أواخر العصر الروماني إلى القرن الثاني عشر ، ج١ ، ج٢، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٨٢.
١٥٠-نور الدين خليل، قاموس الأديان الكبرى الثلاثة: اليهودية والمسيحية والإسلامية، مراجعة: محمود آدم، مؤسسة حورس الدولية للطباعة والنشر، الإسكندرية، ٢٠٠٨.
١٥١-نورمان أن كانتور، التاريخ الوسيط ، قصة حضارة البداية والنهاية ، ترجمة: قاسم عبده قاسم ،ج٢، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، القاهرة ، ١٩٩٧.
١٥٢-هـ . أ . ل . فشر، تاريخ أوربا العصور الوسطى، ترجمة: محمد مصطفى زيادة ، السيد الباز العريني، ط٦، دار المعارف، القاهرة ، د.ت .
١٥٣-هـ . ج . ولز ، معالم تاريخ الإنسانية ، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد ، مج ٣ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٤ .
١٥٤-ها دريل، ج.م والاس، أوروبا في صدر العصور الوسطى، ترجمة:حياة ناصر الحجي، ج١، مؤسسة الصباح، الكويت ، ١٩٧٩.
١٥٥-هانس ابرهارد ماير ، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: عماد الدين غانم، ط٢ ، دار المدى للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ٢٠٠٩.
١٥٦-هنري كارلس ديفز، اوروبا في العصور الوسطى ، ترجمة : عبد الحميد محمود ، منشأة المعارف، الاسكندرية، ١٩٥٨.
١٥٧-ول وايريل دنيورانت ، قصة الحضارة، ج٤، ج١٤ ، ترجمة : محمد بدران، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٨٨.
١٥٨-وليم الصوري ، الحروب الصليبية ، ج٣ ، ترجمة : حسن حبشي ، الهيئة المصرية العامة لكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٤.
١٥٩----------- ، تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ، ج٧،ترجمة: سهيل زكار ، دار الفكر، دمشق ، ١٩٩٥

١٦٠-وليم شوملي ، مقدمة في الليتورجيا ، منشورات المعهد الامريكي ، واشنطن ، ٢٠٠٩ .
١٦١-وليم لانجر ، موسوعة تاريخ العالم، ج٢ ، ترجمة : محمد مصطفى زيادة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، د .ت .
١٦٢-ياقوت الحموي، معجم البلدان ، ج ٣، ج٤، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٧.
١٦٣-يان دوبراتشينسكي، اوروبا والمسيحية (الألفية الاولى) ، ترجمة : كبرو لحدو ، دار الحصاد ، دمشق ، ٢٠٠٧ .
١٦٤-يعقوب الفيتري ، تاريخ بيت المقدس ، ترجمة: سعيد البيشاوي ، دار الشروق للنشر والتوزيع ، الأردن ، ١٩٩٨.
١٦٥-يوسف نكادي، مباحث في تاريخ غرب المتوسط في العصر الوسيط ، دار الكتب المحدودة، لندن ، ٢٠١٨.

سادساً ـ الدراسات والبحوث الاكاديمية باللغتين العربية واللغات الأخرى:

أ- البحوث والدراسات باللغة الفرنسية واللغات الاخرى :

1- Constance B. Bouchard, Consanguineous and Aristotelian Marriage in the Tenth and Eleventh Centuries, Speculum, Vol. 56, No. 2, April 1981.
2- Digelman, Lindsay, "Marriage as a tactical response: Henry II and the royal wedding of 1160". English Historical Journal, Vol. 119, No. 483 (September 2004).
3- Doussat, Yves, « La société méridionale à la veille de la croisade des Albigeois », Journal d'histoire et de littérature du Languedoc, vol. I, Paris,1945.
4- Doussat, Yves, « Le clergé dans le Sud à la veille de la croisade des Albigeois », Journal d'histoire et de littérature du Languedoc, vol. I, Paris, 1944.
5- Doussat, Yves, « Le comté de Toulouse et le féodalisme languedocien à la veille de la croisade des Albigeois », Journal du Tarn, vol. IX, Paris, 1943.
6- Doussat, Yves, « Les Cathares et les Vaudois à la veille de la croisade des Albigeois », Journal d'histoire et de littérature du Languedoc, vol. II, Paris, 1945.
7- George T.Beech,TheEleanor of Aquitaine vase-WilliamIX of Aquitaine ,and Muslim spain,chicago Jourals,published by university of chicago,voL32,no1,1993.
8- J. F. A. Mason, The Conqueror's Companions, The English Historical Journal, Vol. 71, United Kingdom, London, 1956 .
9- Jean-François Vinot, Quelques aspects de l'art militaire sous le règne de Philippe Auguste, Gladius, Études archéologiques et militaires, vol. 6, 1967.
10- Mews, Constant J., "Negotiating Gender Boundaries in Religious Life: Robert Darbressel and Hersend, Abelard and Eloise," Viator, Vol. 37, University of California Medieval and Renaissance Studies Center, 2006.
11- Poirel, Dominique, Hugo Saxo, The Germanic Origins of the Thought of Hugh de Saint-Victor, Revue de France, Vol. 33, No. 1, Stuttgart: Jan Thorbeck Verlag, 2006.
12- Richard Benjamin, The Forty Years' War: Toulouse and the Plantagenets, 1156-1196, Institute of Historical Research, Vol. 61, No. 146, 1988.

ب- البحوث والدراسات باللغة العربية :

١- ابتسام سلمان سعيد، المعارضة في انكلترا من العهد الأعظم حتى عهد الإصلاح الديني ١٢١٥-١٥٠٩، مجلة إكليل للدراسات الإنسانية، كلية التربية للبنات، جامعة بغداد، العدد ١٥، ٢٠٢٣.

٢- أخنوخ المقاري، طقس عيد القيامة المجيد، دار مجلة مرقس، القاهرة، ٢٠١٢؛ جرجس فيلوثاوس ، مجلة الهلال ، مج٢ ، ج١ ، ١٨٩٤.

٣- أميرة مصطفى أمين يوسف ،اليانور دوقة أكتين وملكة فرنسا ثم إنكلترا (١١٢٢ – ١٢٠٤)، حوليات مركز البحوث والدراسات التاريخية ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ٢٠١١.

٤- إيمان عبد التواب جسنين، تبعية إنكلترا الإقطاعية لبابوية روما (١٠٦٦- ١٢١٦)،مجلة الدراسات الإنسانية، جامعة كفر الشيخ، كلية الآداب، العدد ٢٨، ٢٠٢٣.

٥- جمال فاروق الوكيل، دور فرنسا فى مواجهة التحالف الانجليزي الألماني في معركة بوفين ١٢١٤م، المجلة العلمية بكلية الآداب، جامعة قناة السويس، العدد ٥٢، ٢٠٢٣.

٦- حسن حبشي ، نور الدين والصليبيون ، دار الفكر العربي للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، د.ت .

٧- حسنين عبد الكاظم عجه ، سنوات الفوضى في إنكلترا بين صراع الغرباء ومصائب الإنكليز الحرب الأهلية الإنكليزية ١١٣٩– ١١٥٤،مجلة لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية، مج ١١، ج١، العدد ٣، ٢٠١٩.

٨- ---------- ، التحولات السياسية والدينية التي شهدتها بلاد الغال مطلع العصر الوسيط، المؤتمر العلمي الدولي الأول، مجلة كلية التربية،مج ٦، العدد ٤١، ٢٠٢١ .

٩- ---------- ، ملك انكلترا وليام الثاني الأحمر ١٠٨٧ – ١١٠٠ انموذجاً للاستبداد في تأريخ اوربا الوسيط ، مجلة واسط للعلوم الانسانية ، مج ١٥ ، العدد ٤٣ ، ٢٠١٩.

١٠- حسنين عبد الكاظم عجه ومحمد حليم سالم، معركة بوفين أسبابها وقائعها ونتائجها، مجلة كلية التربية، جامعة واسط، العدد ٢٨، مج ١، ٢٠١٧.

١١- حيدر خضير مراد اليساري، غي دي لوزينيان ودوره في الحروب الصليبية في الشرق الإسلامي (١١٨٠ – ١١٩٤)، مجلة الباحث، كلية التربية، جامعة كربلاء، مج ٤٣، العدد٢، ج١، ٢٠٢٤.

١٢- ربيع حيدر طاهر الموسوي، مواد العهد الأعظم (ماجنا كارتا) لسنة ١٢١٥م دراسة تاريخية تحليلية، مجلة أورك للعلوم الإنسانية، جامعة الكوفة، كلية الآداب، العدد٣، مج٥، ٢٠١٢.

١٣- ريا رياض حمود السعدون، اليهود والاضطراب السياسي في روما ١١٣٠-١١٣٨، مجلة كلية التربية ، جامعة واسط ، مج ١ ، العدد١٥، ٢٠١٤.

١٤- زينب عبد القوي، اليانور دوقة أكوتين "مرآة أوربا بالقرن الثاني عشر" ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، الجيزة ، ٢٠٠٩.

١٥- سعيد السيد علي فرغلي، وليم مارشال إيريل بمبروك ودوره السياسي في عصر آل بلانتاجنت ١١٦٧- ١٢١٩، مجلة مركز الخدمة للإستشارات البحثية، كليّة الآداب، جامعة المنوفية، العدد ٥٦، مج ١٩، ٢٠١٧.

١٦- سمير عطا ، الأسبارتية وفرسان المعبد ، مجلة الفيصلية ، العدد ٣٦٧ ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، المملكة العربية السعودية ، ٢٠٠٧.

١٧- شفيق جاسر احمد محمود ، الحروب الصليبية : جذورها ، دوافعها ، وأسباب نجاح الحملة الاولى ، داره الملك عبد العزيز، مج ١٥ ، العدد ٢، الرياض ، المملكة العربية السعودية،

١٩٨٩.
١٨- شيماء رزاق شاكر، موقف الامبراطور البيزنطي مانويل الأول كومنينوس ١١٤٣- ١١٨٠ من الحملة الصليبية الثانية، مجلة مركز دراسات الكوفة ، جامعة الكوفة ، كلية الطب ، ج٢ ، العدد ٧٣ ، ٢٠٢٤.
١٩- صفاء محمد صديق خليل، صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد ما بين الحرب ودبلوماسية السلام ٥٨٧-٥٨٨هـ/١١٩١-١١٩٢م، مجلة كلية الآداب، قسم التاريخ، جامعة سوهاج، مج٧٢، العدد٧٢، ٢٠٢٤.
٢٠- عبد اللطيف عبد الغني مشرف، القوى البحرية في حوض البحر المتوسط من القرن السادس عشر حتى منتصف القرن السابع عشر، دار البشير للثقافة والعلوم، جدة، ٢٠٢٥.
٢١- عطية حسين محمد، عشر صلاح الدين وأصوله التاريخية في غرب أوروبا ومملكة بيت المقدس، مجلة المؤرخ المصري، العدد ٦، ١٩٩١.
٢٢- علي أحمد السيد، دور ليوبولد الخامس دوق أوستريا (النمسا) في الحملة الصليبية الثالثة وتداعياتها (١١٨٩-١١٩٤/ ٥٨٥-٥٩٠هـ)، مجلة الإنسانيات، كلية الآداب فرع دمنهور، جامعة الإسكندرية، العدد ٢١، ٢٠٠٥.
٢٣- علي الغامدي، أنطاكيا في عصر الحروب الصليبية (٤٩١-٦٦٦هـ / ١٠٩٨-١٢٦٨م)، جامعة أم القرى، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، ١٩٩٧.
٢٤- غسان محمود وشاح وجمال أجمد أبو ريدة، الأمير بهاء الدين قراقوش ودوره في تثبيت أركان حكم السلطان صلاح الدين الأيوبي ١١١٦- ١٢٠١، مجلة دراسات في التاريخ والآثار، العدد ٦٦، ٢٠١٨.
٢٥- فاطمة عبد الطيف الشناوي ،انتهاك حقوق سكان فيتري تحكم حكم الملك لويس السابع ملك فرنسا، مجلة كلية الآداب، جامعة طنطا، كلية الآداب ،ج١،العدد٢١ ،٢٠٠٨ .
٢٦- فوزي خالد الطواهية، الأمير سيف الدين علي المشطوب الهكاري ودوره العسكري في الدولة الأيوبية (٥٦٤/ ٥٨٨هـ / ١١٦٨-١١٩٢)، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، مج ١٤، العدد ٣ ، ٢٠٢٠.
٢٧- كريمة سعيد حسين محمد، بواكير الحركة الصوفية في العصر المدرسي "القديس برنارد دي كليفو نموذجًا "، مجلة كلية التربية، جامعة الإسكندرية، مج١١، العدد١، ٢٠٢٣.
٢٨- ليلى عبد الجواد إسماعيل، أضواء على الأكراد الهكارية في عصر صلاح الدين الأيوبي، مجلة كلية الآداب، العدد ٦١، ١٩٩٤.
٢٩- مجلة الفيصلية، صقلية صور وحكايات، العدد ٢١٧، ١٩٩٤.
٣٠- محمد جمعه محمد ، اسواق كونتية شامباني الموسمية في المملكة الفرنسية خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، مجلة سوبك للدراسات التاريخية والحضارية ، كلية الآداب، جامعة الفيوم ، العدد ٣ ، ٢٠٢٢ .
٣١- محمد دسوقي حسن، هيو الثالث دوق برجنديا ودوره في الحملة الصليبية الثالثة ١١٨٩- ١١٩٢، مجلة وقائع تاريخية، مركز البحوث والدراسات التاريخية، جامعة القاهرة، كلية الآداب، العدد ٢٦، ٢٠١٧.
٣٢- محمد مرسي الشيخ، الفتح النورماني لإنكلترا ملحمة فريدة في تاريخ إنكلترا ونورمانديا في العصور الوسطى، ندوة التاريخ الاسلامي والوسيط، مج٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣.
٣٣- نجلاء حسين محمد توفيق، الحضانة الملكية في عهد هنري الثالث الإنكليزي (١٢٢٦ – ١٢٧٢) مجلة كلية الآداب، جامعة أسيوط، العدد٣٠، ٢٠٢٤.

٣٤- هاني مهدي راتب، دوافع مذبحة الرهائن المسلمين في تل العياضية قبالة عكا في آب ١١٩١، دراسة تاريخية مقارنة بين المصادر الإسلامية والصليبية والسريانية، مجلة كلية الآداب بالوادي الجديد، العدد ١٧، ٢٠٢٣.

٣٥- هبه محمد عكاشة ، تأثير العمارة الإسلامية على العمارة القوطية الفرنسية ، مجلة العمارة والفنون والعلوم الانسانية ، كلية الفنون التطبيقية ، جامعة بنها ، مج ٩ ، العدد ١١ ، ٢٠٢٤ .

٣٦- ياسر كامل محمود ، الكمائن الإسلامية ودورها في العمليات العسكرية ضد الصليبيين في الشرق اللاتيني ١٠٩٦ – ١١٩٣ ، مجلة وقائع تاريخية ، كلية الآداب ، جامعة الوادي الجديد ، العدد ٣٦ ، ٢٠٢٢.

٣٧- يوسف عبد الحميد بن ناجي، القرصنة وأثرها في التواصل الحضاري، الفايكنج النورمان انموذجاً ٧٨٩ – ١١٩٤، مجلة المؤرخ العربي ، العدد ٢٩ ، مج ٢، ٢٠٢١ .

٣٨- يعقوب صروف ، مجلة المقتطف ، باب الزراعة ، ج١ ، مج ٣٣ ، ١٩٠٨.

سابعاً ـ الشبكة العالمية للمعلومات (النت) :

١- البابا شنوده الثالث، قاموس المصطلحات الكنسية، موقع الأنبا تكلا هيمانوت، تراث الكنيسة القبطية الارثوذكسية .
https://st-takla.org/Coptic-Faith-Creed-Dogma

٢- موقع الأنبا تكلا هيمانوت ، تراث الكنيسة القبطية الأرثوذكسية
https://st-takla.org/pub_oldtest/Arabic-Old-Testament-Books/06-Joshua/Sefr-Yasho3-Chapter-05.html

Republic of Iraq

Ministry of Higher Education and Scientific Research

University of Wasit / College of Education for Humanities

Department of History

The Policy of France During the Reign of the House of Capet (1137 – 1223)

A Dissertation Submitted by the Student

Mishaan Hoshan Moujed Al-Rufaie

To the Council of the College of Education for Humanities / University of Wasit, as part of the requirements for obtaining a PhD in Modern History

Supervised by

Professor Dr.

Talib Muhaibis Hassan Al-Waeli

1447 AH 2026 AD

Abstract

The historical epoch spanning from the accession of Louis VII in 1137 to the death of his son, Philip II Augustus, in 1223 constitutes a pivotal juncture in the history of the European West in general, and the French Kingdom in particular. To comprehend the depth of the transformations during this era, one must revisit the roots established by the Treaty of Verdun in 843, which partitioned Charlemagne's legacy and led to the decline of Carolingian authority under the weight of chaos and Viking incursions. From this turbulence emerged the dukes and counts as the actual protectors of the land, paving the way for the rise of Hugh Capet in 987. The Capetian dynasty thus inherited a throne burdened with challenges; France was merely a collection of discordant feudal states, where the King possessed no effective authority beyond his limited Royal Domain (Paris and its environs), besieged by major regional powers such as Normandy, Aquitaine, and Flanders, whose rulers owed him only a theoretical feudal allegiance.

This study derives its significance from highlighting how the French monarchy, through the reigns of Louis VII and Philip Augustus, managed to escape this geopolitical bottleneck. The reign of Louis VII (1137–1180), who ascended to the throne by chance with a religious and monastic upbringing, began in the face of a political storm. Despite his strategic marriage to Eleanor of Aquitaine, which theoretically doubled his kingdom's size, the failure of the Second Crusade (1147–1149) and subsequent tensions led to the "catastrophic divorce" of 1152. This separation was a political earthquake that transferred the allegiance of the vast Duchy of Aquitaine to Henry II Plantagenet, the future King of England. This shift created the "Angevin Empire," which encircled the French monarchy from the west and north, resulting in a disparity where the King of England held more territory within France than the French King himself. Faced with this imbalance, Louis VII adopted a policy of "strategic resilience" and soft power. He invested in religious legitimacy and an alliance with the Papacy to offset his military weakness, employing a diplomacy of patience by supporting rebels against Henry II and solidifying alliances with the House of Champagne. Although sometimes characterized as weak, Louis VII succeeded in ensuring the kingdom's survival amidst turbulent waves, laying the foundations of "Royal Ideology" for his successor.

Abstract .....

The reign of Philip II Augustus (1180–1223) arrived to harvest the fruits of his father's patience, effecting the greatest turnaround in the history of the monarchy. Distinguished by political cunning and military firmness, Philip exploited internal rifts within the Plantagenet family between Henry II and his sons, Richard and John. His efforts culminated in decisive military victories, most notably the Battle of Bouvines in 1214, which broke the back of hostile alliances and enabled the recovery of Normandy, Anjou, and Maine, quadrupling the size of the Royal Domain. Philip was not merely a military victor but the primary "Architect of the State." He transitioned the monarchy from the concept of "Feudal Suzerainty," based on personal loyalties, to "Absolute Sovereignty." He orchestrated a comprehensive administrative revolution by establishing central judicial and financial apparatuses, appointing royal bailiffs to administer provinces, founding the National Archives to record Crown rights, and fortifying Paris as a true capital. Thus, the history of this era is the story of the birth of the centralized state from the womb of feudal chaos.

This study is driven by the hypothesis that the existential challenge posed by the rise of the Angevin Empire was not a destructive factor, but the primary catalyst that compelled French kings to adopt graduated strategies—evolving from maneuvering and church alliances under Louis VII to offensive centralization under Philip Augustus. This dynamic conflict dismantled the traditional feudal structure and replaced it with state sovereignty. To verify this hypothesis, the research addresses key questions regarding the geopolitical consequences of the divorce of 1152, the utilization of religious legitimacy as a political tool, the effectiveness of Louis VII's "diplomacy of patience," and the strategic significance of the Battle of Bouvines. It further examines the administrative revolution led by Philip Augustus and how the recovery of Normandy and Anjou impacted the royal economy and the prestige of the Crown.

Structurally, the dissertation is organized into an introduction and four interconnected chapters. The first chapter, "Internal Policy of France under Louis VII (1137–1180)," analyzes the early Capetian approach, the impact of the marriage to and divorce from Eleanor, and policies regarding the Jews and internal administration. The second

chapter, "External Policy of France under Louis VII (1145–1178)," examines the Second Crusade, the escalation of the conflict with Henry II, and French intervention in the Thomas Becket affair and the rebellions of Henry's sons. The third chapter, "Internal Policy of France under Philip II Augustus (1180–1223)," covers his consolidation of power, the Albigensian Crusade, and his structural reforms in administration, justice, and education, highlighting the rise of the University of Paris. The fourth chapter, "External Policy of France under Philip Augustus (1189–1217)," details the conflict with Richard the Lionheart during and after the Third Crusade, the war against King John, and the climactic victory at Bouvines, concluding with the attempted invasion of England.

The research relies on a critical analysis of a wide range of primary sources—French, English, Latin, and Arabic—including the chronicles of Odo of Deuil and Rigord's Gesta Philippi Augusti. It engages with modern historiography, comparing the works of historians such as Elizabeth M. Hallam, Achille Luchaire, and Jean Flori to present a balanced historical narrative. The study concludes that this era transformed the French King from a "first among equals" into a supreme authority, ending centuries of weakness and establishing a powerful France that would dominate the European scene in subsequent centuries.